



# موجز تاريخ العالم

تأليف  
ه. ج. ويلز

ترجمة  
عبد العزيز توفيق هاويز

مراجعة  
محمد أمين نجما







# موجز تاريخ العالم

تأليف  
ه. ج. ويلز

مراجعة  
محمد وأمنون نجما

ترجمة  
عبد العزيز توفيق داوود



مكتبة الطبع والنشر  
مكتبة النهضة المصرية  
لأصحابها حسن محمد وأولاده  
٩ شارع صديقا بالقاهرة









- ٢٠٤ الفصل الرابع والأربعون : عهد عظمة العرب  
٢١٠ الفصل السادس والأربعون : الحروب الصليبية وعصر السيادة الباباوية  
٢٨٢ الفصل السابع والأربعون : الأمراء للمعارضون والصنع الأعظم  
٢٣٦ الفصل الثامن والأربعون : فتوح المغول  
٢٤١ الفصل التاسع والأربعون : النهضة الفكرية للأوروبيين  
٢٥٠ الفصل العاشر : إصلاح الكنيسة اللاتينية  
٢٥٤ الفصل الحادي والعشرون : الإمبراطور شارل الخامس  
٢٦٢ الفصل الثاني والعشرون : عصر تجارب سياسية وملكيات عظيمة وبرلمانات  
وجمهوريات بأوروبا  
٢٧٥ الفصل الثالث والعشرون : إمبراطوريات الأوروبيين الجديدة في آسيا وما  
وراء البحار .  
٢٨٠ الفصل الرابع والعشرون : حرب استقلال أمريكا  
٢٨٦ الفصل الخامس والعشرون : الثورة الفرنسية وعودة الملكية في فرنسا  
٢٩٣ الفصل السادس والعشرون : السلم الأوربي للقليل بعد سقوط نابليون  
٢٩٨ الفصل السابع والعشرون : نمو العرفان المادي  
٣٠٧ الفصل الثامن والعشرون : الانقلاب الصناعي  
٣١١ الفصل التاسع والعشرون : تطور الآراء السياسية والاجتماعية المعاصرة  
٣٢٣ الفصل العشرون : امتداد رقعة الولايات المتحدة  
٣٣١ الفصل الحادي والعشرون : ألمانيا تصبح دولة عظيمة  
٣٣٤ الفصل الثاني والعشرون : الإمبراطوريات الجديدة الناشئة وراء البحار بفضل  
السفن البخارية والسكك الحديدية  
٣٤٠ الفصل الثالث والعشرون : العدوان الأوربي على آسيا ونهوض اليابان  
٣٤٥ الفصل الرابع والعشرون : الإمبراطورية البريطانية في ١٩١٤  
٣٤٨ الفصل الخامس والعشرون : عصر التسليح في أوروبا والحرب العظمى ١٩١٤-١٩١٨  
٣٥٤ الفصل السادس والعشرون : النظام الجديد بالروسيا  
٣٦٢ الفصل السابع والعشرون : عصبة الأمم

صفحة

٣٦٧	الفصل الثامن والستون : إخفاق عصبة الأمم
٣٦٩	الفصل التاسع والستون : الحرب العالمية الثانية
٣٩٣	الفصل السبعون : أزمة التكيف البشرى
٣٧٩	الفصل الحادى والسبعون : من ١٩٤٠ إلى ١٩٤٤ القتل البشرى فى أقصى توتره
٤١٤	جدول تاريخى زمنى
٤٢٨	فهرس أبجدى للكتاب

# محتويات الكتاب

صفحة

ز	فهرس الخرائط	
ط	مقدمة للترجم	
م	مقدمة المؤلف	
٣	الفصل الأول	: العالم والقضاء
٦	الفصل الثاني	: العالم والزمان
٩	الفصل الثالث	: بدايات الحياة
١٢	الفصل الرابع	: عصر الأسماك
١٥	الفصل الخامس	: عصر مستنقعات الفعم
١٩	الفصل السادس	: عصر الزواحف
٢١	الفصل السابع	: الطيور الأولى والثدييات الأولى
٢٧	الفصل الثامن	: عصر الثدييات
٣١	الفصل التاسع	: القروود والقردة العليا وأشياء الإنسان
٣٦	الفصل العاشر	: الإنسان النياندرتالي والرويدي
٤١	الفصل الحادي عشر	: الإنسان الحقيقي الأول
٤٥	الفصل الثاني عشر	: الفسك البدائي
٤٩	الفصل الثالث عشر	: بدايات الزراعة
٥٤	الفصل الرابع عشر	: حضارات العصر الحجري الحديث البدائية
٦٠	الفصل الخامس عشر	: سومر ومصر في الصور الأولى ونشأة الكتابة
٦٤	الفصل السادس عشر	: الشعوب للترحلة البدائية
٦٨	الفصل السابع عشر	: أول الشعوب البحرية
٧٣	الفصل الثامن عشر	: مصر وبابل وآشور
٧٩	الفصل التاسع عشر	: الآريون البدائيون

٨٣	الفصل العشرون : الإمبراطورية البابلية الأخيرة وإمبراطورية دارا الأول
٨٩	الفصل الحادى والعشرون : تاريخ اليهود القديم
٩٥	الفصل الثانى والعشرون : كهان وأنبياء فى بلاد اليهودية
٩٩	الفصل الثالث والعشرون : الإغريق
١٠٥	الفصل الرابع والعشرون : الحرب بين الإغريق والفرس
١٠٩	الفصل الخامس والعشرون : بلاد الإغريق إبان مجدها
١١٢	الفصل السادس والعشرون : إمبراطورية الإسكندر الأكبر
١١٦	الفصل السابع والعشرون : متحف الإسكندرية ومكتبتها
١٢١	الفصل الثامن والعشرون : حياة جوتاما بوذا
١٢٦	الفصل التاسع والعشرون : الملك آسوكا
١٢٨	الفصل الثلاثون : كوثوشيس ولاهوتسى
١٣٣	الفصل الحادى والثلاثون : ظهور روما على مسرح التاريخ
١٣٨	الفصل الثانى والثلاثون : بين روما وقرطاجنة
١٤٣	الفصل الثالث والثلاثون : نمو الإمبراطورية الرومانية
١٥٤	الفصل الرابع والثلاثون : بين روما والصين
١٦٠	الفصل الخامس والثلاثون : حياة الرجل العادى فى عهد الإمبراطورية والرومانية القديمة
١٦٦	الفصل السادس والثلاثون : التطورات الدينية فى ظلال الإمبراطورية الرومانية
١٧٢	الفصل السابع والثلاثون : تعاليم يسوع
١٧٧	الفصل الثامن والثلاثون : تطور المسيحية للنهية
١٨٢	الفصل التاسع والثلاثون : البرابرة يسطرون الإمبراطورية إلى شطرين : شرقى وغربى
١٨٧	الفصل الأربعون : الهون ونهاية الإمبراطورية الغربية
١٩٢	الفصل الحادى والأربعون : الإمبراطوريتان البيزنطية والساسانية
١٩٧	الفصل الثانى والأربعون : أسرتا « سوى ، وتانج » بالصين
٢٠٠	الفصل الثالث والأربعون : محمد والإسلام

## موجز تاريخ العالم

### مقدمة المترجم

كان طبعياً وقد ترجمت « للعالم » أن يتجه الفكر إلى شقيقه « للوجز » . ذلك أن « للعالم » ليس سفرًا يسجل التاريخ ويعدّ أحداثه حسب بل هو قوة دافعة تكاد تجعله من صنائع التاريخ ، فهو بما جمع من دعوات ومذاهب وتعاليم من نبات أفكار مؤلفه ، يعد من الصور التي تتحول عندها أحداث هذا الكوكب . وبحسب القارىء ما به من تبصرة لمن حجب عنه البصر بأمور الدنيا ، وتنور لمن أحاطت به سدفة الظلمات ، بحسبه ما فيه من إحاطة شاملة بأحداث هذا الكوكب الذى عليه نعيش ، تعده إقليماً واحداً بل قطراً واحداً ، استغفر الله بل قرية واحدة ، يجب أن يقوم فيها من التكافل والتحاب والتعاطف ما يقوم فى كل ريف ، ويجب أن يزول منه من أسباب الخلاف والتنافر ما يلغى أن يزول من الريف السعيد الذى ترعرع عليه ألوية الوئام . وبحسب القارىء أيضاً ما بالكتاب من نظرة عملية بيولوجية لإنسانية إلى سكان هذه الدنيا ترجو أن تتمهم للسواة والإخاء والصفاء ، فلا أبيض ولا أصفر ولا أسود ولا أحمر ولا استعمارى ولا مستعمر ولا استغلاى ولا مستغل ، بل الكل فى حظ الحياة سواء . والرزق والثمرات وركاز الأرض وخيراتها قسمة بين الجميع ، وقسمة عادلة لا قسمة ضيزى .

كان طبعياً وقد ترجم للعالم بما حوى من ذم لدول الغرب خاصة بريطانيا وفرنسا: ونفى على سوء تدبيرها ، وضيق أفق رجالها وقلة درايتهم بطباع البشر وسوء استغلالهم للموارد البشرية : أقول كان طبعياً أن يتجه الفكر إلى هذا اللوجز الذى تجده بين يديك عسى أن يغيد به من لم يقع كتاب العالم فى يده .

كان هذا اللوجز عندي مذكنت طالباً بمدرسة المعلمين ، تراودنى نفسى على ترجمته وتأبى ظروفى إلا أن تحول دون ذلك . بل لقد حالت الظروف دون مطالعته كله . وإن ألمت به فى بعض ما تيسر لى من وقت الفراغ إلما مات وصلت بين نفسى وبين مؤلفه العظيم إلى أن حانت الساعة السعيدة التى اتصلت فيها به منذ ١٩٤٠ حين

تخرجت المعالم ، غالطت آراء الكاتب منذ ذلك الوقت من مهجة الهم والدم ، وإذا  
حتى قطعة من حيائى الفكرية . وبفضل هذا المؤلف العظيم بات قطعة من حيائى الإيمان  
بالمجلس النيابى الدستورية . وجرى فى العروق مجرى الدم الإيمان بالحرية الفردية  
والحرية العامة ، وذلك فضلا عما كان يخالط الروح بطبيعة الحال من كره الإنجليزى  
الذى كان منذ حداقتنا ينتصب السلطان فى هذا البلد المسكين ، فضلا عما لهجت به  
النفس المصرية مع المؤلف من حقد على الاستعمار والاستثمار الأجنبى والاستغلال :  
استغلال الأجنبى للمصرى واستغلال الثنى للفقير واستغلال الإقطاعى للضعيف .

لا عجب إذن أن تطرب النفس بالعودة إلى هـ . ج . وثر . بعد انقطاع الصلة به  
حقرة ما بين المعالم والشروع فى نقل الموجز ، وزاد من شعور السعادة إحساسى بأنى  
أقرب للقارىء منهلًا جديدًا إن عز عليه فى العالم ارتياده لعظم سعة ، لقد سهل عليه  
فى الموجز وروده ، وسررنى أنى وجدت آراء الرجل فى الكثير من الأخوين مبثوثة  
فى الصغير ، فعلت أنى أقدم لقارىء الحرية أفكار الرجل نفسها فى ثوب موجز أنيق  
يستطيع تناوّلها منه ما عن له وقت فراغ فى ليل أو نهار ، مع يسر المأخذ وقرب  
التناول ، ولا يترك قوله فى مقدمته إن هذا الكتاب ليس خلاصة للعالم . إذ الواقع  
الذى لا مرية فيه أنه خلاصة له نظر إليها من زاوية جديدة . وإلا فقيم طرب المؤلف  
الجليل فى الكتائين كليهما بنشوء الحضارات وإشاداته بالبدائيات التى أثرت فى الثقافة  
والفكر الإنسانى ؟ وانظر إليه فى الكتائين كليهما وهو يلقى البشائر فرحًا بالكتابة  
وصناعة الورق ، ونشوء العلوم الحديثة على أيدى يونان ، وصمود منار العلم البطلى  
بالإسكندرية ، ورفع العرب لواء الحضارة بين المحيطين . وكَم تحزنه الحروب وبشقيّه  
ما تصود به على الإنسانية من دمار ووقوف بدولاب المدينة عن التقدم ، وإذا أهزج  
النصر تتناقل أقدامها حتى لتردد فى الآذان رنات المرائى الفاجعة .

هكذا كان موقف المؤلف فى الكتائين من نابليون ومن غليوم ومن هتلر وكل  
حضيع لجهود البثرية مبد لها فى أنون الحديد والتار . فإن كان القارىء المصرى  
الضيق الوقت يستطيع هذا الكتاب ان يحصل تلك المعلومات ويؤمن بهذه المثل التى  
دعا إليها الإسلام فى أوج جملة الأوهى الحضارة وسائرة ركب التقدم والحرية ودعت  
إليها انتفاضة مصر فى عهد ثورتها الفتنية عام ١٩٥٢ ، فذلك حسبي وقاية ما أرجو .



## فهرس الخرائط

رقم الخريطة	رقم الصفحة	عنوان الخريطة
١	٣٩	خريطة تقريبية لعالم أوروبا وآسيا القربية
٢	٥٧	علاقات الأجناس البشرية
٣	٨٥	العلاقة بين الإمبراطورية لليدية والبابلية الثانية
٤	٨٧	إمبراطورية دارا
٥	٩١	فلسطين
٦	١٤١	امتداد سلطان روما وأحلافها حوالى ١٥٠ ق. م
٧	١٥٧	الإمبراطورية والبرابرة
٨	٢٠٥	اتساع رقعة الدولة الإسلامية فى ٢٥ عاما
٩	٢٠٧	الإمبراطورية الإسلامية سنة ٧٥٠ م
١٠	٢١٤	حدود ممتلكات الفرنجة فى عهد شارل مارتل
١١	٢١٦	أوروبا عند وفاة شارلمان سنة ٨١٤ م
١٢	٢٣٧	إمبراطورية جانشين خان عند وفاته سنة ١٢٢٧
١٣	٢٤٠	الإمبراطورية العثمانية عند وفاة سليمان القانونى ١٥٦٦
١٤	٢٧١	أوروبا الوسطى بعد صلح وستفاليا (١٦٤٨)
١٥	٢٧٧	ممتلكات بريطانيا وفرنسا وأسبانيا وأمريكا فى ١٧٥٠
١٦	٢٨٣	امتداد الاستيطان فى أراضي الولايات المتحدة فى ١٧٩٠
١٧	٢٩٦	أوروبا بعد مؤتمر فيينا
١٨	٢٣٢	أوروبا من ١٨٤٨ إلى ١٨٧١
١٩	٣٣٨	الإمبراطورية البريطانية سنة ١٨١٥
٢٠	٣٥٠	الإمبراطوريات الأوربية وراء البحار يناير ١٩١٤



## مقدمة المؤلف

الفرض من هذا الموجز لتاريخ العالم أن يقرأ من أوله لآخره قراءة سريعة متتابعة كما لو كان إحدى الروايات . إذ يقدم إلى القارئ بأبسط الطرق وأعمها ياتاً بمعارفنا التاريخية الراهنة مجردة من التفاصيل والتعقيدات . كما يراد منه أن يحصل القارئ على تلك الصورة الكلية للتاريخ التي يتكون منها الهيكل الذي لا بد منه عند دراسة حقبة معينة أو تاريخ قطر بالذات . وهو توطئة نافعة تمهد للقارئ الانطلاق بمطالعة شقيقه الأكثر جلاء واستيفاء للوسوم « Outline of History » <sup>(١)</sup> لنفس المؤلف . ومع ذلك فإن القاية الرئيسية منه هي سد حاجة القارئ العادي الكثير المشاغل ، الذي يضيق وقته عن الاطلاع لدراسة تفصيلية لما في « العالم » من خرائط ومصورات زمانية ، والذي يرغب في تجديد ما يبق في مخيلته من صورة زاوية مضحلة للناصرة العظمى للجنس البشرى .

وليس كتابنا هذا ملخصاً « للعالم » ولا صورة مركزة لما فيه . ذلك أن كتاب « للعالم » - في حدود الهدف الذي رسم له - مركز تركيزاً ليس وراءه زيادة لمستزيد ، وكل ما في الأمر ، أن هذا الكتاب تاريخاً أكثر تعمقاً أقام على خطة أخرى وحرر تحريراً جديداً ؟

هـ . جـ . وثر

---

(١) وقد نقله إلى العربية مترجم هذا الكتاب تحت اسم « معالم تاريخ الإنسانية » ونصرته لجنة التأليف والترجمة والنشر .



وفي الكتاب آراء المؤلف قد تخالف رأينا ولكننا أبقيناها في موضعها عملاً بحرية.  
الرأى ومن قيل ذلك ما جاء بالصفحات ١٧٣ و ١٧٦ عن قصة صلب المسيح فقد  
أبقيناها لأنها تمثل وجهة النظر للسيحية ، أما رأى الإسلام في هذه القصة فمرفوف .  
لا يحتاج إلى بيان .

وقد ضبطنا الترجمة على آخر طبعة أصدرها المؤلف قبيل وفاته وأضاف إليها فصلاً  
عن الحرب العظمى الثانية ( أكلنا ما ينقصه من حقائق ) وضمنه أمانيه الخالصة للبشرية .  
عندراً إياها عواقب أخطائها وموضعاً لها سبيل النجاة ؟

عبد العزيز نوفسي جاويد

مصر الجديدة في ١٤ يونيه ١٩٥٨



# موجز تاريخ العالم

( ٢ — تاريخ العالم )





# الفصل الأول

## العالم والفضاء

إن قصة عالمنا لا تزال بتراء يتورها النقص من كل جانب . فإن كل ما كان لدى الناس من معلومات تاريخية قبل زماننا هذا قرنين ، لم يكن مداه يتجاوز الثلاثة آلاف عام الأخيرة . أما ما حدث في العالم قبل ذلك فكان أمراً خصب فيه الأساطير والظنون بسهم وفير ، وكان الناس في شطر كبير من العالم للنحضر ، يعتقدون ويقتنون أن العالم قد خلق على حين بنة في عام ٣٠٠٤ ق.م ، وإن اختلف الثقافات فيما إذا كان ذلك الخلق قد حدث في خريف تلك السنة أو ربيعها ١١ .... وقد قام هذا الوم الحاطيء السيب في دقة تحديده على اللبالة في تأويل « العهد القديم » العبراني ، تأويلا حرقيا أو بالأحرى على اقتراضات وتفسيرات لاهوتية رأبها النعسف ، ولقد نغلى مطبو الأديان منذ أمد بعيد عن مثل هذه الأفكار ، وجمهرة الناس اليوم يرون أن العالم الذي نعيش فيه كان - فيما توحى به جميع الظواهر - موجوداً طوال حقبة هائلة من الزمان ، ربما لم تكن لها بداية ، ومن البدهى أن تلك الظواهر ربما انطوت على شيء من الحقد والتفليل ، على غرار الهيئة اللانهائية التي تترادى لنا عن حجرة وضعت بها مرايا متعاقبة في كل من طرفيها . أما القول بأن العالم الذي فيه نعيش لم يخلق إلا منذ ستة أو سبعة آلاف من الأعوام ، فهو فكرة لا يمكن اعتبارها إلا باطله تماماً .

والأرض ، كما يعرف كل إنسان اليوم ، ذات شكل شبه كروي ، أي أنها كرة مضغوطة قليلا على نمط البرقالة ، ذات قطر طوله ثمانية آلاف من الأميال تقريبا . وكان شكلها الكروي معروفا لدى عدد يسير على الأقل من نجباء الناس ، منذ قرابة ٢٥٠٠ سنة ، ولكن الناس كانوا قبل ذلك الزمن يظنون أنها منبسطة ، كما كانوا يذهبون في شأن علاقاتها بالجو والنجوم والكواكب السيارة مذاهب شتى تبدو اليوم غريبة . ونحن اليوم نعرف أنها تدور حول محورها ( الذي هو أقصر من قطرها الاستوائى بأربعة وعشرين ميلا تقريبا ) مرة في كل أربعة وعشرين ساعة ، وأن ذلك هو السبب في تمايز الليل والنهار ، وأنها تتم دورة كاملة حول الشمس مرة في كل

عام في مدار يضاوى منحرف قليلا ومشير خيرا بسيطا . ويتراوح بعدها عن الشمس ، بين واحد وتسعين مليونا ونصف للمليون من الأميال في أقرب أوضاعها ، وبين أربعة وتسعين مليونا ونصف للمليون من الأميال .

وتدور من حول الأرض كرة أصغر حجما ، هي القمر ، على مسافة متوسطها ٢٣٩٠٠٠ ميل . وليست الأرض والقمر الكتلتين الوحيدتين اللتين تسبحان حول الشمس . فهناك كذلك من الكواكب السيارة ، عطارد والزهرة ، على بعد ٣٦ ، ٦٧ من ملايين الأميال ؛ وفيها وراء مدار الأرض وبضئ النظر عن منطقة من أجرام كثيرة أصغر حجما ، هي السيارات الصغرى ( الكويكبات ) Planetoide ، يوجد للريخ والمشتري وزحل وأورانوس ونبتون على أبعاد متوسطها ١٤١ ، ٤٨٣ ، ٨٨٦ ، ١٧٨٢ مليون ميل على التتابع ، ولا شك أن من السير على الأنهام تصور هذه الأرقام القدرة بملايين الأميال . وربما يسر الأمر على خيال القارئ تصغير حجم الشمس والكواكب إلى مدى أصغر يكون أدنى إلى التصور .

فلذا نحن على هذا الاعتبار صغرنا الأرض إلى كرة قطرها بوصة واحدة ، وجب أن تكون الشمس كرة كبيرة ذرع قطرها تسعة أقدام وعلى بعد ٢٣٣ ياردة ، أى ما يقارب خمس ميل تستغرق أربعاً أو خمسا من الدقائق مشيا على الأقدام ، وعند ذلك يكون القمر في حجم حصاة صغيرة على بعد قدمين ونصف من الأرض . ثم يأتي بين الأرض والشمس الكوكبان الداخليان ، عطارد والزهرة ، على بعد ١٢٥ ياردة ، ٢٣٣ ياردة من الشمس . ثم ينهض من حول هذه الأجرام فراغ يمتد حتى يبلغ للريخ وهو وراء الشمس بـ ٩٠٠ ياردة ، والمشتري وهو على ما يدانى الليل ، وقطره قدم واحدة ، ثم يحمى زحل وهو أصغر قليلا وعلى مسافة ميلين ، فأورانوس على أربعة أميال ، ثم نبتون على ستة أميال . ثم تأتي اللاشبية والعدم لولا بعض جزئيات صغيرة وقطع متفتلة من البخار الخفيف تمتد إلى آلاف من الأميال ، ويكون أقرب نجم من الأرض على هذا القياس نفسه على بعد ٥٠٠٠٠ ميل .

وربما أعانك تلك الأرقام على تكوين صورة عن الحواء الدريع الذى يعم الفضاء الذى فيه تتوالى مسرحية الحياة .

ذلك أننا في كل هذا الحواء الدريع الذى يعم الفضاء لا نعلم يقينا بوجود الحياة

إلا على سطح أرضنا ، تلك الحياة التي لا تقص في باطنها لأكثر من ثلاثة أميال من الأربعة الآلاف التي تفصلنا عن مركز كرتنا الأرضية ، كما أنها لا تميل إلى أكثر من خمسة أميال فوق سطحها . وكل ما يبقى بعد ذلك من فضاء لا حده ولا نهاية يشكون — حسبا يبدو — من خواء وعدم .

وأصمق ما بلغه الغوص في أعماق المحيطات هو خمسة أميال . كما أن أعلى ما سجله الطيران من ارتفاع في طباق الجو لم يتجاوز الأربعة أميال إلا قليلا . ، حقا إن الإنسان قد صعد في الجو إلى سبعة أميال بالمناطيد ، إلا أنه كابد في سبيل ذلك آلاما ذرية . ولا يستطيع طائر أن يرتفع إلى خمسة أميال ، إذ أن صفار الطيور والحشرات التي حملتها الطائرات تفقد وعيها قبل بلوغ ذلك المستوى من الارتفاع .

# الفصل الثاني

## العالم والزمان

ذهب العلماء في السنوات الخمسين الأخيرة مذاهب شتى ومجتمعة في تقدير عمر الأرض وأصلها . ولسنا ندعى ههنا أننا سندلى بموجز لتلك الآراء ، وذلك لانتطائها على أدق الاعتبارات الرياضية والطبيعية ، والحق أن العلوم الطبيعية والفلكية لا تزال حتى الآن بسيدة عن الاكتمال بعداً يجعل كل ما بذل في مضارها مجرد افتراضات تخمينية . والانجاء العام للعلماء يجنب كل يوم إلى زيادة العمر للقدر للأرض . وأرجح تقديراتهم الآن أن الأرض كان لها وجود قائم بذاته ككوكب دوار يواصل الدوران حول الشمس لأكثر من بليونين ( ٢٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠ ) من السنين . وربما كانت المدة أطول من ذلك كثيراً ، ولكنها مئة يعجز الخيال تماماً عن تصورها .

ولعل الشمس والأرض والكواكب الأخرى التي تدور حول الشمس كانت قبل تلك الفترة السقاية من وجودها للنفسل دوامة هائلة من اللادة للتشرية في الفضاء . ويكشف لنا الرقب ( التلسكوب ) في أجزاء مختلفة من السماوات عن غمامات لولبية منيرة من اللادة ، هي السدم الحلزونية التي تبدو في دوران مستمر حول مركز . ويظن كثير من علماء الفلك أن الشمس وكواكبها السيارة كانت يوماً أحد تلك السدم الحلزونية ، وأن مادتها قد تحولت بالتركز إلى شكلها الحالي ، وتواصل ذلك التحول التركيزي دهوراً هائلة حتى أصبحت الأرض وقرها بميزين في تلك الحقبة البعيدة من الماضي السحيق ، الذي ترجمناه بالأرقام ، وكانا يدوران آنذاك بسرعة أكبر من سرعتيما الحالية ، إذ كان بعدها عن الشمس أقل ؛ لذلك كانا يسبحان حولها بسرعة أشد ، ولعلهما كانا عند ذلك متوهجين أو منصهرى السطح ، وكانت الشمس نفسها شعلة في السماء أكبر كثيراً مما هي عليه الآن .

ولو أننا استطعنا أن نحترق آماد ذلك الزمان السرمدي ، لنرى الأرض في تلك المرحلة المبكرة من تاريخها لشهدنا منظراً أشبه بياطن أتون الصهر ، أو سطح

دافق من اللافا<sup>(١)</sup> للنصهرة قبل أن تبرد وتتصلب - منه بأي مشهد آخر معاصر .  
ولن نجد الماء هناك بطبيعة الحال ، إذ أن الماء للوجود قد استحال إلى بخار مستقر في  
جو عاصف من الأبخرة الكبريتية وللمدنية . ولعلنا نجد من دون هذه الأبخرة بحراً  
متلاطمًا من المواد الحجرية للنصهرة . وإن وهج الشمس والقمر لير مارقاً كسهم من  
لافح الذهب عبر جو من سحب نارية .

ويتعاقب السنين مليوناً في إثر مليون يأخذ ذلك للشهد الناري البركاني في فقدان  
لظاه المتأجج يبطء تدريجياً وتتساقب أبخرة السماء إلى الأرض ، طراً فيقل تركيزها في  
الجو . وتظهر على سطح ذلك البحر للنصهر كتل عظيمة من زبد الصخور الآخذة في  
التصلب ، ثم تهبط دون السطح ليحل عليها كتل أخرى طافية . وتندفع الشمس والقمر  
عبر السموات في سرعة متضائلة وقد أخذوا يزدادان بهداً ويصغران حباً . وعند ذلك  
تكون حرارة القمر - نظراً لصغر حجمه - قد بردت بالفعل إلى ما دون التوهج ،  
ثم يأخذ على التوالي يحجب ضوء الشمس عن الأرض ويكسبه إليها في سلسلة متعاقبة  
من الكسوف والبدور الكاملة .

وعلى هذا النحو من البطء التدريج في خلال الزمن السرمدي أخذت الأرض تزداد  
قرباً من حالها التي نعيش عليها اليوم ، حتى جاء في النهاية عصر بدأ فيه البخار يتكثف  
سحباً في الهواء البارد نوعاً ، ثم تساقط أول للطر عهدةً نشيثة<sup>(٢)</sup> على ما نحتة من  
الصخور الأولى . وتقضى آلاف لا حصر لها من السنوات يظل أثناءها الجزء الأكبر  
من مياه الأرض مجاراً ، ولكن توجد هناك عندئذ سيول من التيارات الساخنة التي  
تلساب على الصخور الآخذة في التبلور من تحتها ، كما توجد البرك والبحيرات التي تحمل  
تلك التيارات إليها حتاة الأرض وتلقي فيها بالرواسب .

ولا بد أن تكون الحال قد وصلت آخر الأمر إلى مرحلة يستطيع فيها «إنسان»  
أن يقف على قدميه فوق الأرض وأن يتأمل ماحوله ويحس على ظهرها ، ولو أنه قدرنا  
أن نزرر الأرض في تلك الزمان لاضطررنا أن نقف على كتل ضخمة من الصخر الشبيه  
« باللافا » دون أن نشعر على أي أثر لثربة أو أية بقية لنبات ، في جو مكهر بالروابع .

---

(١) اللافا ( Lava ) هي المادة النائية التي تهلها البراكين من فوهاتها .  
(٢) النشيش : صوت النليان ، وذلك لأن للطر عند ما يلتقي بالصخور الساخنة يتجر على القعر .

وربما تعرضنا آنذاك لحصف رياح حارة عنيفة تقوق أعنف ما نعرف من العواصف الهوجاء ، ولقبأتنا من للطر انهمارات لا تتأني اليوم لأرضنا الأكثر وداعة والأهدأ بطناً ، ولوجدنا ماء ذلك للطر النهر يتدافع حوالينا عكراً بحطام الصخور ويلتقي بعضه ببعض في سيول جارفة تنحت الحوافق النائرة والوديان وهي مندفة إلى البحار الأولى لتودعها رواسبها .

ولا بد أننا كنا نلمح من خلال السحب شمساً هائلة تتحرك أمام نواظرنا عبر السماء ، كما كنا نشهد في أعقابها حين تمر وفي أعقاب القمر حركة مدبوحى قوامها الزلازل والارتجاجات والتقيبات في القشرة الأرضية . ولا بد أن القمر الذى يطل الآن على الأرض بوجه واحد لا يتغير ، كان حينئذ يدور منيراً مرئياً كاشفاً الوجه الذى يداوم الآن ستره .

فلما شاخت الأرض ، وطال اليوم ، وغدت الشمس أبعد مسافة وأهدأ حدة ، وبطؤت سرعة القمر في السماء ، خلفت وطأة الأمطار والعواصف ، وتزايد الماء في البحار الأولى وجرى جملة إلى المحيط الذى أصبح منذ ذلك الحين دثاراً لسكوبتنا .

ومع ذلك فلم تكن نمة حياة على الأرض ، فسكانت البحار خلوا من الأحياء ، والصخور جرداء قاحلة .

## الفصل الثالث

### بدايات الحياة

المصدر الذى نستقى منه إلى حد كبير معلوماتنا عن الحياة قبل ابتداء المحافظة على الذكريات والتقاليد الإنسانية الأولى هو الآثار والحفريات التى خلفتها الكائنات الحية فى الصخور الطبقية . ذلك بأن الطفل والإردواز والحجر الجبرى والرمل كلها تحتفظ لنا بالعظام والأسفاد والألياف والجنوع والفواكه وآثار الأقدام والخدوش وما إليها ومعها آثار للد والجزر منذ أقدم العصور ، والخدوش التى أحدثتها أقدام الأمطار ، وقد تم لنا جمع التاريخ القديم لحياة الأرض فقرة بعد فقرة بطريق الفحص للفضى عن هذا السجل الحجرى . وذلك أمر يعد اليوم من المعلومات العادية . ولكن الصخور الطبقية ( الرسوبية ) لا ترقد طبقة فوق طبقة بنظام دقيق أتيق ؛ بل إنها تضلت والتوت وتبعثرت وموجت ثم اختلطت على نحو ما يصيب صحف مكتبة منيت مرارا وتكرارا بالنهب والحريق ، ولذا فلم يتسن تنظيم هذا السجل وقراءته إلا بعد أن استنفدت فى سبيل ذلك أعمار كثيرة تفانى أصحابها فى الإخلاص لذلك العمل . ويقدر للذى الزمانى الكامل الذى يمثلُه سجل الصخور يليون وستائة مليون سنة — ١٩٠٠.٠٠٠.٠٠٠ سنة .

والجيولوجيون ( علماء طبقات الأرض ) يسمون أقدم صخور ذلك السجل الصخرى باسم الصخور « الأزوية Azoeic » ، أى التى لا يبدو فيها أى أثر للحياة . وتوجد مساحات مترامية من هذه الصخور الأزوية عارية جرداء فى شمال أمريكا ، وهى بدرجة من السمك جعلت الجيولوجيين يقدرون عمرها بما لا يقل عن نصف عمر السجل الجيولوجى بأكمله . وإنى لمكرر على مسامعكم هذه الحقيقة الخطيرة : وهى أن نصف الحقبة الزمنية العظمى التى انقضت منذ أن تمايز اليابس والماء لأول مرة على ظهر الأرض ، لم يخلف لنا أى أثر للحياة ، حقاً لا تزال توجد على تلك الصخور آثار تموجات الماء وخدشات الأمطار ، ولكن ليس بها دلالات ولا آثار لأى كائن حي .

فإذا سعدنا درجات السجل بعد ذلك ، بدت علامات الحياة للماضية وأخذ عددها يتزايد . ويسمى الجيولوجيون هذا العصر من حياة العالم الذى نجد فيه هذه الآثار الغابرة باسم الزمن الباليوزوى Palaeozoic السفلى .

وأول الدلالات على وجود الحياة ، الآثار والرفات الباقية لكائنات بسيطة وديئة نسيباً ؛ مثل أسداف أسماك بحارية صغيرة وجذوع لحوانات نباتية<sup>(١)</sup> ، ورووس لها تشبه الأزهار وأعشاب بحرية ، وآثار لحركات ديدان البحر والقشريات وبقايا لها . وتظهر منذ زمن مبكر جداً مخلوقات معينة تكاد تشبه قمل النبات ، وهى كائنات زاحفة لها قدرة على تكوير نفسها ، كما يفعل قمل النبات ، وتسمى التريلوبيت أى الثلاثة الفصوص<sup>(٢)</sup> . وبعد ذلك يضة ملايين من السنين تظهر أنواع معينة من العقارب البحرية ، وهى كائنات ألين حركة من كل ما شهده العالم من قبل من كائن حتى وأكثر كفاية وقدرة .

ولم نحظ أية واحدة من هذه المخلوقات بضمخة الحجم وأكبرها صنف من العقارب البحرية كان طوله تسعة أقدام ، وليس هناك أى دليل يشهد على وجود أى نوع من الحياة فى البر نباتية كانت أو حيوانية ، ولا يحتوى هذا الجزء من السجل على أسماك ولا كائنات قنارية . وجميع النباتات والكائنات التى تختلف لنا بقاياها عن تلك للدة من تاريخ الأرض ، ليست بالضرورة إلا كائنات مياه ضحلة أو مياه للناطق التى يتعاورها للده والجزر . وإذا شئنا أن نجد فى العالم اليوم شبيها لنبات وحيوان الصخور المتكونة فى الزمن الجيولوجى ( الباليوزوى ) السفلى التيق ، لوجدناه على أحسن صورة من كل النواحي إلا فى الحجم فى قطرة من الماء نأخذها من بركة صخرية أو حفرة مزبدة آسنة ، تم تنفصها تحت الميكروسكوب (المجهر) ، فلانجد هناك من القشريات والسحك المحارى الضئيل والحيوانات النباتية والطحالب يكون ذا شبه أخاذ بتلك الأصناف الأولى الضعيفة . الأكبر حجماً التى كانت فى يوم من الأيام أمسى ما بلغت الحياة على « كوكبنا » الأرض .

ومع ذلك فمن الخير أن نتذكر أنه يحتمل أن صخور الزمن الباليوزوى السفلى قد لا تزودنا بشئ ما يمثل أو بدايات الحياة على كوكبنا . فإذا لم يكن للخلق عظام

(١) مثل ذلك الإسفنج والمرجان واسمها العلمى للزحبات Zoophytes .

(٢) الثلاثة الفصوص Trilobite هى خريات من العصر الباليوزوى السفلى التيق للحيوانات

ذات فصوص ثلاث وبدون فقار وهى من فصيلة النماكب Arachnida .



أو أجزاء أخرى صلبة ، وإذا لم يكن مكنتسيا بقشرة صدفية أو ذا حجم كبير واف وثقل كاف لطبيع على الطين آثارا بارزة للأقدام والدروب المطروقة ، فمن غير المحتمل تختلف آثار حفريات جده تدل على وجوده . ويوجد في العالم اليوم مئات الآلاف من أنواع من المخلوقات الصغيرة الهشة الأجسام التي لا يتصور عقل إمكان تركها أى أثر يطوع لجيولوجى الند الثور عليه . ولعل للماضى السعيق لهذا العالم كان يبيع بملايين الملايين من أنواع تلك المخلوقات التي عاشت وتكاثرت وازدهرت ثم بادت من غير أن تترك أدنى أثر لها . وربما كانت مياه البحار والبحيرات الدفيئة الضحلة في ذلك الزمن ، المسمى بالآزوى Azoe ، زاخرة بجينات لا آخر لها من أنواع الكائنات الدنيئة ، شبه الهلامية ، والمجردة من الأصداف والعظام ، وعينات أخرى لا حصر لها من النباتات الرغوية منتشرة فوق الصخور والشواطئ والمرضة للحد والجزر وللتعمورة بضياء الشمس . ولم يصل السجل الصخرى للحياة الغابرة بعد إلى درجة الكمال ، مثله في ذلك مثل دفتار أحد المصارف من حيث عدم وفائها بمحصر كل فرد بالمنطقة المجاورة للمصرف ، ولا يتيسر لأى نوع من الأنواع أن ينطبع على السجل حتى يأخذ في تكوين محارة أو شويكة أو درقة أو جنج متنكس<sup>(١)</sup> ، يحفظه على هذه الصورة للمستقبل . على أنه يحدث أحيانا أن يوجد الجرافيت في صخور سابقة في عصرها على تلك التي تحمل آثار الحفريات ، والجرافيت الذى يسمى عادة باسم الرصاص الأسود - صورة من الكربون غير للركب ، ويرى بعض الثقاق أنه ربما فصله عن مركباته النشاط الحيوى لكائنات حية مجهولة .

---

(١) الكس : هو اللادة الجبيرة التي تتكون منها العظام والمخار .

# الفصل الرابع

## عصر الأسماك

كان للظنون أيام كان الناس يعتقدون أن العالم لم يدم إلا بضعة آلاف من الأعوام ، أن النباتات والحيوانات بأنواعها المختلفة إنما هي أشياء ثابتة ونهائية ؛ وأنها خلقت جميعاً كما هي عليه الآن تماماً ، وخلق كل قائماً بذاته . ولكن حدث عندما شرع الناس ينقبون في سجل الصخور ويدرسونه أن تزعم هذا الاعتقاد بسبب الاشتباه في أن كثيراً من الأنواع قد تغير وتطور ببطء على مر العصور ، ثم تمت هذه الفكرة بدورها حتى أصبحت اعتقاداً بما يسمى اللشوء العضوي والارتقاء ، وهو الاعتقاد بأن كافة ما على الأرض من أنواع الحياة سواء منها الحيوانى والنباتى ، يتعدر بعمليات تغير ببطء دائم ، من صورة سلفية غاية في البساطة للحياة : مادة حية لا شكل لها تقريباً ، كانت موجودة أثناء العصور السحيقة فيما يسمى بالبحار الآزوية .

وقد بما كانت مسألة اللشوء والارتقاء العضوي هذه ، مثار مجادلات ألحجة كثيرة بين الناس على غرار المسألة للتملقة بعمر الأرض ، حتى قد آتى على الناس حين من الدهر كانوا يظنون فيه أن الاعتقاد في اللشوء والارتقاء العضوي Organic Evolution لا يستقيم — لعله لا نلها — وتعاليم المسيحية واليهودية والإسلام الصحيحة . وقد انقضى ذلك الزمان ، وأصبح أشد الناس تمسكاً بالعقائد الكاثوليكية الصحيحة والبروتستانتية واليهودية والإسلامية ، لا يتخرجون من قبول هذا الرأى الأحدث والأفضل القائل بأن لجميع الكائنات الحية أصلاً مشتركاً . إذ لا يلوح أن الحياة نشأت فجأة على ظهر القبراء . بل إن الحياة قد تمت ولا تزال تنمو . انقضت عصور بعد عصور ومرت دهور من الزمان بكل الخيال دون تصورها ، والحياة تتطور من مجرد هزة في الصلصال المختل بمياه للذ والجزر إلى مجسوة الحرية والقوة والإدراك .

تتكون الحياة من أفراد ، وهؤلاء الأفراد أشياء محددة ، فليسوا مثل القطع والكتل ، ولا هم يماثلون البورات غير المحددة وغير المتحركة للكونة من المادة

غير الحية ، ثم إن لهم خاصيتين مميزتين لا تشاركهم فيها أية مادة في عالم الجلد ، ذلك أنهم يستطيعون أن يتشاثوا في أنفسهم مادة أخرى ويحولونها إلى جزء منهم كما أنهم يستطيعون أن ينتجوا لأنفسهم خلفا : فهم يأكلون وهم يتناسلون وهم يستطيعون أن ينشثوا أفرادا آخر يشبهونهم إلى حد كبير ، وإن اختلفوا عنهم مع ذلك نوعا ما . وإن هناك لمشابهة نوعية وعائلية بين الفرد ونسله ، كما أن هناك فارقا فرديا بين كل والد وكل مولوده ، وهذا صحيح في كل نوع من الأنواع وفي كل مرحلة من مراحل الحياة .

ورجال العلم لا يستطيعون حق الآن أن يبينوا لنا ما الذى يوجب على السسل أن يشابه والديه وما الذى يوجب عليه أن يختلف عنهما . ولكن نظرا لأن الدورية يجمع فيها الشبه والاختلاف في وقت واحد ، فإن من المقول وإن لم يثبت علميا أنه إذا تغيرت الظروف التي يعيش فيها النوع ، وجب أن يطرأ على النوع بعض تغيرات مناسبة . ومرد ذلك أن أى جيل من أجيال النوع يجب أن يوجد فيه عدد من الأفراد تنبه لهم فوارقهم الفردية قدرة أكبر على التكيف بالظروف الجديدة التي لا بد للتنوع أن يعيش فيها ، ( وعدد آخر ) فوارقه الفردية تجعل من الصير عليه نوعا ما أن يعيش . والقسم الأول يكون أطول في الجملة عمرا وأكثر نسلان من القسم الثاني ؛ وهكذا يتطور مستوى النوع جيلا بعد آخر في الاتجاه للأمام . وهذه العملية التي يطلق عليها « الانتخاب الطبيعي » ليست نظرية علمية بقدر ما هي نتيجة حتمية لحقائق التوالد والفوارق الفردية . قد تكون هناك عوامل كثيرة تعمل عملها في تبديل النوع أو إبادة أو صيائه ، دون أن يتنبه العلم إليها إلى اليوم أو يبت فيها برأى ، ومع ذلك فالرجل الذى يتأق له أن ينكر سريان عملية الاختيار الطبيعي هذه في الحياة منذ بدايتها ، لا بد أن يكون إما جاهلا بالحقائق الأولية للحياة وإما غير أهل للتشكير العادى .

ولكثير من رجال العلم آراء وتأملات ونظر حول البداية الأولى للحياة ، وغالبا ما تكون نظراتهم تلك عظيمة النفع ، ولكن أحدا منهم لم يصل إلى أية معلومات بآنة محددة ولا فرض علمى يركن إليه عن الصورة التي بدأت بها الحياة . على أن جميع الثقات يكادون يجمعون على أنها ربما ابتدأت على الطين أو الرمل بالمياه الدفئة الضحلة القليلة للوحة وللعرضة لنور الشمس . وأنها امتدت على السواحل حتى بلغت منطقة تعاقب للد والجزر ثم إلى خارج ذلك من المياه للكشوفة .

كان ذلك العالم الغابر عالم مدوجزر وتيارات قوية . ولا بد أن إبادة الأفراد لم تكن تنف عند حد قذف التيارات لها إلى الشواطئ ، ثم جفافها هناك ، أو عن طريق دفعها إلى عرض البحر وغرقها فيه في غور لا تصله الشمس ولا الهواء . وكانت الظروف الباكرة تلائم كل تطور يتجه إلى تثبيت الجنود والبقاء ، وتشجع أى اتجاه لتكوين قشرة خارجية وغلاف يقي الفرد للتخلف على الشاطئ . شر الجفاف المفاجئ . ومنذ البداية البعيدة كان أى اتجاه شعورى للذوق يحجر الفرد إلى ناحية الطعام ، وأى اتجاه شعورى إلى الضوء يهديه إلى التخلص من الظلة في أعماق البحر ومجاهاه أو إلى التلوى فرارا من التوهج الشديد في الأضغال<sup>(١)</sup> الخطرة .

ولعل أول المهارات والدروع الواقية لأجسام الكائنات الحية كانت وقايات لها من الجفاف لا من أعدائها . ولكن لوحظ أن الأسنان والأظافر تظهر في حقبة مبكرة من تاريخ الأرض .

وقد سبق أن ذكرنا حجم المقرب للثاية الأولى . واتخذت عصور طويلة ومثل هذه المخلوقات هي صاحبة السيطرة في الحياة . ثم يظهر بعد ذلك في قسم من الصخور الباليوزوية يسمى بالقسم السيلورى Silurian ، ( الذى يستند كثير من الجيولوجيين اليوم أن عمره ٥٠٠ مليون سنة ) طراز جسيدي من الكائنات مزود بالأعين والأسنان والقدرة على السباحة بشكل قوى لم يسبق له مثل . ذلك الطراز الجديد أول ما نعرف من الحيوانات ذوات العمود الفقري ، وهو أقدم « الأسماك » : أول الفقاريات المروقة .

(١) الأضغال : جم ضعل وهو الماء القليل الفور .

## الفصل الخامس

### عصر مستنقعات الفحم

كانت اليابسة أثناء عصر الأسماك هذا خالية من الحياة تماماً كما هو واضح . فإن شوامخ الصخور والأراضي الجبلية للرتقة الجرداء كانت تسبح في أشعة الشمس ومياه للطر ، أما التربة بمناها الصحيح فلم تكن موجودة — إذ لم توجد حتى آنذاك أية ديدان أرضية تساعد على تفتيت جزئيات الصخور ونحوها إلى تربة ؛ كما أنه ليس هناك أثر مطلقاً لطعلب أو عشب بحرى . وكانت الحياة لا تزال تلازم البحر وحده .

وتناولت هذا العالم الصخرى الأجرد عوامل تغيرات عظيمة في المناخ . وأسباب هذه التغيرات للناخية في غاية التعقيد ، كما أنها لا تزال بحاجة إلى من يقدرها التقدير الصحيح . ولعل من أسباب ذلك تغير شكل مدار الأرض ، والزحزح التدريجي في ميل محور الدوران ، وتغير أشكال القارات بل ربما أيضاً ما لم يحرارة الشمس من تقلبات ، لعل هذه الأسباب مجتمعة قد تضافرت تارة على غمر مساحات واسعة من سطح الأرض بالبرد والجليد إبان أحقاب طويلة من الزمن وتارة أخرى على نشو مناخ دافئ أو معتدل أمد ملايين من السنين على سطح هذا الكوكب . ويلوح أن تاريخ العالم حافل بفترات الثوران الباطنى العظيم ، فترادت إبان بضع ملايين من السنين عمليات رفع تمخضت عن سلاسل متلاحقة من الثوران البركانى والارتفاعات ، فأعيد بذلك تشكيل الجبال ومعالم القارات على ظهر الكرة الأرضية وبذلك زادت البحار عمقا والجيال ارتفاعا ، وبلغت تطرفات المناخ أقصى الحدود . ثم يقب تلك الفترات عصور مترامية من الهدوء والتوازن النسبي ، تضافر فيها الصقيع والمطر والأنهار على تفتيت ارتفاعات الجبال ، وحمل مقادير ضخمة من الترين لتقلا أغوار البحار وترفع قاعها فتتسع بذلك رقبتها مع زيادة ضخامة البحر وانتشاره فوق قدر متزايد من اليابسة . وكمن عصر في تاريخ العالم اجتمع فيه « الارتفاع والعمق » أو تجاوز فيه « الانخفاض والاستواء » . ويجب أن يبعد القارىء عن ذهنه كل فكرة توحي بأن سطح الأرض ظل يبرد باطراد منذ أن تجمدت قشرتها فبعد أن بلغت وتشتد ذلك القدر الكبير من البرودة ، كفت الحرارة الباطنية عن أن تؤثر في أحوال السطح . وشاهد ذلك أن هناك آثارا لفترات تكاثرت أثناءها الثلج

والجليد بوفرة عظيمة ، وهي « الصور الجليدية » التي حدثت حتى في العصر الأيوزي نفسه ( مع شدة قدمه ) . ولم تتمكن الحياة من الانتشار من الماء إلى اليابسة بطريقة فعالة حقا إلا عند قرب نهاية عصر الأسماك ، في فترة كثرت فيها البحار والمستنقعات الفسيحة الضحلة . ولا شك أن الأعماط الأول من الأشكال التي بدأت عندئذ في الظهور بوفرة كبيرة ظلت تتطور قبل ذلك تطورا نادرا خفياً إبان عشرات ملايين من السنوات ولكن ها قد وافقت الآن فرصتها .

ولا شك أن النباتات سبقت الأشكال الحيوانية في غزوها هذا لليابسة ، ولكن الرجوع أن الحيوانات تعقبت خطى النبات في هجرته . وأول مشكلة وجب على النبات حلها هي مشكلة الحصول على عماد صلب يدعم خوصاته <sup>(١)</sup> Fronds التي يدفع بها نحو ضياء الشمس عند ما تنسحب المياه التي يطفو عليها ؛ والمشكلة الثانية هي صعوبة الحصول على الماء — الذي لم يعد آنذاك قريبا في متناول اليد — من الأرض للوحلة في أسفل إلى أنسجة النبات . وقد حلت المشكلتان بنسج الألياف الخشبية التي صلب بها عود النبات وأوصلت الماء إلى أوراقه . وعلى حين بنية يكتظ سجل الصخور بأضرب حمة من النباتات الخشبية للمستنقعات ، كان الكثير منها ضخيم الحجم ، كالطعالب الشجرية الكبيرة والسراخس الشجرية وأشجار الأمسوخ <sup>(٢)</sup> الهائلة وما أشبهها وسارت زحف هذه النباتات من الماء عصرا بعد عصر أضرب كثيرة من الأشكال الحيوانية ، مثل أم أربعة وأربعين والودود ذو الألف رجل ، وأوائل الحشرات البدائية ، ثم مخلوقات قريية الشبه بالنوع العتيق المسمى ملك الكبوريا <sup>(٣)</sup> King-Crab والمقارب البحرية التي تحولت إلى أقدم الناكب والمقارب الأرضية ، وسرعان ما وجدت حيوانات قفارية .

وكان بعض الحشرات الأولى كبيرا جدا . فهناك رعاشات <sup>(٤)</sup> ( Dragon Flies ) ربما بلغ امتداد جناحها تسعا وعشرين بوصة .

(١) الغويصات Fronds وتسمى أيضاً القروئات هي نباتات بدائية لم يتأخر فيها السابق من الورق فهي سيقان ورقية أو متورقة .

(٢) الأمسوخ هو ما يسمى بنبيل القرس .

(٣) هو عتكيوت بحري عجيب له درع على شكل حنطة الحصان وهو أكبر من بقى من فصيلته

(٤) وتسمى بالسمران أيضا وهي حفرة زاهية الألوان ذات إشعاع شظافة الجناحين .

وقد استطاعت هذه الرتب ( orders ) والأجناس ( genera ) الجديدة أن تكيف نفسها بطرق مختلفة لتنفس الهواء . وكانت الحيوانات حتى ذلك الحين تنفس الهواء القذائب في الماء ، والحق أن ذلك نفسه هو ما لا تزال الحيوانات جميعاً مضطرة أن تفعله . ولكن مملكة الحيوانات كانت قد شرعت عند ذلك أن تكتسب ، بطرائق متنوعة ، القدرة على تزويد نفسها بما يحوزها من رطوبة حيثما دعت الحاجة ، فإن رجلا له رئة جافة تماماً لا منحة له اليوم من الاختناق ؛ إذ لابد لسطوح رئته من أن تكون رطبة لكي ينفذ الهواء من خلالها إلى دمه . والتكيف لتنفس الهواء قوامه في جميع الحالات أحد أمرين : فلما أن يتكون للحياتيم القديمة الطراز غطاء يوقف عملية الجف ، ولما أن تنشأ أنابيب أو مسالك أخرى جديدة لتنفس تنفس في صميم الجسم وترطبها إفرازات مائية . ذلك أن الحياتيم القديمة التي كان السمك الذي يد سلفه للسلاطة الفقارية يتنفس بها كانت غير صالحة لتنفس على البر . وقد حدث في هذا القسم من مملكة الحيوان ، أن ثمانية العوم هي التي أصبحت عضواً جديداً متصلاً بالتنفس هو الرئة . والحيوانات المعروفة باسم البرمائيات ، وهي الضفادع وبسمندل الماء الحالية ، تبدأ حياتها في الماء ، وتنفس بالحياتيم ؛ ثم يحدث بعد ذلك أن الرئة تتولى عملية التنفس إذ تنطور على نفس النمط الذي يحمل بمئات العوم عند كثير من الأسماك ، كنمو في الزور شبيه بالكيس ، فيبرز الحيوان إلى الأرض ، وتضمحل الحياتيم وتتحنى شقوق الحياتيم ( تحنى جميعاً إلا تنوء في شق واحد من شقوق الحياتيم ، يصبح فتحة الأذن وطلبتها ) وعندئذ لا يستطيع الحيوان البرمائي أن يعيش إلا في الهواء ، ولكن لابد أن يعود إلى حافة الماء على الأقل ، لكي يبيض ويضع وينتج نوعه .

وكانت جميع الفقاريات للتنفس للهواء في هذا العصر عصر المستنقعات والنباتات تنسب إلى فصيلة البرمائيات . وكلها تقريباً أشكال ذات قربي بسمندل العصر الراهن ، كما كان بعضها يصل إلى حجم ضخم ، حقا إنها كانت حيوانات برية ، غير أنها حيوانات برية تحتاج إلى أن تعيش في الأماكن الرطبة والمستنقعات وبالقرب منها ، وكانت جميع الأشجار الكبرى في ذلك العصر برمائية هي الأخرى مثل حيوانه تماماً ، ولم يكن شيء منها قد أنتج حتى ذلك الحين ثمراً ولا جاً يمكن أن يقع على الأرض وينبت بدون مساعدة أية رطوبة إلا ما قد يجلبه الندى والطرر . إذ لم يكن أمامها فيما يلوح مفر من أن تسقط أبواغها Spores<sup>(١)</sup> في الماء إن قدر لها أن تتوالد .

(١) البوغ : Spore جسم أو ( بكرة ) مفرد الخلية منتج بنير لهابات جنسي .  
( ٤ — تاريخ العالم )

ومن أمتع نواحي ذلك العلم الجليل « التشرح المقارن » اهتمامه بتعقب التكيفات للعقدة المدهشة التي حدثت للكائنات الحية وفق ما يستلزمه العيش في الهواء لجميع الكائنات الحية سواء منها الحيوانية أو النباتية ، إنما هي قبل كل شيء كائنات مائية . مثال ذلك أن جميع ما يملأ الأسماك من الحيوانات الفقارية العليا في تصاعدها حتى تشمل الإنسان نفسه ، تمر أثناء تطورها داخل البيضة أو في الرحم قبل الميلاد ، في مرحلة تكون لها فيها شقوق خياشيم تسمى قبل خروج الجنين .

والعين التي هي في السمكة عارية متصلة بالماء ، يمنعها من الجفاف في الأشكال الحيوانية العليا جفون وخصد تفرز الرطوبة . وتموجات الصوت الحادثة في الهواء تخلق الحاجة إلى طبلة للأذن . وإنك لتلاحظ في كل عضو من أعضاء الجسم تقريباً تعديلات وتكيفات مماثلة لهذه ، فضلاً عن توفيقات أخرى مماثلة لمواجهة الهواء وظروفه .

وكان عصر الطبقات الفحمية ( Carboniferous ) هذا ، أي عصر البرمائيات ، عصر حياة في المستنقعات والبرك ، وعلى الشواطئ المنخفضة في تلك المياه . وكان هذا هو أقصى انتشار ببلقته الحياة . فأما التلال والمرتفعات فكانت لا تزال مقفرة تماماً من كل حياة ... لقد تعلمت الحياة أن تنفس الهواء ، ولكن كانت لا تزال تنأسل في الماء موطنها الأول ، وكان عليها أن ترجع إلى الماء لتوالد وتنتج سلالة نوعها .



# الفصل السادس

## عصر الزواحف

مرت فترة وفرة الكائنات الحية لصعرت تكوين الطبقات الصخرية ، وجاءت في أعقابها دورة مترامية من عصور جفاف وعسرة ويمثلها في سجل الصخور رواسب مميكة من الحجر الرملي وأضرابه ، الحفريات فيها قليلة نسبياً . ذلك أن درجة حرارة العالم كانت تتقلب تقلباً شديداً ثمة آماد طويلة من الزمهرير القارس ، ترتب عليها هلاك تلك الوفرة الشديدة من نباتات المستنقعات فوق مساحات واسعة من الأرض ، حتى إذا غطتها الرواسب الأحدث عهداً ، بدأت فيها عملية الضغط والتحمن<sup>(١)</sup> التي منحت العالم معظم رواسب الفحم في هذا العصر .

ولكن الحياة إنما تعرض لأسرع التبدلات أثناء فترات التغير ، كما أنها إنما تتلقى أئمن ماتعلم من دروس إبان المهن والشدائد . حتى إذا ارتدت الأحوال نحو النصف والرطوبة وجدنا سلسلة جديدة من الأشكال الحيوانية والنباتية لأئمة متأصلة . ووجدنا في السجل بقايا حيوانات قنارية تبيض أيضاً ، لا يتفتح عن أبي ذئبيات تحتاج إلى العيش فترة ما في الماء ، بل هو شيء ارتقى في سلم التطور قبل الفقس إلى مرحلة تقارب سورة الفرد التام الناضج من أبناء جنسه قريباً يستطيع الصغير منه أن يعيش في الهواء منذ اللحظة الأولى التي ينفصل فيها ويستقل بوجوده . لقد ذهبت الحياشيم تماماً ، ولم تظهر شقوق الخيشوم إلا كمرحلة من مراحل الجنين .

هذه المخلوقات الجديدة المبردة من مرحلة الذئبيات هي الزواحف . ومحب تطورهما تطور للأشجار الحاملة للنبور ، والتي كانت تستطيع أن تنشر بذورها دون حاجة إلى المستنقع أو البصرة . فكانت هناك آنذاك حزازيات شبيهة بالنخيل وكثير من أشجار الخروطيات الاستوائية ، وإن لم يوجد حتى ذلك الحين نباتات ذات أزهار ولا عشب .

(١) التحمن أو المدنة أو التفلز : اكتساب الأشياء غير المعدنية خصائص المعدن .

كان هناك عدد عظيم من السراخس . وتزايد كذلك في ضروب الحشرات وأنواعها . فكانت هناك الخنافس ، وإن لم يكن النمل قد ظهر بعد ولا الفراشات . ولكن لاشك أن العناية الأساسية لجميع الأشكال الجوهريّة لحيوانات ونباتات جديدة أرضية ، قد وضعت حقاً أثناء هذه العصور المترامية من السر والشدّة . ولم يكن يجوز هذه الحياة الجديدة على اليابسة إلا شيء واحد هو الظروف المواتمة لازدهارها وانتشارها .

وجاءت تلك الظروف وأخذت قساوة الجو تخف عصرًا بعد عصر ومع كثير من التقلبات . وتكاثفت حركات القشرة الأرضية التي لم تبرح تتعاقب بغير حصر ، وتغيرت مدار الأرض وتقلب زاوية الميل المتبادل بين المدار والمحور زيادة وتقصّاناً ، وراحت تشمل جميعها على إجماد فترة عظيمة من الدفء الواسع النطاق . ويروى العلماء اليوم أن تلك الفترة دامت في مجملها ما يربى على مئتي مليون من الأعوام . وهي تسمى باسم الزمن الليوزوى ، تفرقاً لها عن الزمنين الآزوى والبالوزوى السابقين لها والمتفوقين عليها تماماً في الضخامة (ومجموعهما ألف وأربعمائة مليون سنة) وتميّزاً لها أيضاً عن الزمن الكينوزوى (أي فترة الحياة الجديدة) الذي جاء بين نهايتها وعصرنا الراهن ، كما أنها تسمى أيضاً باسم عصر الزواحف بسبب تسلط هذا الشكل من أشكال الحياة فيها وكثرة أضربه إلى حدّ يبيّث على الدهشة وقد انتهى ذلك العصر منذ حوالي ثمانين مليوناً من السنين .

وأجناس الزواحف قليلة نسبياً في العالم اليوم ، كما أن توزيعها فيه محدود جداً . نعم إنها أكثر تنوعاً من القلة القليلة الباقية من أعضاء رتبة البرمائيات التي كانت صاحبة السلطان في العالم في عصر الرواسب الصعبة . إذ لا يزال لدينا التعابين والترسة البحرية والسلاحف البرية (Chelonia) والتمساح الأمريكي (Alligator) والتماسيح العادية والسعالى<sup>(١)</sup> ، وكلها بلا استثناء مخلوقات تحتاج إلى الدفء على مدار السنة ، فهي لا تستطيع أن تعمل التعرض للبرد ، والراجع أن جميع زواحف الزمن الليوزوى قد كابدت الأهوال لنفس هذا السبب . كانت حيواناتها تنمو في البيوت الزجاجية الدافئة ، تعيش بين نبات ما يربى في تلك البيوت الزجاجية نفسها . فلم تسكن تتحمل

---

(١) السعالى : Lizards دوية ملءة تسمى مشياً سريعاً ثم تلف وتسمى أيضاً العظاية والظفافة وجنبا عظام وعظايا وعظايات (التجدد) .

حقيماً . ولكن العالم كان قد وصل إلى حيوان ونبات الأرض الجافة الحقيقي ، والمتخلف تماماً عن حيوان ونبات الطين والاستنقعات في العصر السابق من عصور ازدهار الحياة على سطح الأرض .

وكان جميع أنواع الزواحف المعروفة لنا الآن أكثر عدداً في تلك العصور ، فهناك ترمسات وسلاحف كبيرة ، وتماماً صخمة وكثير من السحالي والثعابين ، ولكن كان هناك عداً ذلك عدد من عائلات من المخوفات السحبية التي اختفت الآن تماماً من هذه الأرض . ثم أنواع حمة من كائنات تسمى الدناصير : [العظايا المهولة] . وكان النبات قد شرع في الانتشار حيث فوق مافي العالم من المستويات المنخفضة . فكثر القصب (البوص) وآجام السرخس وما مائلها ؛ وفي هذه الوفرة من الحريات أخذت جمهرة غفيرة من الزواحف للفتاة بالأعشاب (Herbivorous) تعيش وترعى ، وأخذ حجمها يتزايد باطراد كلما تقدم الزمن لليزوروى إلى ذروته ومن هذه الوحوش ما تفوق في حجمه على كل حيوان يرى عاش على ظهر البسطة قبلها ؛ فهي تضارع الحيتان في حجمها فكانت العظامة مزدوجة العائق (الديلودوكس كارنيجاي *Diplodocus Carnegii*) مثلاً تمتد أربعة وعشرين قدماً من البوز إلى الذيل ؛ كما أن العظامة للاردة (الجيجانتوصور) كانت أكبر منها أو تكاد ، إذ كان طولها مئة قدم ، وكان يمشى على هذه الوحوش حشد من العظايا المهولة (الدناصير) آكلة اللحوم (Carnivorous) التناسبة معها حجماً . وكثير من الكتب تصور أحد أفراد هذا النوع وهو العظامة الجبارة (الثيرافصور) وتصفه بأنه قد بلغ القاية في شناعة الزواحف .

وبينا كانت هذه المخوفات الضخمة ترعى وتتغلب بعضها بعضاً بين السيقان الورقية (Fronds) والنباتات الدائمة الخضرة للأجام اليزوروية ، إذقية أخرى من الزواحف تطورت أطرافها الأمامية حتى أصبحت تشبه المضرب — ولا وجود لها الآن — تتأثر الحشرات وتتغلب بعضها البعض ، بادئة بالوثب والمهبط ثم طائرة بعد ذلك بين أغصان الخابة وسيفانها الورقية وتلك هي التيروداكتيل (أى ذو الأصبع المنحني) <sup>(١)</sup> . وهو أول الكائنات الطيارة ذات المموذ الفقري ؛ ووجوده يشير إلى فوز جديد أحرزته القوى النامية للحيوانات الفقارية .

(١) وهي إحدى المفريات : زاحفة طائرة لها جبهة كبيرة كجبهة الطير وهذاه الطليان متصل بالأصبع الخامس الطويل .

وفضلاً عن ذلك فإن بعض الزواحف أخذت في العودة إلى مياه البحر . فإن طوائف ثلاث من كائنات كبيرة سباحة ، عادت إلى استجماع البحر الذى خرجت منه أسلافها ؛ هى عظاميا نهر اللوز ( للوسصور ) وأشباه العظاميا ( البليصور ) وعظاميا البحر الندثرة ( الإخثيوسور ) . وبعض هذه يقارب في حجمه حيتاننا الراهنة ، ويلوح أن الإخثيوسور كان حيواناً تام القدرة على ارتياد البحر ، ولكن البليصور طراز من حيوان ليس له الآن ما يماثله . جسمه كان بديناً ضيقاً له مجاديف عريضة ، مكيفة إما للسبح أو الزحف في المستنقعات أو فوق قاع المياه الضحلة . أما الرأس الصغيرة نسبياً فنبسوبة فوق رقبة كالكبان هائلة لا تكاد تدانها رقبة البجعة . والظاهر أن البليصور كان يوم ويسمى عن الطعام تحت الماء ويختبئ كما تفعل البجعة ، أو يتربص تحت الماء ويحطّط ما يمر به من سمك أو بهيمة .

تلك هى أم أنواع الحياة الموجودة في البر طوال الزمن الميزوزوى . فهى تعتبر — بمقاييسنا البشرية — تقدماً فاق كل شيء سبقها . إذ أنها أنتجت حيوانات برية أكبر حجماً وأوسع انتشاراً وأعظم قوة ونشاطاً ، وأحفل بالحياة ( كما يقول الناس ) من أى شيء شهدته العالم قبلها . أما البعاز فلم يحدث بها تقدم مماثل لذلك ، بل ظهر تكاثر عظيم لأشكال جديدة من الحياة . فظهرت في البعاز الضحلة أشرب هائلة العدد من مخلوقات تشبه أم الحبوبات محار مقسم إلى تجاويف معظمها حلزوني ، وهى العمونى<sup>(١)</sup> بأنواعه ، وللعمونى أسلاف قديمة في بحار الزمن الباليوزوى ، ولكن هاند حل الآن عصر مجده . غير أنه انقرض كله ولم يبق منه اليوم أى كائن يمثله ، وأدنى الكائنات شها به في الوقت الحاضر هو النوتى اللؤلؤى<sup>(٢)</sup> ، الذى يعيش في المياه للدارية ، ثم ظهر بعد ذلك طراز جديد من سمك أكثر تسلاً وأشد تكاثراً وذى قشور أخف وأرق من تلك الأغشية الشبيهة بالدرقات والشبيهة بالأسنان . التى كانت منتشرة حتى آنذاك ، فأصبح هو النوع السائد في البعاز والأنهار ولا يزال كذلك إلى اليوم .

(١) العمونى Ammonites صنف حفري . تسوب للاله عمون .

(٢) النوتى اللؤلؤى Nautilus صنف من الحيوانات البحرية جبل المصدف .

## الفصل السابع

### الطيور الأولى والثدييات الأولى

أوضحنا لكم في إيجاز حالة النبات الوفير والزواحف الحاشدة التي كانت تفرح في ذلك الصيف العظيم الأول للحياة : أعنى الزمن لليزوزوى . وبينما كانت العناصر تسود ذلك العصر في مراعى السلفاس وسهول المستنقعات الحارة ، والتيرودا كتيل يملأ سماء الغابات برفرفة أجنحته ، بل وربما يشق الجو أيضاً بصرخاته وضيقه ، وهو يتعقب الحشرات الطنانة بين الشجيرات والأشجار التي لم تزل بعد مجردة من الزهر ، كانت أشكال حيوانية أخرى أقل أهمية وأدنى في عدد أشكالها ، تعيش على هامش هذه الحياة الوفيرة الزاخرة ومحرز قوى خاصة وتعلم دروساً معينة من الاحتمال عادت على نوعها بالخير العميم عندما حل أخيراً اليوم الذي شرعت فيه الشمس والأرض تفتنان بسماحتهما البسامة .

والظاهر أن مجموعة من قبائل وأجناس الزواحف النطاطة ، وهي مخلوقات صغيرة من طراز الدينوصور ، قد أكرهتها للنافسة وتعقب الأعداء لها على اللقطة بين أمرين : إما الانقراض أو التكيف وفق الظروف الأكثر برودة فوق التلال العالية أو إلى جوار البحر . وفي هذه القبائل التي ابتليت بالخن تطور طراز جديد من القشور ؛ قشور مطت فأصبحت ذات أشكال تشبه أنابيب الريش ؛ وسرعان ما تفرعت تلك الأنابيب وأصبحت بدايات جفة للريش . وكانت هذه القشورة الشبيهة بأنابيب الريش ترقد إحداها فوق الأخرى مكونة غلافاً حافظاً للحرارة أكثر من أى غلاف للزواحف وجد حتى ذلك الحين . وبذلك أتاحت لها أن تنزو للناطق الأكثر برودة والتي كانت قبل ذلك غير مأهولة . وربما صيبت تلك الثغرات زيادة في اهتمام هذه المخلوقات ببعضها فمن الجلى أن معظم الزواحف لاتفى بعضها أقل عناية ، بل تنزله لتتولى قسمة الشمس والوقت للناسب ولكن بعض أنواع هذا الفرع الجدي من شجرة الحياة أخذت تكسب عادة حراسة بعضها والحفاظ على دفئه بواسطة حرارة أجسامها .

وفضلا عن هذه التكيفات وفق البرودة، كانت تجرى تكيفات باطنية أخرى جعلت هذه المخلوقات - وهي الطيور البدائية - دفيئة الدم مستغنية عن الاصطلاء والاستدفاء .  
ويبدو أن أقدم أنواع الطير كافة كانت طيوراً بحرية تعيش على السمك ، وأن أطرافها الأمامية لم تكن أجنحة بل مضارب أو مجاذيف تكاد تشبه ما يوجد في طائر البطريق .  
(البنجوين) وإذا نظرت إلى طائر الكيوى النيوزيلندى ذلك الطير البدائي المعنى في بدائيته وجدت له ريشاً ذا طراز بسيط جداً ، ورأيت لا يطير ولا يبدو عليه أنه ينحدر عن سلف طيار . ذلك أن الريش ظهر في عملية تطور الطير قبل الأجنحة . ولكن ما كاد الريش يتطور ، حتى أصبح من المهم أن يؤدي إمكان انتشاره انتشاراً خفياً إلى ظهور العجاج ، وأنا نعرف طريقات لطائر واحد على الأقل كانت له في فكه أسنان من نوع أسنان الزواحف ، كما كان له ذيل كذيل الزواحف طويل ، ولكن كان له أيضاً جناح طير حق ، ولا مرأه أنه كان يطير ويقوم بشئون نفسه بين التيرودا كتيل في الزمن الميزوزوى . ومع هذا فالطيور لم تكن بالمتنوعة ولا الوفيرة في الأزمنة الميزوزوية فلو تبنياً لإنسان أن يكر راجعاً إلى قطر ميزوزوى نموذجي ، لسار إياماً كثيرة دون أن يرى شيئاً يسمى بالطير أو يسمع له صوتاً ، وإن رأى كثرة عظيمة من التيرودا كتيل والحشرات بين السيقان الورقية والقصبات .

وتم شيء آخر لعل عليه لا تخفان على أى أثر له هو الثدييات . والراجح أن الثدييات الأولى كانت موجودة لمدة ملايين من السنين قبل ظهور أول طائر يمكن تسميته بذلك الاسم ، ولكنها كانت من الصغر والفضالة والأنزواء بحيث كان من الصعب أن يلحظها للشاهد .

والثدييات الأولى - شأن الطيور الأولى - مخلوقات دفيئة المنافسة والطاردة إلى تجسم حياة حافلة بالشدايد والتكيف مع البرد . وفيها أيضاً اتخذ القشر شكل قصبه الريشة ، ثم تطور إلى غلاف حافظ للحرارة ؛ ثم ألت بها أيضاً بعض تصديلات ، تتماشى في نفس الاتجاه والنوع وإن اختلفت في التفاصيل ، وأصبحت على أثرها دفيئة الدم مستغنية عن الاستدفاء والاصطلاء . فبدلاً من الريش طورت الثدييات الشعر ، وبدلاً من حراسة يعضها واحتضانه ، كانت تحتفظ به داخلاً مصوناً باستبقائه داخل أجسامها حتى يقارب النضج . وأصبح معظمها ولوداً بصفة نهائية وأخذ يخرج صغاره إلى الدنيا حية ، وحتى بعد ميلاد صغارها ظلت تجنح إلى الارتباط بها ارتباطاً يقوم على الوقاية والتغذية .

وجل الثدييات اليوم ، إن لم تكن كلها ، ذات أمداء وترضع صغارها . ولا يزال هناك حيوانان ثدييان بيضان البيض وليس لهما أمداء بالمعنى الصحيح ، وإن غلبا صغارهما بإفراز منذ يخرج من تحت جلدهما ، وهما البلاتيب البطي للقار والإخيدنا<sup>(١)</sup> . والحيوان الأخير بيض بيضا يشبه الجمل ، ثم يضمه في كيس أسفل بطنه ، وبذلك يحمله أبنا ذهب وهو في دفة وأمان حتى يفقس .

وكا أن الزائر للعالم لليزوزوى ربما بحث أياها وأسابع قبل العثور على طائر ، فربما اضطر أيضاً إلى البحث عن آثار الحيوان الثديي دون جدوى ، مالم يكن يعرف بالضبط أين يبحث عنه . ولا شك أن كلامنا الطيور والثدييات كانت تبدو في العصر لليزوزوى مخلوقات غريبة الأطوار ثانوية الدرجة غير ذات أهمية .

ويقدر أهل العلم عمر عصر الزواحف بثلاثين مليون سنة ، فلو فرض أن كائنا أوتي ذكاء الإنسان وعقله لث يقرب العالم طوال ذلك الأمد البعيد الذي لا يكاد يتصوره عقل ، فكيف كانت الوفرة والحيرات وضياء الشمس تلوح له عند ذلك أبدية راسخة القدم .. وكما كان ذلك الرغد الذي يتمرغ فيه الديصور وتلك الكثرة الوفيرة التي بلغت العظام الطائرة يدوان مطمئين إلى الأيام ثم حدث بعد ذلك أن أخذت التقلبات الحفية للتواترة والقوى المتجمعة في العالم قلب ظهر المحن لذلك الاستقرار شبه الأبدى ذلك أن إخطأ أخذ يدير ظهره للحياة . ففي عصر بعد عصر وفي آمد من السنين بعد آمد ، مع قترات من التوقف لاجرم ، وقترات من النكوص والتدهور ، انجهم العالم صوب تغير حافل بالشدائد والتطرف ، فتبدل مستوى سطح الأرض تبديلاً عظيماً وتعذر توزيع الجبال والبحار تعديلاً شاملاً . وشاهد ذلك كله أننا نجد في سجل الصخور أثناء فترة إدار الزمن الميزوزوى الطويل الكثير الوفرة والغناء ، شيئاً له مغزاه الواضح في التغيرات المتواصلة للظروف ، وهو حدوث تقلب عنيف في أشكال الكائنات الحية وظهور أنواع جديدة وغريبة . فإن القبائل والأجناس القديمة للكائنات الحية أخذت تظهر إزاء الخطر المهدق بنوعها للهدد بإبادتها أقصى مالم يها من قدرة على التغير والتكيف . فتقويع العمومى مثلاً أتتجت في هذه الصفحات الأخيرة من الزمن الميزوزوى عدداً غفيراً من الأشكال العجيبة . والظروف للسفرة لاندعو إلى مثل ذلك الاستحداث ؟ فالاستحداث

---

(١) الإخيدنا *Rohidna* ويسمى المألوه وهو حيوان من الثدييات المسبكية يسكن أسواريا

لا تتطور في ظلها ، بل تتوقف ؛ إذ أن أحسن الأنواع تكيفاً يكون موجوداً بالفعل .  
فإذا وافت ظروف جديدة فالطراز العادى هو الذى يقاسى ، والشئ المستحدث هو  
الذى ربما أتيت له فرصة أحسن للبقاء وتوطيد أقدامه إلى حين .

ثم تجيء فترة انقطاع في سجل الصخور ربما كانت تمثل عدة ملايين من السنوات .  
والواقع أن هناك ستاراً مسدلاً يحجب كل شئ حتى معالم تاريخ الحياة نفسها . فإذا  
ارتفع ذلك الستار ثانية إذا بصير الزواحف قد ولى ، وإذا بالدينصور والبليصور  
والإيكتيوصور والثيروداكتيل ، وجميع أجناس العمودى وأنواعها التى لا يحصرها عد  
قد اختفت تماماً . لقد بادت جميعاً — على أضرارها المدهشة الوفرة — ولم تخلف أى أثر  
بعدها . فقد قضى البرد عليها جميعاً . ولم يبق عنها شيئاً أقصى ما استحدثته بنفسها من  
تغييرات لعدم كفايته ؛ فهى لم تصب ظروف البقاء . وذلك لأن العالم مر فى دور من  
للناخ للتطرف يتجاوز قوة احتلالها ، ومن ثم حدثت إبادة بطيئة كاملة للحياة البروزوية ،  
وهنا نشهد أماننا منظرًا جديدًا ، إذا استولت على العالم مملكة نباتية جديدة أقوى بأساً  
ومملكة حيوانية جديدة أشد قوة .

وإنه لشهد لا يزال به أثر الزمهرير والجلب ذلك الذى يفتح به هذا المجلد الجديد  
من سفر الحياة . فإن الحزازيات والخروطيات<sup>(١)</sup> الاستوائية حلت محلها إلى حد كبير  
أشجار تنفص أوراقها توقيًا للهلاك من ثلوج الشتاء ، كما أن نباتات وشجيرات ذات  
أزهار قد ظهرت ، وأخذت أنواع متزايدة من الطيور والتدييات تستولى على تراث  
كثرة عظيمة من الزواحف .

---

(١) الخروطيات : Conifers قيمة من النبات من أمثال الصنوبر . . .



# الفصل الثامن

## عصر الثدييات

كان مطلع الزمن الكاينوزوى الفترة التالية الكبرى من فترات حياة الأرض ، حافلا بالارتفاعات فى القشرة الأرضية والنشاط البركانى الشديد . وذلك هو الأوان الذى دفعت فيه إلى أعلى الكتل الجبلية الشاسعة : الألب والهملايا ، كما رفعت سلاسل جبال روكى والأنديز التى يشبهونها بالعمود الفقرى ، وذلك أيضا هو الأوان الذى ظهرت فيه للعالم الإجمالية لمخطاتنا وقاراتنا الراهنة ، وفى ذلك الأوان أيضا تتخذ خريطة العالم مسحة مشابهة أولية طفيفة لخريطة أيا مانا هذه وتقدر للدة التى تفصل عصرنا وأوائل الزمن الكاينوزوى بما يتراوح بين أربعين وثمانين مليوناً من السنين .

كان مناخ العالم صارما قاسيا عند بداية الزمن الكاينوزوى ، ثم أخذ يتدرج إلى الدفء على وجه العموم حتى دخل فى دور جديد من أدوار الوفرة والغناء الغزير ، مالبث أن تحول بعده إلى دور جديد من العصر والإحمال ؛ ومرت الأرض فى سلسلة من التورات للفرطة البرودة ، هى الصور الجليدية التى يلوح أنها تخرج منها الآن ببطء .

غير أن معارفنا عن أسباب التغيرات للنخية ليست فى الوقت الحاضر من الكفاية بحيث تمكننا أن نتكهن بما يحتمل حدوثه من تقلبات فى الأحوال للنخية التى يحجبها لنا القدر . وربما كنا نسير نحو المزيد من الدفء وضيء الشمس ، أو نلتكس نحو زهمرير عصر جليدى آخر ؛ وربما كان النشاط البركانى ورفع الكتل الجبلية أخذاً فى الزيادة وربما فى نقصان ، فلنا ندرى عن ذلك شيئا ، إذ يعوزنا القدر الكافى من العلم .

وبابتداء هذه الفترة تظهر الأعشاب بأنواعها ، ويظهر للرعى فى العالم لأول مرة ، وباكتمال تطور النوع الثديى الذى كان مغموراً فيها سلفه ، يظهر عسدد من

الحيوانات الشائعة الآكلة للشعب ، كما يظهر عدد من أنواع الحيوانات الآكلة للحوم التي تعيش على تلك .

وهذه الثدييات الأولى لم تكن تختلف في البداية فيما يلوح إلا في بضع خصائص مميزة فقط ، عن الزواحف الآكلة للشعب والآكلة للحوم التي ازدهرت قبل ذلك بصورة مدهورة ثم بادت من الأرض . وربما زعم مشاهد غير مدقق أن الطبيعة في هذا العصر المديد الثاني من عصر الدهر والوفرة ، الذي شرع يبدأ آنئذ ، إنما كانت فقط تكرر العصر الأول ، مع قيام الثدييات الآكلة للشعب والحوم مقابل العاشب واللاحم من الدناصير ، ومع حلول الطير محل التيرودا كتيلا وهكذا . على أن هذا إما يكون مقارنة سطحية بحتة . ذلك أن تغير الدنيا لا ينتهي ولا يقف عند حد ، فهو يتقدم تقدما أبديا ، والتاريخ لا يمد نفسه أبداً ، وليس هناك أية متانلات تتطابق صورها بالضبط تماماً . والفروق بين صورتى الحياة في الزمن الميزوزوى وشقيقه الكاينوزوى أعمق كثيراً من أوجه التشابه .

وأهم هذه الفوارق الجوهرية إنما يقوم في الحياة العقلية للثنتين . وهو يلاحظ بالضرورة عن استمرار العلاقة بين الوالد والولد ، تلك العلاقة التي تميز حياة الثدييات ( وحياة الطيور بدرجة أقل ) عن حياة الزواحف ، والزواحف - باستثناء القليل النادر منها - ترك يضها يفتس وحده . فالزاحف الصغير لا يحرف والديه أدنى معرفة ، وحياته العقلية - كما هو الواقع - تبدأ وتنتهى بمخبراته الخاصة . وربما سمح بوجود أبناء نوعه إلى جواره ، ولكن ليس بينه وبينها أى اتصال ، وهو لا يقلدها أبداً ، ولا يتعلم منها أبداً ، كما أنه غير قادر على القيام بأى جهد مشترك معها . غيابه حياة فرد منعزل . ولكن نشأت مع إرضاع الصغار وتدليلها - وهما من مميزات السلالتين الجديديتين ، الثدييات والطيور - حالة جديدة هي إمكان التعلم بالحاكاة والتواصل بصيحات التحذير وغيرها من الأعمال الجمعية ، والهيمنة والإرشاد المشترك . لقد ظهر في العالم طراز من الحياة قابل للتعلم .

والمنع عند أقدم ثدييات الزمن الكاينوزوى لا يفوق في الحجم إلا قليلا مع الدناصير الآكلة للحوم والأكثر نشاطاً ، ولكن كلما قربنا صفحات السجل متجهين نحو الزمن الحديث ، وجدنا زيادة عامة ثابتة في سعة الفراغ الحى<sup>(١)</sup> في كل قبيل وسلالة من

---

(١) سعة الفراغ هي حجم للخ ومدى السماع الجمعية من الداخل .

سلالات الحيوانات الثديية . مثال ذلك ، أننا نلاحظ في مرحلة مبكرة نسبيا وجود وحوش تشبه الكركدن . فإنا نجد في أبكر عهود تلك الفترة مخلوقا هو التيتانوثيروم ؟ الراجح أنه كان شديد الشبه بالكركدن المصري في عاداته وحاجاته ، ولكن فراغ عنه لم يصل إلى عشر ما خلفه الحي .

ويمحتمل أن الثدييات الأولى كانت تفرق عن نسلها بمجرد انتهاء الرضاعة ، ولكن ما كادت القدرة على التفاهم للتبادل تنشأ حتى صارت مزايا الاستمرار في الترابط بين الصغار والكبار عظيمة جدا ، لذا لاثبت أن نجد عدداً من أنواع الثدييات التي تتجلى فيها بدايات حياة اجتماعية حقة ، وتعيش مجتمعة في أسراب وقطعان وعلان وهي تلتصق بعضها بعضا ، وتلد بعضها بعضا وتتلقى التعذيرات من أعمال الآخرين ومصباتهم وذلك شيء جديد لم يره العالم من قبل بين الحيوانات الفقارية . ولا شك أن الزواحف والأسمك قد توجد في أسراب وأفواج ؛ ولكن مرد ذلك أنها تقست بكيات وعملت الظروف للتشابه على استبقائها معا ، أما الترابط في حالة الثدييات الاجتماعية لليلة إلى التجمع فلا يلبث أن يقطع عن وجود مجموعة من العوامل الخارجية ، بل يدعمه دافع داخلي وهي ليست مجرد كائنات متشابهة ، وجدت صدقة في نفس الأماكن في نفس الأوقات ، بل هي تحب بعضها بعضا ولذلك فهي تتواجد معا .

والظاهر أن هذا الفارق بين عالم الزواحف وعالم العقول البشرية شيء لانستطيع تجاهله من الناحية العاطفية ، فليس في إمكاننا البتة أن ندرك في أنفسنا تلك الضرورة لللغة الساذجة التي تتحكم في الدوافع الغريزية عند الزواحف من شهوات وخافوف وكراهية . ولسنا بمستطيعين أن نفهمها فيما هي عليه من بساطة ، وذلك لأن جميع دوافعنا معقدة ؛ فدوافعنا موازنات ونتائج وليست مجرد ضرورات ملحة بسيطة . إن الثدييات والطيور تصنف بكبح للنفس واعتبار لحقوق الآخرين ، وتحابوب اجتماعي ؛ أى ضبط للنفس مهما يبلغ انخفاض مرتبته فإنه شيء بما نحن عليه ونتيجة لذلك نستطيع أن ننسئ العلاقات مع جميع أنواعها تقريبا . فإذا هي أحست ألما أطلقت الصيحات وأنت بالحرركات التي تحرك مشاعرنا . وفي إمكاننا أن نتخذ منها حيوانات منزلة ألفة تفهمنا وتميزنا وتميزها . وفي الإمكان ترويضها حتى تقدر على ضبط نفسها إزاءنا وأن تستأنس وتعلم .

إن ذلك القوم غير الاعتيادي للمخ ، الذي هو أم حقائق الزمن الكاينوزوى يسجل وجود ارتباط جديد بين الأفراد واعتماد بعضهم على بعض . كما أنه البشير الآذن بتطور الجماعات الإنسانية الذي سنحدثك به من فورنا .

وكما انكشف لأبصارنا المزيد من صفحات الزمن الكاينوزوى تزايدت درجة المشابهة بين حيوانه ونباته وبين ما يقطن العالم اليوم من حيوان ونبات . أجل إن الويتاثيريات (Uinathères) والتيتانوثيريات (Titanotheres) الضخمة القبيصة الشكل . قد انقضت ؛ وهى وحوش ضخمة قبيصة ليس بين أحياء هذا العصر ما يشبهها غير أن جماعات متسلسلة من الأشكال الحيوانية أخذت ترتقى بخطى ثابتة متواصلة من أسلاف بشعة مضطربة حتى تحولت إلى زرافة عالمنا الحاضر وجملة وحسانه وفيلته وطيائه وكلابه وأسوده وبيوره<sup>(١)</sup> . أما الحصان فنشوءه وتطوره تقرأ سطورهما واضحة بوجه خاص في صفحات السجل البيولوجى . فإن لدينا سلسلة كاملة نوعا ما من أشكال الحصان تبدأ في بكور الزمن الكاينوزوى بسلف صغير يشبه التاير<sup>(٢)</sup> . ثم إن هناك سلسلة أخرى من سلاسل التطور تم اليوم تجميع أجزائها في شيء من الضبط ، هى سلسلة اللاما والجل .

---

(١) البير وجمعه البيور Tiger : ضرب من الأسد عظيم وليس هو النمر كما تسميه العامة

(٢) التاير Tapir أحد الثدييات آكلة الشب يقبضه الغرير موطنه أمريكا الوسطى والجنوبية

وجزائر الهند الشرقية .

## الفصل التاسع

### القرود والقردة العليا<sup>(١)</sup> وأشباه الإنسان

يقسم علماء الطبيعة الثدييات إلى عدد من الرتب ، ويجعلون على رأس هذه رتب الثدييات العليا التي تحتوي على الليمور والقرود والقردة العليا والإنسان . والأصل في ذلك التصنيف هو وجود أوجه تطابق تشريحية بينها ، ولا دخل فيه لأي صفات عقلية .

والواقع أن من أشق الأمور تبين معالم التاريخ القديم للثدييات العليا في السجل الجيولوجي . ذلك أنها في الغالب حيوانات تقطن الغابة كالليمور ( المبار ) أو القردة التي تقيم في الأماكن الصخرية الجرداء كالبايون ( الرباح ) . ومن ثم قلما غرق الواحد منها وغطته الرواسب ، كما أن معظمها من أنواع قليلة العدد ، ولذا لا يكثر وجودها بين الحفريات كأسلاف الحصان والجمال وما إليها . ولكننا نعلم أنه حدث في عهد مبكر من الزمن الكينوزوي ، أي منذ ما يقارب الأربعين مليوناً من السنين ، أن ظهرت القردة البدائية والمخلوقات شبه الليمورية الأولى ، وكانت أصغر حجماً وأدنى تخصصاً من أخلافها المتأخرة .

وما لبثت أن دنت نهاية الصيف العالمي العظيم الذي ساد الدنيا في الزمن الكينوزوي الأوسط . وكان مصيره مصير الصيغتين النظيمين الآخرين في تاريخ الحياة : صيف مستنفعات الدم ، والصيف الهائل الذي هو عصر الزواحف ، وللمرة الثانية دارت الأرض دورتها واتجهت نحو عصر جليدي . فبرد مناخ العالم ، ثم اعتدل فترة من الزمن ثم تلج حمة ثانية وكانت أفراس البحر ترتفع في اللاصق الذي بين نباتات غضة شبه مدارية ، وكان يبر هائل له ناب مثل السيف هو الير للسيف ، يتصيد فرائسه في المنطقة التي بذرها

---

(١) القردة العليا هي أرقى أنواع القرود التي تتبعها الإنسان ولا ذيل لها أو تكاد .

الصعقون اليوم ذهاباً وجيئة في شارع فليت بلندن<sup>(١)</sup> . ثم جاء عصر مكهر قارس  
فصور أهد برداً وزمهريراً . فأدى ذلك إلى غربة<sup>(٢)</sup> كثير من الأنواع وإبادة كثير  
غيرها ، وظهر في المشهد خرتيت صوفى مكيف للمناخ البارد ، كما ظهر للماموث وهو ابن  
عم ضخم لليل ذو صوف غزير ، وظهر ثور السك القطبي وغزال الرنة .

ثم أخذ وشاح الجليد القطبي ، وأخذ شبح الموت الثلجى في العصر الجليدى يزحف  
نحو الجنوب قرناً بعد قرن فامتد في إنجلترا حتى داني منطقة التاميز ، ووصل في أمريكا  
إلى نهر الأهمو : ثم جاءت آماداً أكثر دفئاً فزاعها بضع آلاف من السنين ، ولكن  
أعقبها ارتكسات نحو البرد للررر .

ويطلق الجيولوجيون على هذه الأدوار الشتوية اسم العصر الجليدى الأول والثانى  
والثالث والرابع ، كما يطلقون على ما بينها من فترات اسم العصور « بين الجليدية » ...  
ونحن إنما نعيش اليوم في عالم لا يزال يئن من آثار الجذب والجراح التى خلفها ذلك  
الشتاء الرهيب . والعصر الجليدى الأول قد حل بهذه الدنيا منذ ستمائة ألف سنة ؛ على  
حين بلغ العصر الجليدى الرابع أقصى زمهريره للررر منذ خمسين ألف سنة تقريباً .  
وفى هذا الشتاء الطويل الشامل ، وبين التلوج القارسة طاشت على كوكبنا هذا أول  
السكانات الشبيهة بالإنسان .

وعندما حل الزمن الكاينوزوى الأوسط كانت قد ظهرت قردة عليا متعددة ،  
ذات خواص شبه إنسانية كثيرة فى الفك وعظام الساق ، ولكننا لانعثر على أية آثار  
لخالوقات نستطيع أن نتعها بأنها « إنسانية على وجه العموم » إلا عند اقترابنا من هذه  
الأعصر الجليدية ؛ وليست هذه عظاما بل أدوات . إذ عثر للقبون فى أوربا ، فى  
رواسب تعود إلى تلك الفترة عمرها يتراوح بين نصف المليون أو للمليون من الأعوام ،  
على عثرات وأحجار يتجلى فيها بوضوح أنها نحتت قصداً بيد مخلوق ذى مهارة يدوية  
يريد أن يطرُق أو يحدش أو يقاتل بالحد المشعوز .

وقد سميت هذه الأشياء باسم الأدوات الحجرية الأولى ( Eoliths ) . وليس فى

---

(١) موحى الصحافة بالاسم البريطانية .

(٢) الغربة : التنقية وإزالة ما لا خير فيه .

أوروبا أية عظام ولا أية بقايا أخرى لذلك المخلوق الذى صنع تلك الأشياء ، وإنما توجد الأشياء نفسها وحسب . ومهما يكن قدر ما يخالجننا من يقين أو شك فى شأنه ، فلمله لم يكن إلا قرداً غير إنسانى تماماً ، وإن يكن ذكياً . ولكن حدث أن أحد العلماء عثر فى « ترينل Trinil » بجزيرة جاوة ، وبين ركاب يعود إلى ذلك العصر نفسه ، على قطعة من جمجمة وأسنان وعظام مختلفة لنوع ما من إنسان قردى ، له وعاء عظمى (١) أكبر من وعاء أى قرد راقى يعيش الآن ، ويلوح أنه كان يسير منتصب القامة ويسمى هذا المخلوق الآن باسم الإنسان القردى للتعصب القامة ( *Pithecanthropus erectus* ) ، كما أن هذا القدار الضئيل من عظامه هو كل ما بقيه خيالنا من العرون حتى الآن فى تصوره لصنع الأدوات الحجرية الأولى .

ثم لانتشر بعد ذلك فى السجل على أى جزء آخر من كائن شبه إنسانى إلا عندما تبلغ ربما بقارب عمرها ربع مليون سنة . ولكن الأدوات كثيرة ، كما أنها تتحسن تحسناً مطرداً كلما تقدمنا فى مطالعة صفحات السجل . فهى لم تعد أدوات حجرية أولية قبيحة الصورة ، بل هى أدوات حسنة للنظر صنعت بمهارة كبيرة فضلاً عن أنها أكبر كثيراً من مثيلاتها من أدوات صنعها بعد ذلك الإنسان الحق .

ثم ظهرت بعد ذلك فى حفرة رملية قريب « هيدلبرج » عظمة فك مفردة شبه إنسانية ، وهى عظمة فك قبيحة الصورة ، مجردة من الدفن تجرداً تاماً ، وهى أثقل كثيراً من أية عظمة فك إنسانية حق ، ولكنها أضيق ضيقاً يرجع معه أن لسان صاحبها لم يكن ليستطيع أن يتحرك فيه بالنطق الواضح البين . ويستنتج رجال العلم من قوة عظمة الفك هذه ، أن هذا المخلوق كان وحشاً ضحاً كالإنسان تقريباً ، ربما كانت له أطراف وأيد ضخمة ، وربما كان جسمه مكسواً بطبقة كثيفة من الشعر ، وهو يسمى باسم إنسان هيدلبرج .

وعندى أن عظمة الفك هذه من أقدم الأشياء استشارة لرغبتنا فى الاستطلاع ، وكأنى بالنظر إليها يشبه النظر إلى الماضى من خلال عدسة معيبة ، والحصول بواسطتها

---

(١) الرءاء العظمى (Brain Case) هو الجمجمة ، وتسمى فى علم الأحياء بالغطاء ، ويسمى اسماعها من الداخل بالفراغ العظمى .  
( ٤ — تاريخ العالم )

على لغة واحدة متشابهة لتلك المخلوق ، وهو يذلف متاقلا خلال البرية الباردة اللوحشة ، وينسلق للرتفعات ليتجنب البر السيف ، ويرقب الكركدن الصوفي في الغابات . وإذا بالوحش يحتق عن نواظرنا قبل أن يتاح لنا أن نحصه . ومع ذلك فإن ثربة الأرض ملوءة بوفرة تلك الآلات غير القابلة للبل التي نعمتها لينتفع بها .

ومما بقايا أخرى أشد فتنة وغموضا ، وجدت في « بلتداون » بمقاطعة ساسكس في طبقة يقدر عمرها بما يتراوح بين مئة ألف ومئة وخمسين ألفا من السنين ، وإن جنح بعض النقاد إلى إرجاع عمر هذه البقايا بالذات إلى زمن أقدم من عظمة فك « هيدلبرج » .

وهذه البقايا هي جزء من مجموعة غليظة شبه إنسانية أكبر كثيرا من مجموعة أبة قردة عليا موجودة في الوقت الحاضر ، ومنها عظمة فك تشبه عظام الشمبانزي ، ربما كانت تابعة لنفس المخلوق وربما لم تكن ، هذا إلى قطعة من عظم الفيل على شكل للضرب ، تتصل فيها النتاية في الصنع ، وقد تعقب فيها ثقب واضح لاشك فيه . وهناك أيضاً عظمة غدة الفزال عليها قطوع وحزوز كالتي توجد على قائم العدة<sup>(١)</sup> . ثم لا شيء بعد ذلك . فأى نوع من الوحش كان ذلك المخلوق الذي كان يجلس ويتعقب العظام ؟

لقد مجاهد رجال العلم باسم إنسان الفجر ( Eoanthropus ) ، وهو يختلف عن ذوى قرباه . فهو مخلوق مختلف جدا عن المخلوق الهيدلبرجي ، وعن أى قرد راق آخر يسبق اليوم ، وليس هنالك أى بقايا أخرى تماثل ذلك الكائن . غير أن الحسباء والرواسب التي انقضى عليها مئة ألف سنة فصاعدا تزداد غنى بما يكشف فيها كل يوم من آلات الطيران وما هابه من أحيار . ولم تعد هذه الآلات مجرد « أدوات حجرية أولية » غير مهذبة إذ لا يلبث علماء الآثار ( الأركيولوجيون ) أن يتبينوا فيها : السكاكط والحاريز ، والسكاكين ، والنبال ، وأحجار القذف والبلط اليدوية ..

(١) قائم اليد أو عصا الحساب : Tally ، قطعة من القش تقطع فيها خدوش للدلالة على الأرقام .



فنعن إنما ندنو كثيرا من الإنسان . ومنصف لك في الفصل التالي أعجب هذه الأنواع للؤذنة بظهور البشر ، وهم النياندرتاليون ، القوم الذين كانوا تقريبا - وليسوا تماما - أناسا حقيقيين .

ولكن لعل من الخير أن نذكر هنا بمنتهى الوجوه ، أنه ليس بين رجال العلم من يرى أن أيا من هذين المخلوقين : إنسان هيدلبرج ، وإنسان الفير ، هو السلف المباشر للإنسان العصري ، وإنما هما - مهما دنت قرابتهما - أشكال تحت إليه بالقرى .

## الفصل العاشر

### الإنسان النياندرتالي والروديسي

كان يعيش على الأرض منذ قرابة خمسين أو ستين ألف سنة خلت ، وقيل بلوغ العصر الجليدي الرابع أوجه ، غلوق بلغ من قوة مشابهته للإنسان أن بقاياه كانت تعد إلى بضع سنوات مضت بشرية تماما . ولدينا الآن منه جماجم وعظام وكية ضخمة من الآلات الكبيرة التي كان يصنعها ويستعملها . كان يستطيع أن يوقد النار . وكان يلتجئ إلى الكهوف أثناء البرد . ولعله كان يجهز الجلود تجهيزاً خشناً ثم يرتديها . كان يسرا يستعمل عظامه كما يفعل الناس .

غير أن علماء السلالات البشرية ( Ethnologists ) يرون اليوم أن هذه الخواص لم تسكن من الإنسان الحق في شيء . بل هم نوع آخر من نفس الجنس ، ولهم فكاك قوية بارزة وجباه منخفضة جدا وحروف حواجب كبيرة بارزة فوق العينين . ولم يكن إجهامهم مما يتقابل والأصابع كإجهام الإنسان ، وقد خلقت أعناقهم على وضع خاص لا يسمح لهم أن يدفعوا رؤوسهم إلى الوراء وينظروا إلى السماء . ولهم كانوا يمشون في استرخاء وروءوسهم مدلاة إلى أسفل منحنية إلى الأمام . وعظام فكاهم العديمة الذقن تماثل فك هيدلبرج ، كما أنها تختلف ففكك الإنسان مغالفة ظاهرة ملحوظة . وبين أسنانهم والأستان البشرية بون بعيد . فلن أضراسهم أشد تعقيدا من أضراسنا ومن يجب أنها أشد تعقيدا من أسناننا وليست دوتها في التعقيد ، إذ ليست لديهم الأسنان الطويلة التي لأضراسنا ؛ وكذلك لم يكن لأشبه الإنسان هؤلاء تلك الأناب التي للكائن الإنساني العادي . على أن سعة جماجمهم إنسانية تماما ، ولكن للمغ أكبر في للؤخرة وأخفض في القدم من للمغ الإنساني . وكان لقدراتهم وملكاتهم العقلية ترتيب آخر مغاير . فهم ليسوا أسلافا للسلالة الإنسانية ، إذ يختلفون عن الأرومة الإنسانية من الناحيتين العقلية والجسدية .

وقد وجدت جماجم وعظام هذا النوع البائد من الإنسان قرب نياندرتال وبضع

أما كن أخرى ، ولذا أطلق على هذا الجنس العجيب من الإنسان الأول اسم إنسان نياندرتال ولعله ظل يقطن أوروبا مئات كثيرة بل آلافا من السنين .

وفي ذلك الأوان كان مناخ عالمنا وجغرافيته مختلفين جدا عما هما عليه في الزمن الحاضر . فكانت أوروبا مثلا مغطاة بجليد يمتد جنوبا حتى نهر التاميز ، ويتوغل حتى ألمانيا الوسطى والروسيا ؛ ولم يكن هناك مضيق إنجليزى ( بحر اللانش ) يفصل بين بريطانيا وفرنسا ، أما البحر للتوسط والبحر الأحمر فكانا واديين عظيمين ، وربما اختوت أجزاؤهما الأكثر انخفضاً على مجموعة من البحيرات كما أن بحرا داخليا عظيما كان يمتد من البحر الأسود الحالى عبر روسيا الجنوبية ، ويتوغل إلى آسيا الوسطى وكانت أسبانيا وكل ما لا يغطيه الجليد فعلا من أجزاء أوروبا - تتكون من مرتفعات جرداء باردة ، مناخها أشد قسوة من مناخ لبرادور ، ولم يكن الإنسان ليجد للمناخ المعتدل إلا حين يصل إلى أفريقية الشمالية .

وكانت تلتقل عبر السهوب الباردة بأوروبا الجنوبية بما جوت من نبات قطبي متناثر ، مخلوقات شديدة التحمل للبرد من أمثال اللاموٲ الصوفى والخرميت الصوفى والثيران الضخمة وغزلان الرنة ، وكلها ولا مراء تتعقب النبات نحو الشمال فى الربيع ونحو الجنوب فى الخريف .

ذلك هو للشهد الذى كان الإنسان النياندرتالى يتجول بين ظهرانيه ، متلقيا من الغذاء ما كان يستطيع أن يلتقطه من أنواع الصيد الصغير أو الفواكه والثمار والجذور ومن المحتمل أنه كان نباتيا فى معظم أمره يمتنع الساليج والجنور . ذلك أن أسنانه للسطحة المحكمة توحى بغذاء يثلج فيه النبات . ولما كنا نرى فى كهوفه أيضاً عظاما ضخمة طويلة لحيوانات كبيرة ، وقد كسرت لاستخراج ما بداخلها من نخاع ومن البديهي أن أسلحته لم تكن كبيرة الجدوى فى القتال مع الوحوش الضخمة وجها لوجه ، ولكن يظن أنه كان يهاجمها بالحرايب عند اللماز الضئيلة للأشجار ، بل حتى يحتفر لها الحفائر ليوقها . ويحتمل أنه كان يتعقب القطعان ويفترس أى فرد منها يموت فى القتال، ولعله قام بدور ابن آوى إزاء البير السيف الذى كان لا يزال حيا فى أيامه . ومن الممكن أن هذا المخلوق قد جنح فى أثناء عمن البصر الجليدى وشدائمه المرة إلى مهاجمة الحيوانات بعد عصور طويلة من التكيف للنبات .

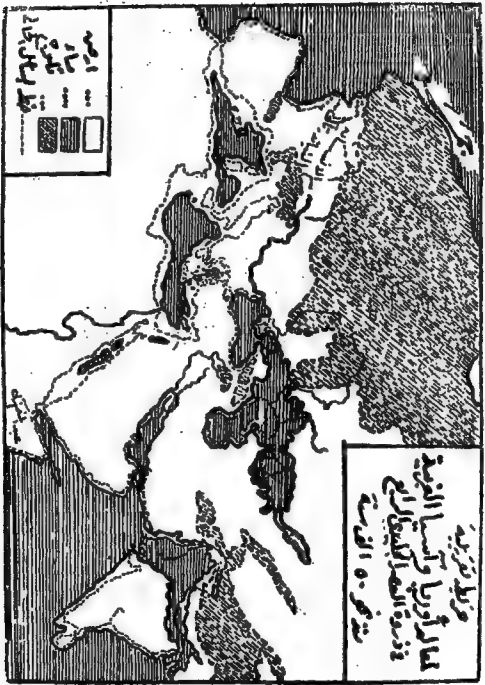
ولسنا نستطيع أن نتخيل هيئة هذا الإنسان التياندرتالى. وأكبر الظن أنه كان غزير الشعر جداً ذو هيئة غير إنسانية حقاً. بل إننا لنبى شك من أنه كان يسير متصب القامة. ولعله كان يستعمل يديه بالإضافة إلى قدميه لحمل جسمه. والراجح أنه كان يضرب فى الأرض بعموده أو فى جماعات غائلية صغيرة، ويدل تركيب فكه على عدم قدرته على الكلام بالصورة التى نتمها.

وقد ظل هؤلاء التياندرتاليون آلاف السنين. ولم أظى ماشهت القارة الأوربية من حيوان؛ ثم حدث منذ حوالى ثلاثين أو خمسة وثلاثين ألف سنة مع تقدم المناخ نحو الدفء قليلاً أن نزح إلى عالم التياندرتاليين من الجنوب. جلس من كائنات تمت إليهم بالقربى، ولسكنه أكثر ذكاء وأوسع معرفة، ثم إنه يتكلم ويتعاون بضه مع بعض - فطردوا المجلس التياندرتالى من كهوفه ومتبجعاته، وتصيدوا نفس الطعام الذى كان يأكله، ولطهم قد قاتلوا سابقيهم هؤلاء البشعين وأعملوا فيهم الفناء. هؤلاء الوافدون من الجنوب أو الشرق (فلسنا نعلم فى الزمن الحاضر بلادهم الأصلية) الذين أبادوا التياندرتاليين آخر الأمر. إبادة تامة، كائنات من نفس معنا وجلسنا، وهم الإنسان الأول الحق. وآية ذلك أن جماجمهم (أوعية أمخاخهم) وإبهاماتهم وأعناقهم وأسنانهم هى من الناحية التشريحية نفس ما لدينا. وقد عثر الباحثون فى كهف عند كرومانيون وفى آخر قرب جرمالسى على عدد من الهياكل العظيمة، هى أقدم مانعرف إلى اليوم من البقايا البشرية الحقة.

وبذلك يدخل جلسنا فى سجل الصخور وتبدأ قصة البشرية.

فى تلك الأيام أخذ العالم يسبح أشبه جالنا وإن بقى المناخ شديداً قاسياً. وقد أخذت ثلاثيات العصر الجليدى فى التراجع بأوروبا؛ وسرعان ما أخلت غزلان الرنة بفرنسا وأسبانيا مكانها لأسراب عظيمة من الخيول كلما تكاثرت الكلا على السهوب، وأخذ للاموت يزداد ندرة فى جنوب أوروبا حتى تراجع فى النهاية نحو الشمال تراجعا مطلقاً...

ولسنا ندرى أين نشأ الإنسان الحقيقى أولاً، ولكن حدث فى صيف ١٩٢١، أن اكتشفت مجموعة بالغة الأهمية مع أجزاء من هيكل عظمى قرب بروكن هل بإفريقيا الجنوبية، مجموعة يلوح أنها بقية صنف ثالث من الإنسان، وسطى فى خواصه للميزة



(خريطة رقم ١)

بين النياندرتالى والكائن الإنسانى الحق ، ويدل الوعاء المحى على أن عنه أكبر فى اللقدم وأصغر فى اللؤخرة من مع النياندرتالى ، كما أن الجمجمة منتصبة فوق العمود الفقرى على شاكلة إنسانية تماماً . وكذلك الأسنان والعظام فإنها إنسانية بمحة ، أما الوجه فالراجع أنه كان شبه قردى له حروف حواجب هائلة مع بروز على امتداد وسط الجمجمة . أجل إن ذلك المخلوق إنسان حق ولكن على وجه التقريب فقط ، لأن له وجهاً نياندرتالياً شبه قردى ، ومن الواضح أن هذا الإنسان الرودى أوثق شهاً بالإنسان الحق من الرجل النياندرتالى .

والراجع أن هذه الجمجمة الرودىسية ليست إلا الدفعة الثانية من مكشفات قد تتكون منها فى النهاية قائمة طويلة من أجناس شبه إنسانية عمرت هذه الأرض فى الفترة الزمنية الهائلة للمنتدة بين بدايات العصر الجليدى وبين ظهور الإنسان الحق وريثها جيماً ، ولعله أيضاً ميدها جيماً ، وربما لم تكن الجمجمة الرودىسية نفسها مفرطة القدم ، إذ أن العلماء لم يصلوا حتى يوم صدور هذا الكتاب إلى قرار دقيق بشأن عمرها المحتمل ، وربما كان هذا المخلوق شبه الإنسانى يعيش فى إفريقيا الجنوبية حتى أزمئة حديثة جداً .

## الفصل الحادى عشر

### الإنسان الحقيقى الاول

إن أقدم ما يعرفه العلم فى زماننا هذا من العلامات والآثار لبشر لا يتطرق الشك إلى قرابتهم لدوات أنفسنا، عثر عليه فى أوروبا الغربية وخاصة فرنسا وأسبانيا. فقد اكتشفت فى كل من هذين القطرين عظام وأسلحة وخدوش على العظام والصخر وقطع من العظم المحفورة ورسوم على جدران الكهوف وعلى سطوح الصخر، ترجع فيها بظن إلى ثلاثين ألف سنة أو أكثر. وأسبانيا هى فى الوقت الحاضر أغنى بقاع العالم بتلك البقايا المتخلفة عن أسلافنا من بشر حقيقيين.

ومن البديهي أن مالدنيا فى الوقت الحاضر من مجموعات من تلك الأحياء ليس إلا قطرة من البحر الطامى الذى ينتظر جمعه مستقبلا ، يوم يتواجد العدد الكافى من النشقين للقيام بفحص استقصائى شامل لجميع المصادر الممكنة ؛ ويوم يتاح لطعام الآثار ارتياد بقية أقطار العالم الأخرى التى يحال بينهم اليوم وبين دخولها ، فيحصونها فى شيء من التفصيل . فمن المعلوم أن الشطر الأكبر من إفريقيا وآسيا لم يتيسر اختراقه البتة حتى اليوم لمشاهد مدرب بهم هذه الأمور ويستمتع بحرية الارتياح ، وعلى ذلك يلبنى لنا أن نحرص الحرص كله من أن نستنتج أن الإنسان الحق الأول امتازت به أوروبا الغربية أو أنه ظهر أولا بتلك المنطقة .

وربما انطوت آسيا أو إفريقيا أو مناطق يخطها اليوم البحر ، على رواسب تحوى بقايا إنسانية حقة أكثر عدداً وأقدم عهداً من أى شيء عثر عليه حتى يومنا هذا . إنى أنكلم عن آسيا وإفريقيا . ولا أذكر أمريكا ، إذ لم يعثر فيها - عدا من واحدة - على أى شيء يعود إلى الحيوانات العليا ، سواء أكانت من القرود العليا أو أشباه الإنسان أو اليناندرتالين ، أو الإنسان الأول الحقيقى . ذلك أن هذا التطور الذى تناول الحياة ، يلوح أنه شيء اقتصر أمره على العالم القديم وحده تحريماً ، والظاهر أن الكائنات الإنشائية

لم تتخذ طريقها إلى القارة الأمريكية لأول مرة فوق البرزخ الأرضى الذى يحترقه الآن مضيق بهرنج ، إلا عند نهاية العصر الحجري القديم .

ويبدو أن الكائنات الإنسانية الحقيقية الأولى التى نعرفها فى أوروبا ، كانت تتسبب بالفعل لأحد جنسين على الأقل متميزين تماماً أحدهما عن الآخر ، وكان أحد هذين العنصرين من طراز راقى جداً فهو طويل القامة صكبير اللخ . وهناك جمجمة لإحدى النساء يفوق فراغها الخى فراغ مخ الرجل المتوسط فى هذه الأيام . كما أن أحد هياكل الرجال يتجاوز الستة الأقدام طولاً . أما طراز الأجسام فيشبه طراز الهنود الحمر بأمريكا الشمالية . وقد سمى هذا الشعب باسم الكرومانى نسبة إلى كهف كرومانيون الذى وجدت فيه أولى بقاياه . كانوا متوحشين ولكنهم متوحشون من طراز راقى .

فأما العنصر الثانى الذى عثر على بقاياه فى غار جرماندى ، فكان عنصراً ذا سمات شبيهة زنجية (نجرىدي)<sup>(١)</sup> لاشك فيها . وأقرب الأحياء إليه هم شعبا البوشمن والهوتنتوت بجنوب إفريقيا . ولعله لما يثير اهتمامنا أن نجد البشرية منقسمة فعلاً منذ ابتداء قصة الإنسان للعروقة إلى عنصرين رئيسيين اثنين على الأقل ؟ وقد يجمع للمرء منا إلى أن يفترض غير أساس على أن العنصر الأول كان على الأرجح أسمر أكثر منه أسود وأنه جاء من الشرق أو الشمال ، وأن الثانى كان أميل إلى السواد منه إلى السمرة ، وأنه جاء من الجنوب الاستوائى .

هؤلاء للتوحشون الذين كانوا يعيشون منذ أربعين ألف سنة بلع من انصافهم بالتهات البشرية أنهم كانوا يشيرون الودع ليستعوا منه القلائد ، وينقشون أجسامهم ، ويسمنون القاتيل من الحجر والعظام ، ويخدشون الصور على الصخور والعظام ، ويرسمون على جدران الكهوف للنساء ، وعلى سطوح الصخور التى تصيهم رسوماً للحيوان وما شابهه ، قد تكون ساذجة ، ولكنها تم فى الغالب على مقدرة كبيرة .

وقد صنعوا أنواعاً كثيرة من الأدوات ، أصغر حجماً وأدق صنماً مما كان للرجل

---

(١) النجرىدي Negroid هو العنصر الذى بقاياه الزنجى الشكل والسمات وإن لم يكن زنجياً بحتاً . (للترجم -)



التياندر تالى. وبتحافنا الآن مقادير عظيمة من أدواتهم ، وثمانيلهم الصغيرة ، وما خلفوا من صور على الصخور إلى غير ذلك .

وكان أقدم هؤلاء للتوحشين صيادين ، أهم ما يتصيدونه الحصان البرى ، وهو السيسى الصغير للمتنحى الذى كان يعيش فى تلك الأزمان . كانوا يتعقبونه فى مسيره وراء الرعى وكذلك كانوا يتلبعون الجاموس البرى «البيزون» . وقد عرفوا اللاموث ، فإنهم تركوا لنا صوراً أخاذة رائعة لتلك المخلوق وهناك رسم مبهم إلى حد ما ، يدل على أنهم كانوا يوقصونه فى الجبال ويقتلونه .

وكانوا يصطادون بالحرايب وبالقفز بالأحجار . ولا يلوح أنهم كانوا يملكون القوس ، وإنما لنى شك من أنهم حتى حينذاك قد تعلموا استئناس الحيوان . ولم تكن لديهم كلاب . وهناك صورة محفورة لرأس حصان ورسم أو اثنان كانى بهما يمثلان حصاناً ملجأ ، وحوله جلد أو وتر مجدول . على أن الخيول الصغيرة فى ذلك العصر وتلك المنطقة لم تكن لتستطيع أن تحمل رجلاً ، ولو فرض أنهم استأنسوا الحصان ، فالراجح أنهم كانوا يقودونه دون أن يركبوه . وما نشك فيه ولا ترجمه أنهم تعلموا طريقة الاغتذاء بلبن الحيوان وهى شىء غير طبيعى أو يكاد .

وليس يبدو أنهم عرفوا البناء ، وإن جاز أنه كانت لهم خيام من الجلد ، وهم وإن قاموا بصنع دى من الطين فإنهم لم يرتقوا قط إلى مرتبة صنع الفخار . ولما لم تكن لهم أدوات طبع ، فلا بد أن طبخهم كان بدائياً أو لا وجود له البتة . وما كانوا يعرفون عن الزراعة شيئاً ، ولا شيئاً عن أى نوع من أنواع صنع السلال أو القماش للسلوج . ولولا ما كان لهم من أردية من الجلد أو الفراء ، لجاز لنا أن نقول إنهم من للتوحشين العراة للنقوش البشرية .

ظل هؤلاء الناس الذين هم أقدم من نعرف من البشر يتصيدون على سهوب أوروبا للنبسطة دهرًا لعهده مائة قرن ، ثم أخذت خيبرات اللناخ تعمل فيهم فطما وتبدل نشأت أحوالهم . فإن مناخ أوروبا أخذ يتحول قرناً بعد قرن ، ويصبح أكثر اعتدالاً ومطرًا فتراجع غزال الرنة نحو الشمال والشرق ، وعقبه الجاموس البرى والحصان . وخلصت الثيابت محل السهوب ، وحل الغزال الأحمر محل الحصان والجاموس البرى ، وظهر فى الأدوات وصفاتها خير صلب هذا الثير فى استعمالها ، وبات الصيد من الأشياء

والبحيرات ذا أهمية كبرى للإنسان ، وتزايدت الأدوات العظمية الرفيعة . يقول دى مورتليه : « إن الإبر العظمية في هذا العصر أجود كثيراً من المتأخرة عنها في الزمن ، حتى ما كان منها في الأزمنة التاريخية إلى عصر النهضة . فلم يكن للرومان مثلاً إر يمكن مقارنتها بإر تلك الحقبة » .

ثم انتقل إلى جنوب أسبانيا منذ حوالي خمسة عشر ألف سنة شعب جديد من آثاره صور رائعة جداً ، رسمها على سطوح الصخور للكشفة . هذا الشعب هو الأزيليون (نسبة إلى كهف ماس دازيل (Mas d'Azil) . وقد عرفوا القوس ؛ ويلوح أنهم كانوا يلبسون أغطية للرأس من الريش ؛ وكانوا يرسمون رسوما مشرقة ، ولصكهم حولوا رسومهم إلى نوع من الرمزية - فالرجل مثلاً يمثل عندهم بخط رأسى من خطين أقصين أو ثلاثة - وفى ذلك ما فيه من تلويح بيزوغ فكرة الكتابة . وكثيراً ما تجد بإزاء رسوم تخطيطية تمثل الصيد علامات كالتي على قائم العد ، وثم رسم يمثل رجلين يطردان الثعلب من خليته بالخان .

هؤلاء القوم هم آخر الأناس الذين نسميهم بالبالويليين أهل العصر الحجري القديم لمجرد أنهم نحتوا الأدوات ، ثم بزغ فى أوروبا منذ عشرة آلاف أو اثنى عشرة ألف سنة فجر طريقة جديدة من طرق العيش ، إذ تعلم الإنسان لا أن ينعت الآلات الحجرية لحسب بل أن يصقلها ويشحنها ، كما أنه شرع فى الزراعة . وبذلك أقبلت بداية حضارة العصر الحجري الحديث ( النيوليثى ) .

وقد يشوق القارئ أن يعلم أنه كان هناك منذ أهل من قرن مضى فى صقع ناء من العالم ، هو جزيرة تسانيا ، عنصر من كائنات بشرية على مستوى من التطور الجمائى والعقلى أخفض من أى من هذه الأجناس البشرية الأولى التى تركت آثارها فى أوروبا . لقد قطع هذا الشعب التسجائى عن بقية الجنس البشرى منذ آمام طويلة بفعل تغيرات جغرافية ، كما قطع عن عوامل التلبية والتحسن . ويلوح أنهم انحطوا بدل أن يتطوروا وبرتقوا وعندما اكتشفهم للكتشفون الأوربيون ، وجدوهم يعيشون عيشاً خفيضاً مفتزين بالهار والصيد الصغير ، ولم تكن لهم مساكن بل متعجات ، ولا شك أنهم رجال حقيقيون من نفس نوعنا ، ولكن تعوزهم المهارة اليدوية واللواهب الفنية التى كان الإنسان الحق الأول يتحلّى بها .

## الفصل الثاني عشر

### الفكر البدائي

لنطلق الآن لأفكارنا العنان لنجول في عالم الخيال بضع جولات ممتعة ؛ فكيف كان الإنسان الأول يشعر بإنسانيته في تلك الأيام الأولى للغامرة البشرية ؟ وكيف كان الرجال يفكرون وفيهم كانوا يفكرون في تلك الأيام السحيقة من الصيد والتجول قبل أربعمائة قرن سفلت وقبل ابتداء أوان البذار والمحصول ؟ تلك أيام تسبق بزمن مديد كل سجل مكتوب بدون الانطباعات والأفكار الإنسانية ، لذا ليس أمامنا الآن من سبيل إلا أن نركن إلى الاستنتاج والتخمين دون غيرها في إجابتنا عن هذه الأسئلة .

وغنى عن البيان أن المصادر التي لجأ إليها رجال العلم حين حاولوا تصور تلك العقليّة البدائية وإعادة تركيب أجزائها معاً ، متنوعة جداً . ففي العصر الحديث يلوّح لنا أن علم التحليل النفسي قد أتى قدراً عظيماً من النضال على تاريخ الجماعة البشرية البدائية ، بأسلوبه الذي يتفحص الطريقة التي بها تكيف الدوافع الأنانية والمطافية في الطفل . أو تعدل أو تغطي بأشياء أخرى ، حتى يتيسر تكيفها وفق حاجات الحياة الاجتماعية<sup>(١)</sup> ؛ وثمة مصدر آخر للاستنتاج داني القطوف ، هو دراسة أفكار وعادات للتوحشين الذين لا يزالون يعيشون في هذا العالم . وهناك أيضاً ضرب من التحقير<sup>(٢)</sup> والجمود العقلي نجده في الفولكلور ( الأدب الشعبي ) وفي الحزجيات والتعيزات غير للعقولة العميقة الرسوخ في النفوس والتي لا تزال موجودة بين الشعوب العصرية المتقدمة . ثم إن لنا في تلك الصور والتماثيل والرسوم المحفوظة والرموز وما أشبهها مما يكثر عدداً ويزيد كلما اقتربنا من عصرنا الراهن لشواهد واضحة الدلالة على ما كان الإنسان يراه مشوقاً له وجذيراً بالتسجيل والتخيل .

---

(١) انظر في هذا الموضوع كتاب : « مدخل إلى علم النفس الحديث » ترجمة للترجمان شنت  
تفصيلاً لنظريات التحليل النفسي .

(٢) التحقير : تحول الشيء إلى حقيرة من الحفريات . وهو هنا يعني مجازي هو التجرد والتصور المطلق وبقاء القديم على صفته ( للترجم )

والراجح أن الإنسان البدائي كان يفكر بطريقة تشبه كثيراً طريقة تفكير الأطفال أعني أنه كان يفكر في سلسلة من الخيالات . فكان يستدعي إلى مخيلته الصور العقلية للأشياء أو كانت الصور العقلية<sup>(١)</sup> تقدم بنفسها لعقله ، كما أنه يتصرف حسباً عليه عليه الاتعمالات التي تثيرها تلك الأخيلة . وذلك هو ما يفعله في هذه الأيام طفل أو شخص غير متعلم . ومن الواضح أن التفكير للنظم إنما هو تطور متأخر نسبياً في الخبرة الإنسانية وهو لم يلعب دوراً كبيراً في الحياة الإنسانية إلا في غضون الثلاثة الآلاف سنة الأخيرة . بل إن أولئك الذين يضبطون أفكارهم حقاً في هذه الأيام نفسها وينظمونها فعلا ليسوا إلا أقلية ضئيلة من الناس . ولا يزال معظم الناس يتأثرون بالخيال والعاطفة .

ومن المحتمل أن أقدم ما ظهر من الجماعات البشرية إبان المراحل الأولى لقصة الإنسان الحق ، كانت تتكون من مجموعات عائلية صغيرة . وكما أن قطعان ورعائل الثدييات الأولى نشأت عن عائلات ظلت بعضها مع بعض ثم تكاثرت ، فمن المحتمل أيضاً أن القبائل الأولى قد فعلت مثل ذلك . ولكن قبل حدوث ذلك ، كان الأمر يقتضي أن تقيّد بصورة ما أنانيات الفرد البدائية . وكان لابد من بسط فكري « الخوف من الأب واحترام الأم » حتى تتغلب في حياة الكبار ، وكانت لابد من تخفيف خبرة الرجل الكهل الطبيعية من ذكران الجماعة الصغار عندما يكبرون . وكانت الأم من الناحية الأخرى هي الناصح الطبيعي والحامي الفطري للصغار . وقد تولدت الحياة الاجتماعية الإنسانية عن طريق التفاعل بين القرينة الفعلة التي تدفع الصغار إلى الانفصال وتكوين أزواج من أنفسهم عندما يشبون - وبين ما يتعرضون له من أخطار العزلة ومضارها . وهناك عالم من علماء الأجناس البشرية ( Anthropology ) أوفى عبقرية عظيمة هو « ج. هـ. أتكينسون » راح في كتابه « القانون البدائي » ، يوضح إلى أي حد يمكن نسبة القانون الرفيع لدى التوحشين - ( وهو تلك تلك المخطورات « Tabue » التي هي حقيقة بارزة في الحياة القبلية ) - إلى ذلك التوفيق العقلي بين حاجات الحيوان البشري البدائي وبين حياة اجتماعية آخذة بأسباب التطور . وأظهرت الأيام إلى حد كبير صدق تأويله لهذه الأمور الممتدة بفضل جهود علماء التحليل النفسي في الآونة الأخيرة . ومن المكناب المياليين إلى إطلاق العنان لتأملاتهم من يريدون منا أن نعتقد بأن احترام

(١) الصور العقلية Images : وهي الأخيلة ( للترجم )

الرجل العجوز والخوف منه ، والاتصال العاطفي الذي يحسه للتوحش البدائي إزاء العجائز المسنات اللواتي يتولين حمايته ، ( وهي وجدانات تريد الأحمال شديدة ، ويضاعفها عبث الأوهام والأخيلة ) كانت مصدر شطر عظيم من بدايات الديانة البدائية ومن فكرة الأرباب والربات . وما يرتبط بهذا الاحترام للشخصيات القوية أو القادرة على المساعدة شعور بالرهبة أو التوقير لهذه الشخصيات بعد وفاتها ، يرجع إلى عودتها إلى الظهور في الأحلام . لذا كان من اليسر الاعتقاد بأنها لم تكن ميتة حقاً وأن كل ما في الأمر أنها نقلت قلاً وهمياً إلى متأى تتمتع فيه بقوة أعظم مما كان لها .

ومن المعلوم أن أحلام الطفل وتخيلاته وعواطفه أكثر إشراقاً وواقعية من أحلام الراشد العصري ، وما كان الرجل البدائي دائماً إلا طفلاً في تفكيره أو يكاد . كما أنه كان أيضاً أدنى إلى الحيوانات ، وكان تصور أن لها دوافع واستجابات مثل التي لها كان يستطيع أن يتخيل هناك حيوانات معاونة ، وأخرى معادية وحيوانات آلهة . ولا يحتاج الإنسان منا إلا أن يكون في صفره طفلاً واسع الخيال ليذكر من جديد كم كانت الصخور الغريبة الشكل أو السكل الخشبية أو الأشجار الشاذة الصورة وما أشبهها ، تبدو لأعين رجال العصر الحجري القديم مهمة وذات مغزى خطر أو منيرة بالظهور أو مظهرة للعودة وكيف كانت الأحلام والأوهام تخلق من الحكايات والأساطير عن مثل تلك الأشياء ، ما كان يصبح مقبولاً ومصداقاً عندما يروى . ومن هذه الحكايات ما يكون من الجودة بحيث يتذكر وتعاد روايته ، وإن النساء ليروينها للأطفال وبذلك يؤسسن التقاليد ، ولا يزال معظم واسمى الخيال من الأطفال يحترعون إلى يومنا هذا قصصاً طويلة بطلها ذمية محبوبة أو حيوان أثير أو كائن خيالي شبه إنساني ، ولعل الرجل البدائي كان يفعل مثل ذلك - مع اختصاصه يميل أقوى كثيراً إلى الاعتقاد بحقيقة بطله ، ومرد ذلك أن أقدم من نعرف من البشر الحقيقيين ، ربما كانوا كائنات ثنائية تماماً . وكانوا يختلفون من هذه الناحية عن التياندرتالين ويمتازون عليهم فالتياندرتالين ربما كان حيواناً أبكم . وحديث الإنسان البدائي ربما لم يرد بداهة عن مجموعة ضئيلة جداً من الأسماء ، وربما كان يصدر مقتضياً مصعوباً بالحركات والإرشادات والعلامات .

وليس من أصناف المتوحشين من يبلغ من الانعطاط أن يكون لديه نوع من العلم بالعلم والمعلوم ، ولكن الرجل البدائي لم يكن تقادراً في ربطه السبب بالنتيجة ؛ فأسهل ما كان يربط نتيجة بشيء بعيد تماماً عن سببها . فكان يقول : « أنت فعلت كذا وكذا

فيُنْخَذُ كَيْتٌ وَكَيْتٌ . فَأَنْتَ تَعْطَى ثَمَرَةً لِأَحَدِ الْأَطْفَالِ فَيَمُوتُ . وَأَنْتَ تَأْكُلُ قَلْبَ  
عَدُوٍّ مَغْوَارٍ فَتَصْبَحُ قَرْيَا . هَذَا مِثْلَانِ لِلرِّبْطِ بَيْنِ السَّبَبِ وَالنَّاتِجَةِ ، وَأَحَدُهُمَا حَقِيقُ  
وَالثَّانِي بَاطِلٌ . وَنَحْنُ نَسْمَى طَرِيقَةَ رِبْطِ الْعِلَّةِ بِالْمَعْلُولِ فِي عَقْلِ الْمُتَوَحِّشِينَ بِاسْمِ  
الْفَتِيشَةِ<sup>(١)</sup> وَلَكِنَّ الْفَتِيشَةَ إِنَّمَا هِيَ قَطْعُ عِلْمِ الْمُتَوَحِّشِينَ وَهِيَ تَخْتَلِفُ عَنِ الْعِلْمِ الْعَصْرِيِّ  
فِي كَوْنِهَا لَا تَقُومُ عَلَى أَىِّ أُسَاسٍ مِنَ التَّنْظِيمِ أَوْ التَّحْمِيسِ ، فَهِيَ لِذَلِكَ خَاطِئَةٌ فِي  
الْأَعْمِ الْأَعْظَمِ .

وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْعَصِيرِ فِي الْكَثِيرِ مِنَ الْحَالَاتِ رِبْطُ السَّبَبِ بِالْأَثَرِ ، بَيْنَمَا حَدَثَ فِي  
أَحْيَانٍ كَثِيرَةٍ أُخْرَى أَنْ الْحَبْرَةَ صَحَّتْ عَلَى الْفُورِ الْفِكَرَاتِ الْخَاطِئَةِ ، وَلَكِنَّ هَذَاكَ  
مَجْمُوعَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ النَّاتِجِ ذَاتِ أَهْمِيَّةٍ عَظْمَى لِلرَّجُلِ الْبِدَائِي ، كَانَ يَلْتَمِسُ فِيهَا الْأَسْبَابَ  
يُلَاصِرُ وَاجِلَاجَةً فَلَا يَسْتَكْشِفُ إِلَّا تَفْسِيرَاتِ خَاطِئَةٍ ، وَلَكِنَّ خَطَأَهَا لَيْسَ مِنَ الْكُفَايَةِ  
وَلَا مِنَ الْوُضُوحِ بَحِثٍ يَسْتَطِيعُ اسْتِبَاتَتَهُ . وَلَشَدَّ مَا كَانَ يَحْمِلُهُ أَنْ يَكُونَ الْعِيدُ وَفِرَا  
وَالسَّمَكُ كَثِيرًا سَهْلَ الْعِيدِ ، وَلَا شَكَّ أَنْهُ طَلَا جَرَبَ آلِفَانِ مِنَ التَّعَاوِذِ وَالرَّقِيِّ وَالنَّذُورِ  
وَأَمِنَ بِهَا لِيَحْصَلَ عَلَى هَذِهِ النَّاتِجِ الْمَرْغُوبَةِ ، وَتَمَّةٌ شَاغِلٌ عَظِيمٌ لَهُ هُوَ الْمَرَضُ وَالْمَوْتُ .  
وَكَثِيرًا مَا كَانَتِ الْعُدَى تَنْهَمِرُ ، وَيَمُوتُ النَّاسُ بِهَا أَوْ تَضَعُفُ أَجْسَامُهُمْ دُونَ سَبَبٍ ظَاهِرٍ .  
فَهَذَا الْأَمْرُ أَيْضًا لَا يَدُ أَنْ كَانَ يَسَبِّبُ لِعَقْلِ الرَّجُلِ الْبِدَائِيِّ الْمُنْتَسِرِعِ الْإِنْتَعَالَى كَثِيرًا مِنَ  
الْإِجْهَادِ وَالتَّقَلُّقِ . وَكَانَتِ الْأَحْلَامُ أَوْ التَّخَيُّنَاتِ الْوَهْمِيَّةُ تَجْعَلُهُ يَلُومُ هَذَا الرَّجُلَ أَوْ  
الْحَيَوَانَ أَوْ الشَّيْءَ أَوْ يَلْتَمِسُ مِنْهُمْ الْمَوْتَةَ . كَانَتْ لَهُ قَابِلِيَّةُ الطُّفْلِ لِلْخَوْفِ وَالذِّعْرِ .

وَلَا يَدُ أَنْهُ حَدَثَ فِي زَمَنِ مُبَكِّرٍ جَدًّا مِنْ تَارِيخِ الْقَبِيلَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الصَّغِيرَةِ ، أَنْ الْعُقُولَ  
الْأَكْبَرُ سَنَا وَالْأَكْبَرُ جَنَانًا ، وَالْقَى كَانَتِ تَسْهَمُ فِي الْخَوَافِ وَتَسْهَمُ فِي التَّخَيُّلَاتِ ، وَلَكِنَّا  
أَفْوَى قَلِيلًا مِنَ الْعُقُولِ الْآخَرِ ، قَدْ تَصَدَّرَتْ لِلنَّصَحِ وَوَصَفِ الْوَصَفَاتِ وَإِعْدَادِ الْأَوَامِرِ .  
فَرَا حَوَا يَصْرَحُونَ أَنَّ هَذَا أَمْرٌ مَشْهُومٌ وَذَلِكَ شَيْءٌ مَحْتَمٍ ، وَأَنَّ هَذَا بَشِيرٌ بِخَيْرٍ وَذَلِكَ  
نَذِيرٌ بِشَرٍّ . وَكَانَ الْحَبِيرُ بِالْفَتِيشَةِ ، وَأَعْنَى بِهِ الطَّبِيبُ السَّاحِرُ هُوَ السَّكَانُ الْأَوَّلُ وَهُوَ  
الَّذِي يَقْدَمُ النَّصَائِحَ وَيَسَرُّ الْأَحْلَامَ ، وَيَحْذَرُ وَيَقُومُ بِالتَّعَاوِذِ الْجَوْفَاءِ الَّتِي تَجْلِبُ الْخَطَرَ  
وَتُجَنَّبُ التَّسْكَبَاتُ ، وَلَمْ تَرَقِ الدِّيَانَةُ الْبِدَائِيَّةُ إِلَى مَا نَسَمِيهِ الْآنَ بِاسْمِ الدِّيَانَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ  
طَقُوسٌ وَشَعَائِرٌ ، كَمَا أَنَّ السَّكَانَ الْأَوَّلَ كَانَ عَلَى النَّاسِ مَا هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ تَعَلَّمَ عَلَى تَحْكَمٍ

---

(١) الْفَتِيشَةُ وَهِيَ اعْتِقَادُ الْمُتَوَحِّشِينَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مَادِيٌّ تَكُونُهُ رُوحٌ تَقُومُ لِمَا لَهُ الشَّيْءُ  
بِالْخِدْمَاتِ . (لِلتَّرْجَمِ)

## الحصل الثالث عشر

### بدايات الزراعة

لا يزال علمنا ببدايات الزراعة والاستقرار في العالم قاصراً جداً ، وإن يكن قد بذل في هذا السبيل إبان الخمسين عاماً الأخيرة شئ كثير من البحث وإعمال الفكر . وكل ما يسننا قوله في شئ من اليقين في الوقت الحاضر ، أنه حدث في مكان ما قبل مولد المسيح بخمسة عشر ألف عام أو اثني عشر ألفاً ، بينا الشعب الأصيل يقطن في جنوب أسبانيا وبينما البقية من الصيادين القدامى تقتل شمالاً وشرقاً ، أن كان هناك في مكان ما بشمال أفريقيا أو غرب آسيا أو بالوادي للتوسط الكبير الذي تضره الآن مياه البحر للتوسط ، قوم داموا عصرًا بعد عصر يستكشفون ويتطون شيطان هامين أهمية حيوية كبرى فذلك أنهم شرعوا في الزراعة وأخذوا يتأسسون الحيوان كما هم شرعوا أيضاً يصنعون أدوات من الحجر للعقول بالإضافة إلى الآلات المنوعة التي ورثوها عن أسلافهم الصيادين . وقد اكتشفوا طريقة صنع السلال والنسوجات الخشنة السلع المصنوعة من ألياف النبات ، وشرعوا يصنعون فخاراً بدائي الصنع .

لقد شرع هؤلاء القوم بتقديم نحو مرحلة من مراحل الثقافة البشرية ، هي العصر الحجري الحديث ( النيوليثي ) تميزاً له من العصر الحجري القديم ( الباليوليثي ) عصر الكرومانيين والشعب الجرمانلي والأزيليون ومن إليهم<sup>(١)</sup> ومالئ هذا الشعب العصر الحجري الحديث أن أنتشر رويداً رويداً في أصقاع العالم الأكثر دفئاً كما أن الفنون التي حدثها ، والنباتات والحيوانات التي تعلم أن يستخدمها ، انتشرت معه عن طريق المكافحة والتحكم . ولكن بصورة تكاد تفوق انتشار الشعب نفسه . فلما وافق

---

(١) ربما لاحظنا أن كلمة « الباليوليثي » مطلق على الآلات التي تصنع يدوياً بل حتى الأدوات الحجرية Solithis . ويسمى عصر ما قبل الإنسان « الحجري القديم الأول » أما عصر الإنسان الحق الذي استعمل أجيالاً فهو « الحجري القديم الثاني » .  
( • — تاريخ العالم )

سنة ١٠٠٠ ق م. كان معظم البشرية قد ارتقى إلى مستوى العصر الحجري الحديث .

وعمليات حرق الأرض وبذر الحبوب وجنى المحصول والدرس والطحن ، ربما بدت للعقل المصرى خطوات بدئية شديدة الوضوح شأن كروية الأرض سواء بسواء ، وربما تساءل بعض الناس : وما الذى يستطيع الناس عمله إلا هذه الأشياء ؟ وعلى أية صورة أخرى يمكن أن يكون الأمر؟... ولكن الرجل البدائى الذى عاش منذ عشرين ألف سنة ، لا يمكن أن تكون أسس التصرف والاستنتاج العقلى التى تبدو لنا اليوم أكيدة جلية ، واضحة لديه على الإطلاق. لقد ظل يتحسس طريقه إلى الممارسة العملية الناضجة خلال كثرة عظيمة من المحاولات والأخطاء ، مع الشرود إلى تفصيلات حيالية غريبة لا لزوم لها ، وتأويلات خاطئة عند كل لفظة . كان الصمغ ينمو برىا فى مكان ما من منطقة البحر المتوسط ؛ وربما تعلم الإنسان كيف يذق جويوه ، ثم كيف يطحنها قبل أن يتعلم كيف يذرها بزمن مديد فكأنه جنى قبل أن يذر .

ومما هو جدير بالملاحظة حقا أنه مامن صقع من أصقاع العالم وجد فيه بذر وجنى إلا أمكن فيه تعقب آثار ارتباط بدائى قوى بين فكرة البذار وفكرة التضحية بالدم ، سيما التضحية بكائن إنسانى قبل كل شيء . ولا مراء أن دراسة الأصل فى الخلط بين هذين الشيئين تستوى كل ذى لب مستطلع ؛ وما على القارئ الذى يهتم بهذه الأبحاث إلا أن يطلب هذا الموضوع مدروسا دراسة وافية فى ذلك السفر الخالد للرسوم بالنصن الذهبي « Golden Bough » الذى ألفه السير ج. فريرز . ويهمل بنا أن نتذكر أن ذلك الخلط بين الأمرين حدث فى العقل البدائى الطفولى الحالم صانع الأساطير ، ولذا فلن نستطيع تفسيره مهما استعملنا من أساليب الفكر والاستنتاج اللغظى .

وكل ما يمكننا قوله أنه يلوح أنه كان من عادة ذلك العالم السحيق قبل اثنى عشر ألفا إلى عشرين ألفا من السنين خلت ، أنه كلما دارت الأيام دورتها وحل أوان البذار على شعوب العصر الحجري الحديث حلت معه تضحية بشرية . ولم تسكن التضحية بأى شخص خسيس أو منبوذ ، بل كانت فى العادة تضحية بشاب مختار أو فتاة متقاة ، وإن كان فى الأغلب الأعم شابا يعامل معاملة تنطوى على الإجلال الغميق ، بل حتى على



البادة إلى لحظة تقديمه قربانا . كان يدضربا من ملك إله يقدم قربانا ، كما أن كل تفاصيل قتله أصبحت طقوسا يتولاها الرجال للمننون العارقون ، ويقرها عرف الصور للوروث .

ولا بد أن البدائيين بما لديهم من فكرة ساذجة جداً عن فصول السنة ، كانوا يجدون في البداية صعوبة كبيرة في تحديد أنسب اللحظات للبذر والقربان في موسم البذار . وهناك أسباب تجعلنا على الاعتقاد بأنه أتى على الإنسان حين مبكر لم تكن لديه فيه أية فكرة عن شيء اسمه السنة . ثم نشأ أول تاريخ حسب الأشهر القمرية ؛ ويرى بعض العلماء أن السنوات التي يذكرها « الآباء » في العهد القديم إنما هي أشهر قمرية ، كما أن التقويم البابلي تتجلى فيه شواهد واضحة تدل على أنهم حاولوا ضبط موسم البذار باحتساب ثلاثة عشر شهراً قمرياً لإتمام المورة ... ولا يزال أثر هذا التقويم القمري باقياً إلى يومنا هذا ، ولولا أن مألوف العادة قد بلد شعورنا ، لدهشنا حقاً من أن الكنيسة المسيحية لا تحتفل بذكرى صلب المسيح وبعثه في للوعد السنوي الصريح بل في مواعيد تختلف سنة عن أخرى باختلاف أوجه القمر .

وربما جاز لنا أن نشك في أن أحدا من الشعوب الزراعية الأولى قد رقب النجوم والأرجح أن أول من رقب النجوم هم الرعاة الرحل ، الذين كانوا يجدون فيها وسيلة مناسبة لتوجيههم وجهتهم . ولكن ما كاد الإنسان يدرك تنمها في تحديد الفصول ، حتى أصبحت أهميتها للزراعة عظيمة جداً . وبين ثم ربط قربان موسم البذار بمسير أحد النجوم الكبيرة جنوباً أو شمالاً ، وكان اختيار ذلك النجم أسطورية ومعبوداً . أمراً لا يحصى منه تقريباً عند الرجل البدائي .

من أجل ذلك أصبح من السهل أن ندرك مبلغ الأهمية التي بلغها في بكتور أيام العالم الحجري الحديث ، رجل المعرفة والحبرة ، الرجل الذي كان يعلم علم قربان الدم والنجوم .

أما الحرف من النجس والتدنس ، والطريق للتصوية للوصوفة لتنطهر ، فحدث عنها ولا حرج ، كصدر آخر من مصادر القوة لنوى العلم الفرير من الرجال والنساء . وذلك لأب الأمر لم يخل أيداً من ساحرات عدا السحرة ، ومن كهانات فضلاء عن الكهنة .

والكاهن الأول ليس في الحقيقة رجل دين قد ما هو رجل علم تطبيق ،  
فضله على الجملة تجريبى ، كما أنه فى الأغلب من صنف ردىء ؛ وكان يحتفظ به  
سرا مصوناً ، ويخار عليه من الناس عامة ؛ ولكن ذلك لا يغير جوهر الأمر ،  
وهو أن وظيفته الأولى هى « العرفة » وأن استخدامها الأساسى لديه كان  
استخداما عمليا .

ومنذ اثني عشر ألفا أو خمسة عشر ألفا من السنين ، وفى جميع أجزاء العالم القديم  
الدفينة والحسنة الرى إلى حد مناسب ، أخذت هذه المجتمعات الإنسانية التى تعيش عيش  
العصر الحجري الحديث فى الانتشار ، بما حوت من طبقة الكهان والكاهنات  
وتقاليديم ، وبما لها من حقول مزروعة ، وما حصلت من تطور فى القرى والمدن  
الصغيرة للسورة . وترادفت الصور عصرا بعد عصر ، وتواصل انتقال الأفكار  
وتبادلها بين هذه المجتمعات .

وقد أطلق إليوت ميث وريفرز اسم « الثقافة الميوليتية » ( الشمسية الحجرية )  
على ثقافة تلك الشعوب الزراعية الأولى ، وربما لم يكن لفظ « هيلوليث » هذا خير  
مصطلح يمكن إطلاقه على هذه الثقافة ، غير أنا مضطرون إلى استعماله حتى يوافينا رجال  
العلم بخير منه .

وهذه الثقافة التى نشأت فى مكان ما بإقليم البحر للتوسط ومنطقة آسيا الغربية ،  
ظلت تنتشر عصرا بعد عصر ، متجهة شرقا ومنطقة من جزيرة إلى جزيرة  
عبر المحيط الهادى حتى وصلت إلى أمريكا نفسها فيما يحتمل ، وامتزجت بطرائق العيش  
الشديدة البدائية لدى المهاجرين هبة للنول ( Mongoloids ) المتعدين إليها  
من الشمال .

وحينما ذهب الشعب الأحمر صاحب ثقافة العصر الحجري الشمسى ( الميوليتية ) ،  
أخذ معه كل أو جل طائفة معينة من الأفكار والعادات الترية . ومنها أفكار يبلغ  
من غرابتها أن تحتاج إلى تفسير من الخبراء بالنواحي العقلية . فهم كانوا يقيمون  
الأهرام والرقب الضخمة ، وينشئون دوائر عظيمة من الأحجار الكبيرة ، ولعل الغرض  
منها كان تسهيل الرصد الفلكى الذى يتهنئ به الكهان ؛ وعرفوا التعظيم ، واعتقدوا  
للوميات لفظوا بعض موتاهم أو جميعهم ، واستعملوا الوشم والختان ، وكانت لديهم  
العادة القديمة للسماة بالناس الزائف ، التى يحتضنها يرسلون الوالد إلى الفراش ،

ويؤمنونه بالراحة إذا ولد له طفل ، كما كانوا يتخذون من الصليب العقوف الدائم  
السيت رمزاً للحظ .

فإذا نحن أنشأنا خريطة للعالم ورسمنا عليها تقاطعين إلى أى مدى تركت هذه  
العادات المجتمعة آثارها ، وجب علينا أن نشيء نطاقاً يمتد بإزاء سواحل العالم بالمناطق  
المعتدلة وشبه للدارية . يمتد من ستون هنج وأسبانيا عبر العالم حتى يبالغ للسكسك  
وييرو . ولكن شيئاً من هذه التقط لن يمر بأفريقيا جنوب خط الاستواء ولا بالقسم  
الشمالي من أوروبا الوسطى ولا شمال آسيا ؛ فهناك كانت تعيش أجناس بشرية تتطور  
في اتجاه آخر مستقل عن هذا تفريرا .

## الفصل الرابع عشر

### حضارات العصر الحجري الحديث البدائية

كانت جغرافية العالم حوالي عام ١٠.٠٠٠ ق. م. شديدة الشبه في معالمها العامة بجغرافية العالم اليوم . ومن المحتمل أن الحاجز العظيم ، الذي كان يمتد عبر مضيق جبل طارق ، والذي ظل حتى آنذاك يصد مياه المحيط عن وادي البحر للتوسط ، كان قد تآكل وتصدع في ذلك الوقت ، وأن البحر للتوسط أصبحت سواحله عند ذلك تطابق إلى حد كبير نفس سواحله الحالية . أما بحر قزوين فلمه كان حينذاك لا يزال أوسع بكثير مما هو عليه الآن ، وربما كان متصلا بالبحر الأسود شمال بلاد القوقاز . ومن حول هذا البحر الآسيوي الداخلي الكبير ، كانت الأراضي التي هي الآن سهوب وصعاري جرداء ، خصبة عند ذلك وقابلة للسكنى . فإن ذلك العالم كان على وجه الإجمال عالما أكثر مطرا وأشد خصبا . كما أن روسيا الأوربية كانت أرض مستنقعات وبحيرات أكثر مما هي عليه الآن ، وربما كان هناك حتى ذلك الحين برزخ من الأرض يمتد بين آسيا وأمريكا مكان مضيق بهرنج .

ولابد أن الأقسام الرئيسية للأجناس البشرية على ما نهدّها اليوم ، وكانت قد فصلت آنئذ وأصبح من الممكن تمييزها . وانتشرت في طول المناطق الدفينة المعتدلة وعرضها وعلى سواحليها في ذلك العالم الأكثر دفئا والأكثر غابات في تلك الأيام الحالية ، شعوب الثقافة الحجرية الشمسية ( الهلثولية ) السمر البشرية ، أسلاف الغالية العظمى من السكان الحاليين لعالم البحر للتوسط ، أي أجداد البربر والصريين وكثير من سكان جنوب وشرق آسيا .

وبنهيي أن هذا المجلس الكبير كان يتطوى على عدد من الأنواع . وما الجنس الأيبيري أي جنس البحر للتوسط أي « الأبيض القائم » النازل على سواحل المحيط الأطلسي والبحر للتوسط ، وما الشعوب الحامية التي تنطوى على البربر والصريين ، وما الدرافيدون ( سكان الهند الأقدم لونا ) ، وعدد من شعوب الهند الشرقية ،

وكثير من الأجناس البولينية<sup>(١)</sup> وشعب اللاورى ، إلا أقسام تفاوت قيمتها وسط هذه الكتلة العظمى الرئيسية من البشرية . وأنواعها القريبة أحد ياحا من الشرقية . على أن جيلا من الناس يدعوهم الكثيرون اليوم باسم الجنس النوردى ، ويقع في غابات أوروبا الوسطى والقرية ، وهو أكثر شقرة وله عيون زرقاء أخذ يتميز بنفسه ، ويتفرع عن الكتلة الرئيسية للشعوب السمر .

وتمتة تفريع آخر كان يحدث في أقاليم آسيا الشمالية الشرقية للنبسطة الأكثر راحاً افضل به فريق من الناس عن هذه البشرية السمر . واتجه إلى تكوين طراز لنفسه عيون أكثر انحرافاً ، وعظام وجناته ناتئة ، وجلده مصفر وشعره أسود شديد الاستقامة وهو الشعوب النغولية . وبقيت في جنوب إفريقيا وأستراليا وفي جزائر مدارية كثيرة بجنوب آسيا ، بقايا من الشعب شبه النجى (النجرى) القديم . وقد صارت الأجزاء الوسطى من إفريقيا بالفعل منطقة تخالط بين الأجناس البشرية . إذ يلوح أن جميع الأجناس الملونة التى تقطن بإفريقيا اليوم تكاد دماؤها جميعاً أن تكون خليطاً من شعوب الشمال السمر . ومن طبقه أصلية شبه زنجية .

ويجب علينا أن نتذكر أن الأجناس البشرية تستطيع جميعاً أن تتخالط وتوالد بتمتة الحرية ، وأنها تتفرق وتمتزج ، ثم تعود إلى الاتحاد كما يفعل السحاب في السماء . والأجناس البشرية لا تتفرق كالشجر فروعا لا تلتقى بعد ذلك أبداً . والواقع أن هذا الاختلاط المتكرر للأجناس الذى يحدث عند كل فرصة تمنح أمر يفضى ألا يخبى عن بالنا البتة ، فإذا فعلنا ذلك نجونا من كثير من ألوان الضلال والتعيز القاسية . والناس يمنعون إلى استمال كلمة مثل « جنس » بصورة فضفاضة يتجلى فيها إطلاق القول على عواهنه ، ويننون عليها أحد أنواع التعليلات مخالفة للعقل والمنطق . هم يتحدثون عن جنس « بريطانى » أو عن جنس « أوربى » : ولكن الأمم الأوروبية كلها تقريباً خلاط مضطربة من عناصر سمراء وأخرى بيضاء قائمة وبيضاء ومغولية .

وكانت حقبة التطور الإنسانى للسماة بالعصر الحجري الحديث ( النيوليث ) هى التى

---

(١) بولينا : مجموعة جزائر بالمحيط الهادئ الجنوبي حول خط طول ١٨٠° وأهمها هاوى وفيجى وساموا .

اتخذت فيها شعوب من الجنس اللغوى طريقها لأول مرة إلى أمريكا . وواضح أنهم بلغوها بطريق مضيق بهرج ثم انتشروا جنوباً . فوجدوا في الشمال الكاريبو وهو غزال الرنة الأمريكى ، وفى الجنوب أسراباً كبيرة من الجاموس البرى (البيزون) . فلما وصلوا إلى أمريكا الجنوبية كان لا يزال يبعث بها حيوان الجلييتودون وهو نوع ضخم من الأرمادلو ، ولليجائر يوم وهو طراز من حيوان الرسيف<sup>(١)</sup> بشع قبيح الشكل يبلغ ارتفاعه ارتفاع الغيل والراجح أنهم أبادوا الحيوان الثانى وكان عاجزاً قليل الحيلة على ضحاوته .

ولم يرتق الشطر الأعظم من هذه القبائل الأمريكية البتة عن مستوى حياة الصيد الرحلية للعصر الحجري الحديث ، فهم لم يكتشفوا الحديد أبداً ، وكان رأس مافي حوزتهم من المعادن الذهب والنحاس للوجودين فى بلادهم . أما للسكيسك ويوقطان وييرو ، فكانت ظروفها تؤم الزراعة للسقرة ، وهناك نشأت قرابة ١٠٠٠ ق . م . مدنات شائقة جداً ، تناظر مدنات العالم القديم وإن خالفها فى الطراز . ذلك أن هذه المجتمعات أظهرت — شأن الحضارة البدائية الأقدم منها كثيراً فى العالم القديم — تطوراً عظيماً فى القرايين البشرية يتصل بعمليات موسم البذار والحصاد ؛ ولكن على حين أن هذه الفكرات الأساسية قد اطلعت فى النهاية بالعالم القديم كما سنرى وتمعدت ثم غطت عليها فكرات أخرى ، فإنها تطورت بأمريكا وفصلت حتى بلغت ذروة عالية جداً من الشدة . وبدى أن هذه الأقطار الأمريكية لأحضرة كانت بالضرورة أقطاراً متدينة يحكمها الكهنة ؛ وأن قادتهم فى الحرب وحكامهم كانوا يخضعون لتواعد صارمة من الشريعة والتطير . . .

وصل هؤلاء الكهان بعلم الفلك إلى مستوى رفيع من الضبط والدقة . فعرقتهم بالنسب وحسابها كانت خيراً من معرفة البابليين الذين ساعدتكم عنهم من فورنا . وكان لهم فى يوقطان نوع من الكتابة ، هو كتابة المايا Maya ، وهى من أعجب ما قل التاريخ من الكتابات وأشدها إحكاماً . وقد عرفنا بقدر ما استطعنا جله من رموزها أنها كانت تستعمل بوجه خاص فى تسجيل التقاويم الضبوطة للعقدة التى كان الكهنة يبدون فيها ذكاهم . ويبلغ الفن فى حضارة المايا ذروة مجده حوالى ٧٠٠ أو ٨٠٠ ق . م .

---

(١) الرسيف Sloth : أحد أنواع كثيرة من الثدييات الشجرية الطويلة الشعر البطيئة الحركة يوجد فى غابات أمريكا الجنوبية ويسمى أيضاً حيوان السكلان .



وفن التمت عند هذا الشعب يذهل للمشاهد العصري بقوة تشكيله العظيمة وجماله المتزاحم كما يحمره بفرابته المضعكة وبسمة جنونية من التعقيد والتزام التقاليد التي تخرج بالضرورة عن المجال الفكري لذلك المشاهد .

وليس في العالم القديم شيء يماثله تماما . وأدنى الأشياء شبيهاً إليه - وهو شبه بعيد - يوجد في الطراز القديم المهجور من النحات الهندية . فالریش يتسج مع كل موضع منه ، والتعابین تنفتل فيه في الداخل والخارج . وكثير من كتابات المايا تشبه صفاء مينا من الرسوم المتقنة التي يصنعها المجانين في مستشفيات الأمراض العقلية بأوروبا . أكثر مما تشبه أى شيء آخر في العالم القديم . فكأن عقل المايا قد تطور في اتجاه جديد يختلف عن الاتجاه العقلي للعالم القديم ، وكأنما تناول أفكاره التواء مغاير وكأنه من ثم ليس ألبنة متزنا إذا هو قيس بمعايير العالم القديم .

والواقع أن هذا الربط بين الحضارات الأمريكية المتحرفة وبين القول بوجود الانحراف العقلي العام ، يدعمه تسلط فكرة سفك الدماء البشرية على عقولهم تسلطاً غير عادي . والمدنية المكسيكية بوجه خاص كانت تريق الدماء أنهاراً ؟ فكانت تقدم في كل عام آلافاً من الضحايا البشرية وكان شق صدور الضحايا وهم أحياء ، واستخراج القلب وهو لا يزال يلبس أم ما يشغل عقول وحياة هذه السككانات الغريبة . فمحور الحياة العامة والحفلات القومية إنما هو هذا العمل الرهيب في غرابته .

أما الحياة العادية لعامة الناس في هذه المجتمعات فهي قوية الشبه بالحياة العادية لأي مجتمع همجي آخر من الفلاحين . وقد برعوا في صناعة الفخار والنسيج والأصباغ ، ثم إن كتابات المايا لم تحفر تقطع على الحجر بل كانت تكتب وترقش على الجلود وما أشبهها . وتضم دور المتاحف في أوروبا وأمريكا كثيراً من المخطوطات الماياوية المهيبة التي لم يحل من معيبتها في الوقت الحاضر عدا التواريخ إلا الشيء القليل . ونشأت في بيرو بدايات لكتابة مشابهة لهذه ، ولكن حلت محلها طريقة للتدوين بواسطة عقد تمعد في الخيوط وكان أهل الصين يستخدمون منذ آلاف السنين طريقة كهذه من الكتابة بالحيط كوسيلة لمساعدة الذاكرة .

والعالم القديم قبل أربعة أو خمسة آلاف سنة ، أى قبل ذلك العهد بثلاثة أو أربعة آلاف سنة ، كان ينطوي على حضارات بدائية تختلف عن هذه المدنيات الأمريكية ، وهي



حضارات تدور حول أحد المعابد ، ولها قدر عظيم من التضحية بالدماء ، وكهانة شديدة العكوف على الفلك . ولكن الحضارات البدائية في العالم القديم كانت تتفاعل بعضها مع بعض ويتجه تطورها نحو ظروف عالمتنا الراغبين وأحواله على حين أن هذه الحضارات البدائية لم تتجاوز في أمريكا تلك المرحلة البدائية أبداً إذ كانت كل منها تعيش في عالمها الصغير الخاص بها وحدها . فالمكسيك ظلت فيما يبدو لا تعرف إلا القليل عن ييرو أو لا شيء ألبتة ، حتى هبط الأوروبيون أمريكا . حتى إن أهالي المكسيك لم يعرفوا البطاطس التي كان للمادة الغذائية الرئيسية في ييرو .

ظلت هذه الشعوب عصرا بعد عصر تعيش وتعجب من أمر أربابها وتقرب القرابين وتموت . وارتقى الفن للملاوى إلى مستويات عالية من الجمال الزخرفي . وكان الأفراد يعشقون والقبائل تتقاتل . ولم يبرح القحط يقبب الوفرة ، والوباء يتبع الصحة ، على حين واصل الكهان قرونا عديدة إثمهم قلوبهم وإحكام طقوس التضحية ، دون أن يحرزوا في الاتجاهات الأخرى إلا تقدما يسيرا .

## الفصل الخامس عشر

### سومر ومصر في العصور الأولى ونشأة الكتابة

لا مرأ أن العالم القديم مسرح أرحب أقفا وأكثر تنوعاً من الجديد . فقد قامت به فعلاً منذ حوالي ٦٠٠٠ أو ٧٠٠٠ ق . م مجتمعات شبه مدنة كادت تبلغ مستوى يبرو . وقد ظهرت تلك المجتمعات في أقاليم خصبة متنوعة من آسيا كما ظهرت في وادي النيل . وفي ذلك الوقت كان شمال إيران والتركستان الغربية وجنوب بلاد العرب أخصب مجامع عليه الآن ، إذ توجد تلك الأقطار آثار تشهد بوجود مجتمعات في عصور باكورة جداً . ولكن مصر والمنطقة الدنيا من أرض الجزيرة هما القطران الوحيدان اللذان تظهر بهما لأول مرة للدين والمعابد والرى للتنظيم ودلائل تنظيم اجتماعي يعاين مستوى المدينة القروية المحيطة البعثة ، وفي تلك الأيام كان الفرات والدجلة يفيضان في الخليج الفارسي بمصبين منفصلين ، وبني السومريون أوائل مدنهم على الأرض المحصورة بينهما . وحوالي ذلك العهد تقريباً - وذلك لأن التاريخ لا يزال على شيء من الإبهام - كان تاريخ مصر العظيم قد أخذ يبرغ .

ويظهر أن هؤلاء السومريين كانوا شعباً أسمر له أنوف نائثة . وكانوا يستعملون نوعاً من الكتابة حلت رموزه ، فلنتهم الآن معروفة . وقد اكتشفوا البرونز وأقاموا معابد كبيرة كالأبراج من الطوب الجفف في الشمس . وطبن تلك البلاد ناعم جداً ، ومنه اتخذوا الواحا يكتبون عليها ، لذا بقيت كتاباتهم محفوظة إلى اليوم . وقد ملكوا للماشية والأغنام وللأعر والحجر ولكن الحصان كان يوزم . وكانوا يقاتلون راجلين في تشكيل متراص ، وهم يحملون الحراب وتروسا من الجلد . وصنعوا ثيابهم من الصوف كما كانوا يحملون رءوسهم .

ويلوح أن كل مدينة سومرية كانت على وجه العموم دولة مستقلة لها رب خاص وكهنة خصوصيون . وقد يحدث أحيانا أن تسود إحدى المدن باقي زميلاتها ، وتفرض الجزية على السكان . وقد عثر في نيبور على مكتابة سحيقة القدم جداً تذكر اسم

« إمبراطورية » مدينة إريقتس السومرية ، وهي أول ماذكر التاريخ من إمبراطوريات ، وكان لها ملكها الكاهن يدعيان أن سلطتهما تمتد من الخليج الفارسي إلى البحر الأحمر .

وكانت الكتابة في البداية مجرد طريقة مختزلة من التدوين التصويري . كما أنها شيء محقق إذ أن الإنسان كان قد أخذ يكتب قبل العصر الحجري الحديث نفسه بأزمان سحيقة . والصور الأزيلىة الصخرية التي أشرنا إليها آنفا تظهر بداية تلك العملة . فإن كثيراً منها تسجل أحداث صيد وحملات حربية ، والأشكال الإنسانية في معظمها مرسومة رسوما واضحة . على أن الصور لم يكن يهتم في بعضها بالرأس والأطراف ؛ بل يكفي بتصوير الإنسان بخط رأسى وخط آخر أفقى أو اثنين .

وكان من أيسر الأمور الانتقال من هذا التدوين بالتصوير إلى كتابة تقليدية مركزة بالصور . ومالبت خدشات الحروف في كتابة سومر التي كانت تكتب على الطين يعود أن أصبحت من البعد مما تملكه من صور بحيث لم يعد في الإمكان تمييزها ، أما مصر التي كان الناس يكتبون فيها على الجدران ، وعلى شقائق من نبات البردى ( وهو أول ما عرف من أنواع الورق ) . فقد بقيت فيها المشابهة بين الحروف وبين الصور التي نقلت عنها تلك الحروف . والكتابة السومرية تسمى بالكتابة المسارية أو الإسفينية أى المشابهة للفسار أو الإسفين ، وذلك لأن الأقلام الخشبية التي كانت تستعمل في سومر ، كانت تحدث خدوها على شكل الود أو الإسفين .

وتمت خطوة هامة صوب الكتابة عندما استعملت الصور للدلالة على الشيء الذي تمثله بل على شيء مشابه له . ولا يزال هذا الأمر يحدث إلى اليوم في ألفاظ أسماء الصور (Redns<sup>(١)</sup>) ، وهي لعبة يحبها الأطفال . وأنا لفرسم معسكرا به خيام وجرس ، فينتج الأطفال حين يخمنون أن هذا رمز إلى الاسم الاسكوتلندى (Campbell<sup>(٢)</sup> كامبل) . واللفظة السومرية مكونة من مقاطع متراسة ، تكاد تماثل بعض لغات الهنود الحمر المعاصرة

(١) ألفاظ أسماء الصور : تمثيل ملفظ لأحسد الأسماء يصور فيها تورية تمثل أجزاء من

الكلمة ( للترجم ) .

(٢) هنا يجمع الأطفال الإنجليزية بين كلمتي Camp وجرس Bell فتنتج للفظ :

Campbell ( للترجم ) .

وقد استعاجت في يسر لهذه الطريقة للقطعية في كتابة الكلمات للعبرة عن أفكار لا يستطيع نقلها بطريق الصور مباشرة . ومرت بالكتابة المصرية تطورات موازية لهذه . وحدث فيها بعد عندما تها لشعوب أجنبية تكون لغاتها من مقاطع بدرجة أقل ، أن تعلموا هذه الكتابة بالصور ويستخدموها سائهم مضوا بتلك التعديلات والتبسيطات الأخرى التي تطورت في النهاية حتى أصبحت كتابة أبجدية ، وجميع ما ظهر في العالم بعد ذلك من أبجديات حقة ، مشتق من خليط من الكتابة المومرية للدهارية والكتابة المصرية الهيروغليفية (كتابة الكهان) . وحدث بعد ذلك في الصين أن تطورت كتابة بالصور متواضع عليها ، ولكن لم يحدث قطيلاذ الصين أنها وصلت إلى المرحلة الأبجدية

وكان اختراع الكتابة ذا أهمية كبيرة جداً في تطور الجماعات الإنسانية . فكان من أثره أن سجلت الاتفاقات والقوانين والوصايا . وهي التي هيأت السيل للعدول أكبر من دول المدن القديمة . وجعلت في الإنسان قيام وهي تاريخي متواصل . وبها أصبح في إمكان أمر الكاهن أو الملك أو خائهما أن يذهب إلى أما كن بعيدة عن بصره ونصوته وأن يقيا بعد موته . ولعل بما يشوقك أن تلاحظ أن الأختام كانت تستعمل بكثرة في بلاد سومر القديمة . وأن للملك أو النبل أو التاجر يتخذ خائماً كثيراً ما يكون محفوراً خفراً فنيا جيلاً ، وإنه لطبعه على أية وثيقة طيلة يريد أن يصدق عليها . فكما اقتربت الحضارة من الطباعة منذ ستة آلاف سنة ١١ ثم يخفف الطين بعد ذلك ويبدو مستديماً . ذلك أن الفأري يلغى له أن يتذكر أن أرض الجزيرة إبان الماعديد له من السنين ، كانت الرسائل فيها والسجلات والحسابات ، تكتب جميعاً على ألواح غير قابلة للبلل نسياً . وإلى هذه الحقيقة ندين بثروة عظيمة من المعارف للسترحة من بطون التري .

ومنذ زمان سحيق جداً كان البروز والنحاس والذهب والفضة معادن معروفة في مصر وسومر جميعاً ، فضلاً عن الحديد المستخرج من النيازك بوصفه مادة نادرة ثمينة . ولسنا نشك ألبتة في شدة تشابه الحياة اليومية بمصر وسومر أول أقطار العالم القديم ظهوراً على مسرح التاريخ . عدا ما تفرقتا به من وجود الحمر واللهاية في الشوارع ، فلا بد أن الحياة بهما لم تكن تختلف كثيراً عن الحياة بمدن المايا بأمريكا بعد ذلك بثلاثة أو أربعة آلاف سنة . وكان معظم الناس يقضون أوقاتهم زمن السلم في الري والزراعة لا يتقطعون عنها إلا أيام الحفلات الدينية . لم تكن لديهم تقود ولا كانت بهم حاجة إليها

إذ أنهم كانوا يديرون تجارتهم الصغيرة العارضة بالمقايضة ، واستخدم الأمراء والحكام الذين يملكون دون سواهم الممتلكات الكثيرة قضباناً من الذهب والفضة والأحجار الثمينة في أية صفقة تجارية طارئة يتمونها . وكان العبد متسلطاً على حياة الناس ؛ والمعبود في سومر بناء كبير شامخ يصعد منه إلى سطح يرصدون منه النجوم ، وهو في مصر بناء ضخم ليس به إلا طابق أرضى فقط ، وفي سومر كان الكاهن الحاكم أعظم الكائنات وأفخمها . فأما مصر فكان فيها فرد يرفع فوق السكينة ؛ وهو التجسيد الحى الممثل لرب البلاد الأعلى ، وهو فرعون الملك الرب .

وفي تلك الأيام لم تكن تحدث في العالم إلا تغيرات قليلة ، فالتناس يقضون أيامهم ككادحين في ضياء الشمس لتزمين لتقاليدهم القديمة . وقل أن هبط البلاد أجنبي أو غريب . فمن اغترب منهم لم يذق للراحة طمناً ، وكان الكاهن يدير شئون الحياة وفق قواعد سحيقة القدم ، ويرصد النجوم ارتفاعاً لوقت البذار ويدرس النذر التى تتمخض عنها القرايين ويثول ما يحى به الأحلام من تحذيرات . وكان الناس يعملون ويخشقون ويعوتون غير محرومين من أفلاويق السعادة ، ناسين ما كان لجنسهم من ماض متوحش وثير حائنين بما يمكنهم المستقبل . وكان الحاكم في بعض الأحيان رحباً مترقياً . شأن يبيى الثانى الذى ظل يحكم مصر تسعين عاماً وكان طموحاً في أحيان أخرى يأخذ أبناء الشعب جنوداً ويرسلهم على دول المدن المجاورة ليقاتلوا وينهبوا ، أو كان يسومهم الغنائم والكسح في إقامة المباني العظيمة . كذلك كان خوفه وخفره ومتفرع الذين بنوا تلك النواويس الجبارة : أهرام الجيزة . وأعظم هذه الأهرام يبلغ ارتفاعه ١٤٥ قدماً ووزن مابه من حجر ٨٨٣٠٠٠ رطل . وقد جلب هذا الحجر كله بطريق النيل في الزوارق ، ودفعته إلى موضعه قوة العضلات الإنسانية بوجه خاص . ولا بد أن تشييده قد أنهك قوة مصر أكثر من أية حرب عظمى .

## الفصل التاسع عشر

### الشعوب المترحلة البدائية

لم يكن استقرار الناس إلى حياة الزراعة وتكوين دول المدن إلا أن القرون المحصورة بين ٦٥٠٠ ، ٣٠٠٠ ق. م. ، قاصراً على أرض الجزيرة ووادي النيل وحدها ، حيثما أتاحت للناس إمكانيات للرعى ومورد للطعام ثابت على مدار السنة كانوا يتبدلون حياة الاستقرار بصعوبات الصيد والتجوال وعدم ثباتهما . وشرع شعب يسمى بالآشوريين يؤسس المدن في أعلى دجلة ؛ وكانت هناك في وديان آسيا الصغرى وعلى شواطئ البحر المتوسط وجزائره ، مجتمعات صغيرة أخذت تكبر وتسير في طريقها إلى المدينة . ومن الجائز أن تطورات مماثلة لهذه في الحياة الإنسانية كانت تحدث أيضاً بالمناطق الموائمة لها من بلاد الهند والصين . وكان في أجزاء عديدة من أوروبا كثرت بها البحيرات التي يصمرها السمك بوفرة ، مجتمعات صغيرة من الناس استقرت منذ أمد بعيد في مساكن بنيت على أعمدة فوق الماء ، كما أخذت تقلل من الاهتمام بالزراعة متبدلة بها القنص وصيد السمك . ولكن مثل هذا النوع من التوطن لم يكن ممكناً في مناطق العالم القديم التي تسكنها هذه كثير منذ كانت البشرية ( وأدواتها وعليها على ما نعلم من نقص وعجز ) لا تستطيع أن تروى جذورها وتثبت أقدامها ، إذ كانت الأرض أخشن وأوعر من أن تسمح بذلك ، أو كانت القباب كثيفة ، أو كانت التربة قاحلة جدياً أو الفصول متقلبة .

وكان الناس يحتاجون إن شادوا الاستقرار في ظلال الحضارات البدائية إلى فيض مستديم من الماء ودفء وشمس ساطعة مشرقة . فإذا لم تنهأ هذه الستلزمات للإنسان ، عاش جوالاً منتقلاً وقضى عمره صياداً يتبع صيده ، وراعياً يتعقب الكلاً اللومى ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يستقر . وربما كان الانتقال من حياة الصيد إلى حياة الرعى تدريجياً جداً ، ولعل الناس انتقلوا من تعقب قطعان للماشية البرية أو الخيول البرية ( في آسيا ) ، إلى تكوين فكرة عن تملكها ، كما تعلموا أن يحجزوها في بعض الوديان ، وأن يقاتلوا دونها القذالب والكلاب الضارية والوحوش الكاسرة الأخرى .

ومن ثم فيينا كانت حضارات الزراعة البدائية تنمو بوجه خاص في وديان الأنهار العظمى ، كانت تنمو أيضاً طريقة عيش «غاية لهن» ، هي حياة الترحل ، وهي حياة تقضي في حركة مستمرة ذهاباً وحيثاً من مرعى الشتاء إلى مرعى الصيف . وكانت الشعوب للترحلة أصلب على وجه الإجمال عوداً وأشجع فؤاداً من الزراعة ؛ وهم أقل إنتاجاً للأولاد وأقل عدداً ، ولم تكن لهم معابد مستديرة ولا كهانات شديدة التنظيم ؛ وهم أقل أدوات وأجهزة ؛ ولكن لا ينبغي لقارىء أن يستنتج من ذلك أن طريقة عيشهم كانت بالضرورة أدنى تطوراً . فإن هذه الحياة الحرة كانت من أوجه عديدة حياة أوفى وأكمل من حياة عازق الأرض . فكان الفرد منهم أكثر اعتماداً على نفسه ؛ وأكثر استقلالاً . وكان القائد لديهم أكثر أهمية منه في المجتمعات الأخرى ؛ والطبيب الساحر أقل أهمية فيما يحتمل .

ولا شك في أن نظرة الترحل إلى الحياة أرحب مجالاً ، لتحركة فوق مساحات مترامية من الأرض . وهو لا يقتضي لمس حدود هذه الأرض للمستقرة وتلك ، وقد ألف رؤية الوجوه القريبة . ولم يكن له مقر من أن يترك الخطط في سبيل للرعى وأن يتقام في شأنه مع القبائل المنافسة ؛ ومعرفة بالمعادن فضل معرفة الشعوب التي تقطن أرض الغرائث ، وذلك لأنه كان يسير فوق للخرات الجبلية وغمرق للناطق الصخرية . ولعل علمه بالصناعات المعدنية كان أكبر من علم الزراعة ، إذ يحتمل أن صهر البرونز بل والحديد أيضاً على أرجح التقديرات . كان من تلك الكشوفات التي وصل إليها الرجل . وآية ذلك أن طائفة من أقدم الأدوات المصنوعة من الحديد المتفحرج من خامه قد وجدت في أوروبا الغربية على بعد عظيم من الدنيات الأولى .

كان للمستقرين من البانجة الأخرى مستوجاتهم وغارهم كما أنهم كانوا يصنعون كثيراً من الأعياء للرغبة . وفيينا كان مذهب الحياة هذان : الزراعة والترحل يتنازعا أحدهما عن الآخر ، لم يكن بد من أن يحصل بينهما قدر معين من التباين والأجبار . ولا شك في أنه كان من الأمور المألوفة في بلاد موزر بوجيه تناس بما يكتشف جاعبها من صحراوات وأراض مومنية للناخ ، أن يخيم الترحلون بالقرب من الحقول المزروعة وأن يتجروا ويسرقوا وربما اتخذوا الصناعة للمعادن حرفة لهم ، كما يفعل الأغنياء (النور) إلى يومنا هذا (ولكنهم لم يكونوا ليسرقوا الدجاج كالأغنياء لأن السجاجة المزيّنة هي في الأصل دجاجة أحراش هندية . لم يستأمنها الإنسان إلا غزولاً ١٠٠٠ ق م ) ، ولهم

ليجتلبون لقرع الأجر الكريمة والمصنوعات المعدنية والجلدية ، فإن كانوا صيادين جلبوا معهم الفراء . وإتاهم ليحصلون مقابلها على الفخار والحز والجراج والثياب ، وما إليها من أشياء مصنوعة .

وكانت هناك ثلاث مناطق رئيسية وثلاثة أصناف رئيسية من التجوال والاستقرار غير التام في تلك الأيام السحيقة التي قامت فيها الحضارات الأولى بسومر ومصر القديمة . فهناك في الغابات النائية بأوروبا ، كانت تقيم الشعوب النوربة الشقراء المكونة من قناصين ورعاة ، وهم جلس خنيس القدر ، ولم تر الحضارات البدائية إلا النزر اليسير جدا من ذلك المجلس قبل ١٥١١ ق . م . وكانت تقيم في السهوب القصية من آسيا الشرقية ، قبائل مغولية منوكة ، هي الشعوب الهونية . وهي تستأس الحصان ، وتكون في تقسها عادة الحركة المومية الفسيحة الجال بين مواضع ضرب خيامها صيفا وشتاء . ومن المحتمل أن الشعوب النوربة والهونية كانت لا تزال تفصلها بعضها عن بعض مستنقعات روسيا ، كما يفصلها بحر قزوين الذي كان في ذلك الزمان أعظم رقعة . ذلك أن قدرا عظيما من روسيا كان حينذاك مكونا من مستنقعات وبحيرات .

أما صحراوات سوريا وبلاد العرب ، التي كان جديها وجفافها آخذًا عند ذلك في الزيادة ، فإن قبائل من شعب أبيض قام أو أسمر ، هي القبائل السامية ، كانت تدفع فيها قطعاتا من التمن والمز والخير من مرمي إلى مرمي . وهؤلاء الرعاة الساميون (ومعهم قوم لهم سمعة نيردية قوية وموطنهم جنوب إيران ، هم اليلاميون) - أول الرحل الذين اتصلوا اتصالا وثيقا بالحضارات الأولى جاءوا متعبرين ومغيرين ، حتى إذا ظهر فيهم في النهاية قادة أجرا جنانا ، أصبحوا غزاة فاضحين .

وفي قريب من ٢٧٥٠ ق . م . كان قائد سامي عظيم هو « سرجون » قد فتح بلاد سومر بأكملها ، وأصبح سيدا للعالم كله من الخليج الفارسي إلى البحر المتوسط . كان جميعا أميا وتعلم شعبه الأكاديون الكتابة السومرية ، وأخذوا السومرية لغة للموظفين والعلماء . وبعد قرنين من الزمان انحطت الإمبراطورية التي أسسها ، حتى إذا وقعت البلاد في قبضة اليلاميين . جاء شعب سامي جديد ، هو المموريون ، فوطد بالتدريج دعائم حكمه في سومر . فأخذوا من بابل عاصمة لهم - وكانت حتى آنذاك مدينة صغيرة بأعلى النهر - وأنشأوا إمبراطورية تسمى الإمبراطورية البابلية الأولى . وقد رفع من شأنها وشده من تماسكها ملك عظيم اسمه حمورابي (حوالي ٢١٠٠ ق . م) وهو الذي من أول مجموعة من القوانين يعرفها التاريخ اليوم .



أما وادى النيل الضيق فإن موقعه جعله أقل من أرض الجزيرة تعرضاً للغزوات  
الرحل ، ولكن حدث حوالى عهد سموراني أن نجح الساميون فى غزو مصر وأقاموا  
أسرة جديدة من الفراعنة ، هم ملوك المكسوس أو الرعاة ، الذين دام ملكهم قروناً  
عديدة . ولم يندمج هؤلاء الفزاة الساميون قط بالمصريين ، وذلك لأن الشعب كان  
ينظر إليهم على الدوام نظرة العداوة بوصف كونهم أجانب وبرابرة . وأخيراً طردتهم  
من البلاد ثورة شعبية حوالى ١٦٠٠ ق . م .

على أن الساميين كانوا قد استقروا فى بلاد سومر إلى الأبد ، وتمثل الجلسان  
بعضهما بعضاً ، وأصبحت الإمبراطورية البابلية سامية فى لغاتها وسماتها .

## الفصل السابع عشر

### أول الشعوب البحرية

لابد أن أقدم القوارب والسنن أخذت لتعمل منذ خمسة وعشرين ألفاً أو ثلاثين ألفاً من الأعوام . ولعل الإنسان كان يتحرك على السطوح المائية بمساعدة كتلة من الخشب أو قربة متفوخة ، في زمن لا يقل عن بدايات العصر الحجري الحديث . وكان زورق من السلال مغطى بالجلد مقلط الفتحات يستخدم في مصر وسومر منذ مستهل معرفتنا بهذين القطرين ، ولا تزال تلك الزوارق مستعملة هناك ، كما أنها لا تزال تستخدم حتى الساعة في إيرلندة وويلز والاسكا ، حيث لا تبرح زوارق من جلد اللقمة تستخدم لعبور مضيق بهرنج ، فلما تحسنت آلات الإنسان وأدواته ظهرت الكتلة الخشبية الجوفاء ، وجاء بناء الزوارق ثم السفن كل بدوره في تعاقب طبيعي .

وربما كانت أسطورة فلك نوح استبقاء لذكرى مغامرة في بناء السفن ، مثلاً أن قصة الطوفان الدائمة الصيت بين شعوب العالم ، ربما كانت ذكرى قديمة متوارثة عن غمر حوض البحر المتوسط بالمياه .

وكانت السفن تخمر البحر الأحمر قبل بناء الأهرام بزمن مديد ، كما كانت ثمة سفن على البحر المتوسط والخليج الفارسي منذ عام ٧٠٠٠ ق . م . والأغلب أن هذه السفن كانت ملكاً للصيادين ، ولكن بعضها كانت فعلاً سفناً للتجارة والقرصنة . ذلك أنا نفترض بغاية الاطمئنان عرفانا منا بالطبيعة البشرية ، أن البعارة الأول كانوا ينهبون حيث يستطيعون ؟ ويتعبرون إذا اضطروا إلى ذلك .

وكانت البحار التي تخار فيها هذه السفن الأولى بحارا داخلية تهب عليها الريح في اندفاعات لجافية ، أو تقطع في القالب انقطاعاً تاماً أليماً برمتها . لذلك لم تقدم الملاحة ولم تتجاوز مرحلة الاستعمال الإضافي ، ولم تتطور سفينة الملاحة الحسنة العدة الماخرة لمحيط إلا في السنوات الأربعمائة الأخيرة ، وسفنت العالم القديم إنما هي بالضرورة

مفلى تجدخا تالزم الشاطئ ، وتلوز بالرفل عند أول بارقة للجو العاصف . حتى إذا تطورت الزوارق فأصبحت مراكب كبيرة ، أفضى ذلك إلى نشوء الحاجة إلى أسرى الحرب ليكوتوا أرقاء السفن .

يبقى أن نشير إلى ظهور الساميين بمنطقة سوريا وبلاد العرب على صورة متجولين ورحل ، وذكرنا كيف غزوا سومر وأقاموا الإمبراطورية الأكادية أولاً ثم البابلية الأولى . وزعت هذه الشعوب نفسها في القرب إلى البحر . لذلك أقاموا مجموعة من المراكب على امتداد الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، كانت أهمها صور وصيدا . فلم يأت عهد حمورابي في بابل حتى كانوا قد انتشروا في طول حوض البحر المتوسط وأخذوا يتبعون ويتجولون ويستعمرون .

هؤلاء الساميون البحريون يسمون بالفينيقيين . استقروا إلى حد كبير بأسبانيا بعد أن دفعوا إلى الداخل النكان القدامى من غيب الباسك الإيبيري ، وأرسلوا بطريق جبل طارق حملات لازمت الساحل ، كما أنهم أقاموا للمستعمرات على شاطئ إفريقيا الشمالى . وسريرك فيا بعد - يانا - عن قرطاجنة إحدى تلك المدن الفينيقية .

على أن الفينيقيين لم يكونوا أول شعب يحرق السفن على سفحة البحر المتوسط . إذ كانت هناك آتفا سلسة من المدن والبلاد تنتشر على جزائر ذلك البحر وشواطئه وتلتبس إلى جنس أو أجناس تلوح كأنها ترتبط برابطة الرحم والألفة بالناسك غربا والبربر والعصريين جنوبا ، وهى الشعوب الإيجية .

ويلبى أن لا نخلط بين هذه الشعوب وبين الإغريق ، الذين يتخللون ممرنا بعد ذلك بكثير ؛ فإنهم أقدم من الإغريق عهداً ، وإن كانت لهم مدن في بلاد اليونان وآسيا الصغرى ، منها مثلاً : ميسيناي ، وطروادة ؛ كما كان لهم في كنوسوس جزيرة كريت مستقر عريض الرغد عظيم الثراء .

ولم يظهر لنا جهود علماء الآثار القاطنين بالحفائر مدى انتشار الشعوب الإيجية وتكشف لنا عن حضارتها إلا في الحسنيين سنة الأخيرة . ذلك أن آثار كنوسوس ارتدت ارتداداً بالغا ، ومن عن الطالع أنه لم يبق في موضعها مدينة كانت من الكبر

بحيث تدمر أطلالها ، ومن ثم فهي للصدر الرئيسى لمعلوماتنا عن تلك الحضارة التى كاد النسيان يريم عليها . .

وتاريخ كنوسوس يبادل فى قدمه تاريخ مصر ؛ وكانت التجارة بين القطرين ناشطة عبر البحر حوالى ٤٠٠ ق م . وبلغت الحضارة الكريكية أوج العظمة حوالى ٢٥٠٠ ق م . أى بين عهد سرجون الأول وحمورابى .

لم تكن كنوسوس مدينة قدر ما كانت قصرأ عظيما للعاهل الكريقى وشعبه ، بل إنها لم تكن حصنة ، فلم تحصن إلا فيما بعد عندما قويت شوكة الفيلقيين ، وعندما انحدر إليها فى البحر من الشمال صنف جديد من القراصنة أشد فظاعة ، هو الإغريق .

والعاهل عندهم يلقب بالمينوس *Minos* ، شأن العاهل المصرى للقلب بالفرعون ؛ وكان يدير شئون دولته من قصر مزود بالماء الجارى ، وبه الحمامات وما أشبهها من وسائل الترف التى لا نعرف لها نظيراً فى أى طلل آخر من الأطلال القديمة . وهناك كان يقيم حفلات وأعياداً عظيمة . وكان لديهم مصارعة ثيران تشابه مشابة فريدة مصارعة الثيران التى لا تزال باقية فى أسبانيا ؛ والمشابة قائمة فى الحالىين فى كل شئء حق فى ثياب مصارعى الثيران ؛ وثمة حفلات لألعاب الجباز . أما ثياب اللبء عندهم فهى عصرية الروح بشكل يلفت النظر ؛ فإنهم كنى يرتدين المشداب والأثواب ذات الأهداب المدلاة ، والكثير مما أتجه هؤلاء الكريتيون من الفخار والمنسوجات وفن النحت والتصوير والجواهر والمج والمادن والتطعيم بالصدف وغيره جميل جمالا مذهشاً . ولقوم طريقة للكتابة لا تزال تنتظر من يحل رموزها .

وقد دامت هذه الحياة النعيمة المشرقة المدة ما يقارب العشرين قرناً . فلو استعرضت كنوسوس وبابل حوالى ٢٠٠٠ ق م لوجدتهما متجاناً بأناس مثقفين ينعمون بوسائل الراحة ويعيشون فى الراجح حياة دعة ومسرة . وهم يقيمون الحفلات والأعياد الدينية ، ولديهم عبيد المنازل الذين يقومون على خدمتهم والبيد الصنائع الذين يدرون علمهم الربح . فكيف كانت الحياة فى كنوسوس تبدولين هؤلاء الناس أمانة مطمئنة ، ومن فوقها الشمس بضائها الباهر ومن حولها ليج البحر الزرقاء المترامية ١١ ومن

البدهي أن مصر كانت تبدو في تلك الأيام قطراً متدهوراً ، وهي تحت حكم ملوكها  
الرعاة نصف المصع ، وإذا كنا عن يهتمون بالسياسة ، لم يفتنا أن نلاحظ كم كانت  
الشعوب السامية تنحصر في كل مكان : فهي تحكم مصر وتحكم بابل القوية ، وتبقى  
نينوى بأعلى الدجلة ، وتبحر غرباً حتى أعمدة هرقل ( مضيق جبل طارق ) وتبقى  
مستعمراتها على تلك السواحل النائية .

ولا شك في أنه كان في كنوسوس بعض القول للفكرة المحبة للاستطلاع ، إذ  
تحدث أساطير الإغريق فيما بعد عن صانع كريك حاذق اسمه دايدالوس ، حاول أن  
يلتقي ضرباً ما من آلة لطيران لعلها طائرة شرعية ، ولكنها سقطت وهوت  
إلى البحر .

ومن الشائق أن ندرس بعض أوجه الشبه والخلاف بين الحياة في كنوسوس  
والحياة عندنا . فإن الحديد كان يعد عند أي سري من الكريتيين يعيش في ٢٥٠٠  
ق . م معدناً نادراً يسقط من السماء كما كان شيئاً طريفاً أكثر منه نافعاً — إذ لم  
يكن الناس يعرفون حتى آنذاك إلا حديد التياذك ، ولم يكن أحد قد استخلص الحديد  
بعد من خامه المعروف . وعندى أنه لا وجه للموازنة بين هذه الحال وبين حالتنا  
العصرية التي يدخل الحديد في كل مرفق من مرافقها . ومن جهة أخرى يكون الحصان  
حيواناً أسطورياً تماماً لدى سرة كريت ، فهو عندم صنف من الخمار الراقى يعيش في  
الأراضي الشمالية الباردة الواقعة وراء البحر الأسود بمسافات شاسعة . وبدهي أن أم  
موطن للحضارة لدى السري الكريتي كان للمنطقة الإيغية وآسيا الصغرى ، حيث كان  
الليديون والكاريون والطروديون يعيشون عيشاً كعيشه وربما يتكلمون لغات كلفته .  
وكان ثمة فينيقيون وإسبيون يستقرون في إسبانيا وشمالي إفريقيا . ولكن تلك  
الأقطار كانت تتردى لمن خياله بلاداً سحيقة البعد . وكانت إيطاليا لاتزال أرضاً  
موحشة تغطيها الغابات الكثيفة ، إذ لم يكن الإترسك ( التوسكان ) ذوو البشرة  
السمراء قد انتقلوا إليها بعد من آسيا الصغرى . ولعل حدث ذات يوم أن هبط ذلك  
السري الكريتي إلى للبناء ورأى أسيراً استرعى انتباهه بشدة شقرته وزرقة عينيه .  
ولعل هذا السري حاول أن يتحدث إليه فلقى الجواب رطانة غير مفهومة . جاء هذا  
الخطاب من مكان ما وراء البحر الأسود ، وبدأ كما هو متوحش منحنى الثقافة . ولكنه  
كان في الواقع أحد أفراد القبائل الآرية ، وسنعد ذلك من فورنا بالشيء الكثير عن

جنسه وثقافته ، كما أن الرطانة السخية التي تحدث بها هي التي قدر لها أن تتأخر فيما بعد إلى الستكرتية والفارسية والإغريقية واللاتينية والألمانية والإنجليزية ومعظم لغات العالم الرئيسية .

تلك هي كنوسوس في أوج مجدها : - ذكية مغامرة مشرقة سميدة . ولكن كارثة نزلت بها قرابة ١٤٠ ق . م ، ولعلها ذهبت برقعدها على حين بئنة ، فدمر قصر مينوس ولم تعمر أطلاله يد ولا أقام به أحد منذ تلك الساعة . . . . . ولنا ندرى كيف حدثت هذه الكارثة . ولكن المحتررين من علماء الآثار يشهدون به أثر النهب والبثرة وعلامات الحريق . ولكن وجدت كذلك آثار زلزال عنيف مدمر . وإذن فربما كانت الطبيعة وحدها هي التي دمرت كنوسوس ، وربما أتم الإغريق ما بدأه الزلزال .

## الفصل الثامن عشر

### مصر وبابل وآشور

لم يخضع للصربون البتة برضاء تام لحكم ملوكهم الرعاة الساميين ، ثم قامت حركة وطنية قوية حوالي ١٦٠٠ ق . م ، انتهت بطرد الناصب الأجنبي من البلاد ، وأعقب ذلك دور انتعاش جديد لمصر ، وهي فترة يطلق عليها علماء الدراسات المصرية القديمة اسم الإمبراطورية الحديثة . فإن مصر التي لم تكن قبل غزوة الهكسوس قوية التماسك أصبحت آنذاك قطراً متحداً تماماً ؛ وكان لفترة خضوعها لثير الأجنبي وثورتها عليه الفضل في إذكاء الروح العسكرية بها . فأصبح التراعنة غزاة فاجحين ، خاصة وقد حصلوا قبل ذلك على حسان القتال وعجلة القتال ، التي جلبها الهكسوس معهم . وسرعان ما بسطت مصر سلطانها في آسيا حتى نهر الفرات في عهد تحتمس الثاني وأمنحوتب الثالث ( أمينوفيس ) .

ونحن الآن مقبلون على مرحلة جديدة من حروب دامت ألف سنة بين حازقي النيل وأرض الجزيرة اللتين كانتا يوماً منفصلتين إحداهما عن الأخرى تماماً . وكانت لمصر الغلبة أول الأمر . وجاءت الأسر الكبرى وهي الأسر الثامنة عشرة التي من ملوكها تحتمس الثاني وأمنحوتب الثالث والرابع وملكة عظيمة هي حتاشو ، والأسرة التاسعة عشرة ومنها رمسيس الثاني ( ويحسبه بعضهم فرعون موسى ) الذي حكم سبعاً وستين عاماً ، رفض هاتان الأسرتان شأن مصر إلى مدارج عالية من العزة والرخاء ، وفيما بين ذلك أملت بمصر أدوار التدهور ، إذ غزاها السوربون ثم الإيتوبيون من الجنوب فيما بعد .

وسيطرت بابل على أرض الجزيرة دهرًا ، ثم ارتفع شأو الحيثيين بها فسوري دمشق إبأن دور عزة قصير الأمد ؛ وجاء أوان غزاهم السوربون مصر ، وتزعج نجم الآشوريين في نينوى بين الصعود والأفول ؛ فتارة تكون المدينة مغزوة مهينة ؛ وتارة يحكم الآشوريون بابل ويضربون على مصر . والبرايح الذي بين يدينا أضيق من

أن يسمع لنا بأن نحدثك عن غدوات وروحوات جيوش مصر والدول السامية المتنوعة بآسيا الصغرى وسوريا وأرض الجزيرة . وبحسبك أنها كانت آنذاك جيوشاً مزودة بأرتال ضخمة من العجلات الحربية ، ذلك أن الحصان ( الذى لم يكن يستخدم إلا فى الحرب وإظهار العظمة ) كان قد انتشر فى ذلك الوقت من آسيا الوسطى إلى بلاد للدنيات القديمة .

ويظهر على المسرح فى النور الخافت للبحث من ذلك الزمن السعيق غزاة كبار يظهرون ثم يذهبون ، منهم تشارنا ملك ميتانى ، الذى استولى على نينوى ، ومنهم ومجالات بلسر الأول الذى فتح بابل . وأخيراً أصبح الآشوريون أعظم قوة حربية فى ذلك الأوان . فترا تجلات بلسر الثالث بابل فى ٧٤٥ ق . م ، وأسس ما يسميه للؤرخون باسم الإمبراطورية الآشورية الجديدة . وكان الحديد قد وفد الآن هو أيضاً من الشمال إلى بلاد الحضارة ؛ إذ حصل عليه أولاً الحيثيون أسلاف الأرمن وعندهم أخذ الآشوريون ، كما أن منتصباً للعرش الآشورى ، اسمه سرجون الثانى سلع به جيوشه ، فكانت مملكة آشور أول قطر أخذ يمدد الحديد والدم . وزحف سنحريب بن سرجون بجيشه إلى حدود مصر ، ولكنه ارتد عنها لا لمزعة لحقته من قوة عسكرية بل بسبب وباء الطاعون . وتم لحفيد سنحريب الملك آشور بانيبال ( الذى يعرف أيضاً فى التاريخ باسمه الإغريقى ساردانا بالوس ) فتح مصر فعلا فى ٧٦٠ ق . م . لكن مصر كانت فى ذلك الحين قطرا محتلا تحسكه أسرة إثيوبية . فشكل الذى فعله ساردانا بالوس هو أن أحل فأنحما محل آخر .

فلو أتيت لنا مجموعة من الخرائط السياسية لتلك الفترة الطويلة من التاريخ ، للمدة على تلك القرون العشرة ، لوجدنا مصر تمتد وتقلص كما تفعل الأمم تحت اليكروسكوب ، ولراينا هذه الدول السامية المتنوعة من بابليين وآشوريين وحيثيين وسوريين تجيء وتفتقد ، وتبتلع إحداها الأخرى ثم تعود فتلفظ إحداها الأخرى مرة ثانية . وإنا لنجد فى غرب آسيا الصغرى دولاً إيسية صغيرة مثل ليديا ، التى كانت عاصمتها ساردس ومثل كاري . ولكن الذى حدث بعد قرابة ١٢٠٠ ق . م وربما قبلها ، هو أن مجموعة جديدة من الأسماء ظهرت على خريطة العالم العتيق ، هابطة من الشمال الشرقى والشمال الغربى . وما هذه إلا أسماء قبائل هندية معينة ، تتسلح بأسلحة الحديد وتستخدم العجلات التى تجرها الخيل ، وتغير على الحضارات الإيسية والسامية فى مناطق



تقومها الشمالية وتنزل بها النكبات . وكانوا جميعاً يتكلمون ضرباً مختلفاً من لسان كان في الأصل لغة واحدة ، هي الآرية .

أخذ الليديون والفرس يهبطون من الشمال الشرقى لبحر الأبيد وبحر قزوين . وتخلط سجلات تلك العصور بين هؤلاء وبين الإسكنديين ( الأشقوذيين ) والصرمانيين . ومن الشمال الشرقى أو الشمال الغربى انحدر الأرمنيون ، وجاء من شمال غربى ذلك البحر الفاصل وبطريق شبه جزيرة البلقان الكريون والفرجيون والقبائل الهلانية التى نسميها الآن باسم الإغريق .

كان هؤلاء الآريون مغيرين وسارقين ونهابين للندن ، سواء في ذلك منهم من وفدوا من الشرق أو الغرب . كانوا جميعاً شعوباً متشابهة ترتبط بوشائج الرحم ، كما كانوا رعاة أهداء زرعوا إلى السلب والنهب . على أنهم لم يكونوا في الشرق إلا سكاناً نازلين على التخم وجيراناً مغيرين ، ولكنهم استولوا في الغرب على اللدن وطردها منها السكان الإيبىيين المدينين . وبلغ الضيق بالشعوب الإيبية أن أخذوا يبحثون عن أوطان جديدة لهم في مناطق تخرج عن مثال الآريين . فأخذ بعضهم يحاول السكنى في دلتا النيل لولا أن صدم المصريون ؛ وبعضهم وهم الإترسك يلوح أنهم أجبروا من آسيا الصغرى ليؤسسوا دولة في برارى وسط إيطاليا الكثيف الغابات ؛ وأقام بعضهم لنفسه المدن على سواحل البحر المتوسط الجنوبية الشرقية ، وأصبحوا فيما بعد الشعب المعروف في التاريخ باسم الفلسطينيين .

سنزيدك في فصل تال بياناً عن هؤلاء الآريين الذين دخلوا مشهد الحضارات القديمة بتلك الحشونة البالغة . وستقتصر هنا على مجرد الإشارة إلى مجمل تلك الحركات والمهجرات التى حدثت في منطقة الحضارات القديمة ، والتى بدأت بدوام التقدم التدرجى المتواصل لهؤلاء الآريين الممجم المهابطين من الغابات والبرارى الشمالية بين ١٦٠٠ و ٦٠٠ ق . م .

وسنعدنك أيضاً في فصل تال من شعب سامى صغير ، هو العبرانيون ، سكان ما وراء سواحل الفينيقيين والفلسطينيين من تلال ، الذين بدأت أهميتهم في الظهور في قريب من نهاية هذه الفترة ؛ ذلك أنهم أمتصوا « أدبا » أوى أهمية كبيرة فيما تلا تلك

من ظهور التاريخ . . . وذلك الأدب هو مجموعة من الكتب والتواريخ والقصائد وكتب الحكمة وأسفار التنبؤات وهو التوراة العبرانية . . . ولا بد أن تغير جوهرى بأرض الجزيرة [العراق] ومصر لإيجاد ٦٠٠ ق . م . ولا بد أن فزار الإيجين أمام الإفريقى بل حتى تذاير كنوسوس ، قد بدأ الشكل من سكان مصر وبالمرحلة اضطراب نائية جدا ، وكانت الأسس للملكة تذهب وتجيء في هاتين الدولتين مهاد الحضارة ، على أن الحياة البشرية ساوت في مجراها الزميشى ، وإن حلت بها نقطة على مر العصور زيادة طفيفة في التهذيب والتمقيد . . . وأما مصر فكانت الآثار التي تكسدت عن الصور الثلثة السابقة قد زادت كثيرا بما أصيب إليها من مبان جديدة فاخرة ، شيدت بوجه خاص في عصر الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة : وكان عمر الأهرام قد بلغ آنذاك ثلاثة آلاف سنة كما كانت قرحة يتفرج عليها الزوار كما يفعلون الآن تماما ، ويرجع مقبدا التكرنك والأقصر الكبيران إلى ذلك الزمان . أما نينوى فإن الآثار الرئيسية بها : للعباد الكبرى والثيران للنبعة ذوات الرؤس البشرية ، والحفر البارز الذي يمثل الملوك والنبيلات وضيق الأسود . . . من صنع تلك القرون بين ٦٠٠ ق ١٦٠٠ م ، كما أن هذه الفترة تشمل أيضا على معظم ما بلغه بابل من أمة وجلالة .

ولدينا الآن من أرض الجزيرة ومصر جميعا سجلات عامة كثيرة العدد ، وحسابات لأشغال تجارية وحكايات وقصائد شعرية ومراسلات خاصة . . . ومنها نعلم أن حياة المصريين وذوى النفوذ في مدن من أمثال بابل وطيبة المصرية ، تكاد تبلغ من التهذيب والترف مبلغ حياة من يستظلون الرفاهية واليسار في أيامنا هذه .

كان هؤلاء الناس يعيشون عيشة منظمة حافلة بالمواسم ويقطنون منازل جميلة الشكل أنيقة الأثاث والزخرفة ، ويرتدون ثيابا جزلة الزينة والوشى وجواهر بديعة ، وكانت لهم أعياد وحفلات ، فإن شاء الواحد منهم أن يكرم الآخر ويسليه أحكمه بالموسيقى والرقص ، كما يقوم على خدمتهم خدم رفيعو التدريب ، كما كان الأطباء وأطباء الأسنان يعالجونهم . . . وهم لا يكتفون من السفر وإن فعلوا لم يذهبوا بعيدا ، ولكن التزهة بالزوارق كانت من أسباب المسرقة صيفا في كل من نهري النيل والفرات ، أمادابة الجمل عديم فهي الجمار ؟ في حين لم يستخدم الحصان إلا في العربات الخيرية . . . والمناسبات الرسمية دون غيرها . وكان النقل لا يزال شيئا جديدا ، كما أن الجمل لم يكن قد دخل معطر جدا وإن جزئه أرض الجزيرة من قبله . . . ومن الطبيعي أن الأوعية المصنوعة من

بالحديد كانت قليلة ؛ إذ إن النحاس والبرونز ظلوا المعدنين للتقنين . وكانت الرقاع  
يفن أن تصبى القطن والنيل معروفة هي والصوف . ولكن لم يكن هناك خزير . ويعرف  
الناس الزجاج وأصنعوا عليه الألوان الجميلة ، ولكن الأوعية الزجاجية كانت في العادة  
صغيرة . ولم يكن الزجاج صافياً شفافاً كما أنه لم يستخدم في السميت . وكان الناس  
يمشون أسنانهم بالذهب وإن لم يسموا للناظر فوق أنوفهم .

وهناك فرق عجيب بين الحياة في طيبة القديمة أو بابل وبينها في العصور الحديثة ،  
هو غيبة العملة للسكوك . فالقاعدة هي الأساس في القدر الأعظم من الصفقات التجارية .  
وكانت بابل تسبق مصر من الناحية المالية بأشواط بعيدة . واستعمل الذهب والفضة في  
التبادل وجملاً في صورة سبائك ؛ وقبل سك النقود برمن . مديد كان هناك طلب  
مصارف ، يدفعون أسماءهم والوزن على هيئة الكتل من المعدن النفيس . وكان التاجر  
أو المسافر يحمل الأعباء الثينة ليبيها وينفق منها . وكان معظم الحدم والعامل عبيداً  
لا يتناولون أجورهم نقداً بل عينا . ولما ظهرت النقود انحط الرق .

ولو أن زائراً من أهل عصرنا زار هاتين اللديتين اللتين أصبحتا تاجاً على مرفق  
العالم القديم ، لافتقد صنفين هامين جداً من أصناف الغذاء ، هما الدجاج والبيض . ولذا  
فإن الطاهي الفرنسي ما كان يجد مسرة كبيرة في بابل . فإن هذين الصنفين وصلنا من  
الشرق في عصر الإمبراطورية الآشورية الأخيرة تقريباً .

وكذلك الديانة ، فقد ألم بها ككل شيء آخر تهذيب عظيم ، إذ اخضت القرابين  
البشرية مثلاً منذ أمد بعيد ؛ وحل الحيوان أو الدمى للصنوعة من الخبز محل الضحية .  
( على أن الفيلقيين وبخاصة سكان قرطاجنة أعظم مستترانهم في إفريقيا ، اتهموا فيما بعد  
بالتضحية بالكائنات البشرية ) . وجرت العادة كلمات رئيس كبير في الأيام الحالية أن  
يضحى بزوجاته وعبيده وأن تكسر الحراب والقسي عند قبره ، وذلك لكي لا يكون  
في عالم الأرواح بلا أتباع ولا أسلحة . وبقيت بمصر عن هذا التقليد الرهيب عادة لطيفة  
هي دفن نماذج صغيرة للبيت والدكان والحدم واللاشية مع البيت ، وهي نماذج عدنا اليوم  
بأروع تمثيل حتى لتلك الحياة الوادعة للثقفة لهذا الشعب العتيق قبل ثلاثة آلاف سنة  
أو تزيد .

هكذا كان العالم القديم قبل انحدار الآريين من غابات الشمال وسهوله . وحدثت  
بالهند والصين تطورات موازية لهذه . فقد نشأت بالوديان الكبيرة بهذين القطرين

كليهما دول مدن زراعية لشعوب صحراء وأخذت تنمو وتزدهر ، ولكن لا يبدو أنها تقدمت أو اتلفت يبلاد الهند بنفس سرعتها بأرض الجزيرة أو مصر . لذا كانوا أدنى إلى مستوى السومريين أو مرتبة حضارة المايا الأمريكية . أما الصين فتاريخها لا يزال بحاجة إلى علمائها لكي تضي عليه الطابع المصري وتفيقه من كثير مما يشوبه من أساطير . والراجح أن الصين كانت في ذلك الأوان أكثر تقدما من الهند . وقد عاصرت الأسرة الثامنة عشرة بمصر ، أسرة إمبراطورية في الصين ، هي أسرة شانج ، وهم أباطرة كهنة يحكمون إمبراطورية منحة الروابط من ملوك تاجين . وكان رأس واجبات هؤلاء الأباطرة الأول هو تقديم القرابين للوسمية . ولا تزال هناك إلى اليوم أوان برونزية جميلة ترجع إلى عهد أسرة شانج وفيها من الجمال وجودة الصنعة ما يجعلنا نحس بأنها لم تصل إلى ما بلغتة إلا بعد قرون عدة من الحضارة .

## الفصل التاسع عشر

### الآريون البدائيون

منذ أربعة آلاف سنة ، أى حوالى عام ٢٠٠٠ ق م ، كانت أوروبا الوسطى والجنوبية الشرقية وآسيا أدفاً مناخاً على الأرجح ، وأكثر مطراً وغابات مما هي الآن . وكانت تتحول في هذه الأقاليم من الأرض مجموعة من القبائل معظمها من العنصر النوردى الأشقر الأزرق الميون بلغ من اتصالهم بعضهم بعضاً أن لغاتهم لم تزد عن مجرد فروع متنوعة من لغة واحدة مشتركة تنتشر من نهر الراين إلى بحر قزوين . ولعلهم لم يكونوا في ذلك الوقت شعباً وفير العدد جداً ، ولعل البابليين الذين كان حواريي عنصهم آنذاك القوانين لم يحسوا بوجودهم . ولا أحست بهم أرض مصر العريقة آنفاً في القدم والتخلف ، والتي كانت تذوق في تلك الأيام لأول مرة مرارة الغزو الأجنبي .

وقدر لهذه الشعوب النوردية أن تلعب دوراً هاماً جداً بالفعل في تاريخ العالم . كانوا شعوب أحرار أو أراض قطعت منها الغابات ؛ ولم يملكوا الحصان في البداية وإن وجدت لديهم للماشية ؛ فلذا هم تجولوا وضوا خيامهم وبقية متاعهم على عربات خشنة تجرها الثيران ؛ وإذا استقروا زمناً ما فقلطهم كانوا يصنعون عشوفاً من رفيع العنبر والطين . وإذا مات واحد من ذوى المكاة فيهم أحرقوا جثته ؛ ولم يدفنه به التراسم كما كانت الشعوب البيضاء القاعة تفعل ، وكانوا يضعون تراب كبار زعمائهم في أوان ثم ينشرون حولها راية مستديرة . وهذه الروابي هي القبور المستديرة التي تنتشر في جميع أرجاء أوروبا الشمالية ، ولم تكن الشعوب القاعة السابقة لهم تحرق موتاهم ، بل تدفنها في هيئة جلوس داخل رواب مستطيلة هي « القبور

الطويلة » Long barrows

وكان الآريون يتبعون القمح ، ويحرثون الأرض بالثيران ، ولكنهم لم يكونوا يستقرون إلى جوار محصولاتهم ؛ ذلك أنهم ما يكونون يحصدون حتى يحلون ، وقد ملكوا البرونز ، ثم حصلوا على الحديد حوالى ١٥٠٠ ق م . ولعلهم أول من

اكتشف صهر الحديد، ومالبثوا في زمن ما يقارب ذلك الوقت نفسه أو يكاد أن حصلوا أيضاً على الحصان - الذى بدأوا باستخدامه في أغراض الجردون غيرها ، ولم تتركز حياتهم الاجتماعية حول معد كالذى تركزت حوله شعوب البحر المتوسط الأكثر استقراراً. وكان كبارهم قادة في ميدان الحرب أكثر منهم كهنه. ونظامهم الاجتماعى أرسقراطى وليس فيه ربوبية لملك، وكانوا منذمرحلة سعيقة جدا في تاريخهم يعترفون لمبادئ عينا بالزراعة والتيل .

وهم قوم ذوو فصاحة ولسن . وكانوا يعيشون في مجوالمهم البهجة بما يقعون من حفلات يسرفون فيها في الشراب ، ويقوم فيها طراز خاص من الرجال بم الشراء بالنساء والتلاوة . ولم تكن لهم كتابة قبل اتصالهم بالحضارة ، ومن ثم كانت ذاكرة هؤلاء الشراء سجل أدهم الحاف ، وقد عاد استعمال اللغة للتلاوة كوسيلة للتسلية بأكثر الفضل عليها إذ جعلها أداة تعبير جميلة طيبة ممتازة ، كما لاشك في أنه يعود إليه الفضل، إلى أحدا ، فيما تلا ذلك من موالفات المشتقة من الآرية ، وراح كل شعب أرى يطور تاريخه الأسطورى في تلافات شعرية ، تختلف أبعادها باختلاف الشعوب ، فهي تارة تسمى باللاحم ، وتارة بالساجا ، وأخرى بالفيدا .

والحياة الاجتماعية لهذه الشعوب تتركز حول دور زعمائهم . فإن قاعة الرئيس التى يستقر القوم بها حيناً من الزمان ، كثيراً ما كانت بناء خشبياً رحيماً جداً. ولاشك في أنهم أغدوا بجوارها أحكاماً لقطعان ومباني ريفية في مواضع منها متطرفة ؛ ولكن هذه القاعة كانت لدى معظم الشعوب الآرية هي المركز العام ، الذى إليه يذهب كل إنسان ليحضر الولعة ، ويصلى إلى الشراء ، ويشترك في الألعاب والمناقشات ، وتحيط بالقاعة حظائر البقر وأسطبلات الخيل ، وينام الرئيس وزوجته ومن إليهما على منصة أو شرفة عليا ؛ أما العامة فتقيم في أى مكان هناك ، كما هو الحال إلى اليوم في القلاويزات في الهندية . وقد درجت حياة القبيلة على ضرب من الشيوعية قائم على نظام الأبوة في كل شيء عدا الأسلحة والخطى والآلات وما أشبهها من الممتلكات الشخصية ، وكان الرئيس يملك الماشية وأراضى رعيها عن أجل المصلحة العامة ؛ في حين أن القابات والأنهار هي والبرارى لا يسكنها أحد .

ذلك هو أسلوب حياة الشعب الذى كان يتكاثر ويتزايد على أرض البرابح الكبير بأوروبا الوسطى وآسيا الوسطى الغربية في أثناء نمو الحضارة العظيمة بأرض الجزيرة والتيل ،

ذلك الشعب الذي نحمده يضط في كل مكان على شعوب الحضارة الجبرية الشمسية (الميلوية) في الألف الثانية قبل المسيح ، كانوا ينحدون إلى فرنسا وبريطانيا وأسبانيا . ويتقدمون غرباً في موجتين . وتسليح أول فوج منهم بلغ بريطانيا وإرلندة بأسلحة من البرونز . فأبادوا أو أخضعوا الشعب الذي صنع من قبل الآثار الجبرية العظيمة للسماة بكارناك في بريتانى وستون هنج وآقبورى بأجلترا . وقد بلغوا إرلندة واسمهم السكت الجويديليون (Gordellie Celts) . أما اللوحة الثانية لشعب وثيقى القربى جهؤلاء ، ربما خالطه عناصر من أجناس أخرى ، فهى التى أحضرت الحديد معها إلى بريطانيا العظمى ، وهى تعرف باسم موجة السكت البريتونيين (Britthonia) وعندهم يشتق أهل مقاطعة ويلز لقبهم .

وأخذت شعوب كلتية ذات رحم جهؤلاء تشق طريقها بالقوة نحو الجنوب في أسبانيا وتتصل لا ينضب الباسك (الميلوي) وحده الذى كان لا يزال يحتل البلاد ، بل وبالمستعمرات الفيليقية السامية على ساحل البحر أيضاً . كما أن ، سلسلة من القبائل وثيقة الشبه بهذه ، هى الإيطاليون ، شرعت تتقدم في شبه الجزيرة الإيطالية وهى بعد برارى موحشة مكسوة بالغابات ، ولكن لم تمكن لهم الغلبة على طول الخط ، فإن روما تظهر في التاريخ في القرن الثامن ق . م ، مدينة تجارية على نهر التير يسكنها اللاتين الآرون ولكنهم تحت حكم نبلاء وملوك من الإترسك (التوسكان) .

فإذا انتقلنا إلى الطرف الآخر من المجال الآرى ، وجدنا قبائل عاتلة تتقدم هى الأخرى نحو الجنوب ، فإن شعوب آرية تتكلم السلتيكريتية انحدرت من خلال للخرات القرية إلى أرض شمال الهند قبل ١٠٠٠ ق . م . زمن مديد . وهناك اتصلوا بحضارة بدالية صحراء ، هى الحضارة الدرافيدية ، وتعلموا منها الشيء الكثير .

وهناك قبائل أخرى آرية يلوح أنها انتشرت فوق السكتل الجبلية بآسيا الوسطى ، متوغلة شرقاً توغلا بعيداً عن المجال الحالى لئلا تلك الشعوب . ولا تزال لياذ التركستان الشرقية قبائل نوردية شعراء الشعور زرقاء العيون ، ولكنها تتكلم الآن بالسن مغولية .

وفما بين بحر قزوين والبحر الأسود غطى الأرمنيون على الحيثيين القدامى . وصنفهم صنف آرية قبل ١٠٠٠ ق . م ، كما أن الآشوريين والبابليين قد شعروا فضلاً بوطاة أجناس همدية جديدة شديدة الرأس فى القتال على التخوم الشمالية الشرقية ، ( ٧ - تاريخ العالم )

وهي مجموعة من القبائل لا تبرح أسماء الإسكندريين والليديين والفرس أبرز ما بقي من أجناسها .

ولكن شبه جزيرة البلقان هي للمر الذي شق فيه أول زحف قوى للقبائل الآرية طريقه إلى صميم حضارة العالم القديم . على أنهم دأبوا قبل ١٠٠٠ ق . م بعدة قرون على الانحدار جنوبا ، وعبور البحر إلى آسيا الصغرى . فجاءت أولا مجموعة من القبائل أبرزها الفريجيون ، ثم جاء على التعاقب الإغريق الأبوليون والأيونيون والدوريون ، لما وافقت ١٠٠٠ ق . م ، حتى صارت الحضارة الإيجية القديمة في خطر كان في كل من بلاد اليونان الأصلية ومعظم الجزائر اليونانية ؛ فنهضت من الوجود مدينتا « ميسيناي » و « تيروز » ( Tiryns ) ، وكاد النسيان يعني على « كنوسوس » .

ونزع الإغريق إلى البحر قبل ١٠٠٠ ق . م ، وذلك بعد أن استمروا في جزيرتي كريت ورودس ، وشرعوا يؤسسون للمستعمرات بصقلية وجنوب إيطاليا ، على متواليات المدن التجارية الفيلقية المنتشرة على طول سواحل البحر المتوسط .

فيينا كان « تجلات بلسر الثالث » و « سرجون الثاني » و « سارداناپالوس » يحكمون مملكة آشور وبغاثلون بابل وسوريا ومصر ، كانت الشعوب الآرية تعلم طرائق الحضارة وتستخدمها لأغراضها الخاصة في إيطاليا وبلاد الإغريق وشمال إيران . ولم يلبث التاريخ كله منذ القرن التاسع ق . م لما جده ستة قرون أن أصبح يدور حول قصة هذه الشعوب الآرية وكيف قويت شوكتها وأخذت بأسباب للظاهرة ، وكيف تراهي بها الأمر إلى إخضاع العالم القديم بأسره ، السامى منه والإيجى والصغرى سواء ، لقد كانت الشعوب الآرية من الناحية الشكلية منتصرة بصورة مطلقة ؛ ولكن الصراع الذي نغص بين الأفسكار والطرائق الآرية والسامية والمصرية ظل مستمرا بعد انتقال الضو لجان إلى يد الآريين زمن جيد ، بل الحق إنه كفاح مستمر طيلة ما همته ذلك من التاريخ ، بل لا يزال مستمرا على شكل ما إلى يومنا هذا .



# الفصل العشرون

## الإمبراطورية البابلية الأخيرة

### والإمبراطورية دارا الأول

لقد أوضحنا من قبل كيف أصبحت مملكة آشور دولة عسكرية عظيمة تحت حكم تيجلاث بلسر الثالث ، ومقتصب العرش سرجون الثاني . ولم يكن الاسم الأصلي لذلك الزنجبل هو سرجون ، إذ الواقع أنه اتخذ لنفسه رغبة منه في تعلق البابليين المتأولين بتذكيرهم بالملك سرجون الأول ، المؤسس القديم للإمبراطورية الأكادية ، الذي جاء قبل زمنه بألفي سنة . وعلى الرغم من أن بابل كانت مغلوبة على أمرها ، فإنها كانت تفوق نينوى في الأهمية وعدد السكان ، ولم يكن يد من معاملة رها الكبير « بل مردوخ » وكهنتها وتجارها أحسن معاملة . فلقد أصبحت أرض الجزيرة في القرن الثامن قبل الميلاد على درجة أرق كثيرا من تلك الأيام المعبية التي كان فيها معنى فتح مدينة هو الثعب وإعمال السف . وصار الفاتحون يحولون استرضاء المتأولين وضمهم إلى جانبهم . ودلت الإمبراطورية الآشورية الجديدة قرناً ونصفاً بعد سرجون ، كما أن آشور بانينال ( سارداناپالوس ) قد استولى على مصر السطلى على الأقل كما سبق .

ولكن قوة آشور وتماسكها ما لبثت أن اضطجعت ، فاستطاعت مصر طرد الناصب بشيء من الجهد بزعماء فرعونها « إيسميك الأول » ، كما حاولت أن تشن حرباً لفتح سوريا بقيادة « نحاو الثاني » وفي ذلك الوقت كانت آشور تكافح أعداء أقرب إلى زبوعها ، فلا تستطيع إزاءهم إلا أضف المقاومة . ذلك أن شعباً سامياً من الجنوب الشرقى لأرض الجزيرة هو الكلدان ، اتحد ضد نينوى مع الميديين والفرس الآريين الهابطين من الشمال الشرقى ؛ وفي ٦٠٦ ق . م . بالضبط ( إذ إننا دخلنا الآن في مرحلة التأنيع المضبوط ) استولوا على تلك المدينة .

وتم تقسيم غنائم آشور ، وأنشئت في الشمال إمبراطورية مصرية تحت حكم كاسارس

( سياخار ) ضمت إليها نينوى وجعلت عاصمتها إكباتانا . وامتدت حدودها شرقاً إلى تخوم الهند . وإلى الجنوب من هذه ، وفي شكل هلال عظيم ، تأسست إمبراطورية كلدانية جديدة ، هي الإمبراطورية البابلية الثانية ، التي ارتفعت إلى درجة عالية من القراء والقوة تحت حكم نبوخذنصر العظيم ( وهو نبوخذنصر المذكور في التوراة ) ، وابتدأت بذلك آخر أيام بابل العظيمة ، بل أعظم أيامها جميعاً ، وظلت الإمبراطوريتان في سلام رديحاً من الزمن ، وتزوج سياخار من ابنة نبوخذنصر .

وفي نفس الوقت كان نحاش الثاني يواصل فتوحاته في سوريا دون مقاومة ، فهزم في معركة مجدو سنة ٦٠٨ ق . م يوشع ملك يهودا وقتله . وهي قطر صغير مستعبد لك عنه بالمزيد عما قليل ، ثم انطلق إلى نهر الفرات لا يلتقي بملكمة آشورية منحلة ، بل بدولة بابلية ناهضة . وقد قاوم السكديانيون للصريين وأخذوا قوياً . ودحر نحاش ورد على أعقابها إلى مصر ، وانتقلت الحدود البابلية إلى الحدود المصرية القديمة .

وظلت الإمبراطورية البابلية الثانية منذ ٦٠٦ إلى ٥٣٩ ق . م . مزدهرة ازدهاراً فرياً وطيداً ، فلم يدم ازدهارها إلا بقدر ما حافظت على السلم بينها وبين الإمبراطورية للبدية الأقوى منها بأساً ، والأسلب عوداً في الشمال . وفي غضون تلك السنوات السبعة والستين لم يقتصر الازدهار في للدينة القديمة على الحياة وحدها . بل شمل العلوم أيضاً .

وكانت بابل مسرحاً للشاط فسكرى عظيم ، حتى وهي تحت حكم ملوك الآشوريين سيا ساردانا بولس ، وهذا لللك وإن كان آشورياً إلا أنه اصطنع بالصبغة البابلية تماماً ؛ فإنه أنفأ مكتبة لم تصنع مجلداتها من الورق ، بل من ألواح الطين التي كانت تستعمل في الكتابة بأرض الجزيرة منذ أقدم المصور السومرية . وقد أزعج الستار عن مجموعة كتبه . وللهذا أئمن ما في العالم من اللخاثر التاريخية .

وكان لآخر أفراد الأسرة السكديانية من ملوك بابل ، وهو نابوئيداس ، ذوق أدبي أرهف أو يكاد ، فإنه ناصر البحوث التاريخية القديمة وشملها برعايته ، حتى إذا وصل الباحثون من علمائه إلى تحديد تاريخ تولى سرجون الأول العرش ، خلد ذكرى تلك الواقعة بما سطر من حوش . بيد أن إمبراطوريته كانت تنطوي على حشيش من دلائل التفسك ، لمحاول أن يث فيها روح للركزية بأن أحضر إلى بابل عدداً من الآلهة اللحيين المختلفين ، وأقام بها للعباد تلك الآلهة . وقد استعمل الرومان تلك



خريطة رقم ( ٣ )

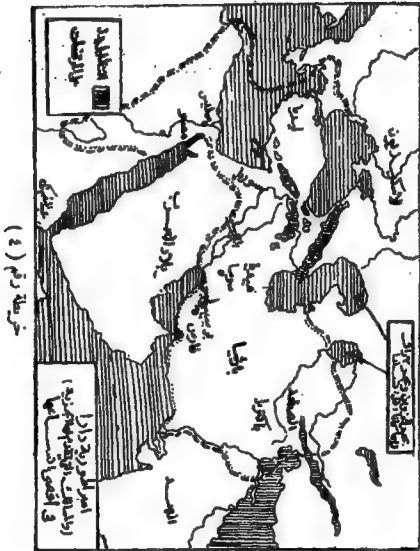
الطريقة بنجاح تام فيما تلا ذلك من الزمان ، ولكنها أثارت في بابل غير كنهة بل مردوخ الأقوياء ، وهو رب البابليين الأكبر . فأخذوا يدبرون الحطط للتخلص من نابونيداس ، والبحث عن بديل له ، ووجدوه في شخص قورش الفارسي ، حاكم الإمبراطورية لليديّة المجاورة . ومن قبل ذلك كان اسم قورش قد برز حين هزم كرويسوس ملك ليديا الثرى في شرق آسيا الصغرى . وزحف للثلك على بابل ، ودارت للمركة خارج أسوارها ، وقصفت له أبواب اللدنة ( ٥٣٨ ق م ) . فدخلها جنوده بلا قتال .

وتذكر التوراة أن ولى العهد يلشاصر بن نابونيداس كان في وليجة عند ما ظهرت يد وكتبت هذه الكلمات على الجدار بأحرف من نار : « منا ، منا ، ثقيل ، وفرسين لقرأ الفز بأن » منا أحصى الله ملكوتك وأنهاه ، و ثقيل وزنت بالموازين فوجدت ناقصا ، فرسين قسمت لملكك وأعطيت لمادى وفارس<sup>(١)</sup> . وربما كان كنهة بل مردوخ على علم بأمر تلك الكتابة للسطورة على الحائط . وقتل يلشاصر في تلك الليلة كما تقول التوراة ، وأخذ نابونيداس أسيراً ، وتم احتلال اللدنة بهوء وسلام بحيث استمرت الصلاة لبل مردوخ دون أى توقف .

وهكذا تم توحيد الإمبراطورية البابلية واليديّة . وأخضع قمبىز بن قورش مصر ، ثم جن قمبىز وقتل صدفه ، وخلعه على الفور دارا اللدى الملقب دارا الأول ، وهو ابن هستاسيس . أحد كبار مستشارى قورش .

وكانت إمبراطورية دارا الأول الفارسية ، وهى أول الإمبراطوريات الآرية الجديدة فى الشرق موطن الحضارات القديمة ، أعظم إمبراطورية شهدها العالم حتى ذلك الحين إذ كانت تضم آسيا الصغرى بأكملها وسوريا ، وجميع الإمبراطوريات الآشورية والبابلية القديمة ، ومصر ومناطق القوقاز وقزوين ، وبلاد ميديا وفارس ؛ كما أنها كانت تمتد فى بلاد الهند حتى نهر السند . وقد أصبح وجود مثل تلك الإمبراطورية فى حيز الإمكان عند ذلك فى العالم ، بفضل استخدام الحصان والراكب والعربة والطريق للرصف .

(١) التوراة : دانيال الإصحاح الخامس .



أما قبل ذلك فإن الحمار والثور والجل ( في الصحراء ) كانت أسرع وسائل النقل . وأنشأ حكام الفرس طرقاً عظيمة امتدت كالشرايين لربط أجزاء إمبراطوريتهم الجديدة بعضها إلى بعض ، وكانت خيول البريد واقفة على الدوام تنتظر رسول الإمبراطور أو السافر الذى يحمل إذناً رسمياً بالمفر . وفضلاً عن ذلك فإن العالم كان قد شرع آنذاك فى استعمال النقود للسكوك . التى سهلت التجارة والتعامل تسهلاً كبيراً . ولكن عاصمة تلك الإمبراطورية الضخمة لم تعد بابل . وانقضت الأيام ولم يكن كهان بعل مردوخ من حياتهم شيئاً . وأخذت بابل تضمحل وإن بقي لها شيء من أهميتها ، على حين صارت للدن الكبرى فى الإمبراطورية الجديدة هى برسيبوليس وإكباتانا . وكانت سوسا هى العاصمة . بينما هجرت نينوى وأخذت تتساقط أطلالها بالية .

## الفصل الحادى والعشرون

### تاريخ اليهود القديم

والآن نستطيع أن نتحدث عن اليهود ، وهم شعب سامى ، لم يؤثروا في زمانهم من الأهمية قدر ما تركوا من التأثير فيما عقب ذلك من تاريخ العالم . استقر اليهود في بلاد يهوذا ( Judaea ) قبل ١٠٠٠ ق . م . زمن طويل ؛ وبعد ذلك العهد سارت أورشليم أكبر مدينة لديهم . وتشابك قصتهم بقصة الإمبراطوريات الكبيرة الواقعة على كل من جانبيهم : مصر إلى الجنوب وتلك الإمبراطوريات للتخيرة في الشمال ، إمبراطوريات سوريا وآشور وبابل . ولم يكن مفر من أن تصبح بلادهم طريق مرور رئيسى بين تلك الدول ومصر .

وترجع أهميتهم في العالم إلى كونهم أئتمروا أدباً وتاريخاً عالياً ومجموعة من القوانين والتواريخ وللزامير وكتب الحكمة والشعر والقصص والكلام السياسية ، وهى التى أصبحت في النهاية ما يسميه المسيحيون باسم العهد القديم ، وهو التوراة العبرانية . وقد ظهر ذلك الأدب في التاريخ في القرن الرابع أو الخامس ق . م .

والراجح أن ذلك الأدب قد جمع شتاته لأول مرة في بابل ، وقد أسلفنا عليك كيف أن الفرعون نحاش الثانى غزا الإمبراطورية الآشورية ، وآشور تقاتل لليديين والفرس والسكندان قتال حياة أو موت ؛ وبينما كيف اعترضه يوشع ملك يهوذا ، فهزمه نحاش وقتله عند مجدو ( ٦٠٨ ق . م ) . وبذا أصبحت يهوذا دولة تابعة لمصر ، وعندما تمكن تبوخزنصر الكبير لللك البكلىانى الجديد الذى تولى الحكم في بابل ، من رد نحاش على عقبه إلى مصر ، حاول أن يحكم يهوذا بإقامة ملوك ضفاف يأمرزون بمشيئته في أورشليم ، ولكن فشلت المحاولة ، فإن الشعب أجعل الذبح في موطئيه البابليين ، وعند ذلك صمم لللك أن يمزق تلك الدولة الصغيرة كل ممزق بعد أن ظلت آمداً بعيداً تستفيد من تأليب مصر على الإمبراطورية الشمالية ، فأمر قتيب أورشليم وأحرقت ، وحمل من بقى بها من الناس إلى بابل أسرى .

وهناك أقاموا حتى استولى قورش على بابل ( ٥٣٨ ق ٢٠ ) وعند ذلك جمعهم جميعاً وأعادهم إلى بلادهم ليسكنوها من جديد وليعيدوا بناء أسوار اورشليم ومعبدها .

ويبدو أن اليهود لم يكونوا قبل ذلك الأوان شعباً متحضراً ولا متحداً . وربما لم يكن فيهم إلا قلة مثيلة تستطيع القراءة والكتابة . غير أن تاريخهم نفسه لا يندسكراً البتة أن الأسفار القديمة من التوراة كانت قراءاً ، ولم تذكر الكتب لأول مرة إلا في عهد يوشع . ولكن الأسر البابلي مذهبهم ووحدهم ، فعادوا إلى بلادهم عديدى اليقظة إلى أديهم ، عادوا شعباً متأجج الوعى الذاتى مشرباً بالزخات السياسية .

ويلاحظ أن توراتهم لم تكن تحتوى فى ذلك الوقت إلا على أسفار موسى الخمسة ( Pentateuch ) ؛ أى الكتب الخمسة الأولى من العهد القديم الذى نعرفه جميعاً . وفصلاً عن ذلك كان لديهم فصلاً - وعلى صورة كتب منفصلة ، - كثير من الكتب الأخرى التى ألحقت منذ ذلك الحين فى أسفار موسى الخمسة بالتوراة العبرانية الراهنة ، ومنها مثلاً أسفار التورايخ والزامير والأمثال .

ولو تأملت قصص خلق العالم وآدم وحواء والوطوفان ، التى تبدأ بها التوراة ، لوجدتها وثيقة الملائكة لأساطير بابلية تشبهها ؛ والظاهر أنها كانت من المعتقدات الشائعة لدى الشعوب السامية كافة ، وكذلك قصص موسى وشمشون فإن لها نظائر سومرية وبابلية . ولكن بداية أمر الشعب اليهودى بوجه أخص لا تبدأ حقاً إلا بقصة إبراهيم لما تلاها .

وربما كان إبراهيم يعيش فى نفس الوقت المبكر الذى عاش فيه سموراني فى بابل ، كان إبراهيم رجلاً بدوياً سامياً يعيش عشيرته فى نظام الأبوة ، وعلى القارىء أن يرجع إلى سفر التكوين بحثاً عن قصة تجولاته وقصص أبنائه وحدهته وكيف أصبحوا أسرى بأرض مصر وكيف جاس خلال أرض كنعان ؛ وتقول رواية التوراة : إن رب إبراهيم وعده وأولاده بهذه الأرض البسامة ذات اللدن الفنية .

وبعد مقام طويل يحضر وبعد أربعين طافاً من التجول فى البرية بزعامه موسى ، يزايد أبناء أبراهام فيصبون شعباً مكوناً من اثني عشر سبطاً ، ويضربون أرض كنعان





من القياقي العربية في الشرق . ولعلهم فعلوا ذلك في زمن ما بين ١٦٠٠ ق م . ١٣٠٠ ق م . وليس فيما دوتته مصر عن تلك الحقبة أى ذكر لموسى ولا كنعان حتى يزىل ما يكتنف تلك القصة من غموض ، ومهما يكن من أمر فإنهم لم يفتحوا إلا منطقة التلول الداخلية في أرض للباد ولم يزيدوا عليها شيئاً . فلن الساحل في ذلك الأوان لم يكن في أيدي الكنعانيين ، بل في أيدي قوم وافدين من الخارج هم أولئك الشعوب الإيجية الذين يسمون بالفلسطينيين ؟ وقد استطاعت مذهب غزة وجاث ، وأشدود وعسقلان ويفا ، أن تصمد لهجوم البرانيين ؟ وظل أسباط إبراهيم أجيالا عديدة شعباً معزولاً يعيش في منطقة التلال الخلفية مشغولاً بمناوشات لا نهاية لها مع الفلسطينيين وذوى قرباهم من القبائل النازلة حولهم وهم للمؤايون وأهل مدين ومن إليهم . وسيجد القارئ في سفر القضاة سجلا يسطر كفاحهم وما أصابهم من نكبات إبّان تلك الفترة . ذلك أنك تجد في الأغلب سجلا من النكبات والإخفاقات التي دوتت بصراحة .

وكان حكم اليهود خلال أكبر جزء من هذه اللة - لو اقرضنا أن لهم حكومة من أى نوع - قضاة من الكهنة ينتخبهم كبار الشعب ، ولكنهم عمدوا في النهاية في زمن ما يقارب ١٠٠٠ ق م . إلى انتخاب ملك هو شاول ، ليكون لهم قائدا في القتال . ولكن قيادة شاول لم تزد كثيرا على قيادة القضاة ، فملك تحت وابل من سهام الفلسطينيين في معركة جبل جلبوع ، وأخذت دروعه إلى معبد فينوس الفلسطينية ، ودق جسمه بالسامير على أسوار بيت شان .

وكان خلفه داود أكثر توفيقا وفطنة . ويتولى داود أشرقت فترة الرخاء الوحيدة التي قدر للشعب البرانية أن تعرفها على مر الدهر كله . وهي تقوم على محالفة وثيقة الأواصر مع مدينة صور الفينيقية ، التي يلوح أن ملكها حيرام كان رجلا أوثق نصيباً كبيرا من الله كآء والقدرة على الناصرة . وكان يفي أن يكفل للتجارة إلى البحر الأحمر طريقاً آمناً عبر منطقة التلال البرانية . وكان الأصل في التجارة الفينيقية أن تذهب إلى البحر الأحمر عن طريق مصر ، بيد أن مصر كانت في ذلك الزمان في حالة بالغة من الفوضى ؛ ولعل عقبات أخرى قد حالت دون مرور التجارة الفينيقية في تلك الطريق ، ومهما يكن من شيء فلن حيرام أنشأ بينه وبين داود وابنه وخلفه سليمان أوثق العلاقات ، وعند ذلك نشأت برعاية حيرام ، أسوار أورشليم وقصرها ومعبدها ، وفي مقابل ذلك بنى حيرام سفنه على البحر الأحمر وسيرها فيه . وأخذ سيل جسم من التجارة

يُدفن في خلال أورشليم نحو الشمال والجنوب . وأوى سليمان من اليسار واليمين ما لم يره شعبه من قبل . حتى لقد بلغ من أمره أن سمح فرعون بزوج ابنته منه .

يبدو أن من الخير ألا تفتب عن بالنا التقديرات النسبية للأمور . فليسان لم يكن وهو في أوج مجده إلا ملكاً صغيراً تابعاً يحكم مدينة صغيرة . وكانت دولته من الهزال وسرعة الزوال بحيث أنه لم تنقض بضعة أعوام على وفاته ، حتى استولى شيشنق أول قراعنة الأسرة الثانية والعشرين على أورشليم ونهب معظم ما فيها من كنوز . ويقف كثير من النقاد موقف اللستريب إزاء قصة مجد سليمان التي توردها أسفار الملوك والأمم . وهم يقولون إن الكبرياء القوي لدى كاتب متأخرين هو الذي دعاهم إلى إضافة أشياء إلى القصة واللبالغة فيها . يبدو أنك إذا أضمت النظر في قصة التوراة وقرأتها بمزيد من العناية لم تجد لها الروعة التي تخيل إليك عند أول قراءة .

فلو أنا استخرجنا من القصة أطوال مجد سليمان ، لوجدنا أن في الإمكان وضعه داخل كنيسة صغيرة من كنائس الضواحي ، وأما عرباته الألف والأربعمائة فإنها ستكفي عن بحث الإكبار في نفوسنا عندما نعلم من أحد الأطلال الآشورية أن خلفه آحاب ( Ahab ) أرسل كتيبة من ألفين لتتضم إلى الجيش الآشوري . وواضح مما نقص التوراة أن سليمان بدد ما يملك في الظاهر وأنه أبهظ شعبه بالعمل والضرائب . ولما أن مات انفصل الجزء الشمالي من مملكته عن أورشليم وأصبح مملكة إسرائيل المستقلة . بينما ظلت أورشليم حاضرة يهوذا .

ولم يتمتع الشعب العبراني بخفض العيش إلا أمداً وجيزاً . فمات حيرام ، واضطاع عون صور الذي كانت تقوى به أورشليم . ثم قويت شوكة مصر ثانية . ويصبح تاريخ ملوك إسرائيل وملوك يهوذا ، تاريخ ولايتين صغيرتين بين شقي الرمح تمركما على التوالي سوريا ثم بابل من الشمال ومصر من الجنوب . وهي قصة نكبات وتمريرات لافئود عليهم إلا بإرجاء نزول النسبة القاضية ، هي قصة ملوك همج يحكمون هباً من المديح ، حتى إذا وافق ٧٢١ ق م عمت يد الأسر الآشوري مملكة إسرائيل من الوجود ، وزال شعبها من التاريخ زوالاً تاماً ، وظلت مملكة يهوذا تكافح حتى حل بها في ٦٠٤ ق م ، ما حل بإسرائيل كما أسلفنا ، وربما كانت بعض تفاصيل رواية التوراة لتاريخ العبرانيين منذ أيام القضاة لما تلاها موضع الشك والنقد ، ولكنها بوجه الإجمال قصة

واحدة الصدق تتفق مع كل ما علمناه عن طريق أعمال الخضر التي تمت في مصر وآشور وبابل إبان القرن للتصميم .

وهناك في بابل جمع الشعب العبراني تاريخه بعضه إلى بعض وطور تقاليده ونماها . ذلك أن القوم الذين آتوا إلى أورشليم بأمر قورش كانوا شعباً يختلف اختلافاً عظيماً في الروح والمعارف عن ذلك الشعب الذي خرج منها مأسورا ، فإنهم تعلموا الحضارة . وظهرت إبان تطورهم الخلقى الفريد في باب طائفة معينة من الرجال لعبت دوراً عظيماً جداً في تاريخهم ، وهى طراز جديد من الرجال ، هم الأنبياء ، الذين يلبقى لنا الآن أن نوجه إليهم اهتمامنا ، ويؤذن ظهور الأنبياء بظهور قوى جديدة جديدة في الملاحظة في التطور للطرد للجماعة البشرية .

## الفصل الثاني والعشرون

### كهان وأنبياء في بلاد اليهودية

لم يكن سقوط آشور وبابل إلا فاتحة سلسلة من النكبات التي كتب للشعوب السامية أن تقاسمها . ومن قبل ذلك كان العالم للتخضر بأكله يالوح في القرن السابع ق . م كأنما هو موشك أن يتسلط عليه حكام ساميون . ذلك أنهم كانوا يحكمون الإمبراطورية الآشورية العظمى كما استولوا على مصر ؛ وغلب الساميون على بلاد آشور وبابل وسوريا التي كانت تتكلم لغات متقاربة يمكن فهمها بينهم جميعاً . وكانت تجارة العالم في أيدي الساميين ، فإن صور وصيدا مدينتي الساحل الفينيقي الأصليتين الكبيرتين قد نثرنا المستعمرات . التي كبرت في النهاية حتى فاقت أمها حينما في أسبانيا وصقلية وإفريقيا . ذلك أن قرطاجنة التي أسست قبل ٨٠٠ ق . م ، تزيد عدد سكانها حتى أربى على المليون . وظلت أعظم مدن العالم ردها من الزمن . فذهبت سفنها إلى بريطانيا وخرجت إلى عرض المحيط الأطلسي ، ولعلها بلغت جزائر ماديرا ، وقد رأينا من قبل كيف تعاون حيرام مع سليمان على بناء السفن على البحر الأحمر لنقل التجارة العربية وربما الهندية أيضاً ، وحدث في زمن الفرعون نحاو أن حملة فينيقية دارت بسفنها حول قارة إفريقيا .

وكانت الشعوب الآرية لا تزال في ذلك الحين غارقة في الممجية ، لا يستثنى منها إلا الإغريق الذين جعلوا يبدون بناء مدينة جديدة على أنقاض تلك التي دمرها ، وكذلك الميديون الذين أصبحوا « ذوى بأس وقوة » في آسيا الوسطى ، كما تصفهم بعض النقوش الآشورية ، ولم يكن أحد يستطيع أن يتكهن في ٨٠٠ ق . م بأن كل أثر لسلطان الساميين سينموه غزاة ينطقون بالآرية قبل حلول القرن الثالث ق . م ، وأن الشعوب السامية ستندو في كل مكان خاضعة أو تابعة أو مشتقة كل مشتقة ، ففي كل مكان ، ما عدا صحارى بلاد العرب الشمالية ، حيث استمسك البدو بشدة بطريقة عيشي البرجل ، سادت طريقة العيش التي كانت للساميين قبل زحف سرجون الأول والآكلديين لفتح سومر ، يد أن العرب البدو لم يهزم البتة بمساعدة آريون .

ولم يتأسك من جميع هؤلاء الساميين للتضرير الذين هزموا وأخضعوا في إبان تلك القرون الحجة الحافلة بالأحداث ، أقول لم يتأسك منهم ولم يستمسك بتقاليدهم القديمة إلا شعب واحد فقط ، هو هذا الشعب الصغير ، وأعني به اليهود الذين أعادهم قورش الفارسي ليشيدوا مدينتهم أورشليم . وقد تيسر لهم ذلك كله ، بفضل جمعهم شتات أديهم ذلك ، وهو التوراة ، أثناء مقامهم في بابل .

والواقع أن اليهود لم يصنعوا التوراة بل إن التوراة هي التي صنعت اليهود . ذلك أن تلك التوراة تتطوى ذفاها على فكريات بينها ، تخالف فكريات من حولهم من الشعوب ، وهي فكريات شديدة التنبيه للأذهان شديدة الدسم والتثبوت للأتقيس ، قدر لهم أن يتعلقوا بها إبان خمسة وعشرين من قرون المهن والفاخرة والاضطهاد .

وأول هذه الفكريات اليهودية وأبرزها ، هي اعتقادهم بأن إلههم خفى مستتر وبنييد ، إله غير مرئي يعيش في معبد لم تصنعه يد ، وهو رب الخير والبر في أرجاء الأرض كافة . أما الشعوب الأخرى قاطبة فلها أرباب قومية تمثلوها أصناما تعيش في معابد . فإذا تحطم الصنم وانهدم للمبد ، ولّى الرب على الفور ، ولكن رب اليهود هذا كان فكرة جديدة ، فهو يعيش في السماء ، ساميا متعاليا على السكينة والقرابين . وكان اليهود يؤمنون بأن إلههم هذا هو إله إبراهيم ، قد اسطفاهم له شعباً مختاراً ، ليسترجعوا أورشليم ويحولوها حاضرة البر في العالم . فهم إذن شعب سما به إلى الملا شعوره بمصيره المشترك . ذلك هو الاعتقاد الذي ملأ جوانب نفوسهم جميعاً يوم عادوا إلى أورشليم بعد الأسر في بابل .

أفصحب إذن أن تهمل إلى هذه العقيدة الملهمة نفوس كثير من البابايين والنوريين مؤمن إلههم ، ونفوس كثير من الفيلسوفيين فيما تلا ذلك من الزمان ؟ — وهم أقوام يتعبدون بلنسان واحد تقريباً ، ولديهم ما لا حصر له من مشترك العرف والعادات والأذواق والتقاليد ، وأن يحاولوا الإسهام في عضويتها ووعدها ولا سيما بعد أن تمرغوا في مهاوى المزرعة والقلعة ؟ وقد لوحظ أن الفيلسوفيين اختفوا فجأة من صفحات التاريخ بعد سقوط صور وضياء وقرطاجنة والمدن الفينيقية الأسبانية ؟ كما ظهرت المجتمعات اليهودية مكانهم ويمثل تلك الطريقة الفجائية عينها لا في أورشليم وحدها بل وفي أسبانيا ، وإفريقيا ومصر وبلاد العرب ، وفي الشرق حيث وضع الفيلسوفيون أقدامهم . وكانت

الرابطة التي تربطهم جميعاً هي التوراة وتلاوة التوراة . ولم تكن أورشليم منذ البداية إلا عاصمتهم الاسمية ؛ أما مدينتهم الحقيقية الجامعة شملهم فهي هذه التوراة « سفر الأسفار » ، وذلك شيء جديد في التاريخ . وهو شيء بذرت بذوره قبل ذلك زمن مديد ، عندما شرع المومريون والمصريون أن يحولوا كتابتهم الهيروغليفية ذات الصور إلى كتابة عادية .

كان اليهود شيئاً جديداً في هذه الدنيا ، فإنهم كانوا شعباً بلا ملك ، وما لبثوا أن غدوا بلا معبد ( إذ إن أورشليم نفسها - كما سنحدثك - قد قضى عليها في سنة ٨٠ بعد الميلاد ) ، ولم يكن يجمعهم - على تباين أصولهم ، واختلاف عناصرهم - إلا قوة السلام للسطور .

لم يدبر أحد هذا الالتئام الفكري بين اليهود ، ولا تنبأ به إنسان ، ولا كان ثمرة جهد كاهن أو سياسي . ولم يظهر في التاريخ بتطور اليهودية جديد من المجتمع وحسب ، بل نوع جديد من الإنسان ، وفي أيام سلجان لم يكن يبدو على العبرانيين إلا أنهم سيصبحون شعباً صغيراً يتجمع كأي شعب صغير آخر في ذلك الزمان حول بلاط ومعبد ، تحكمه حشافة الكاهن وتقوده مطامع اللئيم . ولكن هذا الصنف الجديد من الإنسان الذي نتحدث عنه ، وأعني به « النبي » كان موجوداً آنفاً ، كما يستطيع القارئ أن يتحقق من ذلك بنفسه من التوراة . وتزايد أهمية هؤلاء الأنبياء مع تراحم اللصائب على رأس العبرانيين للتقسيم على أنفسهم .

فما هؤلاء الأنبياء ؟ !

إنهم رجال متباينو الأصل إلى أقصى حد . فالتني حزقيال مثلاً كان من السكينة ، وكان النبي عاموس يلبس رداء الرعاة للصنوع من جلد اللعاز ، بيد أنهم يشتركون جميعاً في شيء واحد : هو أنهم لا يدينون بالولاء إلا للرب البر وأنهم يتصلون بالناس مباشرة ، كانوا يظهرهم دون ترخيص من ذوى السلطان ودون تصكريس مقدس كالكهنة . أما طريقة تعبيرهم عما في نفوسهم ، فهي قولهم : « الآث جاءني كلمة الرب » . كانوا يخوضون في السياسة إلى أقصى حد . ولطالما حرضوا الناس على مصر ، « تلك القصة للهشمة » على حد تعبيرهم ؛ أو على آشور أو بابل ، وقد نموا على طبقة الكهنة تراخيهم ، كما نددوا بآثام اللوك الصارخة . ووجه نظر منهم ( ٨ - تاريخ العالم )

عنايته إلى ما قد نسميه اليوم « بالإصلاح الاجتماعى » . فقالوا إن الأغنياء « يسحقون وجوه الفقراء سحقاً » ، كما أن للترفين يستفيدون خير الأطفال ، وأن الموسرين يصادقون الأجانب ويقلدونهم في أجهتهم ورفائهم ؛ وأن هذا بيض إلى « ياهواه » رب « إبراهيم » الذى سينزل سوط عقابه على هذه الأرض .

كانت هذه التدييدات الضيقة تدون وتصح وتدرس . وكانت تذهب حيثما ذهب اليهود ، وحيثما حلوا نشرت بين الناس روحاً دينية جديدة . فباعدت بين الرجل العادى وبين الكاهن وللميد والبلاط ولللك ، ووضعت وجهها لوجه أمام حكم الرب . وتلك هى أهميتهم العليا فى تاريخ البشرية . والأقوال العظيمة التى ينطق بها أشعيا يرتفع بها الصوت النبوى إلى ذروة سامية من رافع التنبؤ ، ويتوقع اتحاد الأرض كلها فى ظل إله واحد . وهنا تبلغ النبوءات اليهودية أوجها .

ولم يكن كل الأنبياء يتكلمون على هذه الشاكلة ، كما أن القارىء الفطن يجد فى كتب الأنبياء الشيء الكثير من البغضاء ، والشيء الكثير من التعصب والتعامل ، والشيء الكثير مما سيذكره بتلك المادة الشريرة ، ألا وهى اللؤلؤات التى تسطرها العناية فى الزمن الحاضر . ومع ذلك فإن الأنبياء العبرانيين الذين عاشوا حوالى زمن الأسر البابلى هم الذين يؤذنون بظهور قوة جديدة فى العالم ، هى قوة الالتجاء إلى الفرد من الناحية الخلقية ، الالتجاء إلى ضمير البشرية المحررة عند القرايين الخرافية (الفتيشية<sup>(١)</sup>) . ومختلف أنواع الولاء الاستبدادى التى ظلت حتى ذلك الحين قيداً يغل جلنسنا البشرى .

---

(١) الفتيشية : كل شئ ينظر إليه جوقير لإيقوم على منطلق أو عقل . وهى فى الأصل الاعتقاد أن لكل شئ روحاً متفرد وتضر . [ المترجم ]



## الفصل الثالث والعشرون

### الإغريق

في نفس الوقت الذي كانت فيه مملكتا إسرائيل ويهوذا للتقسمتان على نفسيهما تكابدان التدمير وتقل السكان بعد عهد سليمان ( الذي حكم على الأرجح حوالي ٩٦٠ قبل الميلاد ) وبينما الشعب اليهودي يطور تقاليده وينمى إيمان الأسر البابلي ، كانت تنشأ أيضا قوة عظيمة الأثر في العقل الإنساني ، هي التقاليد الإغريقية . وبينما كان الأنبياء العبرانيون يكونون في الناس شعوراً جديداً بوجود مسئولية خلقية مباشرة بينهم وبين رب سرمدى للعالم كافة يتصف بالعدل والحق ، كان فلاسفة الإغريق يدربون العقل الإنساني على للمعامرة الفكرية بطريقة وروح جديديتين .

والتقاليد الإغريقية - كما سبق أن ألقينا - فرع من الفوحة الناطقة بالآرية ، انحدر إلى المدن والجزائر الإيحية قبل ١٠٠٠ ق . م بضعة قرون . والراجح أنهم كانوا يتحركون نحو الجنوب قبل اليوم الذي راح فيه تحوتمس فرعون مصر يصيد فيلته الأولى وراء إقليم الفرات الذي استولى عليه ؛ ذلك أنه كانت هناك في تلك الأيام أفيال بأرض الجزيرة وأسود في بلاد الإغريق .

ومن الجزائر أن إحدى غارات الإغريق هي التي أحرقت كنوسوس ، ولصكن ليس بين الأساطير الإغريقية ما يتنى بمثل هذا النصر ، وإن حوت تلك الأساطير قصصا تتحدث عن مينوس ، وقصر « الليرات » ، وعن ميانة بعض الصانع الكريتين .

وكان لهؤلاء الإغريق كعظم الشعوب الآرية مغنون وقصاصون ، وكان غناؤهم وقصصهم من الروابط الاجتماعية الهامة ، وقد نقلوا عن ألام شعهم الحمسية الأولى ملحميتين عظيمتين :

( ا ) الإلياذة : التى تحدثنا كيف أن عصابة من القبائل الإغريقية حاصرت مدينة طروادة بأسيا الصغرى ، واستولت عليها وانهبتها .

( ب ) والأوديسيا : وهى مطولة تروى مغامرة أوديسيوس البطل الحكيم فى أثناء عودته من طروادة إلى جزيرته .

وقد دونت هاتان اللحمتان فى زمن ما من القرن الثامن أو السابع ق . م ، عندما تعلم الإغريق استعمال الحروف الأبجدية من جيرانهم الأكثر مدنية . ولكن نظن أنهما كانتا موجودتين قبل ذلك بزمن طويل جداً . وكانتا تلسبان فيما سلف إلى شاعر ضريب اسمه « هوميروس » ، زعم الناس أنه هو الذى صاغهما مثلما ألف « ميلتون » قصيدة الفردوس المفقود ، فهل وجد هذا الشاعر حقاً ؟ وهل ألف هاتين اللحمتين ، أم اقتصر أمره على تدوينهما وصقلهما إلى غير ذلك ؟ ..

الواقع أن هذا موضوع يلد للعلماء أن يعرضوا له بالنقاش . وما نحن بحاجة أن نشغل أنفسنا بمثل هذه المنازعات . وكل ما يهنا أن اليونانيين ملكوا للحميتين فى القرن الثامن ق . م ، وأنهما كانتا ملكاً مشاعاً لهما جميعاً وصلة تربط بين قبائلهم للتنوع ، وتمنحهم شعوراً بالزمامة ضد البرابرة<sup>(١)</sup> . ذلك أنهم كانوا مجموعة من شعوب متشابهة تربطهم رابطة اللغة والكلام أولاً ، ثم الكتابة فيما بعد ، ويسهمون كلهم فى مثل عليها مشتركة من الشعابة والسلوك .

وللإلحاح تظهر لنا الإغريق فى صورة الشعب الفطرى الذى لا يعرف الحديد ، ولا الكتابة ، والذى لم يسكن للذن بد ، ويلوح أنهم كانوا يسكنون فى البداية قرى غير مسورة مصنوعة من أكرائح يقيمونها حول فاعات رؤسائهم ، خارج أطلال لادن الإيجية التى دمروها من قبل ، ثم شرعوا يحيطون مدنهم بالأسوار ، ويتقنون فكرة للعباد عن الشعب الذى غزوه .

وقد أُلحنا آنفاً إلى أن مدن الحضارات البدائية نمت حول مذبح آلهة إحدى

---

(١) البرابرة اصطلاحاً من أعداء اليونانيين من الشعوب [ للترجم ]

القبائل ، وأن السور بنى حولها فيما بعد ؛ أما مدن الإغريق فالسور فيها مابق على المبد . كما أنهم شرعوا يتجرون ويلشئون المستقرات بكل مكان . فلما وافي القرن السابع ق . م حتى كانت مجموعة جديدة من المدن قد نمت في أودية بلاد الإغريق وجزائرها ، ضاربة صفحة النسيان على المدن والحضارة الإيبية التي سبقتها ؛ ومن أهمها أثينا وإسبارطة وكورنت وطية وساموس وميليتوس . وانتشرت المستعمرات الإغريقية على امتداد ساحل البحر الأسود وفي إيطاليا وصقلية . وكانت (كب) الحذاء الإيطالي ومقدمه يسميان ماجنا جريكيا ( بلاد اليونان الكبرى ) . كما أن مدينة مرسيليا ليست إلا بلدة إغريقية أسست على أنقاض مستعمرة فيليقية قديمة .

والأقطار المكونة من سهول عظيمة أو التي تكون وسيلة المواصلات الرئيسية فيها أحد الأنهار العظيمة كالفرات أو النيل ، تنزع إلى الاتحاد تحت حكم مشترك . ومن أمثلة ذلك أن مدن مصر وسمر اتحدت كلها تحت نظام حكم واحد . ولكن الشعوب اليونانية كانت موزعة بين الجزائر والوديان الجبلية ؛ إذ من المعلوم أن بلاد الإغريق والجزء الجنوبي من إيطاليا ( الما جريكيا ) جبلية وعرة ؛ لذا كان الوضع ينزع صوب الشرق لا الاتحاد . وعندما ظهر اليونان في التاريخ لأول مرة كانوا منقسمين إلى عدد من الدويلات الصغيرة التي لا يدعوا عليها أي أثر لائتلاف . وكانوا يلبثون في كل شيء حتى في المجلس . فمن تلك الدويلات ما تألف بصفة أساسية من مواطنين من إحدى القبائل اليونانية الثلاث الأيونية أو الأيولية أو الهورية ؛ ومنها ما كان سكانه خليطا من اليونان ومن سلالات جنس البحر المتوسط السابق لليونان ؛ ومنها ما فيه مواطنون أحرار من اليونان الخالص يتسلطون عليها وعلى سكانها القهورين المستعبدين شأن « الهيلوطيين » في إسبارطة . ومنها ما صارت فيه العائلات الآرية القديمة المزعمة ، طبقة أرستقراطية منعزلة ؛ وبعضها كانت تقوم فيه ديموقراطيات تضم جميع المواطنين الآخرين ؛ بينما تولى الحكم بعضها الآخر ملوك منتخبون بل حتى وراثيون ، على حين كان في بعضها مقصبون للعرش أو طغاة .

والظروف الجغرافية التي جعلت الدول الإغريقية منقسمة ومختلفة على الدوام فيها ، هي التي عادت عليها أيضاً بصغر الحجم . فإن أعظم دولها حينما أصغر من كثير

من اللقائات الإنجليزية ، وإذ أنى ريب من أن سكان أية مدينة من مدنها زاد فى يوم من الأيام على ثلث للليون . فقل منها من بلغ سكانه الخمسين ألفا . وقد قامت بينهم الاتحادات بدافع للصحة والتعاطف ، ولكن لم تنشأ أية وحدة واتلاف . ولما تزايدت التجارة راحت للندن تلتقى بينها الصيحات وتعقد المحالقات ، كما راحت للندن الصغيرة تضع نفسها تحت حماية الكبيرة . ومع ذلك فإن بلاد الإغريق كان يجمعها كلها أمران يجلان منها مجتمعا ذا شعور مشترك إلى حد ما ، وهما السلاجم وعادة المساهمة كل أربع سنوات فى للباريات الرياضية التى كانت تقام فى أولمبيا ، على أن هذا لم يجل دون نشوب الحروب وللنازعات ، وإن خفف شيئا مما تلسم به الحرب من وحشية وضراوة ، كما أنه استلزم قيام هدنة تصون حياة للسافرين إلى الألعاب والعائدين منها ، ونما مضى الوقت شعورهم بأن لهم إرثا مشتركا ، وتزايد عدد الدول المشتركة فى الألعاب الأولمبية حتى لم يقتصر الأمر على اليونانيين وحدهم ، بل صمم بدخولها للبارين من أقطار ذات مشابهة وثيقة باليونان كإسبوس ومقدونيا إلى الشمال .

تمت أهمية للندن الإغريقية واتسعت تجارتها ، وأخذ نوع حضارة القوم يرتقى باطراد فى أثناء القرنين السابع والسادس ق .م . وتختلف حياتهم الاجتماعية فى كثير من النواحي . الشائقة عن الحياة الاجتماعية لحضارات بحر إيجة ووديان الأنهار ، إذ كانت لديهم معابد ضخمة ، بيد أن الكهانة لم تكن تلك الهيئة التقليدية الكبيرة ، التى كانت موجودة فى مدن العالم القديم ، والتى كانت مستودع للفرقة كلها ، ومحزن الفسكات ، كان لديهم زعماء وعائلات نبيلة ، ولم يكن لديهم عاهل شبه قدس يحيط به بلاط يحكم التنظيم . والواقع أن نظامهم كان بالأحرى أرستقراطيا لعائلات مترجمة تقف إحداهما للأخرى بالمرصاد وتلزمها بالمجادة . وحتى النظم التى يسمونها بالديمقراطيات لم تكن فى الواقع إلا أرستقراطية ، ولكل مواطن حر أن يشترك فى الشؤون العامة بنصيب ، ومن حق حضور جلسات الجمعية إن كان نظام المدينة ديمقراطيا ، ولكن لم يكن كل إنسان مواطنا حرا .

ولم تكن الديمقراطية اليونانية تماثل ديمقراطياتنا العصرية التى لكل إنسان فيها صوت . فإن كثيرا من تلك الديمقراطية كانت تحتوى على بضع مئات أو بضع

آلاف من المواطنين الأحرار ، ومن دونهم آلاف كثيرة من الأرقاء والعقاة ومن إليهم ، لا يستمتعون بأى نصيب فى الشؤون العامة .

وعلى وجه العموم كانت مبادئ الأمور يلاذ الإغريق فى يد طائفة من رجال ذوى مكانة . وكان ملاوكم وطفاهم على السواء مجرد رجال وضعا على رأس غيرهم من الرجال أو اغتصبوا الزعامة اغتصاباً ؛ ولم يكونوا أشباه آلهة فوق مستوى البشر مثل فرعون ومينوس أو عواهل أرض الجزيرة . ومن ثم فإن الفكر والحكم كانا يحيطان فى ظلال الإغريق بحرية لم يحظيا بها فى أى من المدن القديمة . وذلك أن الإغريق أدخلوا إلى المدينة تلك « الشخصية الفردية » وللبادأة والابتكار الشخصى اللذين نعم بهما للتجولون الرحل فى أراضى الأحراش الشمالية ، فهم أول « جمهوريين » لهم أهمية فى التاريخ .

وبينا هم ينفضون عن أنفسهم غبار حرب وحشية ضروس دارت بينهم ، يستكشف للشاهد أن شيئاً جديداً أصبح واضحاً فى حياتهم العقلية لأول مرة فى التاريخ . ذلك أنا نلتقى هنا برجال ليسوا من الكهنة ، يطلبون المعرفة ويسجلونها ويحفظون عن أسرار الحياة والوجود ، بطريقة كانت حتى ذلك الحين هى امتياز الكهنة الرفيع . أو تسلية الملوك التى يزاولونها فى كثير من الادعاء والتمطرس . فلما نجد فعلا فى القرن السادس ق . م ( بينا كان أشيا لا يزال يثقياً فى بابل ) رجالا مثل « طاليس » و « أناكساندر الليطى » و « هرقليتوس » من أهل إفيوس ، وم قوم بمن نسميهم اليوم باسم السادة السراة ، نجدهم قد كرسوا عقولهم للبحث والتدقيق بأسلوب الذكى الأريب فى أحوال العالم الذى نعيش فيه ، متساقلين عن ماهيته ، وكنه طبيعته الحقة ، ومن أين جاء ؟ وماذا يمكن أن تكون عليه مصائره ؟ . . . وراضين بجميع الإجابات العدة أو المفضولة التى لا تصدر عن أعمال فكر ، أو تنطوى على التمس . وسنزيد عما قليل يانا عن هذا التساؤل الذى وجهه العقل الإغريقى إلى هذا الكون . وهؤلاء الباحثون الإغريق الذين أخذوا يبرزون ، ويلفتون إليهم الأنظار فى القرن السادس قبل الميلاد ، هم أول الفلاسفة ، أى أول محبي الحكمة فى العالم .

وربما أمكننا أن نتوه بظم أهمية القرن السادس قبل الميلاد فى تاريخ البشر . ذلك

أن هؤلاء الفلاسفة الإغريق لم يكونوا وخدم أول من جد في طلب الأفكار الخالصة  
النافذة حول هذا الكون ومركز الإنسان فيه ، على حين راح « أشعيا » يسمو بالتبؤ  
اليهودى إلى أرفع مراتبه ، بل إن « جوتاما بوذا » أيضا -- كما سنحدثك فيما بعد --  
كان يعلم الناس آنذاك بالهند ، وكذلك « كوتششوس » ولاتسى ( لاهوتسى )  
يبلاد الصين . فكان العقل الإنسانى من أئتنا حق المحيط المادى كان فى حركة  
ونشاط دائمين .

## الفصل الرابع والعشرون

### الحرب بين الإغريق والفرس

بينما كان الإغريق في المدن القائمة ببلادهم وجنوبي إيطاليا وآسيا الصغرى مقبلين على البحث الفكري الحر ، وبينما كان آخر الأنبياء العبرانيين في بابل وأورشليم يخلقون ضميراً حراً ، استولى شعبان آريان محاطران : الليديون والفرس ، على زمام حضارة العالم القديم ، وشرعوا في تكوين إمبراطورية ضخمة هي الإمبراطورية الفارسية ، التي كانت أوسع رقعة بكثير من أية إمبراطورية رآها العالم حتى ذلك الحين .

ولم تلبث بابل وليديا الثرية ذات الحضارة العريقة أن أضيفتا في عهد قورش إلى أملاك الفرس ، ثم ضمت إليهم مدن الفيلقيين بالشرق وجميع المدن اليونانية بآسيا الصغرى وأخضع قبيل مصر ، كما لم يلبث دارا الأول المسمى ثالث ملوك الفرس ( ٥٢١ ق م ) أن وجد نفسه عاهلاً للعالم بأسره حسب اعتقاد الزمان . وصار رسله محبوبون الطرق بمراسيمه على الخيل من الفردنيل إلى السند ، ومن مصر العليا إلى آسيا الوسطى .

أجل ، إن يونان وأوربا وإيطاليا وقرطاجنة وصقلية والمستعمرات الفينيقية بإسبانيا لم تستظل « السلم الفارسي »<sup>(١)</sup> ؛ بيد أنها كانت تتامل فارس بالاحترام ، ولم يجد الفرس مضايقة جدية إلا من قبائل آبائهم القدماء من الشعوب الآرية القاطنين بمجنوب روسيا وآسيا الوسطى ، وهم الأخقوديون ( الإسكيزيون ) الذين كانوا دائمى الإغارة على الحدود الشمالية والشمالية الشرقية .

وسكان هذه الإمبراطورية الفارسية الكبيرة لم يكونوا جميعاً بطبيعة الحال من الفرس ، فلم يكن هؤلاء إلا الأقلية الصغيرة الفاتحة والحاكمة لهذه المملكة الضخمة .

---

(١) السلم الفارسي : السلم الذى تقوم بصفاته دولة فارس بالناطق التى يرعرع عليها عليها .  
[ للزنجيم ]

فأما سائر السكان فسكنوا على مام عليه قبل نزول الفرس بهم بأزمان سحيقة ، وكل ما جد في الأمر هو أن الفارسية أصبحت لغة الحكم والإدارة . وقد ظلت التجارة وللالية ساميتين إلى حد كبير ، وبقيت صور وصيدا كشأتهما في الماضي للبناءان العظمان على البحر المتوسط ، كما أن السفن السامية ظلت تبحر عباب البحار . بيد أن كثيراً من هؤلاء التجار ورجال الأعمال الساميين كانوا إذا انتقلوا من مكان إلى آخر وجدوا تاريخاً مشتركاً يجتمع فيه مصلحتهم وتماطفهم ، ويتمثل في التقاليد والكتب للنزلة العبرانية . وثمة جنس جديد كان عدده يزداد بسرعة في تلك الإمبراطورية ، وهو المجلس الإغريقي . وتلفت الساميون فإذا باليونان قد صاروا لهم منافسين خطرين على صفعة البحر ، فضلاً عن أن ذكاهم الفياض البعيد عن الهوى جعل منهم موظفين نافعين غير متعيزين .

وكان الإسكيزيون هم السبب الذي من أجله غزا دارا الأول أوروبا . فإنه شاء أن يصل إلى جنوب روسيا موطن الفرسان الإسكيزيين . فبر البوسفور بجيش عظيم اخترق به بلغاريا إلى نهر الدانوب ، ثم عبر ذلك النهر بجسر من الزوارق وأوغل شمالاً ، فلقى جيشه الأهوال . لأنه كان في معظم شأنه قوة راجلة من للشاة ، على حين راح الإسكيزيون - وهم من الحيلة - يناوشونه بخيلهم من جميع جوانبه ، فيقطعون عنه للد ، ويهلكون كل من ضل من جنده ، ولا يدخلون معه في أية معركة فاصلة . واضطر دارا أن يتراجع تراجعاً مزدرياً شائناً .

عاد دارا بشخصه إلى سوس ، ولكنه خلف جيشاً في تراقيا ومقدونيا ، وخضعت مقدونيا لدارا . ولما رأت مدن الإغريق الآسيوية ما حل بالملك من إخفاق شبت فيها الفتن ، وانجذب إغريق أوروبا إلى حومة النزاع ، وصمم دارا على إخضاع إغريق أوروبا . ولما كان الأسطول الفينيقي رهن إشارته تسبى له بمساعدته أن يخضع الجزر واحدة تلو الأخرى ، حتى انتهى به الأمر في ٤٩٠ ق . م أن قام بهجومه الرئيسي على أثينا . وأقلعت عمارة بحرية عظيمة من موانئ آسيا الصغرى وشرقي البحر المتوسط ، وأزيلت الحملة جنودها عند ماراثون إلى الشمال من أثينا . وهناك لقيهم الأثينيون وهزمهم شر هزيمة .

وفي تلك اللحظة الحرجة حدث شيء خارق . فقد كانت إسبارطة ألد منافس لأثينا يلاذ الإغريق ، واليوم لجأت أثينا إلى إسبرطة لتلتمس العون ، فأرسلت إليها رسولا



غداة سريعا ، يتوسل إلى الإسبرطيين ألا يدعوا الإغريق يصبحون للبرابرة عبيداً ، وقطع هذا العداء ( وهو التوفج للتالى لنظرائه من عدائى ماراثون ) أكثر من مائة ميل من أرض وعرة فى أقل من يومين . وهب الإسبرطيون لنصرة إخوانهم فى سرعة . وكرم نفس ، ولكن عندما بلغت القوة الإسبرطية أثينا بعد ثلاثة أيام ، لم تجد شيئاً تعمله إلا أن تشهد ساحة للمركة وجث جنود دارا المنحرفين . هذا إلى أن الأسطول الفارسى كان قد عاد إلى آسيا . وبذلك انتهى أمر أول هجوم فارسى على بلاد الإغريق .

على أن ما حدث بعد ذلك كان أشد وأبلغ . إذ مات دارا بعد أن بلغته أخبار انتداحه فى ماراثون بقليل ، وظل ابنه وخلقه اجزرسيى ، أربع سنوات يجهز جيشاً عظيماً ليسحق به الإغريق . وجمع الشعر كلة الإغريق إلى حين . إذ لاشك أن العالم لم يشهد من قبل جيشاً فى ضخامة جيش اجزرسيى . ولكنه كان جماعاً هائلاً مكوناً من عناصر متنافرة . فصر الدردنيل فى ٤٨٠ ق . م بحسر من الزوارق ؟ وكلا تقدم الجيش تحرك معه بمعاذاة الساحل أسطول لا يقل عنه تخطا يحمل المؤن ، وهناك عند مضيق « ثرميولاي » وقعت قوة صغيرة مكونة من ١٤٠٠ رجل بقيادة ليونيداس . الإسبرطى تقاوم هذا الجعجل الجرار ، ولم تلبث تلك القوة أن أيدت بأكملها بعد قتال أبديت فيه ما ليس له نظير من البطولة ؟ فقد قتل رجالها عن بكرة أبيهم . على أن الحسائر التى أزلوها بالفرس كانت فادحة ، وأطبق جيش اجزرسيى على طيبة<sup>(١)</sup> . وأثينا كسير الروح . وخضعت طيبة وكتبت شروط التسليم . وتغلى الأثينيون عن مدينتهم فأحرقها العدو .

وبدت بلاد الإغريق كأنما قد أصبحت فى قبضة الفاتحين ، ولكن النصر عاد فالفهم . رغم كل الظروف المضادة ، وعلى التقيض من كل ما كانوا يتوقعونه . فإن الأسطول الإغريقى أخذ يهاجم الأسطول الفارسى فى خليج سلاميس ودمره وإن لم يبلغ ثلث حجمه . ووجد اجزرسيى أنه وجيشه المرموم قد صاروا محرومين من المؤن ، خفاته شعاعته ؟ وتراجع إلى آسيا بنصف جيشه ، تاركاً النصف الآخر لىكي يهزم فى بلاتيا . ( ٤٧٩ ق . م ) . وفى نفس الوقت كان الإغريق يطاردون بقايا الأسطول الفارسى . ويدمرونها عند ميكالى بآسيا الصغرى .

(١) طيبة : مدينة إغريقية — نرجو ألا يخطئ القارئ بينها وبين سميتها العظيمة بصميمصر ..  
[ للترجم ]

لقد زال كل خطر فارسي . وباتت معظم المدن الإغريقية بآسيا حرة . وقد سطرت هذه الأحداث جميعاً بتفصيل عظيم وفي شيء كثير من الجمال الجذاب في أول مكتب تاريخي مدون ، وهو تاريخ هيرودوت . ولد هيرودوت حوالي ٤٨٤ ق . م في مدينة هاليكارناسوس الأيونية بآسيا الصغرى ، فحمل يزور بابل ومصر النحاساً لتفاصيل المضبوطة والمشاهدات الصعبة . وهوت فارس منذ معركة ميكاى في بحر من الفوضى والتحلاف على العرش : فاغتيل اجزيسيس في ٤٦٥ ق . م ، وشبت الثورات في مصر وسوريا وبلاد الميديين ، فقضت على النظام الذى استتب أمداً وجيزاً على يد تلك المملكة الجبارة . وتاريخ هيرودوت يحاول أن يؤكد ضعف فارس ، والواقع أن هذا التاريخ خرب مما قد نسميه اليوم باسم الدعاية - فهو دعوة لليونانيين إلى الاتحاد والقضاء على فارس ، وإن هيرودوت يجعل من أرسناجوراس إحدى الشخصيات المذكورة في كتابه داعية يذهب إلى الإسبرطيين بخريطة للعالم المعروف ويقول لهم :

« ليس هؤلاء البرابرة شجعاناً في القتال ، وأتم من جهة أخرى بلغتم اليوم أقصى المهارة في الحرب .. وليس ثم شعب آخر في العالم يملك ما يملكون ؛ من ذهب وفضة . وروز وثياب موشاة وحيوان وعبيد ، وربما أحرزتم كل ذلك لأنفسكم إن أردتم ذلك حقاً .. » .

## الفصل الخامس والعشرون

### بلاد الإغريق إبان مجدها

كان القرن ونصف القرن اللذان أعقبا هزيمة فارس عصر عظمة الحضارة اليونانية وجلالها . أجل إنه شمل بلاد الإغريق تمزق في صراع على السطوة والعزة استبأست فيه كل من أثينا وإسبارطة ودويلات أخرى (و هي حرب اليبوبونيز ٤٣١ - ٤٠٤ م) وأنه حدث في ٣٣٨ ق . م أن أصبح للتقديون بالفعل سادة لبلاد الإغريق ؛ ومع ذلك فإن السكر الإغريق وبواث الخلق والابتكار ودوافع الفن فهم سمّت في تلك الفترة إلى مستويات رفيعة جعلت ما أجزوه فيها من عظام الأعمال نبراسا تستهدى به البشرية على كر التاريخ كله .

وكانت أثينا الرأس للفكر والركز الأساسي لذلك النشاط العقلي . وذلك أن أثينا قضت ثلاثين عاما أو تزيد ( ٤٦٦ - ٤٢٨ ق . م ) تحت سيطرة رجل قوى الشكيمة . حر الفكر سمح العقل ، هو بركليس ، الذي نصب نفسه لإعادة بناء للمدينة بعد الحريق الذي أزاله بها الفرس . والآثار الجميلة التي لا تزال تملأ أرجاء أثينا إلى اليوم بالمجد والجلال تعود بوجه خاص إلى ذلك الجهد العظيم . والواقع أن بركليس لم يقتصر على إعادة بناء أثينا من الناحية للادية فقط ، بل أعاد بناها من الناحية العسكرية أيضا . فلم يكتف بركليس بأن يجمع حوله للمارين والمثاليين وحدهم ، بل حشد أيضا الشعراء والمؤلفين الدراميين والفلاسفة والعلمين . وفي عهده جاء هيرودوت إلى أثينا ليتلو تاريخه على مسامع الناس ( ٤٣٨ ق . م ) كما جاء أناجزاجوراس إليها يعمل بدايات وصف على الشمس والنجوم . وفيها نهض إسكياوس وسوفوكليس ويوريبيدس الواحد منهم بعد الآخر بالدراما ( للسرحة ) الإغريقية إلى أعلى ذوا الرضة والجمال .

وقد دفع بركليس حياة أثينا القهنية دفعة غلّت حية بعد وفاته ، وذلك رغم أن السلام يبلاد الإغريق كانت تمكروه وتقتد حرب اليبوبونيز ، وأن كفاحا قتالا طويلا على السيادة بالبلاد قد اندلعت شرارته . والحق إنه يلوح أن تلبد الأفق السياسي بالقيوم ظل إلى حين يعمل على شحذ أذهان الناس لا تشيظها .

وقبل عهد بركليس بزمن طويل كان جو الحرية الصيب الذى تستمتع به النظم الإغريقية يضى أهمية كبرى على اللمارة فى المناقشة والجدال . إذ لم يكن البت فى الأمور حقاً ملك ولا كاهن ، بل كان بيد جماعات الشعب أو الزعماء . ومن ثم غدت الفصاحة والاعتدال فى الجدل مزايا مرغوبة مطلوبة . ونشأت طبقة من الملمين ، هم السفسطائيون الذين تعهدوا بإذكاء مواهب الشباب فى هذه الفنون . بيد أن للره لا يستطيع أن يفكر دون مادة لفكره ، ومن ثم جاءت للعرفة فى أعقاب فنون الكلام . وكان من الطبيعى جدا أن يؤدى نشاط هؤلاء السفسطائية ومنافساتهم إلى وضع الأسلوب فى بوتقة الامتحان القاسى ، هو ومناهج الفكر ومحة الجدل . وعند ما مات بركليس كان شخص يدعى سقراط قد أخذ يبرز كناقذ قدير للجلد الردىء — ولا تنسى أن الشئ الكثير من تعاليم السفسطائية كان جدلاً من النوع الردىء . واجتمعت حول سقراط طائفة من الشباب الأذكياء . وانتهى الأمر بإعدام سقراط بتهمة تكدير عقول الناس ( ٣٩٩ ق . م ) ، فحكم عليه بالموت بالطريقة الكريئة الوقورة التى كانت تتبعها أثينا فى ذلك الزمان ، بأن يتناول فى منزله الخاص وبين أصدقائه جرعة سامة من الشوكران ، بيد أن تكدير عقول الناس ظل قائماً على الرغم من تنفيذ الحكم فيه . وواصل تلاميذه الشبان أداء رسالته .

وكان أفلاطون ( ٤٢٧ — ٣٤٧ ق . م ) من أعظم هؤلاء الشبان ، فصرع من فوره علم الفلسفة فى حديقة الأكاديمية . وتنقسم تعليمه إلى شعبتين رئيسيتين :

( أ ) اختبار أسس التفكير الإنسانى ومناهجه .

( ب ) البحث فى النظم السياسية .

وهو أول من كتب كتاباً فى اليوتوبيا ( الطوبى ) ، أى رسم خطة لمجتمع مثلى عن أى مجتمع قائم ويكون أفضل منه ، وذلك أمر يتم عن جرأة ليس لها قبل ذلك من ضريب فى العقل الإنسانى الذى ظل حتى ذلك الحين يقبل التقاليد الاجتماعية والعرف للألوف ولا يكاد يقلب فيها فكراً أو يبحثها بسؤال واحد . قال أفلاطون للإنسانية بصريح العبارة :

« إن معظم الأدواء الاجتماعية والسياسية التى منها تقاسون إنما هى أمور يسهل

عليكم التصرف فيها ، لو أنكم أوتيتم الإرادة والشجاعة اللازمين لتغييرها . فأنتم تستطيعون أن تمشوا بطريقة أخرى أكثر حكمة إن آثرتم أن تقتلوا الأمر تفكيراً وبخاً وتكتشفوا بالدراسة كنهه ، فأنتم لا تشعرون بما تملكون من قوة . ولا شك أن ذلك تعليم راق يدعو العقل إلى المخاطرة والقفازة ، وأنه لم يتغلغل بعد بصورة عامة في فطنة جنسنا البشرى ولا بد لها من تشريه . ومن أول مؤلفاته كتاب « الجمهورية » وهو كتاب يتخيل قيام حكومة أرستقراطية شيوعية ؛ فأما كتابه الأخير الذى لم يتم فهو كتاب « القوانين » ، وهو رسم خطة لتنظيم دولة مثالية ( يوتوبية ) مثالة لتلك .

وجاء أرسطو الذى كان تلميذاً لأفلاطون فواصل بعد وفاة أستاذه قدسنا هج التفكير وأساليب الحكم وكان يعلم فى الليسوم . وقد أرسطاليس على أثينا من مدينة اسطاجيرا بمقدونيا ، وكان أبوه طبيباً لبلاط الماهل للقدونى ، وقضى أرسطاليس بض الزمن معلماً للإسكندر ابن الملك الذى قدر له أن ينجز أعمالاً عظيمة جداً سنتكلم عنها قريباً . وقد أدت جهود أرسطو في مضمار مناهج التفكير وأساليبه إلى رفع علم المنطق إلى مستوى ظل ملازماً له مدة ألف وخمسمائة من السنين أو تزيد ، أى حتى عاد رجال العلم فى الصور الوسطى إلى تناول للسائل العتيقة من جديد ، لم ينشأ أية مدينة فاضلة ( يوتوبيا ) ، ذلك أن أفلاطون كان يرى أن الإنسان يستطيع أن يتصرف فى مصارفه ؛ ولكن أرسطو كان يدرك أن الإنسان لا بد له قبل ذلك من قدر أعظم من المعرفة ، قدر من المعرفة الصحيحة المحققة أعظم كثيراً مما يملك ، ومن ثم شرع أرسطو يجمع تلك المجموعة المنظمة من المعرفة التى نسميها اليوم باسم « العلم » ، فأرسل المستكشفين ليجمعوا له الحقائق ، وهو أبو التاريخ الطبيعى ، وهو اللؤس لعلم السياسة ، وقام تلاميذ فى الليسوم ببعض دساتير ١٥٨ دولة مختلفة ومقارنتها بعضها بعضاً .

فنحن نجد هنا وفى القرن الرابع ق . م قوما ذوى تفكير عصرى أو يكاد ، لقد ولت طرائق الفكر البدائى الشبيهة بطرائق الأطفال والأحلام ، وحل محلها تناول مشكلات الحياة بطريقة منظمة وقادة ، وهنا أيضاً حمل تماماً كل الجوء إلى الرمز وقول التخیلات السحرية البشعة الدائرة حول الآلهة البشعة والوحوش للعبادة ، كما تلغى جميع المحظورات ( التابوهات ) والخواف والقيود ، التى ظلت تكيكل حتى آنذاك تفكير الإنسان ، لقد ابتدأ التفكير الحر للضبط المنظم ، إن الإبهن الجديد الناشط غير المكبل بالقيود لهؤلاء الواقدين حديثاً من القابات الشمالية ، قد ألغى نفسه فى صميم خفايا المبدع وسبح لضوء النهار بالتفاد إلى غيابه .

## الفصل الثاني والعشرون

### إمبراطورية الإسكندر الأكبر

ظلت حرب البيلوبونيز تبدد قوى بلاد الإغريق من ٤٣١ إلى ٤٠٤ ق م. وفي نفس الحين كانت مقدونيا تنهض تدريجيا ، وهي قطريقع إلى الشمال من بلاد الإغريق ويرتبط بها ببعض صلات القرى والمشاة ، وكان المقدونيون ينطقون بلسان وثيق القرابة باللسان الإغريق ، وكثيرا ما اشترك التبارون المقدونيون في الألعاب الأولمبية ، وفي ٣٥٩ ق م تولى عرش ذلك القطر الصغير رجل ذو كفايات ومطامع عظيمة جدا هو فيليب المقدوني ، وقد عاش فيليب شطرا من أيامه ببلاد الإغريق ، وكان فيها رهينة ؛ وتلقى تعليما إغريقيا بحتا ، ولعله كان ملما بأراء هيرودوت ، التي طورها ونماها الفيلسوف إيزوقراطيس ، والتي تقول بإمكان اضطلاع بلاد الإغريق — إذا اتحدت كلها — بفتح آسيا .

بدأ فيليب بتوسيع رقعة مملكته وتنظيمها وإعادة تكوين جيشه ، فقد مضت ألف سنة قبل ذلك الألوان ظلت في اثنتائها السبعة التي تقوم بالمجموع ، هي العامل الحاسم في المارك ، وذلك عدا الجنود المشاة المتراسة في القتال ، وكان الفرسان يقاتلون أيضا ولكن بوصفهم سربا من المناوشين يعملون فرادى ودون نظام ، ولكن فيليب جعل جنده المشاة يهاجمون في كتلة كثيفة مترامة تراسا شديدا ، هي الفيلق المقدوني ، كما ددب وجهاء قومه الراكبة ( وهم الفرسان أو الرفاق ) على القتال في تشكيلات ، وبذلك اخترع نظام الحياة .

ومنذ ذلك الحين أصبح هجوم الحياة أهم الحركات في معظم معاركه ومعارك ابنه الإسكندر ، فكان الفيلق المقدوني يصد مشاة العدو على حين كانت الحياة تحتاج فرسان العدو في المضامين ثم تتثال على جانب مشاته ومؤخرتهم ، وكانت السجلات الحربية تصبح عاجزة بما يلقى الرماة على خيولها من سهام .

وبهذا الجيش الجديد اخترق فيليب تساليا ومد حدوده إلى بلاد الإغريق ؛ حتى

إذا خاض معركة خيرونيا (٣٣٨ ق. م) مع أثينا وحلفائها ، أصبحت بلاد الإغريق كلها خاضعة له ، وبهذا أخذ حلم هيروdotus يؤتى ثماره في آخر الأمر ، واجتمع مؤتمر من جميع دول المدن الإغريقية فبين فليب قائداً عاماً لانحاد مقدوني إغريق ضد فارس ؛ وفي ٣٣٦ ق. م عبرت فرقة الحرس الأمامي البحر إلى آسيا لتبدأ هذه المغامرة التي طال التكسير فيها ، ولكن الملك لم يلق أثرة ذلك الحرس ، لأنه اغتيل ؛ وكان ذلك فيما يعتقد بعضهم بتعريض من زوجته للملكة اولمبياس أم الإسكندر . وذلك لتوقد نفسها بالنيرة لأن فليب تزوج من أخرى .

يبد أن فليب عنى عناية فائقة بتربية ولده . فلم يكتف بأن اتخذ من أرسطاليس أعظم فلاسفة عصره معلماً للفلام الصغير ، بل أشرك الصبي أيضاً في آرائه ودرسه تدريجاً عسكرياً تاماً ، فجعل الإسكندر قائداً للخيالة في معركة خيرونيا آتفة الذكر وهو بعد في الثالثة عشرة من عمره ، وبهذا تسنى لذلك الشاب الذي لم يزد عمره على العشرين ، يوم توليته العرش ، أن يتولى أعباء أبيه على الفور وأن يضطلع بالمغامرة الفارسية بنجاح .

ولكنه قضى سنتين كاملتين في تثبيت أقدامه في مقدونيا وبلاد الإغريق ، قضاها في إخماد ما شب ضده من الثورات ، ثم عبر البحر بجيشه إلى آسيا في ٣٣٤ ق. م وهزم جيشاً فارسياً لا يكبر جيشه كثيراً في معركة جرانيسكوس ، واستولى على عدد من المدن في آسيا الصغرى ؛ لزم الإسكندر ساحل البحر ، وكان من الضروري عليه أن يخضع كل المدن الساحلية كما تقدم في السير وأن يتركها الحاميات ، وذلك لأن الفرس كانوا يسيطرون على أساطيل صور وصيدا ، وبهذا كانت لهم السيادة البحرية . فلو أنه ترك وراءه ميناء معادياً دون حامية محرسه ، لجاز أن ينزل به الفرس قواتهم للاغارة على مواصلاته وقطع خط رجته . والتقى قرب إسوس (٣٣٣ ق. م) بجمع هائل مغلط تحت قيادة دارا الثالث وهزمه هزيمة ساحقة .

وكان ذلك الجيش الهائل — شأن جيش إجزرميس الذي غزا الدردنيل قبل ذلك بقرن ونصف — جمعاً من المجددين غير متماثل ولا مترابط ، بهتله حشد كبير من موطنى البلاط فضلا عن حريم دارا وكثير ممن يتبعون للسكرات التماساً للرزق ، وسلبت صيدا للإسكندر ، ولكن صور قاومت بضاد ، وأخيراً قصعت تلك المدينة الكبيرة عنوة وانتهت ثم دمرت ، وقصعت غزاة أيضاً عنوة ، وعند قرب نهاية ٣٣٣ ق. م دخل الفاتح مصر واستولى على الفرس على مقاليد حكمها .

وبنى الإسكندر مدينتي الإسكندرية بالشام ، والإسكندرية بمصر في موقعين يمكن بلوغهما من البر ، وبذا تصبمان غير قابضتين على التمرد عليه . وإلى هذين اللرفان حولت تجارة لندن الفييقية . وهنا يحتفى من التاريخ على حين بنة فينيقيو الجوض الغربى للبحر المتوسط — وبفس الطريقة الصجائية يظهر يهود الإسكندرية ولندن التجارية الأخرى التى شيدها الإسكندر .

وفى ٣٣١ ق . م تقدم الإسكندر من مصر بجيشه إلى بابل ، كما فعله من قبله نحو عمن ورمسيس ونخاو . بيد أنه سار بطريق صور . وعند أريلا ( إربل ) بالقرب من أفاض نينوى التى كانت قد غفى عليها آنذاك اللسيان ، التقى بدارا فى معركة حاسمة . وبات هزيمة المجلات الفارسية بالقتل ، وحل احيالة للقديون على ذلك الفييش العظيم المخطط حملة بددت شمله ، وأحرز الفيلىق بقية النصر . وتقهقر دارا بجيشه . ولم يحاول مقاومة الغير مرة أخرى ، بل فر شهالا إلى إقليم الليديين .

وواصل الإسكندر زحفه على بابل ، وكانت لا تزال بلدا ثريا هاما ، ثم إلى سوسا ( سوس ) ورسيدوليس . وهناك أقام حفلا أديرت فيه الجور ثم أمر فى أعقابها بحرق قصر دارا ملك الملوك .

وما لبث الإسكندر بعد ذلك أن جعل من آسيا الوسطى ميذا عسكريا لمرض جيشه على الأنظار ، وانطلق به إلى أقصى تخوم الإمبراطورية الفارسية ، متجهاً بادية الأمر نحو الشمال ، وتغلب الإسكندر دارا ، حتى أدركه عند الفجر وهو يلفظ فى عرسته آخر أنفاسه ، بعد أن قتله شعبة ، وكان لا يزال على قيد الحياة غندا ما وصل إليه جند القدمة الإغريقية .

وجاء الإسكندر فوجده قد مات ، وسار الإسكندر بمعاذاة بحر قزوين ، وتوغل فى جبال التركستان الغربية ثم انحدر إلى بلاد الهند بطريق هيرات ( التى أسسها ) وكابول ومحر خير ، واتحم فى معركة عظيمة على نهر السند مع ملك هندى اسمه بوروس ، وهنا التقت البعندو القديونية بالقبيلة لأول مرة ودحرهما ، وانتهى به الأمر إلى أن ابنتى لنفسه سبنا انحدر بها إلى مصب السند ، ثم عاد صبراً على الأقدام لمجذاه سساحل بلوخستان ، حتى وصل إلى سوس مرة ثانية فى ٣٢٤ ق . م بعد ضيعة دامته سب سنوات ، وعند ذلك أخذ يستمد لتنظيم إمبراطوريته العظيمة وهد ما بين أجزائها من روابط ، فحاول أن يفوز بمجة رعياه البعد ، بأن اتخذ ثياب الماهل الفارسى وتاجه ،



فأثار ذلك غيرة قواده للتقديين الذين لقي منهم شراً كبيراً ، ثم عقد قران كثير من من الضباط للتقديين بنساء فارسيات وبابليات ؟ وهو ما يسمى « بزواج الشرق والغرب » ، على أنه لم يمر لينفذ الترابط الذي أعد عدته ، إذ اتابته حتى بعد وليمة شراب أقامها في بابل فمات في ٣٢٣ ق . م .

وسرعان ما تمزقت إربا تلك الرقة الهائلة من الأرض ، وقبض سلوقس أحد قواده على معظم الإمبراطورية الفارسية من السند إلى إفيسوس ؟ واستولى على مصر قائد آخر هو بطليموس ، كما احتاز مقدونيا قائد آخر اسمه أنتيجوناس ، أما بقية الإمبراطورية فلما رزحت في غمرات الفوضى وعدم الاستقرار ، وجعلت تنتقل إلى أيدي مجموعة متعاقبة من الغامرين المحليين ، وابتدأت ظلمات البرابرة من الشمال وأخذت تبسج مجالا وتزداد حدة ، حتى انتهى الأمر كما سنخبرك فيما بعد ، بظهور قوة جديدة هي قوة الجمهورية الرومانية التي جاءت من الغرب وأخذت تخضع الجزء منها تلو الجزء ، إلى أن ربطت بينها جميعاً في إمبراطورية جديدة أطول عمراً .

## الفصل السابع والعشرون

### متحف الإسكندرية ومكتبتها

كان الإغريق قبل عهد الإسكندر تجارا وفنايين وموظفين وجنوداً مرتزقة ، ينتشرون في معظم الملكات الفارسية . وقد حدث في أثناء المنازعات التي قامت حول العرش بعد وفاة إجزرسيس ، أن ثلثة من مرتزقة الإغريق عدتها عشرة آلاف جندي لعبت دوراً تحت قيادة أكسينوفون ( زينوفون ) ، ولهذا القائد كتاب أسماء و تهمقر الآلاف العشرة « وهو من أوائل قصص الحروب التي كتبها قائد في أثناء توليه القيادة — يصف عودتهم من بابل إلى بلاد الإغريق الآسيوية . على أن غزوات الإسكندر وتقسيم إمبراطوريته القصيرة الأجل بين قواده ، زادت كثيراً من انتشار الإغريق ولغتهم وطرائقهم وتفاعهم في أرجاء العالم القديم ؛ فقد وجدت في مواطن نائية كبلاد آسيا الوسطى وشمال غربي الهند آثار تنم عن انتشار هؤلاء الإغريق بتلك الأصقاع . وكان تأثيرهم في تطور الفن الهندي عميقاً .

ظلت أئتنا قرونا عديدة محتفظة بتفوقها كركز للفنون والثقافة ؛ وبقيت مدارسها حية حتى ٥٢٩ م ، أى أنها عاشت ما يقارب الألف سنة ؛ ولكن زعامة النشاط العسكري في العالم ما لبثت أن انتقلت عبر البحر المتوسط إلى الإسكندرية ، وهي المدينة التجارية الجديدة التي أسسها الإسكندر . وهنا كان القائد المقدوني بطليموس قد أصبح فرعونا على مصر ، وجعل من حوله بلاطاً لفننه الرسمية هي اليونانية . وكان صديقاً حميماً للإسكندر قبل توليه العرش ، كما كان متعمقاً في دراسة آراء أرسطو ، فأخذ يعمل على تنظيم المعرفة والبحث بهمة واقتدار عظيمين . كما أنه ألف كتاباً عن سمات الإسكندر ، لم يثر عليه لسوء الحظ .

وكان الإسكندر قد رعد مبالغ هائلة من المال للاتفاق منها على أبحاث أرسطو ، ولكن بطليموس الأول كان أول من حبس على العلم مضاع وهبات ممتددة ، فأقام

بالإسكندرية مؤسسة هي متحف الإسكندرية الذى خصص بصفة رسمية لربات الفنون  
Musees ، وانضى جيلان أو ثلاثة كانت الأبحاث العلمية التى تجرى فى أثناءها بالإسكندرية  
ممتازة الجودة ، وظهرت هناك مجموعة خارقة من رواد العلم وعلماء الطبيعة ، من المص  
نجومها إقليدس وإراتوستينز الذى قاس حجم الأرض ووصل فى تقدير قطرها إلى نتيجة  
تقل عن قطرها الحقيقى بخمسين ميلا ، وأبولونيوس الذى ألف فى القطاعات  
المخروطية ، وهيبازخوس الذى رسم أول خريطة للسماء وصنف أقدم فهرس للنجوم ،  
وهرون عتريخ أول آلة بخارية ، وجاء أرشميدس من سيراكوزة إلى الإسكندرية ابتداء  
الدراسة والبحث وكان دائب الاتصال بالمتحف ، وكان هيروفيلوس من أعظم علماء  
التصريح لدى الإغريق ويقال إنه مارس تصريح الأحياء .

وانضى جيل أو ما يقارب ذلك حكم فى أثناءه بطليموس الأول والثانى ، وتأجبت  
فيه المعرفة والاكتشاف بالإسكندرية جنوة لم يقدر للعالم أن يشهد لها ضربا حق  
القرن السادس عشر للميلادى ، بيد أن تلك الحركة الفكرية لم تهمر طويلا ، وربما  
اجتمعت على اضمحلالها أسباب عدة ، وعلى رأسها فيما يرى للرحوم الأستاذ ماهان أن  
المتحف كان كلية ملكية ، وأن فرعون هو الذى يمين جميع أسانذتها ومساعدتهم  
ويدفع لهم أجورهم ، ولم يك فى ذلك أدنى ضير طالما كان ذلك الفرعون هو بطليموس  
الأول ، تلميذ أرسطو وصديقه .

ولكن أسيرة البطالة تمصرت بمرور الزمن ، ووقعت تحت سلطان حكمة مصر  
والنظورات الدنيئة للمصرية ، وكفوا عن موالاة ما كان يجرى من عمل ، ولم يلبث  
إشرافهم عليه أن خفق روح البحث والتقصى خفقا تاما ، لذلك لم ينتج للتحف بعد  
القرن الأول من نشاطه إلا القليل من الإنتاج العبد .

ولم يقتصر بطليموس الأول على محاولة تنظيم الكشف عن ينابيع جديدة للمعرفة  
مفتوحيا فى ذلك روحا عصرية خالصة ، بل حاول كذلك أن ينشئ مكتبة الإسكندرية  
لتكون دارا موسوعية تجمع كل كنوز الحكمة . لم تكن المكتبة مجرد مستودع  
للكتب ، بل كانت أيضا مؤسسة تتوفر على نسخ الكتب ويصفا ، وقد جرد حشد كبير  
من السباغ للعمل للتواصل بما أدى إلى مضاعفة أعداد الكتب ونسخها .

وعلى ذلك فإننا نجد فى هذه المؤسسة لأول مرة البداية الأولى المهددة للحركة

السكرة التي نعيش فيها اليوم ؛ وفيها نجد المعرفة تتجمع وتوزع بطريقة منتظمة . فإنشاء هذا للتشف وهذه للكتابة يعد إيداعاً بيده إحدى الحقب العظيمة في تاريخ العالم . فهي البداية الحقة لتاريخ الحديث .

وكان يعترض طريق البحث العلمي ونشر العلم بين الناس عوائق خطيرة . منها تلك الهوة الاجتماعية السحيقة التي تفصل الفيلسوف - وهو سيد هذب - عن التاجر والصانع . كان صناع الزجاج وللمعادن في تلك الأيام كثيرى العدد ، ولكن لم يكن بينهم وبين المفكرين أى اتصال عقلى . فكان صانع الزجاج يصنع أجمل الحرز والقوارير وغيرها ألواناً ، بيد أنه لم يصنع ألينة قنينة فلورنسية ولا عدسة من العدسات . ولا يبدو أن الزجاج الصافي لقي منه اهتماماً . وكان صناع المعادن يصنعون الأسلحة والمجوهرات ولكن أحداً منهم لم يصنع أبداً ميزاناً كيميائياً وفي نفس الوقت الذى أدام فيه الفلاسفة التأمل في رفع حول الدرر وطبيعة الأشياء ، ولم تكن لهم خبرة عملية بالبناء ولا الأصباغ ولا أشربة تولد الحب إلى غير ذلك . لم يكن الواحد منهم يعنى بالمواد الطبيعية . ولذا فإن الإسكندرية لم تنتج يوم صنعتها الوجيزة ميكروسكوباً ولا كيمياء . ومع أن هيرون اخترع آلة بخارية ، فإنها لم تستعمل قط في رفع الماء أو في دفع قارب أو في عمل أى شئ نافع . وقل أن وجدت للعلم تطبيقات عملية اللهم إلا في مضمار الطب ، كما أن تقدم العلوم لم يكن يحفزها ويحافظ عليه اهتمام القوم بالتطبيقات العملية ولا ما تحمده تلك التطبيقات من هزة في النفوس . لذا لم يكن هناك شئ يدعو إلى الاستمرار في العمل عند ما ولى بطليموس الأول والثاني وزال أرجهما للاستطلاع . ولذلك أيضاً دونت مستكشفات للتشف في مخطوطات خفية قامضة ، ولم تصل قط إلى الناس كافة ، حتى بحث حب الاستطلاع العلمى في عصر النهضة .

ولم تنتج للكتابة - من ناحية أخرى - أية تحسينات في صناعة الكتب . ولم يكن ذلك العالم القديم يصنع من عجينة الخرق ورقاً له حجوم معروفة . ذلك أن الورق اخترع صينى لم يصل إلى العالم الغربي إلا في القرن التاسع لليلادي . وأما اللبؤاد الوحيدة المستعملة في صنع الكتب فهي الرق وسلخات ( شقائق ) قصب البردى للوصولة حروفها بعضها ببعض . وكانت هذه الشقائق تجل في صورة ملفات . من أعسر الأمور قصها ولها للاطلاع عليها ، كما أنها متعبة جداً لكل باحث شاء الرجوع إليها .

تلك، حتى الموانع التي حالت دون نشأة الكتاب المطبوع ذي الصفحات . أما الطباعة نفسها فالظاهر أنها كانت معروفة في العالم ، منذ زمن سحيق لطلوع العصر الحجري القديم ؛ وقد وجدت الأخنام في بلاد سومر العتيقة ، يبد أنه لم يكن لطبع الكتب أية ثمرة مالم يكثر الورق ، وهذا عدا أن الطباعة تتطوى على تقدم لم يكن يبد أن يلقى المقاومة من نقابات العمال رعاية لمصالح الساعين المستخدمين في صناعة السخ . وكانت الإسكندرية تنتج كتباً وفيرة ولكنها ليست بالرخصة ، كما أنها لم تنشر المعرفة بتأنيب سكان العالم القديم إلا في مستوى الطبقة الميسرة ذات النفوذ .

هكذا حدث أن شعة التقدم الفكرى لم تتجاوز قط دائرة ضيقة من الناس المتصلين بمجموعة الفلاسفة الذين جمعهم بطليموس الأول والثاني . كان مثلها كمثل نور في مصباح معتم يحجب النور دون العالم كافة . وقد تكون الشعلة في الداخل وهاجة تخطف الأبصار ، ولكنها مع ذلك مستورة لأتراكها الأنظار . أما بقية أصقاع العالم فإنها سارت طرائقها القديمة دون أن تدري أنه قد بذرت بذرة المعرفة الطليعة التي ستحدث فيه انقلاباً تاماً في يوم من الأيام . وسرعان ما غشيت الدنيا سحابة حالكة من الغضب الذي وغمرت كل أرجائها حتى الإسكندرية نفسها . ومر على تلك اللحظة من التاريخ ألف سنة من الظلام الدامس ، الذي غطى على البذرة التي بذرها أرسطو . ثم اهتزت وأخفت تثبت . وما هي إلا بضعة قرون حتى غدت تلك البذرة دوحه المعرفة الفارعة وسدرة الأفسار الخالصة التي تغير اليوم وجه الحياة البشرية بأجمعها .

لم تكن الإسكندرية هي المركز الوحيد للنشاط اليونان الفكرى في القرن الثالث ق . م . فإن بين الحطام المتداعية المتخلفة عن إمبراطورية الإسكندر القصيرة الأمد ، مدناً أخرى كثيرة سطعت فيها حياة فكرية وفادة . فهناك مثلاً مدينة سيراكوزة الإغريقية بصقلية ، التي ازدهر بها الفكر والعلم قرنين ؛ وثمة برجامة ( برجاموم ) بآسيا الصغرى ، التي كان لها هي أيضاً مكتبة عظيمة . بيد أن هذا العالم المليئين الوقاد الدكاء أصيب آنذاك بخبرات أهل الشمال . فإن همجا نوردين جدداً هم « الفاليون » ، كانوا يسرون في نفس الطرق التي احترقوا يوماً ما أسلاف الإغريق والفرجين ولقدونيون . كانوا يغيرون ويحطمون ويهدمون . وجاء في أعقاب الفالين شعب فاتح جديد من إيطاليا هو الرومان ، الذين قاموا بالتدريج بإخضاع جميع النصف الغربي من مملكة دارا والإسكندر المائلة . كانوا قوماً ذوي كفاءة واقتدار ، ولكنهم

معمرون من نعمة الخيال ، فهم يؤثرون القاتون والمنفعة على كل من العلم والفن .  
وثمة فتاة جدد كانوا يحدرون من آسيا الوسطى ليدمروا الإمبراطورية السلوقية  
ويخضعوها وليقطعوا مرة ثانية ما قام بين العالم الغربي وبلاد الهند من اتصال ، وكان  
هؤلاء هم الأبخانيون ( البارثيون ) ، وهم أرهاط من رماة القسي الأكسين ، فعاملوا  
إمبراطورية برسيبوليس وسوس الإفريقية الفارسية في القرن الثالث ق . م نفس المعاملة  
التي عاملها بها الميديون والفرس في القرن السابع والسادس . وكان هناك عندئذ أقوام  
آخرون من الرحل يأتون هم أيضاً من الشمال الشرقي ، ولم يكونوا قوما شقرا ولا  
نورديين ولا ناطقين بالآرية ، بل كانوا ذوي جلود صفراء وشعور سوداء ولهم لغة  
مغولية ، على أننا سنزيفك بهم بيانا في فصل تال .

## الفصل الثامن والعشرون

### حياة جوتاما بوذا

الآن ينبغي لنا أن نرجع بقصتنا ثلاثة قرون إلى الوراء لنحدثك عن معلم عظيم أوشك أن يحدث انقلاباً ثورياً في فكر آسيا بأجمعها ومشاعرها الدينية . ذلك المعلم هو جوتاما بوذا ، الذي كان يعلم تلاميذه في بنارس بالمهند في نفس الوقت الذي كان أشعيا يتنبأ فيه بين اليهود في بابل ، والذي كان هيراقليطوس يواصل فيه تأملاته وأبحاثه البكرية في طبيعة الأحياء بمدينة إفيسوس . كان هؤلاء الناس جميعاً يعيشون في العالم في وقت واحد في القرن السادس ق . م . دون أن يدري أحد منهم بوجود الآخرين .

والحق أن هذا القرن السادس ق . م من أجدر عصور التاريخ باللاحظة . ففي كل مكان كانت عقول الناس تظهر جرأة جديدة ، وذلك لأن هذه الحالة تقشّت في بلاد الصين أيضاً كما سندلي إليك فيما بعد . وفي كل مكان ، كان الناس يستيقظون مماران عليهم من تقاليد الملكيات والكهان والقرايين ويسألون أشد الأسئلة تعمقا وتقاذا . وكأنما المجلس البشري قد بلغ مرحلة الرشد بعد طفولة دامت عشرين ألف سنة .

ولا يزال تاريخ الهند الأول غامضاً جداً . ففي زمن ما لمه يقارب عام ٢٠٠٠ ق . م هبط الهند من الشمال الغربي شعب ناطق بالآرية ، إما في غزوة واحدة وإما في سلسلة متعاقبة من الغزوات ، فاستطاع أن ينشر لفته وتقاليدته فوق الشطر الأعظم من شمال الهند . وكان النوع الذي يتحدثون به من اللغة الآرية هو الفرع السبكرتي . فوجدوا في إقليم السند والكنجج شعباً أسمر أرقى حضارة وأضعف إرادة . ولكن لا يلوح أنهم اختلطوا بهذا الشعب بالنكثرة التي تخالط بها الإغريق والفرس . فظلوا عنه بمنزلة من غنى إذا مرت الأيام أصبح ماضى الهند مرثياً للذؤوخ على غشاوة تشبه ، وإذا بالهتبع الهندى مقسم إلى طبقات كثيرة ، (مع عدد يتغير من الأقسام الثانوية) ، لا تواءم كل بعضها بعضاً ولا تتزاوج ولا تختلط اختلاطاً حراً . وإذا بهذا التقسيم الطبقي إلى عوائف يستمر

أمد التاريخ كله . وهذا أمر من شأنه أن يجعل سكان الهند شيئاً يخالف المجتمعات الأوربية وللغولية البسيطة السهلة الزواج ، فهم في الحقيقة مجتمع مجتمعات .

وكان سيداتاً جوتاما أحد أبناء عائلة أرستقراطية تحكم قاطعة صغيرة على منعدرات الحملايا . فزوج وهو في التاسعة عشرة من ابنة عم له جميلة ، وكان يصطاد ويلهو ويتجول في عاله للشمس للكون من الحدائق والأحراش وحقول الأرز للعمورة بالمياه ، وفيها هو ينعم بتلك الحياة حل به تضرع عظيم . كان ذلك هو شعور العاسة الذي يحسه العقل للمنازاة الذي يريد أن يعمل . ذلك أنه شعر أن الحياة التي يعيشها لم تكن هي الحياة الحقة ، وأنه كان في عطفة سادست أكثر مما ينبغي .

وتسلل إلى عقل جوتاما إحساس قوى بالمرض والفناء ، وبأن جميع أوان السعادة غير مأمونة وغير مرضية ، وبينما هو على تلك الحال التقى برجل من أولئك الزهاد للتجولين الذين يكثر وجودهم ببلاد الهند حتى قبل أيامه . كان هؤلاء الناس يتبعون في عيشهم قواعد قاسية ، ويقضون شطراً طويلاً من وقته في التأمل والحوار الديني ، وكان للبروض أنهم يتخللون وراء أعمق ما في الحياة من حقائق ، واستولت على جوتاما رغبة حارة في احتذاء خطواتهم .

وتقول القصة إنه كان يتفكر في هذا الأمر ، عندما بلغه أن زوجته وضعت بصغيراً ابناً . فقال جوتاما « وتلك رابطة أخرى لا مفر من قصبتها » .

عاد إلى القرية بين أهاليه أبناء عشيرته ومظاهر ابتهاجهم ، وأقيمت وليمة عظيمة وقرعت الرقصات احتمالاً بيلاد هذه الصلة الجديدة ، ولكن جوتاما استيقظ في موطنه الليل والألم الروحي العظيم يذلل فؤاده ، « وكأنه رجل أبلغ نبأ اشتعال النار في منزله » فصمم على أن يهجر منذ تلك اللحظة حياته السعيدة التي لا هدف لها ، فقتل إلى باب غرفة زوجته ، فراها على نور قنديل زيت صغير وهي ترقد كالوردة الجميلة تحف بها باقات الزهور وبين ذراعيها طفله الرضيع ، عند ذلك شعر بحنين عظيم أن يحمل الطفل ويحاطه عنقا يكون هو الأول والأخير قبل الرجول ، ولكن خوفه من إيقاظ زوجته منعه من ذلك ، وأخيراً ولي ظهره وخبرج إلى ضياء القمر الهندى الساطع . وامتنى جواده وانطلق إلى العالم .



سار في تلك الليلة شقة بيدة ، حتى إذا أسفر الصبح توقف خارج أراضى عشيرته ، وترجل على سفلة نهر رملية . وهناك قطع بسيفه ذوائبه للتهلة ، وأماط عنه كل حلية وأرسلها مع حصانه وسيفه إلى منزله . ثم واصل سيره حتى انتهى - لوقت - رجل في أحمال وتبادل وإياه الثياب ، حتى إذا تم له بذلك تجريد نفسه من كل الزواجر الدينية أصبح حراً في متابعة بحثه وراء الحكمة . واتجه جنوباً إلى مشوى للسالك وللعلمين يقوم على طنف <sup>(١)</sup> بين التلال بحال الهنديا . وهناك كان يعيش عدد من الحكماء في منطقة من الكهوف ، ويذهبون إلى المدينة طلباً لاستلزاماتهم البسيطة ، ويدلون شغوا بما لديهم من المعرفة لكل من ينى بالحضور إليهم وأصبح جوتاما ضليعاً بكل علوم ماوراء الطبيعة في عصره . غير أن ذكاءه الوقاد لم يقنع بالجلول التي قدست إليه .

والعقل الهندي مبال منذ القدم إلى الاعتقاد بأن القوة والمعرفة يمكن الحصول عليهما بالزهادة المفرطة أى بالصوم وأرق الليل وتعذيب النفس ، وهنا وضع جوتاما هذه الفكرات في بوتقة الاختبار ، فانتطلق مع خمسة من رفاقه التلاميذ إلى الغابة ، وهناك استسلم للصيام ورهيب التفكيرات ، وطار صيته : « كرنين جرس عظيم يعلو في قبة السماوات » ، بيد أن ذلك لم يجلب له أى شعور بأنه فاز بالحقيقة ، وبينما هو يسير ذات يوم ذهاباً وجيئة ، محاولاً أن يفكر على الرغم مما هو عليه من وهن ، غلب عن وعيه فجأة . حتى إذا أفاق من غشيته ، تجلت أمام ناظره سخافة استخدام هذه الطرق شبه السحرية للوصول إلى الحكمة .

فالتقى الرعب في أقدسة رفاقه بطلبه الطعام العادي ورفضه مواصلة تعذيب نفسه ، ذلك أنه تحقق أن خير الوسائل لبوغ أية حقيقة هي العقل الجيد والتغذية في جسم سليم . وكانت مثل تلك الفكرة غريبة غريبة مطلقة على أفكار البلاد والمصر . فهجرت تلاميذه ، وذهبوا إلى بنارس في حالة حزن وقنوط . وأخذ جوتاما يتجهول بمفرده . . .

والعقل عندما يصطدم مع مشكلة عظيمة ومعقدة فإنه يتقدم في سبيل الفوز بخطوة في إثر خطوة ، دون أن يدرك إلا قليلاً قدر للكاسب التي أحرزها ، وإذا هو يدرك نصره

وبحققه على حين بئنة مع إحساس بالاستارة للفاضة . وهذا هو ما حدث لجوتاما . فإنه جلس يتناول طعامه في ظل دوحة عظيمة إلى جوار أحد الأنهار ، وإذا بهذا الشعور بالرؤية الصافية يحل به . فلاح له أنه يروى الحياة تبة واضحة . ويقال إنه جلس طيلة نهاره وليه في تفكير عميق ؛ ثم قام لينتج العالم رؤياه .

فذهب إلى بنارس وهناك جد في البحث عن تلاميذه الذين هجروه حتى وجدهم ، وأقنهم ثانية بتعاليمه الجديدة . فسادوا لأنفسهم في حقيقة التزلان لللكية بينارس أكراما وأقاموا مدرسة وفد إليها كثيرون ممن كانوا يطلبون الحكمة .

وكانت نقطة البداية في تعاليمه هي السؤال الذي وجهه لنفسه كشاب حاله التوفيق : « لماذا لا أحس بسعادة تامة ؟ » وهو سؤال ينطوى على محاولة تعرف بواطن النفس . وهو سؤال يختلف اختلافا كبيرا في النوع عن حب الاستطلاع الصريح المنطوى على نسيان الذات وللوجه نحو العالم الخارجي — حب الاستطلاع الذي كان طاليس وهيراقليتوس يحاولان به تفهم مشكلات الكون ، كما يختلف كثيرا عما يجادل ذلك من نسيان للذات يتجلى في صورة تحمل أعباء الالتزام الخلقى الذي كان أواخر الإنبياء يفرضونه في العقل البراني فرضاً .

فالعلم الهندي لم يلبس « النفس » ، بل لقد ركز على النفس اهتمامه وحاول أن يدمرها . وعلم الناس أن كل ما يقاسيه الفرد يعود إلى رغباته الشرهة . حتى يخضع المرء لتلهفاته الشخصية ، فعياته متاعب ونهايته شجن .

والتلهم على الحياة يتخذ أشكالا رئيسية ثلاثة كلهن شر . فأولها حب الشهوات والشراة وجميع أنواع الإحساسات الجسدية ، وثانيها الرغبة في الخلود الشخصي والأثاني ، وثالثها الهافت على النجاح الشخصي وحب الدنيا والشع وما إليه . ولا بد من التغلب على أنواع هذه الرغبات التماسا للفرار من عن الحياة وأشجبتها — فإذا تم قهرها واختفت النفس تماما ، بلغ المرء مرتبة « الترفانا » أي صفاء النفس وهي أعلى درجات الخير .

تلك خلاصة مذهبه . ولا شك في أنه مذهب خفي جداً وميتافيزيقي ، وهو لا يكاد يداني في سهولة الفهم وصية الفلسفة الإغريقية التي تدعو الناس أن ينظروا ويعرفوا بلا

خوف وبالطرفة الصالبة ، ولا الوصية الميرانية الآمرة بخوف الله وإتيان البر ، كان تلمبا يعلو كثيراً على فهم تلاميذ جوتاما للتصديق به اتصالاً مباشرًا . فلا عجب إذن أنه ما كاد تفوذه الشخصى يزول حتى داخل للذهب الفساد والفسط ، وكان أهل الهند يعتقدون فى ذلك الزمان بأن الحكمة تهبط إلى الأرض على فترات طويلة وأنها تتجسد فى شخص مختار يسمى « البوذا » . وأعلن تلاميذ جوتاما أنه بوذا ، وأنه خاتم البوذوات ، وإن لم يبق أى دليل على أنه هو نفسه قبل القرب ولم تكذب تقضى على وفاته فترة وجيزة ، حتى أخذت مجموعة ضخمة من الأساطير الخيالية تتسج من حوله ، فإن من دأب القلب الإنسان أن يفضل دائماً قصة تملؤه عجباً على جهد خلقى ومعنوى ، ولذا تحول جوتاما إلى أصحوبة مدهشة جدا .

ومع ذلك فإن العالم فاز بكسب جوهرى . فإن كانت « الترفانا » أعلى وأدق من أن يتسامى إليها خيال معظم الناس ، وإذا كانت دوافع العقل البشرى إلى نسج الأساطير أقوى من أن تقف فى سبيلها حياة جوتاما وما بها من الحقائق البسيطة ، فإن الناس كانوا يستطيعون على الأقل أن يدركوا عينا من المقصود مما كان جوتاما يسميه باسم « الطريق ذى الشعب الثماني » ، وهو الطريق الآرى أو النبيل فى الحياة . وهذا « الطريق » ينطوى على الإصرار على الاستقامة الذهنية ، وعلى الأهداف الصالبة والكلام الصائب وعلى السلوك الصائب والتعيش الشريف . وبفضله تم إنعاش الضمير وظهر اتجاه نحو الأهداف الكريمة المنطوية على نسيان اللذات .

## الفصل التاسع والعشرون

### الملك أسوكا

انقضت بضعة أجيال على وفاة جوتاما، ولكن تلك التعاليم البوذية العالية النبيلة - أول التعاليم البسيطة القائمة بأن أعلى درجات الخير للإنسان هي في إخضاع النفس - لم يكتب لها إلا تقدم قليل نسبيا في العالم. ثم ما لبثت تلك التعاليم أن استولت على لب ملك من أعظم الملوك الذين شهدهم العالم.

وقد سبق أن ذكرنا كيف أن الإسكندر الأكبر انحدر إلى بلاد الهند وقا تل ملكها «بوروس» على ضفاف نهر السند. ويروى مؤرخو الإغريق أن شخصا اسمه شاندراجوبتا منوريا وفد على معسكر الإسكندر وحاول أن يقنعه بأن يتقدم حتى نهر الكنج ويفتح بلاد الهند جميعا، ولم يستطع الإسكندر أن يفعل ذلك لأن اللقدونيين رفضوا أن يسيروا خطوة واحدة في غمرات عالم مجهول، ثم تمكن شاندراجوبتا فيما بعد (٣٢١ ق. م.) من الحصول على عون قبائل عديدة بمنطقة التلال وأن يحقق أحلامه دون مساعدة الإغريق. فأسس إمبراطورية في شمال الهند، وسرعان ما تسفى له في (٣٠٣ ق. م.) أن يهاجم ممتلكات سلوقس الأول بإقليم البنجاب وأن يزيل عن الهند آخر آثار الحكم الإغريقي، وبسط ابنه رقعة هذه الإمبراطورية الجديدة، ووجد حليده «أسوكا» - وهو العاهل الذي تسكلم عنه الآن - نفسه في ٢٦٤ ق. م. حاكما على الأقاليم الممتدة من أفغانستان إلى مدراس.

وكان أسوكا ميالا في البداية إلى اتباع مثال أبيه وجده، وأن يتم فتح شبه الجزيرة الهندية. ففزا كالينجا (٢٥٥ ق. م.)، وهي إقليم على ساحل مدراس الشرق، وأوقى النصر في عملياته الحربية، ولكن بلغ من الثمرازه من قساوة الحروب وأهوالها أنه تخلى عنها وبنيها فكان بذلك نسيج وحده بين الفاتحين جميعا. وزهدت فيها نفسه تماما. وتبنى مذهب البوذية السلي، ثم أعلن أن فتوحه ستكون منذ ذلك الحين فتوحا في ميادين الدين.

وكان حكمه القوي دام ثمانية وعشرين عاما من أزهى قرات الهدوء الجيلة في تاريخ البشرية المضطرب . فقام بحركة عظيمة لحفر الآبار بالمهند ، وزرع الأشجار للتظليل . وأسس للمستشفيات والحدائق العامة والبساتين التي تربي فيها الأعشاب الطبية . وأنشأ وزارة للعتاية بأهالى الهند الأصليين وأجناسها الخاصة . واتخذ العدة اللازمة لتعليم النساء . وخصص هبات خيرية هائلة لهيئات التعليم البوذية ، ويحاول أن يعثم على نقد المؤلفات الدينية المتكسمة لديهم نقدا أحسن وأقوى أثرا . ذلك أن للفساد والحزبيلات سرعان ما تجتمعت حول التعاليم النقية البسيطة لذلك للعلم الهندي العظيم . وإنطلقت البحوث العلمية من لندن آسوكا إلى كشمير وفارس وسيلان والإسكندرية .

ذلكم هو آسوكا ، أعظم الملوك كافة . كان سابقا لمصره بزمان جيد جدا . ومن إنسب أنه لم يخلف من ورائه أميرا ولا هيئة من الرجال تواصل جهوده ، فلما لم تكد تنقضى مائة عام على وفاته حتى صارت أيام حكمه العظيمة ذكرى جيدة في بلاد الهند التي عشت بها أيدي الخزيق والانحلال ، قد كانت طائفة الكهان البرهمانية ، وهي أعلى طوائف المجتمع الهندي وأكثرها امتيازات ، مناهضة على الدوام لتعاليم بوذا الصريحة الكريمة . فراحوا يقوضون على التدرج نفوذ البوذية في البلاد ، واستردت الآلهة القديمة البشعة سلطانها ، هي والمعتقد الهندوكية التي لا عداد لها . وأصبح نظام الطوائف أشد قوة وأعظم تقيدا . وبعد قرون طويلة ازدهرت فيها البوذية والبرهمانية إحداهما إلى جوار الأخرى ، أخذت البوذية تضمحل ببطء ، وأخذت البرهمانية تحمل عليها متخلفة عددا كبيرا من الصور والأشكال . بيد أن البوذية انتشرت خارج حدود الهند بعيدا حيث سلطان نظام الطوائف - حتى اجتذبت إليها بلاد الصين وسيام وبورما واليابان ، وهي بلاد لا يبرح البوذية سائدة فيها إلى اليوم .

## الفصل الثاني

### كونفوشيوس ولاهوتى

بقى علينا الآن أن نحدثك عن رجلين عظيمين آخرين هما كونفوشيوس ولاهوتى (لاوتسى) ، اللذان كانا يعيشان في ذلك القرن الدهش الذى ابتدأ به رشد الإنسانية ، وأعنى به القرن السادس ق . م .

ونحن في كتابنا هذا لم ندل إلى الآن إلا بطرف يسير عن قصة بلاد الصين في عهدها الأولى . ولا يزال التموض يضى إلى اليوم ذلك التاريخ الباكر ، وإننا للشخص الآن بأبصارنا إلى الباحثين وعلماء الآثار يبلاد الصين الحديثة التى تنشأ الآن نشأً جديداً راجعين أن يميلوا اللثام عن ماضيم بنفس الاستقصاء الذى كشف به اللثام عن ماضى أوروبا إبان القرن الأخير .

نشأت أوائل الحضارات الصيلية البدائية في وديان الأنهار العظيمة منذ زمن سميح جداً متفرعة عن الثقافة الشمسية الحجرية ( الهلولىة ) الأولى . وكما حدث بمصر وسومر ، كانت تلك الحضارات نفس الخصائص العامة التى اتسمت بها تلك الثقافة ، كما أنها تركز حول المعابد التى كان الكهنة واللوكة الكهان يتولون فيها تقديم القرابين الدموية الموسمية . ولابد أن الحياة في هذه المدن كانت شبيهة جداً بالحياة المصرية والسومرية قبل ستة أو سبعة آلاف من السنين ، كما أنها شبيهة جداً بحياة الملايا بأمريكا الوسطى قبل ألف عام .

فلئن كانت هناك فلا قرايين إنسانية ، فقد حل مكانها من زمن جيد القرايين الحيوانية قبل نفس فجر التاريخ . كما أن ضرباً من الكتابة بالصور أخذ يتكون قبل عام ١٠٠٠ ق . م . بعهد جيد .

وكما أن الحضارات البدائية في أوروبا وآسيا الصغرى كانت في كفاح مع مترحة الصعراء ورحل الشمال ، فكذلك نكبت الحضارات الصيلية البدائية بتجمعات ضخمة من الشعوب المترحة الضاربة على حدودها الشمالية . وكان هناك عدد من القبائل المتأهلة

لثة وطرائق عيش ، يتحدث عنها التاريخ على التعاقب باسم الهون واللغول والترك والتتار كانوا يشيرون ويتقسمون ثم يهودون فيتحدون ، على نفس الشاكلة التي كانت الشعوب الآرية في شمال أوروبا ووسط آسيا ، تتغير بها وتختلف في الاسم دون الجوهر . وقد ملكت هذه الشعوب المغولية المرحلة الحصان قبل الشعوب النورية ، ولعلهم اكتشفوا الحديد على انفراد بمنطقة جبال آلطاي ١٠٠٠ ق . م بزمنا . وكما حدث في بلاد الغرب ، فإن هؤلاء الترحلين الشرقيين كان يسكنون بينهم الفينة بعد الفينة ضرب من الوحدة السياسية ، ويصبغون غزاة وسادة ، وبعثين للعبودية في هذا الإقليم المستقر المتحضر أو ذلك .

ومن المحتمل جداً أن أقدم الحضارات الصينية لم تكن مغولية بأي حال ، شأنها في ذلك شأن الحضارات في أوروبا وآسيا الغربية التي لم تكن نوردية ولا سامية . ومن الجائز جداً أن أقدم حضارات الصين كانت حضارة سمراء ، كما كانت بمائلة في طبيعتها لأقدم الحضارات المصرية والسومرية والهرافيدية ، وأن ابتداء أول تاريخ سجل للصين قد حدثت قبله فتوح كثيرة واختلاط بين الأجناس .

ومهما يكن الأمر فلإننا نجد أنه لما وافق ١٧٥٠ ق . م ، كانت الصين مكونة فعلا من مجموعة هائلة من الممالك الصغيرة ودول المدن ، وكلها تعترف بولاء ملكك الحري ، وتدفع رسوما إقطاعية بصورة غير منتظمة ، وغير محددة تقريرا ، للإمبراطور كاهن واحد : هو « ابن السماء الكاهن الأعظم » . وانتهى حكم أسرة « شانج » في ١١٢٥ ق . م ، وخلفتها أسرة « تشاو » ، وأقامت بالبلاد وحدة ضعيفة الأواصر امتدت حتى عهد أسوكا بالهند والبطلة بمصر ، وأخذت الصين تتمزق وتتعلم على التدرج في أثناء حكم أسرة « تشاو » الطويل . وانحدرت إلى البلاد شعوب من الهون وأنشأت الإمارات ، وقطع الحكام المحليون الجزية وأصبغوا مستقلين . ويقول أحد ثقات الصينيين إن البلاد كان بها في القرن السادس ق . م خمسة أو ستة آلاف مقاطعة مستقلة تقريبا . وهذا العصر هو الذي يسميه الصينيون في سجلاتهم باسم « عصر الفوضى » .

على أن عصر الفوضى كان ملائما لنشوء شيء كثير من النشاط الفكري ، ووجود كثير من مجالات الفن الحلية والعيش المتحضر . وسنجد عندما نزداد علما بتاريخ ( ١٠ - تاريخ العالم )

الصين أن تلك البلاد كانت لها هي الأخرى مدن قامت بأدوار كالتى لعبتها ميلتيوس (مليطة) وأثينا وبرجامة ومقدونيا . لذا فإننا سننظم الإيجاز والتموض في الوقت الحاضر في حديثنا عن فترة الانقسام الصينى هذه ، وذلك لأن ما لدينا من المعلومات لا يكفي لصوغ قصة متسلسلة الحلقات حسنة التسلسل .

وكما أن بلاد اليونان المنقسمة على نفسها ظهر فيها الفلاسفة ، كما نشأ في اليهودية المهطمة المأسورة الأنبياء ، كذلك نشأ في الصين المتهمة النظام الفلاسفة والمعلمون في ذلك الأوان . وفي كل هذه الحالات يلوح أن عدم الاطمئنان والحيرة قد بحث أحسن العقول إلى العمل الناشط . كان كونفوشيوس رجلاً أرستقراطى الأصل تولى بعض المناصب الهامة بمقاطعة صغيرة اسمها « لو » . وهنا ألمت به حالة شديدة المائلة للزعة العقلية الإغريقية ، فأقام ضرباً من الأكاديمية لاستكشاف الحكمة وتعليمها . وقد أحزنه كثيراً ما يشي الصين من فوضى وخروج على القانون ، فاختط لنفسه صورة مثل أعلى للحكومة أحسن وحياة أفضل ، وأخذ يتنقل من ولاية إلى أخرى باحثاً عن أمير يأخذ بمسكراته في التشريع والتعليم وينفذها . ولكنه لم يثر قط على ذلك الأمير! أجل إنه وجد أميراً ، ولكن مؤامرات رجال البلاط قوضت سلطان المعلم عليه وتغلبت في النهاية على مشروعاته الإصلاحية . ومن العائى أن نذكر أن الفيلسوف اليونانى أفلاطون كان يبحث هو أيضاً عن أمير بعد ذلك بقرن ونصف ، وأنه اشتغل ودحا من الزمان معشاشاً للطاغية ديونيسيوس الذى كان يحكم ميراقوزه بعقلية .

ماث كونفوشيوس معلم الآمال ، قال : « لم ينهض حاكم ذكى الفؤاد ليتخذنى استاذاً له ، وما قد حانت منى » ، بيد أن تعليمه كان به من الحيوية قدر أعظم مما كان يتصوره إبان سنى شيخوخته وتعلم رجائه ، فصارت تعاليمه ذات أثر عظيم فى تكوين الشعب الصينى ، إذ أصبحت إحدى « التعاليم الثلاثة » — على حد قول الصينيين — والفتربان الآخران هما تعاليم بوذا ولاهوتسى .

ويتلخص مذهب كونفوشيوس فى طريقة عيش الرجل النبيل أو الأرستقراطى ، فإنه شغل بسلوك الشخص انشغال جوتاماً بالسلام الراجع إلى نسيان النفس ، والانشغال الإغريق بمعرفة العالم الخارجى ، واليهود بالبر والصلاح ، كانت أعظم المعلمين الكبار اهتماماً بالشئون العامة ، وكان يهتم إلى أقصى حشد بالمشغول بأحوال العالم وتماسكه ، كما أنه كان يريد أن يجعل الناس نبلاء رغبة منه فى إيجاد عالم نبيل ، لذا حاول أن ينظم



السلوك إلى درجة تفوق كل مألوف ، وأن يدبر القواعد السليمة لكل مناسبة من مناسبات الحياة . وكانت صورة السيد للذهب الذى يهتم بالشئون العامة والذى يكاد يأخذ نفسه بالتأديب الصارم ، هى للثل الأعلى الذى وجده يتطور فى عالم الصين الشمالية والذى أضفى عليه الهيئة الثابتة الدائمة .

وكان مذهب لاهوتسى أحفل بالتصوف والصوفى والتعايل من مذهب كوتقوشوس . وقد شغل لاهوتسى زمنا طويلا منصب أمين المكتبة الإمبراطورية ، والظاهر أنه كان يدعو دعوة الرواقين من حيث عدم الاهتمام بمسرات الدنيا وضروب السلطان فيها ، كما كان يبشر فى الناس بضرورة العودة إلى حياة بسيطة قديمة توهمها خياله ، وقد ترك كتابات أسلوبها شديد الاقتضاب كما أنها غامضة جداً . كان يكتب فى الغارز . وبعد وفاته أفسدت تعاليمه كما أفسد مذهب بوذا من قبله ، وتمشيتها الأساطير ، وضمت إليها أشد الطقوس والفكرات الخرافية تعقيداً وخروجاً على المألوف .

وحدث فى الصين مثلاً حدث فى الهند بالضبط ، أن نشطت أفكار السحر البدائية ، وتحركت الأساطير البشعة التى ظهرت فى ماضى طفولة جلوسنا تكافح ضد التكبر الجديد فى العالم ، ونجحت فى أن تسدل عليه ستاراً سابلًا من طقوس غريبة مضطربة وغير معقولة وعتيقة بالية . وكل من البوذية والتاوية ( التى تلسب نفسها إلى حشد كبير إلى لاهوتسى ) ، كما نجدهما اليوم يبلد الصين ، ديانة راهب ومعبد وكاهن وتقريب قرايين ؛ ديانة قديمة الطراز شكلا إن لم تكن كذلك فكراً وموضوعاً كديانات القرايين بسومر القديمة ومصر ؛ على أن مذهب كوتقوشوس لم يلق مثل تلك الإضافات لأنه كان مذهباً محدوداً وواضحاً ومستقيم للهج ، كما أن طبيعته لم تكن تسمح له بقبول مثل تلك التشوهات .

وأصبح شمال الصين ، أى جزؤها الذى يحترقه نهر هوانج هو كوتقوشيا فى فكره وروحه ، وغدت الصين الجنوبية التى يحترقها نهر اليانج تسى كيانج ، تالوة للذهب والعقيدة . ومنذ تلك الأيام يمكن تتبع آثار الصراع الذى شيعر بالصين بين هاتين النزعتين: نزعة الشمال ونزعة الجنوب ، أى بين ييكين ونانكين ( فيما عقب ذلك من أيام ) ، بين الشمال للمستقيم المحافظ صاحب عقلية اللوطفين ، وبين الجنوب للشكك اللبالي إلى الفنون والتراسخ والتعريب .

وبلغت انقسامات الصين في أثناء عصر الفوضى أسوأ مراحلها في القرن السادس ق.م،  
ويبلغ من ضعف أسرة تشاو وخطة هانتها ، أن اضطر لاهوتسى إلى ترك بلاطها التمس  
وإلى التقاعد .

وتسلطت على البلاد في تلك الأيام ثلاث دول تدين ببقية اسمية للإمبراطور ، هي  
« تسى » و « تسن » وهما دولتان شماليتان ، و « تشوئو » التي كانت دولة عسكرية  
ميالة إلى المدوان في وادى اليانج تسي . وأخيرا كونت تسى حلفا مع تسن ، وأخضعتا  
تشوئو وفرغت في البلاد معاهدة عامة تقضى بالسلام ونزع السلاح . وما لبثت قوة تسن  
أن صارت هي الغالبة . وانهى الأمر في زمان يقارب عهد آسوكا بالهند بأن استولى  
ماهل تسن على أوعية القربان التي لإمبراطور أسرة تشاو ، واضطلع بواجباته القربانية.  
ومدونات التاريخ الصينى تسمى ابنه تشى هوانج في ( الذى أصبح ملكا ٢٤٦ ق . م  
وإمبراطورا في ٢٢٠ ق . م ) باسم « الإمبراطور العام الأول » .

وكان تشى هوانج في أسعد حظا من الإسكندر لأنه حكم ستة وثلاثين عاما قضاه ملكا  
وإمبراطورا . ويؤذن حكمه الحافل بال نشاط والاقتدار بداية حقبة جديدة من الوحدة  
والرخاء للشعب الصينى . فإنه قاتل الهون للغير من الصحارى الشمالية أهد القتال ،  
كما أنه بدأ ذلك العمل المائل ، وأعفى به سور الصين العظيم ، ليحد من اعتداءاتهم .

## الفصل الحادى والثلاثون

### ظهور روما

### على مسرح التاريخ

سيلحظ القارىء تماثلا عاما فى تاريخ هذه الحضارات ، على الرغم مما بينها من التباعد الواقعى الناجم عن الجولجى العظيمة بتجوم الهند الشمالية الغربية والكتل الجبلية بآسيا الوسطى وأقصى الهند . وقد انتشرت الثقافة الشخصية الجبرية (الهيلولية) أولا وفى مدى آلاف من السنين بجميع وديان الأنهار الدفينة الحصىة بالعالم القديم ، وأنتجت حول قرايينا التقليدية نظاما قوامه للعبد والكاهن والحاكم .

وواضح أن أول من كون تلك الثقافة كانوا دائما هم أولئك الشعوب السمرات الذين قلنا إنهم هم الجنس البشرى المركزى . ثم هبط بأرضها للترحة من أقاليم الحشاشن للوسمية والمجبرات للوسمية ، فبرزوا خصائصهم بل حتى لتتهم أحيانا على الحضارة البدائية . وحدث التفاعل بين الطرفين ؟ فإنهم أخضعوها ونهبوها ، وحفزتهم هى بدورها إلى إحداث تطورات جديدة ، حتى لقد تنوعت الحضارة فصارت هنا شيئا وهنا شيئا آخر .

أما أرض الجزيرة فإن العيلاميين ومن بعدهم الساميين ، وأخيرا النورديين من الليديين والفرس والإغريق هم الذين قدموا بها خاتم الحضارة والتنبيه ، وأما منطقة الشعوب الإيجية فالإغريق فيها هم الحافز المنبه ، وكان الحافز الذى أنفض الهند هو أصعب اللسان الأرى ، أما مصر فكان اندماج التزا فى أضنف بسبب شدة ارتباط حضارتها بالكهانة والكهان ؟ أما الصين فكان الهون يغزونها فتقسمهم ثم يقهم هون جدد . وصفت الصين بالصنفة المتولية كما صفت بلاد الإغريق وشمال الهند بالقون الأرى ، وكما انطبع الطابع السامى ثم الأرى على أرض الجزيرة ، وكان الترحة يدمرون حيث يحلون تدميرا عظيما ، بيد أنهم كانوا حيث حاولوا يدخلون روحا جديدة من البحث الحر والابتداع الخلقى . راحوا يمتحنون معتقدات العصور السحيقة ؟ فأدخلوا ضوء النهار إلى ظلمات المبد ، وأقاموا ماوكا لم يكونوا كهنة ولا آلهة بل مجرد زعماء لقرادهم ورقاقهم .

وإننا لنجد في كل مكان إبان القرون التي أعقبت القرن السادس ق . م أن التقاليد العتيقة أصبحت إصابة عمية ، وأن روحاً جديدة من البحث الخلقى والذهنى قد استيقظت ، وهي روح لم يقسر لأحد بعد ذلك أن يجمعها تلمها في خضم التقدم البشرى العظيم . فالقراءة والكتابة تصيران تحصيلاً عادياً سهلاً للتال لدى الأقلية الحاكمة للموسرة ، ولم تعودا بعد ذلك سرّاً يحفظ بها الكاهن في حرص واستتار . ويزيد إقبال الناس على السفر ويصبح النقل أسهل وأيسر مما تنهأ للناس من خيل وطرق عمدة . وظهرت العملة للسكوك فكانت وسيلة جديدة سهلة لتسهيل التجارة .

وسنقل الآن بؤرة اهتمامنا من الصين في أقصى شرق العالم القديم إلى النصف الغربى من البحر المتوسط . وهنا نجد لزماً علينا أن نسجل ظهور مدينة قدر لها أن تلعب في النهاية دوراً عظيماً في الشؤون الإنسانية : ألا وهي مدينة روما .

لم نحدثك حتى الآن في قصتنا هذه إلا بالنذر اليسير عن إيطاليا . كانت قبل ١٠٠٠ ق . م أرض جبال وغابات قليلة السكان . وقد زحمت قبائل ناطقة بالآرية في شبه الجزيرة وأنشأت مدناً وبلدانا صغيرة ، كما أن طرفها الجنوبي كانت تلتئز عليه للمستعمرات الإغريقية . ولا تزال الأطلال الفاخرة لمدينة بايسم تحفظ لنا إلى يومنا هذا بشيء من الأبهة والجلال التي كانت لتلك المؤسسات الإغريقية الباكورة . وكان شعب غير آرى ، لعله من ذوى قربي الشعوب الإيجية ، وأعنى به الإترسك ، وطد قدمه في الجزء الأوسط من شبه الجزيرة . وقد عكسوا هنا الآية المعتادة بأن أخضعوا لنفوذهم قبائل آرية متنوعة . وعندما تظهر روما في ضياء التاريخ ، تكون بلدة تجارية صغيرة واقعة إلى جوار مخاضة على نهر التير ، وسكانها قوم ناطقون بالآرية يحكمهم ملوك من الإترسك ، والتواريخ القديمة تجعل عام ٧٥٣ ق . م بدءاً لتأسيس روما ، أى بعد تأسيس قرطاجنة المدينة الفينيقية العظيمة بنصف قرن ، وبعد إقامة أول حفل للألعاب الأولمبية بثلاثة وعشرين عاماً ، ولكن الحفر في السوق (الفوروم الرومانى) كشف مع ذلك عن قبور إترسكية ترجع إلى عهد أبعد كثيراً من ٧٥٣ ق . م .

وفي هذا القرن السعيد الخافل بالذكريات ، وهو القرن السادس ق . م ، طرد ملوك الإترسك ( ٥١٠ ق . م ) وأصبحت روما جمهورية أرستقراطية ، بها طبقة سادة من الأسر النبيلة ( البطارقة ) تتعكف فيمن عداها من عامة الشعب ( البلييان ) .

وتولوا ما كانت تنطق به من لسان لائى ، ما شعر أحد بفارق بينها وبين كثير من الجمهوريات الإغريقية الأرستقراطية .

وظل تاريخ روما الداخلى بضعة قرون وهو قصة كفاح مديد عنيذ قام به العامة مطالبين بالحركة ونصيب في الحكم ولو استعرضنا تاريخ الإغريق لما عسر علينا أن نجد حالات مماثلة لهذا الصراع ، ولوجدنا الإغريق يسمونها الصراع بين الأرستقراطية والديمقراطية . وانهى الأمر بأن حطم العامة ( البلييان ) معظم ما كان للعائلات القديمة من امتيازات ، وتساواوا معهم مساواة واقعية . قضوا على اعترال البطارقة القديم وجعلوا من الليسور والقبول لروما أن توسع « مواطنيتها » بحيث تشمل عدداً متزايداً من « الغرباء » . ذلك أنها ظلت ردحاً من الزمان تكافح في الداخل ، على حين كانت تمد سلطانها في الخارج .

وشرع الرومان يسيطون سلاطنتهم في القرن الخامس ق . م وكانوا حتى ذلك الحين في حروب دأمة مع الإترسك كانت تنتهى بالإخفاق على وجه العموم ، وكانت هناك على بضعة أميال من روما ، قلعة إترسكية ، هي قلعة فياي ، التي لم يستطع الرومان قط أن يفتنعوها . على أن الإترسك حلت بهم في ٤٧٤ ق . م نكبة جاثمة ؛ إذ دمر إغريق سيراقوزة بصقيلة أسطولهم .

وفي نفس الوقت هبطت عليهم من الشمال موجة من الغيرين النورديين ، هي موجة الغالة . فلما وقع الإترسك بين الرومان والغالة ، سقطت دولتهم واختفوا من التاريخ . واستولى الرومان على فياي . وتقدم الغالة إلى روما واتبهوا المدينة ( ٣٩٠ ق . م ) . بيد أنهم لم يستطيعوا أن يفتنحو السكايتول ؛ فإن صياح الأوز كشف عن محاولة الغالة القيام بهجوم ليلي مباغت ، وانهى الأمر بأن اتحدى الرومان أنفسهم وحريتهم بالمال ، وتراجع الغالة إلى شمالي إيطاليا .

ويلاحظ أن غارة الغالة قد عادت على روما بالقوة لا بالضعف . فإن الرومان غلبوا على الإترسك وفتحوا ، ومدوا سلطانهم على كل إيطاليا الوسطى من نهر الآرنو إلى نابلي . وقد بلغوا هذه البسطة في السلطان قبيل عام ٣٠٠ ق . م بضع سنوات ، وكانت فتوحهم في إيطاليا تحدث في نفس الأيام التي تم فيها نمو قوة فيليب في مقدونيا وبلاد اليونان ، وغارة الإسكندر المائلة على مصر وبلاد السند . ولما تمزقت إمبراطورية

الإسكندر ، كان الرومان قد أصبحوا شعباً تملأ شهرته العالم للمدن إلى الشرق من بلادهم .

وكان الغالة ينزلون إلى الشمال من دولة الرومان ؛ على حين تأثرت إلى الجنوب منهم مستعمرات الإغريق للنشأة بماجنا جريكيا ؛ وأغنى بذلك جزيرة صقلية ومقدم حذاء إيطاليا وكمبها . وكان الغالة شعباً حربياً شديداً للراس ، حافظ الرومان على حدودهم . منهم بخط من القلاع والمستعمرات المحصنة . فأما المدن الإغريقية في الجنوب وعلى رأسها تارتم ( وهي مدينة ناراتو الحديثة ) وسيراقروزه . فلم تكن تهدد الرومان قدر ما كانت تخافهم ونمخس بأسمهم ، وكانت تلتفت من حولها تلتمس ناصراً يحينها على هؤلاء الغزاة الجدد .

وقد سبق أن ذكرنا كيف تمزقت إمبراطورية الإسكندر إربا عند وفاته وكيف تقسمها قواده ورفاقه . وكان بين هؤلاء القامرين أمير من ذوى قرابة الإسكندراسمه ييروس ، وطد ملكه في إبيروس ، وهي وراء البحر الإدياتي قبالة كعب إيطاليا ، وكان يطمع في أن يلعب من « الماجناجريكيا » دور فيليب المقدوني معها ، وأن يصحح حاميا وسيداً لما لمدينة تارتم وسيراقروزه وباقي ذلك الجزء من العالم .

وكان لديه جيش كان يعد في زمانه جيشاً عصر باعظم الكفاية ؛ كان لديه فيلق من المشاة وكتيبة راية من تساليا ، كانت آنذاك تضارع في كفايتها الحيلة المقدونية الأصلية ، وثم خمسة وعشرون فيل مقاتلاً ، فزأ إيطاليا وبدفعل الرومان في موقعتين عظيمتين أحدهما معركة هراقليا ( ٢٨٠ ق م ) والثانية أوسكولم ( ٢٧٩ ق م ) . ولما تم له دفعهم نحو الشمال وجه اهتمامه إلى إخضاع صقلية .

يبد أن هذا جلب عليه عدوا كان في ذلك الحين أروعب جانباً من الرومان ، وهو مدينة قرطاجة الفينيقية التجارية التي لها كانت آنذاك أعظم مدن العالم ، إذ كانت صقلية قرية من القرطاجيين قرباً لا يستطيعون معه أن يرجبوا بمقدم إسكندر آخر جديد إليها ، كما أن قرطاجة كانت لازال تذكر المصير الذي حل بأمهاسور قبل ذلك بنصف قرن ؛ لذلك أرسلت أسطولاً يشجع روما — أو يرغمها — على مواصلة الكفاح ، كما قطعت مواصلات ييروس ، فوجد الرومان يهاجمونه من جديد ، ويمحطون بنسف ساحق هجوماً قام به على معسكرهم في بنشتم بين نابلي وروما .

وعلى حين بئته وردت إليه أنباء اضطرت له العودة إلى إبيروس . فإن الغالة أخذوا  
يغيرون من الشمال إلى الجنوب كماداتهم . ولكنهم لم يكونوا يغيرون في هذه المرة على  
بلاد إيطاليا ؛ إذ كانت التخوم الرومانية القوية التحصين والحراسة ، أمنع من أن  
يستطيعوا لها اختراقا . لذا كانوا يغيرون الآن جنوبا عتريقين للبريا ( وهى الآن ألبانيا  
وبلاد الصرب ) إلى مقدونيا وإبيروس . وتمخلى بيروس عن أطماعه فى الفتح وعاد إلى  
بلاده ( ٢٧٥ ق . م ) بعد أن صدّه الرومان . وأحدث به فى البحر خطر القرطاجيين ،  
وهدد الغالة ببلاده ، على حين خلا الجو لروما فبسطت سلطانها حتى مضيق مسينا .

وكانت تقوم على الجانب السفلى من المضيق مدينة مسينا الإغريقية ، وسرعان ما وقعت  
هذه البلدة فى قبضة جماعة من القراصنة . وكان القرطاجيون من قبل ذلك سادة سقيلية  
أوريكادون ، كما كانوا حلفاء لسيراقوزة ، فكان من الطبيعى أن ينهضوا للقضاء على  
القراصنة ( ٢٧٠ ق . م ) وأن يضعوا فى المدينة حامية قرطاجية . ولجأ القراصنة إلى  
روما يلتمسون العون منها ، وأصفت روما لشكايتهم . وهكذا التفت دولة قرطاجنة  
التجارية العظيمة من وراء مضيق مسينا بذلك الشعب الفاتح الجديد : الرومان ، وأخذوا  
يتبادلان نظرات العداوة والبغضاء .

## الفصل الثاني والثلاثون

### بين روما وقرطاجنة

كانت سنة ٢٦٤ م السنة التي ابتداء فيها الكفاح العظيم بين روما وقرطاجنة ، وهو الذي يسمى باسم الحروب البونية . وفي تلك السنة كان أسوكا يستهل حكمه في بهار ، وكان شي هوانج في طفلا صغيرا ، وكان متعنف الإسكندرية لايفتأ يلتجإ لانتاجا عليها لأأس به ، كما كان القتالة البرابرة قد حلوا عند ذاك في آسيا الصغرى وأخذوا يغرصون الجزيرة على برجامة .

وكانت أقطار الأرض المختلفة لاتزال تفصلها بعضها عن بعض مسافات مترامية لا سبيل إلى التخط عليها . ولعل بقية الإنسانية لم تكن تسمع إلا الشائعات الغامضة للقتضية عن ذلك القتال الفتاك الذي دارت رحاه قرنا ونصفا في إسبانيا وإيطاليا وشمال إفريقيا والبحر المتوسط القرى ، ذلك القتال الذي نشب بين آخر مقل لقوة الساميين وبين روما الوافد الجديد بين الشعوب الناطقة بالآرية .

وقد تركت تلك الحرب آثارها في مسائل لاتزال تحرك العالم إلى اليوم . أجل إن روما انتصرت على قرطاجنة ، بيد أن التنافس بين الآرى والسامى كتب له أن يتدرج فيما بعد تحت الكفاح الذي نشب بين غير اليهودى واليهودى .

وأخذ ركب التاريخ يقترب الآن من أحداث لاتزال عواقبها وتقاليدها للشوهة تحتفظ في منازعات اليوم وخصوماته بنبالة ضئيلة من حيوية تلفظ آخر أعلاها ، كما أن لها على تلك المنازعات سلطانا يعود عليها بالتعقيد والاضطراب .

ابتدت الحرب البونية الأولى في ٢٦٤ ق . م بسبب قرصانة مسينا ، وتطورت إلى كفاح على امتلاك صقلية بأجمعها عدا ممتلكات ملك سيراقوزه الإغريقى . وكان لقرطاجيين التفوق البحرى فى مبدأ الأمر . فكانت لهم سفائن حرية كبيرة لم



يسمع حتى ذلك الحين يمثل جميعها ، وهي الخناصات أى السفن ذات الصنوف الخنضة من المجاديف والكبش الضخم<sup>(١)</sup> . وكانت أعظم السفن في معركة سلاميس ، قبل ذلك قرنين من الزمان ، هي الثلاث ، وليس لها إلا ثلاثة صنوف . ولكن الرومان نصبوا أنفسهم حجة خارقة على الرغم من قلة درايتهم بالأمور البحرية - فلتفوق على ما ينتجه القرطاجيون من سفن . وكانوا يستخدمون بحارة من الإغريق في تسير الأساطيل الجديدة التي أنشأوها ، ولكي يروضوا أنفسهم عما عليه العدو من تفوق في اللحاة ، اخترعوا طريقة إمساك سفن الأعداء بالكباش ( بالكلايات ) واعتلأها ، فإذا أقبل القرطاجيون لصك مجاديف الرومان بالكباش أو قطعها ، تحلفت كباش ضخمة من الحديد بسفنها ، وتزاحم الجند الرومان إلى ظهورها زرافات . فهزم القرطاجيون في كل من ميلاي ( ٢٦٠ ق م ) وإيكونوهاس ( ٢٥٦ ق م ) هزيمة ساحقة . ثم صدوا الرومان وحالوا بينهم وبين النزول على البر بالقرب من قرطاجنة ، ولكنهم هزموا هزيمة منكرة قرب الرمو ، حيث خسروا مائة وأربعة من الفيلة - وأخذها الرومان وجعلوها زينة لموكب نصر عظيم احترق الفوروم لم تروما له من قبل نظيرا . ولكن الرومان عادوا بعد ذلك فهزموا مرتين ثم جددوا قوتهم ثانية ، وما لبثوا أن بذلوا آخر ما لديهم من جهد فهزمت آخر قوات قرطاجنة البحرية في معركة الجزائر الأيماية ( ٢٤١ ق م ) ، ومن ثم طلبت قرطاجنة الصلح . ونحلت للرومان عن سقلية بأقلها فيما عدا ممتلكات هيرون ملك سيراكوزة .

وحافظت كل من روما وقرطاجنة على ذلك الصلح اثنين وعشرين عاما ، إذ كان لكل منهما من المشكلات الداخلية ما يشغله . فإن القالة انحدروا جنوبا في إيطاليا مرة ثانية وهددوا روما - ( غلبها الملح على تقديم القرابين البشرية للآلهة ) - ثم دخروا وبدد ثملهم في معركة تيلامون . وعندئذ تقدمت روما قدما إلى جبال الألب ، بل تجاوزتها وهدت سلطاتها جنوبا بجذء ساحل البحر الإديري حتى إليريا ، وكانت قرطاجنة الأحوال مما كان بها من ثورات داخلية ومما حدث في قورسيقة وسردينية من فتن ، على أنها لم تبلغ ما بلغت روما من قدرة على علاج الأمور ، وأخيرا ، استنزفت روما على الجزيرتين وألحقتهما بها ، وهو عمل عدواني لا يطاق .

وفي ذلك الأوان كانت إسبانيا حتى نهر إرو شمالا تابعة لقرطاجنة ، إذ حرم

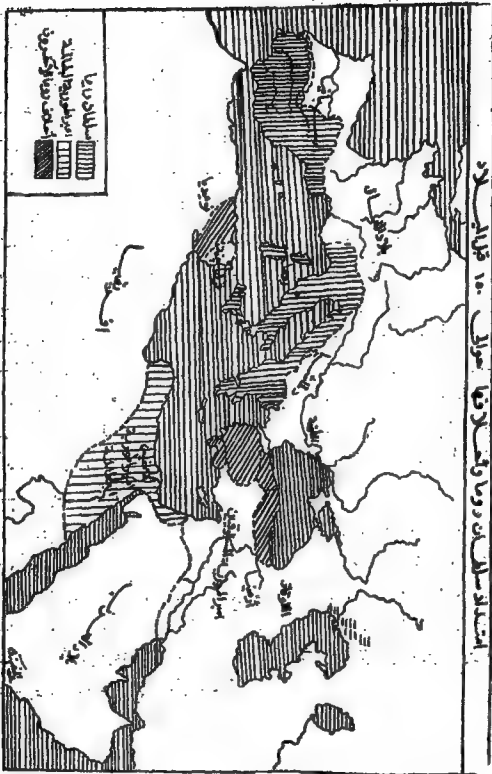
(١) الكبش تنوء برأس كبش تلهز من سفينة لإتلاف سفن الأعداء .

عليها الرومان تجاوز ذلك الحد؛ فإذا عبرت قرطاجنة نهر الإبرو عد ذلك عملا حريا معاديا للرومان. وانتهى الأمر بأن أرغمت قرطاجنة في ٢١٨ ق. م. إزاء اعتداءات جديدة للرومان، إلى عبور ذلك النهر ضلابة بقيادة قائد شاب اسمه هانيبال، وهو قائد من ألمع القواد على مر التاريخ كله. فسير عليها جيشه عتقا إسبانيا وعبر جبال الألب إلى إيطاليا، وهناك أثار الفاقة على الرومان، وواصل الحرب البونية الثانية في إيطاليا نفسها مدة خمسة عشر عاما. وأزلى بالرومان هزائم فادحة في معركة بحيرة تراسيميني وكانائي، ولم يستطع أى جيش روماني طيلة حملته الإيطالية بأكملها أن يقف أمامه دون أن تخفق به الهزيمة. غير أن الرومان أزلوا عند مرسيلىا جيشا قطع مواصلاته مع إسبانيا، وكانت تموزة أدوات الحصار ومعداته، كما أنه لم يتمكن أبدا من الاستيلاء على روما. واضطر القرطاجيون آخر الأمر لإزاء ثورة قام بها التوميدون في أرض الوطن، أن يردوا للدفاع عن مدينتهم الأصلية بإفريقية، وهنا عبر جيش روماني البحر إلى إفريقية. ولقي هانيبال أول هزيمة أصابته تحت أسوار المدينة في معركة زاما (٢٠٢ ق. م.) على يد سييون الإفريقي الأكبر.

وكانت معركة زاما هي خاتمة الحرب البونية الثانية، واستسلمت قرطاجنة، وتنازلت روما عن إسبانيا وعن أسطولها الحربي، ودفعت لها تعريضا هائلا، ووافقت على تسليم هانيبال للرومان لينتقموا منه، لولا أن هانيبال نجح من قبضتهم وفر إلى آسيا حيث نجح السم ومات عندما أحس أنه موعك أن يقع في قبضة أعدائه القلائد الأكباد.

وانقضت ست وخمسون سنة ظلت روما ومدينة قرطاجنة الكسيرة الجناح تستغلان في أثناءها السلام. وراحت روما في نفس الوقت تبسط سلطانها على بلاد الإغريق للضطربة المنقسمة على نفسها، وفتروا آسيا الصغرى وتهمز أنطيوخوس الثالث الملك السلوقي عند مدينة ماغنيسيا في ليديا، ثم جاء دور مصر، وكانت لا تزال تحت حكم البطالمة، كما جاء دور بجمامة ومعظم الولايات الصغيرة بآسيا الصغرى، فحواتها روما إلى حلفاء لها، أو «دول محمية» كما قد نسميها اليوم.

وذلك في حين كانت قرطاجنة الدليلة الضعيفة قد أخذت تسترد في ببطء شيئا من رخائها السالف، فأنار ذلك عليها حقد الرومان وغناؤهم، فهاجموها (١٤٩ ق. م.)



خرطه رقم (۶)

لأسباب تافهة منقطعة إلى أقصى حد ، فلم يكن منها إلا أن قاومتهم مقاومة عنيدة مريرة وتحملت حصارا طويلا ثم فتحت عنوة ( ١٤٦ ق . م ) ، واستمر القتال - أو قل المذبحة - في الشوارع ستة أيام ، وكان قتالا دمويا بشعا ، وعند ما سلمت القلعة لم يكن على قيد الحياة من أهالي قرطاجنة البالغ عددهم ربع مليون سوى خمسين ألفا تقريبا ، فبيعوا الرقيق ، وأحرقت المدينة ، ودمرت تدميرا تاما وسير المهرات في أنقاضها السوداء بالحريق ، وبذرت فيها البذور ليكون ذلك شاهدا على محوها رسميا .

وبذلك انتهت الحرب البونية الثالثة . ولم يبق مستمعا بالحربة من الدول والمدن السامية التي ازدهرت في العالم قبل ذلك بخمسة قرون ، إلا قطر صغير وحيد بقي تحت حكم حكام من أهله . ذلك القطر هو يهوذا ( جوديا ) التي حررت نفسها قبل ذلك من أيدي السلوقيين ، وكانت تحت حكم الأمراء المكاينيين الوطنيين . وكانت التوراة قد تمت في ذلك الحين أو كادت ، كما كانت تتطور آنذاك على أيديهم التقاليد المعيزة للعالم اليهودي على ما نعرفه اليوم . وكان من الطبيعي أن يلتصق القرطاجيون والفينيقيون ودفوو قربانهم من الشعوب المبعثرة في أرجاء العالم رابطة مشتركة بينهم تمثل في ألسنتهم المتقاربة ، وفي هذا الأدب الذي يمت فيهم الأمل ويعلوهم بالشجاعة ، وكانوا لا يزالون إلى حد كبير هم تجار العالم وأصحاب المصارف فيه . ذلك أن العالم السامي لم يذهب من الوجود ، بل غلب عليه عالم آخر .

واستولى الرومان على أورشليم في ٦٥ ق . م التي كانت على الدوام زمرا لليهودية لا مركزها ، وجد أن تغلبت عليها تصاريف متنوعة من شبه استقلال وثورات ، حاصروها في سنة ٧٠ م ، واستولوا عليها بعد كفاح عنيد ، ودمر الهيكل ، وكان دمارها النهائي بعد ثورة أخرى هبت في ١٣٢ م ، فأما أورشليم التي نعرفها اليوم فهي مدينة أعيد بناؤها برعاية الرومان . وأقيم في مكان الهيكل معبد للرب الروماني « جوبيتر » وحرم على اليهود سكنى المدينة .

## الفصل الثالث والثلاثون

### نمو الإمبراطورية الرومانية

كانت هذه الدولة الجديدة التي ما زالت تملوح تسلط على العالم الغربي في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد ، شيئاً آخر يختلف في كثير من النواحي عن أية إمبراطورية من الإمبراطوريات العظمى التي سادت العالم للندن حتى ذلك الوقت . لم تكن في مستهل أمرها ملكية ، كما لم تكن من خلق فاع عظيم بينه . ولم تكن في الواقع أولى الإمبراطوريات الجمهورية ؛ فقد تسلطت أثينا في عهد بركليس ، على مجموعة من الدول الحليفة والناجحة ، وكانت قرطاجنة يوم أن دخلت حومة كفاحها القتال مع روما صيدة لقورسيقة وسردنية ومراكش والجزائر وتونس ومعظم إسبانيا وصقلية ، بيد أنها كانت أولى الإمبراطوريات الجمهورية التي نجت من الإبادة وواصلت السير في طريقها ، وهي تنشيء التطورات الجديدة .

وكان مركز هذه المنظمة الجديدة يقع إلى الغرب على بعد كبير من مراكز الإمبراطوريات الأقدم منها عهدا ، التي كانت إلى ذلك الحين هي وديان الأنهار بأرض الجزيرة ومصر . وبفضل هذا للوقع الغربي تمكنت روما من أن تدخل إلى حظيرة الحضارة شعبياً ومناطق جديدة كل البعد .

وامتد سلطان روما إلى مراكش وإسبانيا ، وسرعان ما امتد نحو بريطانيا في الشمال الغربي عتازا ما يسمى اليوم باسم فرنسا وبلجيكا ، وتوغل شمالا بشرق إلى المجر وجنوب روسيا ، ولسكنها من الناحية الأخرى لم تستطع أبدا أن تحتفظ بمركزها في وسط آسيا أو بلاد فارس لشدة بعدها عن مراكزها الإدارية .

ومن ثم فقد كانت تضم جشودا هائلة من شعوب نوردية جديدة ناطقة بالأرية ، وسرعان ما ضمت إليها جميع من في العالم من الشعب الإغريقي تقريبا ، وكان اصطباغها بأصبغة الحامية والسامية أضف كثيرا من أية إمبراطورية مألوفة .

ظلت هذه الإمبراطورية الرومانية بضعة قرون دون أن تتردى في مهالوى السوابق والتقاليد الجامدة ، التى سرعان ما ابتلعت فى جوفها الإمبراطوريات الفارسية والإغريقية ، وإنما كانت فى كل ذلك الزمان تواصل التطور والارتقاء . ذلك أن حكام الميديين والفرس كانوا يصطبغون تماما بالصباغ البابلى فى مدى جبل واحد تقريبا ، فكانوا يتقلدون تاج ملك الملوك ويتناولون معابد آلهته وكنائنها ؛ فسار الإسكندر وخلفاؤه فى نفس ذلك السهل طريق التمثل ؛ واتخذ ملوك السلوقيين نفس البلاط وطرائق الإدارة التى كانت لنبوخذ نصر وأصبح البطلة فراعنة وتمصروا تمصرا تاما . فاقصصتهم البلاد على نحو ما امتص السومريون غزاتهم الساميين .

أما الرومان فإنهم كانوا يحكون فى مدينتهم الخاصة ؛ وظلوا بضعة قرون يحافظون على القوانين التى أملتها طبيعتهم الخاصة . والشعب الوحيد الذى كان له عليهم تأثير ذهني عظيم قبل القرن الثانى أو الثالث الميلادى هو أبناء قرابتهم الإغريق الذين يشبهونهم ؛ لذا كانت الإمبراطورية الرومانية فى جوهرها محاولة أولى لحكم دولة عظيمة مترامية على أسس آرية بمحنة تقريبا . كانت حتى ذلك الأوان طرازا جديدا لا مثيل له فى التاريخ كانت جمهورية آرية مترامية الرقعة . ولم ينطبق عليها الطراز القديم القائم على قاع فرد يحكم مدينة رئيسية تمت حول معد لرب حصاد . كان للرومان — لا جرم — آلهتهم ومعابدهم ، ولكنها كانت — كآلهة الإغريق — آلهة من أشباه البشر الهلندين أو النبلاء الأقداس . وكان الرومان أيضا يسفكون الأسماء قربانا ؛ بل لقد بلغ بهم الأمر أن كانوا يقدمون البشر قربانا إذا ألمت بهم نازلة ؛ وهى أمور لطهم تصورها من أشأقتهم الإترسك السمر ، ولكن لم يحدث قط حتى يوم تجاوزت روما أوج عظمتها زمن مديد ، أن قام الكاهن أو المعبد بأى نشاط سياسى كبير فى تاريخ الرومان .

كانت الإمبراطورية الرومانية جببا ياميا جديدا لم ترسم لعموه خطبة . وتولفت الشعب الرومانى وإذا هو يعمل من غيروعى منه تقريبا فى تجربة إدارية هائلة ليس فى الإمكان أن تمت بالتجربة الناجحة . إذ إن إمبراطوريتهم ترامت إلى الاختيار التام فى النهاية . كما أنها كانت تغير شكلها وأسلوبها تغيرا هائلا من قرين إلى قرين . كان التغير الذى يحدثها فى مائة عام أعظم مما كان يحصل فى النصف أو أرض الجزيرة أو مصر فى ألف سنة . كانت دأمة التغير ، ولم تصل قط إلى الثبات على حال .

فشلت التجربة بمعنى ما كما أنها لا تزال — بمعنى جلد ناقصة غير مستكملة ، ولا تزال

أوروبا وأمريكا في يومنا هذا تحمل أثار السياسة العالمية التي واجهها الشعب الروماني لأول مرة.

ومن الخير أن يتذكر دارس التاريخ التغيرات العظيمة التي آلت ، لا بالأمور السياسية وحدها ، ولكن بالاجتماعية والأخلاقية التي استمرت طيلة فترة سيادة الرومان. وكثيراً ما ينجح بعض الناس إلى إظهار شيء من الباقية حين يزعمون أن الحكم الروماني كان شيئاً متيناً للتكوين وطيد الأركان ، وأنه كان حكماً حازماً وكاملاً ونيلاً وحامياً. هذا كتاب ما كولي للسمى « *Lays of Ancient Rome* » S. P. Q. R. (١) ، لو اطلعت عليه لوجدت فيه كآبو الأسن ، وأفراد أسرة سيون وبوليوس قيصر ودقلد يانوس وقسطنطين الأكبر ، ومواكب النصر والحطب ومباصرات المجاهدين واستشهاد المسيحيين مختلفة. بعضها بعض في صورة تمثل شيئاً سامياً وقاسياً ومهيباً.

ولابد لك من أن تحمل تلك الصورة وتحلل أجزاءها بعضها من بعض . ذلك أنها قد جمعت اعتباراً من مواضع مختلفة من عملية غير أعمق من ذلك التغير الذي يفرق بين لندن في عهد وليم الفاتح وعهدنا الراهن .

ورغبة في التيسير تقسم تاريخ روما إلى مراحل أربعة ، ابتدأت للرحلة الأولى منها بنهب القالة لروما في ( ٣٩٠ ق . م ) ، ودامت حتى نهاية الحرب البونية الأولى في ( ٢٤٠ ق . م ) . وقد يجوز لنا أن نسمي هذه للرحلة باسم « *رحلة الجمهورية للتمثلة* » (٢) . ولعلها كانت أربع مراحل التاريخ الروماني وأشدها تغيراً . ففي أثناءها كانت المنازعات الطويلة الأمد بين البطارقة ( الأشراف ) والعامّة تقترب من نهايتها ، وزال خطر الإنسك. ولم يكن هناك تفاوت عظيم في الثراء ، فلاحق فاحش ولا فقر مدقع . وكان معظم الناس يزعمون إلى الحرس على العظيمة العامة .

كانت جمهورية ، بجمهورية البور في جنوب إفريقيا قبل ١٩٠٠ ، أو كالولايات

(١) S. P. Q. R. منها مجلس شيخوخة روما وشعبها .  
(٢) التمثلة : التمثيل تحويل الشيء إلى مادة عامة كالطعام إلى الجسم . والجمهورية هنا كانت تمثل غيرها من الشعوب والدول [ المترجم ]  
( ١١ - تاريخ العالم )

الشمالية في الاتحاد الأمريكي بين ١٨٠٠ ، ١٨٥٠ م هي جمهورية فلاحين أحرار . وكانت روما في مستهل هذه المرحلة دولة صغيرة لا تكاد مساحتها تبلغ عشرين ميلا مربعا . وكانت تقاتل ذوى قرباها من الدول القوية الشكية المحيطة بها وتحاول الائتلاف وإياها دون تدميرها . وتدريب شعبي أثناء قرون الفرقة الأهلية والشجاعة على التماسك . فلن بغض المدن المنهزمة أصبحت رومانية تماما لما نصيب من التصويت في الحكومة ، وأصبح بعضها يحكم نفسه بنفسه مع السماح لأفرادها بالأعجار في روما ومصاهرة أهلها ؛ وكانت الحاميات المؤلفة من مواطنين يستمتعون بالحقوق الوطنية الكاملة تقام عند المراكز الحرة الهامة ، كما أن المستعمرات النوعة الامتيازات كانت تؤسس بين ظهراني الشعوب المحتلة حديثا . وأنشئت الطرق العظيمة . وكان صين إيطاليا السريع بالصباغ اللاتيني هو النتيجة الحتمية لمثل هذه السياسة ، وفي ( ٨٩ ق م ) أصبح سكان إيطاليا الأحرار جميعا مواطنين لمدينة روما يستمتعون بالحقوق الوطنية الكاملة . وأصبحت الإمبراطورية الرومانية بأجمعها من الناحية الرسمية مدينة بمسوة الرتبة . وفي ٢١٢ م منحت الحقوق الوطنية الكاملة لكل حرفي طول الإمبراطورية وعرضها ، أى الحق في أن يعطى صوته في اجتماع مدينة روما إن استطاع إليها وصولا .

وهذا التوسع في بسط حقوق المواطنة على اللذين سهلة الضبط وعلى أقاليم بأكملها كان الوسيلة المميزة للتوسع الروماني . وهو الذي قلب الطريقة القديمة رأسا على عقب ، طريقة الفتح وتمثل الفاتحين . وهذه الطريقة الرومانية كان الفاتح الغازي هو الذي يتمثل القهور .

ولكن حدث بعد الحرب البونية الأولى وضم صقلية ، أن نشأت ظاهرة أخرى جديدة مع استمرار عملية التمثل القديمة . ذلك أن صقلية مثلا عوملت معاملة فريسة مقهورة . فأعلنوها « منزعة » للشعب الروماني واستولت أرضها الخصبة وجهود شعبها المجهد في سبيل زيادة ثراء روما . وكان الأشراف وذوو النفوذ من العامة يحاصرون على النصيب الأعظم من تلك الثروة . وجلبت الحروب أيضا فيضا متدفقا من الأرقاء . وكان سكان الجمهورية قبل الحرب البونية الأولى يشكون في تعظم حالاتهم من مواطنين أحرار من الفلاحين . وكانت الخدمة العسكرية عملهم الذي يمتازون به ويعتبرهم المشيئة منهم . وكانت الديون تركب مزارعهم حين يخرطون في الخدمة العسكرية العامة ، فانتشر



في طوك البلاد ويهرضها نوع من الإنتاج الزراعي الكبير القائم على الرقيق ؛ فإذا عاد الجند إلى ديارهم وجدوا محاصيلهم تنافسها المحصولات التي أنتجها الرقيق بصفة والمزارع الخديعة الضخمة بأرض الوطن ، وتغيرت الأيام وبذات الجمهورية سجاياها . فلم يقتصر الأمر على أن عقيلة أصبحت في قبضة روما ، بل إن الرجل العادي أصبح في قبضة الدائن الفنى وللنافس الفنى . بذلك دخلت روما في مزاجها الثانية ، وهي جمهورية الأغنياء للفقراء .

وهل الجند الرومان للزارعون مائتي سنة يكافحون من أجل الحرية والاشتراك في حكم دولتهم ؛ بعد أن ظلوا مائة عام ينعمون بامتيازاتهم . ولكن الحرب البونية الأولى بدأت قواهم وتسلبهم كل ما كانوا يخشونه ؛

وتغيرت أيضا قيمة امتيازاتهم الانتخابية . وكانت في الجمهورية الرومانية حيثما حاكمتان . الأولى منهما والأكثر أهمية هي مجلس الشيوخ ( السناو ) . وكان هذا المجلس في الأصل هيئة من الأشراف ، ثم غدا مكونا من الرجال البارزين من جميع الطبقات ، وكان يدعوهم إلى جلساته في البداية موظفون ذوو نفوذ وسلطان ، ثم القناصل والرقباء (١) . وإذا هو أصبح كمجلس اللوردات البريطاني ، جمعة تضم كبار أصحاب الأراضي والسياسيين البارزين وكبار رجال الأعمال ومن إليهم . كان أقرب إلى مجلس اللوردات البريطاني منه إلى مجلس الشيوخ الأمريكي وظل ثلاثة قرون بعد الحروب البونية . وهو مركز الفكر الروماني السياسي وقبلة . وكانت الهيئة الثانية هي الجمعية الشعبية ، التي كان مفروضا أن تضم مواطني روما جميعا . وكان ذلك ممكنا يوم كانت روما دولة مساحتها عشرون ميلا مربعا . أما وقد بسطت حقوق روما المدنية إلى ما وراء حدودها ، فقد أصبحت هيئة عقيلة . وأخذت اجتماعاتها التي كان يعلن افتتاحها بالنفخ في الأبواق من الكايتول وأسوار المدينة ، تصبح من يوم إلى آخر اجتماعا من المأجورين السياسيين ورعا المدينة ، ومن قبل كانت الجمعية الشعبية في القرن الرابع ق . م رادعا قويا لكبح مجلس الشيوخ ، وكانت خير من يمثل مطالب الشعب وحقوقه ، ولكنها استعالت عند نهاية الحروب البونية إلى طلل دارس لاحول

(١) كان لروما رقبان مهمهما تحديد الحقوق المدنية للأفراد والحفاظ على الآداب العامة .

له لرقابة شعبية عظيمة . فلم يبق هناك أى رافع قانونى فعال يكبح تصرفات كبار الرجال .

ولم يحدث قط أن أدخلت في الجمهورية الرومانية أى شئ من قبل الحكومة التمثيلية الثابتة . ولم يفكر أحد ألبتة في انتخاب مندوبين يمثلون إرادة المواطنين . وهذه مسألة هامة جدا يلغى للباحث أن يدركها . فلم يحدث قط أن بلغت الجمعية الشعبية مستوى مجلس النواب الأمريكى أو مجلس العموم البريطانى ، كانت من الناحية النظرية هيئة للمواطنين مجتمعين ؛ ولكنها من الناحية العملية تعطلت تماما عن أن تكون شيئا يستحق الاعتبار .

ومن ثم فإن المواطن العادى في الإمبراطورية الرومانية كان في حالة يرثى لها بعد الحرب البونية الثانية ؛ كان الفقر قد حل به ، إذ ضاعت مزرعته في الغالب ، وحرمه الرقيق ثمرة الإنتاج الجزئى ، كما لم يبق في يديه أية سلطة سياسية يستطيع بها علاج الموقف ، فلم يبق أمامه من وسائل التعبير الشعبى ككشعب حرم كل صورة من صور التعبير السياسى إلا الاضطراب والمصيان . وقصة القرنين الثانى والأول قبل الميلاد من حيث السياسة الداخلية ، لا تخرج عن قصة حركات فئوية غير مجددة ، حتى أن جميع هذا الكتاب لن يسمح لنا أن نحدثك حديث أنولج كفاف ذلك العصر المظلم ، ولا حديث المحاولات التى بذلت لتفريق المزارع الكبرى ورد الأرض للمزارع الحر ، ولا حديث المقترحات التى قدمت لإقناء الديون جملة أو جزئيا ، وجاء التمرد ونشبت الحرب الأهلية وزاد من شقاوة إيطاليا أن الرقيق ثاروا في ٧٣ ق.م ثورة عظيمة بقيادة اسبارتاكوس ، وكان لثورة رقيق إيطاليا شئ من الأثر ، إذ كان فيهم كبار القاتلين في حفلات المهادين (١) . وظل اسبارتاكوس صامدا سنتين في فوهة بركان فيزوف ، الذى كان خامدا في ذلك الزمن . ثم هزم الثائرون وأحمد المصيان بقسوة جنونية . فصلب ستة آلاف من أتباع اسبارتاكوس على جانبي الطريق الآياني ، وهو الطريق العظيم الذى يمتد من روما نحو الجنوب (٧١ ق.م - ٢)

(١) المهادون (Gladiators) : الصارعون في السبد الرومان ، وكانوا يخاضون بالسلاح رجلا مثلم أو وحوشا ضارية . وهي رياضة وحشية كانت تروى الرومان . ومكان هذه الصارعة كان يسمى بالجلجلة (Arena) [الترجم]

ولم يدرك بخلد الرجل العادى قط أن يقاوم القوى التى كانت تخضعه وتخط من قدره .  
يبد أن الأغنياء الكبار الذين تطلبوا عليه كانوا حتى بعد أن أنزلوا به الهزيمة يجهزون  
قوة جديدة فى العالم الرومانى ما لبثت أن تخطت فى النهاية عليهما جميعاً : هى  
قوة الجيش .

كان جيش روما قبل الحرب البونية الثانية يتكون من جند للزارعين الأحرار  
الذين كانوا يسيرون إلى للمركة مشاة أو راكبين بحسب مرتبتهم . وكان هذا النوع  
من القوات ناقصاً جداً فى الحرب طلالاً كان ميدانها قريباً ، ولكنه ليس من نوع العيوش  
التي تذهب إلى خارج البلاد وتتصل أعباء الحملات الطويلة بصبر وجلد . وفضلاً عن  
ذلك فقد ترتب على تكاثر الرقيق ونمو رفاع للزراوع الكبرى ، أن تناقص عدد للقاعة  
من الفلاحين الأداة الأحرار ، ثم ظهر قائد شعبي هو ماريوس فكان له الفضل فى إدخال  
عامل جديد . وذلك أن شمال إفريقيا أمسى بعد أن ذهبت ربح الحضارة القرطاجية دولة  
شبه محمية ، هى مملكة نوميديا . وحدث نزاع بين السولة الرومانية وبين جوجرثاملك  
تلك السولة ، فكابدوا أهوالاً كثيرة فى التغلب عليه . حتى إذا ثار الشعب غضباً لكرامته  
اضطر أولو الأمر إلى تعيين ماريوس قسلاً عاماً للبلاد ، لينهى الحرب الثالثة . وتم  
له ذلك بجمعه الجند للأجورين وتدريبهم تدريباً شديداً .

وأحضر جوجرثا إلى روما مكبلاً بالسلاسل ( ١٠٦ ق . م ) ، فأما ماريوس فإنه  
تثبت بمنصبه كقنصل بعد أن انتهت مدته واستمسك به استمسكاً غير شرعى  
تظاهره كتابته المنشأة حديثاً ، ذلك أن روما لم تكن بها قوة تستطيع صد  
ومقاومته .

ويظهر ماريوس ابتداء الأمور الثالث فى تطور السولة الرومانية : وهى جمهورية  
القواد العسكريين ، فالآن ابتدأت مرحلة كان فيها جنود الكتائب الأجورون يقاتلون  
فى سبيل السيطرة على العالم الرومانى . وثار على ماريوس قائد أرسقراطى هو سلا ،  
الذى كان يعمل تحت إمرته بإفريقيا . وقام كل منهما بدوره يعمل السيف بشدة فى  
خصومه السياسيين ، فكان الرجال محرمون من حماية القانون ويهدمون بالألف ، كما  
تباع مزارعهم ، وبعد المناقصة السمية التى اضطرت بين هذين الرجلين وبعد الرعب  
الذى ملأ النفوس من جراء عصيان اسبارتاكوس ، جاء طور كان فيه لوكولوس

وبومبي الأكبر وكراموس وبوليوس قيصر أمراء على الصيوش ومسلطين على مقاليد الشؤون . وقد هزم اسبارتا كوس على يد كراموس . أما لوكولوس فإنه فتح آسيا الصغرى وتوغل حتى أرمينية ، ثم تقاعد متمتعا بثراء عريض في حيث أن كراموس سار قدما وغزا بلاد فارس ثم هزمه البارثيون ( الأخفانيون ) وقتلوه . وبعد منافسة طويلة انهزم بومبي أمام بوليوس قيصر ( ٤٨ ق . م ) ثم قتل بومبي تاركاً بوليوس قيصر وحده سيداً على العالم الروماني .

وشخصية بوليوس قيصر شخصية أثارت في الخيال الإنساني هزة أصاحت بكل أنساب التناسب بينها وبين قيمتها أو أبعادها الحقيقية ، فلقد أصبح رمزاً . وعندى أن أهميته تنحصر بوجه خاص في كونه التذير الذي يؤذن بالانتقال من طور المعامرين العسكريين إلى بداية المرحلة الرابعة للتوسع الروماني . وهي الإمبراطورية الأولى ، ذلك أن حدود الدولة الرومانية كانت تتقدم طوال ذلك الزمن نحو الخارج على الرغم من حدوث أعنف الاضطرابات الاقتصادية والسياسية ، وعلى الرغم من الحروب الأهلية والاضطلال الاجتماعي ؛ وما زالت تلك الحدود ترسخت نحو الخارج حتى بلغت أقصى حد لها حوالي ١٠٠ ميلادية .

أجل حدث للحدود شيء من الانكماش في أثناء فترات الشك والخوف التي رأت على البلاد في الحرب البونية ، كما كان هناك هبوط ظاهر في المهمة في اللذة التي سبقت إعادة تنظيم الجيش على يد ماريوس ، وكذلك ثورة اسبارتا كوس أمارة كاذبة بدور ثالث ، وقد شاد بوليوس قيصر صيته الطيب كقائد حربي في بلاد الغالة ، وهي تسكن الآن فرنسا وبلجيكا ، ( كانت أم القبائل التي تسكن ذلك القطر تنتمي إلى نفس الشعب الكلفي الذي كان ينتمي إليه الغالة الذين احتلوا شمال إيطاليا ربحاً من الزمن ، والذين أغاروا فيما بعد على آسيا الصغرى واستقروا فيها تحت اسم الغلاطين ) . صد قيصر عن بلاد الغالة غارة قام بها البرمان ، ثم ضم القطر كله إلى الإمبراطورية ، كما أنه عبر مضيق دوفر إلى بريطانيا مرتين ( ٥٥ و ٤٤ ق . م ) ، غير أن فتحة لتلك البلاد لم يدم طويلاً ، وفي نفس الوقت كان بومبي الأكبر يحكم الروابط بين أجزاء الفتوحات الرومانية التي بلغت في الشرق بحر قزوين .

وفي ذلك الوقت أي منتصف القرن الأول ق . م ، كان مجلس الشيوخ غاروقاني

لا يزال هو المركز الأسمى للحكومة الرومانية ، وهو الذى يبين القناصل وغيرهم من الموظفين ، ويمنح السلطات وما شاكل ذلك . وكانت طائفة من رجال السياسة يبرز فيها اسم شيشرون ، تكافح من أجل صيانة التقاليد العظيمة لروما الجمهورية وللاحتفاظ لها بالاحترام وهبة القوانين . بيد أن بواحث اللواطنة وروحها كانت قد ولت من إيطاليا منذ ضيع الفلاحون الأحرار وتفرقوا بددا ؛ فقد استعالت البلاد الآن إلى أرض رقيق ورجال عضهم الفقر بنابه حرموا نعمة الفهم والرغبة فى الحرية ، ولم يكن ثمة شيء يناهض هؤلاء الزعماء الجمهوريين بمجلس الشيوخ ، بينما كانت الكتائب تمسك من وراء القامرين الكبار الذين كان المجلس يختص بأسمهم ويخضعهم ، وكان كراسوس وبومبي وقيصير يتقاسمون فيما بينهم حكم الإمبراطورية متخطين السناتو فى ذلك ( وهم الحكومة الثلاثية الأولى ) وعندما قتل الأخفانيون كراسوس بيد ذلك بمنطقة كراهى النائية ، ذب الحلاف بين بومبي وقيصير ، فانتصر بومبي للبادئ الجمهورية ، وصدرت القوانين بمحاكمة قيصير على ما ارتكب من خرق لقانون ، وعلى عدم إطاعته لمراسم مجلس الشيوخ .

ولم يكن القانون يبيع لأى قائد أن يتجاوز بحنده دائرة حدود قيادته ، وكان الحد الفاصل بين منطقة قيادة قيصير وبين إيطاليا هو نهر الرويسكون [ بإقليم توسكانى ] . وفى ٤٩ ق م عبر قيصير نهر الرويسكون قائلا : « الآن رميت القداح وسبق السيف العذل » ثم زحف بجيشه على بومبي وروما .

وقد جرت عادة روما فى الماضى ، أن تنتخب فى الفترات العسكرية العصبة « دكتاتورا » له سلطات غير محدودة تقريبا ليتولى الحكم فيها فى أثناء الأزمة . وبعد أن قضى قيصير على بومبي عين دكتاتورا لمدة عشر سنوات أولا ثم مدى الحياة فى ( ٥٥ ق م ) . والواقع أنه جعل عاجلا للإمبراطورية مدى الحياة ، ثم دارت الأحاديث فى شأن الملكية وللوك ، وهى كلمة بنضت إلى الرومان منذ طرد الإترسك قبل ذلك بخمسة قرون . ورفض قيصير أن يكون ملكا ، بيد أنه اتحد الرش والصولجان .

وكان قيصير قد واصل زحفه إلى مصر بعد هزيمة بومبي ، وأخذ بطارح كليوباترة

الغرام ، وهي آخر البطالة ، وملسكة بصر الربة ، ويلوح أنها لعبت برأسه تماما ، وعاد  
قيصر إلى روما حاملا معه فكرة « الملك للؤلؤ » المصرية . وشاهد ذلك أن تمثاله أقيم  
في أحد المعابد وعليه عبارة نصها : « إلى الإله الذي لا يقهر » . وآخر مرة اندلع من  
الروح الجمهورية المحتضرة روما لهيب احتجاج أخير ، وطن من قيصر بالخناجر حتى قضى  
نحبه في مجلس الشيوخ تحت أقدام تمثال منافسه للصروح يومئذ الكبير .

انقضت ثلاث عشرة سنة أخرى استمر فيها هذا الصراع بين الشخصيات الطامحة .  
وظهرت هيئة ثلاثية أخرى مكونة من لبيدوس ومارك أنطوني وأوكتافيوس قيصر ،  
وهو ابن أخى يوليوس قيصر . وأخذ أوكتافيوس كعنه الولايات التريية الأعد ققرأ  
والأقوى شكيمة . والتي كانت تجد منها أحسن الكتاب ، وتعلن في ٣١ ق ٢٠ من  
هزيمة مارك أنطوني منافسه الخطر الوحيد في معركة أكتيوم البحرية ، وبذلك جعل  
من نفسه السيد الأوحده للعالم الرومانى .

على أن أوكتافيوس كان رجلا من طينة أخرى مخالفة تماما ليوليوس قيصر . فلم  
يغامره أى حنين طائش لأن يصبح إلها أو ملكا . ولم تكن له ملكة معشوقة يريد  
أن يهرها بضائه . فأعاد الحرية لمجلس الشيوخ ولشعب روما ، وأبى أن يصبح  
دكتاتورا . وغاب الشكر على السنان فأسلم إليه مقابل ذلك جوهر السلطان بدلا من  
سورته الشكلية . أجل لم يلقبه حقا بالملك ، بل أطلق عليه لقب « الأمير » ولتنته  
بـ « أوغسطس » . ثم أصبح لقبه بعد ذلك أوغسطس قيصر أول أباطرة الرومان  
( ٢٧ ق ٢ إلى ١٤ م ) .

وخلفه تيربوس قيصر ( ١٤ م - ٣٧ م ) ، وأعقب هذا آخرون ، ثم كاليغولا  
وكلوديوس وتيرون ، وهكذا حتى جاء تراچان ( ٩٨ م ) ، وهادريان ( ١١٧ م ) ،  
وأنطونيوس يوس ( ١٣٨ م ) وماركوس أوريليوس ( ١٦١ - ١٨٠ م ) ، ومجى  
أباطرة كتاب ، فالجند هم الذين نصبهم ، والجند هم الذين قضوا على بعضهم ، وأخذت  
سلطة مجلس الشيوخ تقلص شيئا فشيئا وتبوازى من التنازع الرومانى ، بينما جعل  
الإمبراطور وموظفوه الإداريون يحلون محله .

عند ذلك كانت حدود الإمبراطورية قد زامت بمحيط الخارج إلى أقصى حد لها ،

فضم الشطر الأكبر من بريطانيا إلى الإمبراطورية ، ثم ضمت ترسلانيا بوصفها مقاطعة جديدة أسميت « داكيا » وعبر تراجان نهر الفرات .

ومن عجب أن هادريان ساورته فكرة تذكرنا على الفور بما حدث في الطرف الآخر للعالم القديم . فإنه — شأن شئ هو أن يجى — شيد الأسوار ليصد برايرة الشمال ؛ ففى أحدها عبر بريطانيا من الميمن إلى اليسار ، ومد الخواجز الدفاعية بين نهري الرين والدانوب ، وتخلّى عن بعض ما استولى عليه تراجان .

فلئن توسّع الإمبراطورية الرومانية بلغ أقصى مداه .

## الفصل الرابع والثلاثون

### بين روما والصين

يؤذن القرنان الثاني والأول قبل الميلاد بظهور مرحلة جديدة في تاريخ البشرية . فلم تعد أرض الجزيرة ولا البحر للتوسط الشرق مركز الاهتمام . أجل لم تزل كل من أرض الجزيرة ومصر على سابق خصوبتها وازدهارها بالسكان ورغدها المتوسط ، بيد أنهما لم تعودا جد الإقليمين للتسلطين على العالم . إذ إن القوة انتقلت غربا وشرقا ، وآلت سيادة العالم آنذاك إلى إمبراطوريتين عظيمتين : تلك الإمبراطورية الرومانية الجديدة ، وإمبراطورية الصين الحديثة الهووس والبعث .

ومدت روما سلطانها إلى نهر الفرات ، غير أنها لم تستطع ألبتة تجاوز ذلك الحد لفرط بعده عنها . ومن وراء الفرات انتقلت ممتلكات السلوقيين السابقة بالهند وفارس إلى يد عدد من سادة جدد .

أما الصين - التي كانت آنذاك تحت حكم أسرة « هان » التي خلقت أسرة « تسن » عند وفاة شي هوانجي - فإن سلطانها انبسط آنذاك إلى التركستان الغربية عبر بلاد التبت وفوق عمرات هضبة البامير الجبلية العالية ، ولكنها بلغت هناك أيضاً حدها الأقصى ، أما ما وراء ذلك فكان سحيق البعد .

وكانت الصين في ذلك الزمان أعظم نظام سياسي في العالم وأحسنه تنظيماً وأكثره تمدناً . كانت من حيث الاتساع وعدد السكان تفوق الإمبراطورية الرومانية وهي في أوج مجدها . من هنا يتبين إذن أن هاتين الدولتين العظيمتين قد أمكن أن تزدهرا في عالم واحد ووقت واحد دون أن تعلم إحداها بوجود الأخرى . ذلك أن وسائل المواصلات في كل من البر والبحر لم تكن قد بلغت بعد من التطور والتنظيم الدرجة الكافية بالاحتكاك المباشر بينهما .

على أن التعامل ثم بينهما مع ذلك بطريقة عجيبة جدا ، وكان تأثيرهما عموماً شديداً



في معبر الأقاليم التي تقع بينهما وهي آسيا الوسطى والهند ؛ إذ إن قناريسه من التجارة كان يترقب في تلك الأقاليم على ظهور الجبال بطريق القوافل عبر بلاد فارس مثلا ، وبالسفن الساحلية بطريق الهند والبحر الأحمر .

وفي ٦٦ ق . م زحفت الجنود الرومانية بقيادة بومبي مقتية خطى الاسكندر الأكبر على الشواطئ الشرقية لبحر قزوين . وفي ١٠٢ م وصلت إلى بحر قزوين حملة عسكرية بقيادة بان تشاو ، وأرسلت معوثها ليقدموا لها التقارير عن قوة دولة الرومان . ولكن قدر أن تمرقرون أخرى كثيرة قبل أن تنهيا للعلوم المحددة والعلاقات للبشارة أن تربط العالمين العظيمين للتوازيين ، عالمي أوروبا وآسيا الشرقية .

وإلى الشمال من هاتين الإمبراطوريتين العظيمتين كانت تتبسط البراري المهيبة الممتدة . فكانت منطقة ألمانيا الحالية إقليما تكسو الغابات معظمه ، على حين كانت الغابات تتوغل قدما في صميم روسيا . ليستوطنها الثور الجبار ( الأوروك ) ، الذي يجازب حبسه حجم الفيل . ثم كان يمتد بعد ذلك إلى الشمال من الكتلة الجبلية الأكتونية العظيمة شريط من الصحراوات والسهوب تسمى بعد الغابات والأراضي المتجمدة . وضع مثلث منشوريا العظيم في التبسط الواقع شرقي المرتفعات الآسيوية .

إن أجزاء كبيرة من هذه المناطق تمتد من جنوبي روسيا وتركستان حتى منشوريا كانت ولا تزال مناطق غير ثابتة الناتج إلى درجة خارقة . فقد تغيرت كمية الأمطار تغيرا كبيرا في مدى بضعة قرون . فهي بلاد غادرة نحوون الإنسان . تمر عليها سنوات متعاقبة وهي ممتلئة بالحشائش والكلاء الذي يقوت<sup>(١)</sup> السكان ، ثم تهيء فترة انخفاض في الأمطار ودورة من دورات الجفاف والقسط المهلك .

والجزء الغربي لهذه المنطقة الشمالية المهيبة المتحد من الغابات الألمانية إلى جنوب روسيا وتركستان . ومن جوتلند [ بالسويد ] إلى جبال الألب هو الأرض الألمانية للشعوب النوردية واللسان الآري . كما أن السهوب الشرقية وصحراء منغوليا هي منبتة الشعوب المونوية . أو القولية أو التارية أو التركية . ذلك أن كل هذه

---

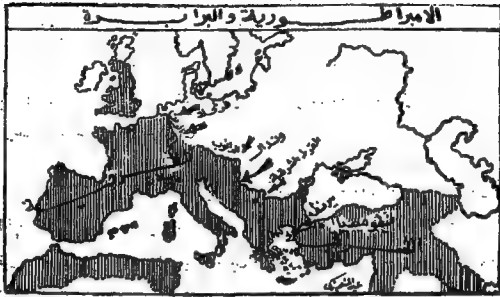
(١) يقوت السكان يترزقهم ويظلمهم القوت وسولهم من (عانت يقوت نحونا) .

الشعوب المتعددة كانت متآلفة في اللغة والمذهب وطريقة الحياة . وكان أن الشعوب التوردية كانت تغطي دائماً فيما يظهر على حدودها ، وتضغط جنوباً على الحضارات النامية بأرض الجزيرة وساحل المتوسط ، فكذلك كانت القبائل الهونية ترسل فائضها على صورة جوالين ومترجلين ومنغرين وفانحين في أقاليم الصين المأهولة بالسقترين . وكانت قترات الوفرة والخيرات بأقاليم الشمال تمنى زيادة عدد من بها من سكان ؛ ولكن إذا حدث نقص في العشب أو حلت نوبة من نوبات طاعون الماشية ، لم يكن مفر من أن يؤدي ذلك إلى دفع رجال القبائل الجياع القاتلين الأعداء نحو الجنوب .

وجاء زمان اجتمعت فيه في العالم إمبراطوريتان قويتان إلى حد ما تستطيعان صد البرابرة ، بل دفع خط السلام الإمبراطوري إلى الأمام . وظلت إمبراطورية هان تضغط من شمال الصين إلى قلب منغوليا منعطفاً قوياً لا يتقطع . وكان السكان الصينيون ينطلقون من وراء السور العظيم ، وكان الفلاح الصيني ومعه المراث والحصان يتقدم في إثر حارس الحدود الإمبراطوري ، فيحرث منابت الكلاً ويحيط المراعى الشتوية بالسياجات . وكانت الشعوب الهونية تغير على السقترين وتقتلهم ، بيد أن حملات الصينيين التأديبية كانت لهم بالمرصاد .

ولم يكن للرحل يد من الاختيار بين أحد أمرين ، فلما الاستقرار في حياة الزراعة ودفع الضرائب للحكومة الصينية ، وإنما الرحيل طلباً لمراع صيفية جديدة . وسلك بعضهم الطريق الأول فابتلته بلاد الصين ، وانتقل بعضهم نحو الشمال الشرقى أو نحو الشرق من فوق المرات الجبلية وانحدروا إلى التركستان الغربية .

وهذا الانتقال غرباً للحياة المتولين بدأ يحدث منذ ٢٠٠ ق . م ؛ وكما حدث ، دفعت القبائل الآرية نحو الغرب ، فيضطط هؤلاء بدورهم على الحدود الرومانية التي هم على استعداد لاختراقها بمجرد ظهور أى عارض من عوارض الضعف . وجاء الأشقانيون ( البارثيون ) ، وهم فيما يظهر شعب أشقوزى تحالطه بعض شوائب مغولية ) ونزلوا أرض القرات عند القرن الأول قبل الميلاد ، قاتلوا يومى الكبير في غارته على بلاد الشرق وهزموا كراسوس وقتلوه ، وأتزلوا ملوك السلوقيين عن عرش فارس ،



خريطة رقم (٧)

وتبدلوا بهم ملوكا من الأهقانيين ، هي الأسرة الأرشكية<sup>(١)</sup> .

ولكن جاء زمان كانت فيه أضيق مناطق المقاومة للرجل الجائع لانتشر في الغرب ولا في الشرق ، بل تسير في آسيا الوسطى ، ثم تتعرف جنوباً بشرق طابرة بحر خير إلى بلاد الهند . فالهند هي القطر الذي تطلق حركة الانتقال للقوية إبان هذه القرون التي قويت فيها شوكة الصينيين والرومان . واتت موجات متكررة من الفايين والغيرين خلال إقليم البنجاب حتى وصلت إلى السهول العظيمة تعمل فيها نهباً وبحزياً ، كتمزقت إمبراطورية أسوكا وأخذ تاريخ الهند حيتاً من الدهر إلى غياهب الظلمات ..

(١) الأسرة الأرشكية : أسرة بارثية ملكية . مؤسسها أرشك الذي اعظم ملكته من دولة البلوقين في ٢٥٠ ق م ، وامتدت حتى قضى عليها في ٢٢٦ ميلادية إردشير مؤسس الدولة الساسانية .

[للقديم]

وجاءت فترة حكمت فيها بشمال الهند بأسطة عليها شيئاً من النظام أسرة كوشانية  
بجانبها أسستها قبائل « الهندواشوقديين » Scythians — Inbo وهم جيل من الشعوب  
التيهية . وتواصلت هذه الفزوات بضعة قرون . ونكبت الهند دهرًا طويلاً من القرن  
الخامس الميلادي بالإفثاليين أو الهون اليفس ، الذين كانوا يجبون الجزية من الأمراء  
الصغار ، ويقتسمون الرعب في أرجاء البلاد . وكما أقبل الصيف رحل هؤلاء الإفثاليون  
إلى التركستان الغربية ليرعوا ماغيتهم ، فإذا جاء الحريف عادوا بطريق المرات وقذفوا  
الرعب في قلوب السكان الوداعين .

وحلت بالإمبراطوريتين الرومانية والصينية في القرن الميلادي الثاني شبكة عظيمة ،  
لعلها أضعت مقاومتها جميعاً لضغط البرابرة ، فليهما أصيبتا بوباء . وبيل لا نظير له .  
ظل ذلك الوباء يتفشى بشدة في بلاد الصين أحد عشر عاماً ، حتى أفسد النظام الاجتماعي  
أشد الفساد فسقطت أسرة هان ، وابتدأ عصر جديد من عبور الانقسام والفتنة ،  
لم تستطع الصين أن تفيق منه تماماً إلا في القرن السابع الميلادي عند ظهور أسرة  
تأنج العظيمة

واعتمدت العدوى خلال آسيا إلى أوروبا وأخذ الوباء ينتشر في أرجاء الإمبراطورية  
من ١٦٤ إلى ١٨٠ م . وواضح أنه هز كيانها إلى حد خطير جداً . فلما سمع به ذلك  
من قس السكان بالولايات الرومانية ، كما نشهد انحلالاً ملحوظاً في قوة الحكومة  
وكفائتها . ومهما يكن الأمر فلما تعلم القور أن التخم لم تعد منيعة لا يمكن اختراقها  
وتجديها تتداعى في هذا المكان أولاً ، وفي ذلك ثانياً .

روحه شب نوردي جديد هو القوط جاء أصلاً من جوفلندة ببلاد السويد . ثم  
هاجر عبر روسيا إلى منطقة القولجا وشواطئ البحر الأسود حيث جنح إلى البحر  
وإلى أعمال القرمصة . ولطهم شرعوا عند نهاية القرن الثاني عشر من ضغط هجوم  
الهون غرباً عليهم . وفي ٨٤٧ م . قاموا بخارة يرية عظيمة فعبروا نهر الطرنة ( الدانوب )  
وهزموا الإمبراطور ديكوس . وقتلوه في معركة دارت رخاها فيما يسمى الآن ببلاد  
المغرب . وفي ٣٣٦ م . اخترق الحدود عند نهر الرين الأدنى هب جرمانى آخر هو

الفرنجية ، كما انهال الألمانى على إقليم الأناضول . وتمكنت الكتائب العسكرية ببلاد الغال من صد اللغزيرين عليها ؛ ولكن القوط النازلين بشبه جزيرة البلقان أعادوا الإغارة هناك مرة بعد أخرى . فاخترق مقاطعة داكيا من التاريخ الرومانى .

لقد دبت برودة الموت فى كبرياء روما وثقتها بنفسها . وفى ٢٧٠ - ٢٧٥ م حصن الإمبراطور أوريليان روما بعد أن ظلت ثلاثة قرون مدينة آمنة مفتوحة .

## الفصل الخامس والاربعون

### حياة الرجل العادى

#### فى عهد الإمبراطورية الرومانية القديمة

قبل أن نحدثك كيف وقعت هذه الإمبراطورية الرومانية فى مهاوى القوضى وتمزقت إرباً بعد أن تكونت فى القرنين السابقين لليلاد ، وازدهرت فى مجبوحة السلام والطمأنينة منذ أيام أوغسطس قيصر مدة قرنين آخرين — يجدر بنا أيضاً أن نوجه بعض عنايتنا إلى حياة الناس العاديين أعنى العامة فى أثناء عصر هذه الدولة العظيمة . لقد وصلنا فى تأريخنا الآن إلى حوالى ألف سنة من زماننا هذا ، كما أن حياة الناس للتضجرين الذين كانوا يعيشون فى ظل من « سلام » روما و « سلام » أسرة هان ، قد أخذت تقرب رويداً رويداً من حياة خلفائهم للتضجرين فى يومنا هذا .

وكان استخدام النقود الصكوكه شائعاً آنذاك فى العالم الغربى ، وأصبح لكثير من الناس خارج عالم الكهانة موارد مستقلة دون أن يكونوا من موظفى الدولة ولا من الكهان ، وبات الناس يعيشون فى مناكب الأرض بحرية لم تلسن لهم من قبل أبداً ، وأنشئت الطرق العامة وشيدت الفنادق لزولهم ؛ فلو قارنت حياتهم بما كانت عليه فى الماضى أى قبل ٥٠٠ ق . م ، لوجدتها أكثر رخاء ويسراً . وقبل ذلك التاريخ كان للتضجرون مقدين بناحية أو إقليم ، مقدين بالتقاليد ، يعيشون فى حدود أفق ضيق جداً ، ولم يكن أحد يستطيع الانحجار أو السفر إلا الشعوب الرجل .

يبد أنه لا « السلام » الرومانى ولا « السلام » الصينى لدى أسرة هان كان يضى أن الحضارة انتشرت انتشاراً منتظماً فى الأقاليم الضخمة الواضة تحت سيطرتهما . فالقوارق الحلية عظيمة جداً بين إقليم وآخر ، كما أن التناقضات وعدم المساواة فى الثقافة عظيمة أيضاً بين ناحية وأخرى ، كما هو الحال اليوم فى ظلال « السلام » البريطانى بالهند ، وكانت الحاميات وللمستعمرات الرومانية تنتثر هنا وهناك فى أرجاء تلك للساحة العظيمة ، وهى تعبد آلهة الرومان وتسكلم بلغتهم ؛ فإن كانت هناك مدن

أو بلدان قبل مجيء الرومان تركت لها إدارة شئونها عندئذ وإن أخضعت ، وسمح لها فترة على الأقل بعبادة آلهتها بطريقتها الخاصة . ولم تنتشر اللغة اللاتينية ألبتة في بلاد الإغريق وآسيا الصغرى ومصر والشرق للهلن<sup>(١)</sup> عامة مذ كانت الإغريقية هي السائدة هناك ولا سبيل إلى قهرها . وكان شاؤول الطرسوسى الذى أصبح بولس الرسول ، يهوديا ومواطناً رومانياً ، غير أنه كان يتحدث بالإغريقية ويكتب بها دون العبرانية . بل لقد بلغ الأمر أن اليونانية كانت لغة الطبقة الراقية في بلاط يقع خارج الدولة الرومانية تماماً ، هو بلاط الأسرة الأخقانية التى خلعت السلوقيين الإغريق عن عرش فارس . وكذلك صمدت أيضاً اللغة القرطاجية في بعض أقطار إسبانيا وشمال إفريقية زمناً طويلاً ، على الرغم من تدمير قرطاجنة . فإن مدينة كايثيلية ، ذلك البلد الذى أوتى النفى والرحاء قبل أن يسمع الناس باسم الرومان زمن بعيد ، ظلت تحافظ على معبودتها الربية السامية وتتطرق بلسانها السامى مدة أجيال عديدة على الرغم من وجود مستعمرة من عنصرك جند الرومان بإقليم إيتاليكا على بضعة أميال منها . وهناك الإمبراطور سبتيموس سيفيروس ( تولى العرش من ١٩٣ - ٢١١ ) الذى كانت القرطاجية لغته القومية . ثم تعلم اللاتينية فيها بعد كلفة أجنبية ، ويسجل التاريخ أن أخته لم تعلم اللاتينية قط ، وأنها كانت تتفاهم في دارها بروما باللغة الفييقية .

أما للناطق الذى لم تكن بها من قبل مدن كبرى ، ولا معابد ، ولا ثقافات ، كبلاط الغالة وبريطانيا وولايات داسكيا ( وهى الآن رومانيا على وجه التقريب ) وبانونيا ( وهى الآن بلاد المجر جنوبى الدانوب ) ، فإن الإمبراطورية استطاعت على كل حال أن تصبغها بالصباغ اللاتينى . وهى التى مدنت هذه الأقطار لأول مرة ، وأنشأت مدناً كانت اللاتينية فيها هى اللسان التالى منذ البداية ، وكانت آلهة الرومان تبتد فيها ، كما يتبع بها عرف الرومان وعاداتهم . وما اللغات الرومانية والإيطالية والفرنسية والإسبانية - وكلها مشتقة من اللاتينية - إلا تذكيرة لنا بهذا الامتداد لسان والعرف اللاتينى ، وأصبح شمال غربى إفريقية فى النهاية ناطقا باللاتينية إلى حد كبير .

(١) للهلن : Hellenized : للتبوع بالطابع الهلنى . [ الترجمة ]  
( ١٢ - تاريخ العالم )

أما مصر وبلاد الإغريق وسائر أجزاء الإمبراطورية الواقعة شرقاً فلم تصطبغ قط بالصباغ اللاتينى ، بل ظلت مصرية وإغريقية روحاً وثقافة . وبلغ الأمر بالبونية أن انتشرت بروما نفسها ، فتملأها المتعلمون بوصفها لغة علوم ، كما أن أدب اليونان وعلمهم كانا يفضلان على اللاتينى فى أرجح الاحتمالات .

وكان من الطبيعى فى مثل هذه الإمبراطورية المختلفة أن تكون طرائق أداء الأعمال والأشغال فيها جد مختلطة أيضاً ، كما أن الزراعة كانت إلى حد كبير رأس صناعات العالم للسفر . وقد أسلفنا لك كيف حلت المزارع الكبيرة والعمال الأرقاء محل للمزارعين الأثداء الأحرار الذين كانوا هم العمود الفقرى للجمهورية الرومانية القديمة . أما العالم اليونانى فكانت أساليب الزراعة فيه متنوعة جداً ، منها الطريقة الأركادية ، التى كان كل مواطن حر يكده بمقتضاها يديه ، ومنها خطة لإسبرطة ، التى كان من المهانة فيها أن يعمل المرء يديه ، والتى كان العمل الزراعى فيها تقوم به طبقة خاصة من رقيق الأرض هم الهيلوطيين ( Helots ) . يد أن هذه الأمور كانت قد أصبحت فى تلك الأيام نفسها قطعة من التاريخ العتيق ، فإن طريقة المزارع الكبيرة و فرق الأرقاء كانت قد انتشرت فى معظم أرجاء العالم الهلنى . كما أن الأرقاء الزراعيين كانوا أسرى يسلمون لغات مختلفة كثيرة ، ولا يستطيعون لذلك أن يفهم بعضهم بعضاً ، أو كانوا عبيداً بملهم ، لم يكن بينهم تضامن لمقاومة الاضطهاد ، ولا تقاليد لحقوق يتناقلونها ولا معرفة يبدونها ، ذلك أنهم كانوا أميين لا يعرفون القراءة والكتابة . ومع أنهم صاروا على مدى الأيام الأغلبية بين سكان البلاد ، فإنهم لم يقوموا أبنة بمحركة ثورية ناجحة . أما ثورة إسبارتا كوس التى اندلعت فى القرن الأول ق.م ، فهى ثورة للأرقاء المحسوسين الذين كانوا يدرّبون لحصارات المجالدين . وكان عمل الزراعة بإيطاليا فى أواخر أيام الجمهورية وأوائل عهد الإمبراطورية يلاقون شر الإهانات ، فيربطون بالسلاسل ليلا تنهم من الحرب أو تخلف نصف رءوسهم ليصعب الفرار عليهم ، ولم تكن لهم زوجات ، ومن حق سادتهم انتهاك حرمتهم والتسكيل بهم أو قتلهم . وكان فى إمكان السيد أن يبيع عبده ليقا تل الوحوش فى الجبل ، فإذا قتل عبده سيده ، صلب القاتل وجميع من فى الدار من عبيد . نعم إن بعض أرجاء بلاد الإغريق وبخاصة أثينا ، لم يكن حظ الرقيق فيها رهياً إلى هذه الدرجة تماماً ، يد أنه كان مع ذلك حظاً بيضاً إلى نفوسهم . ولذا فالعبيرون والهمج الذين أخذوا يحترقون



خط دفاع الكتاب ، لا يعدون في نظر مثل هؤلاء السكان أعداء بل محررين ومتقدين .

وقد انتشر نظام الرقيق في معظم الصناعات وفي كل نوع من أنواع العمل تستطيع الجماعات عمله . فالعمل بالتناجم وصناعات المعادن والتجديف في السفن ووصف الطرق وعمليات البناء الكبرى تتم في الأغلب على يد الأرقاء . كما أن الرقيق كان يقوم بكل الأعمال المنزلية تقريباً . كان هناك رجال أحرار قراء ، ورجال عتقاء يعملون في المدن وللناطق الريعية ، إما لحساب أنفسهم وإما مقابل أجر يتناولونه ، ومنهم الصانع للناهر وللشرف على العمال وما شاكل ذلك ، وهم عمال من طبقة جديدة تتلقى الأجور نقدًا وتتافس العمال الأرقاء ؛ على أننا نجعل مدى النسبة بينهم وبين عدد السكان عامة . ولعلها كانت تتباين تبايناً بسيطاً باختلاف الأماكن والأزمان . وأدخلت على نظام الرق تعديلات جمة ، فها هنا عبد يقيد بالأغلال ليلاً ثم يدفع بالسياط إلى اللزعة أو المسجر نهاراً ، وهناك العبد الذي وجد سيده أن من المصلحة أن يتركه يزرع قطعة أرضه الصغيرة ، أو يعمل في صنعة ويستمتع بملكية زوجته كالرجل الحر ، على شريطة أن يدفع لسيده مبلغاً معيناً ثمناً لحريته .

كان هناك عبيد مدربون على حمل السلاح . وقد ابتعثت في روما قبيل بداية الحروب البونية في ٢٦٣ ق . م الرياضة الإترسكية ، التي كان العبد الرقيق يضطر فيها إلى القتال لينقذ حياته . وسرعان ما تقيت تلك اللعبة رواجاً كبيراً ، وما لبث كل عظيم من أغنياء الرومان أن احتفظ لنفسه بجماهير من المقاتلين ، الذين كانوا يقاتلون أحياناً في المقتد ، والذين كان معلمهم الحقيقي هو أن يكونوا حرسه الخاص من ( البلطجية ) .

وكان هناك أيضاً عبيد علماء . ذلك أن فتوح الجمهورية المتأخرة شملت المدن الرائقة التمدن ببلاد الإفرقي وشمال إفريقية وآسيا الصغرى ؛ فأمدتها بكثير من الأسرى الواسعي العلم والاطلاع . حتى لقد جرت العادة أن يكون معلم أى فتى روماني من عائلة كريمة عبداً . وإن الرجل الذي يملك العبد الإفرقي ويخلفه خازناً لمكتبته ، كما يتخذ الأمناء ( السكرتيرين ) والعلماء من الأرقاء . وإياه ليحتفظ بشاعره مثلاً ليحتفظ بكلبه القادر على أداء الألاعيب اللطيفة . وفي هذا الجو من العبودية تطورت تقاليد التمدن

الأدبي والدراسات الأدبية المصرية متسمة بالتدقيق والتخوف والليل إلى الشقاء .  
وثمة أموال مبالون إلى التجارة كانوا يشترون القلام القدي ثم يملونه لكي يبيعه عندما  
يشب ، وكان العبيد يدرسون على نسخ الكتب وصياغة الجواهر وغير ذلك مما  
لا حصر له من اللهن التي تستمدى للهارية .

وقد طرأت على مركز الأرقاء تغيرات جوهرية في أثناء السنوات الأربعمئة التي امتدت  
بين أيام الفتح الأول في عهد جمهورية الأغنياء وبين أيام الانحلال التي أعقبت الوباء  
العظيم . وتكرر عند أسرى الحرب في القرن الثاني ق . م ، وأصبحت الطباع خشنة  
وحشية ؛ ولم يكن للرفيق أية حقوق ، وما من امتنان أو انتهاك يدور بخلد القاري .  
إلا كان ينزل على رأس الأرقاء في تلك الأيام . ولكن ظهر بالفصل إبان القرن  
الأول لليلادى تحسن ملحوظ في اتجاه الحضارة الرومانية إزاء الرق . ذلك أن الأسرى  
قل عددهم لسبب من الأسباب ، كما أن العبيد صاروا أغلى ثمنا . فبدأ أصحاب الأرقام  
يدركون أن الربح والراحة اللذين يحدونهما على يد عبيدهم يزيدان إذا استمتع هؤلاء  
بالاحترام الذاتي . هذا إلى أن الشعور الخلقى للمجتمع أخذ يسمو ، وأن شعورا بالعدالة  
أخذ يؤتي ثماره ؛ فإن عقلية الإغريق الراقية كانت تهذب من خشونة الرومانيين .  
وضيق الخناق على القساة ، فلم يعد يجوز للسيد أن يبيع عبده ليقاتل الوحوش ،  
ومنح العبد حقوق للملكية فيما كان يسمى باسم الملك الخاص ( Peculium ) ، وصار  
الأرقاء يتناولون أجورا تشجيعا لهم وحثا لهم على العمل ، واعترف القانون بنوع من  
الزوجة للعبيد . ومن العلوم أن كثرة كبيرة من أنواع الزراعة لا تصلح لعمل فرق  
العمال ، أولا تحتاج إليها إلا في مواسم بينها . فكان العبد في المناطق التي من هذا القبيل  
ينقلب للوقت إلى رفيق أرض Sorf<sup>(١)</sup> ، يدفع للمالك جزءا من محصوله أو يعمل  
عنده في مواسم معينة .

ومضى أيضا أن هذه الإمبراطورية الرومانية الكبرى الناطقة بالإغريقية في القرنين  
اليلاديين الأولين كانت في جوهرها دولة رقيق ، وعرفنا كم كانت الأقلية التي تسعد  
في حياتها بشيء من الحرية أو الكبرياء ضئيلة العدد ، وضعنا أصابعنا على بيت الداء في

---

(١) رفيق الأرض أو - دلى الأرض : عبد تابع لتبيل يحرث له أرضه ويبيع ويشترى مع تلك  
الأرض . [ للترجم ]

انحلالها واتهارها . فما نسميه باسم الحياة العائلية لم يكن منه لديهم إلا النزر اليسير ، أما الجيش للعدل والفسك والدراسة الناشطة فلا مكان لها إلا في بيوت قليلة ؛ وكانت للدارس والكتابات قليلة ومتباعدة . وأنى لك أن تجد الإدارة الحرة والعقل الحر فى أى مكان . أما الطرق العظيمة ، وخرائب البنايات الفخمة ، وتقاليده القانون والسلطان التى خلقتها وأثارت بها دهشة الأجيال التالية ، فيجب ألا نخفى عن أعيننا أن كل أبهتها الظاهرة أقيمت على إرادات مسلوية وذكاء مكبوت ورغبات كسيفة ومنحرفة . وحتى الأقلية التى كانت تسودها فوق خضم الاستبداد للتلاطم ، ولجات القمع والسخرة ، كانت أرواحها تتقلب على حجر القلق والتعاسة . وفى ذلك الجو القاتل اضطلع الفن والأدب والعلم والفلسفة ، التى هى ثمار العقول الحرة السعيدة .

أجل جرى الشيء الكثير من النقل والمحاكاة ، وتزايد عدد الصنائع اللينة ، وتكاثر متحذقة السيد بين صفوف رجال العلم الأذلاء ، إلا أن الإمبراطورية الرومانية جمعاء لم تلتج فى مدى أربعة قرون شيئاً يمكن موازنته بالانشاط العقلى الجرى النبيل ، الذى بذلته مدينة أثينا الصغيرة نسياً فى أثناء قرن عظمتها الوحيد ، ولم تصب أثينا فى خلال الصولجان الرومانى إلا الانحطاط والتدهور . واضطلع علم الإسكندرية بل يلوح أن روح الإنسان كانت تضمحل فى تلك الأيام .

## الفصل السادس والثلاثون

### التطورات الدينية

#### في ظلال الإمبراطورية الرومانية

أصبحت روح الإنسان في عهد تلك الإمبراطورية اللاتينية اليونانية إبان القرنين الأولين من الحقبة المسيحية بالاضطراب والهبوط ، فرانت القسوة والإكراه على كل ربوعها . كان هناك ، لاجرم ، الكبرياء والتظاهر ، ولكن ليس معها إلا القليل من الشرف ، وإلا القليل من الصفاء ، ومن السعادة الدائمة . وكان البؤساء محترقون تسخين ، بينما أولو الحظوظ غير مطمئنين ، مثلهم على إشباع الرغبات تلهف المحموم . كانت الحياة تتمركز في عدد عظيم من المدن حول اتصالات المجتد للفرجة بالدماء حيث يصطرح الرجال والوحوش ويتمذبون ويذبحون . . . وللدرجات<sup>(١)</sup> هي أبرز عناصر الخراب الرومانية . وتخفى الحياة على هذا التهيج ، والهاقي الذي يأكل قلوب الناس يتخذ صورة القلق الديني العميق .

فقد اخترقت الحدود الآرية لأول مرة حدود للدنيات الثيقة ، لم يكن مفر من أن تلم التكييفات العظيمة بالأرباب والكهانات القديمة ، أو تذهب من الوجود جملة . وقبل ذلك بمئات الأجيال ظلت الشعوب الزراعية في المدن السمرات تشكل حياتها وأفكارها وفق الحياة للتركزة حول اللعبد .

وكانت رعاية للرأسم ، والخوف من مخاللة القواعد للعبة والتقاليد والقرايين والحفايا ، تطفى على أذهانهم . وتبدو آلتهم فضيحة وغير منطقية في نظر عقولنا

---

(١) للدرج ( Amphitheatre ) : مسرح دائري في الوسط هو المحتد تحيط به المقاعد في صفوف دائرية متصاعدة يمار بعضها بعضا ، وتعرف على المجتد . [ المترجم ]

المصرية ، وذلك لأننا ننتمى إلى عالم غلب عليه الطابع الآرى ، ولكن هذه الآلهة كانت لها عند هذه الشعوب القديمة نفس الإقناع المباشر ونصاعة الإشراف التى تتجلى بها الأشياء حين ترى فى حلم أخاذ . فإذا غزت دولة مدينة دولة أخرى كسومر أو مصر القديمة ، كان معنى هذا تغير الأرباب أو الربات ، أو تغير أسمائهم على الأقل ، ولكن شكل العبادة وروحها كانا يظلان سليمين لم يمسهما سوء . فالتصير لم يكن يمس هيتها العامة من بعيد أو قريب ، فكان الصور للرئية فى الحلم كانت تتغير ، ولكن الرؤيا تظل مستمرة . ثم إن الفاتحين الساميين الأولين كانوا من وثيق للشعبية فى روحهم للسومريين بحيث اعتنقوا ديانة حضارة أرض الجزيرة التى أضنعوها ، دون أن يدخلوا على تلك الديانة أى تعديل . والواقع أنه لم يحدث أبداً أن مصر أخضعت إخضاعاً يرضها لانتقال ديني . فظلت معابدها ، وهياكلها ، وكهاناتها ، مصرية صميمية فى خلال حكم البطالمة والقيصرية على السواء .

وطالما كانت الفتوحات تحدث بين شعوب ذات عادات اجتماعية ودينية متماثلة ، كان فى الإمكان التغلب بعملية تجميع وتمثل - على ما بين رب هذا للمبد وهذا الإقليم ورب ذاك من حمارى ، فإذا تشابه الربان فى خصائصهما جملا شيا واحداً . فكان الكهان والناس يقولون إنه فى الحقيقة نفس الرب تحت اسم آخر ، وهذا للزج والصهر بين الأرباب يسمى توحيد الآلهة أو ( التيوكرازيا ) ؛ والواقع أن عصر الفتوح العظيمة فى ألف السنة السابقة للبلاد كان عصر توحيد للآلهة ، فإن الآلهة المحليين فى مناطق متراصة كان يعمل عملهم - أو بالحرى يتعلمهم - إله عام . حتى إذا تراءى الأمر بأن أعلن الأنبياء البرانيون فى بابل على الملأ أن للعالم ربا واحدا للصالح والبر ، كانت عقول الناس مهتأة تماما لتقبل تلك الفكرة .

ولكن كثيرا ما كانت شقة التباين بين الأرباب أحد تباعدا من أن تسمح بتمثل ذلك التمثل ، وعند ذلك كان القوم يجمعونها معاملة متممين لذلك أية علاقة مقبولة . ومن وسائلهم فى ذلك تزويجهم الربية الأثني رب ذكر ، ( والعالم الإيجي قبل جىء الإغريق كان مولعا بالربات والأمهات ) ، ومنها تمثيل الرب الحيوان أو الرب النجم شرا وأخذ الهيئة الحيوانية أو الظاهرة الفلكية كالتيان أو النجم حلية أو رمزها . ومنها أن رب الشعب القهوير يصح خصما شريرا يسمى لآلهة الشعب الغالب . وتاريخ اللاهوت

حافل بأمثال هذه التكييفات لوضع الأرباب المحليين والتوفيقات بينها وبين غيرها والتبذرات لها .

وقد حدث الشيء الكثير من هذا التوحيد بين الآلهة في أثناء تطور مصر وانتقالها من حالة دول المدن إلى حالة الدولة الواحدة الموحدة . وكان أعظم الآلهة بوجه الإجمال هو أوزيريس ، وهو إله حصاد قربانى كان للفروغ أن فرعون هو الصورة الأرضية التى تجسده . ويمثل أوزيريس فى صورة من يموت مراراً وتكراراً ثم يبعث حياً ؛ فساكنه لم يكن وحسب البذرة والمحصول ، بل كان يتحول أيضاً بتوسيع طبيعى للفكرة إلى وسيلة للخلود البشرى . ومن رموزه الجمل ( الجيران ) اللبد الأجنحة ، الذى يدفن يرضه ليبعث من جديد ، ومنها أيضا الشمس للتألفه التى ضرب للشرق ثانية . ثم تقمص فيها بعد شخصية أيس العجل للقدس . الذى ترتبط به الربة إيزيس . أما إيزيس فهى أيضا هاتور ، وهى بقرة ربة ، وهى الهلال ونجمة البحر . ويموت أوزيريس ، وتحمل إيزيس طفلها هورس ، الذى تتمثل أيضا صقرا محبوباً ، كما أنه هو النجر وهو الذى يكبر ليصبح أوزيريس مرة أخرى ، وصور إيزيس تمثلها وهى تحمل بين ذراعيها طفلها الرضيع هورس وقد وقفت فى وسط الهلال . هذه العلاقات ليست بطبيعية الحال منطقية . غير أن العقل البشرى استعدها قبل تطور التفكير الجدى للنظم والتماثل بينها أشبه بتماثل أجزاء الأحلام .

ومن دون هذه المجموعة الثلاثية توجد آلهة مصرية أخرى أكثر غموضا ، وهى آلهة شريرة ، منها أنوبيس الذى له رأس كلب ، والليل الأسود وما مائلهما ، وهى أرباب تلتهم وتغرى وتعادى الإنسان والرب على السواء .

وغنى عن البيان أن كل نظام دنى كان يوفق نفسه آخر الأمر طبق صورة النفس الإنسانية ، ولا شك أن الشعب المصرى استطاع أن يتخذ من هذه الرموز غير المنطقية طرائق يبعث فيها صادق عبادته ويمتس فيها الزاء والسوى . وكانت الرغبة فى الخلود قوية جداً فى العقل للمصرى ، حتى لقد جعلوها محورا لحياتهم الدينية ؛ فالديانة للمصرية ديانة خلود بصورة لم تنهأ لأية ديانة أخرى فى أى عصر من العصور . فلما خضعت مصر لفتحها الأجانب ، وولت عن الآلهة المصرية كل أهمية سياسية مرضية ، اشتد بها ذلك الحنين إلى حياة الجزاء فى الدار الآخرة .

وبعد الفتح الإغريقي ، أصبحت مدينة الإسكندرية الجديدة مركزاً لحياة مصر  
الديلية بل أصبحت في الحق مركز الحياة الديلية للعالم الهليني كافة . فأقام بطليموس  
الأول معبداً عظيماً هو معبد السرايوس ، كان يجد فيه نوع ما من ثلاث من الأرباب ،  
مكون من سيرايس وإيزيس وحورس ، والأول اسم جديد أطلق على أوزيريس  
أييس . ولم يكن الناس يدعونها أرباباً منفصلة ، بل هيئات ثلاثاً لإله واحد ؛ ثم ذهبوا  
إلى أن سيرايس هو زيوس الإغريقي ، وأنه جويتير ( أى للشترى ) الروماني وإله  
الشمس الفارسي ، وانتشرت هذه العبادة حيثما بسط النفوذ الهليني أليته ، حتى قد  
بلغ شمال الهند وغرب الصين .

ولا عجب أن تسود فكرة الخلود ، خلود الثوبة والسوى ، وأن يتلقفها بشوق  
عالم كانت فيه حياة الناس العاديين في قصص يحطم كل رجاء . وكان سيرايس يسمى  
« محلس النفوس » ، ولو تأملت ترايل ذلك الزمان لوجدتها تقول : « لن نبرح بعد  
الموت في ظلال عنايته الربانية » . أما إيزيس فكانت تجذب إليها كثيراً من الأنفس  
للمتبعة القاتنة . وتمايلها للقامة في معابدها كانت تمثلها في صورة ربة السماء وهي تحمل  
بين ذراعيها طفلها حورس . وكانت الشموع توقد أمامها ، كما كانت النذور تقدم  
إليها ، على حين أن الكهان الحليقيين الناذرين أنفسهم للعبادة كانوا يقومون على  
خدمة هيكلها .

أفضى قيام الإمبراطورية الرومانية إلى فتح أبواب عالم أوربا الغربية لهذه العقيدة  
النامية . ومن ثم ترجمت معابد سيرايس وإيزيس ، وترايل الكهان والأمل في حياة  
الخلود خطى الأعلام الرومانية إلى اسكتلندة وهولندة . على أن منافسى ديانة سيرايس  
إيزيس كانوا كثيرين . ومن أبرز هؤلاء المنافسين الديانة للثرائية . وهي ديانة ذات  
أرومة فارسية ، وتتمركز حول خفايا نسيت اليوم ، مدارها مراً وهو يضحي بسجل  
مقدس عجب للخير ، وكأني هنا أرى شيئاً بدايلاً جداً وأقدم كثيراً من معتقدات سيرايس  
إيزيس للغة المصطنعة . فحسن هنا نكر راجعين مباشرة إلى عهد القرايين الدموية  
لمرحلة العصر الشمسي البحري من الثقافة البشرية . والسجل المرسوم على الآثار  
الثرائية ينفذ دائماً بجزارة من جرح في جنبه ، ومن هذا المم تتبع الحياة الجديدة .  
وكان من يتقطع لقبدة مراً يستعم فلما في دم السجل الضحية . فإذا حل يوم انحراطه  
في العهد دخل تحت سقالة يذبح عليها عجل ليسيل عليه الدم فلما .

وكل من هاتين المقيدين ديانة شخصية : وهو قول يصدق على كثير من العقائد العبدية المتأصلة التي كانت تشد ولاء الأرقاء والمواطنين في عهد أباطرة الرومان الأول. وهي شخصية ، لأنها تهدف إلى الخلاص الشخصي والخلود الشخصي. ولم تكن الديانات القديمة شخصية على مثل هذا النحو ، بل كانت اجتماعية . والأصل في الطراز القديم للعبود أن يكون ربا أو ربة للمدينة أو للدولة أولا ، ولم يكن إلهاً للفرد إلا في المحل الثاني . وكان تقديم القرابين وظيفه عامة لا خاصة . ذلك أنها تتصل بالعاجات العملية للجماعة في هذا العالم الذي نعيش فيه . ولكن الإغريق ومن ورأهم الرومان قد أبعدوا الديانة عن مجال السياسة . فالديانة قد انسحبت إلى العالم الآخر تقودها التقاليد المصرية .

واستطاعت ديانات الخلود الفردي هذه أن تسلب من الديانات القديمة التابعة للدولة كل ما تحتويه من عزم وعاطفة ، بيد أنها لم تحل محلها فعلا . والمدينة النموذجية في عهد أباطرة الرومان الأول هي التي كانت تحوى عدداً من المعابد المشيدة لعبادة جميع أنواع الآلهة . فربما وجدت بها معبداً لجوبيتر [ المشتري ] الكايتيتولى رب روما العظيم ، وربما وجدت هناك أيضاً معبداً آخر للقيصر المتربع على العرش .

ذلك أن القياصرة تعلموا من الفراعنة أن الألوهية شيء ممكن . وكانت تقام في مثل هذه المعابد عبادات ذات طابع سياسى غفمة المظهر ولكن لأرواح فيها ، وهناك كان الناس يدلفون ليقدموا الدبايح ، ويحرقون شيئا من البخور ليظهروا ولاءهم لقيصر ، ولكن معبد إيزيس ملكة السماء العزيزة ، هو الذى تهو إليه القلوب ، وتسعى أقدام كل فرد مقمق الفؤاد بالتناصب ، يلبس النصيحة وتقريج الكرب ، وربما وجدت آلهة محلية ذات طابع شاذة . فقد ظلت مدينة إشييلية زمناً مديداً تعبد «الرهرة» ربة القرطاجيين القديمة . وربما وجدت في هذا الكهف أو المعبد المقام تحت الأرض هيكلا لثرا ، يقوم على خدمته الجند والأرقاء . وربما وجدت أيضاً يعة يجتمع فيها اليهود ليقروا توراتهم وليشدوا من اعتقادهم في الرب غير المنظور لهذا العالم بأجمعه . وقد يحدث الخلاف أحيانا مع اليهود من جراء الجانب السياسى من عقيدة الدولة . ذلك أنهم كانوا يستقنون أن ربهم رب غيور لا يسمح بعبادة الأوثان . ولأنهم ليأبون أن يشتركوا في القرابين العامة التي تقدم لقيصر . ولأنهم ليرفضون حتى أن يحيموا الأعلام الرومانية خشية أن ينطوى ذلك على عبادة الأوثان .



وهناك في بلاد الشرق كان الزهاد موجودين قبل عهد بوذا بزمن مديد ، وهم رجال . ونساء انصرفوا عن معظم ملذات الحياة ونبذوا الزواجر واللذات ، واتمسوا القوة الروحية والفرار من ويلات الدنيا وهمومها بالتقشف والألم والوحدة . ولعلكم تذكرون أن بوذا نفسه قد اعترض على الإسراف في الزهادة ، ولكن ذلك لم يمنع كثيراً من تلاميذه من أن يعيشوا عيش رهبنة محض في الشظف . وثمة العقائد الإغريقية الحفية التي كانت لها أنظمة شبيهة بهذه ربما غلت إلى حد التشكيل بالنس . وظهر الزهد بين المجتمعات اليهودية في يهوذا والإسكندرية في القرن الأول ق . م ، أيضاً ؛ فكانت جماعات من الناس تتخلى عن العالم وتستسلم لفتنشات والتأملات الصوفية . ومن هؤلاء طائفة الإسيين<sup>(١)</sup> . وانصرم القرنان الأول والثاني لليلديان والعالم كله غارق أوبكاذ في نزوعه إلى مثل هذا التبرؤ من الحياة ، محض في نشدانه العام « للخلاص » من عن الزمان . فلقد ولى من الدنيا الشعور القديم باستقرار النظم ، وولت معه الثقة القديمة في القسيس والمبهد والقانون والعرف .

وفي هذا الجو الذي يعمه الرق والقساوة والخوف والقلق والتبديد والتظاهر بالمظاهر والتهاوت على إشباع اللذات ، كان ينتشر في الناس هذا الوباء ، وباء الاشمئزاز الدائى وعدم الاطمئنان العقلى ، وكان يتفشى فيهم هذا الالتماس الأليم للسلام وإن فالوه . مقابل التخلي عن الدنيا وللكابسة الإرادية للآلام . تلك هى الحال التي طالما ملأت السرايوم بالنادمين والباكين واجتلبت للؤمنين إلى ظلمة الكهف ودمائه الدافقة .

---

(١) الإسيينيون ( Essenes ) هيئة من الزهاد اليهود فلسطين قبل ظهور المسيحية ، نظموا حياتهم على قواعد تماثل قواعد عيش الرهبنة التي ظهرت فيما بعد ومارسوا طريقة المشاركة في السلم . وقد ذكرهم من المؤرخين فيلون ويوسيفوس وبليني . [ للترجم ]

## الفصل السابع والثلاثون

### تعاليم يسوع

ولد يسوع مسيح النصرانية في يهوذا ، إبان حكم أوغسطس قيصر أول قياصرة روما . وباسمه نشأ دين قدر له أن يصبح الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية .  
بأجمعها .

وعندى أنه من الأوفق بصورة إجمالية أن نباعد بين اللاهوت والتاريخ . فإن شطراً عظيماً من العالم للسعي يستند أن عيسى كان الصورة الجسدية لذلك الإله رب العالم أجمع الذي كان اليهود أول من عرفه . وللؤرخ لا يستطيع - إن هو شاء أن يحتفظ بصفته تلك - أن يقبل ذلك التأويل أو ينكره . كان عيسى يبدو من الناحية المادية في صورة إنسان ، ولذا وجب على المؤرخ أن يتناوله بوصفه إنساناً .

ظهر في يهوذا في أثناء حكم تيريوس قيصر . كان نبياً ، يبشر على طريقة من سبقوه من أنبياء اليهود . كان عمره يناهز الثلاثين ، أما منوال حياته قبل أن يبدأ التبشير برسائله فذلك أمر نجبه جهلاً تاماً .

فليس لدينا مصدر مباشر للمسلم بحياة عيسى وتعاليمه إلا الأناجيل الأربعة . وكلها تجمع على إعطائنا صورة لشخصية قوية التحديد ، لايسع المرء منا إلا أن يقول : « لاشك أن بين أيدينا إنساناً ، وليس في الإمكان أن يكون خبره هذا مقتعلاً » .

ولكنك تكاد تنحس ، أنه كما أن شخصية جوتاما بوذا ، قد شوهدا وأخفاها ذلك التمثال الجامد الجالس الترفصاء ، صنم البوذية المتأخرة المذهب ، فكذلك شخصية يسوع النجيلي الدروب المبهدة قد أضربها كثيراً جو تقليدى لايمت إلى الحقيقة بسبب ، فرضه على شخصه في الفن المسيحي الحديث توقيف خاطئ . كان يسوع مطامعاً ، يتجول في أرجاء بلاد يهوذا المترية تحت لفسات الشمس المحرقة ، ويعيش على ما يتلقى

من هبات عارضة من الطعام ، ومع هذا فإن ذلك الفن يثقل على الدوام نظيفاً بمشط الشعر وضاء الحياء. نقي الثياب منتصب القامة ، وحوله جو هيولى سا كن لا يتحرك كأنما هو منزلق على أجنحة الأثير . وهذا الأمر وحده هو الذى جعله يبدو شيئاً خيالياً غير حقيقى فى عين كثير من الناس ممن لا يستطيعون أن يميزوا لباب القصة من زخرف الإضافات الزائفة الخرقاء التى ضمنها إليها القاتنون الجملة .

وإذا نحن جردنا هذا السجل من تلك الإضافات العسيرة ، بقينا وجها لوجه أمام صورة إنسان كامل الإنسانية جدا ، جاد جدا وعاطفى معرض للغضب السريع ، وهو يعلم الناس مبدأ جديداً بسيطاً عميقاً : — هو أبوة الرب المحبة الشاملة وظهور ملكوت السموات . وواضح أنه كان شخصاً ذا جاذبية شخصية حادة ، إن جاز لنا أن نستعمل هذا التعبير المادى ، فإنه كان يجتذب إليه الأتباع ويملاً قلوبهم بحبه وشجاعته . وكان وجوده يشد من عزم الضعفاء والمرضى ويشفيهم ، ومع ذلك فإنه كان ذا بنية ضعيفة ، وذلك بسبب موته السريع تحت آلام صلبه . إذ يروى أنه أغمى عليه عندما كلف كما جرت بذلك العادة ، بحمل صليبه إلى مكان التنفيذ . ظل يتجول فى البلاد نحو ثلاث سنوات وهو ينشر مبادئه ، وهبط أورشليم ، واتهم بمحاولة إقامة ملكة عيسية فى يهوذا لحكم بهذه التهمة ، وصلب مع اثنين من القصوص . وقبل أن يموت هذان بزمن طويل كان قد أسلم الروح .

ولا شك أن مذهب ملكوت السماوات الذى هو فكرة يسوع الرئيسية من أشد للذاهب الثورية التى حركت الفكر الإنسانى فى جميع العصور . فلا يجب إذن أن فات عالم ذلك الزمان أن يفهم معناها الكامل ، وأن ينكس على عقبيه فزعا من أى فهم — مهما دق — لتحدياتها الماثلة لما يرسخ لدى الناس من عادات ونظم . ذلك أن مذهب ملكوت السماوات كما يلوح أن يسوع كان يطه للناس ، لم يكن إلا طلباً جريئاً لا تسامح فيه يطالب بتبشير كامل وتطهير تام لحياة جنسنا للكفاح ، تطهير مطلق من الفناخل والخارج على السواء .

وعلى القارىء أن يلجأ إلى الأناجيل التماساً للبقية الباقية من تلك الفكرة الماثلة ؛ فكل ما يهنا فى هذا اللقاه لإعماهو الهزة التى أحدثها اصطدامها بالسكرات المستقرة القديمة .

كان اليهود يؤمنون بأن الله الرب الأحد للعالم الأجمع ، كان رب بر وصلاح ، ولكنهم كانوا يقولون أيضا بأنه رب تاجر ، آثم في شأنهم صفقة مع أبيهم أبراهام ، صفقة رابحة جدا لصالحهم والحق يقال ، يعتمد بها أن يرتفع بهم في النهاية إلى السيادة على الأرض ١١١ . فلا عجب إذن أن يأخذهم الفزع والتضرب حين يسمعون يسوع وهو يحطم أمامهم نفيس ضبائهم . ذلك أنه راح يعلم الناس أن الله ليس صاحب صفقات ، وأن ليس هناك شعب غتار ولا قوم يتألون الحظوة في مملكة السماوات ، وأن الله هو الأب المحب للأحياء أجمعين ، وأنه كالشمس تماما لا يستطيع أن يحب أحدا دون غيره محظوة ، وأن الناس جميعا إخوة — كلهم خاطئ مذهب ، وكلهم ابن محبوب لذلك الأب الإلهي ، وأن يسوع ليصب في قصة السامري الطيب جام سحرته على ذلك الليل الطبيعي الذي تخضع له جميعا ، وهو تميمنا لقومنا والتقليل من نصيب العقائد الأخرى والشعوب الأخرى من البر . ثم إنه في قصة العمال يلبد ظهريا ادعاء اليهود العنيد في أن لهم على الله حقا مينا . وعلم الناس أن كل من أخذ الله في الملكوت ، حباه برعاية واحدة لا تفرق فيها ، فأنه لا يعرف تميزا في معاملته لعباده ، إذ لا حد لطيبته وفضله . وهو يتطلب من الجميع قصارهم كما يتجلى ذلك في أمثلة العملة للدفونة ، وكما تميزه حادثة فلس الأرملة . وليس في ملكوت السماوات امتيازات ، ولا تخفيض مالي ولا معاذير .

ولكن يسوع لم يقتصر فقط على انتهاك وطنية اليهود القبلية الحادة — وهم كاهو معلوم ، شعب ذو ولاء قبلي قوى — بل راح يزعج كل عاطفة قبلية ضيقة ، تنطوي على التمييز في ذلك الفيضان العظيم : فيضان حب الله . إذ لا بد لمملكة السماء بأكملها أن تشمل عائلة أتباعه . والإنجيل يحددنا أنه « وفيما هو يكلم الجوع إذا أمه وإخوته قد وقفوا خارجين طالين أن يكلموه . فقال له واحد هو ذا أمك وإخوتك واقفون خارجا طالين أن يكلموك . فأجاب وقال لقائل له : من هي أمي ومن هم إخوتي ؟ ثم مد يده نحو تلاميذه وقال : ها أمي وإخوتي ، لأن من يصنع مشيئة أبي الذي في السموات هو أخي وأختي وأمي » (١) .

ولم يكذب يسوع بتوجيه الضربات إلى الوطنية ، وإلى روابط الولاء القبلى بلسم أبوة الله الجامعة وأخوة البشر جميعا ، بل كان من الواضح أن تعاليمه كانت تهاجم كل ما يحتويه النظام الاقتصادى من تدرج ، وتلتصق كل ثروة خاصة وكل منفعة شخصية. ذلك أن الناس جميعا يلتمون إلى للسلوك ، وأن يمتلكهم جميعا تنتمى إلى للسلوك ، وأن الحياة البرة للناس جميعا ، الحياة البرة الوحيدة ، إنما تقوم فى خدمة إرادة الله بكل ما نملك ، وبكل أقدتنا . وظل يذم الثروة الخاصة مرة بعد أخرى ، ويذم الإبقاء على كل حياة خاصة .

« وفيما هو خارج إلى الطريق ، ركض واحد وجثا له ، وسأله : أيها المعلم الصالح ، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية ؟ فقال له يسوع : لماذا تدعوني صالحا ، ليس أحدا صالحا إلا واحد وهو الله . أنت تعرف الوصايا : لا تزنى ، لا تقتل ، لا تسرق ، لا تشهد بالزور ، لا تسلب ، أكرم أباك وأمك . فأجاب وقال له : يا معلم هذه كلها حفظتها منذ حداثتى . فنظر إليه يسوع وأحبه ، وقال له : يعوزك شيء واحد ، اذهب بع كل مالك واعط الفقراء ، فيكون لك كنز فى السماء ، وتعال اتبعنى حاملا الصليب . فاغتم على القول ومضى حزينا لأنه كان ذا أموال كثيرة . فنظر يسوع حوله وقال لتلاميذه : ما أعسر دخول قوى الأموال إلى ملكوت الله ! فتعير التلاميذ من كلامه . فأجاب يسوع أيضا وقال لهم : يا بنى ، ما أعسر دخول للتسكين على الأموال إلى ملكوت الله . مرور رجل من قعب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله <sup>(١)</sup> . »

وفضلا عن ذلك ، فإن يسوع قد ضاق بما للديانة الرسمية من بر قائم على المساومات ، وذلك بسبب نبوته الهائلة بذلك للسلوك الذى يتعد فيه الناس جميعا فى ذات الله ، ثم إن شطرا عظيما مما سجل من أحاديثه موجه إلى اللبالة الشديدة فى الأخذ بأصول التقوى وحياة التقى . « ثم سأله التلاميذ والكتبة لماذا لا يسلك تلاميذك حسب تقليد الشيوخ بل يأكلون خبزا بأيد غير منسولة ؟ . فأجاب وقال لهم حسنا تلبأ إشعياء عنكم أتمم للرايين كما هو مكتوب . هذا الشعب يكرمنى بشفتيه وأما قلبه فليبتعد

عن بعيدا . وباطلا بعيدونى وهم يملون تعاليم هى وصايا الناس . لأنكم تركتم وصية الله وتمسكون بتقليد الناس . غسل الأباريق والكؤوس وأمورا أخرى كثيرة مثل هذه تفعلون . ثم قال لهم حسنا رقتم وصية الله لتحفظوا تقليدكم » (١) .

لم يكن ما أعلنه يسوع مجرد ثورة خلقية أو اجتماعية ؛ بل إن هناك عشرات الشواهد التى تدل بجللاء على أن تعاليمه كانت تتطوى على لمسة سياسية من أبسط الأنواع . حقا إنه قال إن مملكته لا تنتمى إلى هذا العالم ، وإن مكانها فى قلوب الرجال وليس عرشا من العروش ؛ ولكن لا يقل عن ذلك وضوحا أنه حينما قامت مملكته من قلوب الناس ومهما يكن مقدارها فى تلك القلوب ، فإن العالم الخارجى يتجدد ويلب به الانقلاب بنفس اللبسة .

ومهما يكن ما فات سامعيه من أقواله الأخرى بسبب عمايتهم أو صممهم ، فمن الجلى أنهم لم يفهم تصميمه على إحداث انقلاب فى العالم . فإن اتجاه المعارضة التى لقيها والظروف التى أحاطت بمحاكمته وإعدامه ، تدل بأجلى بيان على أن معاصريه كانوا يرون فيه صورة من يقترح صراحا ، بل يرون أنه اقترح صراحا — تغيير الحياة الإنسانية بأجمعها وصهرها وتحرقها .

وإذا راعينا ما قاله صراحا ، لم نجد ضاربة فى أن يشعر كل غنى وكل موفق بغيد الحال بشعور الرعب من التعاليم الجديدة القوية ، ويحس أن طاله يدور به بسبب هذه التعاليم ؛ ذلك أنه كان يحاول استخراج كل مدخراتهم التى جمعوها عن طريق الخدمة فى المجتمع ليصبه فى خضم حياة ديلية جامعة . كان أشبه الناس بصائد خلقى رهيب يستخرج البشرية من القبور القديمة الوداعة التى كانت تعيش فيها حتى حين ، ولم يكن يجوز أن يمتوى الضياء الواج للمكوثه على ملكية ولا امتياز ولا كبرياء ولا أسبقية . ولم يكن هناك فى الواقع أى حافز ولا مشوبة إلا الهبة . أفضيب إذن أن تلهم عيون الناس وأن تنخطف أجسامهم وأن يتصامحوا به ؟ حتى لقد بلغ الأمر أن تصامح تلاميذه أنفسهم عندما لم يقبل أن يفهم من باهر الضياء ، أعجيب إذن أن يدرك الكهنة أنه ليس بينهم وبين ذلك الرجل خيار ، فلما أن هلك هو ولما أن هلك الكهنة ؟ أعجيب إذن أن

ياجأ الجند الرومان وقد واجههم وأنزلهم ذلك الشيء الذي يحلق في الأجواء فوق أفهامهم ويهدد جميع أنظمتهم - أقول يلجئون إلى الضحك الضارى يتوارون وراءه ، وأن يتوجوه بتاج من الأشواك وأن يلبسوه اللون الأرجوانى ويتخذوا منه قبعرا هنزوا ذلك أن أخذه مأخذ الجسد كان معناه الدخول فى حياة غريبة مزعجة ، والتخلى عن مألوف المادة ، وضبط الفرائز والخواص ، وتجربة ضرب من سمادة لم نخطر لهم على بال .

## الفصل الثامن والثلاثون

### تطور المسيحية المذهبية

لو اطلعنا على الأنجيل الأربعة لوجدنا فيها شخصية عيسى وتعالجه ، ولم نشر إلا على النزر اليسير من مذاهب الكنيسة المسيحية . على أن الرسائل ، وهى سلسلة من الكتابات سطرها أتباع عيسى المباشرىون ، هى التى بسطت فيها الخطوط العريضة للعقيدة المسيحية .

وكان القديس بولس من أعظم من أنشأوا المذهب المسيحى . وهو لم ير عيسى قط ولا سمعه يشرح الناس . وكان اسم بولس فى الأصل شاول ، وكان فى بادئ الأمر من أبرز وأنشط المضطهدين لفتة الحواريين القليلة العدد ، ثم اعتنق المسيحية فجأة ، وغير اسمه فجعله بولس . أوفى ذلك الرجل قوة عقلية عظيمة ، كما كان شديد الاهتمام والحية لحركات زمانه الدينية . فتراه على علم عظيم باليهودية والميثرائية وديانة ذلك الزمان التى تمتلئها الإسكندرية . فقلل إلى المسيحية كثيراً من أفكارهم ومصطلح تعبيرهم . ولم يأت إلا بالقليل فى توسيع أو تنمية فكرة يسوع الأصلية ، وأعطى بها فكرة « ملكوت السموات » . ولكنه علم الناس أن عيسى لم يكن المسيح الموعود فحسب ، ولا زعيم اليهود الموعود فقط ، بل إن موته كان تضحية - مثل ممات الضحايا القديمة المقربة إلى الآلهة فى أيام الحضارات البدائية - من أجل خلاص البشرية .

وعندما تدهر الديانات إحداها إلى جوار الأخرى تنزع إلى التقاط طقوس بعضها من بعض وغيرها من الخواص الخارجية . مثال ذلك أن البوذية فى بلاد الصين تملك اليوم نفس نوع المعابد والكهان والعرف الذى كان للتاوية ، التى تتبع تعاليم لاهوتسى . ومع ذلك فإن التعاليم الأصلية للبوذية والتاوية متضادة على خط مستقيم تقريباً .

وليس مما يشين المسيحية أو يبعث الشك فى تعاليمها الجوهريّة أنها استعارت أشياء شكلية كالقسيس الخلق وتقديم النذور والهياكل والشموع والتراتيل والتماثيل



التي كانت لعقائد مثراس والإسكندرية ، بل تمت أيضاً حتى عباراتها في عبادتها وأفكارها اللاهوتية ، ذلك أن هذه الديانات كانت جميعاً تزدهر إلى جوار كثير من العقائد القليلة الأهمية ، وكانت كل واحدة منها تلمس الأنصار ، ولا بد أن المعتنقين لها كانوا ينتقلون باستمرار من إحداها إلى الأخرى ، وربما حظيت إحداها أو الأخرى يوماً بالخطوة لدى الحكومة ، على أن المسيحية كانت موضع الشك أكثر من منافساتها ، وذلك لأن أنصارها كانوا كاليهود يأبون أن يبدوا القصر الرب . من أجل ذلك اعتبرت ديناً يدعو إلى التمرد والفتنة ، وذلك فضلاً عن الروح الثورية التي تنبها تعاليم يسوع نفسه .

وراح القديس بولس يقرب إلى عقول تلاميذه الفكرة الداهية إلى أن شأن عيسى كشأن « أوزيريس » : كان رباً مات ليث حياً ولينج الناس الخلود ، وسرعان ما مزقت المنازعات اللاهوتية المقددة المجتمع المسيحي كل ممزق ، والعقيدة بعد في طور الانتشار ، فاستمرت الخلافات حول علاقة هذا الرب يسوع « بالله » أبي البشرية . فذهب أتباع آريوس إلى أن عيسى إله ، غير أنه متميز عن الآب وأدنى منه مرتبة . وعلم أتباع سايليوس<sup>(١)</sup> أن يسوع لم يكن إلا مجرد أقنوم من أقانيم الآب ، وأن الله هو يسوع والآب في الوقت نفسه ، مثلاً يمكن أن يكون الرجل والدًا وصانعًا في نفس الوقت ؛ وارتأى الثالوثيون مذهباً أكثر دقة وغموضاً يقول بأن الله واحد وثلاثة في وقت معاً ، وأنه آب وابن وروح قدس .

واشقى روح من الزمن لاح فيه أن مذهب آريوس سيفوز بالنصر على منافسيه ، ثم حدثت منازعات ، وثارَت مشاحنات عنيفة ، ونشبت حروب أسفرت عن فوز مبدأ الثالوثيين بالقبول لدى العالم المسيحي بأكمله . ومن الممكن العثور على ذلك المبدأ في آتم صورة في عقيدة القديس اتاناسيوس .

ولن ندلي هنا بأي تحقيق على هذه الخصومات ، فهي لا تؤثر في التاريخ أثر تعاليم يسوع الشخصية . إذ يلوح عبقاً أن تعاليم عيسى الشخصية تؤخذ بطور جديد في حياة جلسنا الخلقية والروحية . فإن إصرارها على أبوة الله الشاملة ، وعلى قيام أخوة ضعيفة

بين الناس جميعاً ، وإصرارها على قداسة كل شخصية إنسانية بوصفها معبداً حياً لله ، أمور كتب أن يكون لها أعمق الأثر في كل ما عقب ذلك من حياة البشرية ، من الوجهتين السياسية والاجتماعية . فقد ظهر في العالم بمجيء المسيحية وانتشار تعاليم يسوع احترام جديد لشخصية الإنسان في حد ذاته . أجل ربما صح أن القديس بولس كان يعلم العبيد الطاعة ، كما كان يدفع بذلك بعض تقاد المسيحية للعادين ، ولكن يعدل ذلك في صدقه أن روح تعاليم يسوع بأجمعها ، كما تحفظها لنا الأناجيل ، تناهض إذلال الإنسان للإنسان . هذا إلى أن المسيحية عارضت بشكل أوضح انتهاك الكرامة الإنسانية الذي يحدث في مثل مصارعات المجادلين<sup>(١)</sup> في المجلد .

انتشرت تعاليم الحياة المسيحية في كل أرجاء الإمبراطورية الرومانية إبان القرنين اللذين أعقبا ميلاد المسيح ، وأخذت توثق الروابط بين جمهور من المنتصرين لا يريح زراد في كل آن ، وتخلق منه مجتمعا مرتبطاً بأواصر الفكريات والإرادة . واختلف موقف الأباطرة منها ، فمنهم من عاها ، ومنهم من تسامح معها ، وبذلك في كل من القرنين الأول والثاني محاولات للقضاء على هذه العقيدة ، وانتهى الأمر في ٣٠٣ وما عتبها من أعوام بأن أنزل بها الإمبراطور دقلديانوس اضطهاداً عظيماً ، فصدورت أملاك الكنيسة الضخمة وجميع الكتب القديمة والكتابات الدينية ثم دمرت ، وأهدرت دماء المسيحيين على أيهم خارجون على القانون ، وأعدم كثير منهم .

وتدمير تلك الكتب أمر جدير بالملاحظة بوجه خاص ، فهو يبين كيف مرتبت السلطات قدرة الكلام للكتوب على ربط أتباع العقيدة الجديدة معاً ، وكانت « عقائد الكتب » هذه للمسيحية واليهودية ، ديانات تعلم الناس ، وكان استمرار بقائها يعتمد إلى حد كبير على قدرة الناس على قراءة فكرياتها للذهنية وتقميها ، ولم تكن الديانات قديمة العهد ترجع مثل هذا الرجوع إلى ذكاء الأفراد ، حتى إذا أقبلت عصور الفوضى البربرية التي أخذت ظلماتها تغطي أوروبا آنذاك ، كانت الكنيسة المسيحية هي الوسيلة الفعالة في المحافظة على التراث العلمي .

فشل اضطهاد دقلديانوس فشلاً تاماً في القضاء على المجتمع المسيحي النامي ، وكان

---

(١) المجلد **Gladiator** : هو مصارع عترب بروما القديمة يصارع مع الرجال أو الحيوانات في المجلد ، وهو الجزء المخصص للمصارعات من المدرج القديم وهو مفروش بالرمل ليصطرح فيه الرجال .  
[ الترجمة ]

عديم الأثر في كثير من الولايات ، وذلك لأن كثرة السكان وكثيراً من اللوطين كانوا من المسيحيين . ثم صدر في ٣١٧ مرسوم بالتسامح أصدره الإمبراطور جاليريوس الشريك<sup>(١)</sup> . وفي ٣٢٤ أصبح قسطنطين الأكبر الحاكم الوحيد للعالم الروماني ، وهو صديق للمسيحية . كما أنه اعتنقها حين عمد وهو على فراش موته . فتخلي عن كل مدعياته في الألوهية ، ووضع شارات المسيحية ورموزها على دروع جنوده وألويتهم ...

ولم تخض بضعة سنوات حتى توطدت قدم المسيحية وأصبحت الديانة الرسمية للإمبراطورية . أما الأديان المنافسة لها فقد اختفت أو اندمجت في غيرها بسرعة خارقة ، وفي ٣٩٠ أمر ثيودوسيوس الأكبر بتدمير تمثال جوبيتر سرايس بالإسكندرية . ولم يعد هناك كهنة ولا معابد في الإمبراطورية الرومانية إلا كهنة المسيحية ومعابدها ، منذ بداية القرن الخامس الميلادي فصاعداً .

---

(١) أشركه معه دقلديانوس في الحكم في ٣٠٥ ، وجهه قيصراً على إيليريا *Illyricum* والأقاليم البانونية . وانفرد بحكم الإمبراطورية الشرقية في ٣٠٥ عند تنازل دقلديانوس [للتراجع]

## الفصل التاسع والثلاثون

### البرابرة يشطرون الإمبراطورية

#### إلى شطرين : شرقي وغربي

ظلت الإمبراطورية الرومانية تواجه البرابرة طوال القرن الثالث الميلادي ، وهي تضمحل اجتماعياً وتحل خلعياً . وكان أباطرة تلك الفترة مقاتلة عسكريين مستبدين ، كما أن عاصمة الإمبراطورية راحت تنقل حسباً تقتضيه ضرورات سياستهم الحربية . فتكون القيادة الإمبراطورية في ميلانو آنأ ، وآ نأ آخر فيا يسمى الآن بيلاد الصرب بمدينة سيرميوم أونيش ، أو تكون بليقوميدا<sup>(١)</sup> إحدى مدن آسيا الصغرى . ذلك أن مدينة روما الواقعة في منتصف شبه الجزيرة الإيطالية كانت من البعد عن مركز النفوذ والسلطان بحيث لا يصلح أن تكون قسبة ملائمة للإمبراطورية ، ولذا أخذوا الاضمحلال يندب إليها .

أجل لم يرح السلام يعرف على معظم أجزاء الإمبراطورية ، وكان الناس يتنقلون في ربوعها دون حاجة إلى حل سلاح . كما أن الجيوش ظلت معقل القوة ومصدرها الأوحد ؛ ولكن الأباطرة الذين كانوا يعتمدون على كتائبهم ما انفسكوا يزدادون استبداداً ببقية أجزاء الإمبراطورية وتزداد دولتهم في كل آن شهاً بدولة الفرس وغيرهم من ملوك الشرق . حتى لقد بلغ الأمر بدقلديانوس أن اتخذ لنفسه تاجاً ملكياً وارتنى ثياباً شرقية .

وفي إبان ذلك كان أعداء الإمبراطورية يضغطون بشدة على امتداد حدودها بأكلها ، وكانت الحدود تمتد على طول نهري الرين والدواب بوجه التقريب ، فقد

---

(١) مدينة قديمة بآسيا الصغرى على شاطئ بحر مرمرة ومكانها لم يمت الصرية . [الترجم:]

تخدم الفرنجة وغيرهم من القبائل الجرمانية حتى نهر الرين ، واحتل الوندال شمال بلاد المجر ؛ بينما نزل القوط الثريون فيما كان يسمى آنذاك باسم « داكيا » التي هي رومانيا الحالية . ومن وراء هؤلاء بجنوب روسيا استقر القوط الشرقيون ، بينما حل من وراءهم الألمان ( Alemans ) بإقليم الفولجا ، ولت الأمر اقتصر على هؤلاء ، فإن الشعوب المتوالية كانت تشق آنذاك طريقها شقاً نحو أوروبا . وكان الهون يفرضون الجزية وقتل على الألمان والقوط الشرقيين ويدفعونهما غرباً .

أما في آسيا فإن التخم الرومانية أخذت تتصدع وتراجع بضغط دولة فارسية فتية ناهضة . وقد قدر لدولة الفرس الجديدة هذه ، التي أقام دعاؤها ملوك بني ساسان ، أن تصبح منافساً قوياً محبواً بالتصاح في جملة الأمر ، وخصماً لحدوداً بآسيا للدولة الرومانية إبان القرون الثلاثة التالية .

ولو أن القارئ ألقى نظرة على خريطة أوروبا لأدرك مظاهر ضعف الإمبراطورية . فإن نهر الدانوب يتحول مجراه حتى يصبح على بعد لا يتجاوز مائتي ميل من البحر الأدرياتي بالنقطة التي يسمونها اليوم باسم أقاليم الصرب والبوسنة . وهناك ينصرف شرقاً محدثاً زاوية قائمة منعكسة .

ولم يكن الرومان يهتمون بالمحافظة على مواصلاتهم البحرية وحسن نظامها ، ولذا كانت هذه السلخة الضيقة من الأرض التي لا تتجاوز للسانق ميل خط مواصلاتهم الوحيد بين شطري إمبراطوريتهم الغربي الناطق باللاتينية وشرطها الشرقي الناطق باليونانية ، وكان ضغط البرابرة أعظم ما يكون في تلك الزاوية القائمة من نهر الدانوب . حتى إذا اخترقوها أصبح اقسام الإمبراطورية إلى شطرين أمراً لا مفر منه .

ولو وجدت مكان الإمبراطورية الرومانية دولة أقوى بأساً لرحلت أمامها واستردت مقاطعة « داكيا » ، ولكن تلك الإمبراطورية كانت تموزها مثل تلك الشكيمة القوية . .

ومن الحق أن قسطنطين الأكبر كان عاجلاً شديد الإخلاص والذكاء ، فصد غارة للقوط سبغت من تلك المناطق البلقانية الحيوية نفسها ، ولكنه لم يملك من القوة العسكرية ما يتيح له أن يدفع الحدود إلى ما وراء الدانوب . كما أنه شديد الانشغال بضعف الإمبراطورية الداخلي وإصلاح عيوبها . فلجأ إلى ما للسياسة من قوة تماسك

وروح معنوية راجياً أن يتبع بها روح الإمبراطورية للتداعية ، كما قرر أن ينشئ لها عاصمة جديدة دأمة مقرها بيزنطة على مضيق البوسفور . وراح يبد بناء المدينة من جديد ، ويطلق عليها اسماً جديداً هو القسطنطينية تيمناً باسمه ، ولكنه قضى نحبه قبل أن يتم عمله .

وحدثت في آخر أيام هذا العاهل صفقة عجيبه ، فإن القوط ضغطوا على الوندال فلجأ هؤلاء إلى الإمبراطورية يلتمسون قبولهم بها ، فنهضوا بعض الأراضي في يانونيا ، التي هي اليوم شطر بلاد البحر اواقع غرب نهر الدانوب ، وأصبح مقاتلتهم في مقابل ذلك فرقة من جند الإمبراطور اسماً . على أن هؤلاء الجند الجدد ظلوا تحت إمرة رؤسائهم الأصليين ، ولذا فشلت روما في هضمهم .

مات قسطنطين وهو مكب على إعادة تنظيم مملكته ، وسرعان ما اخترق القوط القريون حدودها وتقدموا حتى أوشكوا أن يلبغوا القسطنطينية ، فهزموا الإمبراطور فالتر عند أدرنه ، ثم عقدوا تسوية استقروا بها بمنطقة بلغاريا الحالية مثلاً استقر الوندال في يانونيا . وبهذه التسوية صاروا رعايا للإمبراطور بالاسم فقط ، ولكنهم في الواقع غزاة فاعحون .

وفي عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأكبر ( ٣٧٩ - ٣٩٥ ) ، ظلت الإمبراطورية متناكسة من الناحية الشكلية . وكانت جيوش إيطاليا و يانونيا تحت قيادة استيليكو الوندالي ، بينما كان على رأس جيوش جزيرة البلقان ألاريك وهو من القوط . ولما مات ثيودوسيوس عند نهاية القرن الرابع ترك من ورائه ولدين . فناصر ألاريك أحدهما وهو ( أركاديوس ) بالقسطنطينية ، وظاهر استيليكو أخاه الآخر ( هونوريوس ) بإيطاليا . ومعنى ذلك بجارة أخرى أن ألاريك ومنافسه استيليكو اقتتلا على الإمبراطورية متخذين من الأميرين ألوية في أيديهما . وفي غضون ذلك الكفاح ، زحف ألاريك على إيطاليا ، واستولى على روما بعد حصار قصير ( ٤١٠ م ) .

شهد النصف الأول من القرن الخامس وقوع الإمبراطورية بأكملها بين برائن جيوش من اللصوص أو البرابرة . ويكاد يصير علينا تصور صورة حقبة لأحوال العالم إبان تلك الفترة . فاللبن العظيمة التي ازدهرت في ظل الإمبراطورية الأولى بفرنسا وإيطاليا وإسبانيا وشبه جزيرة البلقان لم تزل قائمة عند ذلك ، ولكن الفقر عضها بنابه

و هجرها سكانها وعدت عليها عواذى الاضمحلال . ولا بد أن الحياة بها قد أصبحت سطحية منعطة مفعمة بعدم الاطمئنان إلى المستقبل ، كما أنه لا شك في أن اللوطيين المحليين خلوا يظهرهم سلطاتهم ويواصلون أعمالهم كل حسب ما أوتي من ضمير ، وذلك باسم الإمبراطور الذي أصبح عندئذ بعيداً أعظم العدو لا سبيل إلى الوصول إليه . وواصلت الكنائس عملها ولكن على يد قساوسة معظمهم في العادة من الأميين . وقل القراء والقراءات وانتشرت الخرافات واستبدت بالناس المخاوف . ولكن الكتب والتأثيل والصور وما مائلها من إنتاج فني لم تبرح موجودة في كل مكان ، اللهم إلا حيث دمرها الناهبون والمعتدون .

دب الانحلال أيضاً في حياة الريف . فزایل الخير وحسن الشكل كل أصقاع ذلك العالم الروماني . فبحض للناطق أحال الحرب والوباء أرضها الزراعية إلى ياب مقفر . وعات للصوم في الطرق والقبائل فسادا . وتقدم البرابرة إلى تلك اللناطق وهي على ذلك الحال ، فلم يلقوا مقاومة تذكر ونصبوا رؤساءهم حكاما عليها ، وأطلقوا عليهم في كثير من الأحيان الألقاب الرومانية الرسمية ، فإنهم كانوا برابرة نصف متحضرين ، منعدوا الجهات التي يقتنعونها شروطاً معقولة ، فيمتلكون للذن ويمتثلون بأهلها ويتزوجون منهم ويتلمذون اللسان اللاتيني ينطقونه بنبرة خاصة ؛ على أن الجوت والأبجل والسكسون الذين نزلوا بمقاطعة بريطانيا الرومانية كانوا شعوباً زراعيين ، لا حاجة بهم إلى اللدن ، ويروح أنهم طهروا جنوب بريطانيا من كل السكان للصطبيين بالصبغة الرومانية ، واستبدلوا بلغة أولئك السكان لهجاتهم التيونونية التي أصبحت اللغة الإنجليزية آخر الأمر .

ومن الحال علينا أن ترسم في هذا المجال الضيق حركات جميع أصناف القبائل الجرمانية والسلافية المختلفة وهي تروح وتندو في هذه الإمبراطورية المحتلة النظام بحسباً عن الأسلاب والغنائم والتماس لوطن جميل تستقر فيه . على أننا ستخذ الوندال مثالا نسوقه إليك . فإنهم طهروا على مسرح التاريخ بألمانيا الشرقية . واستقروا كما أسلفنا في باتونيا . ومنها انتقلوا إلى إسبانيا حوالي ٤٢٥ م معتريقين الولايات التي تقع في طريقهم . فوجدوا بإسبانيا القوط الغربيين الوافدين من جنوب روسيا ، كما وجدوا قبائل ألمانية أخرى نصبت عليها للوك والأدواق .

وأبحر الوندال من إسبانيا إلى شمال إفريقيا ( ٤٢٩ ) بقيادة جيسريك . واستولوا على قرطاجنة ( ٤٤٩ ) ، وأنشؤا أسطولا ، وما لبثوا أن أحرزوا السيادة البحرية ثم استولوا على روما واتهبوها ( ٤٥٥ ) ، ولما تنهضت بعد من كبوتها تماما جدد القدي أصابها من عدوان ونهب على يد الأاريك قبل ذلك بنصف قرن ، ثم راح الوندال يسيطرون سيادتهم على قورسيقة وصقلية وسردينية ومعظم جزائر البحر المتوسط الغربي . الواقع أنهم أنشؤا دولة بحرية شديدة للمائة في سعتها ورقعتها بإمبراطورية قرطاجنة البحرية قبل ذلك بسبعائة عام على وجه التقريب . وبلغت دولتهم ذروة رفعتها حوالي ٤٧٧ . ولم يكن الوندال إلا طائفة صغيرة من الغزاة استولت على ذلك الإقليم بأجمعه . ولكن لم ينصرم القرن التالي حتى استردت القسطنطينية جمع أقطار دولتهم تقريبا إبان نهضة مؤقتة في عهد جستنيان الأول .

وليست قصة الوندال إلا مثالا واحداً من الغارات للمائة . ولكن ها قد أقبلت إلى العالم الأوربي جعافل أبعد ما تكون عنها بهؤلاء العابثين وأبغت للعرب في القلوب : المون المتوليون أو التتار ، وهم شعب أصفر ، إلى بالنشاط والاقتدار ، بصورة لم يلتق العالم الغربي بمثلا قبل ذلك أبداً .



## الفصل الأربعون

### الهون ونهاية الإمبراطورية الغربية

ربما جاز لنا أن نمد ظهور هذا الشعب المغولي في أوروبا مؤذنا يده مرحلة جديدة في تاريخ البشرية . ذلك أن الصلة بين الشعوب المغولية والنوردية لم تكن وثيقة إلى ما قبل الحقبة المسيحية بحوالى قرن من الزمان . أجل إنه حدث في الأراضي المتجمدة البعيدة الواقعة وراء مناطق التايغا ، أن اللابيين ( أهل لابلندة ) وهم شعب مغولى — انتقلوا غربا حتى بلغوا ذلك القطر ( لابلندة ) ، ولكنهم لم يلعبوا أى دور في مجرى التاريخ الرئيسى . كما أنه حدث أن العالم الغربى ظل آلافا من السنين مسرحا للتفاعلات الأخاذة بين الشعوب الآرية والسامية والشعوب الأصلية السمرى دون أى تدخل من الشعوب السوداء إلى الجنوب ومن العالم المغولى في أقصى الشرق ، إلا ما حدث من غزو الأتيويين لمصر .

والراجع أن حركة هؤلاء المغول الرحل المتجهة غربا ترجع إلى سببين رئيسيين : أولهما تماسك إمبراطورية الصين الكبرى وارتباط أجزائها واتساع رقعتها شمالا وتزايد عدد سكانها في أثناء الرخاء الذى أظلم البلاد في عهد أسرة هان . وثانيهما حدوث شيء من التغيرات في المناخ ، لعله قلة في المطر جففت المستنقعات وربما أزيلت الغابات ، أو لعله زيادة في الأمطار بسطت رقعة الرعى فوق سهوب الصحراء ، أو لعل هاتين السبيلتين جميعا تماورتا على أقاليم مختلفة فترتب عليها على كل حال تسهيل أمر الهجرة غربا .

وثمة سبب ثالث قد يرجع إلى ذلك الأمر نفسه ، وهو الأحوال الاقتصادية الصعبة في الإمبراطورية الرومانية وما أصابها من انحلال داخلى وتناقص في عدد السكان . وذلك أن الأغنياء في الجمهورية الرومانية المتأخرة ، ومن ورأيهم حياة الضرائب للأباطرة العسكريين ، امتصوا كل ما فيها من حيوية . ولعل القارى قد تجلّت أماه الآن عوامل ذلك الزحف ووسيلته والفرصة التى تهيأت له . وخلاصة هذا يلجأنا ، هى أن الضغط ظهر في الشرق وقد نخر الفساد في الغرب واعتصمت الطريق لمن شاء أن يتقدم .

بلغ الهون الحدود الشرقية لروسيا الأوربية إبان القرن الأول الميلادي ، ولكن ذلك الشعب الذي كانت القروسية أعظم مظاهر حياته لم يلبوا منزلة السيادة على أقاليم السهوب إلا في القرنين الرابع والخامس الميلاديين . فالقرن الخامس هو قرن عظمة الهون . وأول من بلغ إيطاليا من الهون جماعات من الجند المرتزة كانوا يقضون أعطيائهم من استيلىكو الوندالي صاحب السيادة على هوربوس . ولم ينقض طويل زمن حتى وقعت في قبضتهم باثونيا عشي الوندال الحالي .

ونشأ بين الهون في الربع الثاني من القرن الخامس زعيم حربى عظيم هو أتيلا . وللأسف أن كل مالهينا من علم بدولته لا يتجاوز السحبات للهمة التي لا تشفى غليلا . وبمهما تكن الحال ، فإن حكمه لم يقتصر على الهون وحدهم ، بل شمل أيضاً خليطاً من القبائل الجرمانية للتأخرة ، وامتدت دولته عبر السهول للترامية من نهر الرين إلى آسيا الوسطى . وقد تبادل السفراء مع الصين ، وجعل مقر قيادته ومعسكره الرئيسى بسهل المجر شرقى نهر الدانوب . وهناك زاره مبعوث من القسطنطينية هو بريسكوس ، الذى يقص علينا وصفا لدولته نعرف منه أن نظام معيشة أولئك للقول كان شديد الشبه بطريقة عيش الآريين البدائيين الذين احتل الهون مكاتهم . فالعامة يعيشون في الأكواخ والحيام ، على حين كان الرؤساء يعيشون في قاعات عظيمة من الخشب تحوطها السياجات . وكانوا يقيمون الولائم ويمسكون الشراب ويستمعون لإنشاد الشعراء . فلو بحث أبطال لللاحم الهومرية ، بل حتى رقصاء الإسكندر الأكبر للقدونيون أنفسهم لشعروا وهم في قاعدة أتيلا العسكرية بقدر من الإلف وعدم الكلفة يفوق في الراجع ما قد يحسونه في بلاط راق متدهور كبلات الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى بن أركاديوس ، الذى كان يحكم آنذاك في القسطنطينية .

ومرحلين من الدهر زعم الناس في أثنائه أن الرحل بقيادة الهون وأتيلا ، سيلعبون إزاء الحضارة الإغريقية الرومانية بأقطار البحر للوسط نفس الدور الذى لعبه الإغريق البرابرة نحو الحضارة الإيبية منذ أمد سحيق . وكأنما شرع التاريخ يبعد نفسه في نطاق أوسع . ولكن الهون كانوا أكثر تعلقاً بحياة الترحل من قدماء الإغريق ، الذين يمكن عدم مربين للناشية ميالين للهجرة أكثر منهم مترحلين . وراح الهون يغيرون وينهبون بدون أن يستقروا في مكان .

وظل أتيلا يضع سنوات يضبط على ثيودوسيوس ويبحث في قلبه الرعب ما شاء له

هواه ، وذلك في نفس الوقت الذي انطلقت جيوشه فيه تمهيد في البلاد فساداً وتصلب  
التهب فيها إلى أسوار القسطنطينية نفسها ، ويقدر جيون عدداً ما دمره من المدن في شبه  
جزيرة البلقان بما لا يقل عن سبعين مدينة دمرت نهائياً ، حتى اضطر ثيودوسيوس أن  
يشترى رحيله بدفع الجزية إليه ، كما حاول أن يتخلص منه إلى الأبد بإرسال مبعوثين  
سريين لاختياله . ثم عاد أتيل فوجه التفاته في ٤٥١ إلى حطام نصف الإمبراطورية الناطق  
باللاتينية فغزا بلاد القالة . فلم تنج مدينة واحدة تقريباً في شمال غالة من النهب والسلب .  
عند ذلك اجتمع عليه الفرنجة والقوط الغربيون والقوات الإمبراطورية ودحروه عند  
ترويس Troyes في معركة ضخمة مترامية الأطراف قتل فيها جمهور غير من الرجال  
يتراوح عدده بين مائة وخمسين ألفاً وثلاثمائة ألف . ولم تلبث تلك الهزيمة أن أوقفت  
تقدمه ببلاد القالة ، بيد أنها لم تزل كثيراً من موارده العسكرية الهائلة . فإنه دخل  
إيطاليا في السنة التالية عن طريق فينشيا<sup>(١)</sup> (منطقة البندقية) وأحرق أكويلا وبادوا  
وانتهب ميلانو .

وسارعت جماعات غفيرة من اللاجئين الذين فروا من هذه المدن الإيطالية الشمالية  
وبخاصة بادوا فلاذت بجزائر المستنقعات الواقعة عند رأس البحر الإديري ، وهناك  
وضوا أول حجر في دولة مدينة البندقية ، التي كتب لها أن تندو من أهم المراكز  
التجارية في العصور الوسطى .

مات أتيل في ٤٥٣ موت القضاة بعد حفل عظيم أقامه ابتهاجاً بزواجه من حسان  
صغيرة ، فتمزق بموته ذلك الاتحاد القائم على التهب . وعند ذلك اختفى المهون الحقيقيون  
من التاريخ ، باختلاطهم بمن حولهم من أقوام ينطقون بالآرية ويعوقونهم عدداً . على  
أن هذه القارات المهوية الضخمة أمت تقريباً على السهول الرومانية اللاتينية . فتولى حكم  
روما بعد موته عشرة أباطرة مختلفين في مدى عشرين عاماً ، أقامهم الوندال وغيرهم  
من مرتزقة الجند . فإن الوندال جاءوا من قرطاجنة واستولوا على روما في ٤٥٥ ،  
وانتهى الأمر في ٤٧٦ ، بأن قضى أودوا كريكير الجند البرابرة على شخص بانونوتيوتولي .

(١) فينشيا : قسم إقليمي قديم بإيطاليا ينقسم إلى :

(أ) فينيتو ( البندقية الأصلية ) . (ب) وفينيتو تريديكتينا .

(ج) وفينيجوليا . [ للترجم ]

مهام الإمبراطورية تحت اسم مهيب هو رومولوس أوغستولوس ، وأبلغ بلاط القسطنطينية أنه لم يعد هناك إمبراطور في الغرب ، وبذلك انتهت الإمبراطورية الرومانية اللاتينية على هذه الصورة للزيرة غير الكرمة . ثم أصبح ثيودوريك القوطي ملكاً على روما في ٤٩٣ .

كان زعماء البرابرة يحكون عند ذلك جميع أقطار أوروبا الغربية والوسطى متخذين ألقاب الملوك والدوقات ، ومستقلين في الواقع وإن اعترفوا في معظم الحالات بشيء من الولاء الرمزي للإمبراطور . كان هناك مئات بل آلاف من مثل هؤلاء الحكام للتصنيين المستقلين تقريباً . وكانت اللغة اللاتينية لازال منتشرة ببلاد الغالة وإسبانيا وإيطاليا وداكيا في صومر ولهبجات محلية مشوهة ، ولكن عمت بريطانيا والأقاليم الواقعة شرق نهر الرين بعض لغات من المجموعة الألمانية ، كما انتشرت في بوهيميا لغة صقلية هي التشكية . وأصبحت اللسان الشائع بين الناس . وذلك على حين واصل كبار رجال الدين وثلة صغيرة من بقايا غيرهم من للتصنيين قراءة اللاتينية وكتابتها وقد عمت الفوضى وعدم الطمأنينة كل مكان ولم يعد للممتلكات من وافي لإقوة الساعد . فتكاثر القلاع وسامت أحوال الطرق . وقد بدأ بظهور القرن السادس عصر انقسام وفرقة ، وإن فيه الظلام الفكري على العالم الغربي بأكمله . فلولا أن قيض الله لعلم اللاتيني رهباناً للسيحية ومبشرها لقضى عليه قضاء مبرماً .

فلماذا تمت الإمبراطورية الرومانية ؟ ولماذا اضمحلت ذلك الاضمحلال التام ؟ لاجرم أنها تمت لأن فكرة اللواتنية هبت في البداية بنياتها وربطت بين أجزائها . إذ بقي فيها في أيام توسع الجمهورية جميعاً ، بل حتى إبان عهد الإمبراطورية الأولى ، عدد غير من رجال أقبوا الوعي بالواتنية الرومانية ، يرون في تلك المواطنة امتيازاً لهم وواجباً والزاماً عليهم ، ويطمنون إلى حقوقهم في ظل القانون الروماني ، ويذنون التضحيات باسم روما عن طيب خاطر ، وذاع صيت روما وأصبح رمزاً للعدالة والعظمة والمحافظة على القانون ، حتى تجاوز حدودها كثيراً . على أن ذلك الشعور بالواتنية أخذ ينقر فيه منذ عهد يرجع إلى زمن الحروب البونية نفسها نمو الثروة والامتراق . أجل إن المواطنة نفسها انتشرت حقاً ، ولكن لم ينتشر ما تنطوي عليه من فكرة .

ومهما يكن من شيء ، فإن الإمبراطورية الرومانية لم تسكن إلا دولة بدائية جداً ، لأنها لم تقم بتعليم الناس . ولم تحاول أن تفسر نفسها وتصرفاتها لجماهير مواطنيها البغيرة .

الزيادة العدد ، ولم تدعهم إلى التعاون معها فيما تتخذه من قرارات . فلم تقم بها تلك الشبكة الضخمة من المدارس التي تكفل إيجاد التمام المشترك بين أجزاء الدولة ، ولا نهض أحد فيها بشر الأخبار للمحافظة على الجهود الحشدية ودعم النشاط الجماعي . فالنصارى الذين ظلوا يتقاتلون على السلطان منذ أيام ماريوس وسولام يكن لديهم أدنى فكرة عن تكون رأى عام ودعوته ليبدى رأيه في شئون الدولة . لقد مات روح المواطنة جوعا ، ولم يدرك إنسان أنه مات . وغير خاف أن الإمبراطوريات والهيول وتنظيمات الجماعات الإنسانية إنما هي نتاج نهائى للتفاهم والإرادة . وهذه الإمبراطورية الرومانية لم تبق لها في العالم إرادة . لذا جاءت نهايتها وزالت من الوجود .

ومع أن الدولة الرومانية الناطقة باللاتينية لفظت آخر أنفاسها في القرن الخامس الميلادى ، فإن شيئا آخر تكون في أحشائها قدر له أن يفيد إلى أقصى حد من هيتها وتقاليدها : وهو النصف الناطق باللاتينية من الكنيسة الكاثوليكية . لقد عاش ذلك النصف الكاثوليكي على حين ماتت الإمبراطورية لأنه كان يلجأ ويحتمد على عقول الناس وإراداتهم ، ولأنه ملك الكتب كما ملك جهازا ضخما من المعلمين والمبشرين يربط بين أجزائه ، وهى أشياء أقوى من أى قانون أو أى جيش . وبينما الإمبراطورية تتدهور على كر القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، كانت النصرانية تنتشر في أوروبا وتمد عليها ألويتها الشاملة . حتى لقد غزت البرابرة غزاة الدولة أنفسهم في عقر دراهم ، ألم يجل بطريق روما دون زحف أتيل على المدينة عندما تسامع الناس باتواته ذلك ، وبذا فعل مالا تستطيع الجيوش فعله ، حيث رده عن غرضه بالقوة المنيوية البحتة ١

كان بطريق أو ( بابا ) روما يدعى أنه رئيس الكنيسة المسيحية بأكملها ، حتى إذا ولت الإمبراطورية ، ولم يعد هناك أباطرة ، شرع يدعى لنفسه ألقابا ومديعيات مما كان لأولئك الأباطرة ، فأتى لقب « الحبر الأعظم » Pontifex Maximus وهو لقب كاهن القرايين الأكبر في الدولة الرومانية إبان الوثنية ، وأقدم الألقاب التي كان الأباطرة يحملونها .

## الفصل الحادى والأربعون

### الإمبراطوريتان البيزنطية الساسانية

امتاز النصف الشرقى من الإمبراطورية الرومانية الناطق باليونانية بقدر لا بأس به من التماسك السياسى يفوق كثيراً مابداً فى النصف الغربى . وبذلك استطاعت مواجهة كوارث القرن الخامس الميلادى والتغلب عليها ، وهو القرن الذى تحطمت فيه بصورة تامة ونهائية دولة الرومان اللاتينية الأصلية . أجل أُرهب أثيلا الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى وأخذ يغير على ممتلكاته ويبيع فيها نهباً وفساداً حتى قارب أسوار القسطنطينية نفسها ، إلا أن تلك المدينة ظلت سليمة لم يزل منها أثيلا شيئاً . وكذلك أحمدر النوبيون فى النيل واتهبوا مصر العليا ، ولكن مصر السفلى والإسكندرية ظلت تعيش مع ذلك فى قدر لا بأس به من الرغد . وحافظت الدولة على معظم آسيا الصغرى رغم عدوان الفرس الساسانيين .

أما القرن السادس الذى خيمت فى أثنائه على الغرب دياجير الظلام ، فقد شهد فى دول الروم انتماعاً جسيماً . فإن جستين الأول ( ٥٢٧ — ٥٦٥ ) كان حاكماً عالى المهمة عظيم الطموح ، كما أن زوجته الإمبراطورة ثيودورا ، كانت لاتقل عنه كفاية ، وهى امرأة بدأت حياتها بمثلة . فاسترد جستين شمال إفريقيا من الوندال ، واستعاد معظم إيطاليا من القوط ، بل استرد جنوب إسبانيا ، ولم يقصر نشاطه على المشروعات العسكرية والبحرية ، بل أسس جامعة وشيد كنيسة القديسة صوفيا الكبرى بالقسطنطينية وجمع القانون الرومانى . ولكنه شاء أن يقضى على أحد المنافسين لجامعته الجديدة ، فأغلق مدارس الفلسفة بأثينا ، بعد أن ظلت تعمل بلا انقطاع منذ أيام أفلاطون ، أعنى مايقارب ألف سنة من الزمان .

ظلت دولة ساسان منافساً مستديماً للدولة البيزنطية ( دولة الروم ) منذ القرن الثالث الميلادى . وبسبب تلك المنافسة ساد الاضطراب والدمار الدائم آسيا الصغرى

وبسوريا ومصر . وكانت تلك الأفطار لا تزال ترفل في القرن الأول الميلادي في مجيوعها الحضارة الرفيعة والثراء ووفرة السكان . على أن استمرار ذهاب الجيوش وغدوها وكثرة المذابح والنهب وضرائب الحرب الباهظة ، لم تزل بها حتى لم يبق منها إلا مدن خربة مهدامة تقوم وسط ريف ليس به من السكان إلا قلة متناثرة من الفلاحين ، ولم ينبج من عملية الإفقار والفقوى المحزنة هذه إلا مصر السفلى التي ظل حالها أقل سوءاً من بقية العالم . كما أن الإسكندرية والقسطنطينية احتفظتا مع ذلك بقسط متضائل من التجارة بين الشرق والغرب .

وفي غضون ذلك لاح للناس أن العلم والفلسفة قد قضيا مجيها وزايلاهما في الإمبراطوريتين للتناحرين للقسطنطين . ومن قبل ذلك راح أواخر فلاسفة أثينا يحتفظون حتى يوم قضى عليهم جسديان بنصوص الأدب التليد للوروث عن الماضي العظيم ، ويعطون لها بما لا نهاية له من التوقير والاحترام مع قلة الفهم والإدراك . ولكن العالم كانت تموزه تلك الطبقة من الرجال : من أولئك السادة للهذيين الأحرار الذين عمودوا في التفكير عادات الجراءة والاستقلال في الرأي — ليواصلوا تقاليد التعيز الضريح والحب الحر التي تسنها تلك المؤلفات المتينة . ولا شك أن الفوضى الاجتماعية والسياسية هي للشول الأول عن انعدام هذه الطبقة من الرجال . على أن هناك أيضاً سبباً آخر هو مردما انتاب الذكاء الإنساني من القم والانتكاس في أثناء ذلك العصر . فقد ران التفسد وعدم التسامح على كل من فارس وبيزنطة . فكانت كل منهما دولة قائمة على الدين ولكن على شاكلة جديدة . شاكلة عاقت إلى حد كبير جميع نواحي النشاط الحر للعقل الإنساني .

وقد كانت أقدم الإمبراطوريات في العالم بطبيعة الحال دولا دينية تتمركز حول عبادة أحد الآلهة أو الملوك الآلهية . وقد اتخذ الإسكندر إليها ، وجعل القياصرة أرباباً بحيث أقيمت لهم الهياكل والمعابد . وجعل تقديم البخور امتعانا وشاهداً على الولاء لدولة الرومان . على أن هذه الميانات القارية كانت في جوهرها ديانة عمل وواقع . فهي لم تكن لتعزو العقول . فإذا تقدم إنسان بقرائنه وأحصى أمام آلهة ، لم يتلق إرشاداً من أحد ، فهو لا يترك فقط ليفكر في الله على أية شاكلة يهواها ، بل ليقول ما يشاء تقريباً . أما ذلك النوع الجديد من الأديان الذي ظهر عندئذ في العالم ، وخاصة المسيحية ، فإنها تتجه ( ١٩ — تاريخ العلم )

إلى سويداء النفوس . لم تكن تلك الديانات تكفى بالمطالبة بمسيرة الرجل لمن حوله في الإيمان بل تشدد الاعتقاد الواعى . ومن الطبيعى أن تلشب الخصومات العنيفة بين الناس حول للمنى الدقيق لتلك المعتقدات ، ذلك أن هذه الديانات الجديدة كانت ديانات عقائد .

لقد واجه العالم الآن عهد جديد : عهد العقيدة القومية ، كما واجهه تصمم شديد على وضع جميع الأعمال بل حتى الكلام والأفكار الباطنية داخل حدود وتعاليم معلومة مفروضة . ذلك أن الأخذ برأى خاطئ ، فضلا عن نقله إلى سائر الناس لم يعد يعتبر عيباً نهياً بل خطأ خلقياً قد يجلب اللعنة على إحدى النفوس ويقضى عليها بالدمار السرمدى .

ومن ثم اتجه كل من أردشير الأول الذى أسس الأسرة الساسانية في القرن الثالث لليلادى ، وقبطنطين الأكبر الذى أعاد بناء الإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع ، إلى الهيئات الدينية ملتصقاً عونها ، وذلك لأنهما وجدا في تلك الهيئات وسيلة جديدة لاستخدام إرادة الناس والمجتمعة عليها . لذا لم يكد القرن الرابع يشارف نهايته حتى كانت كل من الدولتين تحرم حرية القول وكل ابتداع دينى . أما في فارس ، فإن أردشير وجد في عقيدة الزرادشتية الفارسية الشقة بكل ما سحوت من كهنة ومعابد وناز مقدسة تنقد دواماً فوق مذابحها ، أداة مهيأة لا يلبسده من عقيدة للدولة . فلم تكسد نهاية القرن الثالث تقرب حتى كانت الديانة الزرادشتية مضطهد النصرانية ، كما أن مائى مؤنس « المانوية » وهى عقيدة جديدة ، صلب في ٢٧٧ وبلغ جهنمه . وذلك بينما كانت القسطنطينية من الجهة الأخرى تجد في مقاومة الزندقات للمسيحية . ذلك أن أفكار العقيدة المانوية أثرت في المسيحية ، ولم يكن بد من محاربتها بأفطع الطرق ؛ وحدث في مقابل ذلك أن تأثرت البداى الزرادشتية الخالصة بالفكرات المسيحية . وبذا أصبحت جميع الأفكار متهممة مريبة . فليس عجباً إذن أن يصاب نجم العلم بالأفول التام طوال فترة التعصب هذه ، والعم يستلزم قبل كل شئ عقلاً حراً في عمله غير مضطرب في تفكيره .

كانت الحياة البيزنطية في تلك الأيام تدور حول الحرب وأهد أنواع اللاهوت تعصباً وأبشع رذائل البصر المألوفة . وكان يزنطة ترى في ذلك شيئاً رائعاً جذاباً ، كما



تراه شيئاً شاعرياً رومانسياً<sup>(١)</sup> ؛ وإن كان الواقع يكذب ذلك لحرمان الوضع كله من كل حلاوة أو استنارة . فما كاد يد بيرنطة أو فارس تخلص من الحرب مع برايرة الشمال حتى نهروا على آسيا الصغرى وسوريا بالخراب في أثناء حروبهما المهلكة الدمرة . ولو فرض جدلاً أن هاتين الدولتين عقدتا أوثق أواصر الحبة والتعاضد لما سهل عليهما مع ذلك أن يصدا البرابرة ويستعيدا ما يلينى لهما من رغد . وفي إبان ذلك ظهر الترك أو التار لأول مرة في التاريخ متعالفين آنأ مع فارس وآناً آخر مع بيرنطة .

حتى إذا وافي القرن السادس كان الجيوشان الكبيران هما جستنيان وكسرى أنوشروان ؛ فإذا حلت بداية السابع كان العداء قائماً بين الإمبراطور هرقل وبين كسرى الثاني ( ٥٨٠ ) .

وقد استطاع كسرى الثاني في بداية الأمر ، وحتى أصبح هرقل إمبراطوراً ( ٦١٠ ) ، أن يجتاح كل شيء أمامه ، فاستولى على أنطاكية ودمشق وأورشليم وبلغت جيوشه مدينة خلقدنية ، القاعدة بآسيا الصغرى قبالة القسطنطينية . ثم فتح مصر في ( ٦١٩ ) . وعندئذ تقدم هرقل ليطن بجيوشه قلب فارس في هجوم مضاد كبير ، وشتت قرب نينوى شمل جيش فارسي ( ٦٢٧ ) ، وإن احتفظت فارس في نفس الحين بجيشها في خلقدنية وفي ( ٦٢٧ ) خلع قباذ أباه كسرى الثاني وقتله ، وعقد بين الإمبراطوريتين المكدونيتين صلح غير حاسم .

لقد اشتبكت بيرنطة وفارس في حربهما الأخيرة ، ولكن قل من الناس من كان يعلم آنذاك بتلك العاصفة التي كانت تتجمع في نفس الحين فوق أراضي الصحراء لتنفذ إلى الأبد على ذلك الكفاح المزمع الذي لا هدف له .

وبينا كان هرقل يعيد النظام إلى نصابه في سوريا ، ووصلته رسالة أحضرت إلى موقع أمأى للحراسة الإمبراطورية عند بصري في جنوب دمشق ؛ كانت الرسالة مكتوبة بالعربية إحدى اللغات السامية ، ولا بد أن أحد الترجمة تلاها على مسامع الإمبراطور — إن كانت وصلته أصلاً — كانت تلك الرسالة واردة من إنسان

---

(١) الرومانسي : كل شيء خيالي عمرأ كان أم ثراً يتطلق وراء حدود الحياة العادية ويسمى أحياناً بالرومانتيكس .  
[ للترجم ]

يسمى محمداً رسول الله ، وهي تدعو الإمبراطور إلى عبادة الله الواحد الأحد وشهادة أن لا إله إلا الله . ولم يستجلب لنا التاريخ ما قاله الإمبراطور في تلك الرسالة . وجاءت رسالة مماثلة لهذه إلى قباز في المدائن . فاستاء منها وحرقها ، وأمر الرسول بالانصراف . فلما بلغ محمداً نبأ ذلك قال :  
« حرق الله ملكه » .

وقد ظهر أن محمداً الذي أرسل الرسالة كان زعيماً دينياً اتخذ مركز دعوته في « المدينة » إحدى البلدان الصحراوية الصغيرة . وكان يعلم الناس ديانة جديدة تدعوهم إلى عبادة الله الواحد الحق .

## الفصل الثاني الأزبجون

أسرتا دسوى ، وتانج ،

بالصين

امتازت القرون الخامس والسادس والسابع والثامن الميلادية بتقدم الشعوب المغولية نحو الغرب . فلم يكن هون أنبلا إلا مقدمة لذلك التقدم ، الذى أنفضى فى النهاية إلى استقرار شعوب مغولية فى غطلغة واستونيا وبلاد المجر ، حيث لا يزال أحفادهم يعيشون إلى يومنا هذا ويشكلون لغات تشبه التركية . والبغار أيضا شعب تركى الأرومة ، ولكنهم اتخذوا لأنفسهم لسانا آريا . فإن القول كانوا يلعبون مع الحضارات المطبوعة بالطابع الآرى فى أوروبا وقارص والهند ، نفس الدور الذى لعبه الآريون لإزاء المدنيين الإيجية والسامية قبل ذلك بضعة قرون .

أما فى آسيا الوسطى . فإن للشعوب التركية سارت فيها تسمية اليوم باسم التركستان الشرقية . كما أن الدولة الفارسية كانت تستخدم فعلا كثيرا من الموظفين الأتراك والهند المزوجة الأتراك . وكان الأفغانيون ( البارتيون ) قد بادوا من التاريخ تماما وانضمم سكان فارس بوجه عام ، ولذا لم يجد فى تاريخ آسيا الوسطى أى زحل آريين ، إلا حلت الشعوب المغولية محلهم . وأصبح الترك سادة على آسيا بالنطقة الممتدة من بلاد الصين إلى بحر الخزون ( خزون )

الذى الوفاء العظيم بنفسه الذى حدث . عند نهاية القرن الثانى الميلادى ونجم عنه تمزيق الدولة الرومانية ، إلى إسقاط أسرة « هان » عن عرش الصين . ثم حلت بالصين فترة خيمت عليها فى أثنائها الفرقة والانقسام والتعرض لغارات الهون ، ولم تلبث أن نهضت بعدها متمتعة القوى ، وبعنفية أسرع . وكان كما نرى لأوروبا فيما بعد : فلم

يكبد يحل القرن السادس الميلادي حتى كانت الصين قد اتحدت تحت أسرة سوى ، ولم تلبث هذه حتى حلت عليها في عهد هرقل أسرة تانج ، التي يسجل التاريخ لحكمها عهدا عظيما آخر من عهود الرخاء بالصين .

كانت الصين طوال القرون السابع والثامن والتاسع الميلادية ، أعظم أقطار العالم أمنا وأبعد في الحضارة باعاً ، ومن قبل ذلك مدت أسرة هان مخومها شمالاً ؛ ثم جاءت أسرتا سوى وتانج فيسقطنا ألوية حضارتها جنوباً ، وبذلك شرعت الصين تحصل على الرخوة الفسيحة التي لها اليوم . أجل إن ممتلكاتها كانت آنذاك بآسيا الوسطى أبعد كثيراً عما هي اليوم ، إذ كانت تمتد على طريق القبايل التركية الخاصة لها ، حتى تبلغ في النهاية تخوم فارس و بحر قزوين .

وبستان بين الصين الجديدة التي نشأت وقتئذ وبين الصين القديمة لأسرة هان . فقد ظهرت بها مدرسة أدبية جديدة أعظم قوة من كل ما سبقها ، وحدث في الشعر نهضة عظيمة ؛ كما أن للبوذية أحدثت انقلاباً في الفكر الفلسفي والديني ، وحدث تقدم عظيم في الإنتاج الفني ، والمهارة الفنية التطبيقية وفي كل ما بهيج الحياة من نغم ومسررات . فاحتسب الشاي لأول مرة في التاريخ ، كما صنع الورق ، وبدا بالطباعة بواسطة الكتل الخشبية . والحق أن ملايين من الناس كانوا يعيشون ببلاد الصين عيشاً جذاباً رقيقاً ينظر إلى ان تلك القرون ، التي كان فيها سكان أوروبا وآسيا الغربية الذين تناقص عددهم يعيشون عيشاً ذريعاً : بين ساكن في كوخ خيبر أو نازل في مدينة مبعورة صغيرة أو متحصن بقلعة لصوم بشعة الصورة . وفي نفس الوقت الذي كانت تخشى فيه عقل الغرب دياجير التعصب اللاهوتي ، كان عقل الصين متفتحاً للعلم متساعها باجتماع المعرفة .

ومن أقدم ملوك أسرة تانج الإمبراطور تاي تسونج الذي ابتدأ حكمه في (٦٢٧) ، وهي نفس السنة التي انتصر فيها هرقل قرب نينوى . وقد جاءه سفير من قبل هرقل ، الذي ربما كان يست عن حليف له في الجهة الأخرى من بلاد فارس ووقفت عليه من فارس نفسها جماعة من المشرقيين المسيحيين (٦٣٥ م) . فسمع لهم أن يشرحو عقيدتهم أمامه ، وأخذ يدرس ترجمة صليبية لكتبهم الموزة . ثم أعلن أن في الإمكان قبول هذه الديانة الصينية ، وأذن بإنشاء كنيسة ودير .

وإلى ذلك الماهل نفسه أقبلت رسل النبي محمد في (٦٢٨) فوصلوا إلى كاتتون على ظهر إحدى السفن التجارية ، بعد أن قطعوا الطريق بالبحر على امتداد سواحل الهند ، وأغار نايكسوج لهؤلاء الجوعين أذنا مصفية كريمة على التقيض مما فعله قباذ وهرقل ، ثم أبدى اهتماما بأرأهم الدينية ، وساعدهم في بناء مسجد بمدينة كاتتوت ، وهو مسجد لا يزال باقيا- فيما يقال - إلى وقتنا هذا ، فهو بذلك أقدم مساجد العالم .

## أفصل الثالث والأربعون

### محمد والإسلام

لو أن هاويا للتنبؤ في التاريخ استعرض أحوال العالم عند مستهل القرن السابع للميلادى لأمكنه أن يستنتج بحق - أنه لن تنقضى بضعة قرون حتى تقع أوروبا وآسيا بأكملها في قبضة للفول ، ذلك أن أوروبا القارية حرمت كل شاهد يدل على النظام أو الاتحاد ، كما أن الدلائل كلها كانت تدل على أن دولتي الروم والفرس لن ترجعا حتى تدمر كل منهما الأخرى . وكان الانقسام والحرب يعمل عمله في الهند أيضاً ، وذلك في حين أن الصين كانت آنذاك إمبراطورية مستمرة الاتساع ، ربما فاقت أوروبا جمعاء في عدد السكان ، فضلا عن ميل الشعب التركي القوي أخذ يتسم غارب القوة بآسيا الوسطى إلى العمل على الوفاق مع الصين.

وما كانت مثل هذه النبوءة عبثاً باطلاً بأى حال ، إذ جاء في القرن الثالث عشر أو أن قدر فيه لسيد مغولي أهل أن يحكم إقليماً يمتد من نهر الدانوب إلى المحيط الهادى ، كما كتب للأسرات التركية للسالكه أن تحكم الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية جميعاً وتسود مصر ومعظم بلاد الهند .

أما النقطة التي ربما تعرض فيها ذلك للتكهن للخطأ فهي عدم تقديره بالضبط قدرة أوروبا اللاتينية على استرداد قواها ، وتجاهله للقوى الكامنة في الصحراء العربية ، إذ إن بلاد العرب ربما لاحت لئنه على صورتها التي دامت عليها منذ أزمان سحيقة القدم : حيث كانت مرتما لتيقاتل صغيرة متناوشة من الرجل ، وقد انقضت آنذاك أكثر من ألف سنة ، لم ينشئ شعب سامى في أثنائها إمبراطورية واحدة .

ثم ما لبث نجم البدو أن سطع ياهر الضياء مدة قرن واحد وجيز حافل بالأهمية والفخامة ، مدوا في أمتائه حكمهم ولتهم من بلاد الأندلس حتى حدود الصين ، ومنحوا

السلام ثقافة جديدة ، وأقاموا عقيدة لا تزال إلى اليوم من أعظم القوى الحيوية في العالم .

أما الزجل الذي أشعل ذلك القبس العربي ، وهو عمد [ عليه السلام ] فيبدو لأول مرة في التاريخ بمدينة مكة ، حيث تزوج وهو شاب من أرملة ثرية ولم تأت الرسالة حتى بلغ الأربعين ؛ لقد لم يتميز قبل ذلك بشيء اللهم إلا ما عرف عنه من أمانة واستقامة والظاهر أنه كان يهتم اهتماما بالغا بالبحث<sup>(١)</sup> الدينية . كانت مكة بلدة وثنية في ذلك الزمان تعبد بوجه خاص حجرا أسود في بناء الكعبة ذاع صيته في كل أرجاء الجزيرة العربية ، فأصبح مقصد الحج والحجاج ؛ ولكن البلاد كانت تحوي عدداً ضخماً من اليهود — بل الواقع أن الجزء الجنوبي من بلاد العرب كان يتبع اليهودية ديناً — كما أن سوريا كانت بها العقائد للسيحية .

وعندما قارب الأربعين من عمره ، أخذ ينزل عليه ناموس النبوة الذي كان لأنبياء العبرانيين قبل عهده باثني عشر قرناً .

تحدث أولاً إلى زوجته بكلام كثير : — عن الله الواحد الحق . وعن ثواب الإحسان والمحسنين وعذاب الشر والضلال ، فجمع حوله حلقة صغيرة من المؤمنين ، ثم شرع يحظ الناس في بلده ويحضهم على ترك ما يبدون من أوثان ، فكرهه لذلك قومه وأهل بلده ، نظراً لأن الحج إلى الكعبة كان أعظم مصدر للخير العميم الذي تحظى به مكة .

ومالئ أن زاد جراً . وأن حدد تعالىه أكثر ، فأوحى إليه فأعلن أنه خاتم أنبياء الله وأنه بعث ليلم الدين ومكارم الأخلاق . وصرح بأن إبراهيم وعيسى كانا به نبشرين ومنذرين سابقين . وأنه اضطر ليلم ويكمل الكشف عن إرادة الله .

---

(١) لم يعرف عنه صلوات الله وسلامه عليه ذلك ، بل المروف هو تقوره من عبادة الأوثان وعدم سجوده لغيره قط .

وكما اعتدت قوة تعاليمه باعتدت وطأة عداوة إبطاء بلده له ، حتى تراهى بهم الأمر إلى التآمر به ليقتلوه ؛ ولكنه هاجر مع صديقه الصدوق وتلميذه الأمين أبي بكر إلى بلدة المدينة للولاية التي اعتنت مبادئه .

ومالئت الحصومة والحرب أن استمرت بين مكة والمدينة ، وانتهت في آخر الأمر بمهادنة صلح ؛ قبلت مكة بمقتضاها أن تعبد الله الواحد الأحد ، وأن ترضى بمحمد رسولا له ونبياً ، على أن يواصل أتباع العقيدة الجديدة أداء فريضة الحج بمكة .

بذلك ولد محمد — بوحي من ربه — عبادة الرب الواحد الحق بمكة دون أن يضر تجارتها وحجيجها . وعاد إلى مكة في ٦٢٩ سبأ لها مطاع الكلمة ، وإذا هو يرسل في مدى سنة من ذلك التاريخ مبعوثيه إلى هرقل ونايسونج وقباز وجميع حكام الأرض كافة .

ثم راح النبي عليه الصلاة والسلام ييسط سلطانه على بقية أجزاء الجزيرة العربية في السنوات الأربع الأخيرة قبل وفاته في ( ٦٣٢ ) ، وتزوج عدداً من النساء في أثناء سنى شيخوته .

ويلاحظ أنه رجل ركبت فيه طبع كثيرة ، منها شدة الشعور الديني القوي والإخلاص . وأوحى إليه من الله كتاب هو القرآن ويحوى كثيراً من التعاليم والشرائع والسنن .

ويحتوى الإسلام الذي فرضه النبي على العرب ديناً ، الشيء الكثير من القوفا والإلهام . فمن خصائصه التوحيد الذي لا هوادة فيه ؛ وإيمانه البسيط للتمسك بحكم الله للناس وأبوابه الشاملة لهم وخلوه من التعقيدات اللاهوتية .

ومن خصائصه كذلك أنه منفصل تمام الاتصال عن كلهن القرابين ومبجدها ، فهو عقيدة نبوية تماماً ، بأمن حسين من كل انزلاق نحو القرابين الدمية .

والقرآن حين يذكر طبيعة الحج إلى مكة بصورة محددة واضحة الشعائر ، إنما يحيلها بأمن من كل احتمال للزراع في شأنها ، كما أن النبي اتخذ كل احتياط ليعول دون تأليهه بعد مماته ، وثمة عنصر ثالث للقوة يكمن في إصرار الإسلام على أن المؤمنين جميعاً إخوة متساوون تماماً أمام الله ، مهما اختلفت ألوانهم أو أصولهم أو مراكزهم . ويقول هذه هي الأمور التي جعلت الإسلام قوة فاعلة في الشؤون الإنسانية . ويقول



المؤرخون إن المؤسس الحق للدولة الإسلامية لم يكن محمداً قدر ما هو صديقه ومساعد  
أبو بكر . فلئن كان محمد هو العقل للفكر والتصور للبهيم للإسلام الأسمى ، فلقد كان  
أبو بكر ضميره وإرادته ، حتى إذا مات محمد أصبح أبو بكر خليفته ، ثم راح ببقيدة  
تزعزح الجبال ، يعمل ببساطة وعقل راجع على إخضاع العالم كله لأمر الله — ببساطة  
جيوش يتراوح عددها بين ثلاثة أو أربعة آلاف عربي طبقاً لتلك الرسائل التي كتبها  
النبي عليه السلام من المدينة في (٦٢٨) إلى جميع ملوك العالم . فهو بحق مؤسس دولة  
الإسلام .

## الفصل الرابع والأربعون

### عبد عظمة العرب

ثم جاءت بعد ذلك أعجب قصص الفتح التي مرت على مسرح تاريخ الجبلين البشري. إذ تمزق الجيش البيزنطي في معركة اليرموك (وهو أحد روافد نهر الأردن) في (٦٣٤)؛ ولم يلبث الإمبراطور هرقل — وقد استنزف دماء الاستسقاء قواه كما استنفدت الحرب الفارسية موارده المالية — أن رأى ممتلكاته التي استردها وشيكا في سوريا وهي دمشق وتدمر وأنطاكية والقدس وغيرها، تنداعى أمام المسلمين دون مقاومة تقريباً. واعتنقت الإسلام نسبة كبيرة من السكان. ثم اتجه المسلمون شرقاً إلى بلاد الفرس الذين وجدوا في رسم قائداً قديراً؛ فجمعوا له جيشاً عظيماً به قوة من الفيلة؛ واستمروا يقاتلون العرب ثلاثة أيام عند القادسية (٦٣٧) ثم هزموا في النهاية هزيمة تامة.

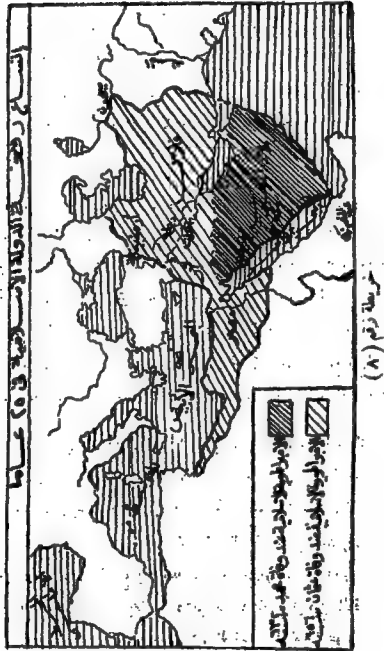
وتم بعد ذلك فتح فارس بأجمعها، وتقدمت السولة الإسلامية قدماً إلى التركستان الغربية ثم توغلت في الشرق حتى التفت بالصينيين، وسقطت مصر دون مقاومة تذكر في يد الفاتحين.

واندفع سيل الفتح على ساحل إفريقيا الشمالي حتى بلغ مضيق جبل طارق وتجاوزته إلى بلاد الأندلس في ٧١٠، وبلغ الفاتحون جبال البرانس في ٧٢٠. ولم يلبث تقدم العرب حتى بلغ وسط فرنسا في ٧٣٢، ولكنه أوقف هنا إلى الأبد بعد معركة پواتيه<sup>(١)</sup>، ورد على أعقابهم إلى جبال البرانس ثانية. وصار للعرب بفتح مصر أسطول بحري، وجاء أوان لاح فيه سقوط القسطنطينية وشيكا، فهاجوها بحراً مرات عديدة بين ٦٧٢، ٧١٨، ولكن المدينة العظيمة صمدت أمام هجماتهم.

لم يوهب العرب كفاية سياسية كبيرة، كما أنهم لم يرزقوا أية خبرة سياسية أبداً، قدما

---

(١) هي معركة بلاط الشهداء التي هزم فيها عبد الرحمن الثقفي على يد شارل مارتل الفرنجي



لم يقدر لهذه الإمبراطورية العظيمة التي أصبحت قصبها آنذاك مدينة دمشق ، والتي امتدت رقعتها من إسبانيا إلى الصين ، أن تعيش طويلا . ومنذ البداية نفسها ، قوضت الخلافات المذهبية وحدتها . على أن محور اهتمامنا هنا ليس قصة تفككها السياسي ، بل أثرها في العقل الإنساني وفي الحضارة العامة لجنسنا البشري . لقد قذفت للقادير بالدكاء العربي في طول العالم وعرضه بصورة أسرع وأروع مما فعلت بالعقل اليوناني قبل ذلك بألف سنة خلت . لقد عظمت إلى أقصى حد الاستقارة العسكرية التي أحدثها وجودهم للعالم أجمع غربي بلاد الصين ، كما اشتد تمزيق الأفكار القديمة وتطور أخرى جديدة .

وفي فارس اتصل هذا العقل العربي الجديد التلي لا بالمبادئ المانوية والزرادشتية والسيحية وحدها ، بل التقي أيضاً بمؤلفات الإغريق العلمية ، التي لم تكن مكتوبة فقط باللغة اليونانية بل في ترجمات سريانية كذلك . ثم إنه وجد العلوم اليونانية بمصر أيضاً . كما أنه استكشف في كل مكان وخاصة ببلاد الأندلس تقليدا يهوديا ناشطا في نواحي التأمل البصري والجدل . والتقى في وسط آسيا بالبوذية وبما بلغت الحضارة الصينية من ألوان التقدم المادي ؛ تعلم منها صناعة الورق ، التي يرجع إليها الفضل في ظهور الكتب للطبوعة . ثم اتصل ذلك العقل أخيرا بالرياضة والفلسفة عند الهنود .

وما هي إلا فترة وجيزة جدا حتى ولى الشعور المتعصب بالكفاية الذاتية الذي ظهر في أيام العقيدة الأولى . والذي كان يصور القرآن في صورة الكتاب الوحيد الذي يهون الأخذ به . فكان العلم يشب على قدميه وثبا في كل موضع وطئته قدم الفاع العربي . فلم يحل القرن الثامن الميلادي حتى كانت لدولة منظمات تعليمية تنتشر في كل أرجاء العالم للاستعرب . وحين وفي التاسع إذا بالعلماء في مدارس قرطبة بالأندلس يتراسلون مع إخوانهم علماء القاهرة وبغداد وبخارى ومصر قند . وتمثل كل من البطلين اليهودي والعربي بعضهما بعضا ، ومرت فترة تعاون فيها الجلسان الساميان على العمل للتضافر بواسطة اللسان العربي . ثم تمزق شمل العرب وضفت شوكتهم ، ولكن هذا الارتباط العسكري بين أصقاع العالم الناطق بالعربية دام بعد ذلك القزق طويلا . وكان لا يزال ينتج في القرن الثالث عشر نتائج عظيمة جدا .

وهكذا حدث أن التجميع والنقد النظم للعقائق الذي بدأه الإغريق لأول مرة ،



عاد سيرته الأولى في ثنانيا تلك النهضة المدهشة التي نهضها العالم السامى . فالآن دبت الحياة في بذرتى أرسطو ومنصف الإسكندرية ، اللتين طال العهد على خمودهما وإهمال الناس لهما ، وإذا هما تنبتان من جديد وتأخذان في الإعمار .

لقد تم للعرب في حقول العلوم الرياضية والطبية والطبيعة ضروب كثيرة من التقدم . فنبذت الأرقام الرومانية القبيحة وحلت محلها الأرقام العربية التي نستعملها إلى يومنا هذا . واستعملت علامة الصفر لأول مرة .

ولا يخفى أن اسم « الجبر » نفسه لفظ عربى . وكذلك كلمة « كيمياء » . ثم إن أسماء نجوم كنجهم القبول والدبران والمواء Bootes تحتفظ بذكرى فتوح العرب في أطباق السماء ، وبفضل فلسفتهم عادت الحياة إلى فلسفة القرون الوسطى بكل من فرنسا وإيطاليا والعالم المسيحى كافة .

وكان علماء الكيمياء التجريبيون عند العرب يسمون « أسعاب الصنعة » Alchemists ، ولكنهم ظلوا على جانب كبير من النزعة الممجيبة من حيث احتفاظهم بطرائقهم وتأثيرها في طى الكتان ما وسعهم ذلك ، لأنهم أدركوا منذ البداية الأولى ما قد تعود به عليهم مستكشفاتهم من مزايا هائلة وما قد يترتب بها على الحياة البشرية من عواقب بيئة الأثر .

ولا شك أنهم وقفوا إلى مستنبطات في المعادن والتطبيقات الفنى كثيرة ولها قيمة قصوى ؛ فهم الذين عثروا على السبائك والأسباغ والتقطير والألوان والطور وزجاج العدسات .

ولكنهم كانوا يلهثون غرضين رئيسيين ظلوا يلهثونهما غشا ، أما أول الغرضين « فحبر الفلاسفة » الذى ابتغوه وسيلة لتحويل العناصر المعدنية بعضها إلى بعض ، وبذلك يحصلون على المينة على صنع الذهب . أما الغرض الثانى فهو إكسیر الحياة . وهو ترياق جيد الشباب ويطيل العمر إلى ما لا نهاية ، وعن هؤلاء الكيماويين العرب انتشرت إلى العالم المسيحى التجارب المعقدة المحفوفة بالمشقة والصبر ، ذلك أن فتنة أبحاثهم امتدت إلى غيرهم . ولم تصح جهود هؤلاء الكيماويين تعاونية واجتماعية بدرجة أكبر إلا رويدا رويدا وبالتدرج البطيء للغاية ، فإتهم شعروا بالفائدة التي تعود عليهم من تبادل الأفكار وموازنتها .

وهكذا أصبح أواخر أهل الصنعة أول فلاسفة التجريب على صورة من التدرج البطيء غير المحسوس .

كان قداماء أهل الصنعة يشدون حجر الفلاسفة الذي يراد له أن يحيل المعادن الدينية إلى ذهب ، كما يطلبون إكسيرا للخلود ؛ ولكنهم عثروا على مناهج العلم التجريبي الذي يوشك في خاتمة الطواف أن يمنح الإنسان سلطاناً لا حد له على العالم كله ، بل وعلى مصائرهم هو نفسه .

## الفصل الخامس من الأربعة

### تطور عالم المسيحية اللاتينية

يجدر بنا أن نلاحظ أن مساحة نصيب الآريين من هذا العالم في القرنين السابع والثامن قد أصبحت متقلصة تقلصاً مفرطاً . وقبل ذلك بألف سنة ، كانت الأجناس الناطقة بالآرية هي صاحبة التلبة على العالم المتضرر كافة إلى الغرب من بلاد الصين . أما اليوم فقد تقدم اللول حتى بلغوا بلاد البحر ، ولم يبق من آسيا شيء تحت حكم الآريين إلا للممتلكات البيزنطية بآسيا الصغرى ، كما أفلتت من قبضتهم إفريقية كلها وضاعت إسبانيا كلها تقريباً . وقد انكشف العالم الهليني العظيم حتى أصبح يضع ممتلكات قليلة تتمركز حول نواته مدينة القسطنطينية التجارية ، ولم يبق من شيء يخلد ذكرى العالم الروماني سوى اللسان اللاتيني الذي ينطق به قساوسة المسيحية الغربية . وعلى النقيض القوى لقصة الانحطاط هذه ، كانت التقاليد السامية قد انتعشت ثانية ونفضت عنها غبار الذلة والانحطاط بعد ألف سنة من الظلمات الداجية .

على أن حيوية الشعوب الآرية لم تستنفدها الأيام تماماً . فلزمهم وإن حصرها آتتد في منطقة أوروبا الوسطى والشمالية الغربية وتمرغوا تمرغاً ذريعاً في حمأة أفكارهم الاجتماعية والسياسية ، فقد شرعوا مع ذلك يبنون بالتدريج وبصفة مستمرة دأمة نظاماً اجتماعياً جديداً ويعدون العدة ، بغبر وعى منهم ، لاستعادة سلطان أوسع كثيراً مما استمتعوا به في الماضي .

وقد أسلفنا لك كيف أنه حدث في بداية القرن السادس أن أوروبا الغربية لم تعد بها على الإطلاق حكومة مركزية . فإن ذلك العالم قد تقاسمته جماعة من الحكام المحليين الذين يستقل كل منهم يشئونه بقدر طاقته . وفي ذلك ما فيه من الاضطراب الذي لا ييسر بأى دوام لتلك الحالة ؟ قد انجم بين ظهراني تلك الفوضى ضرب من التعاون والترابط ، هو النظام الإقطاعي الذي بقيت آثاره في الحياة الأوروبية إلى وقتنا هذا . كان هذا النظام الإقطاعي ضرباً من تبلور المجتمع حول « القوة » ، فإن



الرجل الفرد أحس في كل مكان بالخوف وعدم الطمأنينة وبدافع يدفعه إلى مقاضاة شيء من حريته بشيء من اللعنة والحماية . فالتمس لنفسه رجلاً أقوى منه شوكة ليكون سيداً له وحامياً ؛ وإليه قدم خدماته العسكرية ودفع للكوس ، وتلقى مقابل ذلك تأكيداً بامتلاكه ماله من ممتلكات ، وكذلك الشأن مع سيده الذي كان يحس الأمان في الخضوع لمولى أعظم منه هو أيضاً . ووجدت للذين كذلك أن من الخير الملائم لها أن تحصل على حماة إقطاعيين ، كما أن الأديرة وممتلكات الكنيسة ربطت نفسها بروابط مماثلة لهذه . ومن البديهي أن الولاء كان يطلب في كثير من الأحيان قبل أن يقدم تلقائياً ؛ فكان النظام كان ينمو إلى أسفل ، ثم كان ينمو من أسفل إلى أعلى . وبذلك نشأ ضرب من نظام هرمي يختلف اختلافاً بعيداً بمختلف المناطق ، ويسمح في البداية بقدر عظيم من العنف والحروب الأهلية أو الخاصة ولكنه يتيح باستمرار نحو إقرار النظام ، ونحو عهد جديد يسوده القانون . وما زالت الأهرامات تملأ حتى أصبح بعضها ملكيات واضحة المعالم . وكانت هناك منذ عهد قديم جداً ، هو بواكير القرن السادس ، مملكة فرنجية تحت حكم مؤسسها كلوفيس وموقعها فرنسا الحالية والأراضي المنخفضة ( بلجيكا وهولندا ) ، وسرعان ما ظهرت أيضاً ممالك قوطية غربية ولومباردية .

وعندما عبر السامون جبال البرانس في ٧٢٠ وجدوا هذه المملكة الفرنجية تحت الحكم « الواقسي » لشارل مارتل ، ناظر القصر لدى حفيد منحل من سلالة كلوفيس ، — وهناك عند بواتيه ( ٧٣٢ ) قوا على يده هزيمة فاصلة . كان شارل مارتل هذا في الواقع السيد المتحكم في أوروبا في رقعة تمتد شمال جبال الألب ، من جبال البرانس حتى بلاد المغرب . وكان يسيطر على البلد الجرماني من السادة التابعين الناطقين باللاتينية الفرنسية ، وبالغتين الجرمانيتين العليا والسفلى<sup>(١)</sup> . وما لبث ابنه « بين » أن قضى على آخر البقية الباقية من أحفاد كلوفيس ، واستولى على ملكيتهم وتاجهم . ووجد حفيده شارلمان الذي بدأ حكمه في ٧٦٨ نفسه حاكماً على مملكة بلغت من الاتساع أنه فكر أن يمد لقب أباطرة الدولة الرومانية الغربية ( اللاتينية ) ويتلقب به . ففتح شمال إيطاليا وجعل نفسه سيداً على روما .

(١) الجرمانية العليا : هي لغة مرتفعات ألمانيا وجنوبها - والجرمانية السفلى هي لغة السهول الشمالية المنخفضة .  
[ المترجم ]

وعندى أن في مستطاعنا ، ونحن نستعرض قصة أوروبا استعراض التاريخ العالمى الرحب الأفق ، أتول في مستطاعنا أن تبين أكثر من مؤرخ قومي بحث ، الأثر الأليم العوق الذى جلبه على أوروبا إحياء ذلك القلب الرومانى الإمبراطورى . إذ إن أوروبا نكبت بكفاح حاد ضيق الأفق دار حول هذه السيادة الوهمية ولقها مدة تزيد على ألف سنة ، استغدى أثناءها كل طاقاتها . ولو نظرت إلى تلك الفترة كلها لأمكنك تعقب خصومات حامية الوطيس فيها ؛ ولرايتها تتأجج في عقول الأوربيين تأجج الوسواس<sup>(١)</sup> في عقل محبوب به من الجنون . ومن هذه الدوافع القوية طموح كبار الحكام . الذين يمثلهم شرلمان (ومنها شارل الأكبر) - إلى التلقب بقلب قيصر . وكانت مملكة شرلمان تكون من مجموعة متعقدة من دول إقطاعية جرمانية تتراوح في قوة طابعها البربرى . وقد تعلت معظم هذه الشعوب الجرمانية في غرب نهر الرين أن تنطلق بلهجات تلونت باللون اللاتينى ، ولم تلبث في النهاية أن اندمجت فأصبحت اللغة الفرنسية الحديثة . أما إلى الشرق من نهر الرين فإن الشعوب الجرمانية الماثلة في جنسها لتلك التى في غرب النهر لم تفقد لسانها الجرمانى . لذا لم يعد التواصل سهلا بين طائفتي هؤلاء الفزاة البرابرة ، وسرعان ما حدث الصنع بينهما . وزاد في تيسير الصنع أن عرف الفرنجة كيف يحصلون من الطبعى تقسيم إمبراطورية شرلمان بين أولاده عند موته .

لذا أصبح من الظواهر المألوفة في تاريخ أوروبا منذ أيام شرلمان لما بعدها ، أن يشعول إلى تاريخ لهذا الملك وأسرته أو ذلك ، وهم يكافحون في سبيل رئاسة مقلقة على من عاصروهم في أوروبا من ملوك وأمراء ودوقات وأساقفة ومدن ، في حين أخذ العداء بين العناصر الناطقة بالفرنسية والألمانية - يزداد عمقا في طوايا تلك الحصارمة . وقد جرت العادة بإقامة انتخاب شكلى لكل إمبراطور يتولى العرش ، وكان أقصى ما يتنى كل منهم أن يكافح حتى يمتلك روما العاصمة البالية ذات الموقع السيئ وأن يحظى بالتتويج فيها .

أما العامل الثانى في الاضطراب السياسى بأوروبا فهو خصم الكنيسة بروما على ألا نسمع لأى أمير علمانى إلا بابا روما نفسه أن يصبح إمبراطورا واقعا . وقد سبق للبابا

---

(١) الوسواس ( Obsession ) فكرة ملحة تتاود الفرد دائما فتلون عادة بلون عاطفى قوى ، وغالبا ما تتلوى على دائم إلى القيام بنوع من التصرف ، وهى حالة عقلية مرضية وتسمى في علم النفس باسم المحاز أو الانحصار . [ المترجم ] .

كما أسلفنا أن اتخذ لقب الحبر الأعظم ؛ وكانت كل الجماعى العلمية البحتة تدعوه إلى الاحتفاظ بتلك المدينة التنداعية المتدهورة ؛ ولئن أبجوزته الجيوش فلقد كان يملك على الأقل مؤسسة غفمة للدراسة ، لسانها قساوسته المنتشرون فى كل أصقاع العالم اللاتينى ؛ ولئن قل نصيبه من السلطان على أجسام الرجال ، فلقد ملكت يمينه فيما تصور أختيهم مفاتيح الجنات والجحيم ، وكان له من ثم نفوذ كبير على نفوسهم . قدأ فالصور التى ترسم أمامنا عن الصور الوسطى بأكلها هى أنه فى الوقت الذى كان أحد الأمراء يداور ويناور ضد زميل له طلبا للساواة به أولا ، ثم التفوق عليه ثانيا ، ثم التماسا للهدف الأعلى المرموق أخيراً — كان البابا فى روما يداور هو أيضا ويناور لإخضاع الأمراء جميعا لسلطاته بوصفه السيد الأعلى للصراينة ، يقوم بذلك بجرأة وجسارة أحيانا ، وبإعمال المكر والدهاء تارة ، أو بحجة وضغف أخرى ( وذلك لأن الباباوات كانوا جماعة متعاقبة من الشيوخ لم يزد حكم أحدهم عن ستين قط ) .

يبد أن هذه الخصومات الناشئة بين الأمير وبين الإمبراطور والبابا لم تكن هى وحدها بأية حال عوامل الاضطراب بأوروبا ، فقد كان بالقسطنطينية إمبراطور يشكم الرومية ويطلب أوروبا كلها بالولاء لعرشه ، وعندما حاول شرلمان أن يثبت الإمبراطورية ، لم يوفق إلى أكثر من اجتماع القسم اللاتينى منها . فكان من الطبعى إذن أن ينشأ بسرعة بين إمبراطورية اللاتين وإمبراطورية الروم شعور بالنافسة . على أن تطور المنافسة بين الكنيسة المسيحية الناطقة بالرومية وبين مثلتها الحديثة الناطقة باللاتينية كان أشد وأسرع . فادعى البابا بروما أنه خليفة القديس بطرس كبير تلاميذ يسوع المسيح وأنه رئيس المجتمع المسيحى فى كل مكان . وبدعى أن إمبراطور القسطنطينية وبطريقها لا ينظران بعين الرضا إلى هذا الادعاء ، ونشب نزاع فى ١٠٥٤ حول نقطة دقيقة فى موضوع التالوث القدس ، فكان نقطة الالتجار التى تصدعت معها العلاقة بين الطرفين بعد مجموعة متتالية من الخلافات . فافترقت الكنيسة اللاتينية عن أختها اليونانية وتميزت إحداهما عن الأخرى منذ ذلك الحين ، وأسفرت عما تكنه للأخرى من عداوة . وينبغى أن نضيف هذه الخصومة الجديدة إلى غيرها من الخصومات التى ذكرناها فى تعدادنا للنزاعات التى بددت قوى عالم الصراينة اللاتينية فى الصور الوسطى .

وعلى رأس هذا العالم المسيحى المشرق السكلمة ، انتهالت الضربات من قبضة



السياسى للشعوب البربرية جماء ، وهى اقسام أبناء الحاكم الرئيس على أنفسهم . ولعله مما يشير اهتمامك أن تأمل النتائج التى كانت ترتب على دوام هذا الاتحاد للوقت الذى قام على يد النورمان . والنورمان شعب أوتى جرأة مدعشة وهمة نادرة . تقدموا بمراكبهم فى البحر طويلا حتى لقد بلغوا لاسلند وجريتلند . وهم أول من نزل على أرض أمريكا من الأوروبيين . وقد حدث فيما يلى ذلك من عهود التاريخ أن النورمان استردوا صقلية من يد العرب ونهبوا روما . وقد يستوى ألباننا تصور تلك الدولة البحرية الشجالة العظيمة التى كانت نواتها مملكة كانتوت ، وقد امتدت من أمريكا إلى روسيا .

وإلى الشرق من الجرمان والأوروبيين للصطبيين بالصبة اللاتينية كان ينزل خليط من القبائل السلافية ( الصقلية ) والشعوب التركية . ومن أبرز هؤلاء المجرىون ( الهنغارون ) الذين طلوا يقدمون غربا طيلة القرنين الثامن والتاسع . ولقد صدم شرلمان إلى حين ، ولكنهم وطدوا أقدامهم بدموته فى بلادهم الحالية ، وأخذوا يشيرون كلما جاء الصيف على أنظار أوروبا للسترة على جارى عادة الهون أسلافهم للشابيين لهم . وقد اخترقوا ألمانيا كلها فى ٩٣٨ حتى وصلوا فرنسا ، وعبروا جبال الألب حتى دخلوا شمال إيطاليا ، ومنها عادوا إلى وطنهم بعد أن ماثوا فى تلك البلاد سرقة وتحرشا وتدميرا .

وأما الغزوة الثالثة التى نزلت بأوروبا ، فجاءت من العرب الذين هبوا بهمة قوية من الجنوب يقضون على بقايا الدولة الرومانية . فدنا سلطانهم على البحر إلى حد كبير ، ولم يكن لهم على صفحته من منافس قوى إلا النورمان : — نورمان الروس الخارجون إليهم من البحر الأسود ونورمان القرب .

حتى إذا أحاطت هذه الشعوب العدوانية العارمة بشرلمان وبمن خلفه من عواهل طامعين إلى الملا ، وجعلتهم يشعرون أنهم تكتنفهم قوى لا يقفون لها معنى وأخطار لا يستطيعون لها تقديرا ، راحوا يظلمون بمسرحية غير ذات غناء ، هى إعادة الإمبراطورية القرية إلى الحياة تحت اسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة . ولم تزل هذه الفكرة تخامر الحياة السياسية لأوروبا القرية منذ عهد شرلمان مخامرة حالات التهوس ، على حين كان النصف اليونانى من الدولة الرومانية يضمحل فى الشرق وينوى حتى لم يبق منه فى النهاية شيء خلا مدينة تجارية فاسدة منهورة هى القسطنطينية وحولها بضعة أميال من الأراضى المحيطة بها . وبهذا أصبحت قارة أوروبا من الناحية السياسية محافظة متمسكة بالتقاليد البقية غير للثمة مدة ألف سنة بعد أيام شرلمان .



ذلك للظهر . ونجح البابا في تنوير ضيفه الفاضل على غرة منه بكنيسة القديس بطرس في يوم عيد الميلاد من عام ٨٠٠ . ذلك أنه أبرز التاج ووضعه على رأس شرملة ونادى به قيصرا وأوغسطس . وتعالى هتاف الناس . ولم ترض نفس شرملة بأى حال عن الطريقة التي تم بها الأمر ، القدي ظلت ذكره تجرح كرامته ، كأنها هزيمة منى بها ؟ كما أنه ترك لابنه أدق التعليمات موصيا إياه ألا يسمح للبابا بتتويجه ؛ وأن يتناول التاج يديه ويضعه بنفسه فوق رأسه .

وهكذا نرى منذ البداية الأولى لعودة الإمبراطورية ، استهلال النزاع الطويل للديد بين البابا والإمبراطور على السيادة الدينية . على أن لويس الورع بن شرملة أغفل تعليمات أبيه وخضع للبابا خضوعا تاما .

وعزقت إمبراطورية شرملة شرملة بموت ولده لويس الورع ، واتسعت شقة الصدى بين الفرنجة الناطقين بالفرنسية والفرنجة الناطقين بالجرمانية . وكان الإمبراطور القدي تلاء على العرش هو أوتو ، وهو ابن أمير من أمراء السكسون يدعى هنرى الصياد ، وهو الذى انتخبته ملكا على ألمانيا جميع من أمراء الجرمان وأساقفتهم في ٩١٩ . وقد زحف أوتو على روما وتوج بها إمبراطورا في ٩٦٢ . واقرضت هذه الأسرة السكسونية في أوائل القرن الحادى عشر وحل محلها حكم آخرون من الجرمان ، ولم يحدث قط أن أمراء ونبلاء الإقطاع الليمين في الغرب والناطقين بلهجات فرنسية متنوعة خضعوا لسلطان هؤلاء الأباطرة الألمان منذ أن اقرضت الأسرة الكارلوفنجية : أعنى أحفاد شرملة ، كما لم يحدث قط أن جزءا من بريطانيا وقع تحت سيادة الدولة الرومانية القديمة ، وبذلك ظل دوق نورماندى وملك فرنسا ، وعدد من صفار الحكام الإقطاعيين بمنأى منها .

وقد انتقلت ملكة فرنسا في ٩٨٧ من يد الأسرة الكارلوفنجية إلى يدهوكابت ، الذى كان أحفاده يحكمون فرنسا في القرن الثامن عشر ، ولم يكن ملك فرنسا يحكم أيام هيو كابت إلا منطقة صغيرة نسيا تحيط بمدينة باريس .

وفي ١٠٦٦ هوجت إنجلترا من جهتين في وقت واحد تقريبا ، فزاعها نورمان النرويج بقيادة هارولد هاردرادا ، كما هاجمها من الجنوب النورمان ذوو الطابع

اللاتيفي بقيادة دوق نورماندى . وعند ذلك تقدم هارولد ملك إنجلترا فهزم الغازى الترويجي فى معركة جسر ستافورد ، ولكن دوق نورماندى هزمه عند هاستنجز .  
وقّع النورمانديون إنجلترا ، وأبدوها عن كل علاقة بالشئون الإسكندنافية التيونونية والروسية ، وأحكموا ما بينها وبين الفرنسيين من علاقات وزجوا بها فيما لهم من منازعات . وظل الإنجليز مشبكيين طوال القرون الأربعة الأخيرة فى المنازعات الدائرة بين أمراء الإقطاع الفرنسيين ، كما ظلوا تلك اللدة الضخمة يبدون قوامهم فى ميادين القتال الفرنسية .



## الفصل السادس والأربعون

### الحروب الصليبية

#### وعصر السيادة الباباوية

لعله مما يشير اهتمامنا أن نشير إلى أن شرلان تبادل الرسائل مع الخليفة هارون الرشيد ، وهو نفس هارون الرشيد الذي تذكره أقاصيص ألف ليلة وليلة . ويسجل التاريخ أن هارون أرسل السفراء من بغداد - التي أصبحت آنذاك عاصمة المسلمين بعد دمشق - يحملون الهدايا والألطف التي منها خيمة فاخرة نفيسة وساعة مائية وأحد الفيلة ومفاتيح النابلس للقدس .

وقد رمى الخليفة من وراء هذه الهدية الأخيرة إلى خطة محكمة التدبير أراد بها تأليب كل من دولة الروم الشرقية وهذه الإمبراطورية الرومانية للقدسة إحداهما على الأخرى حول المسيحيين في أورشليم ولن منهما حق حمايتهم .

وتذكرنا هذه الهدايا بأنه في نفس الوقت الذي كانت أوروبا محلى فيه إبان القرن التاسع نار فوضى الحروب وما يصحبها من تدمير ونهب ، كانت تزدهر بمصر وأرض الجزيرة إمبراطورية عربية عظيمة ، أهد حضارة من دول أوروبا جميعاً . لقد كان الأدب والعلم لا يزالان عندهم محتفظين بنشاطهما القوي ، وازدهرت الفنون لديهم ، كما أنه كان في إمكان العقل البشري أن يتقن في أبراج التفكير دون أن تتوقه غلاوف أو خزعيلات . وكذلك اشتدت قوة الحياة الفكرية في إسبانيا وأعمال إفريقية التي أخذت فيها الفوضى السياسية تدب في أوصال الممالك العربية . كان هؤلاء اليهود والعرب يقرأون أرسطو وبقراطون في آرائه إبان تلك العصور التي رانت فيها الظلمات على أوروبا ، لقد أقاموا من أنفسهم حراساً على بنور العلم والفلسفة التي طال إهمالها .

وكانت تنزل إلى الشمال الشرقي من دولة الخليفة مجموعة من القبائل التركية اتخذت

الإسلام ديناً ، واعتنقت العقيدة بصورة أبسط وأعنف كثيراً مما لدى العرب والفرس الناشطين فكرياً في الجنوب . لقد أخذ الترك يزدادون قوة وحيوية في أثناء القرن العاشر ، وذلك بينما دب ديبب الانقسام والاضمحلال في دولة العرب . وتطورت العلاقات بين الأتراك ودولة الخلافة حتى أصبحت قوية الشبه بسلامة للديين بالإمبراطورية البابلية الأخيرة قبل ذلك بأربعة عشر قرناً ، وحدث في القرن الحادى عشر ، أن مجموعة من القبائل التركية ، هى الأتراك السلجوقيون زحفت على أرض الجزيرة وجعلت الخليفة حاكماً بالاسم فقط ، وأداة يسيرونها وفق هواهم ، وأسيرا في أيديهم ، ثم غزوا أرمينية ، وأخذوا بعد ذلك يزلزون الضربات على بقايا الدولة البيزنطية بآسيا الصغرى . فهزم الجيش البيزنطى هزيمة نكراء في ١٠٧١ في معركة ملازجرد ، وعند ذلك اجتاحت الأتراك البلاد قداماً حتى لم يبق للدولة البيزنطية أثر بآسيا . ثم استولوا على قلعة نيقيا المقابلة للقسطنطينية وأخذوا يعدون العدة للأجهاز على المدينة نفسها .

دب الرعب في قلب الإمبراطور البيزنطى ميشيل السابع ، وكان مشتبكاً في حرب ضروس مع ثلة من المتمردين التورمان استولت على مدينة دورازو ، ومع شعب تركى شديد الشراسة هوالبشناق (البشنج) ، الذين كانوا يخيمون على ضفاف الدانوب ، واضطر الإمبراطور وهو فى عهته أن يلتمس للمونة حيث استطاع أن يعيدها ، وبما تجبر ملاحظته هنا أنه لم يلجأ إلى إمبراطور الغرب بل التمس العون من بابا روما بوصفه رئيساً للكنيسة اللاتينية ، فكتب إلى البابا جريجورى السابع ، كما كتب خلفه أليكسيوس كومنينوس مستغيثاً بإرباب العالم الآخر .

حدث هذا ولم ينقض على اتصال الكنيستين الرومية واللاتينية ربيع قرن ، — والحصومة بين الطرفين لم تزل ذكرها قوية الإشراف في عقول الناس ، ولا شك أن هذه السكاثة التى أصابت بيزنطة قد تبذرت لبن البابا فرصة ثمينة جيد بها فرض سيادة الكنيسة اللاتينية على اليونان أهل الفرقة والخلاف ، فضلاً عن ذلك فإن البابا اتهمها فرصة لمعالجة أمم من أزعجها عالم النصرانية اللاتينى إنما لإزعاج ، وأول الأمرين هو « حادة الحرب الخاصة » التى كانت تبث القوضى في الحياة الاجتماعية ، وثانها هى طاقة القتال الفياضة التى يتسم بها سكان السهول الجرمان والتورمان المتصورون ولا سيما الفرنجة منهم والتورمانديون . وعندئذ شرع المدشرون ورجال الدين يمشرون بحرب مقدسة ، هى حرب الصليب ، أو الحروب الصليبية ، التى يراد أن تثنى على الترك مقصي بيت المقدس ، كما يمشرون بوجوب قيام الهدنة وإيقاف كل قتال بين المسيحيين جميعاً (١٠٩٥) .

وقد أعلنوا أن الهدف من هذه الحرب هو استرداد القبر المقدس من يد الكفرة .  
وراح رجل يدعى بطرس الناسك يحجب الآفاق ويثب دعاته في الجماهير بكل من فرنسا  
وألمانيا ، وكان يتجول في البلاد في ثوب خشن حافي القدمين ويمتطيا حمرا ، وهو يحمل  
صليبا ضخما ويخطب الناس في الشوارع والأسواق والكنائس .

وكان ينحى على الترك ما يرتكبونه ضد الحجاج المسيحيين من قساوات ، ويذكر  
الناس بالعار الذي يعود عليهم من بقاء النابوس المقدس في أيدي غير مسيحية ، وعند  
ذلك ظهرت ثمار تلك القرون الطويلة من الدعوة المسيحية في استجابة الناس لها .  
فإن موجة عظيمة من الحماسة اجتاحت العالم الغربي ، وعند ذلك اكتشفت  
النصرانية الغربية نفسها لأول مرة .

كانت مثل تلك الانتفاضة الواسعة الانتشار التي صدرت آنذاك عن طامة الشعب  
تحمسا لفكرة واحدة ، شيئا جديدا لم يسجد له مثل في تاريخ البشر ، هي شيء ليس له  
من ضرب في سابق تاريخ الدولة الرومانية أو الهند أو الصين . ومع ذلك فقد حدثت  
في نطاق أصنى حركات مشابهة لهذه بين الشعب اليهودي بعد تحرره من الأسر البابلي ،  
كما حدث فيما بعد أن الإسلام أظهر قابلية للشعور الحشدي بماتة هذه .

ومن الحق أن هذه الحركات ارتبطت بالروح الجديدة التي ظهرت في هذا العالم  
مع تطور ديانات التعليم والتبشير والمعلمين والمبشرين ، فإن أنبياء العبرانيين وعيسى  
والحواريين وماني ومحمدا ، كانوا جميعا معلمين يناجون نفوس الناس كأفراد . وكانوا  
يواجهون ضمير الشخص بالله رأسا . وقبل ذلك الأوان كان الدين أقرب إلى التفتيشية  
والخزيعات والعلم الزائف منه إلى أن يكون من شئون الضمير البشري ، وكان النوع  
القديم من الدين يدور حول المبد ، والكاهن المتدرج في أسرار العقيدة والقرايين  
الرمزية ، كما كان يحكم الرجل العادي بالخوف حتى لسكونه العبد الرقيق . أما ذلك النوع  
الجديد من الدين فإنه اتخذ منه إنسانا .

وكان التبشير بالحرب الصليبية الأولى أول دعوة أثارت مشاعر العامة في التاريخ  
الأوروبي ، وربما كان من المبالغة القول بأنها تؤذن بمولد الديمقراطية الحديثة .  
لم نحاولنا شك في أن الديمقراطية الحديثة تحركت فعلا في ذلك الزمان ، وسنجد

تتحرك من جديد قبل انقضاء زمن طويل ، وتسال أسئلة اجتماعية ودينية تبعث على الانزعاج الشديد .

وليس من شك في أن هذه الحركة الأولى الديمقراطية انتهت بنهاية ألحمة فاجعة ، فإن حشوداً ضخمة من السامة هي في الواقع جماهير عمقشة أكثر منها جيوشاً ، انطلقت نحو الشرق من فرنسا ومنطقة الرين وأوروبا الوسطى ، دون أن تنتظر الحصول على قائد يقودها أو معدات تزود بها ، وهي تريد إيقاد القبر المقدس . وتلك هي « ألحمة الصليبية الشعبية » . وقد سدل الطريق منها جمهوران عظيمان دخلا بلاد المجر خطأ ، وزعما أن أهل المجر - الذين دخلوا عندئذ في المسيحية وشيكا كانوا من الوثنيين ، فارتكبوا بعض القذائع ، وهب المجرىون فأعملوا فهم الذبح جميعاً ، وجاء جمهور عظيم ثالث اختلت عليه الأمور هو أيضاً ، وتبلبل فكره كسابقيه فزحف شرقاً بعد أن أعمل الذبح بشدة في يهود منطقة الرين ، حتى إذا وصل بلاد المجر قضى عليه هناك ، ثم إن جمهورين هائلين آخرين بقيادة بطرس الناسك نفسه بلغا القسطنطينية وعبرا البوسفور حيث هزمهما الأتراك السلجوقيون ، بل ذبحوهما ذبحاً ، وبذا ابتدأت وانتهت أول حركة للشعوب الأوروبية بوصفها حركة شعبية .

وفي السنة التالية ( عام ١٠٩٧ ) عبرت البوسفور القوات المقاتلة للحمة ، وكانت بطبيعة الحال نورمانية في الروح والقيادة ففتحوا نيقية عنوة ، وساروا إلى أنطاكية سالكين تهريراً نفس الطريق الذي سلكه الإسكندر قبل ذلك بأربعة عشر قرناً . وقد حطلم حصار أنطاكية سنة ، انطلقوا بعدها لمحاصرة بيت المقدس في يونيه ١٠٩٩ ، وسقطت بيت المقدس بعد شهر من الحصار ، وكانت المذبحة التي دارت بها رهبة نظمية ، فإن الراكب على جواده كان يضيئه رهاش الدم الذي سال في الشوارع أنهاراً ، وما أرخى ليل الخامس عشر من يولية سدوله حتى كان الصليبيون قد شقوا سيلهم قتالاً إلى كنيسة القبر المقدس وتطلبوا على كل مقاومة في المدينة ؛ وهناك جشوا للصلاة ملطخين بالدماء ، متحينين مكثودين سيكون من فرط السرور .

وسرعان ما اشتعلت من جديد نار العداوة بين اللاتين والروم ، ذلك أن الصليبيين كانوا من أنصار الكنيسة اللاتينية ، ولذا وجد بطريق القدس الرومي ( الأرثوذكسي ) نفسه وهو في ظل اللاتين المتصرين في موقف أسوأ من موقفه في ظل الأتراك ،

واكتشف الصليبيون أنهم وقصوا بين البيزنطيين من ناحية والأتراك من ناحية أخرى وأنهم يقاثلون الطرفين جميعاً . واستردت الإمبراطورية البيزنطية شطراً عظيماً من ممتلكاتها بآسيا الصغرى ، كما أن الأمراء اللاتين وجدوا إماراتهم حاضرة<sup>(١)</sup> بين الأتراك والروم ، ولم يجدوا في أيديهم سوى بيت المقدس وإمارات صغيرة قليلة ، في سوريا كانت إمارة الرها من أكبرها

على أن قبضتهم حق على هذه الإمارات نفسها كانت قلقة ضعيفة ، ولم تلبث الرها أن سقطت في أيدي المسلمين في ١١٤٤ ، فأفضى ذلك إلى قيام حرب صليبية ثانية فشلت في استخلاص الرها من أيدي العرب ولكنها أخذت أنطاكية من الوقوع في قس الصير .

وفي عام ١١٦٩ نجحت جموع الإسلام حول راية قائد كردى اسمه صلاح الدين الأيوبي ، أصبح حاكماً على مصر . فدعا إلى قتال الصليبيين ، واسترد بيت المقدس في ١١٨٧ ، وبهذا استنز أوروبا للقيام بالحرب الصليبية الثالثة . ولكنها أخفقت في استرداد بيت المقدس . حتى إذا جرت الحملة الصليبية الرابعة ( ١٢٠٢ - ١٢٠٤ ) أظهرت الكنيسة اللاتينية عداها الصريح لدولة الروم الشرقية ، ونسى القوم الأتراك تماماً ولم يجرؤوا عليهم حساماً ولو من باب التظاهر بالقتال . تحركت تلك الحملة من البندقية واجتاحت القسطنطينية عنوة في ١٢٠٤ .

وكانت زعيمة هذه الغامرة هي مدينة البندقية الثغر التجاري الناهض العظيم ، ولم يلبث معظم سواحل الإمبراطورية البيزنطية وجزائرها أن ألحق بمدينة البندقية ونسب في القسطنطينية إمبراطور لاتيني هو بالدوين الفلاندرى ، الذى أعلن وحدة الكنيستين اللاتينية واليونانية من جديد . ودام حكم أباطرة اللاتين بالقسطنطينية من ١٢٠٤ إلى ١٢٦١ ، يوم انتفض العالم اليونانى ومخلص مرة ثانية من تسلط روما عليه .

ومن ثم يكون القرن الثانى عشر ومستهل الثالث عشر عصر عظمة البابوية ، مثلاً كان الحادى عشر عصر تنوع الأتراك السلجوقيين ، والعاشر عصر النورمان ، وفي هذا

---

(١) الدولة الحاضرة ( Buffer State ) : دولة عابدة تقم بين دولتين متصادمتين ويؤدى وجودها إلى التقليل من خطر الحرب بينهما . [للتعريف]

المصر قرب تحقيق الحلم القديم بقيام اتحاد في عالم المسيحية تحت حكم البابا ، وأصبح أدنى إلى الحقيقة الواقعة منه في أى وقت قبل ذلك مصر أو بعده .

وفي إبان تلك القرون ، كان وجود العقيدة المسيحية البسيطة الواضحة من الأمور للقررة الواقعة الواسعة الانتشار في مناطق كبيرة من أوروبا . أجل إن روما نفسها مرت عليها أدوار حالكة مشينة غير كريئة ؛ قلما جرؤ كاث على التهور لتبرير مسلك البابا يوحنا الحادى عشر والبابا يوحنا الثانى عشر في أثناء القرن العاشر - فإنهما كانا من الكائنات الكريهة البشعة ؛ ولكن المسيحية اللاتينية ظلت وقورة بشيطة جادة في روحها ومعناها ؛ وفي ظلها قست الأغلبية العظمى من القساوسة ، والرهبان والراهبات عمرها في حياة مثالية رائدها الإخلاص والأمانة . وقامت قوة الكنيسة على كنوز من الثقة التي أوجدتها هذه الشخصيات . ومن أعظم باباوات الماضى « جريجورى الأكبر » وهو جريجورى الأول ( ٥٩٠ - ٦٠٤ م ) وليو الثالث ( ٧٩٥ - ٨١٦ م ) ، الذي دعا شرلمان ليكون قيصرا وتوجه على الرغم منه . ونشأ قرب نهاية القرن الحادى عشر ، رجل دير عظيم ذو مناسة وتذير هو « هلبيراند » ، الذي تسمى فيما بعد باسم البابا جريجورى السابع ( ١٠٧٣ - ١٠٨٥ م ) ، وهو البابا الذي أثار الحرب الصليبية الأولى . وإلى هذين الرجلين يرجع الفضل في قيام هذه الفترة التي عظم فيها شأن الباباوية والتي تسلط فيها الباباوات على الأباطرة . فكانت لبابا الكلمة العليا من بلغاريا شرقا إلى إرلنده غربا ، ومن الترويح شمالا إلى سقلية وبيت المقدس جنوبا . وجريجورى السابع هو الذي أرغم الإمبراطور هنرى الرابع على الشخص إلى تائبيا متنبيا بكانوسا وانتظار العفو منه ثلاثة أيام بلياليها واقفا في ساحة القلعة ، في ثوب من الخيش وهو حافي القدمين على الثلج . وفي ١١٧٦ ركم الإمبراطور فردريك الثانى الملقب بفردريك ببروسا على ركبتيه بين يدى البابا إسكندر الثالث بالبندقية وأقسم بيمين الولاء .

لا جدال أن المصدر الأول لقوة الكبرى التي استتمت بها الكنيسة في القرن الحادى عشر هو إرادة الناس وضماؤهم . على أنها أخفقت في الاحتفاظ بالسكينة الأدبية التي قامت عليها قوتها ونفوذها . حتى إذا أهل القرن الرابع عشر تلفت الناس ، وإذا بقوة البابا قد تبخرت . فما الذي قضى على ثقة السوام الساذجة في عالم المسيحية بالكنيسة بحيث لم يعدوا يستمعون لأى دعاء منها ولا يخدمون أهدافها ؟ .

إن أول مصدر لتأعب الكنيسة هو على التحقيق تكدينها لثروة وانتكثارها من الأموال . ذلك أنه من المعلوم أن الكنيسة هيئة دائمة ليس لوجودها نهاية ، وأنه كثيراً ما جنح من لاعتق لهم من الناس إلى حبس ممتلكاتهم على الكنيسة ، كما أن الذين النائيين كانوا ينصمون بفعل ذلك ، لذا أصبح ما يقارب ربع الأراضي من ممتلكات الكنيسة في كثير من أقطار أوروبا . ومن البديهيات التي لا جدال فيها أن شهوة المال تنمو كلما زاد المال ، وتسمع الناس وتناقلوا في كل مكان منذ القرن الثالث عشر أن القساوسة لم يكونوا من الأخيار الطيبين ، وأن دأهم الأول هو اصطيد المال والغناس التركت .

وقد كره الملوك والأمراء تحول الممتلكات من أيديهم إلى يد الباباوية الأجنبية ، فإن أراضيم التي كان ينبغي أن تحول أتباعهم الإقطاعيين القادرين على تقديم المدد العسكري للملك أو الأمير ، كانت تحول الأديرة والربان والراهبات . وزاد الطين بلة أن تلك الأراضي كانت في الواقع التي لا شك فيه تحت سلطان الأجانب ، وقد نسب الكفاح بين الأمراء والبابوية حول مسألة « التمينات » أغنى من هو صاحب الحق في تعيين الأساقفة ، وذلك قبل زمن البابا جريجوري السابع نفسه ، فإن ظلت سلطة التمينين بيد البابا دون الملك ، كان معنى ذلك فقدان الأخير ليس فقط لجهار رعاياه بل وحرمانه من شطر جسيم من ممتلكاته ، وذلك لأن رجال الدين كانوا يدفعون بأن لهم الحق في الإعفاء من الضرائب ، وكانوا يدفعون ضرائبهم لروما ، ولت الأمر اقتصر على ذلك ، بل إن الكنيسة ادعت أيضاً الحق في جمع مكس قيمته العشر على ممتلكات الرجل العلفاني فوق الضرائب التي كان يدفعها لأميده .

ويكاد تاريخ كل قطر من أقطار المسيحية اللاتينية يتحدث عن حالة كهذه إبان القرن الحادى عشر ، وأغنى بذلك حالة الكفاح بين الملك والبابا حول مسألة التمينات ، كما أنه يتحدث عن انتصار البابا في ذلك الكفاح بوجه عام . وذلك أن البابا ادعى القدرة على « حرم » الأمير ، وعلى جعل رعاياه في حل من واجب الولاء والطاعة له ، وعلى الاعتراف بشخص آخر بخلفه ، وادعى كذلك أن من حقه حرم شعب بأكمله ، فتعطل بذلك كل وظائف الكنيسة وقساوستها . وذلك فيما عدا مراسم التعميد والتثبيت والثوية ؛ وعند ذلك لم يكن القساوسة يستطيعون القيام بالصلوات العادية وأداء مراسم الزواج ودفن الموتى . وبهذين السلاحين تمكن باباوات القرن الثاني عشر من كبح

( ١٦ — تاريخ العالم )

جناح أقوى الأمراء معارضة وأشدهم مراساً ، ومن ثمة الرعب في أشد الشعوب جوحاً ، وكان هذان السلاحان قوة هائلة ، والقوة الهائلة لا يجوز استعملها إلا في الظروف الاستثنائية البتة . ولكن الباباوات راحوا يستعملونها في النهاية بكثرة فلفت مضامها وأزالت تأثيرها . ففي الثلاثين سنة الأخيرة من القرن الثاني عشر ، تحرّم اسكتلنده وفرنسا وإنجلترا على التوالى . كما أن الباباوات لم يستطيعوا مقاومة شيطان الدعوة إلى القيام بحرب صليبية على الأمراء الذين يخطئون - حتى تنامي الأمر إلى أن خدت روح كل شيء صليبي .

ولو أن كنيسة روما قصرت الكفاح على الأمراء وعينت بالمحافظة على قبضتها على عقول العامة ، لكان من المحتمل أن تحمرز سلطاناً دائماً على عالم النصرانية بأكمله ، ولكن مدييات البابا الكبرى انصكست عند رجال الدين في صورة صلف وكبرياء ، وكان قساوسة الكاثوليكية يستطيعون الزواج قبل القرن الحادى عشر ، وكانت تقوم بينهم وبين من يعيشون حولهم من الناس أواصر وثيقة ، بل كانوا والحق يقال شطراً من الشعب ، ولكن جريجهورى السابع حتم عليهم العزوبة ، وبذلك قطع الرابطة القوية التي كانت تصل بين القساوسة والطبائين قاصداً من وراء ذلك ربطهم أوثق ارتباط بسجلة روما ، ولكن الواقع أنه شق بين الكنيسة وعامة الناس أخذوداً عميقاً .

وكان للكنيسة بها كنها الخاصة . فهي تحتفظ لنفسها بالحق في نظر القضايا التي يكون القساوسة طرفاً فيها ، بل والرهبان أيضاً والطلبة والصليبيون والإرامل والأيتام وكل من لا معين له ، كما تحتفظ لها كنها بجميع الوسائل المتعلقة بالوصايا والأنكحة والأيمان وجميع قضايا السر والزندقة والتجديف ، وكان على الطبائ أن يلجأ إلى المحاكم الكنسية إن حدث بينهم وبين أحد رجال الدين نزاع ، وذلك كله في حين أن الزمرات السلم وأعجاء الحرب تقع كلها على كاهله وحده دون القسيس . فليس عجيباً إذن أن تنمو في النفوس العداوة والحسد لرجال الدين في كل أرجاء عالم النصرانية .

ولم تظهر روما من الدلائل ما يدل على أنها تدرك أن قوتها إنما تعتمد على ضلالي الناس ، فكانت تحارب الحماة الدينية التي كان يجب أن تتخذ منها حليفاً تعتمد عليه ، وكانت تفرض بالقوة سعة العقيد على صاحب الشك البريء وعلى المارقي صاحب الانحراف في الرأي دون تهريق بينهما ، وعندما كانت الكنيسة تتدخل في الشؤون الخلقية ،



كانت تجد الرجل العادى فى صفها ، ولكن لم يكن الحال كذلك حين تتدخل فى الشئون للذهبية ، وعندما أخذ والدو يبشر فى جنوب فرنسا بالعودة إلى منهج يسوع فى بساطة العقيدة والحياة ، دعا إرنوست الثالث إلى حملة صليبية ضد من اتبعوه ، وأذن لجندهم بقمعهم بالنار والسيوف وهتك الأعراس وبأعد أنواع القساوات بشاعة . ولما دعا القديس فرنسيس الأسيسى ( ١٢٨١ - ١٢٢٦ ) إلى محاكاة للسبح وإلى حياة التقشف والفقر والعبادة ، اضطهد أتباعه الرهبان الفرنسيسكان وجلدوا وسجنوا وقتلوا ، ثم أحرق أربعة منهم بمرسليا وهم أحياء فى ١٣١٨ ، وذلك فى حين أن جماعة الرهبان الدوميليكين التى أسسها القديس دومينيك ( ١٢١٨ - ١٢٢١ ) والشهيرة بتمسكها العنيف بصعة الاعتقاد للذهبي كانت موضع التعذيب القوي من إرنوست الثالث ، الذى استطاع بمساعدة تلك الجماعة أن ينشئ هيئة هى محاكم التفتيش ، بقصد تصيد الزنادقة وإزالة سوط العذاب بكل فكر حر .

وهكذا دمرت الكنيسة بمذيعاتها للسرفة ، وامتيازاتها الأئمية ، وبعدم تسامحها الخالى من كل حكمة وعقل ، تلك العقيدة الحرة التى للرجل العادى ، والتى هى فى النهاية مصدر سلطانها كله ، ولو اطلمت على قصة تدهورها لماحدثتك بظهور أى عدو كفء لها ناصبها العداء من الخارج ، بل عن الانحلال الذى ينخر فيها من الداخل .

## الفصل السابع والأربعون

### الأمراء المعارضون والصدع الأعظم

كانت طريقة انتخاب الباباوات من أعظم قط الضعف في الكنيسة الكاثوليكية في أثناء كفاحها للوصول إلى رئاسة العالم المسيحي بأكمله .

قلنا أريد للبابوية أن تتوزع حقاً بأطباعها الظاهرة وأن تؤسس حكماً واحداً وسلاماً واحداً في كل أرجاء العالم المسيحي ، كان من الواجب الضروري أن تكون قيادتها في أيد قوية حازمة ، وكان من الزم الضرورات إبان تلك الأيام العظيمة التي صنعت فيها فرضتها ، ألا يتولى منصب الباباوية إلا رجل كفء قادر في صفوان شبابه ، وأن يعين كل منهم خليفته ، حتى يستطيع أن يتناقص وإياه في سيادة الكنيسة ، وأن تكون كيفية الانتخاب وطرائقه واضحة بيّنة ، محددة غير قابلة للتشيز ولا معرضة لظن . ولكن شيئاً من هذه الأمور لم يحدث لسوء الحظ ، بل لم يكن الناس يعرفون بوضوح من له الحق في التصويت في انتخاب البابا ، وما إذا كان للإمبراطورية البيزنطية أو الرومانية المقدسة صوت في الأمر ، وقد بذل هلدبراند ذلك السياسي المخنك ( وهو البابا جريجوري السابع ١٠٧٣ - ١٠٨٥ ) ، جهداً كبيراً في تنظيم الانتخاب . فقصر الأصوات على الكرادلة الكاثوليك ، كما قصر نصيب الإمبراطور على موافقة شكلية منعه إلهام الكنيسة ، بيد أنه لم يتخذ أى عدة لتعيين خلف بالتخصيص ، كما أنه جعل من الممكن أن تؤدي منازعات الكرادلة إلى ترك كرسي الباباوية شاغراً ، الأمر الذي حدث في بعض الحالات حين ترك شاغراً سنة أو أكثر .

هذه الحاجة إلى التحديد الجازم الدقيق لكل شيء تتجلى في تاريخ الباباوية بأكمله حتى القرن السادس عشر . فإن النزاع كان يلبدجو الانتخابات منذ أزمنة سحيقة جداً ، وكثيراً ما أعلن رجلان أو أكثر أن كلا منهما هو البابا الشرعي ، وهناك تعرض الكنيسة لمهانة الاحتكام إلى الإمبراطور أو أى حكم خارجي ليقضى برأيه في النزاع ، وكانت حياة كل بابا عظيم تنتهى بمخافة شير التساؤل . وقد ترك الكنيسة بعد موته غير

وليس ، وتصبح عاجزة عديمة الأثر كأنها جسد بلا رأس . وربما حل محل منافس مجوز كل هم أن يقضى على جهوده ويتنصها ، وقد يخلفه شيخ ضعيف يرتفع على حافة القبر . لم يكن مفر من أن يدعوا هذا الضعف الخاص في نظام البابوية إلى تدخل الأمراء الألمان وملك فرنسا وللوك النورمانديين والفرنسيين الذين تولوا عرش إنجلترا ، كما لم يكن بد من أن يحاولوا جميعاً التأثير في الانتخابات ، وأن يكون لهم في قصر اللاتيران بزوما بابا يهتم بمصالحهم ويرعاها ، وكلا زاد البابا قوة وعلا شأنه في الشؤون الأوربية ، زادت الضرورة إلى تلك التغييرات ، فليس عجباً في مثل تلك الظروف ، أن يصكون كثير من الباباوات ضعافاً لا غناء فيهم ، على أن وجه الصب حقاً ، أن كثيراً منهم كانوا رجالاً شجعاناً أكفاء .

ومن أهد باباوات هذه الحقبة العظيمة قوة واستتارة لاهتمامنا ، البابا أنوسنت الثالث ( ١١٩٨ - ١٢١٦ ) ، الذي كان من حسن حظه أن أصبح بابا قبل أن يبلغ الثامنة والثلاثين ، وكان هو وخلفاؤه يناصبون العداء شخصية تسكاد بيزم إمتاعاً وأهمية ، هي شخصية الإمبراطور فردريك الثاني ، الذي كان ينت « أدهوة العالم » ، وكفاح هذا العاهل ضد روما يد نقطة تحول في التاريخ ، أجل انتهى الأمر بأن هزمته روما وقضت على أسرته ، بيد أنه غادر كرامة الكنيسة والبابا وهيئتها جريحة جراحاً بلغ من خطورتها أن تمرت<sup>(١)</sup> في النهاية وأدت إلى انحلالها .

كان فردريك ابناً للإمبراطور هنري السادس ، وكانت أمه بنت روجر الأول ، ملك صقلية النورمانى ، ورث هذه المملكة في ١١٩٨ عند ما كان طفلاً في الرابعة وقد حين لأنوسنت الثالث وصياً عليه ، وكانت صقلية في ذلك الحين حديثة العهد بالفتزو النورمانى ؟ وكان بلاط الملك شرقياً أو يكاد حافظاً لملاء العرب الواسع الاطلاع ، وقد أسهم بعض هؤلاء في تعليم الملك الصغير ، ولا شك أنهم تقوا بعض العداء في توضيح آرائهم له ، فكون في للسيحية رأياً إسلامياً ، كما كون في الإسلام وجهة نظر مسيحية ، ومن هذه التربية للزدوجة ، خرج الملك بنتيجة تسعة تد شتاً شاذاً في عصر الإيمان ، ذاك هي أن جميع الديانات دجل ، وطالما تكلم بملاء حرية في ذلك الموضوع ، ويسجل لنا التاريخ كفره ( هرطقاته ) وتجديفاته .

(١) آخر : يقال لفر بمعنى فسد كالجرح إذا سأل منه الدم والصدية . [ للترجم ]

ولما أن شب الفتي ألقي نفسه في نراع مع وصيه ، ذلك أن إنوسلت الثالث كان يخلو فيها يطلبه من الليق ألقاصز ، فلما آن لفردريك تولى عرش الإمبراطورية ، تدخل البابا مشروطا بعض الشروط ، فأصر على أن يعد فردريك بالقضاء بقوة على ما بألمانيا من كفر وزندقة ، وذلك فضلا عن تخليه عن عرش صقلية وجنوب إيطاليا ، وإلا قوى سلطانه ولم يقدر البابا على كبحه ، وعدا ذلك طلب البابا بإعفاء رجال الدين الألمان من الضرائب ، ووافق فردريك على الشروط دون أن يضر البر بوعده بأى حال . وفي تلك الأثناء حمل البابا الجاهل الفرنسى على شن الحرب على رعاياه بفرنسا ، وهي الحملة الصليبية الثانية الهامية التي شنت على أتباع والده ، وقد أراد أن يفعل فردريك نفس الفعلة في ألمانيا ، ولكن لما كان فردريك أشد كفرا وزندقة من أى «ورعى»<sup>(١)</sup> بسيط من أولئك الذين جلبوا على أنفسهم عداوة البابا ، فمن البديهي أنه كان يجوز التمسك لأمثال هذه الحملات الصليبية ، وعند ما حرصه إنوسلت على القيام بحملة صليبية على المسلمين واسترداد بيت المقدس ، لم يتردد في المبادرة بالوعد ، كما لم يتردد بالمثل في التباطؤ في التنفيذ .

حتى إذا تم لفردريك الثانى الحصول على التاج الإمبراطورى أقام بصقلية ، التي كان يؤثر الإقامة فيها على اللقاصز في ألمانيا ، ولم يفعل شيئا للبر بأى وعد من وعوده لإنوسلت الثالث ، الذي مات في ١٢١٦ بعد أن أعياه أمره .

ولم يستطع هونوريوس الثالث الذى خلف إنوسلت ، أن يكون أحسن حظا مع فردريك من سلفه ، ثم تولى جريجورى التاسع عرش الباباوية ( ١٢٢٧ ) وقد صمم تصميمًا واضعًا على تسوية الحساب مع ذلك الفتي مهما يكن الفتن ، فأصدر قرارا بحرماته وحيل بين فردريك والثاني وبين كل ما تستطيع الديانة تقديمه من وسائل المزاد والسوي . ومن الصعب أن هذا الإجراء لم يضايق البلاط الصقلى نصف العربى إلا أقل المضايق . ثم إن البابا وجه إلى الإمبراطور أيضا خطابا مفتوحا يسرد فيه ذنائبه « التي لا يستطيع إنسان إنكارها » ، وزندقاته وسوء سيرته بوجه عام ، فلما كان من فردريك إلا أن

(١) الوردعيون : ( Pictists ) هم أتباع والده كما هو ظاهر من السياق ، وهم يأخذون أنفسهم بالورع الشديد في أبسط صور الصليبية الأولى : [ التزم ]

أجابه على تلك الرسالة بوثيقة تم عن مقدرة شيطانية ، وجهت تلك الرسالة إلى جميع أمراء أوروبا ، كما أنها أوليان واضح عن النزاع بين البابا والأمراء . وفيها اتهم بالظن القاتل على مطامع البابا الواضحة : أن يكون الحاكم المطلق لأوروبا بأكملها ، واقترح قيام اتحاد بين الأمراء ضد ذلك الاغتصاب . ووجه أنظار الأمراء بنوع خاص إلى ما تستمتع به الكنيسة من ثراء .

حق إذا أطلق فردريك هذه القذيفة القاتلة ، صمم على البر بوعده الذي تأخر إنجازها اثنتي عشرة سنة بالخروج في حملة صليبية ، وتلك هي الحملة الصليبية السادسة ( ١٢٨٨ ) ، كانت حملة صليبية تعد مهزلة ، فإن فردريك الثاني ذهب إلى مصر وتقابل مع سلطانها وتباحث وإياه في الأمور أراح هذان السيدان - وكلهما بمن انطوت نفسه على التشكك - يتبادلان آراء متجانسة ، وأبرما معاهدة تجارية تعود عليهما بالنفع المشترك ، واتفقا على أن تنتقل بيت للقدس إلى يد فردريك ، ولا شك أن ذلك كان ضربا جديدا من الحرب الصليبية ، فهو حملة صليبية سلاحها للمعاهدات والوثائق ، وهنا لم يهرق دم ولا تطاير له على الفأخ رعاش ، ولا حدث بكاء من فرط السرور ، ولما كان ذلك الصليبي الدهش رجلا محروما بأمر الكنيسة ، فإنه اضطر أن يقنع بتتويج علماني عوض ذلك لبيت للقدس ، متاولا النتائج من اللذيع يده - وذلك لأن جميع رجال الدين كانوا ملزمين أن يحتبوه ، ثم عاد إلى إيطاليا بعد ذلك ، وما زال بالجيوش البابوية التي غزت بلاده حتى ردها إلى أراضيها الأصلية ، وأرغم البابا أن يرفع عنه قرار الحرمان ، تلك هي للمشكلة التي استطاع أحد الأمراء أن يعامل بها البابا ، في القرن الثالث عشر ، دون أن تنفجر آنذاك عاصفة من الغضب الشعبي للانتقام له ، لأن تلك الأيام قد ولت .

ثم عاد جريجوري التاسع فلستانف في ١٢٣٩ كفاحه مع فردريك ، وحرمه للمرة الثانية وجند حملة السباب العلني ، التي سبق للبابوية أن لاقت منها ثرا مستطيرا ، على أن الحصومة تجددت بعد وفاة جريجوري التاسع ، عندما تولى كرسي البابوية إنوسنت الرابع ، وبمرة ثانية كتب فردريك ضد الكنيسة خطابا مدمرا من ذلك النوع الذي يضطر الناس إلى تذكره ، وفيه سب كبرياء رجال الدين وفيه تدينهم ، ونسب كل مفاسد

الزمن لكبريائهم وغرائهم . واقترح على زملائه الأمراء مصادرة أملاك الكنيسة بصورة عامة ، لصالح الكنيسة نفسها ، وهو اقتراح لم يخادر ذاكرة الأمراء الأوربيين بعد ذلك أبدا .

وسنكشف عن الاسترسال في تتبع أخباره في آخريات أيامه ، فإن أحداث حياته الخاصة أقل أهمية بكثير من جوها العام ، ومن الممكن أن نجتمع لك جذرات عن حياة بلاطه في صقلية . كان يعيش عيشة الترف ، كما كان مفرماً بالأشياء الجميلة . وهو يوصف بأنه رجل إباحي . ولكن من الواضح أنه كان رجلاً أوفى درجة عظيمة من حب الاستطلاع النفاذ والرغبة في البحث النافع . وقد جمع في بلاطه الفلاسفة من اليهود والعرب والمسيحيين ، وبذل جهوداً كبيرة لتمر العقل الإيطالي وإروائه بالمؤثرات العربية ، وبفضه نقلت الأرقام العربية والجبر العربي إلى الطلاب المسيحيين ، ومن الفلاسفة الكثيرين للمقيمين ببلاطه ميخائيل اسكوت ، الذي ترجم بعض أجزاء من مؤلفات أرسطو ، والتفصيلات التي دونها عليها الفيلسوف العربي الفظيم ابن رشد القرطبي . وفي ١٢٢٤ أسس فردريك جامعة نابولي ، كما وسع للدراسة الطبية الكبيرة بجامعة سالرنو وأغلق عليها للال . ثم إنه أسس كذلك حديقة للحيوان . وترك كتاباً في الصيد بوساطة الصقور ، يكشف عن قوة ملاحظة لطباع الطيور ، وهو من أوائل من كتب الشعر بالإيطالية من الإيطاليين . بل الحق إن الشعر الإيطالي ولد في بلاطه . وقد بدأ أطلق عليه أحد كبار الكتاب ، اسم : « أول المصريين » ، والصيغة تعبر في جفافية تامة عن بعده من الناحية العقلية عن كل تحيز أو تعصب .

وتمعة بادرة أخرى أكثر استرعاء للأنظار تدل على تضال حيوية الباباوية وانحياز الأركان الداعمة لها . ظهرت البادرة عندما اعتبك الباباوات فور ذلك في نزاع مع ملك فرنسا وقوته النامية . فإن ألمانيا تردت في مهاوى التمزق في أثناء حياة الإمبراطور فردريك الثاني ، كما شرع الملك الفرنسي في أن يلعب دور حامى البابا وظهره ومنافسه وهو الدور الذي كان حتى آنذاك من نصيب أباطرة أسرة هوهنشتاوفن . وقد راحت جماعة متتالية من الباباوات تتبع سياسة مناصرة ملوك فرنسا . وكانت نتيجة ذلك أن نصب أمراء فرنسيون على عروش مملكتي صقلية ونابولي ، بمساعدة روما وموافقتها ،

كما أن الملوك الفرنسيين أدركوا أن في الإمكان استرجاع إمبراطورية شرلمان وتولي الحكم فيها . على أنه عندما حدث بعد ذلك أن انتهت فترة خلو العرش الألماني التي أعقبت وفاة فردريك الثاني ، آخر أباطرة أسرة هوهنشتاوفن ، وانتخب رودلف الهابسبرجى أول إمبراطور من آل هابسبرج ( ١٢٧٣ ) ، ابتدأت سياسة روما في التذبذب بين فرنسا وألمانيا ، وأصبحت تتنقل مع عواطف كل بابا جديد . فأما في الشرق فإن الروم استردوا القسطنطينية في ( ١٢٦١ ) من قبضة الأباطرة اللاتين ، وسرعان ما عمد مؤسس الأسرة الرومية الجديدة ميخائيل باليولوجوس ، وهو الإمبراطور ميخائيل الثامن ، إلى الانفصال عن المجتمع الكسكى الكاثوليكي تماما ، بعد إهداء محاولات غير حقيقية للصلح مع البابا ، وبذلك الانفصال ، وبسقوط البابا اللاتينية في آسيا ، انتهت عظمة البابا في رجوع الشرق .

وفي ١٢٩٤ تولى بونيفاس الثامن عرش الباباوية . وكان إيطاليا معاديا للفرنسيين ، قوى الشعور بعظم تحاليد روما ورسالتها . فظل زمانا يدير الأمور يد مستأثرة . وقد أقام حفلات الوبيل في ١٣٠٠ . وتقاطرت على روما جماهير غفيرة من الحجاج : « وبلغ من عظم مسيل الذهب إلى خزائن الباباوية ، أن عين مساعدان اثنان بالمجاريف لجمع الهدايا التي وضعت على قبر القديس بطرس »<sup>(١)</sup> بيد أن هذا الاحتفال كان نصرا خديبا . إذ حدث لسوء حظ بونيفاس أن نشب نزاع بينه وبين ملك فرنسا في ١٣٠٢ ، وفي ١٣٠٣ أعد البابا البدة للنطق بقرار حرمان ذلك الملك ولكن غلبوم دى نوجاريه فاجأه واعتقله في قصر أسلافه نفسه ليلة أناجيني . دخل مندوب ملك فرنسا هذا إلى القصر عنوة ، وتقدم إلى حجرة نوم البابا للدعور — إذ إنه وجده راقدا في فراشه ويديه الصلب — وانهال عليه بالتهديد والإهانة وهب أهل المدينة لإشاد البابا بعد يوم أو يومين ، فعاد إلى روما ؟ ولكن قبضت عليه هناك أسرة أورسبني وأخذته من جديد أسيرا ، ولم تقض بضعة أسابيع حتى مات ذلك الشيخ مصدوما وقد زالت عن عينه غشاوة الأمل الكاذب .

لقد غضب سكان أناجيني للاغتداء الأول . وهبوا لتخليص بونيفاس من قبضة نوجاريه ، ولكن أناجيني كانت بلد البابا ومسقط رأسه ، وأهم ما يستلقت النظر هنا

هو أن الملك الفرنسي ، كان في هذه المعاملة الحسنة لرأس المسيحية يعمل مستمتماً بكامل استعسان شعبه ، فإنه كان قد دعا مجلساً من طبقات فرنسا الثلاث وهم : ( النبلاء والكنيسة والعامة ) وحصل على موافقتهم قبل الإقدام على التصرفات للتطرفة ، ولم يتحرك أحد في إيطاليا وألمانيا وإنجلترا ، ولم يبد من الناس أى مظهر عام لاستهجان هذا التصرف الجريء الحادش لكرامة رأس المسيحية للتريع آنذاك على عرش الحبر الأعظم . ذلك أن الفكرة القائلة بقيام « عالم النصرانية ودولتها » اضمحلت حتى أبدت كل سلطان لها على أذهان الناس .

انقضى القرن الرابع عشر دون أن تتحل البابوية شيئاً لاسترداد سلطانتها الأولى وكان البابا الذى انتخب بعد ذلك ، وهو كليمنت الخامس فرنسياً ، اختاره فيليب ملك فرنسا ، فلم يحضر إلى روما أبداً . بل أقام بلاطه بمدينة أفينيون التى لم تكن تابعة آنذاك لفرنسا ، بل للكرسى البابوى ، وإن وقعت في الأراضى الفرنسية ، وهناك ظل خلفاؤه حتى ١٣٧٧ ، عندما عاد البابا جريجورى الحادى عشر إلى قصر الفاتيكان في روما . ولكن جريجورى الحادى عشر لم تنتقل معه بانتقاله إلى روما قلوب الكنيسة جمعاء ، وذلك لأن كثيراً من الكرادلة كانوا من أصل فرنسى ، وقد تأصلت في أفينيون عاداتهم وعلاقتهم بالناس . حتى إذا مات جريجورى الحادى عشر في ١٣٧٨ ، وانتخب بنة إيطالى هو إربان السادس ، وأعلن هؤلاء الكرادلة المنشقون عدم صحة الانتخاب وانتخبوا لمنصب البابوية شخصاً آخر هو البابا المعارض كليمنت السابع ، ويسمى هذا الانقسام بالصراع الأعظم ، على أن الباباوات الأصلاء ظلوا في روما ، كما ظلت جميع الدول المضادة للفرنسيين موالية لهم ، كالإمبراطور وملك إنجلترا وبلاد الحبر وبولندة وشمال أوربا . أما الباباوات المعارضون ، فقد ظلوا في أفينيون يظهرون ملك فرنسا وخليفه ملك اسكتلندة وإسبانيا والبرتغال وأمراء آلان مختلفون . وكان كل بابا يحرم أنصار منافسه ويعلمهم ( ١٣٧٨ — ١٤١٧ ) .

أعجيب إذن أن شرع كل إنسان ، في كل أرجاء أوربا يفكر في شئون دينه بنفسه ؟

لم تكن هيئتا الرهبان الفرنسكانيين ولا النوميكيين لإعالمين من بين العوامل الكثيرة الجديدة التى شرعت تنشأ في المسيحية ، إما لتأييد الكنيسة وإما لتمزيقها . وما



أمران يرجع البت فيما لتقدير الكنيسة . وقد ثبت هاتين الجمعيتين فعلا واستفادت  
بخدمتهما ، وإن استخدمت في البداية شيئاً من العنف مع الجماعة الأولى . بيد أن هناك  
عوامل وقوى أخرى كانت أصرح في إظهار الصيان والانتقاد . فقد ظهر وبكليف  
( ١٣٢٠ - ١٣٨٤ ) بعد ذلك بقرن ونصف : كان أستاذاً عظيم الاطلاع بأ كسفورد .  
فصرح بوجه إلى الكنيسة وقد تقدمت به السن طائفة صريحة من الانتقادات لمفاسد  
رجال الدين وقلة حكمتهم . ونظم من أتباعه جماعة من قراء القسوس ، هم الونكلبيون  
لنشر آرائه في كافة أرجاء إنجلترا ؛ ولكي يحكم الناس بينه وبين الكنيسة ترجم الكتاب  
للقدس إلى الإنجليزية ؛ كان أوسع علماً وأكثر اقتداراً من كل من القديسين فرنسيس  
وبومبليك . وقد كثر بين أفراد الطبقة المثقفة الراقية مؤيدوه ، كما عظم عدد أتباعه  
بين أفراد الشعب ؛ ومع أن روما ثارت ثأرتها سخطاً عليه ، وأمرت بحبسه ، فإنه  
مات حراً طليقاً لم تمس حرية بسوء . بيد أن الروح القديمة البشيرة التي كانت تدفع  
الكنيسة الكاثوليكية إلى مهاوى الدمار ، لم تنطق ترك عظامه هادئة في قبرها . إذ  
صدر عن مجمع كونستانس ١٤١٥ ، مرسوم يقضى بنفى عظامه وحرقها ، وهو قرار  
تقدمه الأسقف فلنچ في ١٤٢٨ . بأمر من البابا بارتون الخامس . وجدير بالذكر أن هذا  
التدليس للهرمات لم يكن من عمل متعصب مفرد ، بل كان عملاً رسمياً صدر عن  
الكنيسة .

## الفصل الثامن في الأربعة

### فتوح المغول

ولكن في أثناء القرن الثالث عشر وبينما كان هذا الكفاح السيب غير الثمر في سبيل توحيد المسيحية تحت حكم البابا تواصل أحداثه في أوروبا ، كانت أحداث أخرى أعظم خطراً قائمة على قدم وساق في مسرح آسيا الأنفسج عبالا. فإن شعباً تترياً من الإقليم الواقع إلى الشمال من بلاد الصين تسنم لجأة غارب السيادة في الشئون العالمية ، وأحرز طائفة متعاقبة من الفتح ليس لها في التاريخ مثيل ، وهذا الشعب هو للمغول ، كانوا عند مستهل القرن الثالث عشر ، قبيلة من الفرسان الرحل ، يعيشون على طريقة أسلافهم المون تقريباً ، فيقتنون بوجه خاص باللحم ولبن الأفراس ، ويعيشون في خيام من اللباد . ولقد تغصوا عن أنفسهم نير السيادة الصيلية ، وأدخلوا عدداً من القبائل التركية الأخرى في اتحاد عسكري معهم . كان معسكرهم للركزى على نهر الأونون بسييريا .

وكانت الصين في ذلك الأوان في حالة انقسام . فإن سلطان أسرة تانج العظيمة قد انحلل في القرن العاشر الميلادى ، ثم هوت الصين في هوة الانقسام وتحولت إلى ولايات متطاحنة ، حتى استقرت بها في النهاية ثلاث إمبراطوريات رئيسية : هى إمبراطورية كن (Kia) في الشمال وعاصمتها ييكين . وإمبراطورية منج في الجنوب وعاصمتها نانكين ، وإمبراطورية هسيا (Hsia) في الوسط . وفي ١٢١٤ شن چانكيزخان قائد اتحاد المغول ، غارة على إمبراطورية كن واستولى على ييكين (١٢١٤) . ثم تحول بعد ذلك غرباً وفتح التركستان الغربية وفارس وأرمينية وتوغل في الهند حتى لاهور ، وفي جنوب روسيا حتى بلاد المجر وسيليزيا . ومات چانكيزخان وقد صار سيدا على إمبراطورية هائلة تمتد من المحيط الهادى إلى نهر الدنيير .

وأسس خلفه أوجدائى خان عاصمة دائمة له في «قره قورم» بمنغوليا وواصل سيرة ذلك الفتح للدهشة . وقد بلغت جيوشه درجة عالية جداً من الكفاية والنظام ؛ وكان معهم اختراع صينى جديد هو البارود ، كانوا يستخدمونه في مدافع ميدان صغيرة .



خريطة رقم (١٢)

آتم أوجدای فتح امپراطورية كن، ثم دفع بجيوشه قدامه ر آسيا إلى الروسيا (١٢٣٥)، وهو زحف عظيم يمت على أعظم الدهشة. فدمرت كييف في ١٢٤٠، وأصبحت الروسيا كلها تقريباً تابعة للنفول وعات النفول في بولنده نهياً وتدميراً، ثم أبادوا جيشاً عظيماً من البولنديين والألمان في معركة لجنيز بمنطقة سيليزيا الدنيا ١٢٤١، والظاهر أن الإمبراطور فردريك الثاني لم يذهب أى جهد لإيقاف تقدم ذلك السيل، المعنوي النهم.

يقول يورى فى ملحوظاته على كتاب جيون المسمى اسمحلال الدولة الرومانية وسقوطها : « إن للتورخين الأوربيين لم يدأوا إلا فى الآونة الاخيرة فى إدراك أن الانتصارات التى أحرزها الجيش القولى بامتياحه بولندة واحتلاله بلادالمجر فى ربيع ١٢٤١ ، إنما اكتسبت بالأعمال الحربية للتقنة ، ولا ترجع إلى مجرد التورق السدى الجارف . بيد أن هذه الحقيقة لم تصعب بعد أمراً معلوماً للجميع ؛ إذ لا يزال منتشرًا بين الناس الرأى الشائع الذى يمثل التار فى صورة الجيش الوحشى الذى يحترف كل شئ أمامه بقوة الكثرة العددية وحدها ، والذى يجرى بحيلة فى أرجاء أوربا الشرقية دون أية خطة حرية ، مندفعاً على ما يترضه من عقبات ومتعلبا عليها بمجرد الوزن السدى .

« ولم كان من المدهى تنفيذ الخطط في وقتها المحدد بالضبط وبكفاية فعالة متقنة ، في عمليات حرية تمتد من القستولا الأدنى إلى ترانسلفانيا . ولقد كانت مثل تلك الحملة تتجاوز تماماً طاقة أى جيش أوربي في ذلك الزمان ، كما أنها كانت فوق ما يعلم به خيال أى قائد أوربي . . لم يكن في أوروبا قائد واحد - وفي مقدمتهم فردريك الثاني - لا يجد غمرا (١) قليل الدربة في الخطط الحرية بالقياس إلى سوبوتاي . ومما هو جدير بالملاحظة أيضاً ، أن المغول أقدموا على تلك الغامرة وهم على تمام المعرفة بمركز الجبر السياسى وبالأحوال الدائرة في بولندة - ذلك أنهم حرصوا مقدماً أن يجمعوا المعلومات السكاية بوساطة جهاز جاسوسية جيد التنظيم ، وذلك على حين أن الهجريين والدول المسيحية الأخرى كانوا كالبرابرة الجهال ، لا يكادون يعرفون شيئاً عن أعدائهم » .

على أن المغول وإن أحرزوا النصر في لجنتز إلا أنهم واصلوا تقدمهم غرباً . ذلك أنهم أخذوا يدخلون في أرض تكسوها القباب والتلال ، ولا تتناسب وطريقهم في القتال ، لذلك انحرفوا جنوباً واشتدوا للاستقرار ببلاد الجز ، وأخذوا يملأون الدرع في ذوى قربام من الهجريين أو يتمثلونهم ، على نحو ما فعله هؤلاء من قبل في الإسكنديين والآفار والهنون الذين اختلطت دماؤهم هناك ، ولعلهم كانوا يفتنون أن يقوموا من وادى الجز بالإغارة غرباً وجنوباً مثلما فعل الهجريون في القرن التاسع والآفار في السابع والثامن والهنون في الخامس ، ولكن أوجدباى خان مات فجأة وترتب على وفاته نزاع على وراثة العرش في ١٢٤٢ ، وعند ذلك أخذت جيوش المغول غير المنهزمة تراجع نحو الشرق عبر بلاد الجز ورومانيا .

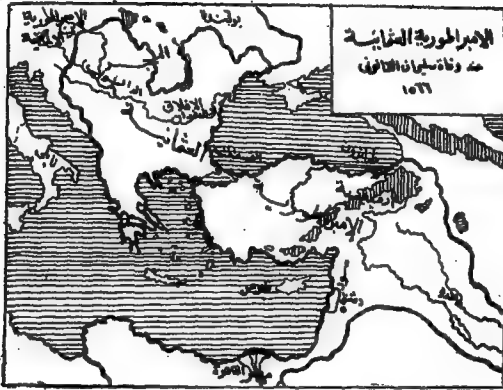
ومن بعدها ركز المغول اهتمامهم على فتوحهم الآسيوية ، فلم يحل منتصف القرن الثالث عشر حتى تحقوا إمبراطورية صنج . وقد خلفه « مانجوخان » في منصب الخان الأكبر في ١٢٥١ ، وعين أخاه قوبلاى خان حاكماً على الصين . وأصبح قوبلاى خان إمبراطور الصين المعترف به في ١٢٨٠ ، وبذلك أسس أسرة يوان التي دامت حتى ١٣٦٧ . وفي نفس الوقت التي كانت أسرة صنج تلفظ فيه آخر أنفاسها في بلاد الصين ، كان أع آخر لمانجو هو « هولوكو » ، يفتح فارس وسوريا . وأظهر المغول في ذلك الزمان

عداوة صريحة للإسلام ولم يكتفوا بتدبير سكان بغداد عندما استولوا على تلك المدينة بل شرعوا في تدمير نظام الري السعيق القديم الذي ظل على الدوام يحل من أرض الجزيرة بلاداً رغيدة أهله بالسكان منذ أيام سومر القديمة . وقد صارت أرض الجزيرة منذ تلك اللحظة الثعسة ياباً من الخراب والأطلال ، لا تتسع إلا لعدد القليل من السكان . ولم يدخل للمغول أرض مصر قط ، فإن سلطان مصر هزم جيشاً لهولاكو هزيمة تامة بفلسطين ١٢٦٠ .

وانحسر سيل النصر المتوالى بعد تلك الكارثة . واقسمت ممتلكات الخان الأعظم بين عدد من الدول المتفرقة الشمل . فأصبح المغول الشرقيون بوذين كالصليبيين ، وأصبح الغربيون منهم مسلمين . ثم نفّس الصليبيون عن كواهلهم حكم أسرة يوان في ١٣٦٨ ، وأقاموا أسرة منج القومية التي ازدهرت من ١٢٦٨ إلى ١٦٤٤ . على أن الروس ظلوا تابعين للجموع المغولية في السهوب الجنوبية الشرقية حتى ١٤٨٠ عندما نبذ غراندوق موسكو وولاءه ووضع أساس روسيا الحديثة .

وقد انتعشت قوة المغول أمداً وجيزاً في القرن الرابع عشر في عهد تيمورلنك وهو من سلالة جنكيز خان . فوطد ملكه بالتركستان الغربية ، واتخذ لقب الخان الأعظم في ١٣٦٩ ، وفتح البلاد الواقعة بين سوريا ودمشق . ولكن الإمبراطورية التي أسسها انتهت بموته . ومهما يكن من شيء ، فإن حفيداً لذلك الفاتح تيمور وهو بنجامر اسمه باهر استطاع في ١٥٠٥ أن يجمع جيشاً مزوداً بالدفاع حيط به على سهول الهند . وما لبث حفيده أكبر ( ١٥٥٦ — ١٦٠٥ ) أن آتم فتوحه ، واتخذت هذه الأسرة المغولية دلياً قصبة لها ، وحكمت معظم بلاد الهند حتى القرن الثامن عشر .

ومن عواقب الاكتساح المتوالى الكبير الأول في القرن الثالث عشر خروج قبيلة معينة من الترك سميت بعد ذلك باسم الأتراك العثمانيين من موطنها بالتركستان إلى آسيا الصغرى . بسط هؤلاء الأتراك سلطانهم ووطدوا أركانهم بآسيا الصغرى ، ثم عبروا الدردنيل وأغاروا على مقدونيا وبلاد الصرب وبلغاريا . وانتهى الأمر بأن بقيت القسطنطينية ، قائمة وحدها كأنها جزيرة في بحر من العثمانيين . وفي ١٤٥٣ استولى السلطان العثماني محمد الفاتح على القسطنطينية ، بعد أن هاجمها من الجانب الأوروبي بعد كثير من المدافع . وأحدثت تلك الحادثة هياجاً عظيماً في أوروبا ، وتحدث الناس بحرب صليبية ، ولكن عهد الحروب الصليبية كان قد ولى .



خريطة رقم ( ١٣ )

ولم ينقض القرن السادس عشر حتى تم لسلطان آل عثمان فتح بغداد وبلاد المجر  
ومصر ومعظم إفريقية الشمالية ، كما أن أسطولهم جعلهم سادة البحر المتوسط . وكادوا  
أن يستولوا على فيينا ، كما أنهم فرضوا الجزية على الإمبراطور . ولم يكن هناك في القرن  
الخامس عشر إلا شيخان عوضا للسيجية عما أصابها من نقص في الممتلكات . وأول  
هذين الشيخين ، هو استرجاع موسكو لاستقلالها ( ١٤٨٠ ) ، وثانيهما استرداد  
المسيحيين إسبانيا رويداً رويداً من يد العرب . ففي ١٤٩٢ سقطت غرناطة ، آخر  
دولة إسلامية في شبه الجزيرة في يد فرديناند ملك أرجونه وزوجته إزابيلا ملكة قشتالة .  
ولكن كبرياء الترك لم تكسر شوكته إلا في ١٥٧١ بعد معركة ليبانتو البحرية  
التي أعادت مياه البحر المتوسط إلى أيدي المسيحيين .

## الفصل التاسع والأربعون

### النهضة العسكرية للأوربيين

ظهرت إبان القرن الثاني عشر شواهد كثيرة تشهد بأن الذكاء الأوربي أخذ يسترد شجاعته ويفتخر فرصته للوامة ، ويستمد ليتناول من جديد قصب للغامرات الذهنية الذي جعله أول من بحثوا في العلم من الإغريق ، وصولاً إلى النظر التأمل الذي نجلى لدى أمثال لوكريشوس الإيطالي ، ويرجع ذلك الانعاش لأسباب عديدة معقدة . ولا شك أن من بين الظروف الضرورية للمهدة لذلك الأمر ، القضاء على الحرب الخاصة ، وارتفاع مستوى وسائل الراحة والأمن بعد الحروب الصليبية ، والاستشارة التي أحدثتها تلك الحملات في عقول الناس بما جلبته إليهم من خبرات : أخذت التجارة تنمى ، وبدأت المدن تسترد اليسر والأمن ، هذا إلى أن مستوى التعليم شرع يرتفع بين رجال الكنيسة وينتشر بين العلمانيين . وكان القرنان الثالث عشر والرابع عشر فترة مدن نامية ومستقلة أو شبه مستقلة ، نذكر منها على سبيل المثال ، البندقية وفلورنسا وجنوة ولشبونة وباريس وبروج ولندن وأقرس وهامبورج ونورمبرج ونوفجورود وبيس وبراغ . وكلها مدائن تجارية يؤمها المسافرون ، ويدهى أنحياها تجر الناس وسافروا يتحدثوا وفكروا . وكانت المبادلات البائرة بين البابا والأمراء ، وما تجلى في اضطهاد من يتهمون بالكفر من وحشية وشر ظاهرين ، تدفع بالناس إلى الشك في سلطان الكنيسة وإلى التساؤل والناقشة في المسائل الجوهرية .

وقد رأينا كيف كان العرب هم الأصل في إرساء أرسطو إلى أوروبا ، وكيف أن أميراً مثل فردريك الثاني كان كالمجاز الذي استطاعت من خلاله فلسفة العرب وعلمهم أن يعملا عملهما في العقل الأوربي الناهض ، حتى أن اليهود كانوا أعظم أثر في تنشيط أفكار الناس . وكان وجود اليهود في حد ذاته مثار استفسار حول مذبيات الكنيسة . ولا تلس أخيراً أبحاث قدامى الكيمياء السرية الفاتنة ، وكيف أخذت تنبش في كل مكان وتدفع بالرجال إلى مغامرة جهودهم في العلم التجريبي ، بصورة مثقلة وخفية إلا أنها مشمرة أيضاً .

والحركة التي دبت في عقول الناس لم تكن قاصرة عند ذلك بأى حال على الأثر على المتعلمين . فإن عقل الرجل العادى يتقبط في هذا العالم ، على شاكلة ليس لها مثيل في كل ما سلف من أيام الإنسانية . ويلوح أن المسيحية كانت تحمل إلى الناس الخائر الفكرية حيثما انتشرت تعاليمها ، وذلك على الرغم من غباء القسيس وظلم الاضطهاد ، فأنشأت علاقة مباشرة بين ضمير الرجل الفرد وبين رب البر والصلاح ، حتى لقد أصبحت لديه آنذاك إذا لزم الأمر الشجاعة التي تفيض له إصدار حكمه الخاص على الأمير أو الأسقف أو العقيدة .

وأخذت رعى للتناقضات والأبحاث الفلسفية تدور من جديد في أوروبا منذ زمن جيد يرجع إلى القرن الحادى عشر ، كما أن جامعات عظيمة ناهضة أنشئت في باريس وأوكسفورد وبولونيا وغيرها من للراكر العامة . وهناك شرع علماء القرون الوسطى يشيرون من جديد طائفة من المسائل . تتصل بقيمة الكلمات ومعناها ويقتونها بحثاً ، وكان هذا تمهيداً لا بد منه للتفكير الصافى في أثناء عصر العلوم الذى جاء في أعقاب ذلك . وهناك عالم بعد وحيد عصره لما هو عليه من نبوغ ممتاز ، هو روجر باكون ( من قرابة ١٢٩٠ إلى قرابة ١٢٩٣ ) ، وهو راهب فرنسكانى من أوكسفورد ، يمكن أن يسمى أباً العلم التجريبي المصرى . ولا شك أن اسمه جدير بأن يحدد ويخلف في كتابنا هذا تمجيده لا يسبقه فيه إلا أرسطو وحده .

وكتابات إيمانوى حجة واحدة قوية على الجهل . فقد أخبر أهل عصره صراحة بأنهم جهة ، وهو شئ ينطوى على جرأة لا يصدقها عقل ، وربما استطاع إنسان في هذه الأيام أن يخبر عالمه أنه سخي ف قدر ما هو جاد وقور ، وأن جميع أساليبه لا تزال صحيحة شبهة بعث الأطفال ، وأن كل مذاهبه الاعتقادية فروض طفولية ، دون أن يتعرض لأى أذى جنائى كبير ؛ بيد أن أناس القرون الوسطى كانوا - حين يخلو وقته من اللذائج أو من أن تعمل فيهم يد الجماعة أو الأوثى فكا وإفادة - موقفين يقيناً عنيفاً بحكمة معتقداتهم واكتمالها وأنها خاتم للمعتقدات جميعاً ، نزاعين إلى التضب للرب من وضعها موضع البحث والتأمل ، وكانت كتابات روجر باكون أشبه ما تكون بجناب باطع يخطب الأوبار في ظلة ليل حالك . وقد مزج هجائه على جهالة عصره بطائفة قيمة من المقترحات المادفة إلى زيادة المعرفة . وإنك لتشهد روح أرسطو تبعث حجة من جديدة حين ترى تمسسه وإصراره على الحاجة إلى التعريب وجمع المعارف . فالتفهمة



التي لم يفتأ روجر باكون يرددها ، والتبعة التي رضعها على كواهلها ، هي : «التجريب ، والتجريب » .

يبد أن روجر باكون شنع على أرسطو . ولم يسلك ذلك للسلك مع أرسطو إلا لأن الناس كانوا ، بدلا من أن يواجهوا الحقائق بشجاعة ، يقعون في يوتهم مكبين على الترجمات اللاتينية الرديئة التي كانت آنذاك كل ما يستطيع الحصول عليه من مؤلفات الفيلسوف . كتب في لهجته المتطرفة يقول : « لو تركت لي الحرية لأحرق كتب أرسطو جميعا ، وذلك لأن دراستها لا يمكن أن تؤدي إلا إلى الضياع وإلى الخطأ وزيادة الجهل » . وهو شعور ربما ردهه أرسطو نفسه لو قدر له أن يعود إلى عالم لم تكن كتبه تقرأ فيه بل تعد عبادة - مع أنها مدونة في تلك الترجمات البغيضة كما أوضح لك روجر باكون .

وكان روجر باكون يهيب بالبشرية بملء فيه في كل صفحات كتبه في شيء من الثقة دعت إليه ضرورة اصطناع التوفيق بين كتاباته والعقيدة الصحيحة السليمة خشية السجن أو ما هو أسوأ من السجن . « كفوا عن أن تحكمم للذهاب الاعتقادية والسلطات للتحكمة ، وانظروا إلى عالمكم ! » ولطالما شهر باكون بمصادر أربعة للجهل هي : احترام ذوى السلطان ، والعرف ، وإحساس الجمهور بجهله ، وميولنا غير القابلة لتعلم مع اتصافنا بالغرور والكبرياء . « فلو لم تتعلموا إلا على هذه وحسب ، لانفتحت أمامكم أبواب عالم من القوة » .

« في الإمكان وجود آلات تمخر البحر دون مجذاف يحركها . ومن ثم فإن السفن الكبيرة اللافة للنهر أو المحيط ، والتي يقودها رجل واحد ، ربما سارت بسرعة أكثر مما لو كانت مليئة بالرجال . وكذلك ، يمكن صنع العربات بحيث يمكن تحريكها دون الاحتياج إلى دواب الجر Gum impeto Inoe Stimabile ، وهي الصورة التي تصورها للعربات ذات اللناجل التي كان القدماء يخاربون فوقها . ثم إن في الإمكان وجود آلات طائرة ، يستطيع الرجل أن يجلس في وسطها ويدير شيئا تخفق به أجنحة شائعة في الهواء على منوال أجنحة الطير » .

هكذا كان روجر باكون يكتب ، ولكن كان لا يد أن تنقضي ثلاثة قرون أخرى

قبل أن يبدأ الإنسان محاولاته للنظمة في ارتياد خيئات القوى المجهولة المخترنة ، التي أدرك بوضوح وجودها وراء السياج الذى يحجب الشئون البشرية .

على أن العالم العربى لم يمنع المسيحية حافزاً يحفز فلاسفتها وكبائها فقط ، بل أعطاها الورق أيضاً . ولا إخالنا نبالغ إذا قلنا إن الورق هو الذى جعل فى الإمكان امتعاش أوروبا فكرياً .

نشأ الورق أصلاً فى الصين ، حيث يرجع استخدامه فى الراجع إلى القرن الثانى ق . م . وقد حدث أن هاجم الصليبيون العرب المسلمين فى مرقند عام ٧٥١ م ؛ فردوهم على أعقابهم ، وأسروا منهم أسرى كان من بينهم بعض مهرة صناع الورق ، ومنهم تعلم العرب تلك الصنعة . ولا تزال عندنا إلى اليوم عظومات مسطرة على ورق عربى مصنوع فى القرن التاسع لما بعده . ثم دخلت تلك الصناعة البلاد المسيحية إما بطريق بلاد اليونان وإما بالاستيلاء على مصانع الورق ببلاد الأندلس فى أثناء استرداد المسيحيين لإسبانيا ، على أن الإنتاج تدهور فى ظل الإسبان المسيحيين تدهوراً محزناً . ولم يتيسر صنع الورق الجيد فى أوروبا المسيحية إلا فى نهاية القرن الثالث عشر ، وعند ذلك كانت إيطاليا رائدة العالم فى هذا المضمار . ولم تبلغ تلك الصناعة ألمانيا إلا فى القرن الرابع عشر ، على أنها لم تسكر وبرخص سعر الورق رخصاً يجعل طبع الكتب أمراً ممكناً إلا عند نهاية ذلك القرن . وعند ذلك جاءت الطباعة كنتيجة طبيعية لا بد منها ، ذلك أن الطباعة أبسط الاختراعات وأغدها ظهوراً للبيان ، وعند ذلك دخلت حياة العالم العقلية فى طور جديد أقوى كثيراً من كل ما سبقه . وكلفت عن أن تكون رخصاً مثيلاً يسلسل من عقل إلى عقل ، وأصبحت فيضاً غامراً ، اهتمرت فيه آلاف من العقول تضاعفت للهور فهدت عشرات آلاف بل مئات الآلاف .

وتمت نتيجة مباشرة للوصول إلى الطباعة ، هى ظهور عدد ولير من نسخ المكتاب المقدسة فى العالم وتداولها بين الناس . وأخرى هى خفض سعر الكتب المدونة ، وكان انتشار المعرفة بالقراءة مبرها فلم يزد عدد المكتب فى العالم زيادة عظيمة وحسب ، بل إن المكتب التى كانت تطبع آنذاك كانت أوضوح لبصر القارئ ، ففى لذلك أسهل عليه فهمها وبدلاً من الإكباب فوق متن كتاب معقدة ، ثم محاولة فهم مدلولها ، أصبح القراء يستطيون آنذاك أن يسكروا فى أثناء القراءة دون أن يعوق

تسكيرهم عائق . وبفضل هذه الزيادة في سهولة القراءة ، تزايد عدد القراء . وكف الكتاب عن أن يكون العوبة مرقشة شديدة الزخرفة ، أو طلسا ينطوى على سر أحد العلماء ، وشرع الناس في كتابة الكتب ليقراها عامة الناس ويستمتعوا بمنظرها على السواء ، وأخذوا يكتبون باللغة العادية وليس باللاتينية ، فإذا أقبل القرن الرابع عشر ، بدأ معه التاريخ الحق للأدب الأوربي .

ظلقنا حتى الآن نمالغ نصيب العرب في النهضة الأوربية ، فلتجبه الآن إلى تأثير الفتوح المغولية ، فإنها أثارت الخيال الجغرافي لدى الأوربيين إثارة هائلة إذ ظلت آسيا كلها وأوروبا الغربية تيمان ردحا من الزمان في ظل الخان الأعظم باتصال حر مطلق ؛ فافتتحت كل الطرق إلى حين بين تلك البلاد جميعا ، وحضر ممثلو الشعوب جميعاً إلى بلاط الخان في قره قورم . وأزيلت إلى حد ما جميع الحواجز التي فصلت بين أوروبا وآسيا ، بسبب الخلاف بين المسيحية والإسلام . وعلقت الباباوية آمالاً كباراً على إدخال القول في المسيحية . وذلك لأن ديانتهم الوحيدة كانت حتى ذلك الحين هي الشامانية<sup>(١)</sup> ، وهي ضرب بدائي من الوثنية . فاجتمع في بلاط المغول مبعوثو البابا ، وكان بوزيون من الهند وفارس . وما أكثر ما يحدثنا التاريخ عن حملات المغول ومذابحهم ، دون أن نسمع القدر الكافي من الحديث عن جهم للاستطلاع ورغبتهم في العلم ..

وقد كان فضل المغول جسيماً وأثراً في تاريخ العالم عظيماً . لا بوصفهم شعباً ذا أصالة واستحداث ، بل كقوة للمعرفة والأساليب . وكل ما أمكننا أن نعلمه عن شخصيات جانكيز أو قوبلاي ( الرومانسية ) للهمة ، ينجح إلى تهوية الرأي القائل بأن هؤلاء الرجال كانوا ملوكاً لا يقلون في الفهم والابتكار عن أي من الإسكندر الأكبر ، ذلك الإنسان الزاحي الواج واج ، وأناأني أيضاً ، أو شيرلان ذلك اللاهوتي الأسمى الناشط الذي اجتث أشباح الماضي السياسية .

ومن أمتع هؤلاء الزوار لبلاط المغولي رجل من البندقية اسمه ماركو بولو ، دون قصته فيما بعد في كتاب . ذهب إلى الصين حوالي ١٢٧٢ مع أبيه وعمه . وكانا قد قاما بتلك الرحلة مرة قبل ذلك ، وكان تأثير هذين الرجلين في نفس الخان الأعظم عظيماً ،

---

(١) التامانية : ديانة شمال آسيا وتقوم بوجه خاص على البحر والصعونة . [ المرجع ]

وما أول من شهد من أبناء الشعوب اللاتينية ، فأعادها إلى بلادها التماسا للبحث وطلب للعلم والعلماء الذين يستطيعون تفسير للسبحة له ، ومن أجل مسائل أورنية منوعة أثارته حبه للاستطلاع ، فكان زيارتهما بصعبة ماركو هي الثانية .

بدأ الثلاثة رحلتهم بطريق فلسطين وليس بطريق بلاد القرم ، كما حدث في رحلتهم السابقة ، وكانوا يحملون لوحة من الذهب وأمارات أخرى من الخان الأعظم لبدء أنها سهلت عليهم السفر تسهلا عظيما ، وطلب منهم الخان الأعظم أن يحضروا شيئا من زيت القنديل الذي يوقد في بيت القدس عند النافوس للقدس ؛ لذا ذهبوا إلى هناك أولا ، ثم ساروا بطريق كليكية إلى أرمينية ، إذ اضطروا إلى التوغل شمالا على تلك الشاكلة لغارة سلطان مصر في ذلك الوقت على ممتلكات الفلول . ثم انحدروا بطريق أرض الجزيرة إلى هرمز على الخليج الفارسي ، كما كانوا يزعمون الرحلة بطريق البحر . والتقوا في هرمز بعض تجار الهند . على أنهم بسبب ما لم يقطعوا بالسفن ، بل عرجوا بدل ذلك شمالا عبر قن الصعاري الفارسية ، ثم ساروا بطريق بلغ فوق هضبة البامير إلى قشغر ، وبطريق خوتان وبحيرة لب نور إلى وادي نهر هوانج هو ومنه إلى بكين . وهناك في بكين استقبلهم الخان الأعظم بمحاوطة بالغة .

وسر قوبلاي بوجه خاص من ماركو ، الذي كان صغيرا ذكي الفؤاد ، ومن الجلي أنه كان يقنع اللغة التتارية . تماما فعين في أحد المناصب الحكومية وأرسل في مهام كثيرة وبخاصة في جنوب الصين القربي ، والقصة التي يرويها عن وجود قطعات مترامية من الأراضي البسامية الرخيدة ، يقول فيها : « توجد دور الضيافة الممتازة المدة للسيفالرين على طول الطريق » ، ثم يقول « وعراشي كروم بديعة وحدائق وحقول » ويتحدث عن « الأديرة الكثيرة » والربان البوذيين ، وصناع الأقمشة من الحرير والذهب ، وأنواع كثيرة من قماش الثمناء الممتاز ، وسلسلة متصلة الحلقات من المدن والبلاد ، إلى غير ذلك مما أثار في البداية عاصفة من التشكك في أوروبا ، ثم عاد فألمب خيال أوروبا بأجمعها ، وتحدث عن نورما وعن جيوشها الكبيرة بما حوت من مئات الأفيال ، وكيف هزم ناشبة<sup>(١)</sup> القول تلك الحيوانات ، كما ذكر فتح القول ليجو ( pegu ) . وتحدث عن اليابان ، وبالغ كثيرا في تقدير ما في تلك البلاد من الذهب . وظن

(١) الناشب : صاحب النشاب أى السهام والرئيس بها والجمع فلعبة . . . [المترجم]

ماركوك ثلاث سنوات خاضاً على مدينة يانج تشو، ولعله — كأجنبي — لم يلفت أنظار الأهالي الصينيين أكثر من أى تترى آخر؛ ولعله أرسل كذلك فى سنة إلى الهند. والسجلات الصينية تذكر شخصاً اسمه بولو الحق بالجلس الإمبراطورى فى ١٢٧٧ وهو تأكيد جيد لما تتطوى عليه رواية بولو من مسحة عامة من الصدق.

وأثر نشر رحلات ماركوبولو تأثيراً عميقاً فى الخيال الأوروبى، فإن الأدب الأوروبى فى القرن الخامس عشر وبخاصة (الرومانس) الأوروبى يتردد فيه صدى الأسماء المذكورة فى قصة ماركوك بولو مثل كاتاي (شمال الصين) وكامبولاك (بكين) وماشاهينها.

وبعد ذلك قرنين اطلع على « رحلات ماركوبولو » بحار معين من جنوة هو كريستوفر كولبس، الذى تصور خياله الألهى فكرة الإبحار غرباً إلى بلاد الصين حول العالم. وشاهد ذلك أنه توجد بمدينة أهيلية نسخة من « رحلات بولو » على هوامشها بعض ملحوظات بخط كولبس. وهناك أسباب متعددة دعت الجنوى إلى اتخاذ تلك الوجهة، ذلك أن القسطنطينية ظلت، حتى سقوطها بيد الأتراك فى ١٤٥٣، سوقاً حايذاً للتجارة بين العالم الغربى وبلاد الشرق، وكان الجنويون يتاجرون فيها بحرية تامة. ولكن البنادقة اللاتينيين منافسوا جنوة الألفاء، كانوا حلفاء الأتراك وأعوانهم على اليونانيين (الروم)، فلما احتل الترك المدينة بعد للتجارة الجنوبية مجال بها، وفى تلك الآونة كان الاكتشاف القديم الذى نسيه الناس من زمن بعيد، والقائل بكروية الأرض قد أخذ يعود بالتدريج إلى مكانته الأولى من عقول الناس. لذا كانت فكرة الذهاب إلى الصين يطرئ على القرب فكرة واضحة للبيان إلى جدما، وكان يشجع على القيام بها أمران: أولهما ظهور البوصلة البحرية التى اخترعت فى تلك الأثناء، وبفضلها لم يبعد الناس تحت رحمة ليل صافى السماء بإدى النجوم لتعديد الاتجاه الذى يسعون إليه، وثانيهما أن النورمان والقطلونيين والجنوبيين والبرتغاليين انطلقوا قبل ذلك فى عرض المحيط الأطلسى، حتى بلغوا جزائر الكنارى وجزائر ماديرا والأزورس.

ومع ذلك فقد اضطر كولبس أن يتغلب على صواب كثيرة قبل أن يتيسر له الحصول على السفن اللازمة لتنفيذ فكرته أو اختبارها فأخذ يتنقل من بلاط ملكى فى أوروبا إلى آخر، حتى استطاع فى النهاية أن يحصل بمدينة غرناطة المنزعة حديثاً من يد العرب،

على مناصرة فرديناند وإيزابيلا . ورعايتهما لمشروعه . وأن يحترق مجاهل المحيط الضخم بثلاث سفن صغيرة . وسارت السفن شهرين وتسعة أيام طويلة مريرة ، ثم بلغت أرضاً زعم كولمبس أنها بلاد الهند ، ولكنها لم تكن في الحقيقة إلا قارة جديدة لم يقدر العالم القديم وجودها قبل ذلك أبداً .

ثم عاد كولمبس إلى إسبانيا يحمل الذهب والقطن والحيوانات الثرية واثنين من الهنود المنقوشى البشرة قد بدت عليهما الضراوة مالمبث أن عمدما مسيحين . وقد أطلق عليهما كولمبس الهنديين لاعتقاده حتى يوم وفاته ، أن الأرض التى استكشفها هى بلاد الهند . ولم يدرك الناس إلا بعد انقضاء سنوات عدة أن الذى ضم إلى موارد العالم القديم هو قارة أمريكا الجديدة بأكملها .

وكان للنجاح الذى لقيه كولمبس فضل إثارة روح المغامرة البحرية إلى حد هائل . فدار البرتغاليون فى ١٤٩٧ حول قارة إفريقية إلى بلاد الهند ولم يحل سنة ١٥١٥ حتى كانت للبرتغاليين سفن عند جزيرة جاوة .

وفى ١٤٩٩ أفلح ماجلان ، وهو بحار برتغالى يعمل فى خدمة الإسبان ، من مدينة أهيبيلية بمخمس سفن أجهز بها غريباً ، لم تعد منها إلا واحدة هى فيكتوريا . التى دخلت النهر حتى بلغت أهيبيلية فى ١٥٢٢ . وهى أول سفينة دارت حول العالم : وكان عليها واحد وثلاثون بحاراً ، هم البقية الباقية من مائتين وثمانين بدأت بهم الرحلة . أما ماجلان فإنه قتل بجزائر الفلبين .

لقد انبجست على العقل الأوربى أشياء كثيرة ضخمة منها الكتاب الورق المطبوع ، وأدرك الناس من جديد أن هذا العالم المستدير إنما هو شيء فى متناول اليد تماماً ، وانبجست أيضاً صورة جديدة لأقاليم غربية وحيوانات ونباتات غريبة وعادات غريبة ومستكشفات تمت وراء البحار وفى أطباق السماء وفى أساليب الحياة وموادها ؛ فأقبلت العقول بسرعة على دراسة الآداب الكلاسيكية اليونانية وطعمها بعد أن طال العهد بدقتها ونسيان الناس لها ، فأخذت تداعب أفكار الناس بأحلام أفلاطون وبشقايد عصر تنقياً لظلال الحرية والكرامة فى أكناف الحكم الجمهورى .

وقديماً أدخلت السيادة الرومانية القانون والنظام لأول مرة إلى ربوع أوروبا الغربية

كما أن الكنيسة اللاتينية كانت صاحبة الفضل في نشر لوائهما من جديد بها ؛ على أن حب الاستطلاع والقدرة على الابتكار والخلق كانا بخضمان لتنظيم يحدهما ويقيدهما في عهد روما الوثنية والمسيحية سواء بسواء . لقد أخذ عهد تسلط العقل اللاتيني يقترب عنده من نهايته . ذلك أن الأوربيين الآريين أخذوا ينصلون فيما بين القرن الثالث عشر والسادس عشر عن التقاليد اللاتينية بفضل أثر الساميين والقول للنبي ~~ف~~عقول ، وبفضل العثور من جديد على آداب اليونان الكلاسيكية ؛ انفصلوا عن تلك التقاليد وأخذوا يرقون الطريق ثانية إلى موزة الصدارة الفكرية وللادية بين البشر جميعاً .

## الفصل الخامسون إصلاح الكنيسة اللاتينية

تأثرت الكنيسة اللاتينية ذاتها تأثراً هاماً بهذا البعث القوي . لقد برزت منها أجزاء ولم ينج الجزء الذي بقي منها من يد التجديد الشامل .

أسلفنا القول كيف أوشكت الكنيسة على تولى الزعامة الاستبدادية للنصرانية بأكملها إبان القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، وكيف اضطلع بعد ذلك سلطانها على عقول الناس وشئونهم . ووصفنا كيف أدى كبريائها واضطهادها للناس ونظامها المركزى إلى تحامل النفوس عليها وانصراف حماسة الشعوب الديلية عنها ، وهى الحماسة التى كانت فيما سلف من الزمان عدتها ودعاتها ، وذكرنا كيف أضر مكر فردريك الثانى وتشككه ثمارهما على صورة ما نهجى من الأمراء من عصيان لم يرح يزداد ويضمو .

انتشرت تعاليم ويكيليف الإنجليزية فى كل أرجاء أوروبا . وحدث فى ١٣٩٨ أن طالما تشيكيا هو جون هس ، ألقى بجامعة براغ مجموعة من المحاضرات حول تعاليم ويكيليف . وسرعان ما انتشرت هذه الآراء حتى تجاوزت الطبقة للتعلمة ، وأثارت حماسة شعبية عظيمة . وتصادف أن انعقد بمدينة كونستانس بين ١٤١٤ ، ١٤١٨ مجلس للكنيسة بكامل هيئتها ليفصل فى الصدد الأعظم . ودعى هس للشول أمام ذلك المجلس بعد أن تلقى وعداً من الإمبراطور بالأمان فى الذهاب والعودة ، ولكن قبض عليه وحوكم بتهمة الإلحاد وأحرق حياً ( ١٤١٥ ) . وبدلاً من أن يؤدى ذلك التصرف إلى تهدئة الشعب البوهيمى إذا به يفضى إلى تمرد أتباع هس بتلك البلاد ، وإلى نشوب أول حرب من سلسلة متلاحقة من الحروب الدينية كانت فاشحة تمزق عالم النصرانية اللاتينية . وعند ذلك دعا البابا مارتن الخامس إلى حرب صليبية لقمع ذلك العصيان ، وذلك البابا هو الذى انتخب خاصة بمجلس كونستانس ليكون رئيساً للسياسة يوم أعيد توحيدها .

سيرت على هذا الشعب الصغير الباسل حملات صليبية عدتها خمس ، فبادت جميعاً بالفشل . لقد وجهت الكنيسة على بوهيميا فى القرن الخامس عشر كل مئثردى أوروبا



ورغبتها للتعطيل ، مثلما سير الزعاف بالضبط في القرن الثالث عشر على أتباع والو .  
يبد أن أهالي بوهيميا التشيك كانوا على النقيض من أتباع والو يؤمنون بالمقاومة  
للمسلحة . ولم تنكد الحملة الصليبية المسيرة على بوهيميا تسمع قسمة عجلات أتباع هين  
وأناشيد جنودهم من بعيد ، حتى تبحرت وتسلمت من ميدان القتال ؛ وبلغ من أمرها أنها  
لم تلتظر قط حتى تقاتل ( معركة دومازليس ١٤٣١ ) . وانخذ بمدينة بال في ١٤٣٦  
مجلس جديد للكنيسة عقد صلحاً كيفما اتفق مع أتباع هس ، أزيلت بمقتضاه كثير من  
الاعتراضات الخاصة على تصرفات الكنيسة وعرفها .

وحدث في القرن الخامس عشر وباء عظيم تولد عنه انهيار النظام الاجتماعي إلى  
درجة كبيرة في كل أرجاء أوروبا ؛ ولقي العامة من هذا الوباء عنتا وحساسة شديدة وانتشر  
بينهم مفرط السخط والتذمر ، كما ثار الفلاحون على أصحاب الأملاك بكل من إنجلترا  
وفرنسا . وزادت خطورة ثورات الفلاحين هذه في ألمانيا بعد الحرب مع أتباع هس  
وتضعفت بقتاع ديني . وجاءت الطباعة فكانت مؤثراً قوياً زاد في ذلك التطور ؛ إذ إنه  
لما ابتصف القرن الخامس عشر كان عمال الطباعة في هولندا ومنطقة الرين يستخدمون  
حروفا قابلة للحركة والهاك . ثم انتشر فن الطباعة في إيطاليا وإنجلترا ، حيث كان  
كاكتون يعمل في طبع الكتب بوستمنستر في ١٤٧٧ .

وكانت النتيجة للباشرة لانتشار الطباعة تضاعف عدد نسخ الكتاب المقدس وانتشاره  
بين الناس بدرجة عظيمة ، وتيسير سبل ذبوع الجدل بين أفراد الشعب . لقد أصبح  
العالم الأوربي عالم قراء ، إلى حد ليس لأى مجتمع في الماضي عهد مثله ؛ ومن سوء حظ  
الكنيسة أن إرواء عقول الناس عامة ، على هذه الصورة المفاجئة ، بالأسفار التي هي أكثر  
وضوحاً والمعلومات التي هي أقرب مثالا ، حدث في وقت غشيا فيه الارتباك والفرقة ،  
وأصبحت في موقف لاستطيع فيه أن تبذل دفاعاً فعال الأثر . وفي يوم كان كثير من  
الأمرء يبحثون عن وسيلة يضعفون بها قبضتها على الثروة الهائلة التي كانت تدعى  
امتلاكها في بلادهم .

أما في ألمانيا فإن الحملة على الكنيسة جمعت حول شخصية راهب سابق يدعى  
مارتن لوتر ( ١٤٨٣ - ١٥٤٦ ) ، ظهر بمدينة ويتنبرج عام ١٥١٧ ، مثيراً غضن  
اعتراضات على أنواع حتى مما حارسا الكنيسة من عرف ومذاهب تقليدية سلبية ، فواجه

في بدء الأمر يتجادل باللغة اللاتينية على طريقة علماء ذلك الزمان . ثم أقبل على السلاح الجديد سلاح الكلام للطبوع ، فاستعمله ونشر بذلك آراءه في كل مكان باللغة الألمانية مخاطباً عامة الناس . وحاولت الكنيسة القضاء عليه كما قضت قبلاً على هس . ولكن للطبعة غيرت أحوال الدنيا ، كما أن لوثر كان له بين أمراء الألمان عدد كبير من الأصدقاء ما بين مظهر لصدائقه وكآثم لها ، فغالوا بينه وبين ورود ذلك للصبر .

ومما يجمل ذكره عن ذلك العصر الذي تكاثرت فيه الأفكار وضعت فيه العقائد ، أن كثيراً من حكامه كانوا يرون مصالحهم في ضم هري الروابط الدينية التي تربط شعوبهم بروما ، فحاولوا أن يحصلوا من أنفسهم شخصياً رؤساء لعقيدة ذات طابع قومي أقوى . فأخذت كل من إنجلترا واسكتلندة والسويد والنرويج والدانمارك وهلمألاً ألمانيا وبوهيميا تنفصل عن المجتمع الديني الكاثوليكي الواحدة بعد الأخرى . ومنذ ذلك الحين لم تعد واحدة منها إلى حظيرة .

وبدئى أن أحداً من هؤلاء الأمراء على اختلاف أجناسهم لم يكن أدنى عناية بحرية رعاياه من الناحية الحلقية أو الدينية ، وكل ما في الأمر أنهم استخدموا الشكوك الدينية وثورات شعوبهم ذريعة لتقوية أنفسهم ضد روما . على أنهم حاولوا أن يحافظوا على إحكام قبضتهم على الحركة الشعبية التماساً لكي يحفظوا ، بمجرد أن تم لهم ذلك الانفصال عن روما ، وإنشاء كنيسة قومية تحت هيئة التاج . ولكن تعاليم يسوع تتطوى دائماً على حيوية عجيبة ، فهي دعوة مباشرة للبر والصلاح ، وتقديم احترام القداة على كل ولاء وكل خضوع - علماً بأن ذلك أو دينياً . فلم يحدث مرة أن انفصلت كنيسة واحدة من كنائس الأمراء تلك دون أن ينفصل معها أيضاً عدد من الطوائف الفرعية التي لا تعترف بتدخل أمير ولا بابا بين الرجل وربه . فقد ظهرت في إنجلترا واسكتلندة مثلاً عدة طوائف استمسكت بالكتاب للقدس بشدة ، متخفة منه هادياً الوحيد في الحياة والعقيدة ، ورفضت كل تنظيمات كنيسة الدولة . وقد سمي هؤلاء المخالفون في إنجلترا باسم اللشقيين ( Non Conformists ) ، وقد لعبوا دوراً كبيراً جداً في سياسة تلك البلاد في أثناء القرن السابع عشر والثامن عشر ، وبلغ من قوة اعتراضهم في إنجلترا على أن يكون رئيس الكنيسة أميراً ، أنهم قطعوا رأس الملك شارل الأول ( ١٦٤٩ ) ، ثم أقاموا بها حكومة جمهورية من اللشقيين دامت أحد عشر عاماً حافلة بالرخاء والرغد .

وانتقال هذا الشطر الكبير من أوروبا الشمالية عن عالم المسيحية اللاتينية هو ما يعرف على وجه الإجمال باسم « الإصلاح الديني » . على أن وقع هذه الحسائر الجسيمة ذاتها وهددة قوتها أحدث في الكنيسة الكاثوليكية تغييرات لا تقل في عمقها عنها في أى مكان آخر . فأعيد تنظيم الكنيسة من جديد وتغلغل روح جديد في حياتها ، وكان من أبرز العاملين على هذا البث الجديد جندى إسباني شاب يدعى أليجو لوردي ريكالدي ، وهو الذى يعرف في العالم باسم القديس إغناطيوس دى لولا . أصبح ذلك الفتى قسيساً في ( ١٥٣٨ ) بعد أن بدأ أمره بدءاً ( رومانسياً ) إلى حد ما ، ثم ممتعاً بأن يؤسس جمعية يسوع ، ومنذ ذلك الحين أصبحت جمعية اليسوعيين من أكبر جماعات التعليم والتبشير التي ظهرت في العالم . وبلغ نشاطها أن حملت لواء المسيحية إلى بلاد الهند والصين وأمريكا . وكان لها الفضل الأكبر في إيقاف الانحلال السريع الذى انتاب الكنيسة الكاثوليكية . كما أنها رفعت المستوى العلمى في كل أرجاء العالم الكاثوليكي ؛ وبفضل منافستها نشطت أوروبا البروتستنتية لبذل الجهود الكبيرة في التعليم مجارة لها . لذا فإن الكنيسة الكاثوليكية القوة الشديدة المراسن في العهد الحاضر ما هي إلا الثمرة الياقة لهذا الانتعاش العجيب .

## الفصل الحادى والعشرون

### الإمبراطور شارل الخامس

وصلت الإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى مكانة رفيعة الشأن فى عهد الإمبراطور شارل الخامس ، الذى كان من أحجب من شهدتهم أوروبا من الملوك . وقد ظل رديفاً من الزمان يدو لأعين الناس أعظم ملك تولى الملك منذ عهد شربلان .

على أن عظمته لم تكن من صنع يديه ، بل هى إلى حد كبير ثمرة جهود جده الإمبراطور مكسميليان ( ١٤٦٩ — ١٥١٩ ) . ولا يخفى أن بعض الأسر الملكية بلغ حظها من السلطان العالى عن طريق القتال ، وأن بعضها الآخر يلفه بالمؤامرة والتدبير . أما آل هابسبرج فالتمسوا العظمة العالمية عن طريق المصاهرة والزواج .

وقد ابتدا مكسميليان حياته عاهلاً للنمسا وإستريا ولجزء من الأتراس ومناطق أخرى ، وهى ميراثه الأصلى عن آل هابسبرج ؛ فتزوج ملكة الأراضى المنخفضة وبرغنديا ( ولا يكاد اسم زوجته يعني هنا فى قليل أو كثير ) .

على أن معظم برغنديا ما لبث أن أقلت من يده بوفاة زوجته الأولى ، ولكن بقيت له الأراضى المنخفضة . ثم حاول أن يتزوج أميرة بريتانى بفرنسا فلم يوفق ، وتولى عرش الإمبراطورية بعد أبيه فريديك الثالث عام ١٤٩٣ ، ثم تزوج دوقه ميلانو أوغل تزوج دوقها . وأخيراً زوج ابنه من ابنة فرديناند وإيزابلا الضعيفة العقل وهما نصيراً كولبس اللذان لم يحكما وحسب بلاد إسبانيا الحديثة التوحيدوسرديياوالصقليتين<sup>(١)</sup> ، بل حكما أيضاً أمريكا كلها غرب بلاد البرازيل . وهكذا تم لشربلان<sup>(٢)</sup> حفيده ميراث معظم القارة الأمريكية ، وقد يتراوح بين ثلث مالم يقع من أوروبا ونصفها بأيدى الترك . وانتقل إليه ملك الأراضى المنخفضة فى ١٥٠٦ فلما توفى جده فرديناند

---

(١) ويقصد بهما جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا .  
(٢) شربلان : هو شارل الخامس نفسه .  
[ للترجم ]

في ١٥١٦ أصبح بالملك ملكاً على الدولة الإسبانية للترامة نظراً لبلاهة أمه. وضعف عقلها ، غنى. إذ مات جده مكسميليان في ١٥١٩ ، انتخب عام ١٥٢٠ إمبراطوراً وهو لا يزال في العشرين ، من عومة الأطفال نسبياً .

كان شاباً أخف لاتبو على وجهه غايل النجاة ، فشفته العليا غليظة وذقنه طويل فيسح . ونظر حوله فإذا عالمه حافل بالشخصيات الفتية القوية . فإن عصره كان عصر ملوك شبان أذكىاء ، منهم فرنسيس الأول الذي تولى عرش فرنسا في ١٥١٥ وعمره إحدى وعشرون سنة ، ومنهم هنري الثامن الذي ارتقى عرش إنجلترا عام ١٥٠٩ في سن الثامنة عشرة . وهو عصر يار ييلاد الهند (١٥٢٦ - ١٥٣٠) ، وسليمان القانوني بتركيا (١٥٢٠) ، وكلاهما ملك عظيم مقتدر ، هذا إلى أن البابا ليون العاشر (١٥١٣) كان كذلك رجلاً ممتازاً جداً . وحاول البابا بمساعدة فرنسيس الأول أن يحول دون انتخاب شيرلكان لعرش الإمبراطورية لا خشية من ترك ذلك القدر المائل من السلطان في يد رجل واحد . ثم تقدم كل من فرنسيس الأول وهنري الثامن بمرحان نفسهما على ناخي الإمبراطور . ولكن انتخاب الأباطرة من آل هابسبرج كان قد أصبح آنذاك تقليداً مبيد الأجل وطيد الأركان (منذ ١٢٧٣) ونقطت الرشوة حتى كفلت لشرلكان النجاح في الانتخاب .

ابتدأ الملك الشاب حكمه العروة فاخرة رفيعة في أيدي وزرائه . ثم شرع بعد ذلك يبرز شخصيته على مهل ويمسك بقيادة الأمور . وما لبث أن بدأ يدرك ما يحيط بمركزه السامي من مخاطر حافلة بالأخطار . وأحسن أنه وإن كان مركزاً فاحراً فإنه ضعيف مضطرب كذلك .

وأول ما واجهه منذ ماعة توليه الحكم الموقف الذي أوجدته الاضطرابات البابوية عن دعوة لوتر بألمانيا . وكانت معارضة البابا في انتخابه إمبراطوراً من الأسباب التي دفعت إلى الانحياز إلى دعاية الإصلاح الديني . ولكنه نشأ في إسبانيا بلاد الكاثوليكية المتطرفة ، ومن ثم قرر أن يناصب لوتر العداء . ومن هنا بدأ النزاع بينه وبين الأمراء البروتستنت وخاصة منتخب سكسونيا ، وعند ذلك وجد نفسه يواجه حدة قد أخذ يتسع ويتهدد بتحزيق الوحدة البابية للمسيحية إلى معسكرين متناحرين . فبذل في سبيل رأب ذلك الصنع جهوداً مضنية شريفة لم يكتب لها التوفيق . وقام الفلاجيون في ألمانيا

بثورة ممسحة الأطراف ، اختلطت بالفن والاضطرابات الدينية والسياسية العامة . وبما زاد الأمر تعقيداً اجتمع هذه الفتن الداخلية على رأس الإمبراطور مع هجمات الأعداء على إمبراطوريته من الشرق والغرب جميعاً . وكان جارشرلسكان في ناحية الغرب هو فرنسيس الأول منافسه الجريء الطموح . ونازعه من الشرق الأتراك الذين كانوا يتقدمون بلا انقطاع ، والذين استولوا عند ذلك على بلاد المجر ، وتحالفوا مع فرنسيس وأخذوا يطالبون بما لهم على دولة النمسا وتملكاتها من متأخرات الجزية ، أجل إن أموال إسبانيا وجيوشها كانت رهن إشارة من شارل ، ولكن الحصول على أية مساعدة مالية فعالة من ألمانيا كان من أعسر الأمور . وزادت الأزمات المالية متاعبه الاجتماعية والسياسية تعقيداً . فاضطرته ضائقته إلى الاستدانة التي جلبت عليه الحراب والإفلاس .

على أن شارل وفق على العموم بتعاقفه مع هنرى الثامن إلى التغلب على فرنسيس الأول وحلفائه الأتراك . وكان ميدان القتال الرئيسى بينهما هو شمال إيطاليا ؛ أجل إن قيادة الطرفين كانت تسلم بالبلادة والغباء ، كما أن حركات التقدم والتأخر التي كانا يقومان بها اعتمدت قبل كل شيء على وصول الإمدادات . ثم غزا الجيش الألماني فرنسا وأخفق دون الاستيلاء على مرسيليا ، ثم تراجع إلى إيطاليا ، حيث ضاعت ميلانو من يده ، وحوصر بمدينة بافيا . وقد ألقى فرنسيس الأول حول بافيا حصاراً طويلاً بالقتل ، ثم حاصرت قوات ألمانية جديدة وهزمت جيوشه وجرحته وأخذته أسيراً . وعند ذلك انقلب البابا وهنرى الثامن على شيرلسكان لما كان يساورهما دائماً من خوف من زيادة قوته إلى حد مفرط ، وماعنت القوات الألمانية المقاتلة في ميلانو بقيادة كونستابل بوريون وقد تأخرت إعطائها ، أن أرغمت قائدها على الزحف بها على روما ، وهناك فتحوا المدينة عنوة واتهبوها في ( ١٥٢٧ ) .

ولجأ البابا إلى قلعة القديس أنجيلو ، على حين واصل الفيرنون النهب والقتل في المدينة ، ثم استطاع في النهاية أن يشتري رحيل القوات الألمانية بأن دفع لها أربعمائة ألف بندق<sup>(١)</sup> ، واستمرت هذه الحروب الضطربة عشر سنين لقيت منها أوربا الفقر والإفلاس ، حتى ترمى الأمر في النهاية أن وجد الإمبراطور نفسه مظفراً في إيطاليا ، ومائتس البابا أن توجه في ١٥٣٠ بمدينة بولونيا ، فكان آخر من توج من أباطرة الألمان على هذا النحو .

(١) البندقى ( Ducenta ) هو كلمة ذميمة مصدرها البندقية .

وفي نفس ذلك الوقت كان الأتراك يحتلون بلاد المجر اجتياحاً . بعد أن هزموا ملك المجر وقتلوه في ١٥٢٦ ، ثم استولوا على بودابست وأوشكت فينا أن تقع في قبضة سليمان القانوني في ١٥٢٩ . واغتم الإمبراطور غما عظيماً لهذا التقدم ، وبذل كل ما في مستطاعه لرد الأتراك عن بلاده ، ولكنه لقي أعظم الضر في جمع كلة أمراء الألمان على الرغم من وجود ذلك العدو القوي المعاني على أبوابهم جميعاً . وظل فرنسيس الأول عاجزاً عن القتال ردىاً من الزمان ، ثم نهض للحرب مرة ثانية ؛ على أن شارل ما لبث أن تمكن من استمالة منافسه إليه (١٥٣٨) وحمله على التزام جانب اللودة إزاده بعد أن أعمل في جنوب فرنسا يد النهب والتخريب . وعندئذ عقد فرنسيس مع شربكان محالة ضد الترك .

ولكن الأمراء البروتستنت وهم أمراء الألمان الذين عقدوا العزم على الاتصال عن روما ، كانوا قد كونوا وقتذاك ضد الإمبراطور حلفاً ، هو حلف الشملكلند Schmalckaldic فاضطر شارل أن يوجه منه إلى الكفاح الداخلي الذي أخذت عناصره تتجمع في ألمانيا ، بدلا من أن يقوم بحملة كبرى ليسترد بلاد المجر من قبضة المسلمين وضمها إلى حظيرة المسيحية . ولكنه لم يعمر طويلاً ، فلم يشهد لذلك من هذا الكفاح إلا أول حرب نشبت فيه . وقد اتصف ذلك الكفاح بأنه مناوشات دامية خلت من كل حكمة وعقل ، اقتتل فيها الأمراء على السيادة . وكانت تدلج نيرانها أحياناً فتصبح حرباً عنيفة تأتي على الحراث والنسل وتجبر وراءها الخراب ، أو تهبط فلذا هي مؤامرات ومؤامرات ديبلوماسية ، لقد كانت ألمانيا تجرب ملء بالأفاعى من الأمراء ، الذين ظلت سياساتهم تتولى في ذلك الجراب وتقع إلى ما لا نهاية حتى تقدم الزمن بالقرن التاسع عشر ، وما زالت هذه الديبلوماسية تعمل في أوروبا الوسطى تدميراً وتخريباً مرة في إثر أخرى .

ويلاحظ أن الإمبراطور لم يدرك قط العوامل الحقيقية التي كانت تعمل عملها في تلك المتاعب التي أخذت تتجمع على رأسه . لقد كان بالنسبة لصنعه ومركزه رجلاً فاضلاً إلى أقصى حد ، والظاهر أنه توهم أن الخلافات الدينية التي كانت تمزق أوروبا إلى أهلاء ومتأخرزة إنما هي خلافات دينية حقة ، فأكثر من عقد مجالس المدايت<sup>(١)</sup> والمجامع الكنسية محاولاً بذلك التوفيق والصلح دون جدوى . وكم من مرة أعيد البحث في قانون الإيمان النكسي

(١) المدايت : مجلس أو مؤتمر يجتمع فيه أمراء وكبراء الدولة الرومانية ( الألمانية ) للكنيسة . [ للترجم ]

وفي مسألة الاعتراف . ودارس التاريخ الألماني مضطر في الرغم منه أن يكبح التماسا لبحث تفاصيل صلح نورمبرج الديني . والتسوية التي أقرها دايت راتسبون وصلح أوجزبرج وما إليها . وهي أمور لا تذكر هنا إلا كتفاصيل لحياة ذلك الإمبراطور الباذخ ، تلك الحياة التبعة الزاخرة بالمعوم . والواقع الذي لا شك فيه أن واحدا من هذه الكتلة العديدة من الأمراء والحكام الأوربيين لا يبدو عليه أنه كان يعمل بإخلاص . وما كان الاضطراب الديني الذي عم أرجاء العالم كافة ولا رغبة العامة في الحق والصدق والبر الاجتماعي ، ولا انتشار المعرفة في ذلك ، ما كانت هذه الأشياء جميعا إلا مجرد ذرائع للخلاف والمناكسة اتخذتها أخيلة الأمراء وديبلوماسياتهم ، مثال ذلك أن هنري الثامن ملك إنجلترا الذي بدأ حياته العملية بتأليف كتاب يندد فيه بالكفر والزندقة ، والذي كافأه البابا بالإنعام عليه بلقب « حامي العقيدة » قد انضم إلى زمرة الأمراء البروتستنت في ١٥٣٠ ، لرغبته في الطلاق من زوجته الأولى إشاراً منه لفتاة صغيرة تسمى آن بوليف ، ولأنه شاء أيضاً أن ينتهب ثروة الكنيسة الإنجليزية الهائلة ، ومن قبله كانت السويد والدانمرك والترويج قد انضوت تحت لواء البروتستنتية .

بدأت الحروب الدينية بألمانيا في ١٥٤٦ بعد وفاة مارتن لوتر بضعة أشهر . ولنا في حاجة إلى الاهتمام بتفاصيل القتال ، وبحسبك أن تعلم أن الجيش السكسوني البروتستنتي لقي هزيمة منكرة عند لوشاو ، وأن فليب ، أمير هيس ، آخر وأكبر خصم للإمبراطور قبض عليه وأخذ أسيراً بطريقة تداني نقض العهد ، واشترى رحيل ذلك لقاء وعد بدفع جزية سنوية . ثم إن فرنسيس مات في ١٥٤٧ فأراح الإمبراطور راحة عظيمة . لذا حصل شارل في ١٥٤٧ على ضرب من التسوية لأمواره ، وأخذ يندل قصارى جهده لإقرار سلم في عالم الإسلام فيه . لما وافت سنة ١٥٥٢ حتى اندلع لهيب الحرب في كل أرجاء ألمانيا ، ولم ينج الإمبراطور من الأسر في إنزبروك إلا بمبادرته بالفرار السريع منها ، ثم جاءت معاهدة بيساو فأحدثت في سنة ١٥٥٢ هدوءاً آخر غير ثابت الأركان .

تلك هي المعالم الموجزة لسياسة الإمبراطورية في مدى اثنين وثلاثين عاماً . ولا يغوتا أن نذكر أن عقل الأوربيين كان مركزاً تماماً حول فكرة الكفاح من أجل إحراز قصب السيادة في أوروبا . وذلك أن أحداً ممن عاشوا في ذلك الزمان — لا الترك منهم ولا الفرنسيون ولا الإنجليز ولا الألمان — لم يحس حتى ذلك الحين بأى اهتمام سياسي بقارة أمريكا العظيمة ولم يدرك لأى مغزى للطرق البحرية الجديدة المؤدية إلى آسيا . ومع ذلك



فإن أمريكا كانت عند ذلك مسرحاً لأحداث عظيمة ؟ فإن كورتيز انطلق بمحنة من الرجال ولتفع باسم إسبانيا إمبراطورية للكسيك النيبوليتية<sup>(١)</sup> العظيمة ، كما أن يزارو عبر مضيق بنما ( ١٥٣٠ ) ، وأخضع قطراً آخر من أقطار السبائب هو ييرو . ولكن هذه الأحداث لم يكن لها حتى ذلك الحين من معنى في أوروبا إلا تدفق الفضة إلى الخزنة الإسبانية تدفقاً عاد عليها بالنفع الكبير ونبه الأذهان إليها .

ولم يبدأ شارل في إظهار أصانته القدسية للميزة إلا بعد عقد معاهدة إسباو . إذا اعتبره عند ذلك السأم من عظمته كإمبراطور وزالت عن عينه غشاوة الانخداع بها . كما أُلِمَّ به شعور قوى بأن كل هذه النافسات الأوربية عبث لا يطاق . ولم تكن بنته سليمة جداً في أى يوم من أيام حياته إذ كان بطرتميلالا للحمول والكسل ، كما كان يقاسى من القفرس أشد الآلام . فتنازل عن عرشه ؟ ونقل كل سلطاته لللكية بألمانيا إلى أخيه فرديناند ، كما عهد بشئون إسبانيا والأراضى للتخففة لابنة فيليب ثم انسحب يظله جو من الجلال والامتعاض إلى دبر بمدينة بوست ، تحيط به أحراض البلوط والقسطل في التلال الواقعة شمال وادى التاجية . وهناك قضى نمجه في ١٥٥٨ .

ولقد أكثر الكتاب من الحديث عن تعاضد هذا بلهجة عاطفية ، وعدوه تحطاً عن العالم من ذلك الجبار للكودود الجليل الذى برم هذه الدنيا والقوس السلام في أكتاف الله عن طريق العزلة الصارمة ، ولكن انسحابه من الدنيا لم يتميز بعزلة ولا صرامة ، ذلك أنه سحّب معه حوالى مائة وخمسين تابعاً ، وكان مقره يحوى كل ما للبلاد من غرامة ملذات مع انتفاء متاع البلاط ومشاغفه ، كما أن فيليب الثانى كان من البرجونات بحيث كانت كل نصيحة منه إليه أمراً واجب التنفيذ .

ولئن قد شارل كان كل اهتمامه حق بإدارة شئون أوروبا ، فلقد كان مرد ذلك دوافع أخرى مباشرة أكثر . يقول بريسكوت :

« ولأنكذ رسالة من الرسائل اليومية للتباعدة بين كريكسادا أو جازتلو ، وبين الوزير للقيم بمدينة بلد الوليد ، إلا تدور بدرجة ماحول طعام الإمبراطور أو مرضه .

إذ يلوح الواحد منهما كأنما يطبق الآخر بصورة ظلية كأنه تطبق مستقيم عليه . ومن النادر أن تكون مثل هذه الموضوعات مدار للوسائل مع مصلحة من مصالح الحكومة . ولا بد أن الوزير كان يجد عسراً كبيراً في الاحتفاظ بوقاره في أثناء تلاوته لرسائل محتلت فيها السياسة والبطنة مثل ذلك الاختلاط العيب . وتلقى الرسول القادم من بلد الوليد إلى لشبونة أمراً بأن يتعرف عن طريقة السوى ليجز على أخبار انديلا ، ويحضر للمائدة الملكية ما يلزمها من أغذية . وكان عليه أن يحضر السمك يوم الخميس من كل أسبوع لتقديمه في يوم الصيام الذي يليه . فإن شارل كان يرى أن سمك النقط للوجود بالمنطقة التي يعيش بها خبيراً جداً ، ولذا رحب أن يرسل إليه من بلد الوليد سمك من نفس النوع أكبر حجماً . وكانت الأملاك بجميع أنواعها تلده وتربيته ، وكل شيء يذاني السمك في طبيعته أو عادته . فتمارين الماء والضفادع وأم الخمول تحتل مكاناً عالياً في قائمة الأطعمة الملكية . كما أن الأملاك المحفوظة ولا سيما الأنشوجة كانت تلقى منه حظوة عظيمة ؛ وكم أسف الباهل لأنه لم يحضر من تلك الأنشوجة قدراً كبيراً من الأراضي المنخفضة ، وإنه لم يلح بوجه خاص بقطيرة ثياب الماء . (١)

وقد حصل شارل في ١٥٥٤ على مرسوم من البابا يوليوس الثالث يسمح له التلعة من الصوم ويسمح له الإفطار في الصباح الباكر وإن كان على نية تناول الأسرار للخدمة .

أكل وطيب . . . . . إن ذلك يرجع إلى الأشياء البدائية الأولى ، لم يعود ذلك الملك قطع القزاجة ، ولكنه كان يصحى إلى من يقرأ عليه في أثناء تناوله الطعام جرياً على عادة شارلمان ، ثم يلق على ما يسمح به بتلقيات جمالية ؛ كما جبر عن ذلك أحد الرواة .

وحكثيراً ما كان يسلى نفسه باللب اليكانيكية ، أو بالإصغاء إلى الموسيقى أو العظات الدينية ، أو النظر في شئون الإمبراطورية التي لم تلتأ تقاطر عليه . وكانت وفاة الإمبراطورة ، التي اعتد بها تعلقه ، تسيباً في تحول عقله نحو الدين ، الذي اتخذ عنه صورة الجدقيق الشديد والاهتمام بالطقوس ؛ وقد تأبى في كل يوم حجة من أيام

الصوم الكبير على جلد نفسه هو وقية الرهبان عن طلب خاطر جليداً كان يبلغ من الشدة أن تدعى له جلودهم .

وقد دفعت هذه الرياضات هي والتقرب بشركان إلى حال من التعب كانت اعتبارات السياسة تكسبها حق تلك الساعة ، فأثار حنقه ظهور العالم البروتستنتية بمدينة بلد الوليد القرية . وكتب يقول : « أبلغ عن القاضي الأعظم الحكمة التفتيش أن يكون بمقر عمله هو ورجال مجلسه ، وأن يتأصلوا شاة الشر قبل أن يستعمل ... »

ولأنه ليدى الشك فيما إذا لم يكن من الأنسب في حالة مثل هذا الأمر الكره الاستغناء عن نظام القضاء العادى ، وعدم أخذ المجرمين بأذى شقة « خشية أن يعطى المجرمون ، إذا عني عنهم فرصة العود إلى جرمهم . » ثم يطرى الإمبراطور على سبيل المثال الطريقة التي اتبها بالأراضى المنخفضة ، « حيث أحرق حيا كل من أسر على عناده ، وقطع رأس كل من سمح له بتقديم التوبة . »

ويكاد انشغاله بالجنائزات يكون رمزاً لمركزه في التاريخ وكان ضرباً من الإلهام أوحى إليه أن شيئاً عظيماً بأوروبا قد قضى نحبه ، وأنه بحاجة ماسة إلى من يدفنه ، وأن الحاجة إلى كتابة لفظة « انتهى » ، قد أزفت وزيادة . فلم يقتصر على حضور كل جنازة واقية تمام في بوسه ، بل كان يقيم صلاة الجنائز على الموتى الغائبين ، وأقام جنازاً لزوجته يوم ذكرها السنوية ، ثم أقام في النهاية جنازته هو : « جللت جدران الكنيسة بالسواد ، لذا لم يكن نور مئات الشموع التي أوقدت كافياً لتبديد سدف الظلام التي رانت على المكان ، وتجمع الرهبان في ثياب الدير ومعهم حاشية الإمبراطور جميعاً ، وقد ارتدت ثياب الحداد القاتمة ، حول نفس ضخم قد جلى هو أيضاً بالسواد ورفع في وسط الكنيسة ، وعند ذلك أديت صلاة دفن الموتى ، وتصاعدت الصلوات الروح الراحل بين عويل الرهبان الحزن ، داعية لها بأن تلقى في الآخرة منازل الأبرار . وذابت نفوس الأتباع الحزونة دموعاً وأسى ، إذ تصورت لحواطمهم صورة وفاة مولايم ، أو لعلهم مستهم الرحمة لهذا المظهر الحزن من مظاهر الضعف . وتشى شارل برداء أسود وحل في يده شمة موقنة ، وسار بها بين رجال حاشيته ، ليشهد بنفسه جنازته ، وانتهى الحفل الأسيف بوضعه الشمة بيد القسيس رمزاً لتسليمه ، روحه للقوى القاهرة . »

توفي الإمبراطور بعد هذا الحفل الساخر بأربعة أشهر . وانطوت بموته العظيمة القصيرة الأجل التي حظيت بها الإمبراطورية الرومانية المقدسة . فإن دولته تقسمت قبل موته بين أخيه وابنه . حقا إن الإمبراطورية الرومانية المقدسة لم تبرح تكافح الأقدار إلى أيام نابليون الأول ، ولكنها كانت أهبط بطل يعاني سكرات الموت . ولا تزال تقاليدنا البالية الرميم تسمم الجو السياسي إلى يومنا هذا .

## الفصل الثاني والخمسون

### عصر تجارب سياسية

### وملكيات عظمى وبرلمانات وجمهوريات بأوروبا

تعمّطت الكنيسة اللاتينية ، وهوت الدولة الرومانية للقنسة في دركات الانحلال للفرط ، وأصبح تاريخ أوروبا منذ مستهل القرن السادس عشر عبارة عن قصة شعوب تلمس في دامن الظلام طريقها بحثاً وراء نوع جديد من أنواع الحكومة ، يطابق الظروف الجديدة التي أخذت تلشأ . وقد ظلت التغيرات في العصور الخوالي وفي آماد طويلة من الزمان تمس الأسر للسلطة ، بل حتى الجنس الحاكم واللغة القابلة دون غيرها . ولكن شكل الحكومة القائم على الملك والمبدّل واضع الثبات ، كما أن طريقة العيش العادية ظلت أثبت وأرسخ قلما . نرى أن تغيرات الأسر للسلطة في أوروبا الحديثة هذه ، أى منذ القرن السادس عشر لم تعد لهم أحداً في قليل ولا كثير . وأصبح وجه اهتمام التاريخ منصباً على تلك الأنواع الكثيرة للزيادة العدد من التجارب التي تجري في حقول التنظيم السياسي والاجتماعي .

والتاريخ السياسي للعالم منذ القرن السادس عشر كان كما أسلفنا جهداً لاشعورياً إلى حد كبير ، اعتقته الإنسانية رغبة منها في تكيف أماليها السياسية والاجتماعية وفق ظروف جديدة معينة نشأت في العالم منذ ذلك الحين ، وكانت تخالط جهود التكيف حقيقة لا شك فيها ، هي أن الظروف نفسها كانت تتغير بسرعة مطردة الازدياد ، كما أن التكيف ظل يزداد في كل آن وتواتياً وتختلفاً عن الظروف الثيرة ، خاصة وأنه كان في الغالب تكيفاً لاشعورياً يحدث في جميع الأحوال تقريباً عن غير رغبة من الناس (ذلك أن الإنسان في جملته يكره التغير الإرادى) . ولذا فإن تاريخ الإنسانية يصبح منذ القرن السادس عشر إلى اليوم قصة نظم سياسية واجتماعية غير صالحة لما خلقت له مثيرة للقلق والكدر ، كما يصبح قصة إدراك الناس على حكره للعاجلة إلى تحديد أوضاع المجتمعات البشرية وتحديد أعيانها عملياً لمواجهة الحاجات . والإمكانات التي لا عهد لجميع الخبرات السابقة للحياة بها .

فما هذه التغيرات التي اعترت ظروف الحياة البشرية ، والتي أفسدت ذلك الاتزان القدي كان يمنح على الإمبراطورية والكاهن والفلاح والتاجر ، مع إيقاظها بين الفينة والفينة بسبب غزوات البرابرة ، التي فرضت أحوال الناس في العالم القديم نوع من اللوجات المتتاجة التي دامت أكثر من مائة قرن ؟

لا شك أن هذه التغيرات متنوعة كثيرة الجوانب ، وما ذلك إلا لأن الشئون الإنسانية معقدة إلى أقصى حد ، ولكن الظاهر أن جميع التغيرات الرئيسية تدور جميعا حول سبب واحد ، هو نمو وامتداد المعرفة بطبيعة الأشياء ، تلك المعرفة التي بدأت أولا وقبل كل شيء بين جماعات صغيرة من الأذكىاء - وانتشرت ببطء في البداية ، ثم بسرعة عظيمة جداً في القرون الخمسة الأخيرة - بين جماعات متكاثرة ونسب متزايدة من مجموع السكان عامة .

على أن حياة الناس تغيرت بدورها تغيراً عظيماً يرجع إلى تغير حدث في روح الحياة الإنسانية . وسار هذا التغير جباً إلى جنب مع زيادة المعرفة واتساع مداها ، كما أنه متصل بها اتصالاً دقيقاً . وزاد جنوح الناس إلى النظر بعين الثور وعدم الرضا إلى إقامة حياة الفرد على الرغبات والشهوات الأولية وعلى إشباع تلك الرغبات ، كما زاد ميلهم إلى التماس إقامة العلاقات مع حياة العمل هي حياة الناس كافة وتقديم الخدمات لها ومشاركتها في كل شئونها . تلك هي الحصة العامة التي تشترك فيها الديانات العظمى جميعاً التي انتشرت في كافة أرجاء العالم إلى أثناء النيف والعشرين قرناً الأخيرة من حياة البشرية سواء في ذلك البوذية والمسيحية والإسلام ، فلما جعلت هدفها روح الإنسان بطريقة لم تتبعها الديانات القديمة . فهي قوى تختلف تماماً في طبيعتها ومفعولها عن ديانات القربان السموي القشتية القديمة بكانها ومعبدتها ، التي عدلتها من ناحية ، وحلت محلها من ناحية أخرى . فأثارت في الفرد بالتدريج الشعور باحترامه لنفسه وشعوره بالمشاركة والشمولية في كل الشئون البشرية العامة بما لم يسبق له مثيل بين أناس الحضارات الحالية .

وكان أول تغير جسيم ألم بأحوال الحياة السياسية والاجتماعية بتسيط الكتابة في الحضارات القديمة وأتبع ندى استخدامها وهو أمر جعل قيام إمبراطوريات أكبر حجماً ونشوء نظام سياسي أوسع مجالاً ، شيئاً ميسوراً بل أمراً لا بد منه . وجاءت حركة

التقدم الثانية حين استخدم الحصان ، ومن بعده الجمل كوسيلة للاتصالات ، وحين استعملت للركبة ذات العجلات ، وحين مدت الطرق وزادت الكفاية العسكرية كنتيجة لاستكشاف الحديد الأرضي . ثم حلت في أعقاب ذلك الاضطرابات الاقتصادية الناجمة عن اختراع النقود للسكوك ، وعن تغير طبيعة الديون والليكية والتجارة نتيجة لظهور هذا التقليد النافع والضار معا ، فزادت الإمبراطوريات سعة وجمالا ، ونمت أفكار الناس بالمثل نموا يواجه هذه الأشياء الجديدة . ثم أن أوان اختفاء الآلهة المحلية ، وجاء بعده عهد إدماج الآلهة ( الثيوكرازيا ) فعهد تعاليم الديانات العالية الكبرى . وأقبلت أيضا تباشير التاريخ والجغرافيا المقولة للدونة ، وإدراك الإنسان جهله للطبق لأول مرة ، وأول بحث منظم في سبيل المعرفة .

تقد انقطع إلى حين من الدهر جبل الطريقة العلمية الذي بدأ ييلاد الإغريق والإسكندرية تلك البداية الرائعة . ذلك أن النظام السياسي والاجتماعي لقي أعظم الضرر والعت من جراء غارات البرابرة التوتون ، وزحف الشعوب الغولية نحو الغرب وأدوار الإصلاحات الدينية العنيفة والأوبئة الجائحة . حتى إذا اعتضت الحضارة عنها ثانية غبار تلك المرحلة القاسية من الصراع والاضطراب ، إذا بالرق لم يعد أساسا للعبادة الاقتصادية ، وإذا بأول مصانع الورق تتخذ من الطبوعات وسيلة جديدة للاحاطة الجماعية ولتعاون الاجتماعي . ولم يلبث البحث عن المعرفة : العملية والعلمية المنظمة ، أن مادي سيرته الأولى بالتدريج وعند المناسبات .

ثم ظهرت ابتداء من القرن السادس عشر فصاعداً مجموعة متزايدة العذ من المستعبدات والمخترعات أثرت فيما بين الناس من تواصل وتفاعل ، وكانت نتائجها ثابوتا للتفكير النظم لا مفر منه . وكانت كل هذه المستعبدات تنزع إلى توسيع مجال العمل والنشاط وزيادة النافع أو الأضرار المتبادلة ، وإلى المزيد من التعاون . كما أن سرعة مجيها لم تزل في ازدياد يوما في إثر يوم . ولم تكن عقول الناس مهابة لشيء من ذلك القليل ، كما أن المؤرخ لا يجد إلى يوم حلول الكثرة الكبرى في أوائل القرن العشرين وتشطيطها للأذهان - إلا أقل القليل يحدثك به عن أية محاولات مصممة بحكمة لمواجهة الظروف الجديدة التي كان يخلقها ذلك التدفق الجديد للمخترعات . وكأنني بتاريخ الإنسانية في أثناء القرون الأربعة الأخيرة أشبه شيء بقصة نائم حبيس يتحرك في قفل وتعملل بينما تبدل التياران في السجن الذي يؤويه ويقيد حريته ، دون أن يستيقظ - بل

تدخل مقلقة النار ودفعها في أضغاث أحلام عتيقة لا تتناسب والمقام - أشبه بهذا كله منه بحال رجل في يقظة شعورية يحس بالخطر المهدق والفرصة الدنية القطوف .

والتاريخ يسجل قصة المجتمعات لا حياة الأفراد ، لذا لم يكن بد من أن تكون معظم المخترعات التي تظهر في صفحات السجل التاريخي مستعذات لها أثر فيما بين الناس من مواصلات . وأنهم ما ينبغي علينا أن نلاحظ ظهوره من أشياء جديدة في أثناء القرن السادس عشر ظهور الورق المطبوع والسفينة الشراعية القوية القادرة على عبور المحيط والتي تستعمل الاختراع الجديد المسمى بالبوصلية البحرية . أما الاختراع الأول فإنه نشر التعليم وجعله رخيصا بل أحدث فيه انقلابا تاما ، كما عاد بنفس الفوائد على إذاعة الأخبار وعلى المناقشات ، وعلى عمليات النشاط السياسي الجوهرية . وأما الاختراع الثاني فإنه حول الكرة الأرضية إلى قطعة واحدة متماسكة . ولا يقل عن هذين الأمرين في الأهمية زيادة استخدام المدافع والبارود التي نقلها للقول إلى القرب لأول مرة في القرن الثالث عشر وإدخال التحسينات عليها . وبفضل المدافع والبارود تحمطت الحصانة والتمتع التي حظي بها البارونات داخل قلاعهم ومدنهم المسورة وقضت المدافع على نظام الإقطاع جملة . ولا تلس أن المدافع هي التي أسقطت القسطنطينية بيد الأتراك ، وكذلك تداعت دولتا المكسيك وبيرو حيال ما أصابهما من رعب من مدافع الإسبان .

وكان القرن السابع عشر مسرحا تطور فيه النشر المُنظم للطبوعات العلمية ، وهو تجديد أقل شأنًا من سابقه ، وإن عاد في النهاية بفوائد أعظم . ومن أبرز رواد هذه الخطوة التقدمية العظيمة السير فرنسيس باكون ( ١٥٦١ - ١٦٣٦ ) ، وهو الذي تسمى فيما بعد باسم لورد فيريولام ، وزير مالية إنجلترا . كان تلميذا لعالم إنجليزي آخر بل لعله هو اللسان المبرر عن ذلك الإنجليزي الذي هو الدكتور جيلبرت فيلسوف كولشستر التجريبي ( ١٥٤٠ - ١٦٠٣ ) ، وكان باكون الثاني هذا يدعو الناس كسميه الأول إلى الملاحظة والتجريب ، كما أنه اتخذ طريقه القصص اليوتوبية الملهمة المثمرة في كتاب له أسمه « الأطلانطس الجديد » وسيلة يبر بها عما يحلم به من قيام هيئة عظيمة من العلماء بالأبحاث العلمية .

وسرعان ما نشأت الجمعية الملكية بلندن والجمعية الفلورنسية ، كما نشأت فيما بعد هيئات قومية أخرى لتشجيع الأبحاث العلمية ونشر المعرفة وتبادلها ، لم تصبح هذه



الجميات العلمية الأوروبية يناييع فقط تنضج بما لا يقع تحت حصر من الاختراعات ، بل صارت أيضا منبعا للنقد الهدام الذى قضى فى النهاية على ذلك التاريخ اللاهوتى العالمى المضحك الذى تسلط على الفكر البشرى وعاقه عن العمل عدة قرون .

ولم يقدر للقرن السابع عشر ولا الثامن عشر أن يشهدا اختراعات بلغت من الأثر العميق فى حياة الناس مبلغ الطباعة والسفينة القادرة على اختراق المحيط ، وإن تجمعت فى أثنائهما المعرفة والطاقة العلمية بصورة قدر لها أن تؤتى ثمارها كاملة فى القرن التاسع عشر . وتواصلت الاستكشافات ووضع الجرافات الجغرافية لأصقاع العالم . فظهرت أشكال تسمانيا وأستراليا وزيلندة الجديدة فى المصورات الجغرافية . وشرع الناس فى بريطانيا العظمى يستخدمون كوكب الفحم الحجيرى فى صناعة المعادن ، فأدى ذلك إلى رخس من الحديد وإلى إمكان صبه واستخدامه على صورة قطع أكبر حجما مما كان يستطيع إنتاجه قبل ذلك ، حين كان الفحم النباتى هو المستخدم فى صهره . وبذلك بزغ فجر الآلات المصرية الحديثة .

والعلم كأشجار جنة الفردوس ، يحمل الأكمام والأزهار والغار فى نفس الوقت وبلا انقطاع . وابتدأ العلم يؤتى ثماره الحقة منذ بداية القرن التاسع عشر ، ولعله لن يكف بعد ذلك عن الإثمار . فكان البخار والصلب أول قطرات النيث ، وتلتها السكة الحديدية والبخارة الحديدية والكبرى الضخمة . والمباني الكبيرة والمساكنات التى لا حد لقوتها تقريبا ، ولاخ أن فى الإمكان سد كل حاجة مادية للإنسان بوفرة وفزارة لم يسبق لها مثيل ، ثم انفتحت أمام الناس أبواب الكنوز المستورة للعلم الكهربى .

سبق أن شجنا الحياة السياسية والاقتصادية للإنسان منذ القرن السادس عشر فصاعدا بحالة سجين نائم يرقد غارقا فى أحلامه والسجن يحترق من حوله . وكان الأوربى فى القرن السادس عشر لا يزال مستغرقا فى أحلامه بالإمبراطورية اللاتينية الدائرة ، أى حلمه بإمبراطورية رومانية مقدمة تتحدد كلمتها بزعامة الكنيسة الكاثوليكية . ولكن الذى حدث هو أنه كما أن بعض عناصر تكويننا التى لا سلطان لأحد عليها لا تزال تدأب فى بعض الأحيان على إدخال أشد أنواع الأنكار سخفا وتدميرا فى مجرى أحلامنا ، فكذلك اندس فى هذا الحلم الوجه النائم للإمبراطور شارل الخامس ومعدته المتهاة على الطعام ، على حين كان هنرى الثامن ولورن . يمزقان وحدة العالم الكاثولى إربا .

وتحول الحلم في القرنين السابع عشر والثامن عشر إلى ملكية شخصية مستبدة . فلا يكاد تاريخ أوربا خلال تلك الفترة يحوى إلا قصة تروى بصورة مختلفة ، محاولة لما لتوحيد ملكية من الملكيات ، وجعل سلطان أهلها استبداداً مطلقاً وبسط كنفها على الضعفاء من جيرانها ، أو قصص على مسامحة حديث المقاومة للأمة التي يظهرها أصحاب الأراضي ، كما تحدثنا عندما تزايد التجارة الخارجية والصناعة في الداخل عن مقاومة طبقة التجار والمالين التي تزداد عند ذلك عدداً . - تحدثنا عن مقاومة هؤلاء لكل تدخل للتاج في شئونهم أو فرض يفرض عليهم ولم يحرز أى من الطرفين نصراً شاملاً أو حاسماً ؛ فقد يفوز الملك هنا بالكلية العليا ، بينما يتطلب صاحب الأملاك في مكان آخر على الساحل الملك . وثم مكان يكون فيه الملك منار عاله القوى وقطب رحاه على حبيب نجد وراء حدوده للتاخة له تماماً طبقة تجارية قوية الشكيمة تقيم صرح جمهورية وطنية . ووجود مثل هذا البون البعيد من الاختلاف بين البلاد يبين إلى أى حد كانت الحكومات للتنوع لتلك الفترة تجريبية بحثة ، أو عارضة أُنشئت الصدقة المحلية .

وهناك شخصية شهيرة جداً في هذه المسرحيات القومية ، هي « وزير الملك » الذي كثيراً ما يكون في الدول للتمسكة بالعقيدة الكاثوليكية أنشفا يقف من وراء الملك ، ويخدمه ويسلط عليه بما يؤديه من خدمات لا يستثنى عنها .

ولا يتسع للمقام لتتبع هذه المسرحيات القومية بالتفصيل . وحسبك أن تعلم أن شعب هولندا التجاري تحول إلى للذهب البروتستانتي والجمهورى معاً ، وأزاح عن كاهله حكم فيليب الثانى ملك إسبانيا ، وابن الإمبراطور شارل كان . فأما إنجلترا فإن هنرى الثامن ووزيره ولزى ولللكة إليزابيث ووزيرها بوري ، وضعوا أسس نظام استبدادى خطمته حماة جيمس الأول . وكانت نتيجة ذلك أن قطعت رأس الملك شارل الأول تجزأ له على خيافته لشعبه ( ١٦٤٩ ) ، وفي ذلك تحول جديد لمجرى الفكر السياسى بأوربا . وانقضت بعد ذلك اثنتا عشرة سنة كانت فيها إنجلترا جمهورية ( حتى ١٦٦٠ ) ؛ ثم غدا التاج مزعزع القوى تطلبه كثيراً كلمة البرلمان ، حتى بذل الملك جورج الثالث ( ١٨٦٠ - ١٨٢٠ ) جهداً عظيماً وفق فيه إلى حد ما إلى استعادة سلطانه . على أن ملك فرنسا من الناحية الأخرى كان أكثر ملوك أوربا توفيقاً ونجاحاً في التهور بالملكبة إلى حد الكمال . فقد رزقه الله وزيرين عظيمين هما ريشليو ( ١٥٨٥ - ١٦٤٢ )

وأما أزاران (١٦٠٢ - ١٦٩٩) شاداه بتلك البلاد قوة التاج ، وزاد من قوة تأثيرها ملوك عهد الملك لويس الرابع عشر (اللقب بالماهل الأعظم ١٦٤٣ - ١٧١٥) وصفاته الاستثنائية الحارقة .

والحق إن لويس الرابع عشر كان الملك الثالث الذى تحتضيه أوروبا كلها . وكان على ما به من معائب - ملكا ذا اقتدار استثنائى ، كما أن مطامعه كانت أقوى من شهرته الدنيا ، لذا اقتاد بلاده إلى الإفلاس بتورطه فى سياسة خارجية مفرطة النشاط مع هبة وكرامة عظيمة لا تزال تتزعزعا من الإعجاب انزعاما . وكانت الرغبة للبشارة التى رانت عليه هى توحيد بلاده وبسط تخومها إلى نهر الرين وجبال البرانس ، وامتصاص الأراضى للنخفزة الإسبانية ، أما فكرته البعيدة التى هدف إليها فهى أن يصبح ملوك فرنسا خلفاء لشارلمان فى دولة رومانية مقدمة يما بناؤها . فجعل الرشوة وسيلة لدولته تعتمد عليها أكثر مما تعتمد على الحرب . فكان شارل الثانى ملك إنجلترا يتلقى منه الأموال ، وكذلك معظم نبلاء بولندة الذين منصفهم لك من فورنا . لذا يمكن القول إن تقوده أو بالحرى تقود الطبقات الدافعة للضرائب كانت تصل إلى كل مكان . على أن شغفه الشاغل كان الأبهة والفخامة . فإن قصره العظيم بفرساي بما حوى من صالونات ودهاليز ومرايا وشرفات ضخمة ونافورات وحنات غناء ومجالات تبحر فيها الأنظار - كان مثار حسد العالم وإعجابه العظيم .

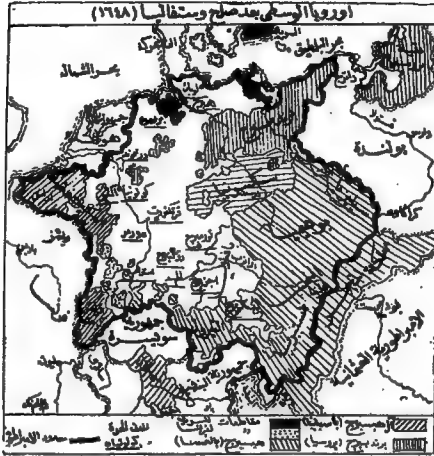
وتبارى من حوله للقلدون . وهب كل ملك أو أمير صغير بأوروبا يشيد قصره على نمط قصر فرساي متجاوزا بذلك موارده . ولكن على قدر ما يسمح له رعاياه ودائنوه وهب كل النبلاء فى كل مكان يبدون بناء قلاعهم وقصورهم أو يوسعون فيها على مثال الطراز الجديد . وحدثت نهضة عظيمة فى صناعة اللسوجات والأثاث الجميلة وازدهرت فنون الكاليات ونحف الترف فى كل مكان ، فانتعشت صناعات تحت المرمى والقماشى وأشغال الخشب المذهب وصياغة المادن والجلد المضبوط بالرسوم الفنية ، وتكاثر الإنتاج الموسيقى والتصوير الفاخر والطباعة الجميلة والتجليد الآتيق وأبدع الحزف وأجعب الحور . وبين هذه المزايا الصقيفة والرياض الفاخرة ، كان جنس عجيب من السادة يقدو ويروح على رأسه شعور مستعارة مرتفعة ذوت عليها الساجق ويرتدى الحرائر والمخرمات ( الدشلا ) ويتزعم فوق أحذية ذات كهوب عالية حمراء حافطاً توازنه بصى مونة منهشة . ومع هؤلاء سيدات أجعب منهم شأنا فوق دروسهن أبراج من الشجر النطاة

بالمساحق، وعلى أجسام من مقادير ضخمة منقوشة من الحرير والساتان تحملها الأسلاك.  
ومن بين هؤلاء جميعاً ، وقعت شخصية لويس العظيم ، فمس. عاله المنيرة ، غير شاعر  
بالوجوه الهزيلة المتجهمة الحاققة التي ترقبه من تلك الظلمات الدنيا دون أن تنفذ إليها  
أشعة شمسه.

ظل الشعب الألماني منقسماً على نفسه سياسياً طوال تلك الفترة التي سادتها الملكيات  
وعمل التجارب في أنواع الحكومات ، وراح عدد جسيم من بلاطات الدوقات والأمراء  
يحماكي كالفردة أبهة فرساي كل حسب درجته . وكانت حرب الثلاثين سنة ( ١٦١٨ ،  
١٦٤٨ ) وبالا على الألمان ، إذ إنها ظلت جرحاً داخياً يزف منه نشاطهم ومهمتهم لمدة مائة  
عام بعد ذلك ، وهي نزاع غريب نشب بين الألمان والسويديين والבוهميين على منافع  
سياسية متقلبة غير ثابتة . ولابد لقارئ من خريطة يشهد فيها هذا التوزيع  
الجنوبي الذي انتهى به ذلك الصراع ، وهي الخريطة التي تصور لك أوروبا بعد  
صلح وستفاليا الذي عقد في ١٦٤٨ وفيها تجد عدداً كبيراً من الإمارات والدوقيات  
والدول الحرة وما إلى ذلك ، ومنها ما هو من ناحية جزء من الإمبراطورية كما هو  
خارج عنها من ناحية أخرى . وسيلفظ القارئ أن ذراع السويد توغلت كثيراً في  
أرض ألمانيا ، وأن فرنسا كانت لا تزال بعيدة عن نهر الرين على الرغم من امتلاكها لقطع  
متباعدة من الأرض تقوم كالجزائر وسط ممتلكات الإمبراطور . وأخذت مملكة بروسيا  
( التي أصبحت مملكة منذ ١٧٠١ ) تواصل النهوض إلى مرتبة السيادة وتشن سلسلة  
متصلة الحلفاء من الحروب الظافرة الموقفة . وأقام فريدريك الأكبر ( ١٧٤٠-١٧٨٦ )  
قصره الفرسالي الطراز عند بوتسدام ، وكانت الفرنسية لغة بلاطه . فهو يتحدث بهار ويقرأ  
الأدب الفرنسي وينافس الملك الفرنسي في ثقافته.

وفي ١٧١٤ أصبح منتخب هانوفر ملكاً على إنجلترا ، فزاد فرد آخر في قائمة الملوك  
الداخلين في الإمبراطورية من ناحية والمستقلين عنها من ناحية أخرى .

احتفظ الفرع النمساوي من سلالة شارل الخامس باللقب الإمبراطوري ، كما احتفظ  
الفرع الإسباني بإسبانيا . ولكن ظهر الآن للمرة الثانية إمبراطور للشرق ، ذلك أن



خريطة رقم (١٤)

غراندوق موسكو ، إيمان الأعظم (١٤٦٢ - ١٥٠٥) ، ادعى بعد سقوط القسطنطينية (١٤٥٣) أنه الوارث لعرش البيزنطي ، ووضع شارة النسر البيزنطي ذى الرأسين على دروعه وأسلحته . واتخذ حفيده ، إيمان الرابع ( إيمان الرهيب ) ( ١٥٣٣ - ١٥٨٤ ) اللقب الإمبراطوري : قيصر . على أن روسيا كانت تبدو دائماً في أعين الأوروبيين قطراً بعيداً آسيوياً حتى النصف الثاني من القرن السابع عشر . فإن القيصر بطرس الأكبر ( ١٦٨٢ - ١٧٢٥ ) أدخل روسيا في معترك الشؤون الغربية . فعاد لإمبراطوريته عاصمة جديدة على نهر الـتيفا ، هي بطرسبرج ، كانت بمثابة نافذة تطل منها روسيا على أوروبا . كما أنه أقام قصره المائل لقصر فرساي قرب بترهوف التي تبعد عن العاصمة ثمانية عشر ميلاً ، مستخدماً في ذلك مهناًسياً . مهاجراً فرنسياً ، شيد له شرفة

عظيمة وناפורات ومساقط مائية (شلالات) ومعرضا للصور وجنة غناء إلى غير ذلك من مظاهر الملكية العظمى . وصارت الفرنسية لمة البلاط في روسيا مثلما صارت من قبل لنته في بروسيا .

ومن سوء حظ للملكة البولندية أنها كانت تقع ذلك للوقع النمسي بين روسيا وبروسيا والنمسا .

وكانت بولندية دولة سيئة التنظيم من ملاك كبار يحرم كل منهم على عظمته الفردية حرصاً شديداً حتى لا يطبق أن تقوم بالبلاد إلا ملكية اسمية لذلك الذي كانوا ينتخبونه . وكان مصيرها هو التقسيم بين هؤلاء الجيران الثلاثة ، على الرغم مما بذلته فرنسا من الجهود للاحتفاظ بها حليفاً مستقلاً .

وكانت سويسرا في ذلك الأوان مكونة من مجموعة من « الكانتونات الجمهورية » ؛ ثم إن البندقية كانت هي الأخرى جمهورية ؛ على حين أن إيطاليا كعظم ألمانيا تقسمها دوقات وأمراء صغار . أما البابا فكان يقيم في دولته البابوية حكماً يحكم الأمراء ، وقد أصبح الآن من شدة الخوف من فقدان طاعة وولاء من بقى موالياً له من الأمراء الكاثوليك بحيث لم يعد يجرؤ على التدخل بينهم وبين رعاياهم أو على تدكير العالم بدولة النصرانية الشاملة .

والحق إنه لم يعد هناك بأوروبا مطلقاً أية فكرة سياسية مشتركة ؛ إذ إنها وقعت تماماً بين برائن الفرقة واستسلمت كلية للخلاف .

وكان كل من هؤلاء الأمراء وتلك الجمهوريات يدبر الخطط الرامية إلى التوسع على حساب غيره . وكان لكل منهم سياسة خارجية تنطوي على العدوان على جيرانه وعلى التحالف العدواني . ونحن الأوروبيين لا نزال نعيش في أيامنا هذه في آخر مرحلة من مراحل الدول المتعددة ذات السيادة ، كما أننا لا نزال نكابذ الآلام من تلك الكرايات والعداوات والشكوك التي تولدت عن تلك المرحلة . ولا يلبث تاريخ تلك الفترة أن يفقد كل معنى ويصبح دردشة جوفاء وخوضاً في الأعراض تمجده أذن الناقد المصري الأسمى . فهو يحدثنا تارة كيف أن خليفة هذا الملك أجبت تلك الحروب ، وكيف تولدت هذه الحرب الأخرى من غيرة وزير من آخر . وتثور ريج القليل والقالق فتركم أنف المدارس الذكي بأخبار الرشوة والنافسات وتعلأ نفسه الممتمزلاً . على أن هناك حقيقة

مائلة ولها دلالتها التي لا تقطع ، هي أن القراءة والفكر لم تكف مع ذلك عن الانتشار والانتاع ، وأن الاختراعات لم تكف عن التكاثر ، على الرغم من تلك العشرات من الحدود والتخوم التي تفصل بين الدول . وظهر في القرن الثامن عشر أدب عميق في تشكيكه ، تماذ في تقديمه لبلاطات ذلك العصر وسياساته . ولو أنك قرأت كتاباً كتبه فولتير المسماة « قنديد » لشهدت فيها بوضوح تسييراً صريحاً عن حالة لا أحد لها من التبرم بوقوع أوروبا في لجة الارتباكات دون توفر أحد على رسم خطة لإنقاذها .

## الفصل الثالث والخمسون

### إمبراطوريات الأوربيين الجديدة في آسيا وما وراء البحار

وفي نفس الوقت الذى ظلت فيه أوروبا الوسطى مضطربة منقسمة على نفسها على النحو الذى رأيت ، راح سكان غرب أوروبا ، خاصة الهولنديين والإسكندنافيين والإسبان والبرتغاليين والبريطانيين يمدون منطقة كفاحهم وراء بحار العالم أجمع . ومن قبل ذلك كانت اللطمة قد دفست بالأنفكار السياسية والأوربية إلى غمرة ثوران شديد كان غير معين في بدايته ، على أن الاختراع العظيم الثانى : السفينة الشراعية التى تحترق المحيطات ، كان يمتد نطاق خبرة الأوربيين بلا هوادة إلى آخر حدود للياه الملحة .

ولاشك أن أول ما أقام وراء البحار من مستقرات الهولنديين ، النازلين حول الأطلنطى الشمالى من الأوربيين لم يكن يهدف إلى الاستثمار ، بل التجارة والتعدين . وكان الإسبان أول من اتهم للبدان ، فادعوا السيادة على كل هذا العالم الجديد للسمى أمريكا . ومع ذلك فسرطان مطالب البرتغاليون بنصيبهم فى القنينة . وعندئذ تولى البابا تقسيم القارة الجديدة بين هذين الشعبين السابقين إلى الارتياح والفتح ، فأعطى البرازيل للبرتغال ، كما أعطاها كل شيء آخر يقع إلى الشرق من خط يمتد على بعد ٣٧٠ فرسخا غرب جزائر رأس فردى ، كما منح مابقى بعد ذلك لإسبانيا ( ١٤٩٤ ) ، ( وكان ذلك من أواخر الأعمال التى قامت بها روما كسيده للعالم ) وفى ذلك الحين نفسه كان البرتغاليون يذفون بمحرك للغامرة وراء البحار نحو الجنوب والشرق . فلم تحمل ١٤٩٧ حتى كان فاسكو دى جاما قد أبحر من لشبونه حول رأس الرجاء الصالح إلى زنجبار ثم انطلق إلى قاليقوت ببلاد الهند . وإذا بالسفن البرتغالية تمخر فى ١٥١٥ عباب بحارجاة وملقا ، وإذا بالبرتغاليين ينشئون المحطات التجارية ويحصونها على سواحل المحيط الهندى . ولا تزال البرتغال تملك إلى اليوم موزمبيق وجوا وتملكتين صغيرتين أخريين بالهند وماكاو بالصين وجزءاً من جزيرة تيمور .



على أن الشعوب التي استعبدت من أمريكا بحكم التسوية الباباوية لم ترحل إسبانيا والبرتغال أدنى اهتمام ، وسرعان ما شرع الإنجليز والهايمريكون والسويديون من ورثتهم والمولنديون يدعون الدعاوى في امتلاك أمريكا الشمالية وجزر الهند الغربية ، كما أن صاحب الجلالة ملك فرنسا الكاثوليكي الورع لم يترك التسوية الباباوية من الاهتمام إلا بقدر ما عارها أي أمير بروستانتي خارج على البابا . وعندئذ امتدت حروب أوروبا إلى مناطق هذه الدعيات والممتلكات .

وكان الإنجليز في النهاية أصبح من دخل حلبة هذا السباق على للممتلكات وراء البحار مذكأن أهل الهامريك والسويد متورطين إلى أقصى حد في غشون ألمانيا للظطرة للعدوة ، بحيث لم يستطيعوا مواصلة إرسال الحملات القمالة إلى الخارج . ثم انتهى الأمر بأن تبدت قوة السويد في ميدان القتال على يد ملك فاني جذاب هو جوستاف أدولف ، أسد الشمال ، البروتستانتي . ومالبت المولنديون أن ورثوا تلك المستقرات الصغيرة التي أنشأها السويديون بأمريكا ، كما أن المولنديين بدورهم كانوا شديدي القرب من فرنسا وعدوانها بحيث لم يتمكنوا من الصمود في وجه البريطانيين . وكان أم للتناقص في بلاد الشرق الأقصى على تكوين الإمبراطوريات البريطانية والمولنديون والفرنسيون كما أن أهمهم بأمريكا البريطانيون والفرنسيون والإسبان . ومن حسن حظ البريطانيين أن كانت لهم على أوروبا ميزة عظيمة تحميهم منها وهي بحر اللانف ، تلك التقوم للامية السبابة « الشعاع الفضي silver streak » . لذا كانوا أقل الناس اشتباكا في غشون الإمبراطورية اللاتينية وتقاليدها .

وقد دأبت فرنسا دائما على المبالغة في الاهتمام بالشئون الأوروبية فظلت طوال القرن الثامن عشر بأجمعه تضيع ما يستحق أمامها من فرص التوسع في الشرق والغرب على السواء ، رغبة منها في التسلط على إسبانيا وإيطاليا وعلى تلك القوضى المحسمة للسبابة ألمانيا . ثم إن الخلافات الدينية والسياسية بين بريطانيا وإبان القرن السابع عشر كانت قد دفعت كثيرا من الإنجليز إلى البحث عن وطن دائم لهم بأمريكا . لذا توطلت بها أقدامهم وتزايد عيدهم وبكاثرت نسلهم ، الأمر الذي عاد على الإنجليز ميزة كبرى من التفوق البدني في إنشاء الكفاح على أمريكا . ولم يلبث الفرنسيون أن خسروا في ١٧٥٦ ، ١٧٦٠ كندا التي سقطت بيد البريطانيين ورجلهم مستعمري أمريكا ، وانقضت بضع سنوات أخرى ، وإذا بالبركة التجارية البريطانية تجد نفسها مهيمنة تماما على جميع من يزل بأرض

شبه الجزيرة الهندية من فرنسيين وهولنديين وبرتغاليين ، ذلك أن الإمبراطورية  
للقوة العظيمة التي شادها بابر وأكبر وخلفاؤها ، قد نخر فيها الآن سوس الانحلال  
الشديد ، كما أن قصة استيلاء شركة لندنية للتجارة عليها ( هي شركة الهند البريطانية  
الشرقية ) من أعجب ما حوى تاريخ الفتوح كله من حوادث .

ولم تكن شركة الهند الشرقية هذه يوم إنشائها في عهد الملكة إليزابث للإشركة  
من مغامري البحار ، واضطرتهم الأحوال خطوة فخطوة إلى إنشاء الميوس وتسليح  
السفن ، وعلى حين بقاء وجدت هذه الشركة التجارية بمالها من تخاليد أساسها الربح  
والمكسب أنها لاتعامل قط في التوابل والأسباغ والشاي والبواهر ، بل وفي  
إمدادات الأمراء وممتلكاتهم بل حتى في مصائر الهند ومقدراتها ، جاءت للتفتى وتبيع  
وإذا بها تحصل على غنيمة هائلة ، ولم يكن ثمة أحد يستطيع تحدى إجراءاتها . أفضيب  
إذن أن زعماءها وقادتها وموظفيها ، بل حتى كتبها وعامة جنودها ، كانوا يعودون إلى  
البحر محملين بالأسلاب ؟

ومن البديهي أن الرجال الذين يعيشون في مثل تلك الظروف ويهدون تحت  
رحمتهم قطرا عظيما ثريا كالهند ، يمكنهم أن يقرروا ماذا يستطيعون عمله وماذا  
لا يستطيعون وما يجوز وما لا يجوز ، فالهند في نظرهم أرض هدية ذات خمس هدية :  
كما أن سكانها النحاسيين كانوا يبدون شعبا مختلفا عنهم يخرج تماما عن مجال عطفهم ،  
هذا إلى أن معابدها القامضة تدعو إلى معايير للسلوك غريبة وخيالية . ونجبرت عقول  
الإنجليز في بلادهم كما عاد إليهم هؤلاء القادة أو الموظفون ليتراشقوا بالتهمة القدرة الشليحة  
بين ابتزاز للأموال وقساوات تقشعر لها الأبدان . وأصدر البرلمان على كلايف  
قرارا بالوم ، ومالبث أن اتعبر في ١٧٧٤ ، ثم حرك وارن هاستنجز في ١٧٨٨ ،  
وهو مدير عظيم ثان لبلاد الهند ، ثم أخلى سبيله في ١٧٩٢ . حقا إنه لوقف غريب  
ليس له من سابقة في تاريخ العالم . ذلك أن البرلمان الإنجليزي ألغى نفسه بحكم من  
وراء شركة تجارية ، كانت بدورها تتسلط على إمبراطورية أعظم كثيرا وأكثر  
سكانا من ممتلكات التاج البريطاني جميعا . وكانت الكثرة العظمى من الشعب  
الإنجليزي تعد الهند بلدا قسريا لا يمت إلى الحقيقة بسبب ، ولا يكاد إنسان يستطيع  
بلوغه ، ينطلق إليه الشبان المقامرون الفقراء ليعودوا بعد سنوات جمة كهولا  
واسمي التراء ذوى أخلاق هكسة عنيفة - وعسر على الإنجليز أن يتصوروا طريقة



عيش هؤلاء الملايين التي لاحصر لها من السمر الساجين في ضياء شمس بلاد الشرق .  
ذلك أن أخيلتهم أبت عليهم إقامة تلك الصورة . وظلت الهند بناء على ذلك قطرا  
« رومانسيا » لا تمت إلى الواقع بأدنى سبب ، لذا صار من المستحيل على الإنجليز أن  
يقوموا بأي إشراف فعال أو هيمنة مشمرة على تصرفات الشركة .

وفي نفس الوقت الذي كانت فيه دول أوروبا الغربية تتقاتل على هذه الإمبراطوريات  
الخيالية وراء البحار مشتبكة بعضها مع بعض على صفحة كل محيط في هذا العالم ،  
حدثت بأسيا غزوتان برتان عظيمتان . فإن الصين ألفت عن كواهلها نير المغول في  
١٣٦٠ ، وازدهرت الحياة فيها بظل أسرة منج القومية العظيمة حتى ١٦٤٤ ، ثم عاد  
شعب المانشو ، وهو شعب مغولي آخر ، وظل سيدا على بلاد الصين حتى ١٩١٢ . وفي  
نفس الحين كانت روسيا تتقدم شرقا وتزداد عظمة بين دول العالم .

ولاشك أن نهوض تلك القوة العظيمة المركزية في العالم القديم ، التي لاهى إلى  
الشرق تماما ولاهى إلى الغرب تماما له أهمية قصوى هائلة على مصير الإنسانية ، وبعود  
الفضل في توسعها ذلك إلى حد كبير إلى ظهور شعب مسيحي بمنطقة السهوب بها ، هو  
شعب القوزاق ، الذي أقام من نفسه حاجزا بين الإقطاعيين يولندية والمجر في الغرب  
وبين التتار شرقا ، فالقوزاق هم الشعب الضارى القاطن شرق أوروبا ، وهم يشبهون  
من وجوه كثيرة غرب الولايات المتحدة الضارى في منتصف القرن التاسع عشر ، فكل  
من أحقق عليه روسيا حتى ضاقت به ذرعا ، سواء أكان من المجرمين أم من الأبرياء  
المضطهدين . وفيهم الموالى الثائرون والطوائف الدينية والعصوص المتشردون والقتلة ،  
كانوا يلتمسون سهوب الجنوب ملبيا ، وهناك يبدأون حياتهم بهذا جديدا . ويقاتلون من  
أجل الحياة والحرية كلاً من البولنديين والروسين والتتار على السواء . ولا يخالينا  
أدنى شك في أن خليط القوزاق كان يساهم فيه لاجئون من التتار شرقا .

ثم أخذ هذا الشعب النازل على التخوم يستل رويدا رويدا في خدمة القيصر  
الروسي العسكرية . على نفس الشاكلة التي تم بها للحكومة البريطانية تحويل عشائر  
مرتفعات اسكتلندة إلى جند وفرق ، وعند ذلك منضمهم الحكومة أرضا جديدة بأسيا  
حيث أصبحوا سلاحا حادا لها ضد قوة المغول الرحل الداوية المتناقصة ، فعلموا أولا ببلاد  
التركتستان ثم توغلوا عبر سيبيريا حتى نهر عامور .

ومن العسير تفسير الانحلال الذى طرأ على قوة القول إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر . فلم تنقض على أيام جانكيز وتيمورلنك قرنان أو ثلاثة حتى انحدرت آسيا الوسطى من عصرها الذهبي الذى سادت فيه العالم إلى الانحلال والوهن السياسى البالغ . ولعل عوامل من أمثال تغيرات المناخ أو الأوبئة التى لم يسجلها التاريخ أو إصابات من نوع الملاريا أصابت الناس ، قد اجتمعت كلها فأفضت إلى ذلك التدهور الذى ألم بشعوب آسيا الوسطى - والذى يحتمل أن يكون مؤقتا ليس إلا ، إذا قيس بمقاييس التاريخ العالمى العام . ويعتقد بعض الثقاة أن انتقال التحالف البوذية إليهم إلى بلاد الصين كان بدوره عاملا مهددا لتفوسهم . ومهما تكن الحال ، فإن التناحر المغوليى والشعوب التركية لم يعد لهم فى القرن السادس عشر أى اتجاه إلى الضغط نحو الخارج ، بل كانوا على الضد من ذلك يخزون فى بلادهم ويلزمون بالخضوع أو يدفعون إلى الوراء من جانب كل من روسيا المسيحية فى الغرب والصين فى الشرق .

واقتضى القرن السادس عشر بأكمله والقوزاق ينتشرون شرقا من روسيا الأوربية ويستقرون حيث وجدوا ما يناسبهم من ظروف زراعية . وكانت حلقات من القلاع والمواقع الحصينة متصل هؤلاء المستقرين عن جيرانهم كأنها الخوم وتحرك دائما إلى الأمام وتحمى هذه المستقرات فى الجنوب ، حيث لم يبرح التركمان أقرباء قاطعين ، على أن روسيا لم يكن لها مع ذلك أى حدود إلى الشمال الشرقى أبدا حتى بلغت المحيط الهادئ نفسه .

## الفصل الرابع والخمسون

### حرب استقلال أمريكا

هكذا شهد الربع الثالث من القرن الثامن عشر قارة أوروبا للتقسمة على نفسها وهي في حالة عجيبة من الاضطراب وعدم الاستقرار ، كما شهدتها محرومة من كل فكرة سياسية أو ديلية جامعة تدعو إلى الوحدة والتآلف ، ولكنها مع ذلك قادرة ولو بصورة عجيبة يسودها النزاع والخلاف ، على التسلط على جميع شواطئ بلاد العالم بفضل الاستثارة الهائلة التي أحدثتها في أخيلة الناس ظهور الكتاب للطبوع والخرطة للطبوعة ، والقرص التي خلقتها السفينة القادرة على عبور المحيط . لقد أصاب أوروبا ضرب من حمى للتجارة للملكة التي ليس لها خطة مرسومة ، مغامرة ترجع إلى مزاي مؤقته وعارضة ، أو تكاد ، هبطت عليهم دون سائر البشر . وبفضل هذه المزاي التي اكتسبها ، فإن قارة أمريكا الجديدة هذه والحالية إلى حد كبير من السكان امتلأت بصفة رئيسية بأقوام من غرب أوروبا . كما حيزت جنوب إفريقية وأستراليا ونيوزيلندا لتكون وطناً معداً لسكان من الأوربيين .

ولم يكن مبعث كولمبس إلى أمريكا أو فاسكودي جاما إلى الهند إلا الدافع الأول الدائم للبجارة جميعاً منذ بدء الخليقة ألا وهو التجارة . ولكن على حين حدث في الشرق الأهل آتفا بالسكان والحاقل بالمنتجات ، أن الباعث التجاري ظل غالباً متسلطاً وظلت مستقرات الأوربيين به تجارية محنة ، وكان سكانها ( الأوربيون ) يرجون دائماً أن يعودوا إلى أوطانهم لإتفاق أموالهم ، فإن الأوربيين في أمريكا ، ألفوا أنفسهم أمام باعث جديد يحملهم على التثبث بتلك البلاد بحثاً عن الذهب والفضة ، وذلك لأنهم كانوا يتعاملون هناك مع مجتمعات مستوى نشاطها الإنتاجي أخفض كثيراً جداً . ولقد ذهب الأوربيون إلى أمريكا لا بوصفهم تجاراً مسلحين ، بل كباحثين عن المعادن النفيسة ومعدين ومتقنين عن المنتجات الطبيعية ، ثم عادوا فتحولوا بعد ذلك إلى الزراعة ، وكانوا في المناطق الشمالية يجمعون الفراء ، ثم استولمت للناجم وللزراع قيام للمستقرات ( المستوطنات ) . فكانهما اضطررا هؤلاء الناس إلى إقامة الأوطان الدائمة لأنفسهم

وراء البحار . ثم رأى الأمر أن أصبح الأوروبيون يعبرون البحار بهدف قاطع صريح هو أن يجدوا لأنفسهم أوطاناً جديدة يسكنونها إلى الأبد ، كما حدث في بعض الحالات عندما هاجرت طائفة من اليهود إلى نيوزيلند بأمرىكا في أوائل القرن السابع عشر فراراً من الاضطهاد الدينى ، وكما حدث في القرن الثامن عشر عندما أرسل أوجليثورب أقواماً استخلصهم من سبعون للدينين بالهجرة إلى ولاية جورجيا ، وكما حدث في نهاية القرن الثامن عشر عندما أرسل الهولنديون الأيتام إلى رأس الرجاء الصالح . وجاء القرن التاسع عشر وظهرت السفينة البخارية ، فارتفع سيل التازعين الأوروبيين إلى أراضى أمريكا وأستراليا الجديدة الخاوية . ولم يزل كذلك بضع عشرات من السنين حتى صار كائماً هو هجرة عظيمة .

وهكذا تضخمت وراء البحار جماعات دائمة من السكان الأوروبيين ، وانتقلت الثقافة الأوربية إلى مناطق أوسع كثيراً من تلك التى نشأت وتطورت بها . إن هذه المجتمعات الجديدة التى أحضرت معها مدنية مهيأة من قبل إلى تلك البلاد الجديدة ، تضخمت في الواقع دون أن يدرك خطة تضخمها إنسان أو حتى يدرك وجودها ، ولم تتنبأ السياسة الأوربية بظهورها ، لذا لم تعد أية خطة لمواجهةها أو فكرت لمواجهتها . فظل ساسة أوروبا ووزرائها يبدونها مؤسسات عسكرية في جوهر أمرها ، وموارد لإيراد للدولة أو « ممتلكات » — أو « بلاداً تدعى بالتبعية » ، وذلك بعد أن تأصل في سكانها زمن طويل إحساسهم الحاد بانقصال حياتهم الاجتماعية عن كل ما عداها . ثم إنهم ظلوا ياملونهم كشعب ذليل عاجز خاضع للدولة الأم بعد أن انتشر السكان زمن مديد في داخل البلاد وأصبحوا يبدون عن طائفة أى عمليات تأديبية فعالة توجه إليهم من البحر .

ذلك أنه يجب ألا يغرب عن بالنا ، أن السفينة التجارية للآخرة للبحر كانت همة الوصول بين أجزاء هذه الإمبراطوريات للتحلة وراء البحار إلى أن تقدم الزمن تماماً بالقرن التاسع عشر . أما على البر فإن أسرع وسيلة للمواصلات لم تبحر هي الحصان ، كما لم يزل تماسك التنظيم السياسية ووحدةها في البر محدوداً بما تفرضه عليه مواصلات الحصان من قيود .

وما إن انتهى الرج الثالث من القرن الثامن عشر حتى كان الثلاث الهالمان من أمريكا الشمالية تابعين للتاج البريطانى . وكانت فرنسا قد تخلت عن أمريكا . وفيما عدا

البرازيل التي كانت تابعة للبرتغال ، وجزيرة صغيرة أو جزيرتين ومنطقة ما أو منطقتين في أيدي الفرنسيين أو البريطانيين أو الهولنديين أو الدانمركيين - فإن منطقة فلوريدا ولوزيانا وكاليفورنيا وجميع ما تبقى من أمريكا إلى الجنوب كان تابعا لإسبانيا . وكان سكان للمستعمرات البريطانية الواقعة إلى الجنوب من نهر اللين وبحيرة أونتاريو أول من أظهر عدم كفاية السفينة التجارية لربط مجتمعات وراء البحار بعضها مع بعض في نظام سياسي واحد .

كانت هذه للمستعمرات البريطانية متباينة في ملثتها وصفاتها . فقد قامت بها للمستعمرات الفرنسية والسويدية والهولندية فضلا عن البريطانية ، وكان سكان منطقة ماري لاند من الكاثوليك وسكان نيو إنجلند من متطرفة البروتستنت ، وبينما راح أهل نيو إنجلند يزدعون أراضيهم ويعيون امتلاك الرقيق ، فإن البريطانيين من سكان فرجينيا وما وراءها جنوبا كانوا زراعا يستخدمون عددا متضخما من العبيد الزوج المجلوبين من الخارج . فمثل تلك الولايات لا تقوم بينها وحدة طبيعية مشتركة . وربما كان معنى الانتقال من إحداها إلى الأخرى دفع نفقات رحلة غالية لا تكاد متاعها تحمل عن مشاق عبور الأطلسي .

غير أن الاتحاد الذي أنكرته على تلك الولايات أصولها المتباينة وظروفها الطبيعية وحالت دون قيامه بين هؤلاء الأمريكيين البريطانيين لم يلبث أن فرضته عليهم فرضاً أنانية الحكومة البريطانية بلندن وغباؤها . ذلك أنهم كانت تهرض عليهم الضرائب دون أن يكون لهم أى صوت ولا رأى في إنفاق تلك الضرائب ، وكان تجارتهم يضحى بها من أجل المصالح البريطانية ، وواصلت الحكومة البريطانية القيام بتجارة الرقيق لأنها تدر الأرباح الوفيرة ، على الرغم من معارضة سكان فرجينيا الذين خشوا أن يفرقهم تيار الشعب البربرى الأسود الذي لا يفتأ يتزايد عدده ، وإن رغب هؤلاء الفرجيليون في الوقت ذاته رغبة أكيدة في امتلاك الرقيق واستخدامهم .

وفي ذلك الوقت نفسه أخذت بريطانيا تتجه صوب نوع جديد من الحكم للسكر يتصف بالقوة والشدة ، وأفضى عناد الملك جورج الثالث ( ١٧٦٠ - ١٨٢٠ ) إلى دفع للمستعمرات دفعا إلى القتال مع الحكومة البريطانية .

وما عجل باندلاع الحبيب الصراع ذلك التشريع الذي أثر بالتفضيل لصالح شركة الهند الشرقية بلندن على حساب أرباب السفين الأمريكيين . لذا هاجمت ثمة من الرجال





تسكوت في زى المنود الحر في ١٧٧٣ ثلاث سفن يميناء بوسطن وألقت في الماء بما كانت تحمل من الشاى الذى استورد في ظل القانون الجديد . ولم يبدأ القتال إلا عام ١٧٧٥ عند ما حاولت الحكومة البريطانية أن تعتقل اثنين من زعماء الأمريكيين بمدينة لكينجستون قرب بوسطن . وأطلق البريطانيون أول طلقات الحرب بمدينة لكينجستون وتلاحم الجمعان في أول قتال بينهما قرب كونكورد .

هكذا بدأت حرب الاستقلال الأمريكية . وإن ظل للمستعمرون الأمريكيون أكثر من سنة كاملة يقفون موقف الإحجام البالغ عن القتال وعدم الرغبة في قطع علاقاتهم ببلادهم الأصلية . فلم يصدر مجلس كنجرس Congress ونواب الولايات الثائرة وثيقة « إعلان الاستقلال » إلا بعد منتصف عام ١٧٧٦ ، وعين جورج واشنطن قائدا عاما للجيش الأمريكية ، وكان قد تعلم فنون الحرب في أثناء الكفاح الذى نشب مع الفرنسيين شأنه في ذلك شأن كثير من المستوطنين الأمريكيين في ذلك الزمان . وفي عام ١٧٧٧ هزم عند مزرعة فريمان قائدا بريطانيا ، هو الجنرال بورجون واضطره إلى التسليم عند ساراتوجا في أثناء محاولته التقدم من كندا إلى نيويورك . وفي نفس السنة أعلن الفرنسيون والإسبان الحرب على بريطانيا العظمى . فأدى ذلك إلى تعطيل مواصلاتها البحرية تعطيلاً بالغا . ثم طرق جيش بريطاني آخر تحت إمرة الجنرال كورنواليس بشبه جزيرة يوركناون بـرغميا واضطر بدوره إلى التسليم دون شرط ١٧٨١ . ثم عقد الصلح ياريس في ١٧٨٣ وبمقتضاه أصبحت المستعمرات الثلاث عشرة الممتدة من المين إلى فرجيا اتحادا مكوناً من ولايات مستقلة ذات سيادة . وهكذا ظهرت الولايات المتحدة الأمريكية في عالم الوجود . وظلت كندا موالية للراية البريطانية .

ظلت هذه الولايات أربع سنوات وليس لها إلا حكومة عامة ضئيلة السلطان تتولى الشؤون بمقتضى بعض مواد دستور ينص على قيام اتحاد مفكك بينها ، ولاحق في أثناء تلك المدة أنه لا مفر لها من الانقسام إلى مجتمعات مستقلة منفصلة بعضها عن بعض . ولكن أمرين أدبا إلى إرجاء ذلك الانفصال وهما عداة البريطانيين لهم وإظهار الفرنسيين شيئا من الرغبة في الاعتداء عليهم مما جسم أمام نواظرهم الخطر القريب الترتب على الانقسام والفرقة ، وتلبه القوم فوضوا في ١٧٨٨ دستورا اعتمدوه للفور ، فقامت بمقتضاه حكومة اتحادية أشد قوة لها رئيس يتمتع بسلطات ضخمة جدا ، وما لبثت حرب ثانية شبت مع البريطانيين في ١٨١٢ ، أن قضت على كل ضعف في الشعور بالوحدة القومية ومع ذلك

فإن رقعة الولايات كانت من الاتساع ، كما أن مصالحها كانت من التفرق والتضارب بحيث إنها لو استمرت تعتمد على وسيلة المواصلات الوحيدة الموجودة آنذاك [ وهي الحصان ] ، فإن تفرق الاتحاد إلى ولايات منفصلة على غرار الدول الأوروبية وفي مثل اتساعها كان أمرا لا مفر منه بمضى الأيام ، إذ لم يكن لحضور الجلسات بواشنطن من معنى سوى القيام برحلة شاقة طويلة خطيرة لكل عضو بمجلس الشيوخ أو النواب يقيم بالمناطق القاصية ، فضلا عن أن العوائق التي كانت تحول دون نشر تعليم موحد وأدب موحد وفكر موحد كانت مما لا يكاد يستطاع تجديده ، ومع ذلك فقد أخذت تلتأ آنذاك في العالم قوى قدر لها أن توقف عملية التفرق وقفا تاما ، إذ سرعان ما ظهر الزورق البحارى النهري ثم السكة الحديد والتلغراف ، فأقذت الولايات المتحدة من التمزق ، وضمت أهلها المشتتين في نسيج واحد هو أول الأمم العصرية العظيمة .

وما هي إلا اثنان وعشرون سنة حتى حذت المستعمرات الإسبانية بأمريكا حذو الثلاث عشرة مستعمرة وقطعت كل علاقة بينها وبين أوروبا . على أنها لم تستطع أن تضم شملها في اتحاد يجمعها نظرا لشدة توزعها في أرجاء القارة ، ولانفصالها بعضها عن بعض بسلاسل جبلية عظيمة وصعاري وغابات وإمبراطورية البرازيل البرتغالية . لذا أصبحت تلك المستعمرات مجموعة من الولايات الجمهورية ، وصارت شديدة الميل في البداية لإشعال نار الحروب فيما بينها والثورات في داخلها .

أما البرازيل فإنها سلكت طريقا آخر إلى ذلك الاتصال الذي لم يكن منه مفر . إذ حدث في ١٨٠٧ أن الجيوش الفرنسية بقيادة نابليون احتلت بلاد البرتغال الأصلية ، ففرت الأسرة المالكة إلى البرازيل ، ومنذ تلك اللحظة إلى يوم أن افتقر البلدان ، أمست البرتغال هي التابعة تقريبا للبرازيل وليس العكس ! ثم أعلنت البرازيل استقلالها في ١٨٢٢ كإمبراطورية مستقلة تحت حكم بيدرو الأول ، أحد أبناء ملك البرتغال . ولكن العالم الجديد لم يرمق الملكية مطلقا بين الرضا . لذا أرسل إمبراطور البرازيل هدية إلى أوروبا على ظهر إحدى السفن في ١٨٨٩ ، وتساوت الولايات المتحدة البرازيلية بسائر أمريكا الجمهورية .

## الفصل الخامس والخمسون

### الثورة الفرنسية وعودة الملكية في فرنسا

لم تسكد بريطانيا تفقد المستعمرات الثلاث عشرة بأمريكا حق قبض الله لحركة ثورية عنيفة سياسية واجتماعية قامت في قلب الملكية العظمى نفسها ، أن تذكر أوروبا بصورة أجلى وأوضح كثيرا ، بأن كل ما بالعالم من نظم سياسية شيء وفق تماما لا دوام له .

سبق أن ذكرنا أن الملكية الفرنسية كانت أصبح الملكيات المستبدة بأوروبا ، وذكرنا أنها كانت مثار حسد عدد جم من البلاطات التنافسة أو الصغرى ، كما كانت مثالها المحتذى . ولكنها لم تزدهر إلا على أساس من الظلم والطغيان أقصى إلى ما أصابها من أنهار مسرحى هائل . أجل إنها اخضعت بالدكا والشجاعة والبدوان . ولكنها فرطت في حياة من بها من العامة وكيانهم . وكان رجال الدين والنبلاء بمأمن من الضرائب بسبب القوانين التي تعفيهم والتي تلقى على عواتق الطبقتين الو.طى والدنيا ، وكانت الضرائب تسحق الفلاحين سحقا ، وكان النبلاء يتسلطون على الطبقات الوسطى ويستذلونها .

ولم تلبث تلك الملكية العظمى أن ألقت نفسها مفلسة خاوية الوفاض في ١٧٨٧ ، وإن اضطرت إلى استدعاء ممثلي الطبقات المختلفة بالملكة لتشاوهم في أمر مشكلات نقص الإيرادات وشدة زيادة للصروفات ، واجتمع مجلس طبقات الأمة بفرسات في ١٧٨٩ ، وهو مجلس من النبلاء ورجال الدين والعامة يمثل إلى حدما الصورة الأولى للبرلمان الإنجليزي . ولم يعقد ذلك المجلس منذ ١٦٩٠ ، وهي فترة من الزمن كانت تحكم فرنسا في أثنائها ملكية مطلقة . فلما انعقد آنذاك أصبح للناس وسيلة تتحدث عن تدميرهم القوي للديد الأجل وسرعان ما نشبت الخلافات بين الطبقات الثلاث ، بسبب إصرار الطبقة الثالثة وهي العامة على الهيمنة على المجلس . وكانت للعامة القلبة في هذه المنازعات ، فتحول مجلس طبقات الأمة إلى جمعية وطنية واضحة العزم على إلزام التاج بالنظام ، مثلما ألزم

البرلمان البريطاني التاج البريطاني حدود النظام ، وتبدأ الملك لويس السادس عشر للكليل واستحضر الجند من الأقاليم ، فثارت عند ذلك باريس وفرنسا .

كان انهيار الملكية المستبدة سريعاً جداً . فهدم سكان باريس سجن الباستيل الجهم القبيح الصورة ، وسرعان ما انتشرت الفتن بكل أرجاء فرنسا . وامتدت أيدي الفلاحين في الشرق والشمال الغربي إلى كثير من قصور النبلاء فأحرقوها ، ومنعت براءات ألقابهم بكل عناية ، كما قتل أصحابها وطردهوا شر طردة ، فلم يتقضى شهر واحد حتى انهيار نظام الأرستقراطية القديم النادر ، واضطر إلى الفرار إلى خارج البلاد كثير من كبار الأمراء ومن رجال البلاط من حزب المسكة . وأقيمت يباريس ومعظم المدن الكبيرة الأخرى حكومة مؤقتة المدينة . وانشأت حكومات البلديات هذه قوة مسلحة جديدة هي الحرس الوطني ، وهي قوة مسلحة أنشئت أولاً وقبل كل شيء لمقاومة قوات التاج ، ونظرت الجمعية الوطنية حولها ، وإذا هي تستدعي لإيجاد نظام سياسي واجتماعي جديد لعهد جديد .

كان القيام بهذا الأمر مهمة شاقة أرهقت قوة تلك الجمعية ، وهكذا تطلعت فرنسا من أم ما كان يهظم من مظالم الحكم المطلق المستبد ، فأثقت الاعلاء من الضرائب والرق ( موالى الأرض ) وإلقاب الأرستقراطية وامتيازاتها ، وحاولت أن تقيم في باريس صرح ملكية دستورية ، فغادر الملك فرساي وأهبطها ، وعاش عيشة متواضعة بقصر التويلري يباريس .

ومرت سنتان زعم الناس خلالها أن الجمعية الوطنية ستستمر في كفاحها حتى تخلص حكومة قوية ذات طابع عصري ، فأثبتت أشياء كثيرة صائبة دامت إلى يومنا هذا وإن كان كثير من إنتاجها تجارياً لم يكن بد من نقضه .

على أن كثيراً مما أُنشئت لم يكن له أي أثر ، فراحت الجمعية تصفي قانون العقوبات وتنقيع من الشوائب ، وأثقت التعذيب والحبس التصفى والاضطهاد بسبب الزندقة . وحلت ثمانون مديرية محل ولايات فرنسا القديمة كنورماندى وبرغندي وامتثالها . وفتح باب الترقية إلى أعلى رتب الجيش لكل طبقات الأمة ، وأنشئ نظام للبركاس ممتاز وبسيط ، وإن أفسد قيمته كثيراً جعل تعيين القاضى فيها بالانتخاب العام إلى مدة قصيرة من الزمن . فكان الجمهور قد أصبح بذلك ضرباً من محكمة استئناف نهائية عليا .

كما صار القضاء كأعضاء الجمعية الوطنية ضطربن إلى أن يملقوا الجمهور ويسفوا إلى مرضاته واستولت الدولة على ممتلكات الكنيسة الضخمة وتولت إدارتها بنفسها ، وحلت جميع للوحدات الدينية التي تعمل في غير التعليم أو البر والإحسان ، وأصبح الشعب هو الذي يتحمل مرتبات رجال الدين ولم يكن في ذلك مضرة بالطبقة الدنيا من رجال الدين الفرنسيين ، الذين كثيرا ما صغرت مرتباتهم بصورة فاضحة بالنسبة لكبار رجال الدين الأثرياء . وزيادة على ذلك أصبح تعيين القساوسة والأساقفة بالانتخاب . وكان ذلك ضربة عنيفة أصابت في الصميم فكرة الكنيسة الكاثوليكية التي تتجه فيها السلطات للركزة في يد البابا والكرادلة من أعلى إلى أسفل . والواقع الذي لاهك فيه أن الجمعية الوطنية شادت أن تحول بضربة واحدة الكنيسة الفرنسية إلى طريق البروتستنتية من حيث التنظيم إن لم يكن من حيث المذهب . ونشبت المنازعات في كل مكان بين قساوسة الدولة الذين أنشأهم الجمعية الوطنية وبين رجال الدين الخارجين عنها (الذين أبوا أن يقسموا بيمين الولاء ) والذين ظاولوا على ولائهم لروما .

وفي ١٧٩١ انتهت على حين بنة تجربة الملكية الدستورية بفرنسا بما فعله الملك ولللكة حين تأمرأ مع أمدها هما الأرستقراطيين ولللكيين في الخارج . وتجمعت الجيوش الأجنبية على الحدود الشرقية ، وانسل الملك والملكة وأطفالهما في إحدى ليالي شهر يونيه من قصر التويلري فارتين للانضمام إلى الأجانب وللثنيين الأرستقراطيين . فقبض عليهم في فارن وأعيدوا إلى باريس ؛ وعندئذ اشتعلت فرنسا كلها بلهب الثورة القومية الجمهورية ، وأعلنت الجمهورية على الفور ، واندلع لهب الحرب بين الفرنسيين والنمسا وبروسيا ، وحوكم الملك وقطعت رأسه (يناير ١٧٩٣) بتهمة خيانة شعبه ، على نفس النسق الذي أسكنته إنجلترا من قبل .

هنا بدأ طور غريب في التاريخ الفرنسي . إذ تأجج لهب عظيم من الحماسة لفرنسا والجمهورية . وأحس الناس أن لا بد لهم من القضاء على كل تماسيح في الداخل وكل صلح مع الأعداء في الخارج ، فكان لا بد في الداخل من استئصال شاة الملكيين وكل شكل من أشكال عدم الولاء ، وكان لا بد لفرنسا من أن تحمي في الخارج كل حركة ثورية وتقدم لها العون ، ورات فرنسا أن لا بد لأوروبا بأكملها (بل العالم كله) أن تمتنع النظام الجمهوري ، وتدفق شباب فرنسا إلى جيوش الجمهورية ، وانتشر في طول البلاد وعرضها تنفيذ جديد هيب هو المارسليز الذي لا يزال يلهب السماء في العروق كاتلهمها حيا الكأس . انهارت الجيوش الأجنبية

ورجعت القهقري أمام ذلك الشيد الحاسي والطواير الفرنسية الوثابة من حملة السونكي ومداغمهم التي تديرها حماسهم للتوقفة ؛ فلم تسكد ١٧٩٢ تقارب نهايتها حتى صارت الجنود الفرنسية بمواضع أبعد كثيراً من كل ما بلغته قوتح لويس الرابع عشر ؛ إذ كانوا يقفون في كل مكان على أرض أجنبية غير فرنسية . فهم يحتلون مدينة بروكسل ، وهم يحتاجون مملكة سافوي ، وهم يتقدمون فيشنون القارة على ماينس Mayence ، وهم قد استولوا على إقليم نهر الشلت من هولندة . وعند ذلك ارتكبت الحكومة الفرنسية حماقة لا تتخسر ، إذ أحرقها طرد يمثلها من انجلترا عند قتل لويس ، فأعلنت الحرب على انجلترا . وتلك حماقة لم يكن لها من ضرورة ، وذلك لأن الثورة التي منحت فرنسا جيشاً من للشاة شديد التعسس ومدفعية ناهية مبرأة من ضابطها الأرستقراطيين ومن كثير من الظروف للمعوق للتقدم ، قد دمرت نظام البحرية الفرنسية ، وكان للانجليز التفوق المطلق في البحر . وإزاء ذلك التحدى والاستمزاز أخذت كلة انجلترا بأكلها ضد فرنسا بعد أن ظهرت بريطانيا حركة ضخمة جداً تدعو إلى التسامح مع الثورة والمطف عليها .

ولا ينسع للقام لذكر تفاصيل القتال الذي نشب بين فرنسا في السنوات القليلة التالية وبين تحالف تكون ضدها من الدول الأوروبية . ومجسنا أنها طردت النموسيين إلى الأبد من بلجيكا ، وأنها حولت هولندة إلى جمهورية . وسلم الأسطول الهولندي وقد تجمد من حوله الماء في نهر تكسل Texel ، لحفة من الحياة القرنيين دون أن يطلق قذيفة واحدة من مدافعه . وصدت هجمات الفرنسيين على إيطاليا ردحاً من الزمان ، فلم يتبأ لها تقديم إلا في ١٧٩٦ عند ما عين قائد جديد هو الجنرال نابليون بونابرت لقيادة الجيوش الجمهورية الجامعة للهلهلة الثياب إلى ميادين النصر بإيطاليا ، فاخترق يديمونت إلى ماشوا وقيرونا . يقول س . ف . أتكلسون<sup>(١)</sup> :

« إن أعد ما أدهش الحلفاء هو عدد هؤلاء الجمهوريين وسرعة حركاتهم . وذلك أن الواقع أن هذه الجيوش للرتجة ارتجالاً لم يكن ثمة شيء يستطيع أن يوق تقدمها . إذ لم يكن لديها خيام لقلة ما لدى الجمهورية من قود ، ولو وجدت لما كان من الممكن

(١) في مقالاته التي نشرها بدائرة المعارف البريطانية تحت عنوان :

• French Revolutionary Wars • .

( ٣٠ — تاريخ العالم )

قلها لاحتياجها عندئذ إلى عدد هائل من العربات ، التي ربما لُزمت كما كانت في الوقت نفسه غير ضرورية ، وذلك لأن للتابع التي كانت تدعو إلى فرار الجند بالجملة من الجندية في العيوش القديمة المحترفة كان يتحملها بالسرور التام رجال فرنسا في عام ١٧٩٣ — ١٧٩٤ . ولم يكن معقولا أن يستطاع قتل مؤن لعيوش لم يسمع الناس بمثل حجمها حتى ذلك الحين ، وسرعان ما تعلم الفرنسيون أن يعيشوا على حساب البلاد التي يحلون بها . وهكذا شهدت ١٧٩٣ مولد طريقة الحرب المصرية : سرعة الحركة وتطور كامل للقوة القومية وعسكرة الجنود بلا خيام في الغراء ، وعيشهم على حساب الأهالي واعتادهم على القوة بدلا من للدورات الحذرة والعيوش الصغيرة المحترفة والخيام والأطعمة والبراريات الكاملة والتلاعب والخداع . فالعيوش الأولى تمثل الروح التي تستلزم حسم الأمر فوراً ، والعيوش الثانية تمثل روح المخاطرة بالقليل في سبيل القليل . . . »

وبينما كانت هذه العيوش الرثة الثياب من للنحسين تفتش للارسليليز وتقاتل في سبيل فرنسا La France دون أن يتضح لأفهامها تماما ما إذا كانت تنهب البلاد التي تدقت فيها أو تحررها ، كانت الحماسة الجمهورية يبارس تلاشي بصورة مزربة بمجدها وكرامتها . ذلك أن الثورة قد أصبحت آنذاك تحت سلطان زعيم شديد التحصب ، هو روبسبير . ومن السير علينا أن نقضى في هذا الرجل برأى ؛ فإنه كان رجلا ضعيف البلية جانا بغيرته مفرأ مزهوا بنفسه . ولكنه أوقى أزم الصفات لبوغ القوة ، وهي الإيمان . فراح يعمل على إنقاذ الجمهورية على الصورة التي خيلها إليه تصوره ، كما أنه كان يتوهم أنه لا متقد لها إلا شخصه هو . ومن ثم أصبحت عقيدته الراضة أن بقاءه في الحكم هو السبيل لإنقاذ الجمهورية . وخيل إليه أن الروح الحى للجمهورية قد نشأ عن تدييح للكيين وإعدام الملك ، وتصادف أن قامت بالبلاد بعض الفن ، شبت إحداها في الترب بمنطقة لانديه La Vendée ، حيث ثار الأهالي بزعامة بعض النبلاء ورجال الدين احتجاجا على أخذهم جنوداً في الجيش ، وعلى حرمان رجال الدين المستمسين ببقية السلف الصالح من أملاكهم ، وهبت ثورة أخرى في الجنوب حيث تمردت ليون ومرسيليا ، وسمح أنصار الملكية في طولون لحماية إنجليزية وإسبانية بالزول برأ . فلم يكن لدى روبسبير فيما يبدو من رد فعل على ذلك إلا مواصلة إعدام أنصار الملكية .

وابتدأت محكمة الثورة عملها ، وابتدأ بذلك سيل منهم من الدبح والتقتيل ، وجاء اختراع القصة ( الجيولتين ) في أنسب الأوقات لهذه النزعة الدموية . فأعدمت الملكة



بالقصة ، وكذلك أعدم معظم خصوم روبيسير بالقصة ، وأعدم بالقصة أيضاً كل كافر أنكر وجود الكائن الأعلى « الذى أعزده روبيسير رباً » ؛ وانقضت الأيام يوماً بعد يوم وأصبوا بعد أسبوع ، وهذه الآلة الجهنمية الجديدة تحز الروس بعد الروس وتقول هل من مزيد ! ولا إخال إلا أن حكم روبيسير كان يعيش على الدم ؛ ولا يزال يطلب المزيد منه فالزيد ، كدمن الأفيون حين يطلب منه المزيد .

وأخيراً جاء دور روبيسير نفسه فعزل وأعدم بالقصة نفسها فى صيف ١٧٩٤ ، وخلفته حكومة إدارة مكونة من خمسة رجال واصلت الحرب الدفاعية فى الخارج وجمعت كلّة فرنسا فى الداخل مدة خمس سنوات . وكان حكمهم أغبى الأشياء بفصل عجيب وسط أحداث هذا التاريخ الحافل بالثغرات الضيفة . فتناولوا الأمور كما وجدوها . وفى عهدهم دفعت حمية الدعاية لثورة الجيوش الفرنسية إلى هولنده وبلجيكا وسويسرا وجنوب ألمانيا وشمال إيطاليا . فكان الملوك يطردون فى كل مكان وتقام فى مكانهم الجمهوريات . ولكن حمية الدعاية التى كانت تشعلها حكومة الإدارة لم تحل دون انتهاب كنوز الشعوب المحررة ، ابتغاء تخفيف الضائقة المالية التى نزلت بالحكومة الفرنسية . وما لبثت حروبهم أن انحطت رويداً رويداً عن مرتبة الحرب المقدسة من أجل الحرية ، وشابهت أكثر فأكثر الحروب العدوانية المعروفة عن العهود القديمة . وكانت تقاليد السياسة الخارجية آخر ما كانت فرنسا تريد التخلص منه من مظاهر الملكية العظمى . فأنت ترى تلك التقاليد فى أيام حكومة الإدارة قوية عاتية كأنما لم تكن هناك أية ثورة !

ومن سوء حظ فرنسا والعالم كله ظهور رجل تركّزت فيه إلى أقصى حد أنانية الفرنسيين القومية هذه . فلم يكن منه إلا أن وهب تلك النبوة عشر سنوات من المجد ثم ختمها بمذلة الهزيمة النهائية . ولم يكن ذلك الرجل سوى نابليون بوناپرت عينه الذى قاد جيوش حكومة الإدارة إلى ساحات النصر بإيطاليا .

ظل هذا الرجل طيلة السنوات الخمس لحكومة الإدارة يعمل لحسابه الخاص ويدير الخطط لرفع شأن نفسه . وأخذ يرقى بالتدريج إلى منزلة الصدارة والقوة العليا . كان فهمه محدوداً إلى درجة كبيرة ، ولكنه كان صاحب همة عظيمة ، قصداً إلى هدنه بصورة مباشرة لا تساهل فيها ولا هوادة . بدأ حياته نصيراً متطرفاً لمدرسة روبيسير وفهمدين بترقياته الأولى إلى أن يهازمه إليها . ولكن أنى له أن يدرك حقاً تلك القوى الجديدة التى كانت تعمل عملها فى أوروبا ، فإن قصارى تصوراته فى السياسة لم ترتفع به إلا إلى

القيام بمحاولة بالية زائلة لاسترجاع الإمبراطورية الرومانية الغربية ، فحاول أن يدمر البقية الباقية من الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، فاصدا أن يستبدل بها أخرى مركزها بباريس ، واضطر الإمبراطور في فيينا أن يتخلى عن لقب إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة مكتفيا بلقبه الأصلي كإمبراطور للنمسا فقط . وطلق نابليون زوجته الفرنسية ليتزوج من أميرة نمسية .

أصبح بالفعل عاجلا لفرنسا حين عين قصلا في ١٧٩٩ ، كجعل نفسه إمبراطوراً لفرنسا في ١٨٠٤ محاكاة منه لشرلمان مباشرة . وتوجه البابا بياريس ، حيث تناول منه التاج ووضعه بنفسه على رأسه كما أوصى شرلمان . وتوج ابنه ملكا على روما . وانقضت بضع سنين كان نابليون ينتقل في أثناءها من نصر إلى نصر . ففتح معظم إيطاليا وإسبانيا ، ودحر بروسيا والنمسا ، وتسلط على كل أوروبا غربى روسيا . ولكنه لم يلق قط بانتزاع منصب السيادة على البحر من يد البريطانيين ، ولقيت أساطيله هزيمة نهائية فاصلة على يد الأميرال نلسن البريطانى في موقعة الطرف الأغر ( ١٨٠٥ ) . وثار إسبانيا عليه في ١٨٠٨ ، وراح جيش بريطانى بقيادة ولستين يدمع الجيوش الفرنسية يبطء نحو الشمال حتى طردها من شبه جزيرة أسيريا ، وفي ١٨١١ دب ديبب الخلاف بين نابليون وبين القيصر إسكندر الأول ، ثم غزا روسيا في ١٨١٢ بجيش عظيم حطط عدته ( ٦٠٠.٠٠٠ ) ستائة ألف رجل ، وهى حملة هزمتها الروس بمعاونة شتاء بلادهم القارس ودمروها إلى حد كبير . وعندئذ هتت ألمانيا عسا الطاعة عليه ، وانقلب السويد عليه . فارتدت الجيوش الفرنسية منهزمة كبيرة . البنجاح ، واضطر نابليون إلى التنازل عن العرش في فونقيلو ( ١٨١٤ ) . فنفى إلى جزيرة إلبا ، ثم عاد إلى فرنسا لبذل آخر سهم فى جيبته فى ١٨١٥ ، ولكنه هزم فى وأترو على يد جيوش الحلفاء من بريطانيين وبروسيين وبلجيكيين .

لقد تبددت القوى التى أطلقتها الثورة الفرنسية من عقابها وذهبت أدراج الرياح ، والتأم بمدينة فيينا مؤتمر عظيم للحلفاء الظافرين يستهدف أن يجد جهد المستطاع الظروف التى مزقتها الزوبعة العظيمة كل ممزق . وأسفر المؤتمر عن احتفاظ أوروبا مدة تقارب الأربعين عاماً بنوع من السلام الناجم عن تبدد القوى وتشتت الجهد .

## الفصل السادس والخمسون

### السلم الأوربي المقلقل بعد سقوط نابليون

حال مبيان رئيسيان دون استتباب السلام الاجتماعى والدولى خلال هذه الفترة ، ومهدا السيل لدورة الحروب التى نشبت بين عامى ١٨٥٤ ، ١٨٧١ ، وأول هذين الأمرين هو ميل البلاطات الملكية صاحبة الشأن إلى إعادة الامتيازات المحسنة بالشعوب وإلى التدخل فى حرية الفكر والكتابة والتعليم ، وثانيهما هو تلك الحدود العقيمة المستحيلة التى رسمها ساسة فيينا .

وقد تجلّى فى إسبانيا أولا بأوضح صورة جلية ميل الملكية التأصل إلى العودة إلى الأحوال والأوضاع القديمة البائدة ، وإذا عى تميدها جميعاً حتى محاكم التفتيش نفسها . ومن قبل ذلك فى وراء الأطلنطى كانت المستعمرات الإسبانية قد حذت حذو الولايات المتحدة ، واثارت على نظام الدول العظمى الأوربى ، عند ما نصب نابليون أخاه جوزيف على عرش إسبانيا فى ( ١٨٠٨ ) . وكان الجزائر بوليفار منقذ أمريكا الجنوبية من نير الأوربيين شأن جورج واشنطن فى الشمال . ولم تستطع إسبانيا أن تقف على هذه الثورة ، فطال أمدها بغير ثمرة مثلما طال أمد حرب استقلال الولايات المتحدة من قبل ، حتى اقترحت النمسا فى النهاية تمسها منها مع روح « المحالفة المقدسة » وجوب مساعدة ملوك أوروبا لإسبانيا فى ذلك الكفاح ، فلقى ذلك الاقتراح معارضة من بريطانيا ، ولكن الذى قضى نهائيا على اقتراح إرجاع سلطان الملكية ذلك ، هو التصرف السريع الذى اتخذته مونرو رئيس الولايات المتحدة فى ١٨٢٣ حين حذرهما منية ذلك الاسترداد ، فإنه أعلن أن الولايات المتحدة تمد كل تدخل من جانب الدول الأوربية فى نصف الكرة الغربى عملا عدائيا ، وهكذا نشأ مذهب مونرو ، القاضى بآلا توجد بأمريكا دولة تابعة لأخرى خارج أمريكا ، وهو الذى أبجد نظام الدول العظمى عن أمريكا مدة تربو على مائة سنة ، وأتاح لدول أمريكا الإسبانية الجديدة أن تصوغ مصائرهما على الطريقة التى تريدها لنفسها .

ولكن الملكية الإسبانية وإن فقدت مستعمراتها ، فقد كانت تستطيع على الأقل أن

تعمل ماثاء في أوروبا تحت حماية الضامن الأوربي، لذا تولى جيش فرنسي سحق حركة عصيان شمعية ثبت بإسبانيا في ١٨٢٣ . إذ سحقها بتفويض من مؤتمر أوربي، وراحت النمسا في نفس الوقت تقمع ثورة اندلعت في نابلي .

وقد توفي لويس الثامن عشر في ١٨٢٤ وخلفه شارل العاشر . وكرس شارل كل جهوده للقضاء على حرية الصحافة والجامعات ، وإعادة الحكم للطلق إلى نصابه ؛ فأقرت الجمعية اعتماد مبلغ بليون من الفرنكات تعرضاً لقتلاء عما حل بهم في ١٧٨٩ من حرق قصورهم ومصادرة أموالهم . وما لبثت باريس أن ثارت في ١٨٣٠ على ذلك الملك الذي تمثلت فيه كل مظاهر العهد البائد ، وأحلت محله على العرش لويس فيليب بن فيليب دوق أورليان ، أحد النبلاء الذين أعدموا في عهد الإرهاب ، ولم تستطع الملكيات الأخرى بالقارة الأوربية التدخل في هذه الحالة لما شهدته من استئصال بريطانيا الصريح لتلك الثورة ، ولما آتته من وجود حركة تحرر وتسامح بألمانيا والنمسا . هذا إلى أن فرنسا كانت لا تزال - قبل كل شيء - محتفظة بنظامها الملكي . وقد بقي هذا الرجل لويس فيليب ( ١٨٣٠ - ١٨٤٨ ) ثمانية عشر عاما ملكا دستوريا لفرنسا .

تلك هي التقلبات القلقة التي كانت تبعث بقرارات مؤتمر فيينا ، والتي أثارتها من مكنتها تصرفات الملكيين الرجعية . فظلت التورات التي تمخضت عنها التخوم غير للدروسه عليا التي وضعا الديبلوماسيون في فيينا يشتد عودها من أن لأن ، ولكن خطرهما على سلام الإنسانية كافة كان أعظم كثيرا . ذلك أن من أهد الأمور جلبا للتنازع على رؤوس الحكومات أن تتولى أمور شعوب تسكلم لغات مختلفة وتقرأ بالتبعية آدابا لغوية متباينة ومعتقد أفسكارا عامة متفاوتة ، خاصة إذا زادت للنازعات الديلية من شر هذه الفوارق . وليس هناك إلا شيء واحد يستطيع تبرير ربط شعوب متباينة في لغاتها وعقائدها ربطاً وثيقاً هو قيام مصلحة مشتركة متبادلة بينهم كحاجات المفاعل المشترك عند السويسريين الجبلين ؛ بل إن سويسرا نفسها يقوم فيها الاستقلال الذاتي المحلي إلى أبعد حد . على أن نظام الكاتونات يكون أئزم وأوجب إذا كانت البلاد قطرا كقندونيا يختلط السكان فيه في رقع صغيرة من القرى والأحياء المتباينة الأجناس . ولو أن القاري نظروا إلى قارة أوروبا كإقليمها مؤتمر فيينا ، لشهد بعين رأسه أن ذلك المؤتمر كان كمن لا يهدف إلا إلى استئثاره أشد أنواع الاستياء المحلي في كل ناحية مستهايمه .

دمر ذلك المؤتمر جمهورية هولنده بدون مبرر . وكس في كتلة واحدة كلا من

الهولنديين البروتستانت مع الكاثوليك الناطقين بالفرنسية ، والساكسون بالأراضي الإسبانية القديمة ( والنمسية أيضاً ) ، وأقام منها مملكة الأراضي المنخفضة . ولم يقتصر على أن يسلم للنمسيين الناطقين بالألمانية ، جمهورية البندقية القريبة ، بل وشمال إيطاليا ، كله حتى مدينة ميلانو . ثم جمع مقاطعة ساقوى الفرنسية اللغة مع أجزاء من إيطاليا ، وأحيا من جديد مملكة سردينيا البائدة . فأما دولة النمسا والمجر وهما من قديم الزمان خليط متعرج من القوميات المتناحرة من الألمان والمجر والتشيكوسلاف والكروات واليوغوسلاف والرومانيين فضلا عن الإيطاليين الذين ضموا إليهم آنذاك - فقد أصبح الموقف فيها أصعب وأعسر حين أقر المؤتمر ضم الممتلكات التي استقطعتها النمسا من بولندا في ١٧٧٢ ، ١٧٩٥ ، وأقر المؤتمر أيضاً تسليم الشطر الأعظم من الشعب البولندي الحر الكاثوليكي القبيدة الجمهورى الزعة إلى الحكم الأقل حضارة ، حكم قيصر روسيا صاحب العقيدة الأرثوذكسية اليونانية ، غير أن روسيا البروتستانتية استولت بدورها على نواح هامة من ذلك القطر التمس . وأقر المؤتمر أيضاً استيلاء القيصر على بلاد الفنلنديين الأجانب عنه تماما . وربط شعبي السويد والنرويج المختلطين تمام الاختلاف ، بضمهما إلى بعض في ظل عرش واحد وسيلفظ القارىء أن ألمانيا تركت في حالة من الفوضى والارتباك لها خطورتها التامة . فإذن كلامنا بروسيا والنمسا كانت داخلة جزئيا في اتحاد ألماني وخارجة جزئيا عنه ، وهو يضم العدد الجهم من الولايات الصغرى ، وأصبح ملك الدانمرك عضوا في الاتحاد الألماني بسبب بضع ممتلكات ناطقة بالألمانية في هولشتاين وقت في حوزته . وألحقت لوكسمبرج بالاتحاد الألماني وإن كان حاكمها ملكا للأراضي المنخفضة أيضاً ، مع أن كثيراً من شعوبها كانوا يتكلمون الفرنسية .

وهنا أغفل المؤتمرن إغفالا تاما حقيقة واضحة للعيان : هي أن الأقوام الذين ينطقون بالألمانية ويعتمدون في تمسكيرهم على الثقافة الألمانية ، وأن القوم الذين يتحدثون بالإيطالية ويعتمدون في تمسكيرهم على الثقافة الإيطالية والقوم الذين يتحدثون بالبولندية ويعتمدون في تمسكيرهم على الثقافة البولندية ، سيكونون دون أدنى ريب أسعد حالا وأشد عونا لباقي البشرية وأقل ضررا بها إذا هم أداروا شئونهم الخاصة على الطريقة التي يرتضون وفي حدود لغتهم القومية ، فلا غرابة إذن أن تعلن أغنية من أحد ماذاع في ألمانيا من الأغاني الشعبية في تلك الأيام أنه « حينما نطق اللسان الألماني ، فذلك أرض الأجداد الألمانية » .



وقد حدث في ١٨٢١ أن شق اليونان عصا الطاعة على الترك ، وظلوا يقاوتهم حرب الحياة أو الموت ، والحكومات الأوربية واقفة موقف المتفرج . واحتج الأحرار على الجحود الذي يقبى في أوربا ؛ واتثال المتطوعون أفواجا من كل بلد أوربي للانضمام إلى العصاة ، وأخيراً اتخذت بريطانيا وفرنسا والروسيا خطوة مشتركة فضالة فدمر الإنجليز والفرنسيون ، الأسطول التركي المصرى بمركبة نوارين ( ١٨٢٧ ) ، واجتاح القيصر حدود تركيا . وأعلنت معاهدة أدونة ( ١٨٢٩ ) حرية بلاد اليونان واستقلالها ، ولكن لم يسمح لها بأن تستعيد من جديد تقاليدھا الجمهورية الحقيقة ، والنمس لليونان ملك ألماني هو الأمير أوتو البافاري ، كما عين لولايات الدانوب ( وهي بلاد رومانيا الحالية ) حاكم مسيحي ، ونصب آخر على بلاد الصرب ( وهي جزء من المنطقة اليوغسلافية ) . ومع ذلك لم يكن بد من إراقة الشيء الكثير من الدماء قبل طرد الأتراك نهائياً من تلك الأصقاع .

## الفصل السابع والخمسون

### نمو العرفان المادى

فى أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، وبينما منازعات الدول والأمراء هذه يهدر هديرها وتزلزل زلازلها فى أوربا ، وبينما الخريطة المرقعة التى أنشأتها معاهدة وستفاليا فى ١٦٤٨ تتحول بصورة عجيبة ككتلبات رمل الصحراء إلى خريطة معاهدة فيينا ( ١٨١٥ ) المرقعة هى أيضاً ، وبينما السفينة الشراعية تبسط النفوذ الأوروبى على أرجاء العالم قاطبة ، كان يدارج ذلك فى العالم الأوروبى وما اصطبغ بصباغه من بلاد ، نمو مطرد فى المعرفة وتنقية عامة لأفكار الناس وآرائهم المتصلة ، بهذا العالم الذى فيه يعيشون .

تواصل هذا النمو وتلك التنقية بمعدل تام عن الحياة السياسية وإن لم يتجلى فى تلك الحياة طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر أية ثمرة أخذاً مباشرة . ثم إنهما لم يؤثرا فى الفكر الشعبى تأثيراً عميقاً فى أثناء تلك الفترة ذلك أن تلك النتائج لم تظهر إلا فيما جدد ، بل لم تظهر إلا وهى على أتم قوتها - فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . إن الذى حدث إنما هو عملية جرت بصفة رئيسية بين جدران عالم صغير من رجال موسرين ذوى أرواح حرة مستقلة . ولولا وجود تلك الشخصية التى يسميها الإنجليز « بالسيد » المحتلمان ، لما بدأت العملية العلمية بيلاد الإغريق قط ، وما أمكن تجديد تلك العملية بأوروبا أبداً . ولست الجامعات دوراً فى هذا الشأن ، ولكنها لم تقم بالبور الأول الرئيسى ، فى الفكر الفلسفى والعلمى لتلك المسدة . والمتعلم الذى يتلقى الهبات المالية يجمع إلى الجبن والحفاظة على القديم وتوذه روح الابتكار والبادأة ويقاوم كل تجديد ، ما لم يحفزوه الاحتمالك بالعقول الحرة المستقلة .

وقد ذكرنا من قبل أن الجمعية الملكية تكونت فى ١٦٦٢ ، ولحظنا ما أنجزته فى سبيل تحقيق أحلام باكون فى كتابه الأطلانطس الجديد . وتواصل إبان القرن الثامن عشر الشيء الكثير من تنقية الأفكار العامة عن : - المادة والحركة ، كما تم الشيء



الكثير من التقدم الرياضى ، ونمو منتظم فى استخدام العدسات فى كل من المجهر والرقب ( الليكروسكوب والتلسكوب ) وتجديد للهمة للبنوة فى تصنيف التاريخ الطبيعى وتبويبه ، وامتاش عظيم فى علم التشريح ، وفى تلك الحقبة أيضاً بدأ علم الجيولوجيا ( طبقات الأرض ) الذى تكمن به أرسطو وتوقعه ليوناردو دافنشى . ( ١٤٥٢ - ١٥١٩ ) ، يذلل جهوده الكبيرة فى تأويل سجل الصخور .

وظهر أثر استخدام طرائق علم الطبيعة فى علم المعادن . وعاد تقدم علم المعادن بالفضل المعين على المخرعات العملية ، حيث يسر معالجة قطع من المعادن وغيرها من المواد أكبر وزناً وأصغرها . وظهرت مكنت ذات مميزات جديدة وبكثرة لم يسبق لها مثيل ، فأحدثت فى الصناعة انقلاباً هائلاً .

واستطاع تريفيثيك فى ١٨٠٤ أن يكيف آلة جميعى واط البخارية لمستلزمات النقل والحركة ، وبذلك صنع أول فاطرة بخارية . ولم يلبث أول خط حديدى أن افتتح فى ١٨١٦ بين ستوكن ودارلنجن ، وإن بلغت سرعة القاطرة « روكت » التى صنعها جورج ستيفنسن أربعة وأربعين ميلاً فى الساعة ، وهى تجر وراءها قطاراً من العربات زنته ثلاثة عشر طناً . وتكاثر السكك الحديدية منذ ١٨٣٠ . فلم يتصف القرن حتى كانت شبكة من السكك الحديدية قد انتشرت بكل أرجاء أوروبا<sup>(١)</sup> .

وهنا حدث تغير فجائى فى ناحية زعم الناس منذ أمد بعيد أنها ثابتة مستقرة ، هى أقصى سرعة يستطيع النقل على الأرض بلوغها . وقد سار نابليون من فلنا إلى باريس بعد هزيمته فى روسيا فى مدة ٣١٢ ساعة . قطع فيها ما يبدى ١٤٠٠ ميل وكانت تحت خدمته كل ما يستطيع تقديمه الملك من « يزات » ، فلم تزد سرعته فى المتوسط مع ذلك عن خمسة أميال فى الساعة . وما كان الراكب العادى يستطيع أن يقوم بتلك الرحلة فى نصف تلك اللدة مهما تسجل . وكانت تلك هى بالتقريب السرعة القصوى نفسها فى السر بين روما وبلاد الغالة فى القرن الأول لليلادى . ثم ظهر التغير المائل على حين بقتة . وبفضل السكة الحديدية خفضت مدة هذه الرحلة لأى راكب عادى إلى ما دون ثمان وأربعين ساعة ، ومعنى ذلك أنها خفضت للسافات بأوروبا إلى نحو عشر ما كانت

---

(١) أنفأت مصر تانى خط للسكك الحديدية فى العالمين القاهرة والإسكندرية ١٨٥٢ [الترجم]

عليه . ويسرت القيام بالأعمال الإدارية وشئون الحكم في مساحات أكبر عشر مرات من التي كان في الإمكان إدارتها في الماضي على يد إدارة مركزية واحدة . ولم يدرك الناس حتى الآن للفرزى التام تلك الإمكانية ، ذلك أن أوروبا تقطع أوصالها حدود ونجوم رسمت في عصر الحصان والطريق ، على أن السكة الحديدية كان لها بأمريكا أثر مباشر فزال . فقد كان معناها بالولايات المتحدة التي تزحف في بطن غربا ، إمكان الاتصال الدائم بواشنطن ، مهما بعد موضع النجوم الجديدة التي تتقدم في كل آن بأرض الفارة ، بل كان معناها هو الوحدة ، التي تصان على نطاق لم يكن يتحقق أبدا لولا القطار .

وكان الزورق البخاري على كل حال سابقا قليلا على القاطرة البخارية في مراحلها الأولى ، فإن زورقا بخاريا هو « شارلوت دنداس » كان يخرقنا خليج الكلايد في Firth of Clyde في ١٨٠٢ ، وكان لأمره يكي اسمه فالتون باخرة أسماها كليرمونت بها آلات من صنع بريطانيا ، وتعمل في أعالي نهر الهدسون وراء نيويورك ، وكانت أول باخرة أُنزلت إلى البحر أمريكية أيضا هي الفينكس ، التي كانت تلتقل بين نيويورك ( هو بوكن ) وفيلادلفيا ، وكانت أول سفينة شراعية زودت بالبخر ( إذ كان بها قنوع أيضا ) عبرت المحيط الأطلسي ( ١٨١٩ ) واسمها السافانا — أمريكية هي الأخرى ، وكل هذه السفن لا تخرج عن زوارق تستخدم العجلة الرافعة<sup>(١)</sup> ، وليست سفن الرافعات بقادرة على شق عباب البحار الهائجة الأمواج . فإن مجاديف العجلة تتعطل بغاية السهولة ، وعندئذ يصبح للركب ضعيفا عاجزا عن كل حركة ، ثم جاء دور السفينة البخارية ذات الدافعة اللولبية على شيء من البطء . وإذ لم يكن بد من التغلب على كثير من الصعاب قبل أن تصبح الدافعة اللولبية وسيلة عملية مثمرة . ولم تستطع محاولة السفينة البخارية البحرية التنويع على محاولة السفينة الشراعية إلا وقد انتصف القرن . ومن بعدها سار التطور في الملاحة البحرية بخطى سريعة ، ولأول مرة في التاريخ أخذ الناس يعبرون البحار والمحيطات وهم على شيء من التأكد من موعد وصولهم ، فإن عبور الأطلسي الذي كان إلى حين قريب مغامرة غير مأمونة العواقب ، تمتد إلى أسابيع عديدة ( ربما وصلت إلى شهور ) لم تزل تنقص مدته بفضل زيادة السرعة حتى وصلت في ١٩١٠ ، في حالة أسرع البواخر ، إلى أقل من خمسة أيام ، مع إمكان تحديد ساعة الوصول تقريبا .

---

(١) العجلة الرافعة أو الدولاب الدالي : عجلة ضخمة تدفع السفينة بواسطة ألواح مثبتة عموديا على عجلتها والألواح تدفع الماء عندما تدور العجلة [ للترجم ]

وفي الوقت الذي تطور فيه النقل البخاري براً وبحراً ، ونشأت وسيلة أخرى جديدة . أخاذة أضيفت إلى عوامل الاتصال بين الناس كنتيجة لأبحاث فولتا وجالفاني وفاراداي في مختلف أنواع الظواهر الكهربائية . فظهر التعرف الكهربى على مسرج الوجود في ١٨٢٥ . ومد أول سلك بحرى « كابل » برق تحت البحر في ١٨٥١ بين فرنسا وانجلترا ، وماهى إلا بضعة سنين حتى عم نظام البرق العالم للمدن بأكمله ، وحتى امت . الأخبار التي كانت إلى حين تنطلق من نقطة إلى نقطة بمنتهى البطء والتلكؤ تعرف في كل أرجاء الأرض في وقت واحد تقريباً .

ولامراء أن هذه الاختراعات : القاطرة البخارية والبرق الكهربى ، تبدت لأخيلة الناس في منتصف القرن التاسع عشر مخترعات رائعة بل معجزات خارقة ، على أنهما لم تكونا إلا باكورتين بارزتين قيسيتين في بستان ضخم تم فيه عملية أعظم وأوسع كثيراً . فإن المعارف والمهارة الفنية التطبيقية ( Technical ) أخذت تنمو وتنبض بسرعة خارقة وإلى درجة خارقة أيضاً بالقياس إلى ماتم قبل ذلك في كل عصر . مضى . وثمة شيء كان يبدو في البداية أقل بروزاً بكثير في حياة الإنسان العادية ولكنه كان في النهاية أهم كثيراً من أى شيء آخر ، وهو امتداد يد الإنسان وسلطانة على مواد أساسية متنوعة مكونة لمواد أخرى . مثال ذلك أن معدن الحديد كان يستخلص من خامات الحديد بواسطة الفحم للمنوع من الحش ، وتتخذ منه القطع الصغيرة ثم يطرُق ويعطى الشكل المطلوب . فعند ذلك كان الحديد مادة لا يستخدمها إلا صانع فنى وعندئذ كانت جودة الصنف وطريقة للمعالجة تعتمد على خبرة وحكمة الحداد الفرد . ولم تكن أعظم كتلة من الحديد يمكن معالجتها في مثل تلك الظروف ليزيد في أقصى الحالات حجماً ( في القرن السادس عشر ) على طنين أو ثلاثة ( فمن الطبيعي إذن أن يكون لحجم المدافع حد أقصى لا يتعداه ) وجاء تنور الصهر الموائى في القرن الثامن عشر وزادت قوته باستعمال الكوك . على أنك لا تجد ألواح الحديد للسحوبة بين الإسطوانات الضاغطة [الدرافيل] إلا في القرن الثامن عشر ( ١٧٢٨ ) ، كما لا توجد أسياخه وقصبانه للسحوبة بين تلك الإسطوانات نفسها إلا في ( ١٧٨٣ ) . كما أن مطرقة نازميت البخارية لم تخترع إلا أخيراً في ١٨٣٨ .

وقد حرم العالم القديم نعمة استخدام البخار لا محطاه في كل ما يتصل باستخراج المعادن . وصناعتها . فلم يكن من المستطاع التهوض بالآلة البخارية ، بل حتى بالمضخة البدائية .

إلا بعد ظهور ألواح الحديد . ولو شهدت العين المصرية تلك الآلات الأولى لرات فيها قطعاً من الحردة قيعة الصورة مستوجبة للرثاء ، ولكنها كانت أقصى ما بلغه علم المعادن آنذاك من تقدم ، ثم جاءت طريقة بسمر متأخرة في ١٨٥٦ ، وما لبثت أن تلتها على الفور ( ١٨٦٤ ) طريقة الفرن المفتوح القدي كان في إمكانه صهر الصلب وكل أنواع الحديد وتنقيتها وصبها على شاكلة ونطاق لم يسمع الناس بمثلهما أبداً ، ولو نظرت اليوم إلى القرن الكهربى لرايت أطنانا من الفولاذ المتوهج المبيض من شدة الحرارة وهى تضى وتهدر غليان اللب في إنائه ، وليس في الإمكان أن تقاس ثمار شىء بما أحرز الإنسان في الماضى من تقدم ، بما ترى من تحمكه للطلق في كتل ضخمة من الفولاذ والحديد بل وعلى قوامها وتكوينها . وفي الحق أن السكك الحديدية والآلات القديمة بمختلف أنواعها ، لم تكن إلا الانتصارات الأولى للطرائق الحديثة في معالجة المعادن . وسرعان ما ظهرت السفن المصنوعة من الحديد والصلب ، كما ظهرت الكبارى الفولاذية الضخمة ، فضلاً عن طريقة جديدة للبناء بالصلب على نطاق هائل جداً ، وأدرك الناس في وقت متأخر جداً أنهم أنشأوا سككهم الحديدية على قضبان تتجلى في المسافة بينها الخشية والتخوف ، وأنه كان في إمكانهم أن يحلوا أسفارهم أثبت وأقل رجرجة وتعباً وأحفل بالراحة والسرور لو أنهم زادوا كثيراً في المعايير .

وقبل القرن التاسع عشر لم تكن بالعالم سفن تزيد حولتها كثيراً على ألفى طن ، أما اليوم فليس هناك أى عجب في باخرة حولتها خمسون ألفاً ، ومن الناس من يسخر هذا النوع من التقدم ويرمونه بأنه تقدم في العجم ليس غير ، ولكن تلك السخرية تسهم بقصور العقل ، ذلك أن السفينة الكبيرة أو البناء الضخم ذا الإطار الفولاذى ليسا كما يتوهمون صورة مضخمة من سفينة الماضى الصغيرة أو بنائه الصغير ؛ وإنما هاشى مختلف عن سابقه في النوع ، كما أنه أخف حملاً وأقوى بناء ومواده التى تصنع منها أمتن وأنقى ؛ مما شىء لا يقوم على السوابق الموروثة ولا الطرق العملية السبعة غير العملية ، بل على الحساب الدقيق المقدر . كانت المادة في المنزل القديم أو السفينة القديمة هى المتسلطة ، إذ لم يكن يد من تحرى مستلزمات السادة ونوعها والتمشى معها تمشياً أعمى ؛ أما في الموقف الجديد فقد قبض الإنسان على المادة وأخضعها لإرادته ، وبذلك في تكوينها ما شاء له علمه . تصور ذلك الفحم والحديد والرمل ، التى استخرجت من الهاجر والنجم

كيف تمتد إليها يد الإنسان وعلمه بالاستخراج والتشغيل والصر والصب . وإذا هي  
برج رشيق من الفولاذ والبلور ، ويعلو المدينة المزدهجة بأكثر من ستمائة قدم ١٩

ولم نسق هذه التفاصيل لتقدم الإنسان في دراسة الفولاذ وما ترتب عليها إلا على  
سبيل التمثيل . والإيضاح ولو شئنا لقصصنا عليك قصة مماثلة لهذه عن تسلط العلم على  
معدنى النحاس والقصدير ، بل وعلى طائفة جمة من المعادن ، لم تعرف قبل بزوغ فجر  
القرن التاسع عشر . ولا نذكر منها إلا اثنين فقط هما النيكل والألومنيوم ، وهكذا  
لم يحظ الانقلاب الميكانيكى بما بلغه حتى الآن من انتصارات ضخمة ، إلا بفضل هيمنة  
الإنسان العظيمة للترابذة على المادة ، على مختلف أنواع الزجاج ، وعلى الصخور  
والجبس والمصيص وما إليها ، وعلى ألوان المواد وتكوينها ، ومع ذلك لما زلنا في هذه  
المبادئ عند مرحلة الثمار الأولى والتباشير لم تتجاوزها . أجل إن القوة أصبحت ملك  
يملئنا ، ولكن بقي علينا أن نعلم كيف نستخدم قوتنا تلك ، ثم إن الشيء الكثير  
من استخدامنا الأول لهبات العلم السخية هذه كان في البداية سويقاً ، ينطوى على الدوق  
القيسح أو الصباء أو الفظافة ، ولم يكذ الفنان والمهندس المنفذ يتجاوزان بعد مرحلة  
الابتداء الأولى في الامتداد تلك الأنواع التى لاحصر لها ولا نهاية من المواد التى  
أصبحت اليوم تحت تصرفها .

واطرد تموعلم الكهرباء إلى جوار هذا الاتساع الكبير في الإمكانيات الميكانيكية ،  
ولم يصرع هذا العقل من حقول الأبحاث أن يؤتى ثماراً كان لها في عقول الناس أثر  
عميق إلا في ثمانينات<sup>(١)</sup> القرن التاسع عشر ، وإذا بالعلم يغاجأ بالنور الكهربى ،  
والجر الكهربى ، كما بدأ يقسرب للأذهان كافة أن فى الإمكان نقل القوة ، أى إرسال  
قوة يمكن بالإرادة تحويلها إلى حركة ميكانيكية أو ضوء أو حرارة ، عن طريق سلك  
من النحاس . كما ينقل الماء فى الأنابيب .

كان البريطانيون والفرنسيون فى بادئ الأمرها الشعلان اللذان سبقا غيرها فى  
مضمار تكاثر المعرفة ذلك ؛ ولكن مانصب الألمان الذين تلقوا درساً فى البلة على يد  
نابليون أن أبدأوا من الحية والمثابرة فى الأبحاث العلمية ما جعلهم يدركون هؤلاء الرواد  
ويسبقونهم ، وكان العلم فى بريطانيا إلى حد كبير من ابتكار رجال من الإنجليز  
والاسكتلنديين الذين يعملون خارج نطاق اللوذعية والإحاطة المألوف .

(١) ثمانينات القرن : هى عقده الخامس من ١٨٨٠ إلى ١٨٨٩

وكانت جامعات بريطانيا في ذلك الحين في حالة تدهور تروى ، وقد صرفت جل همها في إظهار الحضقة ، والإحاطة بالآداب اللاتينية واليونانية القديمة ، وكذلك شأن التعليم في فرنسا إذ كانت تسوده تقاليد الآداب القديمة على يد مدارس الآباء اليسوعيين ( الجوزيت ) ، لذا لم يصعب على الألمان أن يلبثوا هيئة من الباحثين ، ربما كانت صغيرة بالقياس إلى ما في الأمر من إمكانيات ، ولكنها ضخمة بالنسبة إلى تلك الفئة الصغيرة من المخترعين والمجربين يريطانيا وفرنسا وأصحاب البحث التجريبي فيهما . ومع أن هذه الأبحاث والتجارب قد جعلت بريطانيا وفرنسا أقوى دول العالم وأغناها ، فإنها لم تعد على رجال العلم والاختراع بثروة ولا قوة .

فإن رجل العلم المخلص لعمه يعيش بالضرورة في حو من الزهد في الدنيا ؛ فهو من الانشغال بأبحاثه العلمية بحيث لا يجد مجالاً لتدبير الخطط في المشروعات لجمع المال عن طريقها . ولذا فصرعان ما يقع استئثار اختراعاته الاقتصادية بناية السهولة وبطريقة طبيعية جداً في قبضة طراز من الناس أميل إلى اكتناز المال ؛ لذا نرى في تاريخ بلادنا أن كل طبقة جديدة من الأغنياء أبرزها يريطانيا العظمى كل دور جديد من أدوار التقدم العلمي والملي كانت تقنع تماماً بأن تترك الأوزة التي تبيض لها بيضة الذهب تضوى من الجوع إن لم تبذ منها تماماً نفس تلك الرغبة الجامحة التي أبداه علماء الدراسات الكلامية<sup>(١)</sup> ورجال الدين يريطانيا نحو إهانة تلك الأوزة القومية وقتلها . فلقد زعموا أن للكشفيين والمخترعين يظهرهم بالطبيعة ليستفيد من ورأهم من يفوقهم ذكاء .

وكان الألمان من هذه الناحية أكثر تحكماً للعقل ، فإن علماء الألمان النظريين لم يظهرُوا نحو العلم الجديد مثل تلك البضاء العنيفة . لذا سمحوا له بأن ينمو ويتطور . ثم إن رجال الأعمال وصاحب الصنع لم يستشعروا محور رجل العلم الحديث نفس الاحتقار الذي خاضه منافسهما البريطاني . وأدرك هؤلاء الألمان أن المعرفة ربما كانت محصولاً يزرع ويستجيب للحضبات . لذا زلوا فعلاً لرجل العلم عن معين من فرصة الثراء ؛ وكانت ميزانية مصروفاتهم العامة على البحث العلمي أعظم نسبياً ، كما أن جميع ما أنفقوه كان يعود عليهم بموفور الجزاء . وإذا برجل العلم في ألمانيا يجعل لنته الألمانية في النصف الثاني من القرن

---

(١) يقصد بالدراسات الكلامية دراسة الفلسفة والعلوم اليونانية واللاتينية وتسمى أحياناً بالفلسفة المدرسية .

التاسع عشر لغة ضرورية لا يستغنى عنها كل دارس للعلوم يريد أن يظل ملماً بأخبار ما أنتجته العقول في ناحية تخصصه وثمة فروع جينها وبخاصة الكيمياء ، أحرزت فيها ألمانيا تفوقاً عظيماً جداً على جاراتها الغربيات . ولم تظهر آثار الجهد الألمانية إلا باستينات وسبينات القرن<sup>(١)</sup> ، بل بعد الثمانينات ، وظل الألمان من ثم يتفوقون باطراد على بريطانيا وفرنسا في ميادين التقدم الفنى والصناعى .

وجاءت بداية مرحلة جديدة في تاريخ العلم والاختراع عندما ظهر في ثمانينات القرن طراز جديد من الآلات ، وهى آلات حلت فيها قوة تمدد خليط متفجر ، محل قوة تمدد البخار . وأدخلت الآلات الحقيقة العظيمة الكفاية التى أمكن منها بفضل هذا الاختراع إلى السيارات ، وما زال العلم يتطور بها حتى بلغت فى النهاية ذروة من خفة الوزن والكفاية جعلت الطيران - الذى عرف الناس من قديم الزمان أمثله - ممكناً . من الأمور الواضحة المحققة . فلن لأعجل الأستاذ بمحمد سميصن بواشنطن صنع فى ١٨٩٧ ، آلة تطير بنجاح ، وإن لم يتسع حجمها لحمل جسم كائن بشرى . ثم أصبحت الطائرة صالحة لحمل الإنسان فى ١٩٠٩ . ظهرت الطائرة بعد أن لاحظت فى الأفق فترة توقفت فيها سرعة البشر عن الزيادة بعد إختار السكك الحديدية والنقل بالسيارات على الطريق العام ، ولكن الطائرة جاءت بتخفيض جديد ملحوظ فى المسافة بين نقطة ما على سطح الأرض ونقطة أخرى ، وفى القرن الثامن عشر كانت للمسافة بين لندن وإدنبرة تستغرق ثمانية أيام ، ولكن الذى حدث فى ١٩١٨ أن لجنة النقل الجوى كتبت تقريراً قالت فيه : « إن للمسافة من لندن إلى مليون ، وهى تعادل نصف محيط الأرض . ربما أمكن أن تقطع فى مدى بضع سنوات فى نفس تلك الأيام الثمانية » .

ولكن يبنى علينا أن لا نبالغ كثيراً فى تأكيد هذه التخفيضات الباهرة فى المسافات الزمنية الفاصلة بين مكان وآخر ، لما هى إلا ناحية واحدة من نواحي توسيع الإمكانيات البشرية توسيعاً أبعد غوراً وأعظم شأنًا . مثال ذلك أن علمى الزراعة والكيمياء الزراعية أحرزا خدمات هائلة لهذه تهما فى أثناء القرن التاسع عشر . وبلغ من سعة علم الناس بتخصيب الأرض أن أنتجوا أربعة أو خمسة أضعاف المحاصيل التى كانوا يحصلون عليها من نفس المساحة من الأرض فى القرن السابع عشر . وحدث تقدم فى علم الطب

---

(١) وما البلدان السام والثلث من القرن .

أشد من هذا خروفا لكل معتاد مألوف ؛ فزاد بتوسيط عمر الإنسان ، وزادت كفايته اليومية ، وتناقص ضياع الأرواح بسبب سوء الصحة . . . . .

من هذا كله يرى القارئ أن بين أيدينا ضميراً كلياً في الحياة البشرية بلغ من عمقه وشموله أن خلق مرحلة جديدة في التاريخ الإنساني . ثم هذا الانقلاب للكيانكي في مدة لا تزيد كثيراً عن قرن . وفي تلك اللدة خطا الإنسان في ناحية أحوال حياته للمادية خطوة أوسع من تلك التي خطاها في إنشاء كل الفترة الطويلة الممتدة بين العصر الحجري القديم وعصر الزراعة ، أو بين أيام بيني ملك مصر وجورج الثالث . لقد ظهر إلى عالم الوجود إطار ناموسى هائل أحاط بشئون الإنسان . ولا يخفى أنه يتطلب منا القدر العظيم من إعادة تشكيل مناهجنا وأبالييننا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . بيد أن عمليات إعادة التشكيل تلك قد تولدت بالضرورة عن تطور الانقلاب للكيانكي كما أنها لم تتجاوز بدمر أجلها الاستهلاكية الأولى . . . . .



## الفصل الثامن والخمسون

### الانقلاب الصناعي

تجنىح كثير من كتب التاريخ إلى الخلط بين ما أسمىه « الانقلاب لليكانيكي » الذي هو شيء جديد تماماً في الخبرة البشرية تواءم عن تطور العلم للنظم ونموه ، وهو من ثم خطوة جديدة كاختراع الزراعة أو استكشاف للمعادن سواء بسواء ، وبين شيء آخر تختلف مصادره وأصوله تمام الاختلاف . شيء له من قبل سابعة تاريخية قديمة : هو التطور الاجتماعي وللألى الذي يسمونه « الانقلاب الصناعي » . سارت كلتا العمليتين جنباً إلى جنب ، بل لقد كانتا تتفاعلان إحداهما مع الأخرى ، ولكنهما كانتا مختلفتين أصلاً وجوهراً . لم يكن بد أن يظهر انقلاب صناعى من نوع ما ، ولو لم يعرف الناس الفحم أو البخار أو المكينات ، ولكن لعله كان في تلك الحالة يلزم بدقة أكثر نفس الطريق الذى سلكته التطورات الاجتماعية والمالية التى حدثت في السنوات الأخيرة للجمهورية الرومانية . ولعله كان يكرر على مسامعنا من جديد قصة الزراع الأحرار المجردين من أملاكهم وعصابتهم والعمال والمزارع الضعفة والثروات المالية الطائلة والنظام المالى المدمر للنظام الاجتماعى . وحتى طريقة المصانع نفسها ظهرت في الوجود قبل استعدادات القوة واختراع المكينات . فالمصانع ليست مرة الآلة بل مرة تقسيم العمل ، فكان العمال المدربون المهقون بالكدح والعمل يصنعون أشياء من أمثال قبعات السيدات وعلب الكرتون والآثاث ، ويلبثون الخراط وصور الكتب وما إليها ، قبل أن تستعمل حتى الدواليب للمالية في خدمة الصناعة ، وكان بروما في أيام أوغسطس كثير من المصانع . مثال ذلك : أن الكتب الجديدة كانت تملئ على حشود مصفوفة من النساخين في مصانع باعة الكتب ، وسيرى كل دارس مدقق يقرأ يعلم أن ما كتبه دانيال ديفو وما تحتويه نشرات فيلدهم السياسية ، أن فكرة حشد الفقراء ليعملوا مجتمعين في مؤسسات للوصول على أرزاقهم كانت شيئاً مألوفاً ببريطانيا قبل نهاية القرن السابع عشر . بل إن هناك إشارات تشير إلى وجودها في نفس زمن السير توماس مور وكتابه اليوتوبيا ١٥١٦ . لاجرم أنه كان تطوراً اجتماعياً وليس ميكانيكياً .

والواقع أن تاريخ أوروبا الغربية الاجتماعى والاقتصادى ظل حتى ما بعد منتصف القرن الثامن عشر يتسم من جديد خطى القبولة الرومانية فى القرون الثلاثة السابقة لليلاد .

غير أن تفكك أوروبا ميامياً ، وثوراتها السياسية العنيفة على الملوك ، ومعاناة العامة مضاعفاً إليها على الأرجح قابلية الدكاء الأوروبى الغربى للأفكار والاختراعات الميكانيكية وجهت الموقف وجهات أخرى جديدة تماماً .

ولا شك أن البكرات الداعية إلى تكافل الناس وتماسكهم كانت بفضل المسيحية أوسع انتشاراً فى العالم الأوروبى الجديد ، ولم يكن التفوذ السياسى على مثل هذه الدرجة من التركيز ، ومن ثم أقطع كل رجل نشيط حرص على الإبراء عن فكرة الرقيق وعصابات العمال وتحول بغيره مختاراً لقوة الآلة و « المكنة » .

وغنى عن البيان أن الانقلاب الميكانيكى : عملية الاختراع والاكتشاف الميكانيكية ، كانت شيئاً جديداً فى خبرة الإنسانية بهذه الدنيا ، كما أنها واصلت تطورها غير عابئة بما قد تحدثه من عواقب اجتماعية وسياسية واقتصادية وصناعية ، وذلك فى حين أن الانقلاب الصناعى كان ولا يزال ككل الشؤون الإنسانية - عرضة لتغيرات تزداد فى كل آن عمقاً وانحرافاً بسبب ما يحدثه الانقلاب الميكانيكى فى ظروف الإنسان وأحواله من التغيرات المتواصلة . والواقع أن الفرق الجوهرى بين تكديس الثروات وإفادة طبق صغار الزراع وأرباب الأعمال ، وبين مرحلة المالين الكبار فى أثناء القرون الأخيرة من الجمهورية الرومانية من ناحية ، وبين الحالة الشديدة المائلة لذلك من تركيز رأس المال فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من الناحية الأخرى ، الواقع أن ذلك الفرق الجوهرى ينحصر فى الفرق العميق بين نوعى العمل والعمال الذى تولد عن الانقلاب الميكانيكى .

لقد كان الإنسان مصدر القوة المحركة فى العالم القديم . فكان كل شئ يعتمد اعتماداً تاماً على القوة الدافعة والحركة الصادرة عن سواعد البشر وعضلاتهم : عضلات الجهاد والأذلاء من الناس ، ولسنا نذكر أن قد شاركهم فى ذلك إلى حد قليل عضلات بعض الحيوانات التى جاءت فى صورة الثيران وما تجره والحيل وما تحمله ، إلى غير ذلك . فحينما وجب رفع ثقل من الأهوال كان الرجال هم الذين يرفعونه ، وحينما

استلزم الأمر استخراج صخرة من حجر ، كان الرجال هم الذين يقطعونها ، وحينما  
لزم حرث أحد الحقول حرثه الرجال بمساعدة الثيران ، وكان للركب البخارية نظير  
لدى الرومان هو السفينة القديمة بما تحمل على جوانبها من صلبوف مجدفين يرهقون إلى  
أقصى حد ، لقد كانت نسبة ضخمة من البشر تسخر في عهد الحضارات الأولى في أعمال  
الكسح الضخم الآلى البحت ، على أن الآلات المدفوعة بالقوة لم تبشر في البداية بأى  
أمل في خلاص المكثودين من ذلك الكسح الآلى الذى لا ذكاء فيه ، فكانت فرق  
ضخمة من الرجال تستخدم في تطهير الترع ، وفى شق أفاق المكك الحديدية وعمل  
الجسور على ضفاف الأنهار وما أشبه ذلك وتزايد عدد عمال المناجم زيادة هائلة .  
ولكن اتساع مدى الوسائل الميسرة وإنتاج السلع تزايد أكثر من ذلك كثيراً ،  
وكما تقدم الزمن بالقرن التاسع عشر أخذ النطق الواضح لتوقف الجديد يفرض  
نفسه بصورة أصرح . فلم يجد البشر يطلبون كمصدر للقوة البهيمية دون تمييز . ذلك  
أن ما يستطيع الكائن البشرى عمله بصورة آلى كان شيئاً تستطيع الآلة أن تعله  
بدرجة أسرع وأحسن . فلم يجد الأمر يحتاج للكائن البشرى الآن إلا حيث يجب  
استخدام العقل والذكاء والاختيار . قد سارت الكائنات البشرية تطالب الآن  
ككائنات بشرية ، أما ذلك الكسح الميكانيكى الذى اعتمدت عليه الحضارات السابقة  
جميعاً . ذلك المخلوق الذى عليه الطاعة العمياء ، والذى كان عقله أداة كسنة لا لزوم  
لها ، فقد صار غير ضرورى لصالح البشرية .

وقد انطبق هذا الحال على الصناعات القديمة كالزراعة والتعدين انطباقه على  
أحدث العمليات الحديثة ، إذ ظهرت في ميادين الحرث والبذر والحصاد آلات سريعة  
لتقوم بعمل عشرات الرجال . كانت المدنية الرومانية مؤسسة على كواهل كائنات  
إنسانية زهيدة الأجر ذليلة النفس ؛ أما الحضارة العصرية فيعاد بناؤها على عائق قوة  
ميكانيكية ، رخيصة . وانقضت مائة سنة كانت القوة تزدد في أثنائها في كل يوم رخصاً  
والعامل غلام . فلئن اضطرت المكنت أن تنتظر داخل المناجم جيلين أو ثلاثة حتى  
يحين دورها ، فما ذلك إلا لسبب بسيط ، وهو أن اليد العاملة ظلت رديئة من الزمان  
أرخص من المكنت .

بذلك حدث في حياة الناس انقلاب ذو أهمية قصوى . لقد كان أكبرهم يقف  
منزعج التئى أو الحاكم فى المدن القديمة هو طريقة الحصول باستمرار على ما يكتفيه

من الكادحين الأذلاء . فإذا تقدم الزمن بالقرن التاسع عشر اتضح للأذكىاء أنه لا مفر للرجل العادى من أن يلو عن منزلة الكادح الدليل ؛ إذ لم يكن محيص من أن يتعلم - لكى يحصل على الكفاية الصناعية على الأقل . ولم يكن مندوحة من أن يفهم ما يراد منه . لقد ظل التعليم الشعبى يسرى بأوروبا سريانا وثيدا بطيئا منذ أيام الدعاية المسيحية الأولى ، على غرار ما كان بآسيا حينما قدمت الإسلام ، وذلك لضرورة تفهم المؤمن شيئا قليلا من الفيدة التى مستخلصه فى الآخرة ، وتمكينه من قراءة الشيء القليل من كتبه المقدسة التى تنقل إليه عقيدته تلك . وأفضت المبادلات بين المسيحيين بما انطوت عليه من تسابق لكسب الأنصار ، إلى تهيئة الجو لجنى ثمار التعليم الشعبى العام . مثال ذلك : أن منازعات الطوائف الدينية باجتمعت وحاجتها لكسب الأنصار إبان ثلاثينات وأربعينات القرن التاسع عشر أفضت إلى ظهور مجموعة من منظمات التعليم المزاحمة على الأطفال ، منها المدارس القومية التابعة للكنيسة ، والمدارس البريطانية التابعة للخارجين عليها ، بل حتى المدارس الكاثوليكية الأولية . وكان النصف الثانى من القرن التاسع عشر فترة تقدم سريع فى التعليم الشعبى فى كل أرجاء العالم المنطبع بالطابع الغربى . ولم يسارع هذا التقدم تقدم آخر مماثلة فى تعليم الطبقة العليا لجل حدث شئ من التقدم لاجرم ولكنه لا يتساوى مع الأول بتاتا - وهكذا لم تلبث الهوة العظيمة التى كانت تقسم العالم حتى الآن إلى قلة قارئة وجمهرة غير قارئة ، أن باتت لاتزيد عن فارق فى المستوى التربوى لا يكاد يدرك . ومن وراء هذه العملية كلها يكمن الانقلاب الميكانيكى ، غير عابى ، فى الظاهر بالأحوال الاجتماعية ، ولكنه يلج بإصرار فى الواقع ودون هوادة على أن يقضى تماما فى كل أرجاء الأرض على وجود طبقة مطلقة الأمية .

ولم يفهم أحد من عامة الناس يوما أبدا معنى الانقلاب الاقتصادى ولا أدرك كنهه ، فالواظن الرومانى العادى لم يحس قط بالتغيرات التى يعيش فى كنفها بنفس الوضوح والشمول الذين نشهدهما نحن بهما . أما الاهتلاط الصناعى فكان وهو يدلف فى طريقه قرب نهاية القرن التاسع عشر عملية متكاملة يترأى وضوح تكاملها كشئ واحد للعامة الذين وقوا تحت تأثيرها ، وذلك لأنهم أصبحوا يستطيعون آنذاك القراءة والمناقشة والتراسل ، ولأنهم كانوا يتنقلون فى البلاد ، ويشهدون الدنيا كما لم يشهدوا أمثالهم من قبل .

## افضل الناسخ والمحسنون

### تطور الآراء

### السياسية والاجتماعية المعاصرة

تمت نظم الحضارات القديمة وعرفها وآراؤها السياسية ، وترعرعت يطفء عصرأ بعد عصر دون أن يرسم إنسان لها خطة أو يتبنا إنسان لها شيء ، ولم يحدث إلا في القرن السادس ق . م ، قرن الراهقة العظيم للبشرية ، أن فكر الناس بجلاء في علاقاتهم بعضهم ببعض ، وأن ناقشوا لأول مرة واقترحوا لأول مرة تغيير المعتقدات المستقرة والقوانين السائدة وأساليب الحكومة البشرية القائمة وإعادة تنظيمها .

وقد سبقت الإشارة إلى الفجر التكريي الميذ الذي لاخت تباعيره بأرض يونان وبنديئة الإسكندرية ، وكيف تقوضت للدينات للآلثة للرقبي وتلبدت مماوها بنوم التصعب الذي واستبداد الحكومات للطلق ، مما جعل ذلك الفجر فأسدل على ما تفرق فيه من الآمال ظلمة حالكة . ولم يبدأ نور التفكير الجريء ينفذ من جديد بصورة فعالة خلال ذلك الليل الدامس الذي زان على أوروبا إلا حين أقبل القرنان الخامس عشر والسادس عشر . وقد حاولنا أن نعرض عليك تفتأ بين فضل تلك الرياح العظيمة التي أثارها حب استطلاع العرب وقروح للقول في تبديد بعض ما غشى السماء العقلية لأوروبا من التيوم ، وأول من حظي بالزيادة هو للفرقة للادية بوجه خاص . فكانت أول الثمار التي طابت على الإنسان من استردام إنسانيته مقام مادية أمحرزا وقوة مادية حصل عليها . ذلك أن علم السياسة البشرية ، وعلم النفس الفردي والاجتماعي ، وعلوم الترية والاقتصاد ليست دقيقة وممقنة في حد ذاتها فحسب ، بل هي ترتبط ارتباطاً وثيقاً لا انفصام به بالتيه الكثير من التواخي العاطفية . وقد سار التقدم فيها محطى أبداً ، كما أنه لن يفي معارضة عظيمة . والناس يستمعون بهود تام إلى

أشد الآراء تبايناً حول النجوم أو القدرات ، ولكن الآراء المتصلة بطرائق العيش عندنا تمس كل فرد حولنا ، وتنعكس عليه .

وكما حدث ببلاد اليونان تماماً حيث سبقت تأملات أفلاطون الجريئة بحث أرسطو الرصين عن الحقيقة ، حدث في أوروبا أيضاً أن صبت أول الأبحاث السياسية في للرحلة الجديدة في قوالب قصص « اليوتويا<sup>(١)</sup> » ، التي نقلت مباشرة عن « جمهورية » أفلاطون و « قوانينه » . و « اليوتويا » التي ألفها السير توماس مور محاكاة محمية لأفلاطون كانت نمرتها صدور قانون جديد خاص بالفقراء بإنجلترا . على أن اليوتويا « النابولية » للفيلسوف كاسبانلا للساة « مدينة الشمس » كانت أبعد في آفاق الخيال وأقل ثماراً واقعية .

وعند قرب نهاية القرن السابع عشر نلاحظ ظهور قدر ضخم ومتزايد من المؤلفات في العلوم السياسية والاجتماعية . ومن أوائل الأساطين في حلبة هذه الأبحاث جون لوك ، وهو ابن أحد الجمهوريين الإنجليز ، وعالم من علماء أكسفورد ، وجه عنايته في البداية إلى السكبياء والطب . على أن مقالته التي كتبها في موضوعات الحكومة والتسامح والحرية تكشف عن عقل شديد الوعي والإدراك لإمكانيات البناء الاجتماعي . وظهر في فرنسا شخص يماثل لوك بإنجلترا ، وإن تأخر عنه قليلا ، هو منتسكيو ( ١٦٨٩ - ١٧٥٥ ) ، الذي وضع النظم الاجتماعية والسياسية والدينية تحت عدسة التحليل الدقيق . لقد بلغ من قوة تأثير آرائه في فرنسا أنه خلع ثوب الهيبة السعري الذي كان يجلل الملكية المطلقة ، وهو يشارك لوك في فضل إمطة كثير من الأفكار الزائفة التي ظلت حتى آنذاك تحول دون بذل المحاولات المتعمدة الواعية لإعادة بناء المجتمع الإنساني .

وكان الجيل الذي جاء بعده في الحفقات الوسطى والمتأخرة من القرن الثامن عشر جريئاً في تأملاته العسكرية في موضوعات التنقية الحلقية والعسكرية التي أقام

---

(١) اليوتويا ويسمى العرب « الطوبى » والفارابي « المدينة الفاضلة » : دولة مثالية تنصف نظمها السياسية والدينية والفضالية والاقتصادية بالكمال المطلق .

صروحها ، وراحت طائفة من أذكاء الكتاب ، هي « الموسويون » وكلهم رجل  
 فائز الروح حر النفس متفخرج من مدارس الآباء اليسوعيين ( الجزويت ) ، راحت  
 تضع الحطة لعالم جديد ( ١٧٦٦ ) . وإلى جوار الموسويين نهض الاقتصاديون أو  
 الفيزيوقراطيون ، الذين راحوا يحرقون أبحاثا جريئة وجفة في إنتاج الأطعمة والسلع  
 وتوزيعها ، ووافق مورلى مؤلف « قانون الطبيعة Code de La Nature » بشيد  
 بنظام الملكية الخاصة ، ويقترح تنظيم المجتمع على أسس شيوعية ، فهو البشر الآذن  
 بتلك المدرسة الضخمة المختلفة الفرق والمذاهب من المفكرين الحشديين ( الجماعيين  
 Collectivists ) في القرن التاسع عشر ، الذين نطلق عليهم جميعاً ودون تمييز اسم  
 الاشتراكيين ( Socialists ) .

ما هي تلك الاشتراكية ؟ إن للاشتراكية مائة تعريف وتعريف ، كما أن  
 للاشتراكيين ألف فرقة وطائفة . والاشتراكية لا تخرج في جوهرها عن نقد لفكرة  
 الملكية تحت ضوء المصلحة العامة ، وستعرض الآن بلعجاز شديد تاريخ تلك الفكرة  
 على مر العصور ، فلئلا هي وفكرة الدولية أو الشعبية ( Internationalism<sup>(١)</sup> )  
 هما الفكرتان الرئيسيتان اللتان يدور حولهما الشطر الأعظم من حياتنا السياسية .

وترجع فكرة الملكية إلى ما ركب في الجنس البشري من غريزة المقاتلة ، فقبل  
 أن يكون الإنسان إنساناً حقاً بزمن مديد ، كان جده القرد الأعلى<sup>(٢)</sup> يملك الممتلكات ،  
 والامتلاك البدائي يقوم في الشيء الذي يقاتل من أجله أحد الحيوانات ، فثمة الكلب  
 والقطعة ، والفكرة ووجارها والظبي النافر وسربه ؛ وهي أمثلة للملكية الصارخة ،  
 ولسنا نتصور أن علم الاجتماع به عبارة آله ولا أسخف من قولهم « الشيوعية  
 البدائية » ، ذلك أن الرجل العجوز في قبيلة العائلة في أبكر العصور الحجرية القديمة  
 كان يصير على امتلاكه لزوجاته وبناته وآلاته وعاله المرئى المحيط به ، فلذا جاس أى  
 رجل آخر خلال عاله المرئى قائله ، بل ذبحه إن استطاع .

---

(١) الدولية منقسم سياسي يدعى أنه قائم على مبدأ الأخوة العاملة بين الناس ، ولذا يترج  
 إلى التخلي عن أثر فوارق للمصالح والأخلاق والتكسل ( أو تجاهلها ) التي تهيمن بين الأجانب  
 والأمم .  
 (٢) المؤلف هنا يشير إلى نظرية أصل الإنسان لفارون التي سبق أن أشار إليها في الفصول  
 الأولى من الكتاب .  
 [ للترجم ]

ونمت القيلة على كرم الصور كما أجاد التعبير عن ذلك إنكسرن في كتابه  
« primal Law » ، بفضل تسامح الرجل السجوز بالتدريج إزاء وجود الشبان  
الذين يصغرونه سناً ، وإزاء امتلاكهم للزوجات اللواتي يقتصنهن من خارج القيلة ،  
وإزاء الآلات والخلى التي يصنعونها والصيد الذي يصيدونه ، فكان المجتمع الإنساني  
قد نما بسبب التسهيل المتبادل حول ممتلكات هذا وممتلكات ذاك ، وهو تساهل  
اقتضته الضرورة التي تدعو الرجال إلى التكافل لطرد قيلة أخرى إلى خارج عالمهم  
المرئي المحيط بهم ، فقلن لم تكن التلال والغابات والأنهار أرضى أو أرضك ، لما ذاك  
إلا لأنه قد وجب أن تكون أرضنا ، ولا شك أن كلا منا كان يفضل لو كانت الأرض  
أرضه هو ، ولكن ذلك شيء لا يمكن أن يكون ، ففي تلك الحالة يدمرنا الآخرون ،  
ولذا فإن الجماعة الإنسانية كانت منذ البداية قائمة على تخفيف حدة الملكية ، والامتلاك  
عند الوحش التوحش وعند البدائي شيء أشد حدة مما هو في العالم المتمدن اليوم ،  
فهو أقوى تأصيلاً في غرائزنا منه في عقولنا .

وليس لدائرة الامتلاك لدى التوحش الطبيعي أو الرجل غير المتعلم في عصرنا هذا  
أى حدود تحددها ، فكل ما استطعت أن تقاوم من أجله أمكنك أن تملكه ، سواء  
كان ذلك امرأة أم أسيراً تبقى على حياته أم بهيمة تقبض عليها أم طيرقاً في غابة أم  
عجراً أم أى شيء آخر ، فلما اتسع أفق المجتمع ظهر ضرب ما من القانون لكي  
يحول دون القتال الفناك ، فأصبح الإنسان يضع وسائل بقة مرتجلة للتسوية مشكلات  
الامتلاك ، ويمتنعها أصبح الرجل يستطيع أن يملك أى شيء كان هو أول من صنعه  
أو أمسكه أو ادعاه لنفسه ، وبات يبدو طبيعياً أن كل مدين لا يستطيع سداد دينه  
يلبى أن يصبح ملكاً لهائمه ، ويبادل هذا في بساطته ومتمته الطبيعية زعمهم بأن الرجل  
يلبى له بعد أن يدعى امتلاك قطعة من الأرض أن يمرض على كل من شاء استئصالها  
شيئاً من المال أو العين .

ولم يصرح الإنسان بحس أن تلك الملكية غير المحدودة لأى شيء كانت مثارا للازعاج  
والضايقة إلا بغاية البطء والتدرج ، وحين أشرقت عليه تباعير إمكانيات الحياة المنظمة ،  
فوجد الناس يولدون في عالم يملكه كله الغير أو يدعى ملكيته ، ولبت الأمر اقتصر  
على ذلك وحده ١١ .. فإنهم كانوا يجدون أنفسهم ذاتها مملوك للغير أو يدعى ملكيتها .



ومن العسير علينا الآن أن نتقّب الكفاحات الاجتماعية التي اندلعت في الحضارة  
الباكرة ، على أن التاريخ الذى رويناه عن الجمهورية الرومانية يظهر لنا فيها مجتمعا  
يستيقظ على دوى الديون ، ويثقله إلى أنها قد تصبح مثار الإزعاج والمضايقة للأمة  
كافة ، ولذا فقد وجب تفاؤها ونيلها ، وأن ملكية الأرض بصورة غير محدودة كانت  
على الأخرى تتلوى على المضايقة والإزعاج ، ثم إننا نجد أن بابل حددت بشدة في إمامها  
التأخرة امتلاك الرقيق : وأخيراً نجد في تعاليم ذلك الثورى العظيم يسوع الناصرى من  
المجوم والطمع على الملكية ما لم يحدث من قبل . أليس هو القائل « لأن يبلغ الجمل  
في سم الخياط أسير من أن يدخل الأغنياء ملكوت السموات . » ويلاحظ أن أجواء  
العالم في الخمسة والعشرين أو الثلاثين قرنا الماضية اثلاث بالقدر الدائم التواصل للذى  
الذى يمكن أن يسمح بامتلاكه من الممتلكات . وبعد يسوع الناصرى بقسعة عشر  
قرنا نجد أجزاء العالم التي مسها تعاليم النصرانية من بيد أو قريب مقتنعة بأنه لا يجوز  
للإنسان امتلاك أخيه الإنسان . ونم فكرة أخرى تزلزلت أركانها كثيرا فيما يتعلق  
بأنواع أخرى من الممتلكات . وهي فكرة أن الإنسان حري يستطيع أن يفعل ما يشاء  
فيها يملك .

ولكن ذلك العالم الذى تحدث عنه قرب نهاية القرن الثامن عشر كان لا يزال  
من حيث تلك المسائل في مرحلة الشك والتساؤل والاستفهام . لم يكن قد حصل على  
شئ بلغ القدر السكافي من الوضوح ، فضلا عن أن يبلغ القدر السكافي من الثبات  
والاستقرار ، لكي يطمئن إليه ويبنى على أساسه . فقد كان من بين ما داخله من  
البواعث الأولى وقاية الملكية من شرارة الملوك وتبديدهم واستغلال النبلاء القمامرين .  
لذا كان اندلاع الثورة الفرنسية لغرض رئيس إلى حد كبير ، هو وقاية الملكية الخاصة  
من الضرائب . ولكن مبدأ المساواة الذى اعتنقه تلك الثورة جرفها في تياره فجعلها  
تنتقد الملكية التي نهضت لحمايتها ، فكيف يمكن أن يكون الناس متساوين فيما حشود  
عظيمة منهم لا يملكون أرضاً يتعيشون منها ، ولا طعاما يأكلونه ، كما أن الملك  
يأبون - بالبداهة - أن يطعمهم أو يؤوم ما لم يعملوا ويكدحوا !! واشتدت لذلك  
شكوى الفقراء .

ولم يكن لدى إحدى الجماعات السياسية الهامة من جواب لهذا الفز إلا الشروع  
في التقسيم . لقد شاءوا أن ياتوا في الملكية ويخربوها ، ولكن كانت هناك أيضاً

جماعة الاشتراكيين البدائيين أو الشيوعيين إن شئت تعبيراً أدق - الذين كانوا يريدون الوصول إلى نفس الهدف عن طريق آخر ، والذين أرادوا إلغاء الملكية الخاصة لإلغاء تاماً . فارتأوا أن الدولة ( ومفهوم أنها دولة ديمقراطية طبعاً ) تمتلك جمع الممتلكات .

لذا فمن المفارقات السخيفة أن رجالاً متنوعين يهدفون إلى الهدف نفسه من الحرية والسعادة يقترحون من ناحية جعل الملكية مطلقة إلى أقصى حد مستطاع ، ويقترحون من ناحية أخرى القضاء عليها قضاء مبرماً ، ولكن ذلك هو ما حدث فعلاً . ومفتاح هذا التناقض المعيب يكمن في أن الامتلاك والملكية ليساً شيئاً واحداً بل مجموعة كبيرة من أعياء غثله .

وبتقدم القرن التاسع عشر شرع الناس لأول مرة يدركون أن الملكية ليست شيئاً واحداً ولا بسيطاً ، ولكنها شيء معقد كبير من ملكيات ذات قيم مختلفة وآثار مختلفة ، وأن أشياء ( منها على سبيل المثال جسم الإنسان وأدوات الفنان والسياب وفرشة الأسنان ) إنما هي ممتلكات شخصية إلى أقصى حد وبصورة لا سبيل إلى حلها أو علاجها ، وأن هناك مجالاً عظيماً من الأشياء ، منها مثلاً السكك الحديدية وأنواع مختلفة من المكنات والبيوت والحدائق للزراعة وقوارب الزهرة ، وكل منها تحتاج إلى دراسة خاصة جداً لتحديد للذي والقيود التي تدرج بمقتضاها تحت صنف الملكية الخاصة . وإلى أي حد تقع في الملكية العامة ، ومن ثم يجب أن تديرها الدولة وتؤجرها للناس من أجل مصلحة الجماعة . ومن شأن هذه المسائل أن تتحول حين تطبق عملياً إلى ميدان السياسة ، وإلى مجال مشكلة لإنشاء النظام الإداري للتعهد للدولة ، وصيائمه والحفاظة عليه . وهي تفتح أبواب مسائل تدخل في صميم علم النفس الاجتماعي ، كما أنها تتفاعل مع أبحاث علم التربية . ولذا فإن تعدد الملكية لا يزال عملية اختيار هائلة معتمدة أكثر منه علماً له أصول ثابتة . فكان هناك من جهة دعاة مذهب الفردية (individualists) الذين يطالبون بوقاية بل توسيع حرياتنا الراهنة في التصرف فيما نملك ، وهناك من جهة أخرى أولئك الاشتراكيون الذين يطالبون بتجميع ملكياتنا في كثير من النواحي وبالحد من تصرفاتنا في ممتلكاتنا . ولو نظرت بعين الفاحص إلى الواقع العملي لوجدت

آلافا من درجات الفوارق التي تتصل بين متطرفة الفردين ، الذين لا يكادون يطبقون فرض ضريبة من أى نوع لقبول حكومة من الحكومات ، وبين الشيوعيين الذين ينكرون الملكية إنكاراً باتاً .

والاشتراكي العادى في هذه الأيام يمكن أن يطلق عليه اسم الجماعى ، وهو يرضى بقيام قدر جسيم من الملكية الخاصة ، ولكنه يرى أن يوضع أمثال التعليم والنقل والمناسجم وامتلاك الأرض ومعظم الإنتاج الكبير للمواد الأساسية وما إلى ذلك من شئون في يد دولة على مستوى رفيع من التنظيم . والظاهر لنا فضلاً عن هذه الأيام أن كثيراً من الرجال للقولين قد أخذوا يتجهون بالتدريج نحو الأخذ باشتراكية مستدلة تقوم على الدراسة العلمية والخطوة للدروسه عليا . ذلك أن الناس أخذوا يزدادون إدراكاً أن الرجل غير المتعلم لا يتعاون بسهولة ولا بنجاح في الشئون العظيمة ، وأن كل خطوة تخطى في سبيل إقامة دولة أكثر تعقيداً وكل « وظيفة » تمسكها الدولة من قوى الجهود الخاصة ( Private Enterprise ) لتتولاها بنفسها تقتضى بالضرورة قيام ما يواجهها من التقدم التربوى ، كما تقتضى تنظيم نوع من النقد والضبط والمهينة ، وذلك في حين أن كلا من الصحافة الموجودة الآن والوسائل السياسية التي تتبعها الدولة المعاصرة لنا حالياً ما من الصعاجة والسذاجة بمنزلة كبيرة جداً لاتسمح بأى توسيع كبير للنشاط الحشدية .

على أنه جاء حين من الدهر أدت فيه الأزمات التي نشبت بين صاحب العمل والعمال ولاسيما ما كان منها بين صاحب العمل الأثافي والعامل المتبرم الصند ، إلى انتشار نوع الشيوعية الأولى الشديد العنف بكل أرجاء العالم ، وهو النوع الذي يرتبط بأسم ماركس . وقد أسس ماركس نظرياته على اعتقاده أن عقول الرجال محدودة بمدى احتياجاتهم ولوازمهم الاقتصادية ، وأن هناك تلاحقاً في المصالح يقوم في حضارتنا الراهنة بين طبقات الناس الغنية صاحبة العمل وبين الكتلة العاملة .

ومن البديهي أن تقدم التعليم الذي استلزمه الاشتراكي اليكانيكي لابد أن يجعل هذه الغالبية الكبيرة العاملة ذات « وعى طبقى » بل يجعلها تزداد كل يوم صلابتوعنا في خصومتها للأقلية الحاكمة ذات « الوعى الطبقي » هي أيضاً . تنبأ ماركس بأن العمال ذوى الوعى الطبقي سيستولون على السلطة بطريقة ما ، ويستحوون بذلك حالة اجتماعية

جديدة : ولا شك أن الخصومة والتمرد واحتمال الثورة أمور مفهومة إلى حد كاف ، ولكن ذلك لا يستتبع قيام حالة اجتماعية جديدة أو أى شيء آخر إلا أن يكون ذلك الشيء حدوث عملية تدمر المجتمع .

حاول ماركس أن يحل الخصومات الطبقة تحمل حل الخصومات القومية ؛ وأنشأ أنصار مذهبه على التعاقب ثلاث منظمات هي الدولية الأولى والثانية والثالثة . ولكن في الإمكان الوصول أيضاً إلى أهداف تلك « الدولية » وآرائها عن طريق نقطة البداية التي تبدأ عندها آراء مذهب الفردية العنصرية . ولقد زاد إدراك الناس كل يوم قوة منذ أيام آدم سميت الكتاب الاقتصادى الإجهليزى العظيم ، كما زاد اقتناعهم أنه لا بد للحصول على أسباب الرخاء في العالم من قيام التجارة حرة لا يعوقها عائق بأى جزء من أجزائه . وأنصار المذهب الفردى بما يظهرون من عداوة للدولة إنما يعادون أيضاً التمرينات الجبركية والحدود السياسية وكل ما يحد حرية التصرف والحركة من قيود قد تبررها التخوم القومية . ولعله بما يشوقنا أن نشهد مذهبيين من مذاهب الفكر يتباعدان في روحهما ذلك التباعد الشديد ، ويمتثلان في المسادة والجوهر ، وأعني بهما مذهب اشتراكية حرب الطبقات المنسوب لأنصار ماركس ، والفلسفة الفردية الداعية إلى حرية التجارة التسوية إلى رجال الأعمال البريطانيين في عهد الملكة فكتوريا . أقول نشهدهما يتجهان في النهاية - على الرغم من هذه الفوارق الابتدائية - نحو نفس الدعوة إلى معالجة الشؤون الإنسانية بمعالجة عالية شاملة تتجاوز مخوم كل دولة قائمة حالياً وقيودها . ولا شك أن منطق الحقيقة الواقعة يلتزم دائماً على منطق الآراء النظرية ، ذلك أننا ندرك أن نظرية الفرديين ونظرية الاشتراكيين ، ولو أن لها نقط ابتداء متباعدة تباعدا عظيماً فهما جزء من بحث عام : بحث عن أفكار وتأويلات جديدة اجتماعية وسياسية أوسع مدى ، يستطيع الناس أن يحاولوا العمل معها على أساسها ، بحث ابتداء ثانياً بأوروبا واشتد ساعده في نفس الوقت الذى اضمحلت فيه نعمة الناس في فكرنى الدولة الرومانية المقدسة والمسيحية . وفي نفس الوقت الذى وسع فيه عصر الاستكشافات آفاقهم تتجاوز بها عالم البحر المتوسط إلى الدنيا بما رحبت .

على أن مواصلة الحديث في موضوع تفصيل وتطور فكراتنا الاجتماعية والاقتصادية

والسياسة حتى نصل به إلى ما يدور في ألبنا هذه من أبحاث ومناقشات ، يكون معناه إدخال مشكلات جدلية بالغة تخرج تماماً عن مجال هذا الكتاب وأهدافه، ولكننا حين نشهد هذه الأشياء كما نشهدها الآن من وجهة نظر دارس التاريخ العالمى العام السبحة الآفاق ، نشعر بأننا مضطرون أن نعترف أن الذى نرى من إعادة صوغ هذه الأفكار التوجيهية في العقل البشرى لا يزال شيئاً ناقصاً - حتى لنكاد لانستطيع أن نقدر مدى بعد ذلك الشيء عن الكمال إذ يلوح أن هناك معتقدات معينة قد أخذت تتباور فعلاً ، كما أنها قوية الأثر اليوم في الأحداث السياسية والتصرفات العامة ؛ ولكنها يجوزها حتى الآن شيء من الوضوح وشيء من قوة الإقناع حتى تستطيع أن تضطر الناس بصورة محددة ومنظمة إلى إدراكها . ذلك أن تصرفات الناس تردد كثيراً بين الإبقاء على التقاليد والإقدام على الجديد ، كما أنهم ينفرون على الجملة إلى الشيء التقليدى ، على أنها الوقورنت بأفكار الناس قبل زماننا هذا بما لا يتجاوز الجيل الواحد على قصر أمده ، لبانت لنا بالفعل تبشير معالم نظام جديد لشئون البشر في طور التشكل . ولا شك أنها معالم متقطعة تخفى في هذه النقطة وتلك ، وبعتموها التقلبات في تفاصيلها وصياغة مذهبها ، ومع ذلك فهي لا يبرح تزداد وضوحاً ، كما أن خطوطها الرئيسية لا تتأثر يقل فيها التغيير رويداً رويداً .

ذلك أن الناس أخذوا يستبينون على كرام الأمام بشكل أوضح وأفصح ، أن البشرية أخذت تصبح مجتمعة واحداً من نواح عدة ، وفي مجال رحب ومتزايد من الأمور ، وأن من ألزم الضرورات أن تقوم في مثل تلك الشئون هيمنة وضبط يشملان العالم طراً . مثال ذلك ، أن الناس يزدادون كل يوم إدراكاً بأن هذا الكوكب كله هو الآن مجتمع اقتصادى واحد ، وأن الاستغلال الصحيح لموارده الطبيعية يشلّب توجيهياً واحداً شاملاً ، وأن القوة الكبرى والمجال الأكبر الذين حولها الاختراع والمخترعات للجهد البشرى يجعلان الإدارة الجزئية للنكوية بالمنازعات والمشااحنات في مثل تلك الشئون أحفل بالآخطار وأهد تديبنا وإتلافا لتلك الموارد ، ثم إن وسائل الإصلاح المالية والنقدية تصبح هي أيضاً موضع اهتمام عالمى ولا يمكن معالجتها بنجاح إلا على أسس عالمية عامة . وقد اتضح للناس كافة أن الأمراض العديدة وازيادة عدد السكان وهجرتهم من الشئون العالمية أيضاً . أما الحرب فلإن تزايد قوة النشاط البشرية ومجالها قد جعلت منها ( الحرب ) وسيلة لا تناسب فوائدنا مع التدمير

والفساد اللذين يترتبان عليها ، بل لقد أصبحت عديمة الأثر وإن استعملت كموسيلة  
محمية قبيصة لتسوية المشكلات الناشئة بين حكومة وأخرى وشعب وآخر ، هذه الأمور  
جميعا تجار مطالبة بإقامة وسائل ضبط وسيطرة ذات سلطات أوسع مجالا وأعظم شمولاً  
بما بلغت أي حكومة قامت إلى اليوم .

ولكن ذلك لا يستتبع بالضرورة أن السبيل إلى حل هذه المشكلات هو إنشاء  
حكومة عليا بشكل ما للعالم كله تقوم على التفتح والقوة أو الائتلاف بين الحكومات  
الموجودة . وقياساً على النظم الموجودة ومقتضاها ، ففكر الناس في إنشاء « برلمان البشرية »  
وفي ( كونجرس ) للعالم ، وفي تنصيب رئيس أو إمبراطور للأرض . وبديهي أن يكون  
رد العمل الطبيعي الأول للفكرة متوجهاً إلى مثل تلك النتائج ، ولكن مناقشة وتجربة  
الآراء والمحاولات في مدى خمسين عاماً قد أوهنت على الجملة الاعتقاد في الفكرة الأولى  
الواضحة ، فإن ما عترض سبيل تلك الفكرة الواحدة العالمية من مقاومات كان عظيماً جداً .  
ويبدو أن الفكرة يتجه الآن صوب إنشاء عدد من اللجان الخاصة أو المنظمات الخفوة  
سلطة عالمية شاملة من جانب الحكومات القائمة لمعالجة هذه المجموعة أو تلك من الشؤون  
أو القيام بها ، وهي هيئات تهتم بدراسة تبيد الثروة الطبيعية أو تنميتها ، وإيجاد  
التوازن بين ظروف العمال وأحوالهم ، وبإسلام العالم وبمشكلات العملة والسكان  
والصحة وما إلى ذلك .

وعندئذ قد يكشف العالم أن جميع مصالحه العامة تعالج ككل واحد ، على حين  
يفوته في نفس الوقت أن يدرك أن العالم تقوم فيه حكومة عالمية . ولكن قبل أن يبلغ  
الناس مثل تلك الدرجة من الوحدة البشرية ، وقبل أن توضع مثل تلك التنظيمات  
الدولية فوق الشبهات والتباينات الوطنية الضيقة ، لابد أن يتفتح عقل البشر عامة بفكرة  
تلك الوحدة الإنسانية . وأن تكون الفكرة المتعلقة بالبشرية كعائلة واحدة ، فكرة  
تعلم وتقيم للناس كافة في كل أرجاء العالم بأسره .

وقد عاش روح البيانات العامة العظيمة عشرة قرون أو تزيد مكافئاً مناضلاً في سبيل  
صيانة ونشر فكرة تلك الأخوة العالمية العامة . ولكن الحقد والغضب والتشكك التي  
تولدت في الماضي عن النزاعات القبلية والوطنية والعنصرية لا تزال تسد السبيل إلى  
اليوم - بل تسد السبيل تماماً وينجاح تام - أمام انتشار الآراء الروحية والبواعث

السمعة التي تجعل من الرجل مناخدا للبشرية كلها . إن فكرة الأخوة البشرية تكافح الآن للاستيلاء على أرواح البشر ، كما كافحت بالضيقة فكرة المسيحية للاستيلاء على روح أوربا في أثناء فترة الارتباك والفوضى التي غشيتها في القرنين السادس والسابع للعقبة المسيحية . ولابد من أن يتم انتشار مثل تلك الأفكار ونصرها على يد جمهرة ضخمة من المبشرين المخلصين المتواضعين ، وليس في مقدور أي كاتب معاصر أن يدعى العلم بالمدى الذي بلغه اليوم مثل ذلك العمل ولا نوع المحصول الذي يهتبه لنا الآن .

والظاهر أن المشكلات الاجتماعية والاقتصادية تختلط بالمشكلات الدولية اختلاطا لا يسهل إلى قسمه ، كما أن حل كل مشكلة منها ينصرف في الغالب نفس روح الخدمة الإنسانية الذي يستطيع أن يدخل القلب الإنساني ويملأه إلهاما . وإن ارتباط الشعوب وعنادها وأنايتها لتعكس آثارها بل تنعكس هي نفسها عن ارتباط الفرد من الملك أو العال أو عناده أو أنايته إزاء الصالح العام ، وغلو الأفراد في روح الملكية يماثل ، بل هو جزء لا يتجزأ من الفساده البشعة التي تبديها الشعوب والأباطرة . وذلك أنها تمار الميول القريزية نفسها ، وتنتج نفس الجهالات والتقاليد . والشبهوة الدولية إنما هي اشتراك الأمم . وما يستطيع إنسان بحث هذه المشكلات أن يشعر أن علم النفس بلغ الآن القدر الكافي من العمق والقوة أو أن الطرائق والتنظيمات القربوية أخذت حفظها الكامل من قوة التخطيط ، بحيث تسكن إيجاد حل حقيقي ونهائي لهذه الأنغاز العمماء المتعلقة باختلاط البشر وتعاونهم . فعن اليوم من عدم القدرة على إنشاء منظمة عالمية لسلام فعالة الأثر حقا كسكان العالم في ١٨٢٠ من حيث صبرهم عن إنشاء السكك الحديدية الكهربائية . ولكن تلك الفكرة ليست — على الرغم من كل مآلينا من مقدمات بعيدة التحقيق ، وما يندرينا قلها قريب قرب الأخرى .

وما يستطيع إنسان أن يتجاوز حدود معرفته ، وما يستطيع فكر أن يتجاوز حدود الفكر المعاصر ، كما أن من الهال علينا أن نحسد أو نتقأ كم من أجيال البشرية سيضطر إلى خوض أهوال الحروب ومزولة تبيد الأموال والأتس ومكابدة الخوف وعدم الطمأنينة والشقاء قبل أن يزعج فجر السلام العظيم الذي يبدو أن التاريخ بأكمله يتجه صوبه ومشير إليه بالبنان ، سلام يعمر القلب وسلام جم الدنيا — أقول يزعج ذلك الفجر فيضع حدا لحياتنا للبددة للقوى والأتس والحالية من كل هدف ترى إليه . وبديى أن ما هتترحه لهذه الأمور من حلول لا تزال غامضة فجبة يحوزها الضج .

( ٢٢ — تاريخ العالم )

ذلك أن الأهواء تكتنفها والشبهات تعتورها . أجل إن جهداً عظيماً يبذل الآن في ناحية الإنشاء والبناء العسكري ، ولكنه لا يزال ناقصاً . كما أن تصوراتنا للمعنى العام لتلك الأمور تزداد في كل يوم وضوحاً وضبطاً . فهل يحدث ذلك بسرعة أم يبطئ ؟ ذلك ما لا نستطيع الإجابة عنه . ولكنها كلما زادت جلاء زاد مبلغ تأثيرها في عقول الناس وأخيلتهم ، ولعل السبب في قلة تأثيرها الراهنة إنما يرجع إلى حاجتها إلى التأكيد لا إلى افتقارها إلى الصحة الحقة . ويساء فهمها لأنها تعرض على صور متباينة محيرة . على أن ذلك الحلم الجديد للعالم سيفوز بالقوة الجارفة عندما يحظى بالدقة واليقين . وربما فاز بتلك القوة فوزاً سريعاً . وعندئذ لابد وأن يؤدي ذلك الفهم الجلي إلى عمل عظيم من إعادة البناء التربوي .



## الفصل الستون

### امتداد رقعة الولايات المتحدة

كانت أمريكا الشمالية أول إقليم في العالم تجلت فيه أروع وأسرع ثمار الحضارة الحديثة في وسائل النقل . والولايات المتحدة هي الدولة التي تجسدت فيها من الناحية السياسية الأفكار الحرة لأواسط القرن الثامن عشر ، كما تباورت تلك الأفكار نفسها في دستورها . فإنها استغنت عن كنيسة الدولة وتاجها ، وأبت أن تسمح بوجود الألقاب فيها ، وأظهرت غيرة شديدة في حماية الملكية بوصفها ضرباً من الحرية ، كما أنها قد منحت لكل بالغ ذكر الحق في التصويت وإن اختلفت في البداية الوسائل الدقيقة لتنفيذ ذلك باختلاف الولايات . وكانت طرائق التصويت عديم فصيحة بصورة بربرية لا مثيل لها ، ولذا فإن حياتها السياسية سرعان ما وقعت في قبضة جماعات حزبية شديدة التنظيم ، ولكن ذلك لم يمنع الشعب الحديث التحرر من إلهارمة ونشاط في الجهد واهتمام بالوسائل العامة تفوق ما بذله أى شعب معاصره .

ثم جاءت الزيادة في سرعة النقل التي أسلفنا الإشارة إليها . ومن العجيب حقاً أن أمريكا التي تدعى أكثر من جميع الدول بفضل هذه الزيادة في سرعة النقل كانت أقل الدول إحساساً بها ، ذلك أن الولايات المتحدة تناولت السكك الحديدية والزورق النهري البخاري والتلغراف وما إلى ذلك من مستحدثات كأنما هي جزء طبيعي من نموها ، والواقع أنها لم تكن كذلك . وكل ما حدث ، هو أن هذه الأشياء وصلت في أنسب الأوقات فأخذت وحدة أمريكا . وكان الزورق النهري البخاري أول واضع الحجر الأساس للولايات المتحدة ، وكانت السكك الحديدية هي البطامة الثانية لها . فلولاً هذين الاختراعين ، لاستحال قيام الولايات المتحدة ، تلك الأمة الضخمة التي تتمر قارة بأكملها . ولولاها لصار انسياب السكان غرباً أبداً كثيراً ، ولعل انسيابهم لهذا يمكن يستطيع قط لولاها تجاوز السهول الوسطى العظيمة . فقد استغرق وصول الاستقرار الفعلي من الساحل الشرقي إلى نهر الليسوري حوالي مائتي سنة ، مع أنها مسافة تقار كثيراً عن نصف الطريق بين المحيطين ، وأول ولاية أسست وراء النهر هي ولاية الليسوري

للعملة على الزورق البخارى والتي قامت في ١٨٢١ . على أن بقية للسافة إلى المحيط  
المادى تمت في بضع عشرات من السنين .

ولو كان في متناول أيدينا استخدام السبينا لامتلاك بعرض خريطة للأمريكا الشمالية  
عاما بعد عام منذ ١٦٠٠ فما بعدها ، مع وضع قطع صغيرة لتمثيل مئات الناس الذين  
كانوا بها ، على أن تمثل كل قطعة مائة ، ووضع نجوم لتمثيل المدن التي يبلغ عدد سكانها  
مائة ألف فأكثر .

وعند ذلك يرى القارئ أن التقيط سيظل مائتي عام يزحف يبطء على امتداد  
للمناطق الساحلية واللباء والأنهار الصالحة للملاحة ، وأنه ينتشر بتدرج أبداً كثيراً في  
ولايق إنديانا وكنتاكي وغيرهما . ثم يحدث في زمن ما يقارب ١٨١٠ تغيير مفاجئ ،  
إذ تنشط الأمور كثيراً في مجارى الأنهار . وعند ذلك تكثر النقط وتنتشر . وما  
ذلك إلا لظهور الزورق البخارى . وعندئذ تظهر النقط الأمامية وهى تتقدم سريعاً  
فوق أراضى كنساس ونبراسكا مبتدئة من عدد من نقط الأرتحال على امتداد  
الأنهار العظيمة .

ثم تظهر سنة ١٨٣٠ الخطوط السوداء للمثلة في الخرائط للسكك الحديدية ، ومنذ  
ذلك الحين لا تكتفى النقط الصغيرة السوداء بالزحف البسيط بل تطلق مبرولة . فإنها  
تظهر عندئذ على الخريطة بسرعة عظيمة جداً حتى لتكاد تقول إن ضرباً من الرشاقة  
هو الذى يقذفها على الخريطة ، وعلى حين قبضة تظهر هنا وهناك أول النجوم التي تشير  
إلى أول المدن العظيمة الحاوية لمائة ألف من السكان ، وإذا هى في البداية مدينة أو  
اثنتان لا تلبث أن تصبح عدداً غفيرا من المدن . وكل منها كقعدة في الشبكة النامية  
للسكة الحديد .

وقد كان نمو الولايات المتحدة تطوراً لا عهد للناس بمثله في تاريخ هذا العالم ؛ فإنها  
حدث من نوع جديد . وما كان من الممكن قبل ذلك نشوء مثل هذا المجتمع ، ولو أنه  
ظهر دون سكك حديدية فلا شك أنه لم يكن محيص من أن يتمزق بدداً قبل عصرنا  
هذا زمن طويل . فلو لم يوجد التلغراف أو السكة الحديد لأصبحت إدارة كاليفورنيا  
من مدينة ييكن أسهل كثيراً منها من واشنطن ، على أن هذا العدد الهائل من سكان  
الولايات المتحدة الأمريكية لم يتضخم على نحو رهيب خارق وحسب ، بل ظل منسجماً

محتسقا ، بل الواقع الذى لا شك فيه أنهم زادوا انسجاما واتساقا . فالرجل الذى يسكن سان فرانسيسكو أقرب اليوم إلى رجل نيويورك من ساكن فرجينيا إلى ساكن نيو إنجلاند قبل يومنا هذا بقرن من الزمان . كما أن عملية التمثيل ماضية في طريقها لا يوقها عائق . فكيان الولايات المتحدة تنسجه وتحبك أطرافه السكك الحديدية والتلغراف ، فتجعل منه على التدرج مجتمعا هائلا موحدا ، يتحدث ويفكر ويتصرف في انسجام تام مع نفسه ، وإن يمضى زمن حتى يؤدى الطيران واجبه من للمشاركة في هذه العملية .

إن هذا المجتمع العظيم للولايات المتحدة شيء جديد حقاً لا نظيره في التاريخ . لأجل سبقتها في الوجود إمبراطوريات عظيمة بلغ سكانها مائة مليون نسمة ، ولكنها كانت جماعات من شعوب متباينة ، ولم يحدث قط أن ظهر على هذا المياري قبلها شعب واحد بمفرده ، لذا فالتاريخ بحاجة إلى مصطلح جديد يعبر عن هذا الشيء الجديد . ذلك أننا نسمى الولايات المتحدة قطرا ، ولكن شتان بين الشيتين ؛ فالفرق بينهما كالفرق بين السيارة والعربة التى يجرها حصان ، لقد أنشأتهما عهود متباينة وظروف متباينة ، وهما تقبلان على أعمال الحياة بسرعة مختلفة وتتناولانها بطريقة مختلفة تماماً . فالولايات المتحدة بما ركبت عليه من مدى هائل وإمكانات ، تقف في منتصف الطريق بين دولة أوربية من الطراز القديم وبين ولايات متحدة تشمل العالم أجمع .

على أن الشعب الأمريكى مر وهو في طريقه إلى هذه المنظمة والطمأنينة في مرحلة من مراحل النضال العنيف القاسى . ذلك أن الزورق النهري البخارى وسكة الحديد والتلغراف وما إليها من وسائل النقل المريحة ، لم تظهر بالسرعة الكافية لتجنيب البلاد ويلات صراع على المصالح والأفكار نشب بين ولايات الاتحاد الجنوبية والشمالية ، فكانت الولايات الأولى تملك الرقيق ، وكانت الثانية ولايات كل من فيها من الناس حر طليق ، ولم تثمر السكك الحديدية والزورق البخارى في البداية إلا تمرة واحدة هي زيادة حدة الصراع بين الآراء المختلفة آنفاً التى كان يحتقها شطرا الولايات المتحدة ، فإذا تزايدت وحدة الشقين نتيجة لوسائل اللواصلات الجديدة اشتد بروز هذه المشكلة والحاحها : فهل ينبغي أن تسود فكرة الجنوب أو تتطلب روح الشمال ؟ . وكان احتمال تهام الطرفين ضيقاً . ذلك أن الروح الشمالية كانت حرة تدعو إلى تركية الفردية ، أما الجنوبية فتتجه نحو المزارع الضخمة ونحو تسلط سادة ذوى وعى طبق على جماهير سوداء ذليلة .

وكانت كل منطقة جديدة تنظم أمورها وتصبح ولاية مع تقدم ميل السكان غرباً ، أى كل جزء يضاف إلى النظام الأمريكي الهائل التواصل الغاء ، يتحول إلى مسرح للصراع بين الفكرتين : قيل ينبغي أن تكون الولاية الجديدة ولاية مواطنين أحرار أم سيسودها نظام المزرعة الكبيرة والعبد المملوك ؟ لذا فإن جمعية إلغاء الرق الأمريكية راحت منذ ١٨٣٣ لا تقاوم فقط بسط فكرة الرق ونظامه بل تثير الرأى العام فى البلاد كلها لإلغائه إلقاء تاماً ، ولم تلبث المسألة أن تحولت إلى صراع صريح حول موضوع إدخال ولاية تكساس فى الاتحاد . كانت ولاية تكساس فى الأصل جزءاً من جمهورية المكسيك ، ولكن معظم سكانها كانوا مستوطنين أمريكيين نزحوا إليها من الولايات التى تبيع الرق ، فلما انفصلت عن المكسيك وأعلنت استقلالها فى ١٨٣٥ ، ألحقت بالولايات المتحدة فى ١٨٤٤ ، وكان الرق محظوراً بتكساس بمقتضى القانون المكسيكى ، ولكن الجنوب أخذ يطالب آتئذ بإباحة الرق بها وضئها إليه ، وفلا تم له ما أراد .

وفى ذلك الحين نفسه أخذ نمو الملاحة فى المحيط وتطورها يجلب من أوروبا حشوداً متزايدة من المهاجرين زادت كثيراً فى سكان الولايات الشمالية الزاحفين بمستقراتهم غرباً مما ترتب عليه تحويل مناطق إيووا ويسكونسن ومينيسوتا وأوريغون ووكها مناطق زراعية شمالية - إلى ولايات ، فأدى ذلك إلى منع الشمال المتأوى الرق فرصة التفوق فى كل من مجلس الشيوخ ومجلس النواب ، واثارت أثراً الجنوب الزراع للقطن ، نمو قوة أنصار حركة إلغاء الرقيق وتهديم مصالحه ، وخشى منبة هذا التفوق فى الكونجرس ، فشرع يتحدث مطالباً بالانفصال عن الاتحاد ، بل لقد شرع الجنوبيون يحملون بضم المكسيك إليهم فى الجنوب هى وجزائر الهند الغربية ، وإنشاء دولة عظيمة تبيع الرق وتتفصل عن الشمال وتمتد حدودها حتى بنا .

على أن انتخاب أبراهام لنكولن رئيساً للدولة ١٨٦٥ - وهو يدين بمنصب عدم مد حدودها جنوباً - دعا الجنوب إلى الإقدام على الانسلاخ عن الاتحاد ، وأسدرت ولاية كارولينا الجنوبية - رسوماً بالانفصال ، وتأهبت لحوض غمار الحرب . وانضمت إليها بعد ذلك ولايات السيى وفلوريدا وألاباما وجورجيا ولوزيانا وتكساس ، واجتمع بمدينة منتجمرى بولاية ألاباما مؤتمر انتخب جفرسون دافيز رئيساً لولايات الجنوب المؤتلفة ، واعتمد دستوراً يناصر بوجه خاص نظام الرقيق الزنجى .

وتصادف أن كان إبراهيم لسكولن رجلاً يمثل تماماً طراز الشعب الجديد الذي ترسخت أقدامه بعد حرب الاستقلال . قضى أيامه الأولى يعيش في غمرة تيار السكان العام المتجه غرباً . ولد بولاية كنتوكي في ١٨٠٩ ، ثم انتقل إلى إنديانا وهو غلام ، وإلى إلينوا فيما بعد . وكانت الحياة في مجاهل غابات إنديانا في أثناء تلك الأيام خشنة مليئة بضلف العيش ؛ ولم يكن المنزل الذي عاش فيه ، إلا كشكا من الكتل الخشبية يقوم في البرية ؛ كما أنه لم يصب من التعليم إلا قطراً ضئيلاً ومنقطعاً . ولكن أمه علمته القراءة منذ حداثته ومن ثم أصبح قارئاً منوهماً واسع الاطلاع . ولما بلغ السابعة عشرة أصبح شاباً رياضياً منظم الجثة يهوى المصارعة والعدو . وعمل ردها من الزمن كاتباً بأحد المتاجر ، ثم فتح متجراً مع شريك مكبر ، فوقع في رقة ديون لم يتيسر له سدادها إلا في مدى خمسة عشر عاماً . وما لبث أن انتخب في ١٨٣٤ عضواً في مجلس النواب عن ولاية إلينوا وهو بعد في الخامسة والعشرين من عمره . وكانت مسألة الرق يتأجج لهيبها بولاية إلينوا بوجه خاص وذلك لأن السناتور دوجلاس الزعيم الكبير لحزب نشر الرق في الكونجرس القومي ، كان عضو مجلس الشيوخ عن تلك المقاطعة . وقد أوتي دوجلاس مقدرة عظيمة ومكانة رفيعة ، وظل لسكولن يضع سنين يحاربه بالحطب والشراب ، وهو يرقى على الدوام إلى نفس مكانة خصمه القوى المكين الظافر . وبلغ كفاحهما ذروته في حملة الرئاسة الانتخابية في ١٨٦٠ ، حيث انتخب لسكولن رئيساً في ٤ مارس ١٨٦١ ، وقد تم اتصال الولايات الجنوبية عن حكم الحكومة الاتحادية بواشنطن ، وبدأت العمليات الحربية .

قاتلت في هذه الحرب الأهلية الأمريكية جيوش جندت ارتجالاً دون سابق تدريب ، وأخذت تنمو على الدوام بضع عشرات من الألوف إلى مئات الألوف ، حتى تناهى الأمر إلى أن أربت قوات الاتحاد على مليون رجل ، ودارت رحى تلك الحرب فوق منطقة مترامية من الأرض تمتدين ولاية نيو مكسيكو والمحيط الأطلنطي شرقاً ، وكانت مدينتا واشنطن وريتشموند الهدف الأكبر للطرفين ، ولا يتسع المقام هنا للحديث عن تضاعف المهمل في أثناء ذلك الكفاح الرائع الذي كان يتدرج ذهاباً وحبية عبر التلال والغابات بولايي تني وفرجينيا وينحدر مع نهر المسيسيبي . كان كفاحاً بددت فيه القوى والثروات وأزهقت فيه الأرواح على نحو رهيب جامع ، فإذا تم هجوم أعقبه على الفور هجوم مضاد ، وإذا دخل نور الأمل إلى القلوب يوماً أعقبته دياجي اليأس ، ثم جاد

الرجاء فأثار ثم خيم اليأس مرة ثانية ؛ فيوما تلوح واشتطن كأنها هي في قبضة ولايات الجنوب للؤلفة أوتكاد ؛ ويوما تكون جيوش الاتحاد متجهة بخطى حثيثة إلى ريتشموند . وكان جند ولايات الجنوب للؤلفة يقاتلون تحت إمرة قائد مقتدر عظيم هو الجنرال لي وإن فاقهم الشماليون في العدد والوارد . ولكن قيادة الاتحاد الشبالي كانت أدنى كفاية بكثير ، لذا كان القواد هناك يعزلون ويعين مكلتهم آخرون جدد ؛ حتى تم النصر في النهاية تحت قيادة شيرمان وجرانت على جيوش الجنوب المهلهلة الثياب المستزفة الموارد والدماء . ففي أكتوبر سنة ١٨٦٤ استطاع جيش الشمال بقيادة الجنرال شيرمان احتراق ميسرة الجنوب وتقدم من تلسي إلى الساحل محترقا جورجيا ، ومارا عبر بلاد الجنوب وفي صميم أقاليمه ، ثم انحرف شمالا خلال ولايتي كارولينا الشمالية والجنوبية ، وأطبق على مؤخرة جيوش الجنوب . وفي الوقت ذاته كان جرانت يشل جيشه لي أمام ريتشموند عن كل حركة حتى أطبقت عليه جيوش شيرمان . ولم يلبث لي أن سلم بمحيشه في ٩ من أبريل سنة ١٨٦٥ قرب أبوماتكس كورت هاوس ، ولم يتقص شهر واحد حتى ألقت جميع جيوش الانفصاليين الباقية أسلحتها ، وانتهت دولة الجنوب .

أجهد هذا الكفاح الذي دام أربع سنوات شعب الولايات المتحدة إجهادا ماديا ومعنويا وخلقيا هائلا ، ذلك أن مبدأ استقلال الولاية كان عزيزا محببا لدى أنفس كثيرة ، وأن الشمال كان يبدو كأنما يرغم الجنوب في الواقع على إلغاء الرق إرغاما . ولقد بلغ الأمر بالناس في الولايات القائمة على الحدود بين الطرفين ، أن كان الإخوة وأبناء العمومة ؛ بل الآباء وأبناءؤم ، يناحزون إلى شيع متضادة ويمجدون أنفسهم يقاتلون في جيوش متعادية ، وكان الشمال يحس أن قضيته تقوم على الحق والعدل ، ولكن جماهير غفيرة من الناس لم تكن ترى أن ما يدهو إليه من حق وعدل كان متصفا بالكمال مبرا من العيب أو فوق التجريح والتحدى . ولكن لئسكولن لم يساوره أى شك ، فإنه ظل محمضا بسفاه ذهنه على الرغم من تلك البلبلة الشديدة ، وكان يؤمن بالاتحاد ويقف مدافعا دونه ، وكان يناصر السلام الشامل لأمريكا ، وكان عدوا لرق ، وإن عد الرق مسألة ثانوية ؛ أما هدفه الأول فهو ألا تتمزق وحدة الولايات المتحدة إلى شقين متباينين ومتناحرين .

ولما شرع الكونجرس وقواد الاتحاد يفكرون في أثناء المراحل الأولى للحرب في التسرع في فك رقاب الرقيق اعترض عليهم لئسكولن وخفف من غلواء حماسهم . ذلك

أنه كان يرى أن يكون تحرير العبيد على مراحل ومع دفع التعويض اللازم، فلم يقبلوا للوقف بحيث يسمح للكونجرس أن يقترح إلغاء الرق إلى الأبد بقانون دستوري للتويضات إلا في يناير سنة ١٨٦٥، كما أن الولايات لم تعتمد ذلك القانون إلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها بمدة كافية .

وبينا الحرب تجر ساقها متناقلة في ١٨٦٢، ١٨٦٣، خذت ثائرة الاضطرابات الأولى والحساسات الأولى، وأخذت أمريكا تتعلم كل دروس التبرم بالحرب والاضمحلال منها . ونظر الرئيس فلم يجد حوله إلا خونة ودعاة هزيمة وقوادا معزولين وسياسيين حزبيين ملتون، كما لم يجد خلفه إلا شعباً متشككاً متعباً، ولا أمامه إلا قواداً أغبياء وجنوداً مبتئين، ولسنا نشك أن عزاءه الوحيد في تلك اللمة كان شعوره بأن دافيز في ريتشموند لا يمكن أن يكون أسعد منه حالاً . وخرجت الحكومة البريطانية عن السلوك الكريم وصمحت لوكلاء الجنوب بالهجرة أن ينزلوا إلى البحر ثلاث سفن سريعة للقرصة في المحيط، وأن يزودوها بالرجال . وأشهرها هي الأباتا - فكانت تنقب سفن الولايات المتحدة وتطاردوها في البحار . وذلك على حين راح الجيش الفرنسي بالمكسيك يبرغ في الوحل منذهب مونرو . وتواردت على الرئيس مقترحات قاتلة بإيقاف الحرب، وترك نتائجها لمناقشات تجري فيها بعد، والانهضاض بالولايات المتحدة كلها شمالها وجنوبها على الفرنسيين بالمكسيك، ولكنه أبى أن يصنى إلى مثل تلك المقترحات مالم تصبح كلمة الاتحاد وسلطته هي العليا . فقد يجوز أن يقوم الأمريكيون بمثل هذه الأعمال كحشوب واحد لا كشمعين منفصلين .

لقد ظل لنكولن يربط الولايات المتحدة بعضها إلى بعض شهوراً طويلة مضية حفلت بالهزائم والجهد عديم الجدوى وفي مراحل قائمة من الفرقة والانهزام وخور العزيمة، وليس بين أيدينا أية حادثة تدل على أنه تردد يوماً عن هدفه . ومرت عليه قترات لم يكن يجد في أثنائها شيئاً يعمل به، قترات كان يجلس في أثنائها في البيت الأبيض صامتا لا يتحرك، كأنه يتأمل صارم متجهماً للعزيمة والتصميم؛ وجاءت عليه أوقات كان يخالف فيها الأعباء عن عقله بالمزاح والفكاهة للكشفة .

ولقد فاز لنكولن بما اشتهى، فإن نضال الاتحاد قد تكفل بالظفر . ودخل الرئيس مدينة ريتشموند بعد تسليمها يوم واحد، وجمع بتسليم الجزال إلى . ثم عاد إلى واشنطن، وألقى آخر خطبة عامة له يوم ١١ من أبريل . وكان مذهبه الذي يدب به هو

الصلح وإعادة تكوين الحكومات للولاية في الولايات للنهضة ، وذهب في مساء ١٤ من أبريل إلى مسرح فورد بواشنطن ، وبينما هو يجلس ناظرا إلى المسرح ، أطلق الرصاص على مؤخر رأسه مثل اسم بوث وجرحه جرحاً قاتلاً ، وكان يحقد عليه لسبب ما ، فنسلل إلى اللوج دون أن يراه أحد . ولكن لشكون كان قد أدى ما عليه ، وتم إنقاذ الامداد .

وعند بداية الحرب الأهلية ، لم يكن هناك خط حديدى يمتد إلى ساحل المحيط الهادى ؛ ولكن السكك الحديدية ما لبثت أن انتشرت بعدها بسرعة كأنها نبات سريع النمو ، وإذا هي حتى اليوم تقبض على أراضي الولايات المتحدة الشاسعة للتراية وتضمها بعضها إلى بعض وتسحبها وحدة عقلية ومادية لاسيلى إلى حلها . هي أعظم مجتمع حقيقى فى العالم ، حتى يحىء الوقت الذى يتعلم فيه عامة الصين القراءة .



## الفصل الحادي والعشرون

### ألمانيا تصبح دولة عظمى

ذكرنا من قبل كيف حدث بعد الهزات العنيفة التي تمخضت عنها الثورة الفرنسية ومغامرات نابليون أن استسلمت أوروبا من جديد لفترة سلام يسودها القلق والاضطراب. وإن شملتها الظروف السياسية التي كانت بها قبل ذلك بخمسين عاما ؛ ولكن في صورة مجمدة إلى درجة ما . ولم تظهر حتى منتصف القرن ، أية نتائج سياسية ملحوظة للقوى الجديدة في معالجة الصلب ولا للمسكة الحديدية أو البخارة . طى أن التوتر الاجتماعي . الناجم عن نمو الصناعة في المدن سار أشواطا . وظلت فرنسا قطرا بادی القلق . إذ جاءت بعد ثورة ١٨٣٠ ثورة أخرى في ١٨٤٨ . ثم نبوا نابليون الثالث - وهو ابن أخ لنابليون الأول - رئاسة الجمهورية أولا ، وأعلن نفسه إمبراطورا في ١٨٥٢ .

ثم شرع من فوره في إعادة تشييد باريس ، وحولها من مدينة جميلة غير محمية من مدن القرن السابع عشر ، إلى المدينة الواسعة الأطراف اللاتينية الطابع الرخامية للباقي . التي تشهدها اليوم . وشرع من فوره في إعادة بناء فرنسا ، وحولها إلى إمبراطورية استعمارية طاهرها الطابع المصري للشرق . وأبدى شيئا من الليل إلى بحث روح : للتنافس بين الدول الكبرى ، التي ظلت تشغل أوروبا تماما بحروب غير مجددة في أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر . واتخذ نقولا الأول قيصر روسيا ( ١٨٢٥ - ١٨٥٦ ) نفس النزعات العدوانية وأخذ يضغط جنوبا على الإمبراطورية التركية وقد غنص بصره إلى مدينة القسطنطينية .

حتى إذا انتصف القرن ابتدأت في أوروبا دورة جديدة من الحروب . وكلها في القالب حروب غايتها الرفعة وتوازن القوى ؛ فهاجمت إنجلترا وفرنسا وملكة سردينيا دولة الروس في بلاد القرم دفاعا عن تركيا ، وتقاتلت على زعامة ألمانيا كل من بروسيا ( ومعها إيطاليا كليفة ) والنمسا ، وحررت فرنسا شمال إيطاليا من رقبة النمسا وقبضت مقاطعة سافوى ثمناً لذلك التحرير ، ومن ثم أخذت إيطاليا توحد نفسها بالتدريج في نطاق مملكة واحدة . وعندئذ هجس نصحاء السوء لنابليون الثالث أن يقدم على فتح



ووقع الصالح بمدينة فرنسكفورت ، وبه نزلت فرنسا عن مقاطع الألزاس واللورين  
للألمان . كما توحدت ألمانيا كلها عدا النمسا في إمبراطورية ، وأصبح ملك بروسيا ،  
إمبراطورا لألمانيا ، فزاد عدد القياصرة في أوروبا قيصرا جديدا .

ظلت ألمانيا بعد ذلك ثلاثة وأربعين سنة أقوى دولة في قارة أوروبا . ونشبت حرب  
بين روسيا وتركيا ( ١٨٧٧ — ١٨٧٨ ) ، ولكن الحدود الأوربية ظلت ثابتة  
بصورة قلقة طوال ثلاثين السنة التالية ، لم يداخلها في أثناءها إلا تعديلات بسيطة  
بمنطقة البلقان .

## الفصل الثاني واستون

### الإمبراطوريات الجديدة الناشئة وراء البحار

#### بفضل السفن البخارية والسكك الحديدية

انتهت خاتمة القرن الثامن عشر بتمزق إمبراطوريات وتحطم أحلام لدعاة التوسع . ذلك أن الرحلة الطويلة للضفة من بريطانيا وإسبانيا إلى مستعمراتها بأمرىكا تحول دون الرواح والندو الحريين الوطن الأم وبناته للمستعمرات ، وهكذا انفصلت المستعمرات عن الدولة وأصبحت مجتمعات جديدة منفصلة متميزة ، لها أفكارها المتميزة ومصالحها بل حتى طرائقها الخاصة في النطق والتعبير . وكانت كلانمت مزقت أكثر فأكثر رابطتها الواهنة غير الثابتة من السفن التي كانت همزة الوصل بينهما . أجل إن من الجائز أن تتعلق محطات تجارية ضئيلة تقوم في مجاهل البرية ( كالتي كانت للفرنسا بكندا ) أو مؤسسات تجارية بين ظهرائى مجتمعات غربية كبيرة ( كالتي كانت لبريطانيا ببلاد الهند ) تتعلق في سبيل البقاء البحت بالأمة التي أمدتها بالعون ومنشأهم ووجودها . ذلك وحده ولاشئ غيره كان فيما يحيل لكثير من مفكرى أوائل القرن التاسع عشر الحد الأقصى للحكم وراء البحار . وما وافق ١٨٢٠ حتى تقلصت إلى أدنى حد الإمبراطوريات الأوربية الكبيرة غير المنتظمة الحدود ، التي كانت تبدو بارزة الضخامة في خرائط منتصف القرن الثامن عشر ، ولم ينبج من هذا للصير إلا الإمبراطورية الروسية التي ظلت تزحف عبر آسيا محتفظة دائماً بضخامتها وأكثر .

وكانت الإمبراطورية البريطانية تتكون في ١٨١٥ من مناطق كندا الساحلية القليلة السكان ونواحيها المحيطة بالأهمار والبحيرات ، وأقاليم داخلية ضخمة من البرارى كان كل ما فيها من المستعمرات لا يتجاوز حتى ذلك التاريخ محطات تجارية الفراء التابعة لشركة خليج هدسون ، فضلا عن ثلث شبه جزيرة الهند ، الذى تحكمه شركة الهند الشرقية ، والمناطق الساحلية عند رأس الرجاء الصالح التي كان يسكنها السود وبعض للسقريين الهولنديين ذوى النفوس الثمره ، ثم بضع محطات تجارية على ساحل إفريقية الغربية ،

ثم صخرة جبل طارق وجزيرة مالطة وجمايكا ، وممتلكات قليلة صغيرة تقوم على المال الأرقاء ، بجزائر الهند الغربية وغيانا البريطانية وأمريكا الجنوبية ، كما كان لها عدا ذلك مستودعان للبحرين يقومان في آخر أطراف العالم عند خليج يوتاني بأستراليا وجزيرة تسمانيا . أما إسبانيا فاحتفظت بجزيرة كوبا وبضع مستعمرات بجزائر الفلبين ، على حين تبقى للبرتغال بقايا منيعة مما كانت تدعى ملكيته قديماً .

أما هولندية فكانت لها جزائر وممتلكات متنوعة بجزائر الهند الشرقية ، وبقيت لفرنسا جزيرة أو اثنتان بالهند الغربية وغيانا الفرنسية ، وكأما كان ذلك هو القدر الذي تحتاج إليه الدول الأوربية ، أو الذي يحتمل أن تحصل عليه من بقية أجزاء هذا العالم . ولم يكن ثم أحد يبدى روح التوسع إلا شركة الهند الشرقية .

وبينا كانت أوروبا مشتبكة في حروب نابليون ، كانت شركة الهند الشرقية تلعب في الهند برأسة جمهرة متعاقبة من اللذين الدور ذاته الذي لعبه تلك البلاد من قبل التركان ومن شابههم من غزاة شماليين . وواصلت الشركة أعمالها بعد معاهدة فينا ، من جباية الضرائب وشن الحروب وإرسال السفراء إلى الدول الآسيوية ، كأما هي دولة شبه مستقلة . ولكنها دولة ذات ميل ملحوظ إلى إرسال الثروات إلى بلاد الغرب .

ولا يتسع للقام هنا لتفاصيل الطريقة التي استطاعت بها الشركة البريطانية أن تخلق طريقها نحو السيادة ، بأن تكون تارة حليفا لهذه الدولة وتارة أخرى حليفا لتلك ، حتى غدت في النهاية قاهرة الجميع . امتد سلطانها حتى شمل أسام وإقليم السند وأوده ، بمعنى أن خريطة الهند شرعت تتخذ الصورة الإجمالية المألوفة لتلاميذ المدارس عندنا اليوم ، فهي خريطة مكونة من رقع صغيرة من الإمارات الوطنية التي يحيط بها ويضمها بعضها إلى بعض الولايات الكبرى الواقعة تحت الحكم البريطاني المباشر .

وقد ألحقت هذه الإمبراطورية الناجمة لشركة الهند الشرقية بالتاج البريطاني في سنة ١٨٥٩ ، بعد تمرد خطير قام به الجند الوطنيون بالهند . وبمقتضى قانون صدر بعنوان « قانون إصلاح حكومة الهند » ، أصبح المدير العام نائبا للملك يمثل العاهل صاحب التاج ، وحل محل الشركة وزير للهند ، مشول أمام البرلمان البريطاني ، وورثة في

الوصول بالأمم إلى غايته الطبيعية ، حمل اللورد ييكونزفيلد الملكة فيكتوريا في سنة ١٨٧٧ على المناداة بنفسها إمبراطورة للهند .

والهند وبريطانيا ترتبطان في الوقت الحاضر على هذه الأسس الصعبة الحارقة (١) . ذلك أن الهند لا تزال إمبراطورية « المغولى العظيم » ، ولكن المغولى العظيم قد حلت محله جمهورية بريطانيا العظمى المتوجة . فالهند دولة حكم مطلق ليس بها عاهل مطلق . فحكمها يجمع بين مساوىء الملكية المطلقة وبين مالموظفين في ظل الديمقراطية من حكم غير مسئول ولا يمت إلى النواحي الشخصية بأية علاقة ، فالهندي الذى له ظلامه لا يجد أمامه عاهلا يلجأ إليه ، لما إمبراطوره إلا رمز من ذهب ، لذا لم يكن أمامه مفر من إذاعة اللشترات بإنجلترا أو الإبقاء على النواب بإلقاء سؤال بمجلس العموم البريطانى . وكلما زاد البرلمان انشغالا بالشئون البريطانية قل مآلقاه الهند من التفاته ورعايته ، وزاد وقوعها تحت رحمة زمرتها الصغيرة من كبار الموظفين .

وقبلا عدا الهند لم يتيسر لأية إمبراطورية أوربية الحصول على أى توسع عظيم حتى بلغت المراكب البخارية والسكك الحديدية أقصى أثر فعال لها . وكانت مدرسة كبيرة من المفكرين السياسيين يبريطانيا تميل إلى اعتبار الممتلكات وراء البحار مصدرا لنصف الدولة لاقتها . وتمت المستوطنات الأسترالية ببطء حتى أدى اكتشاف مناجم ثمينة للنحاس في سنة ١٨٤٢ ، وأخرى للذهب في سنة ١٨٥١ إلى إعطائها أهمية جديدة ، كما أن تحسن وسائل النقل جعل الصوف الأسترالى سلعة تجارية قابلة للتصريف المتزايد فى الأسواق الأوربية . هذا إلى أن كندا لم تصب تقدما ملحوظا إلا فى عام ١٨٤٩ إذ كانت تمزق كلمتها الخلافات بين سكانها الفرنسيين والبريطانيين ، لذا حدثت بهادة ثورات خطيرة ، فلم يخفف من متاعبها الداخلية فى النهاية إلا صدور دستور جديد فى سنة ١٨٦٧ أنشأ دومينيون كندا الانحادى . والسكك الحديدية هى لاجرم صاحبة الفضل فى تيسير مستقبل كندا ، فإنها مكنتها - مثلما مكنت من قبلها الولايات المتحدة - من التوسع غربا ، ومن بيع قمصها وغيره من المنتجات فى أوربا ، كما مكنتها على الرغم من نموها السريع المتراعى من أن تظل مجتمعا واحدا تجمعهم اللغة والعاطفة والمصلحة

---

(١) استقلت الهند فى عام ١٩٤٧ وإن ظلت عضوا فى الكومنولث ( أى مجموعة الأمم البريطانية ) ثم أعلنت بها الجمهورية [ المترجم ]

المشتركة ، والواقع الذى لا شك فيه أن السكة الحديدية والسفينة التجارية وأسلاك التلغراف البحرى كانت تغير تماما جميع أحوال التطور الاستعمارى .

وكانت للإنجليز مستقرات بحزيرة نيوزيلندة قبل ١٨٤٠ ، كما أن شركة لأراضى نيوزيلندة كانت قد تأسست لاستثمار موارد الجزيرة ، ولم تلبث نيوزيلندة أن ألحقت هى أيضا فى سنة ١٨٤٠ بالملكيات الاستعمارية لتتاج البريطانى .

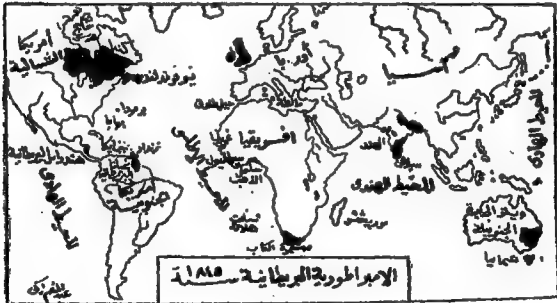
وكانت كندا كما ذكرنا آنفاً أول الملكيات البريطانية التى استجابت بقوة للإمكانيات الاقتصادية الجديدة التى فتحت أبوابها وسائل النقل الجديدة . وسرعان ما أخذت جمهوريات أمريكا الجنوبية خاصة منها جمهورية الأرجنتين ، تشعر من حيث تجارة المواشى واللحوم وزراعه البن ، بتزايد قرب السوق الأوربية ، وإلى ذلك العين كانت أهم السلع التى تجتذب دول أوروبا إلى اهتمام المناطق الممحصية غير الأهلة بالسكان ، هى الذهب أو غيره من المعادن أو التوابل والأفاوية أو العاج أو العبد ، ولكن زيادة السكان بأوروبا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر أخذت تجبر الحكومات على البحث فى الخارج عن الأغذية الرئيسية ، كما أن نمو الصناعة القائمة على أسس علمية أوجد الحاجة إلى مواد خام جديدة ، كالصنوبر والزيوت من جميع الأنساف والمطاط ومواد أخرى كان يفتل شأنها قبل الآن ، وكان جليا للعيان أن بريطانيا العظمى وهولنده والبرتغال كانت تحظى ثمارا وميزات تجارية عظيمة ومتزايدة بسبب سيطرتها الكبيرة على منتجات الأقاليم العارة ، ثم شرعت ألمانيا بعد عام ١٨٧١ ومن ورأها على الفور فرنسا فليطاليا فيما بعد ، تشخص يصورها باحثة عن مناطق للمواد الخام لم يضمها إليه أحد ، أو عن بلاد شرقية يمكن قيام الطابع المصرى بها بصورة مشعرة ومربحة .

وهكذا بدأ تسابق وتزاحم جديد عم العالم كله ، ولم ينبج منه إلا أمريكا التى وقف فيها مبدأ مونرو آنذاك حثلا دون مثل تلك القامرات الباحثة عن أرض لا تجد من يحمصها سياسيا .

وكانت إفريقية أقرب القارات إلى أوروبا ، وهى مليئة بالإمكانيات التى يكتنفها الغموض والإبهام . كانت فى ١٨٥٠ بلداً تحيط به الأسرار القاعة السوداء ؛ فلم يكن معروفا من أقطارها ، إلا مصر والأقاليم الساحلية ، ويضيق المقام هنا عن قصة ( ٢٣ — تاريخ العالم )

للتسكفين وللتاخرين للدهشة الذين اخترقوا لأول مرة ظلمات تلك المجهل الإفريقية، وعن ذكر الصلاء السياسيين والمديرين والتجار والمستوطنين ورجال العلم الذين ما لبثوا أن ساروا في إثرهم . وبفضل ارتداد إفريقية رضع اللثام عن أجناس بشرية مدهشة كالأنعام مثلاً، وعن حيوانات عجيبة كالأوكابي، وعن فواكه وأزهار وحشرات بدية، وأمراض فظيعة، ومناظر أخاذة للغابات والجبال، وبحار داخلية هائلة وأنهار عظيمة ومسافط مائية ضخمة : عالم جديد بأسره . بل لقد بلغ الأمر أن اكتشفت ( عند زمبابو ) بقايا حضارة بائنة لم يسجلها التاريخ، هي آثار مغامرة أنجبت جنوباً لشعب قديم غير معروف . إلى هذا العالم الجديد وقد الأوربيون، ووجدوا البندقية به في أيدي تجار الرقيق العرب، كما وجدوا حياة الزنوج في اضطراب شامل .

وما انقضت خمسون عاماً وحلت سنة ١٩٠٠ حتى كانت إفريقية كلها قد رسمت خريطةها وارتدت مجاهلها وقدرت قوتها وقسمت بين الدول الأوربية، ولم ين أحد في أثناء معركة التسابق والتطاحن هذه بمصلحة السكان الأصليين . أجل إن النحاس العربي لم يطرد من الميدان فقط بل أيد تماماً، ولكن البشع والثرثرة على اللطاط الذي كان محصوراً برأى جمعه الأهالي قسراً في إقليم الكونغو البلجيكي، وهو جشع تنافس شره بسبب الاستعدادات التي نشبت بين الحكام الأوربيين غير ذوي الخبرة وبين الأهالي، أفشى ذلك كله إلى اقتراف أشنع الفظائع، ولا تستطيع دولة أوربية واحدة أن تدعى طهارة اليد تماماً من آثام تلك العقبة .



( خريطة رقم ١٩ )



ولا يتسع المجال هنا لتفصيل الوسيلة التي تمكنت بها بريطانيا العظمى من الاستيلاء على مصر في ١٨٨٢ والبقاء فيها على الرغم من أن مصر كانت من الناحية الدولية جزءاً من الإمبراطورية التركية ، ولا كيف أوشك هذا التخاطف على للمستعمرات أن يؤدي إلى نشوب الحرب بين فرنسا وبريطانيا العظمى في ١٨٩٨ ، عندما حاول الكولونيل مارشاند في فاشوده ، أن يستولى على النيل الأعلى في أثناء عبوره أواسط إفريقيا من الساحل الغربي .

ولن يتيسر لنا أيضاً أن نحدثك كيف سمحت الحكومة البريطانية أولاً للبور أي المستوطنين الهولنديين بمنطقى نهر الأورنج والترنسفال ، أن يلبثوا جمهوريات مستقلة بمناطق إفريقية الداخلية ، ثم عادت فندمت على ما فعلت وضمت جمهوريات الترنسفال في ١٨٧٧ ؛ ولا كيف ناضل بور الترنسفال في سبيل الحرية حتى فازوا بها بعد معركة تل ماجوبا في ١٨٨١ . وأثيرت حول معركة تل ماجوبا حملة صحفية لجوج جعلتها كالنصبة في حلق الشعب البريطاني أو القرحة في ذاكرته . لذا لم تلبث الحرب أن اندلعت من جديد مع كل من الجمهوريتين في ١٨٩٩ ، وكانت حرباً دامت ثلاث سنين كبدت الشعب البريطاني نفقات طائلة وانتهت بتسليم الجمهوريتين .

على أن فترة خضوعهما لم تدم طويلاً . إذ لم يلبث حزب الأحرار البريطاني في ١٩٠٧ بعد سقوط الوزارة الاستعمارية التي قهرتها ، أن أخذ على عاتقه حل مشكلة جنوب إفريقية ، وأن أصبحت هاتان الجمهوريتان السابقتان حرتين ، وأن صارتا بدافع رغبة شريفة عضوين مع مستعمرة الرأس وناتال في اتحاد ضم جميع ولايات جنوب إفريقية بين دفتي جمهورية موحدة تستمتع بالحكم الذاتي في ظل التاج البريطاني .

تم تقسيم إفريقية في ربيع قرن . وبقيت هناك ثلاث دول صغيرة نسبياً حافظت على استقلالها . هي ليبيريا وهي مؤسسة لأرقاء الزنوج المحررين أنشئت على ساحل إفريقية الغربي ، ومراكش التي يحكمها سلطان مسلم ، وبلاد الحبشة ، وهي قطر هجبي يدين بضرب من النصرانية عتيق عجيب ، وقد نجحت في المحافظة على استقلالها وإتقانه من غلبة إيطاليا في معركة عدوه ١٨٩٦ .

## الفضل الثالث واستون

### العدوان الأوربي على آسيا ونهوض اليابان

لا يمكننا أن نصدق بسهولة أن عدداً ضخماً من الناس قد قبل حقاً هذا التقسيم الأرعن للتسرع لإفريقية بوصفه تسوية دائمة جديدة لشئون هذا العالم ، ولكن الواجب يحتم على المؤرخ أن يسجل أن الناس قبلوه على ذلك الوصف . لم يكن للعقل الأوربي في القرن التاسع عشر الإنصاف ضئيل من العلم بالتاريخ ، كما أنه لم يكون لنفسه حتى آنذاك عادة النقد النفاذ . ولا يخرب عن البال أن اللزاي للوقت البحتة التي أتاحها الانقلاب الليكاثيكي ليلاد الغرب للأوربيين دون بقية سكان العالم القديم ، كانت شيئاً يعده كل من يجهل جهلاً مطبقاً أحدنا ككثرة كفتوح القول وآيات تشهد بأن الأوربيين يترجمون البشرية زعامة مستديمة وطيدة الأركان ، فكأنهم لم يشعروا بأن في الإمكان نقل العلم واقتباس ثمراته . وكأنهم لم يدركوا أن الصيني أو الهندي كان يستطيع أن يتناول يديه مشعل البحث العلمي بنفس مقدرة الفرنسي أو الإنجليزي تماماً ، وكانوا يعتقدون أن للغرب دافعاً فكرياً فطر عليه ، وأن الشرق جيل على شيء فطري من التكاسل والمحافظة على القديم ، وأن هذه حال تضمن للأوربي السيادة العالمية إلى أبد الأبد .

وكانت ماقبة ذلك التهمس الجنوني أن وزارات الخارجية بمختلف أقطار أوروبا لم تكشف قطق بالسابق مع البريطانيين طلباً للناطق للتأخرة غير المتطورة على سطح الكرة الأرضية ، بل راحت تقتطع أقطار آسيا للمدنة الآهلة بالسكان كأنما لم يكن أولئك الأهليون أيضاً إلا مواد خاما للاستثمار والاستغلال . ومن البديهي أن استعمار الطبقة البريطانية الحاكمة ليلاد الهند ، ذلك الاستعمار للزعزع الأركان في باطنه وواقع حقيقته والفاخر في ظاهره ، وأن تملكسات الهولنديين للترامية الأطراف الكثيرة الأرباح والتمرات يجزر الهند الشرقية كانت تملأ الدول الكبرى للنافسة لهما بأحلام أمجاد مشابهة لهند ليلاد فارس ، وبالإمبراطورية العثمانية التي شرعت تنفك ، وبأقاليم أخرى باهند والصين واليابان .

واستولت ألمانيا في ١٨٩٨ على كياوتشاو بأرض الصين ، فأجابتها بريطانيا على ذلك بالاستيلاء على واى هاى واى . ومالبث الروس أن استولوا في السنة التالية على بورت آرثر . وانبثت في الصين روح الكراهية للأوروبيين . وقاموا بكثير من اللذائع أعملوا فيها أيديهم في الأوروبيين وفي الصينيين الذين اعتنقوا المسيحية ، كما هاجموا في ١٩٠٠ سفارات الدول الأجنبية في بكين وحاصروها . وأرسلت إلى بكين حملة تأديبية لدول أوربية مختلفة ، قامت بإفقاد السفارات وسرقت قدرا هائلا من الممتلكات الثمينة والتحف . وعند ذلك استولى الروس على منشوريا كما اجتاحت البريطانيون بلاد التبت في ١٩٠٤ .

هناك ظهرت في ميدان الكفاح بين الدول العظمى قوة جديدة هي اليابان ، ولم تلعب اليابان حتى آنذاك إلا دوراً صغيراً في تاريخنا هذا ؛ ذلك أن حضارتها المنعزلة لم تضرب بسهم كبير جداً في الصياغة العامة لمصائر البشرية ؛ فهي قد تلقت الشيء الكثير ولم تعط إلا القليل . والشعب الياباني الحقيقي ينتمى إلى المجلس القوي . ومحاضرتهم وكتابتهم وتقاليدهم الأدبية والفنية إلا فرع مما للصين — ولكن تاريخهم تمتع « ورومانسى » ؛ فقد تطور بينهم في أثناء القرون الأولى العقبة للمسيحية نظام إقطاع وفروسية ، ولا إخال هجماتهم على كوريا والصين إلا النظير الشرقي لحروب الإنجليز بفرنسا . وقد أرغمت اليابان على الاتصال بأوروبا لأول مرة في القرن السادس عشر ؛ ثم وصل إليها في ١٥٤٢ بعض البرتغاليين قادمين في سفينة صيلية ، ثم نزلوا في ١٥٤٩ بمبشر حيزويقي ، هو فرانسيس زافير الذي بدأ يبشر الناس هناك . وقد رحبت اليابان بصلاتها بالأوروبيين ردحا من الزمن ، تهيأ للبشرى المسيحية في أثنائه أن يضموا إلى عقيدتهم عدداً كبيراً من الأهالي . وجاء حين من الدهر كان فيه شخص اسمه وليم آدمز مستشاراً لليابانيين وموضع قهقهة أكثر من الأوروبيين جميعاً ، فأراهم كيف يصنعون السفن الكبيرة . ومن ثم قام اليابانيون على سفن بنيت في بلادهم برحلات إلى بلاد الهند وبيروت ، ثم نشبت خلافات معقدة بين الدومينيكان الإسبان والجزويت البرتغاليين والبروتستانت الإنجليز والمولنديين ، وراح كل منهم يحذر اليابانيين من أطباع الآخرين وخططهم السياسية . وحظي الجزويت يوماً بدور من أدوار الرقعة والعمرة ، فأخفوا ينهون في أثنائه على البوذيين بالاضطهاد التليظ والإهانات الجارحة وبأخيراً اتقع اليابانيون أن الأوروبيين مصدر تكدير لهم لاسيلاً إلى الصبر عليه ، وأن للمسيحية الكاثوليكية بوجه خاص لم تكن إلا ستارا تستر وراءه أطباع البابا السياسية وأحلام ملوك إسبانيا

(الذين كانوا يملكون آتفا جزائر القليلين) فأزولوا بالمسيحيين اضطهادا عظيما ، ثم أفلوا أبواب اليابان في ١٦٣٨ إقبالا تاما في وجه الأوروبيين ، فظلت كذلك ما يربو على مائتي سنة . وانقطعت صلة اليابانيين في أثناء هذين القرنين عن بقية أجزاء العالم تماما حتى لكانهم يعيشون في كوكب آخر غير الأرض ؛ إذ حرم عليهم بناء أية سفينة يكبر حجمها عن حجم زورق الانتقال الساحلي . وحظر على اليابانيين مغادرة البلاد إلى الخارج ، ومنع الأوروبيون من دخول البلاد .

ظلت اليابان قرنين كاملين معزلة عن مجرى التاريخ الرئيسى وواصلت العيش في ظل إقطاع جذاب ، كانت خمسة في المائة من السكان في أثناءها هي الساموراي ، أى المقاتلة ومعهم النبلاء وعائلاتهم ، تحكم بقية السكان حكما جائرا مطلقا لا ضابط له ولا حدود . حدث ذلك كله والعالم الخارجى الضخم يواصل تقدمه ويوسع آفاق آرائه وفلك قواه . فتسكّرت السفن الحربية الشكل التى تمر بهوار الروس الأرضية اليابانية المعتدلة بالبحر ، وكانت بعض السفن تتعطل أحيانا ويحبج نوتيتها إلى الشاطئ ، ثم جاءتهم النذر عن طريق المستوطنة المولندية القائمة على جزائر ديشيا ، وهى همزة الوصل بينهم وبين العالم الخارجى — أن اليابان لم تكن تسابر ركب القوة في العالم الشرقى . وأقبلت في ١٨٣٧ سفينة دخلت خليج ييدو رافعة علما حيينا من نجوم وشقق ملونة ، وقد حملت بعض الملاحين اليابانيين الذين التقطتهم والتيار يدفعهم بعيدا في المحيط الهادى . وعندئذ أطلقت المدافع على السفينة فاضطرت إلى الانسحاب . وسرعان ما عاد هذا العلم إلى الظهور ثانية يرغرف فوق سفن أخرى . منها واحدة جاءت في ١٨٤٩ للمطالبة بإطلاق سراح ثمانية عشر بحارا تمخطت سفيلتهم باليابان . ثم جاءت في ١٨٥٣ أربع سفن حربية أمريكية بقيادة قائد الأسطول برى Perry ورفضت أن تلتسب ، فألقى القائد مراسيه في المياه المحرمة على الأجانب ، وأرسل رسلة إلى الحاكمين الذين كانوا يشتركان وقتئذ في حكم اليابان . ثم عاد في ١٨٥٤ بشرة سفن ، سفن ضخام مذهلة يدفعها البخار وقد زودت بالمدافع الكبيرة ، وقدم مقترحات تتعلق بالتجارة والاتصال بالخارج ، لم يسع اليابانيين إلا قبولها . ونزل القائد إلى البر يحف به حرس مكون من خمسمائة رجل لسكى يوقع المهادنة . ووقفت الجماهير وهى لا تمكث تصدق أعينها تشهد هؤلاء الزوار الوافدين من العالم الخارجى ، وهم يحترقون شوارع مدينتهم .

وما لبثت الروسيا وبريطانيا أن حذتا حذو أمريكا . ورأى نيل عظيم كانت أملاكه تطل على مضيق شيمونوسكى أن يطلق مدافعه على السفن الأجنبية ، فجاءت

عمارة حربية من سفن بريطانية وفرنسية وهولندية وأمريكية فدمرت بطارياته وبددت  
شمل جنده المقاتلين بالسيوف ، وأخيراً جاء أسطول الحولاء الحلفاء في ١٨٩٥ ، فألقى  
مناسيه خارج كيوتو وفرض على اليابان تعديل المعاهدات اضطرها إلى فتح أبوابها على  
مصاريعها للعالم .

أذلت هذه الأحداث اليابانيين إلى أقصى حد . فهوأ بهمة وذكاء مدهش يعملون  
على رنح ثقافتهم ونظمهم إلى مستوى الدول الأوربية . ولم يحدث قط في تاريخ العالم  
بأسره أن خطا شعب مثل تلك الخطوة المبهولة التي خطتها عند ذاك اليابان : كانت في  
١٨٦٩ شعباً يعيش في القرون الوسطى ، ويمثل صورة هزلية خيالية لأشد أنواع نظم  
الإقطاع « الرومانسي » تطرنا ، على أن شعبها أصبح في ١٨٩٩ مصطبنا تماماً بالطابع  
الغربي ، ويعيش على مستوى أرق الدول الغربية تقدما ، فبددت تماماً بذلك اقتناع الناس  
بأن آسيا كانت تتأخر عن أوروبا تأخراً لا مرد له ولا رجاء في إصلاحه . وجعلت كل  
تقدم أحرزته أوروبا يبدو بالموازنة بطيئاً متواثماً .

ويضيقي المقام هنا دون تفاصيل حرب اليابان مع الصين في ١٨٩٤ — ١٨٩٥ .  
وحسبك أنها دلت على مدى تطبعها بالطابع الغربي . إذ دلت على أن لها جيشاً قادراً  
ذا نظام غربي ، وأسطولا صغيراً ولكنه سليم . على أن دلالة نهضتها ومعزاهها وإن  
لقيت التقدير من بريطانيا والولايات المتحدة ، اللتين شرعنا آتفاً تاملها كدولة  
أوربية ، إلا أن تلك الدلالة لم تفهمها الدول الكبرى الأخرى المشغلة في البحث عن « هند »  
جديدة بقارة آسيا . ذلك أن روسيا كانت تتقدم جنوباً خلال منشوريا إلى شبه جزيرة  
كوريا ، وإن فرنسا قد وطدت أقدامها آتفاً بمنطق تونكين وأنام ، على حين راحت  
ألمانيا تتربص كالذئب الجائع باحثة عن مستعمرة لها . واجتمعت الدول الثلاث على منع  
اليابان من اجتئاء أية ثمرة للحرب مع الصين . وكانت منهكة القوى من جراء تلك  
الحرب ، كما أن الدول الثلاث هددها بالحرب .

وخضعت اليابان إلى وحين وأخذت تجمع قواها . فلم تنقش عشر سنوات حتى أصبحت  
على أهبة الاستعداد للحرب مع روسيا ، وهي حرب تؤذن بحقبة جديدة في تاريخ آسيا  
أى بانتهاء فترة السلف الأوربي . ولاشك أن الشعب الروسي كان بطبيعة الحال جاهلاً  
بكل تفاصيل تلك المتاعب التي كانت تدبر له في النصف الآخر من العالم وهو منها براء ،  
كما أن العقلاء من ساسة روسيا كانوا يمارضون هذه الفتوح والمجاعات الحفقاء ، ولكن

القيصر كان يحيط به جمع من الناصرين للاليين ، فهم التراندوقات أبناء عمومته .  
وكانوا قد غرقوا إلى أذقانهم في مقامرتهم التي أزمعوا بها نهب نفائس منشوريا والصين ،  
فلم يعودوا يطبقون الانسحاب من هذا لليدان ، ولقد أخذت اليابان في نقل جيوشها عبر  
البحر إلى كوريا ، كما شرعت روسيا في إرسال مئات القطارات المحملة بالفلاحين  
الروس عبر سكة حديد سيبريا لكي يموتوا في تلك الليادين الحربية القاصية

وهزم الروس برا وبحرا لسوء قيادتهم وعدم النزاهة في إمداداتهم . وأقلع الأسطول  
الروسي يبحر البلطيق حول إفريقيا لكي يدمره اليابانيون عن آخره بمضيق تسوشيا .  
ونار العامة في روسيا وقد أغضبهم إلى أقصى حد هذه للذبحة القاصية التي نزلت بأبنائهم  
بتلك البلاد القاصية دون مبرر . فاضطر القيصر إلى إنهاء الحرب في ١٩٠٥ . فأعاد إلى  
اليابان النصف الجنوبي من جزيرة سخالين التي استولت عليه روسيا في ١٨٧٥ ،  
وتخلى عن منشوريا وتنازل عن كوريا لليابان ، لقد أقبلت نهاية اجتياح أوروبا لآسيا  
وأخذت أوروبا توقف كل محاولة لها أرادت بها في للامضى عجم عود تلك القارة أو سبر  
أغوارها .

## الفصل الرابع واستون

### الإمبراطورية البريطانية في ١٩١٤

ربما جاز لنا أن نلاحظ هنا في شيء من الإيجاز اختلاف طبيعة الأجزاء التي تتكون منها الإمبراطورية البريطانية في ١٩١٤ التي أُناحت السفينة البخارية والسكك الحديدية ضم أجزائها بعضها إلى بعض . كانت ولا تزال خليطاً سياسياً فريداً في بابها تماماً ؛ إذ لم ير العالم لها من قبل مثيلاً .

ومركز تلك المجموعة كلها وأول دولة فيها هي الجمهورية للتوجة السهية بالملكة البريطانية المتحدة ، التي تحتوي أيضاً على إيرلندة ( ضد رغبة شطر عظيم من الشعب الإيرلندي<sup>(١)</sup> ) . وكانت الأغلبية في البرلمان البريطاني للكون من البرلمانات للتعنة الثلاثة في إنجلترا ( وويلز ) واسكتلندة وإرلندة ، هي التي تعين رئيس الوزارة ونوعها وسياستها ، وتحدد ذلك بناء على اعتبارات السياسة البريطانية الداخلية ، فهذه الوزارة هي الحكومة العليا الفعالة ، ولها سلطات إعلان الحرب وعقد الصلح في كل أرجاء الإمبراطورية .

وبل الولايات البريطانية في ترتيب الأهمية السياسية الجمهوريات للتوجة بأستراليا وكندا ونيوفاوندلاند ( وهي أقدم للممتلكات البريطانية ١٥٨٣ ) ونيوزيلندة وجنوب إفريقيا ، وكلها مستقلة فعلاً كما أنها دول تحكم نفسها بنفسها في تحالف مع بريطانيا العظمى ، ولكن يقيم بكل منها ممثل للتاج تعينه الحكومة للتربة في دست الحكم .

وبعد ذلك نجىء الإمبراطورية الهندية وهي صورة مكبرة لإمبراطورية القنولى الأعظم ، وقد أصبحت الآن بما فيها من ولايات تابعة وحميات ، تمتد من بلوخستان إلى بورما وتضم كذلك بحية عدن ، وفي تلك الإمبراطورية الضخمة يلعب التاج البريطاني ووزارة الهند ( تحت رقابة البرلمان ) دور الأسرة التركمانية القديمة .

---

(١) قد تشيرت هذه الحال الآن بالنسبة لإيرلندة فأعلنت جمهوريتها مستقلة وأصبح لها برلمان خاص .

ثم تجيء مصر ذات المركز العاظم التي لازال إسمياً جزءاً من الإمبراطورية التركية ولا تزال تحتفظ بها أهلها الخاص وهو الحديوى ، ولكنها تحت حكم اللوطفين البريطانيين ذلك الحكم الذى يكاد يكون استبدادياً .

ثم ولاية السودان المصرى الإنجليزى الذى هو فى حال أشد غموضاً ، والذى يحتله ويديره البريطانيون بالاشتراك مع الحكومة المصرية ( الواقعة تحت الهيمنة البريطانية ) . ثم إن هناك عدداً من المجتمعات المستعنة بالحكم الذاتى إلى حد ما ، منها ماهو إنجليزى الأصل ومنها ماليس كذلك ، وفيها المجالس التشريعية المنتخبة والهيئات التنفيذية العينة بأوامر ومراسيم ، مثل مالطة وجايبكا وجزائر يهاما وبرموده ، وبعد ذلك مستعمرات التاج ، التى قد يقترب فيها حكم الحكومة البريطانية ( عن طريق وزارة المستعمرات ) من نوع الحكم الاستبدادى المطلق كما هو الشأن فى سيلان وتريباد و فيجي ( التى كان لها مجلس معين ) وجبل طارق و سلت هيلانة ( اللتين لها حاكم ) .

ثم مساحات مترامية من أقاليم مدارية ( بوجه خاص ) وهى أقاليم لإنتاج المواد الخام ، لها مجتمعات ضعيفة سياسياً ومتأخرة حضارياً ، وكلها محميات إسمية ، يديرها مندوب سام يعين فوق حكام من الأهالى ؛ ( شأن بيسوتولاند ) أو فوق شركة تستمتع بمرسوم ملكى ( كما هو الحال فى روديسيا ) . وكانت وزارة الخارجية فى بعض الحالات ووزارة المستعمرات فى بعضها الآخر ، ووزارة الهند أحياناً ، هى التى عملت على الحصول على تلك الملكيات التى تقع تحت هذا الصنف الأخير الذى يعد من حيث المركز أدنى الملكيات شأنًا ونعديداً ، ولكن وزارة المستعمرات أصبحت الآن مسئولة عنها فى معظم الحالات .

لله قد اوضح الآن بما تقدم أن وزارة واحدة لم تنضم قط على الإمبراطورية البريطانية كلها ولا تفرد لإدراكها عقل واحد ، فهى خليط من أجزاء صغيرة كبرت أو فلذات تراكت بعضها فوق بعض ، خليط يختلف تماماً عن كل شيء حمل اسم الإمبراطورية قبلاً ، كما أنها أصبحت تضمن قيام سلام وأمن مدعى الرقعة ؛ من أجل ذلك تحملها وناصرها كثير من الشعوب التابعة لها - على الرغم مما أبداه موظفوها من مظالم وعدم كفاية ، وعلى الرغم مما تجلّى فى جمهورها بريطانيا نفسها من إهمال وعدم رعاية للأمانة النلوطة بنقته . والإمبراطورية البريطانية تمتد أملاكها وراء البحار شأن الإمبراطورية



الأمنية ؛ فطرقها طرق بحرية ، كما أن همزة الوصل بين أطرافها الأسطول البريطانى ، فإن تماسكها ككل الإمبراطوريات يستمد كل الاعتماد على وسائل اللواصلات ؛ وقد أدى تطور فنون الملاحة وبناء السفن والبواخر بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر إلى إمكان قيام سلم مناسب على يديها هو السلم البريطانى « Pax Britannica » ، كما أن ظهور تطورات جديدة فى وسائل النقل الجوى أو البرى السريع ربما أفضت فى أية لحظة من اللحظات إلى حرمانها تلك للزيرة وجعلها غير مناسبة .

## افضل النجاس والستون

### عصر التسليح في أوروبا والحرب العظمى

١٩١٨ — ١٩١٤

إن تقدم العلوم الطبيعية والمادية الذي تولدت عنه جمهورية أمريكا الهائلة هذه التي تعتمد على الزورق البخارى وسكة الحديد ، وتخفض عن قيام الإمبراطورية البريطانية . للقلقة والقائمة على البخارة ، وامتدادها في كل أرجاء العالم ، قد أفضى إلى قيام نتائج أخرى مختلفة عن هذه تماماً في الأمم الزدحمة بالسكان في قارة أوروبا . ذلك أنها وجدت نفسها محصورة داخل تخوم وضعت في أثناء عصر الحصان والطريق البرى، وأن كل أمل لها في التوسع وراء البحار قد سبقها إليه بريطانيا العظمى إلى حد كبير . وكانت روسيا هي الوحيدة التي وجدت أمامها سيلاً إلى التوسع شرقاً ؛ فدفعت عبر سيبيريا خطاً حديدياً عظيماً ما زالت به حتى تورطت في القتال مع اليابان ، ثم تقدمت جنوباً بشرق نحو حدود فارس والهند فأزجحت بريطانيا بذلك . أما بقية الدول الأوروبية فكانت في حال من ازدهار السكان متزايدة التناقص . فاضطروا إلى تنظيم شئونهم على أساس أرحب رغبة منهم في الوصول إلى أقصى ما في الحياة الإنسانية وجهازها من إمكانيات : - وذلك إما بإقامة ضرب من الاتحاد الإرادى وإما بالخضوع لاتحاد تفرضه عليهم دولة أخرى متسلطة . وقد مالت الآراء العصرية في معظم الدول إلى إنشاء تلك الاتحادات الإدارية ، ولكن التقاليد السياسية كانت تدفع بكل قواها قارة أوروبا نحو النوع الثانى من الاتحاد .

كان سقوط إمبراطورية نابليون الثالث ، وتأسيس الإمبراطورية الألمانية الجديدة إشارة وجهت الناس - وهم بين خائف وجل وراج مستبشر - نحو فكرة توحيد أوروبا كلها بزعامة الألمان . وانقضت أربعة وأربعون عاماً من السلم القلق للضطرب كانت سياسة أوروبا في أثناءها تتركز حول ذلك الاحتمال . ولكن فرنسا منافس ألمانيا الدائم على العظمة في أوروبا منذ أيام تقسيم إمبراطورية شرلمان ، حاولت أن تصلح من ضعفها

الطبيعى بقصد محالفة وثيقة مع روسيا ، كما أن ألمانيا ربطت نفسها بأوثق رباط بالإمبراطورية النمسية ( التى زال عنها اسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة منذ أيام نابليون الأول ) كما ربطت نفسها إلى حد أقل بمملكة إيطاليا الحديثة للشوهر . وظلت بريطانيا العظمى فى البداية مترددة كعادتها تقدم رجلا فى شئون أوروبا وتؤخر أخرى . ولكنها اضطرت بالتدريج إلى الارتباط الوثيق بالفريق الفرنسى الروسى بسبب تضخم الأسطول الألمانى تضخما بادرى العدوان . وقد أفضت أطماع الإمبراطور غليوم الثانى ( ١٨٨٨ - ١٩١٨ ) فى العظمة الباذخة إلى اندفاع ألمانيا قبل الأوان فى مغامرات وراء البحار ، انتهت إلى انتظام اليابان والولايات المتحدة مع بريطانيا العظمى فى دائرة أعدائها .

تنافست كل هذه الشعوب فى التسليح . وأخذت نسبة الإنتاج القومى للوجهة إلى صنع للدافع والعتاد الحربى والسفن الحربية وما إليها تتزايد من سنة إلى أخرى . وأخذ ميزان الأمور ينجح مرتعشاً عاماً بعد عام نحو الحرب ، ولكن الحكمة كانت تعود فتقضى بتجنب الحرب ثم اندلع لميها آخر الأمر ، فهاجمت ألمانيا والنمسا كلا من فرنسا والروسيا وصربيا ، واخترقت الجيوش الألمانية بلجيكا للوصول إلى فرنسا ، فدخلت بريطانيا الحرب على الفور مناصرة لبلجيكا ، وأدخلت معها حليفتها اليابان ، وسرعان ما انضمت تركيا إلى صفوف الألمان . ثم عادت إيطاليا فدخلت الحرب مرة ثانية ضد النمسا فى ١٩١٥ ، وانحازت بلغاريا إلى دول وسط أوروبا فى أكتوبر من تلك السنة . ثم اضطرت رومانيا فى ١٩١٦ إلى الدخول فى الحرب ضد الألمان وتلتها الولايات المتحدة والصين فى ١٩١٧ . ويضيق اللقاع فى هذا الكتاب عن تحديد نصيب كل فريق من اللوم على هذه الكارثة الفظيعة . فليس السؤال الأكثر أهمية هو « لماذا لم يتكهن الناس بشووب الحرب العظمى ؟ » بل « لماذا لم يحولوا دون ذلك ؟ » فإن العلم بأن عشرات الملايين من الناس كانوا من شدة الوطنية العمياء أو القباوة أو بلاهة الحص بحيث لم يستطيعوا أن يعموا تلك الكارثة بخطوة بخطوة نحو الوحدة الأوروبية القائمة على أسس صريحة كريمة ، أخطر كثيراً لدى الإنسانية من العلم بأن طائفة قليلة من الناس قد عملت على إشعالها .

والحال الذى بين أدينا لا يسمح بأى حال بتقصى التفاصيل المعقدة للحرب . على أنه - تبين جلياً بعد بضعة شهور أن تقدم العلوم الفنية العصرية قد غير طبيعة الحرب تغييراً



عميقاً ، ولا شك أن علم الطبيعة يمنع الإنسان القوة والتمسك على الفولاذ والسافات والأمراض ؛ وإن كان استخدام هذه القوة أو سوء استعمالها يعتمد على فطنة العالم الخلقية والسياسية ، لذا فإن حكومات أوروبا التي كانت تستوحى الإلهام من سياسات عتيقة بالية قوامها الكراهية والشكوك ، وجدت طوعاً وبمها قوى لا نظير لها تستطيع بها التدمير والمقاومة في وقت واحد ، وأصبحت الحرب شعلة من نار شملت العالم كله وأنت على الأخضر واليابس ، وأزلت من الحسائر بكل من الظافر والمنهزم ما لا يتناسب ألبتة مع قيمة المسائل المتنازع عليها ، وابتدأت الحرب بمرحلة من الاندفاع المائل من الألمان نحو باريس قابلة في الشرق اجتياح الروس لبروسيا الشرقية ، ولكن هذين المجهوبين صدا ، وورد المهاجم على عقبيه في العالين ، ثم تطورت قوة الدفاع ؛ فأدخلت التحسينات السريعة على حرب الخنادق ، حتى اضطرت جيوش الفريقين أن تظل ردىاً من الزمن في خنادق تمتد في أوروبا من أفساها إلى أفساها ، دون أن يمكنها القيام بأى تقدم يغير تسكد خسائر فادحة ، وكانت جيوش كل من الطرفين تعد باللايين ، وقد نظم من ورأهم السكان بكامل عددهم بنية إمداد جبهة القتال باليرة ( الطعام ) والذخيرة . فكان كل أنواع النشاط الإنتاجى قد انقطعت تقريباً إلا ما أسهم بنصيب في العمليات العرية .

وأخذ كل شباب أوروبا ورجالها القادرون على العمل إلى الجيوش أو الأساطيل أو إلى المصانع التي أنشئت آنذاك على الفور لخدمة الجيش والأسطول ، وحلت النساء فى الصناعة محل الرجال إلى درجة هائلة ، وأغلب الظن أن أكثر من نصف السكان فى الدول الأوروبية المتحاربة قد غيروا أعمالهم ومنهم تغييراً تاماً فى أثناء ذلك الكساد المهور . فسكانهم زرعوا اجتماعياً من يبتهم انزاعاً وأزولوا بيئة أخرى . وقيد الترية والأبحاث العلمية العادية بقيود جعلتها قاصرة أو موجهة تماماً إلى أهداف الحرب المباشرة ، كما أن توزيع الأخبار ونشرها قد أصيب بالعجز والفساد والنشوب بما فرض عليها من رقابة عسكرية وما داخلها من أعمال الدعاية .

ثم تحول دور التوقف عن الأعمال العسكرية بالتدرج إلى دور من الاعتداء على السكان غير المحاربين وراء الجبهة ، وذلك بتدمير موارد الطعام والتارات البحرية ، كأنه

حدث تقدم متواصل في حجم المدافع المستعملة ومدائها . وفي مستحدثات تنطوى على البراعة من أمثال قنابل الغاز السام وتلك القلاع الصغيرة المتحركة المسماة بالدبابات ، وغيرها من وسائل تحطيم مقاومة الجنود بالحنادق . على أن العرب الجوية قد حدث بها دون غيرها من وسائل الحرب العديدة أعظم انقلاب . فبعد أن كان للحرب اتجاهان أصبح لها ثلاثة ، وكانت الحرب قبل هذه اللحظة من تاريخ الإنسانية لا تحدث إلا حيث تزحف الجنود وتلتقي ، فأما الآن فإنها تدور رحاها في كل مكان ، وقد حملت مناطيد زبلن أولا ثم قاذفة القنابل فيما بعد رعى الحرب فوق الجبهة ووراءها إلى منطقة متزايدة الاتساع للشايط المدنى البعيد عن الجبهة . واختفى من الدنيا التميز القديم الذى كان يفرق حسب أصول الحرب المتمدينة بين المدنيين من السكان والحاربين منهم ، فشكل منتج الطعام ، وكل حائك للثياب ، وكل قاطع لشجرة أو مصلح لنزل ، وكل محطة للسكك الحديدية ، وكل مخزن من المخازن ، أصبح يمد صيدا مباحا للتدمير ووسائله . وكان كل شهر ينقضى من الحرب يزيد مجال الحرب الجوية ويوسع نطاق الرعب منها . ولم يرح الحال كذلك ، حتى أصبحت مناطق عظيمة من أوروبا في حالة حصار دائم وتعرض لمجمعات لا تتقطع ليلة واحدة ، فكانت المدن المكشوفة كندن وباريس تقضى الليلة بعد الليلة ساهرة لا يغمض لها جفن - والقنابل تنفجر من فوق رأسها ، والمدافع المضادة للطائرات تحدث ضوضاء لا تطاق ، على حين تجلجل آلات المطافي وسيارات الإسعاف بسرعة خلال الشوارع المظلمة المهجورة ، وكانت آثار ذلك في عقول المسنين وصغار الأطفال ومحتهم محزنة ومدمرة بوجه خاص .

على أن الأوبئة التى كانت من قديم تسير متبعة دائما خطى الحروب ، لم تظهر إلا عند ختام القتال نفسه فى ١٩١٨ . فإن علم الطب ظل أربع سنوات يدفع عن البشرية كل وباء عام ؛ ثم انتشر فى العالم وباء عظيم من الإنفلونزا قضى على بضعة ملايين من الناس ، وكذلك أجد شبح المجاعة إلى حين ، ومع ذلك فإن معظم أوروبا كان عند بداية ١٩١٨ يعيش فى حالة من المجاعة الخفيفة والمنظمة ، فقد هبط إنتاج الطعام فى كل أرجاء العالم هبوطا عظيما بسبب استدعاء الفلاحين إلى ميادين القتال ، فضلا عن أن توزيع ما أمكن إنتاجه من الأطعمة كان يحول دونه عبث العواصم وإفسادها فى البحر ، واقطاع الطرق العادية بسبب إقفال الحدود بين الدول ، وبسبب ما اعترى نظام المواصلات العالمية من اضطراب وفساد . وعندئذ وضعت الحكومات المختلفة يدها على

مولد الطعام الضئيلة للتناقص ، وراحت توزع الأطعمة جرايات على شعوبها . وفضلا عن الطعام أصبح العالم بأجمعه يكابد الشقاء في السنة الرابعة من قلة الثياب وللنازل ومن نقص كثير . من نوازم الحياة العادية . وأصبحت الأعمال الحرة والحياة الاقتصادية بأعمق الاضطراب . وران القلق والمهم على النفوس جميعاً . وأصبح معظم الناس يعيشون عيشة منك لم يألوها قبلا .

توقفت الأعمال الحرة في نوفمبر ١٩١٨ . إذن دول أوروبا الوسطى انهارت بعد جهد هائل بذلته في ربيع ١٩١٨ ، كاد يدفع الألمان إلى باريس نفسها . ذلك أنهم استنزفوا آخر قطرة من أرواحهم ومواردهم .

## افضل الناس استون

### النظام الجديد بالروسيا

وقبل انهيار دول أوروبا الوسطى - بليف وسنة كاملة انهارت قيصرية روسيا شبه الشرقية التي ادعت أنها استمرار للإمبراطورية البيزنطية . فقد ظلت تلك القيصرية تسرى فيها مظاهر الفساد العميق قبل الحرب يضع سنوات ، إذ كان البلاط القيصرى واقفاً تحت سيطرة دجال دينى مضحك ، هو راسبوتين ، فضلاً عن أن الأداة الحكومية للدولة والعسكرية كانت فى حالة مفرطة من عدم الكفاية والرشوة والفساد . ولما أعلنت الحرب انتشرت بالروسيا فورة عظيمة من الحماسة القومية . فاستدعى لحمل السلاح جيش عرمرم من المجندين ، لم يكن له جتاد عسكرى كاف ولا العدد الكافى من الضباط الأكفاء ، ولم يلبث ذلك الجيش العظيم السوء الإمداد الضعيف القيادة أن كُذِفَ بلانظام إلى الحدود الغسوية والألمانية .

ولا سبيل إلى الشك فى أن مبادرة الجيوش الروسية إلى الظهور فى بروسيا فى سبتمبر ١٩١٤ صرف هم الألمان والتفاتهم عن تقدمهم السريع الأول للظفر على باريس ، فكان آلام ووفاة عشرات الألوف من الفلاحين الروس ذوى القيادة السيئة هى التي أتخذت فرنسا من الهزيمة التامة فى تلك الحملة الأولى الخطيرة ، وجعلت أوروبا الغربية بأكملها مدينة بالفضل لذلك الشعب العظيم الأسيف . وقد وقع عبء الحرب على هذه الإمبراطورية للترامية الأطراف شديداً مضيقاً لم تقو على احتلاله قواها . فإن الجنود الروس العاديين كانوا يرسلون إلى ميدان القتال دون مدغنية تمهد لهم وتظاهرهم ، بل حتى دون ذخيرة للبنادق ؛ لقد أوقفهم ضباطهم وقوادهم فى حالة من حالات الهذيان الجنونى المشتعل بالحماسة العسكرية ، فظلوا إلى حين يقاسون الآلام صامتين مثلما تقاسيها الحيوانات . ولكن للصبر والتحمل حدا حتى لدى أشد الناس جهلاً . فأخذ يتفشى شعور من الاشمئزاز العميق من القيصرية بين تلك الجيوش المهيضة من الرجال الذين غدر بهم كبارهم وأضاعوا حياتهم هدرآ . لذا غبت روسيا منذ نهاية ١٩١٥ ، مصدر قلق



متزايد لحلفائها القريبين ، فلما ظلت عام ١٩١٦ ملتزمة خطة الدفاع إلى حد كبير ، وانتشرت في الجواشاعات تشير إلى قرب عقد الصلح للفرد بينهما وبين ألمانيا .

وفي ٢٩ ديسمبر ١٩١٦ قتل الراهب راسبوتين في أثناء وليمة عشاء أقيمت بمدينة بيتروغراد ، وبذل المخلصون من الرجال جهداً متأخراً لتنظيم القيصرية . ولكن الأمور كانت تندفع في شهر مارس اندفاعاً سريعاً ؛ فإن اللذان التي هبت بيتروغراد من أجل الطعام ما لبثت أن تحولت إلى حركة عصيان ثورية ، وحاولت الحكومة إلقاء مجلس الدوما ، وهو الهيئة النخيلية في البلاد ، كما حاولت اعتقال زعماء الأحرار ، ثم ألف الأمير لافوف حكومة مؤقتة ، وتنازل القيصر عن عرشه في ١٥ من مارس . وانقضت فترة من الوقت ظن الناس في أثناءها أن في الإمكان قيام ثورة معتدلة ذات ضوابط ، ولكن في ظل قيصر جديد . ولكن اتضح جلياً أن تدمير الثقة الشعبية بالروسيا قد تجاوز المدى ولم يعد في إمكان مثل تلك التسويات إصلاح شأنه . ذلك أن الشعب الروسي قد سمَّ سامة للوت كل ما في أوروبا من نظم قديمة : من قياصرة ومن حروب ومن دول عظمى ؛ لقد كان يلتمس الراحة - والراحة السريعة العاجلة بما يقامى من تماسات لا تطاق . ولم يكن الحلفاء يدركون ألبتة حقائق الموقف في الروسية ، فإن رجال الديبلوماسية فيهم كانوا يجهلون الشئون الروسية جهلاً تاماً ، إذ كانوا من عليا القوم اللذين يوجهون اتهامهم إلى البلاط الروسي أكثر منهم إلى الروسية نفسها ، فلا غرابة إذن أن يتوالى صدور الخطأ منهم باستمرار إزاء الموقف الجديد . ولم تكن نفوس هؤلاء الديبلوماسيين تتطوى على الكثير من حسن النية نحو اللذاهب والنزعات الجمهورية ، لذا أظهروا ميلاً واضحاً إلى إحراج الحكومة الجمهورية الجديدة جهداً مستطاعهم . وكان على رأس الحكومة الروسية الجمهورية زعيم فصيح جذاب هو كيرنسكي ، الذي وجد نفسه غرضاً لهجمات حركة ثورية أخرى أبعد غوراً ، هي « الثورة الاشتراكية » في داخل بلاده ، كما وجد حكومات الحلفاء في الخارج تمامه بفتور وقلة اهتمام . لم يسمح له حلفاؤه أن يعطى الفلاحين الروس الأرض التي يتلهفون عليها ولا أن يمنحهم السلم وراء حدودهم . وأخذت الصحافة الفرنسية والبريطانية تهرق ذلك الحليف المتك بمطالبته بالقيام بهجوم جديد ، فلما أقدم الألمان في تلك الساعة على مهاجمة ريبا برا وبحراً ، خارت عزائم إمارة البحر البريطانية دون القيام بمحملة في بحر البلطيق لإيقادها أو تخفيف الضغط عنها ، وبذا اضطرت الجمهورية الروسية الجديدة

أن تقاتل الألمان وحدها دون معاونة من أحد . ويبغى لنا أن نلاحظ هنا أن البريطانيين وحلفاءهم تركوا للألمان السيادة التامة على بحر البلطيق طوال الحرب كلها فيما عدا بضعة هجمات قامت بها غواصاتهم ، وذلك على الرغم من تفوقهم البحري ومن الاعتراضات للبرية التي قدمها لورد فيشر الأميرال الإنجليزي العظيم ( ١٨٤٩ — ١٩٢٠ ) .

ومع ذلك فإن الشعب الروسى كان مصمما على وضع حد للحرب ، مهما كلفه ذلك من عمن . فقد ظهرت إلى عالم الوجود بمدينة بتروغراد هيئة تمثل العمال وأطمة الجند ، هي هيئة السوفييت ، التي أخذت تطالب بمقعد مؤتمر دولي للاشتراكيين بمدينة استوكهولم . وكانت فنن الطعام تحدث في ذلك الأوان بيرلين ، وتخلخل السأم من الحرب بكل من النمسا وألمانيا إلى قرارة النفوس ، وتدنا الأحداث التالية دلالة لا سبيل إلى الشك معها أنه لو أن ذلك المؤتمر عقد لسجل بمقد صلب معقول في ١٩١٧ يقوم على أسس ديمقراطية ولأحدث بألمانيا ثورة في ذلك الوقت نفسه . وأخذ كيرنسكى يتضرع إلى حلفائه الثوريين أن يسمحوا بإعقاد ذلك للتوئم . ولكنهم رفضوا ذلك الطلب بحافة أن يؤدي قوله إلى انتشار للذاهب الاشتراكية والجمهورية في أرجاء العالم قاطبة ، على الرغم من قبول أغلبية صغيرة لحزب العمال البريطانى للفكرة ، وظلت الجمهورية الروسية للعدالة التمسة تقاتل دون أن تتلقى عونا معنويا أو ماديا من الحلفاء ، وقامت بهجوم أخير يائس في يوليو . ولكن المهجوم أخفق بعد أن أحرز بضعة انتصارات أولية ، وللمرة الثانية ذبح الروسيون ذبحا عظيما .

وهنا تجاوزت الأمور حد احتمال روسيا فتمرد الجند في الجيوش الروسية وبخاصة في الجبهة الشمالية ، ولم تلبث حكومة كيرنسكى أن خلت في ٧ من نوفمبر ١٩١٧ ، وأن استولى على مقاليد الأمور السوفييت ، الذين يسيطر عليهم الاشتراكيون البلاشفة برئاسة لينين ، وأن طلبوا عقد الصلح دون أدنى مراعاة للدول الثرية . وفي ٢ من مارس ١٩١٨ عقد صلح منفرد بين روسيا وألمانيا بمدينة برست ليتوفسك .

وسرعان ما اتضح أن هؤلاء الاشتراكيين البلاشفة كانوا رجلا لا يختلفون في طبيعتهم تماما عن نصحاء الدستوريين والثوريين الذين أقاموا حكومة كيرنسكى . فإنيهم كانوا شيوعيين ماركسيين متصبين . وكانوا يعتقدون أن توليهم زمام السلطان بالروسيا إن هو إلا بداية ثورة اشتراكية مالية عامة ، فانطلقوا يغيرون النظام الاجتماعي والاقتصادى

في البلاد ويسنون في ذلك أقصى غاية الإيمان للطلق وعدم الحجة التامة . أما دول أوروبا الغربية وأمريكا فقد بلغت من أخبار السوء عن تلك الثورة ، كما أنها كانت من العجز التام بحيث لم تستطع أن تقدم الإرشاد لتجربتها الحارقة أو تمد إليها يد العون . فضلا عن أن الصحافة هبت لتحقير هؤلاء الفتنين والخط من كرامتهم ، كما هبت الطبقات الحاكمة لتعظيمهم مهما يكن أساس ذلك التعظيم ومهما يكن الثمن الذي يدفعونه هم أنفسهم أو روسيا في سبيل ذلك . وتواصلت عليهم في صحافة العالم حملات الدعاية الحاملة لأسوأ التخربات للزعجة البشعة ، وراحت تلك الصحافة دون رادع يردعها تصور زعماء البلاشفة في صورة الوحوش البشعة الشائعة الملوطة الأيدي بالدماء والنهب والذين يترغنون في أحوال الملذات البهيمية تمرغا يحمل فضائح البلاط القيصرى في أثناء فترة تسلط راسبوتين تصبح بالنسبة لهم ناصعة البياض طاهرة القليل . وسيرت الحملات العسكرية على تلك البلاد الحارقة القوى وشجع كل نائر عليها وكل مفير ، وأمد بالصلاح ومنع الأموال .

ولم يترك أعداء النظام البلشفي للذعورون وسيلة من وسائل الهجوم أو الاعتداء لم يستخدموها مهما بلغت من السفالة أو البشاعة . وهكذا نجد في ١٩١٩ البلاشفة الروس الذين كانوا يحكمون بلادا قد أنهكتها تماما وأنسدت نظامها حرب هدية استمرت خمس سنوات ، يقاتلون حملة عسكرية بريطانية نزلت عند أركانجل : وغارة لليابانيين في شرق سيبيريا ، ويقاثلون الرومانيين في الجنوب ومعهم جنود فرنسيون ويونانيون ، ويقاومون الأميرال كولتشاك الروسى بـسيبيريا ، والجنرال ديلسكين بالقرم يماونه الأسطول الفرنسى .

ثم كاد جيش إستونى بقيادة الجنرال يوديليتش أن يصل إلى بطرسبرج في يوليمن تلك السنة . وفي ١٩٢٠ هاجم البولنديون الروسيا بتحريض من فرنسا . كما أن مغيرا رجعا جديداً ، هو الجنرال رانجل ، تولى العمل الذى تخلى عنه الجنرال ديلسكين وراح يفترو وطنه ويبحث في أرجائه فساداً . ثم إن بحارة الأسطول الراسى عند كرونستاد تمردوا في مارس ١٩٢١ . ولكن الحكومة الروسية برئاسة لينين تحملت كل هذه المضايقات . بل لقد أبدت قوة تماسك عجيبة ، وظاهرها عامة الشعب في الروسيا دون تردد في أثناء تلك الظروف للفرطة السرى . حتى إذا وافت نهاية ١٩٢١ كانت بريطانيا العظمى وإيطاليا قد اعترفتا على صورة ما بالحكم الشيوعى في الروسيا .

ولكن لأن وقت الحكومة البلشفية في مكافئتها للتدخل الأجنبي والثورات الداخلية ، فإنها كانت أقل حظاً من التوفيق في إقامة نظام اجتماعي جديد بالروسيا مؤسس على الأفكار الشيوعية . إذ ذلك أن الفلاح الروسي مالك صغير متلهف على امتلاك الأرض ، بعيد عن الشيوعية في فكره وأساليبه بعد السماء عن الأرض ؛ أجل أعطته الثورة أراضي للمالك الكبير السابق ، ولكن الثورة لم تستطع أن تجعله على زراعة للواد الغذائية مقابل أى شيء إلا العملة القابلة للتداول ، كما أن الثورة دحمت قيمة النقود تقريباً . وأصيب الإنتاج الزراعي بضررة شديدة من جراء اختلال نظام السكك الحديدية وأجهزتها في أثناء الحرب ، حتى لقد انعكس فأصبح مجرد زراعة للواد الغذائية يقوم بها الفلاحون لاستهلاكهم الخاص . أما المدن فقد شملت المجاعات . وبذات محاولات مستعجلة سيئة التنظيم والتدبير لتعديل نظم الإنتاج الصناعي بحيث تتمشى مع النظريات الشيوعية فبانت هي الأخرى بالفشل . فلو أنك نظرت إلى روسيا في ١٩٢٠ شهدت فيها منظراً عجيباً لم تسبق مشاهدته هو منظر الحضارة المصرية وهي في حالة من الانهيار التام .

فإن الصدا كان يأكل السكك الحديدية ويحلبها إلى خردة غير صالحة للاستعمال ، كما أن المدن ظلت تتحول إلى خرائب ، وارتفعت نسبة الوفيات في كل مكان ارتفاعاً شديداً . ومع ذلك كله ظلت البلاد تقاتل أعداءها الذين كانوا يطرقون أبوابها من كل جانب . وحل البلاد بين الفلاحين الزراعيين في ١٩٢١ قسط ومجاعة شديدة في المناطق الجنوبية الشرقية التي خربتها الحرب . ومات ملايين الناس جوعاً .

إزاء هذه الظروف المزرنة عزم المسئولون على التقليل من سرعة عملية البناء والتعمير . وتبنى القوم سياسة اقتصادية جديدة ، وأباحوا قدرأ من حرية للملكية الخاصة وأعادوا نظام النشاط الشخصي والجهد الخاص ، فترتب على ذلك أن عادت إلى حد ما مياه النشاط الإنتاجي إلى مجاريها . وعندئذ أحس الناس كأنما بالروسيا تنصرف عن مذاهب الاشتراكية الإنشائية وتميد إظهار أحوال تكاد تعادل تلك التي شملت الولايات المتحدة قبل ذلك بمائة عام ، وولدت بالبلاد طبقة من الزراعيين الأثرياء هم الكولاح ، وهم النظير الذي يقابل للزراع الأمريكي الصغير ، وتكاثر عدد صفار التجار اللوسرين . على أن الحزب الشيوعي لم يكن ميالاً إلى التخلي عن أهدافه على تلك الصورة ، وإلى السماح لروسيا بأن تتبع الخطوات التي اجتازتها أمريكا قبل ذلك بمائة سنة . لذا ما لبثت أن

ظهرت في ١٩٢٨ حملة قوية لإعادة البلاد إلى النهج الشيوعي في التطور والتنمية، فأشرف مشروع لخمس سنوات ، رعى إلى إحداث توسع سريع عنوة في الصناعة تحت إشراف الدولة ، وخاصة في المنتجات الأساسية الثقيلة ، وفي نفس الوقت استبدلت الزراعة الحشدية ( الجماعية ) ذات النطاق الواسع بإنتاج للزارعين الفرادى . وقد حرمت روسيا من قيادة لينين الحكيمة في ٢١ من يناير ١٩٢٤ ، وكانت طريقة معالجة خليفته ستالين للأمر أخصن من طريقته. وضعت تلك الحطة موضع التنفيذ على الرغم مما اعترضها من صعاب هائلة ؛ أهمها جهل العامة وأمينهم وتأخرهم العام ، وقلة عدد الأكفاء من رؤساء العمال والصناع الفنيين ، وامتناع العالم الغربى عن بذل أية مساعدة بل وانحاذه جانب الخصومة الإيجابية .

ومع ذلك فإن القوم أعلنوا أن الجانب الصناعى من الحطة أصاب قدراً جسيماً من النجاح . نعم أضعوا الشيء الكثير هدرًا ، وأعوزهم إيجاد التاسب الضرورى بين الأمور ، غير أنهم أصابوا من الخير ما لاسيل إلى إنكاره ، ومع ذلك فإن أثر هذه التغييرات الجريئة السريعة لم يكن مرضياً تماماً في حالة الإنتاج الزراعى ، كما أن شتاء أعوام ١٩٣٣ - ١٩٣٤ أزل بالروسيا للمرة الثانية قصا عظيماً في الأطعمة .

أما بقية أجزاء العالم التى كانت تواصل العمل بنظام أرباح رأس المال الفردى وتقيم نتائجها ، فقد كانت تنظر إلى تلك التجربة الروسية بعين اختلط فيها حب الاستطلاع بعدم الثقة والاحترام . وذلك بينما كان النظام القديم نفسه يتعثر في سيره ، فإنه كان يضيق قوة الشراء ويقتصرها على جزء صغير متناقص من السكان ، كما أنه أخذ يفقد قوة اندفاعه التقدمية بسرعة كبيرة جداً . لقد أصبح قلقاً غير راض عن تصرفاته. وانتشرت لفظة « وضع للشروعات » في أرجاء العالم بسرعة البرق ، وبزوايا الضاحكات الاقتصادية التى سلتعت عنها في الفصل التالى تكاثرت تلك للشروعات . حتى إذا وافت سنة ١٩٣٣ لم يعد أى سياسى يحترم نفسه يستطيع أن يواجه العالم بغير خطة ومشروع ، وحسبك هذا على الأقل تقدير للروسيا من العالم كله .

ظلت روسيا حتى ١٩٣٤ على الرغم من رداءة المحصول في ١٩٣٣ ، يحالفها النجاح في جميع مراقبها ، فزاد الإنتاج مرة ثانية وتكاثرت الأنعام والملاحة ودخل البلاد أفواج من السياح الأوروبيين والأمريكيين . وأخذوا يتناولون فيها الكافيار وشراب الفودكا.

وقامت في البلاد نهضة عظيمة في البحث العلمى ، وخاصة في المسائل التناسلية والاستكشافات القطبية ، وتعدت أشتغال عامة عظيمة - منها سد الدنيير وستروا وسكة حديد التركستان/سييرا - وأنجزت البلاد قدرا جسيما من البانى المجددة وعكفت على إعادة تجديد مراقفها وعنادها . غير أنها ظلت تعاني الكبت التام لكل تقدم مما اضطر أى نوع من المعارضة إلى الاستتار . ولا يغرب عن البال أن كل معارضة مكبوتة لابد أن تتحول في النهاية إلى معارضة إجرامية . وكانت الفرقة والانقسام تنخر في كيان النظام الجديد . إذ قد تلت وفاة لينين قبل الأوان مناضة شديدة على السلطان بين تروتسكى الذى يرجع إلى قيادته العسكرية الناهية الفضل الأكبر في نجاح الدفاع عن الجمهورية ١٩١٩ - ١٩٢٠ ، وستالين السكرتير السابق للحزب الشيوعى ؛ ولا تزال التفاصيل المضبوطة والمعقدة لذلك النضال خافية علينا ، ولكن أحدا من الرجلين لم يذهب قوة لينين الفكرية ولا رحابة تفوفه الشخصى ، كان تروتسكى إنسانا موهوبا ولكنه كان مفرورا ؛ وأولى ستالين صفة العناد الرهيب ؛ ومالبث تروتسكى أن نفى خارج البلاد في يونيه ١٩٢٨ بعد أن طرد من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ، فنزل تركيا أولا ثم فرنسا ثم الرومى ، واستقر به اللطاف أخيرا بالمكسيك ، وهو يحمل في كل مكان حل به لواء المعارضة الجدلية المريرة الضف ضد زملائه السابقين ، ويمزق وحدة أنصار اليسار في العالم كله إلى حزبين متنازعين .

أما في روسيا نفسها فالظاهر أن كفاحا خفيا أخذ يلشب بين الموظفين والمستخدمين للمعارضين وبين حكم ستالين ودولته ، على أن قدرا من هذا التاريخ لا يزال يكتنفه الغموض الشديد . إذ لا مجال للشك في أنه كانت هناك مقاومة ، كما لا شك في أنه حدث التدمير وقلة الولاء للحكومة ومن المحتمل أيضاً أن هذا الضرب من المعارضة الذى ليس من الضرورى أن يكون منظما كان يحدث حتى في أيام لينين نفسه ، ولكنه اتخذ بعد وفاته صورة ملسقة تماما أكثر . وراحت حكومه السوفيت تسلك في هذا السكفاح حينا من الدهر مسلك القصد والاعتدال . فإن موظفين مشوليف منهم مهندسون بريطانيون متنوعون قدموا للمحاكمة بتهمة تمعد تعطيل عملية طبع روسيا بالطابع المصرى والميكانيكى مع سبق الإصرار ، ثم ظهرت في الأفق في أثناء المحاكمات التالية عناصر للوأمراء والتدبيرات السياسية . على أن معظم التهمين كان لا يحكم عليهم إلا بالسجن أو بالنفى ، حتى قتل واحد من أعد الوزراء القدين وثق فيهم ستالين واطمأن إليهم في أول ديسمبر

١٩٣٤ . فبعد تلك الحادثة اشتدت الأمور في روسيا عصفاً وتجهماً ، وقد توفيت زوجة ستالين على حين بغتة في ربيع ١٩٣٤ في ظروف لا يزال يشاها إلى اليوم القموض - . ولقد زعم بعضهم أنها انتحرت حزناً على ما قام به الفلاحون من العذاب في ظل مشروع الخمس السنوات الأول، ولا شك في أن تزايد عدواه خلطائه القنماء له قد زاد رويدارويدا من مدى عزلته وتباعده . والظاهر أنه لم يبق له صديق غلص إلا الكاتب مكسيم جوركي الذي مات في ١٩٣٦ . وتعاقت المحاكمات السياسية الواحدة تلو الأخرى ، وأخذت بوادر القسوة تتجلى في استخلاص أدلة الإدانة وبيناتها ، كما أصبحت عقوبة الإعدام هي القصاص العادي . فاعدم زعماء البلشفية السابقون واحد بعد آخر ، حتى لم يبق منهم إلا اثنان أو ثلاثة ، وأعدم أطباء جوركي بتهمة أنهم تسببوا في وفاته ، ولم يزل ستالين يزداد في عنوه درجة بعد أخرى حتى أصبح مستبدًا لا يقبل صلحاً ولا تراجعاً ، ولكن على الرغم من أن هذا هو حال الكرملين في أثناء كتابة هذه السطور (في ربيع ١٩٣٨) فالظاهر أن حياة روسيا للادية تسير في طريق الجد التام مع تناقص الصعوبات بالتدريج . وتضاؤل التذمر الشعبي إلى درجة لا تكاد تذكر . وليس لهذا الموقف من سابق في التاريخ ، كما أنه يكاد يكون من المحال التنبؤ باحتمال إبلال روسيا بما بها وبطبيعة ذلك الإبلال إذا حدث .

## الفصل السابع وستون

### عصبة الأمم

بلغ من فظاعة الحرب العظمى في تلك الوقت ومما جلبت من الكوارث والأحزان أن زعمت أخيلة الناس أنه ليس معقولا ألا تؤذن تلك الحرب بنهاية عصر ، وبداية مرحلة جديدة في التاريخ الإنساني تكون أسعد حالا ، وذلك من وجهة نظر الظافرين فيها على الأقل . ومن المعلوم أن عقولنا تنجح دائماً إلى الاعتقاد بالتعويض - فإننا ندرك على مضض مفرط إغفال القدر لما تتصوره في أنفسنا من مزايا . ولم تنقش هذه الأوهام والادعاءات التي أعقبت الحرب عن أذهاننا إلا ببطء شديد . ولكن هانحن قد شرعنا نتحقق أن ذلك الصراع على بشاعته وشدة ضخامته لم يضع حداً لشيء ، ولم يبدأ شيئاً ، ولا سوى شيئاً . نعم إنه قضى على ملايين من الأنفس ؛ وبدد قوى العالم وأشاع فيه الفقر والفساد ، فحطم الروسيا تحطياً مطلقاً . ولم يكن على كل حال إلا تذكرة حادة مخيفة بأننا نعيش عيش الخماقة والارتباك دون خطة مرسومة ولا بعد نظر مرشد في عالم خطر لا يحمل لنا عطفاً ولا وداً . فإن الأنايات وشهوات الأطماع القومية والاستعمارية السيئة التنظيم التي جرفت البشرية إلى غمرات تلك الفاجعة - خرجت منها سليمة إلى حد جعل في الإمكان تماماً حدوث كارثة أخرى مماثلة بمجرد امتعاش العالم قليلاً مما أصابه من إنهاك وإجهاد في أثناء الحرب . أجل أزاحت الحرب عن كاهل أوروبا تهديد القيصرية الألمانية ، كما حطمت القيصرية الروسية . وأزالت عدداً لا بأس به من الملكيات . ولكن أوروبا لا تزال تفرغ فيها كثرة من الرايات ، ولا تزال الحدود تثير القيث في النفوس ، كما لا تزال جيوش جرارة تكندس في مخازنها مقادير جديدة من العتاد الحربي .

ولم يكن مؤتمر الصلح الذي انعقد بفرساي إلا اجتماعاً سيئ التكيف وظروف الدنيا ، لم يوفق إلا إلى دفع منازعات الحرب وهزائمها إلى نتائجها اللطيفة . فلم يسمح للألمان ولا النمساويين أو الأتراك أو البلغار بأن نصيب في مداولاته؛ ولم يكونوا على كون.



إلا قبول القرارات التي على عليهم . كان مؤتمرا يضم الظافرين الناعمين وكان اختيار موضع انعقاد للمؤتمر غير موفق بوجه خاص ، وذلك من وجهة نظر للصحة البشرية ، فإن فرساي هي المدينة نفسها التي أعلن فيها قيام الإمبراطورية الألمانية الجديدة في ١٨٧١ بكل مظاهر الانتصار السوق الوضيع . وتسلمت على الألمان فكرة قاهرة تدعو إلى إقامة مشهد « ميلودرامى » عنيف يعكس للسرحة الأولى في قاعة للرايا نفسها .

ومهما تكن للكلام التي ظهرت إبان للراحل الباكورة للحرب العظمى فإنها ولت من زمن بعيد . وكان سكان الدول للتصرة شديدي التيقظ لما طأوا من خسائر وآلام ، مضيين كل الإغضاء عن أن العدو للتهزم قد شرب من نفس الكأس . كانت الحرب نتيجة طبيعية لا بد منها لتنافس القوميات بأوروبا وغية كل تنظيم اتحادى لتلك القوى للتنافسة ؛ والحرب هي النهاية القصوى للنطقية والضرورية للقوميات للستقة ذات السيادة التي تعيش في حيز ضيق جداً وتملك عتادا عسكريا مفرط القوة ؛ ولو لم تجمي الحرب العظمى على الصورة التي جاءت بها ، لظهرت في صورة أخرى مماثلة - كما لا شك في أنها ستعود على نطاق أظف وأشد تدميرا في مدى عشرين أو ثلاثين سنة إن لم يسبقها اتحاد سياسى يمنع حدوثها . ولا شك في أن الدول التي تنظم شئونها ابتداء الحرب مضطرة بالتحقيق إلى الحرب اضطرار كل دجاجة إلى وضع البيض ، ولكن عواصف هذه البلاد المهزومة التي أنهكتها الحرب أغفلت تلك الحقيقة ، لذا عوملت جميع شعوب الأقطار للتهزمة كأنها هي مستولة خلقياً وماديا عن كل ما حدث من أضرار ، وهي نفس الطريقة التي كانوا سيعاملون بها دون شك الشعوب للنتصرة لو كانت نتيجة الحرب في صالح أولئك للتهزمين . وزعم الفرنسيون والإنجليز أن الألمان ملومون على ما حدث ، وزعم الألمان أن اللوم هو الروس والفرنسيون والإنجليز ، ولكن أقلية ذكية أدركت أن اللوم في الموضوع هو الوضع السياسى لأوروبا ، وكان للقصود من معاهدة فرساي أن تكون مثالية وانتقامية ؛ فحمت على اللغويين عقوبات فادحة ؛ إذ حاولت أن تمنح التعويضات للنتصرين وشعوبهم الجريحة للثألة يفرض ديون باهظة على أمم قد أفلس من قبل . كما أن محاولتها إعادة تكوين العلاقات الدولية بتأسيس عصبة للأمم تسعى لمنع الحرب كانت محاولة تجلى صراحة أنها غير مخلصه وغير كافية .

ومن للشكوك فيه أن أوروبا - لو تركت وشأنها - كانت تبذل أى محاولة لتنظيم العلاقات الدولية تنظيا يكفل سلاما دائماً ، فإن فكرة عصبة الأمم قد أدخلها إلى معترك

السياسة العملية الرئيس ولسن ، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، وكانت دعائمتها الرئيسية هي أمريكا ، ذلك أن الولايات المتحدة - تلك الدولة العصرية الجديدة - لم تنتج حتى الآن أية فكرة مميزة تتعلق بالعلاقات الدولية عدا مبدأ مونرو ، الذي وقى العالم الجديد غائلة التدخل الأوربي ، وها هي الآن تستدعي لجأاً للسامحة الفكرية في مشكلة ذلك الزمان الهائلة ، ولكن قريحتها لم تسعفها بشيء ، وكان الشعب الأمريكي ينجح بفطرته نحو السلام العالمي الدائم ، وذلك بنض النظر عما يرتبط بذلك الاتجاه من عدم الثقة وسوء الظن التقليدي في سياسة العالم القديم وعمما لله الأمريكيون من عادة التباعد عن اشتباكات العالم القديم ومشكلاته ، فكان الأمريكيين لم يكادوا عند ذلك يبدؤون في تكوين فكرة عن إيجاد حل أمريكي لمشكلات العالم عند ما جرهم حملة التواصات الألمانية إلى معترك الحرب في صف الحلفاء أعداء الألمان ، ولم يكن مشروع الرئيس ولسن لتكوين عصبة الأمم إلا محاولة مبتسرة متعجلة لإيجاد مشروع عالمي أمريكي النزعة تماماً ، فأنشأ لها تصميماً خفياً وناقصاً وخطراً ، ولكنه أخذ في أوربا على أنه وجهة نظر أمريكية ناجحة ، ذلك أن البشرية عموماً كانت في ١٩١٨ - ١٩١٩ قد اشتد بها الضيق بالحرب والتلف بأي ثمن أو تضحية على إقامة كل ما من شأنه منع حدوثها ثانية ، ولكن حكومة واحدة في العالم القديم لم تتأ أن تنزل قيد أعلة عما تستمتع به من سيادة واستقلال في سبيل الوصول إلى تلك الغاية ، والظاهر أن التصريحات العلنية التي فاه بها الرئيس ولسن حول مشروع عصبة الأمم العالمية ، قد وقعت موقع القبول من قلوب شعوب الأرض كلها وإن تخطت الحكومات ؛ وزعم الناس أن تلك التصريحات تعبر عن مقاصد أمريكا الحقة ، وكانت استجابتهم لها هائلة ، ومن سوء الحظ أن الرئيس ولسن كان مضطراً أن يتعامل مع الحكومات لا مع الشعوب ؛ وكان رجلاً تصدر عنه ومضات هائلة من الرؤى والأحلام فإذا هو وضع موضع التجربة تبين أنه أفاى محدود ، فلا ضاربة إذن أن تلبد موجة الحماسة العظيمة التي أثارها وتذهب سدى .

يقول الدكتور ديون في كتابه : « مؤتمر السلام » : « كانت أوربا عند ما مس الرئيس شواطئها كقطعة من صلصال لا يعوزها إلا يد الصانع للآهر ، إذ لم يحدث قبل ذلك قط أن اشتد شوق الناس إلى اتباع زعيم كعيسى يأخذهم إلى أرض اللباد التي طال انتظارها والتي تمنع الحروب وتجهل الحصار البحري ، وقد تصوروا أنه ذلك الزعيم وانحنى الناس أمامه في فرنسا بدافع الرهبة والمحبة ، وأخبرني زعماء العمال بباريس أنهم سكبوا دموع الفرح بين يديه ، وأن إخوانهم مستعدون لخوض الجحيم للقاء والسنة

النيران لماوته على تحقيق خططه النبيلة . وكان اسمه عند الطبقات العاملة بإيطاليا بوقاً يلقى صوته في أفلاك السماوات قهقرياً جنبات الأرض له وتعود جديدة مطهرة ، واعتبره الألمان هو ومنهجه وسيلة منجاتهم وملاذم الأكبر ، وقال المرحوم الشجاع الباسل : لو أن الرئيس ولسن خاطب الألمان وحكم عليهم حكماً قاسياً ، لتبؤوه بصدر رحب ودون أدنى تدمير ولبدأوا في تنفيذه على الفور ، فأما بلاد النمسا الألمانية فقد بلغت شهرته فيها شهرة المسيح المخلص . وكان مجرد ذكر اسمه بليلاً للتأملين وترياقاً للفكوبين . . . .

تلك وأمثالها هي الآمال الجارفة التي أثارها في النفوس الرئيس ولسن ، ولكن القصة المحزنة حقاً هي أنه خيب تلك الآمال تماماً وأن العصبة جاءت ضحية غير ذات غناء ، فكأنه شخصياً قد زاد من وقع فاجتتا الإنسانية المشتركة ، إذ إنه بلغ العاية في عظم أحلامه والنهاية في عدم الكفاية في أعماله ، وقد تمرت أمريكاي تصرفات رئيسها وأبنت أن تقبل العصبة التي قبلتها منه أوروبا . . . . إذ إن الشعب أخذ يستحق بيده أنه يدفع بسرعة في تيار تجربة لم ينتها لها أبداً ونعمقت أوربا من جهتها بأن أمريكا لم تعد تملك شيئاً تستطيع تقديمه للعالم القديم وهو يروح في محنته . ولدت تلك العصبة قبل الأوان ، ونشوت منذ ميلادها فأصبحت هي ومستورها التفصيلي غير العملي وتحدد سلطاتها الجلي الواضح ، عقبة كأداء في طريق أية نسوية فعالة وأي تنظيم جديد مشعر للعلاقات الدولية ، ألفت تلك العصبة على المسائل ظلاماً من الإبهام الذي ما كان يتشاها لو لم تنشأ تلك العصبة ، ومع هذا فإن ذلك الذهب الخاس الذي فعل العالم في البداية ترحيباً بالمشروع ، ذلك الاستعداد الجليل الذي أبداه الناس في كل صقع من أصقاع العالم . وأقول الناس ولا أقول الحكومات . لإقامة ضوابط عالية تتحكم في الحرب ، إنما هو شيء جديد ينبغي تسجيته في أي سفر تاريخي مع القدر اللازم من التأكيد والتشديد ، ذلك أنه تقوم في هذه الأيام وتنمو باطراد من وراء ظهور الحكومات قصيرة النظر التي تفرق كلمة البشرية وتسيء تدبير شئونها ، قوة حقيقية تطالب بالوحدة العالمية والنظام العالمي .

غير أن تلك القوة لا تزال تلتبس التطبيق النعال ، فإن صاحب فرساي كان صانعاً سياسياً مجتاً ، كما أن العصبة نفسها كانت منظمة سياسية . كانت محاولة لترقيع أحوال البشرية في الوقت الذي قبلت فيه على علاتها الحكومة القائمة والأفكار السائدة المتعلقة بالدولة بوصفها شئونها لا مفر منها : وهنا يكمن الخطأ الذي أخذ يتضح بالتدريج لعين البشرية .

فإن الحكومات والدول ليست إلا أمورا مؤقتة ، كما أن في الإمكان تعديلها ، بل لابد من تعديلها بحيث تتناسب وتغيات الحاجات الإنسانية واتساع مداها ، على أن القوى الاقتصادية أساسية وجوهرية أكثر ، وهي تعتمد على الأفكار الخاصة بالملكية والسلوك ، كما أن هذه الأفكار بدورها تولد عن التربية ، ولا شك أن تكوين الأحوال البشرية - إن هو إلا اكتشاف مجموعات من الأفكار التي رسخت في عقول الناس وتطبيقها ، كما أن العلاج الناجح للمتعاب الاجتماعية والاقتصادية إنما يقوم في إصلاح كل تأويل خاطئ ، وكل فهم مغلوط ، وقد دخل العالم من ١٩١٨ إلى ١٩٣٣ في عصر مؤتمرات تبذل جهودا بطيئة سمجة لإعادة تكييف شئونه ، ولو تأملت ما دار بها من المناقشات لوجدت فيها تقدما مطردا ، فلنأخذ كانت تلشع في البداية بروح قومية وسياسية يحمته ، وإذا هي تتحول أخيرا إلى إدراك أوسع وأجراً لاوحدة التي تجتمع تحتها فاهية البشرية للمالية والاقتصادية ، ولا يخفى مع ذلك كله ، أن الجماهير ورجال السياسة والصحافة يتطلون يبطء وتكرار ، هذا إلى أن الحياة الاقتصادية أصيبت في غضون ذلك بارتباك كبير ، كما تششت البطالة والفقر بصورة لم يشهدها العالم منذ أكثر من قرن ، إذ إن حيوية المجلس البشرى أصيبت بالعطب ، كما أن الأمن العام قد تدهور ، فزاد عدد الجرائم ، وتجلت في الحياة السياسية حالة غير مألوفة من عدم الاستقرار . ولن نحيط هنا الخوض في تفاصيل تلك المحن ، فلنأخذ قد تكون مؤذنة بانتهيار الحضارة وقد لا تكون وهي لا ترقى في الزمن الحاضر إلى التهديد بشيء يشبه الانهيار ، كما أنه لا يزال من المحال علينا أن نقدر ما إذا كان المجلس البشرى قادرا على إنتاج القوة الحلقية ، أى الزعامة والإخلاص اللازمين لمواصلة ذلك التقدم للطرده الذي جعل القرن التاسع عشر صفة حافلة بالخوار والسرة في تاريخ البشر .

## الفصل الثامن استون

### إخفاق عصبة الأمم

كانت عصبة الأمم حتى منذ بدايتها الأولى عصبة محاربين متصيرين ، كما أن غرضها الصريح كان المحافظة على الحدود التي أقامتها معاهدة فرساي - وهي الحدود التي تحكمت في رسمها روح الانتقام كما ذكرنا آنفاً مع تجاهل العواقب الاقتصادية التي تنجم عنها ، ففرضت على المهزومين كما أسلفنا مبالغ فادحة يدفعونها على سبيل التعويض ، كما أن شهوة التملك التقليدية لدى وزارتي الخارجية البريطانية والفرنسية قد اتسعت بشقاء شفاف من العبارات الرشيق . حقا إنه لم تضم على الطريقة القديمة للمستعمرات الألمانية وراء البحار ولا أجزاء كثيرة من الإمبراطورية التركية المهطمة ، ولكنها وضعت تحت « انتداب » للتصيرين - وهي لفظة مباركة أنتجتها قريحتهم الوفاة ١١١ . فلإن عصبة الأمم أخذت تلك البلاد ثم سلمتها لأصحاب الشأن ، وحتى الحلفاء أنفسهم لم يدوا أى سماحة نفس في اقتسام الغنائم فيما بينهم . فالت فرنسا وبريطانيا نصيب الأسد ، وأصبحت مطامع إيطاليا واليونان واليابان على أسوأ صورة . ونكس الأحرار والاشتراكيون ببريطانيا العظمى والدول الديمقراطية الأخرى عن مواجهة تلك الحقيقة بما يلزمها من صراحة ، وفكر ، فأصبحت السياسة التقدمية في العالم كله بالشلل من جراء ذلك مدة عشرين عاما تقريبا .

وكان الأطفال يعملون في بريطانيا العظمى مثلاً ، أن العصبة تمثل العدالة الدولية وتضمن السلام العالمي ضماناً أكيداً . وصدر عدد لا يحصى من الكتب لتثبت هذه الفكرة في الأذهان ، ولكن أطفال الأقطار التي لم تحصل على نصيب مرضى من الغنائم والطيبات التي وزعت بفرساي كانوا يتلقون غذاء عقليا أقل تهديئة لأنفس . ولم تكد تنقضي عشر سنوات على أهل المنطقة الواقعة خارج حدود أولئك الذين نستطيع اليوم أن نسميهم باسم للتصيرين الحق ، حتى أخذ ملايين وملايين من الألمان والمجريين والإيطاليين واليابانيين بين أطفال وشبان يلقنون دروسا توحى بضرورة إجراء تعديل عنيف في تسوية جنيف . لقد شب هؤلاء الأطفال في عالم من الاضطراب الاقتصادي ،

الذى سببت أسبابه بحثاً أوفى في الفصل التالى . ذلك أن فيضاً متدفقاً من الاستياء ، يسير بكل ما يتصف به الشباب من حيوية وخفة ولين عريكة ، كان يتجمع سنة بعد أخرى ، ولم يكن يفتو أى إنسان إلا موظف وزارة الخارجية المحنك أن يتحقق أنه لا مفر من حدوث انفجار دولى جديد . ولكن وزارات الخارجية المختلفة استمسكت بعناد بالزوايا الظاهرية التى اعتصرتها من الحرب العظمى .

عقد أول اجتماع لمجلس الصبة يباريس فى ١٥ من يناير ١٩٢٠ ، ثم انعقد بعد ذلك بلندن وبروكسل ، حتى أقيم مقرها أخيراً بمدينة جنيف قبل انتهاء تلك السنة ، وهناك عقدت جميع جلساتها منذ ذلك التاريخ .

وجاءت أول إشارة تؤذن بأن تسوية ولسن العظيمة بتراء معية قبل أن تستقر العصبة فى مقرها الرسمى ، فإن قتالا انصف بالخطورة فى كثير من الأحيان دارت رحاه فى أثناء السنة التالية يبلاد المجر وبولندة ولتوانيا وسيبيريا وفيومى وتركيا وآسيا الصغرى وسوريا ومراكش والبرازيل والصين ، كما شبت الحرب الأهلية بإرلندة ، ولكن فى الإمكان اعتبار قدر كبير من هذه الأحداث عمليات تصفية بعد الحرب العظمى — إن جاز مثل هذا القول .

قام اليونانيون بهجوم منظم على الأتراك انتهى بانتهار عسكرى كبير على مقربة من أنقرة فى سبتمبر ١٩٢٢ ، فطرد اليونان من آسيا الصغرى وترأقيا على يد مصطفى كمال ، ونهبت مدينة أزمير وأحرقت وقتل فيها آلاف من الناس ، وكان الحلفاء قد وعدوا الروسيا القيصرية فى أثناء الحرب العظمى بمنحها مدينة القسطنطينية ، ولكن الروسيا السوفيتية لم تسكن لها رغبة خاصة فى التورط فى ذلك الأمر . ذلك أن تلك العاصمة الإمبراطورية القديمة قد احتلها الحلفاء برياسة الجنرال ملن الإنجليزية فى ١٩٢١ ، ولكنها ردت بتمتضى معاهدة لوزان ١٩٢٣ إلى الترك عقب هزيمة اليونان بعد مفاوضات طويلة ، ودخلت تركيا بزعامة كمال فى دور سريع من أدوار الانطباع بالحضارة الأوربية ، فأخرج عن البلاد مظاهر النظام القديم ، وحى السلطان والطربوش وفصل النساء عن الرجال ، وأصبحت تركيا جمهورية ، ومع أن القسطنطينية ردت إلى أصحابها السابقين ، فإن ( كمال ) احتفظ بصاحته أنقرة .

كانت السنوات التى أعقبت توقيع معاهدة فرساي سنوات محنة قاسية بألمانيا ،

فإن تلك المعاهدة حكمت على اللنجرين بالاعتراف على أنفسهم بمسئولية الحرب وبدفع تعويضات فادحة للظافرين . ومن الجلى أن القصد من ذلك هو استبعاد السكان اقتصاديا مدة جيل أو أكثر . فكان عليهم أن يشقوا ويكدحوا ويقدموا الثمرات ليستهلكها المنتصرون . على أن ذلك كان ينطوى على عقدة خطيرة . إذ من الواضح أنه لا سبيل إلى تسديد هذه الترامات الباهظة إلا بالسلع المصدرة ، فلو صدر عن المنهزم فيض كبير من السلع المصدرة ، لأدى ذلك إلى تعطيل الحياة الاقتصادية لدى الحلفاء للظافرين . لذلك اضطروا إلى أن يحيطوا أنفسهم بمجاذب من التعريفات الجمركية لوقاية عمالهم ، بحيث إنه لو فرض أن الألمان جنسوا حقاً إلى عيشة الكدح الشديد للتواصل لسداد الالتزامات للقرونة عليهم ، لما استطاعوا التغلب على تلك الحواجز ، ولظلوا بعد ذلك مثقلين اقتصاديا بما يشكس لديهم من منتجاتهم غير المستهلكة .

ولا تروى لك الحلقة الثالثة من القرن العشرين إلا قصة الجهود النعسة الحاققة التي بذلتها ألمانيا والنمسا اللندجرة للحصول على درجة مقبولة من العيش في ظل تلك الظروف القابلية ، وإلا قصة امتناع فرنسا وبريطانيا تماماً عن النظر فيما يقون من صعوبات لا سبيل لهم إلى التغلب عليها وعن إعانتهم على معاودة ما كان لهم من احترام الذات ومن مشاركة مقبولة وشريفة في الشئون الأوربية . وفي غضون ذلك كان ذلك الجيل من الألمان يكبر سنّاً ويتجمع مرجلاً ضحفاً من الطاقة الحاققة النافرة .

انتهى حكم أسرة هوهنزولرن بفرار القيصر إلى هولندة في نوفمبر ١٩١٨ ، وأعقبته قراره سلسلة محاولات لإنشاء جمهورية ألمانية . وضيّق بحال هذا الفصل عن تفصيل المرات الاقتصادية العنية التي ألت بالدولة الألمانية والعيوب التي لم يكن مفر من تدهورها فيها ، والعزم والتصميم العنيد القاسى الذى أبداه للسبى بوانكاريه على إنزال عقوبات للمعاهدة بهم إلى أقصى حد ، إذ إنه كان يرى أن لابد لألمانيا من أن تداس بالأرجل ؛ ولعل ذلك أقصى ما يبلغه قصر النظر السياسى . وسرعان ما احتلت الأراضي الألمانية احتلالاً تأديبياً ، وربط بواى الروهر جنود سود من السنغال - وهى إهانة لم يشترها الألمان بسهولة ، وبذلت أيضاً محاولة لسلخ منطقة الرين عن ألمانيا وإنشاء جمهورية بها تحت رعاية الفرنسيين ، كما حدثت بالبلاذ عدة ثورات شيوعية . وظهرت إلى عالم الوجود ديكثاتورية ملكية بزعامة الجنرال لودندورف دامت أليها قليلة بمدينة ميونيخ ، وكان الدكتور شترزمان (ومعه الرئيس إيرت) يكافح بكل جهده في برلين في ظل ( ٧٥ - تاريخ العالم )

هذه الولايات جميعاً في سبيل المحافظة على ضم شتات ألمانيا في ريج محمر .

وبينا ألمانيا غارقة في خضم هذا الارتباك المضى أخذ صوت جديد يرتفع ويعلأ الأسماع ، كان صوتاً غليظاً يهز القضب نبراته ، ولكنه كان يقول ما كان يحس به ملايين من الألمان الذين جن جنونهم . خاصة منهم جماهير شباب مابعد الحرب للزايدي العدد . « لقد خدع الأعداء ألمانيا وخانوها » - تلك هي النعمة التي أخذ يضرب عليها ذلك الصوت ؛ « ولابد من جهد فائق لإرجاعها إلى مكانة العزة التي كانت تحتلها قبل ١٩١٤ - مهما تسكن التضحية التي تبذل في سبيل ذلك » ، ثم يقول الصوت « إن ألمانيا لم تهزم قط ، لأن ذلك ضرب من الحال ، كما أنها غدر بها من الداخل . إذ خانها بوجه خاص رعاياها اليهود وأرباب السكر فيها ورجال الشيوعية الدولية . فلا بد لها من العودة إلى تقائها العنصري ، إلى حياة المحارب العنيفة التي كانت للتيوتوني الآري » ، ذلك هو صوت تماش نمسوى اسمه أدولف هتلر ، لم تسكد تستمع إليه الأذان حتى كان له صدى لاسبيل إلى رده في قلوب طبقة الشباب الهائلة للزايدي العدد الذين صاروا آنذاك يعيشون دون مطمع معقول لهم في الحياة ، وتكونت على تلك الفكرة منظمة أخذت تنمو ويشدد عودها . وقام عليها حزب سياسي عسكري هو الحزب القومي الاشتراكي ( النازي ) .

وكانت منافسة اليهود الاقتصادية والاجتماعية بالإضافة إلى إصرارهم للزيج على العيش كشعب منفصل يختلف في كثير من الأوجه عن الروح القومي العام ، سببا في اختصاص الشعب لهم لا بالمعاملة الانتقامية فقط بل وبالبهت أيضا ، ولا يتسع المجال هنا لتتبع حظ حركة النازية هذه من النجاح وتقلبه بين العنف للتمرد والقوة والسلطان ، ولا كفاح العناصر الأكثر اعتدالا في الحياة السياسية الألمانية في سبيل إيقاف تيارها ، ولكن الذي حدث أن هتلر أصبح في ١٩٣٢ مستشارا للامبراطورية ، كما أنه وقف عندئذ على أبواب السلطة العليا في البلاد .

والظاهر أن الديناميسيين ورجال السياسة كانوا طوال مدة ارتفاعه مدارج القوة لا يقدرون قوته حتى قدرها ، فلم يدرك أحد إلى أي حد أصبح ذلك الرجل ممثلا لمشاعر الغضب والكبرياء العميق التي تنزاحم في نفوس الألمان ، كما أن التكبر فيما يحتمل أن يحس به وأن يفعله ذلك الجيل الجديد من الألمان أبناء الحرب العظمى وما



بعدها ، كان فوق الطاقة العقلية لوزارات الخارجية ، ولا تزال السياسة الخارجية لعبة حقاء ، تدور بين الحياث اللعوية التي يطلق عليها اللورخون أسماء جرمانيا ولافرانس وبريطانيا وهلم جرا ، مع الوثائق والساموات السرية ، فهي لتناول الأجسام البشرية إلا حين تلجأ نهائيا إلى الحرب ، ولا يزال واجبا عليها أن تستكشف البيولوجيا البشرية وعلم نفس الجماهير .

وكانت تحدث في إيطاليا أيضا أحداث ظهرت فيها على الفور أوجه خلاف للحركة النازية ، ( ذلك أنها لم تكن مثلاً صادى اليهود ) . وكلما تمت الحركة كان زاد أثر إحداها للوعظ في الأخرى . أجل إنها كانتا في البداية مستقلتين تماما ، وكان زعيم إيطاليا هو بليتي موسوليني ، وكانت معلومات كل من الرجلين عن صاحبه مثيلة جدا في مراحل حياتهما العملية الأولى ، ولكنهما مالبثتا حتى اكتشفا فيما بعد أوجه التماثل بينهما في شيء من الدهشة . والرجلان هما الثمرة الطبيعية لتطور الاجتماعى للعصر — وأعنى بذلك أنهما نظما طبقة الشباب للتمردة المحرومة من كل هدف التي تظهر الآن في كل قطر يتحطم اقتصاديا ، ومنموها وسيلة للتعبير وإظهار للنشاط .

بدأ موسوليني حياته اشتراكيا ثوريا ، إذ كان محررا لصحيفة اشتراكية هي الأفانتي Avanti ، واشتهر قبل الحرب بأنه زعيم جريء وقوى . فاختلف مع معظم زملائه اليساريين حول مسألة انضمام إيطاليا في تلك الحرب إلى صف الحلفاء واستقال من رئاسة تحرير صحيفة الأفانتي وأصدر صحيفة IL Popolo del Italia ليشرح فيها آراءه . حتى إذا وضعت الحرب أوزارها دون أن تحظى فيها إيطاليا بأى امتياز عسكري عظيم ، حدث بالبلاد الشيء الكثير من الاضطراب الاجتماعى ووضعت حركات ثورية متتارة . وكانت الحكومة ضعيفة مترددة حتى لاح لكثير من الرقيقين أن في الإمكان حدوث انقلاب شيوعى . وأحسن موسوليني بنفسه القلق القومى الذى أحسه هنار ، وشرع ينظم حركة قومية من القمصان السود هي حركة الفاشيستية ، ويدعو بقوة إلى تكون حكومة حازمة لاتقوم فقط على جماهير الشعب بل على رجال المال والأعمال أيضا ، فلقى من كبار اللالين ورجال الصناعة تأييدا جسيما ، ولذلك لأنهم كان لديهم فيما يحتمل فكرة مبالغ فيها عن قدرة الثوريين الجمر على نزع أملاكهم وأمواهم ، كما ساورهم اقتناع أحق بأن في الإمكان التحكم في ذلك للفاشمى أدى الفرض منه كاتع للاضرابات ، ومن سوء حظهم أنهم بالقوا في الخوف من الجمر وفي الامتهانة بالسود ،

على أن موسوليني لم يظهر في أية مرحلة من مراحل حياته أى ميل إلى اعتبار نفسه خادماً لرموس الأموال الخاصة . ذلك أن نظريته في الدولة التكاملية الأفراد للوحدة الجهود كانت تنطوي ضمناً على تحكم صارم جداً في تصرفات الغامرين الاقتصاديين الأفراد .

تمت حركته قبل حركة هتلر بضع سنوات ، ولعل مرد ذلك أن شباب الطبقة الوسطى بالمدن الإيطالية لم يادوا في الحرب بنفس للدى الذى بلغه مقتل نظرهم عند الألمان ، وهبت على البلاد حملة إرهابية قوامها القارات والجلد والاعتقال قام بها أتباعه ذوو القمصان السود وكبخوا بها تماماً إرهاب المتنوسين الشيوعيين للؤمنين بمبدأ حرب الطبقات ، وحدث الزحف على روما في أكتوبر ١٩٢٢ ، وهو استيلاء مطلق على زمام السلطان بيد للنظمة الفاشية ، ومنذ ذلك التاريخ أصبح ارتفاع شأن موسوليني سريعاً لا يحرق سبيله عائق . لقد سبق ضربه هتلر بحوالى عشر سنوات في الوصول إلى السلطة الديكتاتورية .

وكانت الظروف والأسباب للتأثرة في كل أرجاء أوروبا وبلاد الصين واليابان تبعث على قيام نوع واحد متماثل من الكفاح وتنتج نتائج متماثلة تقريباً ، وكان اليساريون الشديدي التمسك بلا هوادة بالمبادئ النظرية يحطمون النظام الاجتماعى والسياسى القديم في كل مكان ، ويتشاجرون فيما بينهم ككانوا يمشون السبيل في كل مكان لقيام الزعماء العسكريين والديكتاتوريين « أى الرجال أولى القوة » ، الذين يمشون حكومات أساسها الحكم الشخصى الفردى الشديد ويقمعون بصورة أشد وأعنف حرية الكلام وحرية التصرف السياسى ولا يبيحونها إلا لأنفسهم . فأما للمبادئ التى كانوا يستقونها فأمر لم يكن له وزن ؛ فربما كانت هى الشيوعية أو الدولة للتكافؤ ؛ وما كانت تلك للمبادئ إلا جالهم التى هم عليها وأصنافهم التى يفعلون . إذ ما الأهمية التى تعود فى النهاية من بلوغ منصب الديكتاتورية بالطرق غير للشريعة سواء أكانت يسارية أم يمينية . لاشك أن النتيجة العملية واحدة فى الحالين . وهجر الناس بكل مكان تحكمه ديكتاتورية ، كل بحث على خلاق وكل مثل عليا دولية وطادوا إلى نزعة الدولة القومية العسكرية ، وكانت الديكتاتورية الروسية أعاد الديكتاتوريات ميلا إلى السلم ، ذلك أنها كانت قائمة بمجودها وحاولت أن تتعاون مع عصبة الأمم ذات السكان الهزيل ، على أن ألمانيا وإيطاليا واليابان راحت تتعامل للنظمة السيئة التكوين بقدر متزايد من الاحتقار .

كانت اليابان كاملة السلاح والعدة ، وظلت كمظم الحلفاء للتصمرين محتظة بتسلحها بعد الحرب ؛ وكانت تعد العدة لصرف أنظار شبابها القلق بهجوم تشنه على الصين الهائلة للشعبة بالقوى ، على حين راحت ألمانيا وإيطاليا تبذلان جهوداً جبارة في سبيل تحسين أجسام جيلها الناشئ ، وتوريدته على النظام ، وتعملان على النهوض بقواتهما الجوية بهضة قوية عاتية ، وكان في تسليح ألمانيا مناقضة لمعاهدة فرساي ، ولكن إيطاليا كانت حرة لا يشيدها ذلك القيد . وهكذا راحت مدارس تلك الدول الثلاث ومحافظاتها تستمرار في الشبية روح العدوان الحربي .

وقد حدث في بعض نواحي أوروبا أن التخوم التي رسمتها العسبة لم تنفذ أبداً ، فإن مدينة فلانا مثلا التي منحت لدولة لتوانيا ، قد تقال عليها الروس والبولنديون والتتوانيون ، ثم ظلت في يد البولنديين ، وعلى سبيل التعويض استولت لتوانيا على المدينة في ١٩٢٣ واستولت معها على ميناء عمل من الحامية الفرنسية التي وضعتها بها العسبة ثم تركت المدينة لتتوانيا في النهاية .

وتبدى الميل إلى إغفال شأن قرارات العسبة منذ وقت مبكر أيضاً عندما اغتالت عصاة يونانية جزيراً لإيطاليا يعمل في قوميون الحدود الألبانية اليونانية ، وعند ذلك ضربت إيطاليا جزيرة كورفو بالدافع دون انتظار لتعويض من العسبة وطلبت اليونان بالتعويض . ثم سوى الموقف باعتاد العسبة لما عملته إيطاليا .

وهناك مصدر متاعب آخر هو مدينة فيومي ، وهي مدينة منحت لكرواتيا ، فأظارت عليها قوة من الفاعرين العسكريين بقيادة الشاعر الزهو بنفسه دانونزيو في ١٩١٩ ، وبعد أن تبادلتها الأيدي عدة مرات صارت ملكاً لإيطاليا إلى الأبد منذ ١٩٢٤ ، وطبيعي أن هذه لم تكن إلا أمورا صغيرة نسبياً ، ولكنها كانت تحذيراً لأبأس به ينذر بقلة التقدير الذي كانت تحظى به في أعين الناس قوانين العسبة .

وكان الشرق الأقصى هو لليدان الذي تجلّى فيه بطلان التسوية العالية للعسبة لأول مرة على نطاق واسع ، ولم يظهر أى واحد من رجال السياسة والديبرالجرين للوقرين الذين خلقوا العسبة وأداروا مقاليد شئونها آنذاك ، أنه كان يفهم فهماً جيداً المشكلات الخاصة العسبية لمجتمع ربما بلغ عدده أربعمائة مليون إنسان ، وقد اتهاز هيكله السياسي

القديم والاجنماعى والاقتصادى فى مدى جيل واحد ، ذلك أن الصين لم تكن فى نظرم إلا واحدة من تلك السكائنات الأسطورية ذات الوجود القانونى [أعنى دولة] كفرنسا أو بريطانيا أو ألمانيا ، التى كانت تستمتع بوحدة تجمع شملها ، والتى تستطيع أن تقاضى الدول ويقاضونها ، وأن تقوم بالتمهيدات وتحمّل الديون وتتجسم الجزاءات ، وبينما الصين غارقة فى لجة هذه القوضى الشاملة ، أخذ نفر من التعللين الصينيين يمثلون للصين الجديدة صورة معنوية جديدة ، وأنشأوا منظمة هى الكومتايج التى ظلت بضع سنوات بعد ١٩١٢ تكافح فى سبيل خلق «وطنية» ذات طابع عصرى بالصين. ولم يكن مفر من أن تحدث فى ذلك القطر الهائل خلاقات عظيمة فى الرأى وفى المشاعر المحلية الإقليمية ، وأن تتولد بها الفرس العظيمة للصوعية وقطع الطرق ، ومما زاد الموقف ثقاقاً أنه على الرغم من كل مائدعيه العصبية من احترام القوميات ، سلمت لليابان مقاطعة شانتونج التى استولت عليها ألمانيا قبل الحرب ، ثم تخلت عنها اليابان ثم عادت فاحتلتها . ويضيق هذا الكتاب للوجز عن متابعة ظهور وتوارى الزعماء المختلفين ، أمثال صن يات صن ذى الزعامة العصرية ، والجنرال المسيحى فنج ، والمغولى تشايج تسولن الذى كان يهدف إلى العرش الإمبراطورى ، كما يضيق عن ذكر تنقلات قسبة الحكم بين بكين ونانكين وكانتون ، وأدوار كراهية الأجانب والاقطاب عليهم ، وتوالى تدخل روسيا السوفيتية واليابان فى شئون الصين المرتبكة. ولكن ما لبث الناس أن تبينوا جلياً أن اليابان هى المعتدى الأكبر ببلاد الصين ، وأنها أخذت على عاتقها أن تواصل طبقاً للتقاليد الاستعمارية قبل الحرب العظمى المضى قدماً حتى تسود آسيا الشرقية سيادة شاملة . لذا فصلت منشوريا عن الصين فى ١٩٣٢ واعتبرتها دولة عجيبة تحت هيمنة اليابان .

وفى غضون ذلك أخذ التطور المطرد للطيران وإمكانات الحرب الجوية يغير روح المتابع الدولية بالعالم أجمع وإن غيرها إلى ماهو أسوأ. ولكن جميع وزارات الخارجية أبت أن تدرك أن هذه الأسلحة الجديدة لابد أن تعدل طرق الحرب البرية والبحرية القديمة ، وقد أصبحت الغواصة من حيث قوة التأثير أداة حرية قديمة الطراز ، وحلت محلها قاذفة القنابل السريعة ، كما أن كل الأفكار القديمة المتعلقة «بالجبهة البرية» ، «والطرق البحرية» قد صارت إلى اضمحلال وزوال ، وكانت الدول الميالة إلى الانقياد والسدوان أرهف الجميع إحساساً بهذا التغير فى الظروف ، لذا راحت تنمى

سلاحها الجوى تنمية سريعة وخفية وبالغة ، أما بريطانيا وفرنسا التى كان لها تفوق عسكرى لا ينازعها فيه منازع فى « العشرينات المتقاء من القرن » فإنهما أدركتا بنية أنهما قد قدما تفوقهما الجوى إبان الفترة التى نسميها باسم « ثلاثينات الخوف » ، ولم يبرح روح ألمانيا الجديدة بزعامه هتلر وجورنجر وإيطاليا العاشية يزداد على الأيام جسارة . فأخذوا يواجهان دول الغرب بثقة واطمئنان متزايدين ، وأدركت الطائفة العسكرية باليابان قيمة توزع التفات أوروبا فزادت من عدوانها على الصين ، ومن ثم شرعت الجيوش اليابانية التى تسيطر آنفاً على منشوريا فى غزو ولاية جيهول فى نهاية ١٩٣٢ ، فبلغت سور الصين الأعظم فى ١٩٣٣ .

ولم تكن أى من بريطانيا أو فرنسا أو روسيا راغبة فى الحرب . فلن تعود عليهم إذا نشبت إلا بخسران كل شيء وعدم اكتساب أى شيء . ولم تكن واحدة منها تحت إرشاد سياسيين كبار لهم آراء عميقة واسعة الأفق أو إخلاص فى إيمانهم بالصبة كأداة من أدوات السلام ، ذلك أن الدول التى يسمونها بالديمقراطية كان يوزها الإيمان بكفاية وسيلتها هى ، كما أن ثلاثين كانت تمزقها - على أشكال مختلفة - عوادي للتاعب الاقتصادية وللالية الخاصة بكل ، وراحت الدول اللدوانية الثلاثة فى خطط هيب بين التهديد الحقيقى والتهوىف والبلف - تمزق معاهدة فرساي وعصبة الأمم تمزقاً تاماً ونهائياً .

فما انتهت ١٩٣٤ حتى نشب خلاف حاد بين إيطاليا والحبشة ، ولم تلبث إيطاليا أن خاضت فى خريف ١٩٣٥ غمار حرب علنية لفتح بلاد الحبشة ، استخدمت فيها بغير رحمة ولا هوادة القنابل المحرقة والقاذورات السامة حتى انتصرت على الحبشة فى مايو ١٩٣٦ ، على أن الإيطاليين وجدوا الحبشة قطراً يصعب عليهم استيطانه واستغلاله .

وفى صيف تلك السنة نفسها واجهت الحكومة الجمهورية بمدر يد أزمة عصية جد أن أضعضها صراع مرير مع الوطنيين ومتطرفة الشيوعيين القطلونيين ؛ إذ فوجئت بحصيان عسكرى يقوده الجنرال فرانكو على رأس الجنود للرا كشييين وتؤيده فى السر ألمانيا وإيطاليا . وقد أخفق ذلك الحصيان فى القيام بثورة مضادة مفاجئة لأن الأسباب التثا حول راية حكومة مدريد ، ودارت فى شبه الجزيرة رضى حرب ضروس ضارية مدة سنتين ، كانت ألمانيا وإيطاليا يزدادان على الدوام اشتراكاً علنياً فيها . فكان

التبرون يضربون للندن بالمدافع بكل قسوة ، حتى قتل في هذه العمليات الحرية الجديدة نسبة لم يسبق لها مثيل من النساء والأطفال . ومع ذلك فإن أحداً لم يعلن الحرب منذ البداية إلى النهاية ، وفي نفس الحين كانت ألمانيا وإيطاليا من الناحية الدولية في حالة سلم مع إسبانيا ، مثلما كانت اليابان من الناحية القانونية في سلام مع الصين .

وفي ربيع ١٩٣٨ اجتاحت جيوش هتلر فجأة بلاد النمسا وضمتها لألمانيا في تحد صريح للسلم الذي نصت عليه معاهدة فرساي في هذا الصدد ، ولم تلق الحركة أية مقاومة فعالة لا من داخل النمسا ولا من خارجها ، ومنذ ذلك الوقت صار هتلر (ومن ورائه موسوليني حليفه التيقظ ) للتسلط للتنميط بصورة ملحوظة وشعورية في شئون العالم ، كما زاد بروز ألمانيا النازية بوصفها الدولة العريضة الجانب للسموعة السكلمة . على أن الخوف من الهجوم للجوى ( ولعله كان خوفاً مبالغاً فيه ) قد شل الدول الديمقراطية عن كل فكر أو حركة . وعندئذ ابتدأ سباق جنونى على التسلم يفوق في فداحة تكاليله وإنهاكه للدول السباق الذى انتهى بنشوب الحرب العظمى ١٩١٤ - ١٩١٨ .

إن عدم اتباع سياسة رأبها العزم والبساطة في تلك اللعبة الدولية ، وبمخر كبرياء أمريكا وفرنسا وبريطانيا بل حتى تقفها بنفسها ، أمور إن تضعف إلا إذا أدركنا أن كل واحدة من هذه الدول صاحبة السلطان والقوة في الماضى القريب كانت تقاسى من الاضطراب العام الناجم عن الظروف الاقتصادية للتخيرة والتي يساء فهمها وإن اختلفت صور العناء في كل منها . فإنها هى أيضاً كان يحدث بها انقلاب جوهري في طرائق الإنتاج واضطراب في التوزيع أخذاً يقضيان على الطلب للمستديم للعمال الدائمين ، كما أخذاً مع مضى الزمن ونمو الصغار يضعان عمل طبقة العمال للدرجة القديمة طبقة أخرى من العاطلين القلقين الساخطين ، وظهر أثر ذلك التوتر بالولايات المتحدة في شكل هبوط في استهلاك السلم ، ولما كان استثمار الأموال قد انتشر انتشاراً كبيراً جداً في أثناء الحرب ، ثم في فترة الاستقرار اللالى بعد الحرب ، فقد نشأ عن ذلك تهافت الناس على بيع الصكوك للمالية ، ومن ثم تولدت عنه أزمة مالية . ولم تلبث الأزمة أن مست عدداً كبيراً من المصارف الأمريكية كان حراً قبل ذلك من كل رقابة مالية ، على أن البلاد كانت حسنة الحظ في أثناء فترة التدرع للمالى ١٩٣١ - ١٩٣٢ التى نجحت عن تلك الحال ، إذ وجدت على رأسها زعباً هو فرانكلين روزفلت . فوضع البنوك تحت رقابة لم يسبق لها مثيل وحول وجهة الدول من النزعة الفردية التقليدية التى كانت تكس الثروات وتبدد موارد البلاد في عملية التكديس تلك إلى اقتصاد مرسوم الخطة مطبوع بالطابع المصرى ، هو حركة

النظام الجديد The New Deal . ولكن ذلك الشروع كان يتطلب قدراً من الطابع الاشتراكي الذي يستلزم بدوره طائفة من الموظفين للذين يزيد عددها كثيراً عما كان لديه من الرجال للمدرين والتعلمين ، وكانت دعاية أخلاق الرئيس الجديد سبباً في تأخير أعماله منذ البداية كما عوقته انقسامات وزرائه وضيق أوقتهم فضلاً عما يستشعره النظام القضائي الأمريكي من المحسنة العليا فنانزلا ضمن التحيز العميق للجهل وللبداءة الفردية ، وكانت أمريكا لا تزال تقاسم الآلام المبرحة من تلك التجربة الكبرى في الإنشاء والتجديد في ١٩٣٧ - ١٩٣٨ يوم بدأت تهب عليها أول بوادر احتمال نشوب الحرب في العالم القديم . فأخذت تدرك الخطر الذي قد يهدد كلا من منطقة الساحل الشرقي والغربي لو أصيبت الإمبراطورية البريطانية بأية كارثة خطيرة ، كما أن الخطر الجوي أخذ يتراءى قريباً دانياً واضحاً للعيان أكثر فأكثر كما زادت حجوم الطائرات . وسرعتها . هذا إلى أنه لاح أن الاستعداد للحرب قد يعود على البلاد بتخفيف أزمة البطالة ، لذا فلإنها وإن ظلت تتعلق بأحلامها في العزلة قد انسأقت بدورها في سباق التسلسل الذي كانت تنزعها من قبل بريطانيا وفرنسا .

وتراجمت الصعوبات الاقتصادية فوق رأس بريطانيا العظمى . فلإنها سبقت أمريكا بأشواط في ثورة الشعب على التقى الحر القوي ، حيث فرضت ضرائب باهظة جداً على الدخل ، وقررت ضريبة التركات وصرفت للعاطلين معاشات تسد الرمي أو تكاد ، وبذلك أبعدت شبح التوتر الثوري وإن كانت طبقة الشباب العاطل فيها تتمسك في الطرقات ، وهم عبء على أنفسهم وعلى المجتمع أيضاً . على أن عشون الصحة والتهذيب . وزيادة التعليم أو الاستفادة من هذا الشباب اليائس المتشائم لم تلق إلا عناية قليلة نسبياً ، إذ إن صاحب الثروة الفردية وصاحب الجهد الفردي والمالية الفردية كانوا من القوة السامية ببريطانيا العظمى بحيث منعوا كل تطبيق للمذاهب الاشتراكية في الصناعة أو الموارد الطبيعية ، وتلبت بريطانيا العظمى بدورها في ١٩٣٧ إلى أن خطر الحرب أمر واقع وأخذت تنساق كارهة مع بقية العالم في تيار العبودية للضرورات العسكرية . أدرك أذكاء الناس بأنه ما دام استقلال الدول القومية ذات السيادة قائماً ، وتعليم الأكاذيب النصرانية مستمرا بطريقة منظمة ، والتعيزات القومية والافتاغية رافضة الرأس ، وكذلك ما دام نظام الامتلاك القيم لموارد الثروة من أجل مصلحة الفرد قائماً ، وما دام التلاعب المالي في سبيل وضع اليد على الممتلكات مستمرا ،

فلن يبرح يزداد الاضطراب وعدم الاستقرار الضارب إطنابه الآن بيننا ، كما لن تبرح الحياة والفكر البشرى تتركس إلى أقصى حد لخدمة تدريبات الحرب وعبودياتها وغاؤها وشهواتها التي تزداد على كرا الأيام هدمًا وتدميرًا والواقع أن جلوسنا البشرى يتهدده نوع من الجنون العسكري ، الذي قد ينحدر بنا خطوة بخطوة في طريق حرب قاسية ترجع بنا القهقري ، وتهدى بنا إلى حياة لا يلد لها شيء إلا الألم والبغضاء والشهوات البدائية ، ولا نهم إلا بفضائل قليلة لا تتجاوز التجلد الإسبرطى .

على أن اكتشاف الاتجاهات أسهل كثيرا من الاهتداء إلى الدواء ، كما أن ما أنفقه جميع الاثترائيين والاقتصاديين من نشاط عقلى في سبيل تشخيص متاعبنا وتعيين سياسة تقوم على التكيف ، قد لقي بسبب حاجتنا الملحة كل احتقار . فلقد عقد عدد لا يحصى من المؤتمرات والاجتماعات وأعلن الشيء الكثير من التصريحات وظهرت ثمرات عظيمة من التضامات وأصاف الحقائق التي لا رابط بينها ، وامتلأت الآفاق بدعوة التآزر والتناسق دون أية تضحية بالذات ، وعم العالم تلهف على شيء اسمه السلام ، دون مبادرة عظيمة إلى إنشاء حياة سليمة وقوية وخلقة . ومن العجيب أن كل دعوة للتهندة والسلم تنطوى على عنصر جسيم من الكسل والتراخي ، وإذا قدر للناس يوما أن يجمعوا في أيديهم من القوة ، ما يكفل قيام منظمة للسلام تتصف بالكفاية في أرجاء العالم وصيانتها ، فلن يتم ذلك عن طريق عصفور بالورود خال من كل مقاومة . ألا ترى أن السلم الرومانى Pax Romana كان ثمرة الاستيلاء والفتح فكذلك السلم العالمى ( Pax Mund ) يتطلب بالتأكيد تصميمًا وعزمًا راسخًا ومعالجة حازمة لكل تمتع أو معاندة .



## افضل التاسع وستون

### الحرب العالمية الثانية

سنقص الآن في تفصيل نبأ الأحداث المتعاقبة التي أدت إلى نشوب الحرب التي لا تزال رجاها تدور اليوم<sup>(١)</sup>.

في مارس ١٩٣٨ اقترح المستر لتفينوف وزير الخارجية الروسية أن تعقد حكومات بريطانيا وفرنسا وأمريكا والروسيا السوفيتية مؤتمراً للتباحث في ضرورة القيام بمجتمعين. بصل مشترك لمنع العدوان في المستقبل ، وخاصة في أواسط أوروبا . ولم تهم ألمانيا ولا إيطاليا ولا اليابان للمشاركة في هذا التشاور ، وذلك كما قال المستر لتفينوف : « لأتأ . لا نريد أن تتناقض في أمر العدوان مع المتمدن نفسه » وكان ذلك اقتراحاً واضحاً بسيطاً ربما أمكن به تجنب الحرب الأوروبية تماماً أو القضاء عليها على الأقل قبل أن تستفعل ، بيد أن جنون كراهية الشيوعية لدى الأغلبية البريطانية المحافظة كان أقوى كثيراً من خوفها من الخطر الألماني . وقد ظل هذا الاقتراح الذي ردد صداه متالين في مارس ١٩٣٩ ومولوتوف في مايو ، سياسة روسيا العنيفة الداعمة إلى ما قبل إعلان الحرب على ألمانيا بوقت يسير ، حتى جد أن ظهر أن كلا من بريطانيا وفرنسا قد أبت أن تتضامن مع روسيا لحماية الولايات البلطيقية من الاعتداء الألماني .

وكانت الخطوة التالية في البرنامج الألماني هي القضاء على تشيكوسلوفاكيا . فإن ضم النمسا لألمانيا جعل ذلك البلد الصغير الهام القوى الشكيمة محوطاً بالألمان من ثلاث نواح . وعندئذ بدأت أبواب السياسة في بث دعوة صاخبة مجملجة دفعا عن الألمان الذين أصر واضعو معاهدة فرساي - تمسكا بفكرة الترخوم الاستراتيجية الحربية - على ضمهم إلى بوهيميا . وتلت ذلك تهديدات بإعلان الحرب وبعض مفاوضات هزلية عجيبة ، والواقع أنها كانت هزلية وعجيبة حقاً ، فلئن اختارت ألمانيا أن تواجه العالم في شخص عنون متدقاس ،

---

(١) كتب للؤلؤ هذا الفصل قبل أن تنتهي الحرب كما هو واضح من السياق .

فإن بريطانيا بدورها قد وقع اختيارها على الستر تشمبرلن للفرور عديم الكفاية للعائد  
التر رئيساً للدولة . ذلك أن غدواته وروحاته إلى ألمانيا في سبتمبر ١٩٣٨ أصبحت  
اليوم مصدر الأسف الشديد والمهارات للريرة لدى كل إنجليزى ذكى ، ولكن لا يغرب  
عن البال أنه عندما عاد إلى مطار هستن بعد تخليه عن الدكتور بنيش وببذه الضرورة  
الواضحة القاضية بالمبادرة إلى فتح ألمانيا قعما جماعيا مشتركا بين روسيا وفرنسا  
وبريطانيا وتشيكوسلوفاكيا ، وبعد تسليمه كل ميزة عسكرية امتازت بها تشيكوسلوفاكيا  
وحصوله مقابل ذلك كله على قصاصة لا قيمة لها من الورق بتوقيع هتلر ، وذلك عندما  
أعلن للجمهور المجتمع بدوا نتجستريت : « إنه السلام في زمننا أيها الأصدقاء الطيبون . وفى  
لأنسكم الآن أن تعودوا إلى بيوتكم وتناموا في فراشكم قررى العين » . وانطلقت  
السن الجاهير بهتاف الفرح والسرور ، وهى حقيقة ينبغي أن لا نساها أبداً ، وذهب  
الجمهور إلى بيته لينام قرر العين .

ومن اليديهيات في تدبير الطبيعة ونظامها القاسى للرير أن جزاء الحماقة والضعف  
يكون على الدوام شديدا صارما كجزاء الجريمة والإجرام سواء بسواء ، وهامى ذى بريطانيا  
ومعها البشرية جمعاء تدفعان عن التملس الدنى مما قضى به الشرف والواجب . ذلك أن  
ألمانيا لم تبر تبهداتها لحظة واحدة ، ولا يكاد أحد يصدق اليوم أنه كان يجوز أن يبلغ  
إنسان من السذاجة وسرعة التصديق مبلغاً يجعله يعتقد أنها كانت تنوى حقاً أن تبر  
بكلمتها . وظلت ألمانيا ساهرة متيقظة ، على حين أن شعب إنجلترا «أصدقاء الستر تشمبرلن  
الطيبين» ذهب إلى فراشهم قرر العين ، وتقدمت الجيوش الألمانية إلى المناطق التشيكية المحددة  
لها ثم واصلت سيرها .. فأثارت استياء الستر تشمبرلن وزالت تشيكوسلوفاكيا من الوجود  
في مارس ١٩٣٩ ، وأخذت مصانع سكودا لتنتج الدخائر للجيوش الألمانية التى أخذت  
قوتها تتضاعف بمرور الوقت . ولم تلبث بولنده والمجر أن وثبتا بشراسة على الدولة  
المصرية ، غير آبهة بما قد يصيبها من نفسها . فالتهمت بولنده منطقة تشككن Tescten  
واستولت المجر على سلطنة من منطقة أوكرانيا .

ولم تترك بولنده مدة طويلة تنهأ فيها بسلام بامتلاك أملاكها الجديدة . إذ إنها كانت  
المهدف الثانى للزحف الألمانى . وهنا جعلت مسألة دانزج سبباً ظاهريا للخلاف الواضح  
للمعروف . وأخذ للوقف يتطور سرياً ، ولكن تردد الستر تشمبرلن وبلاد بريطانيا  
أصبح يدعو إلى المزيد من الرثاء . ومن قبل ، جفت بريطانيا عن الدفاع عن

تشيكوسلوفاكيا ، وكان ذلك راجعاً إلى حد كبير إلى خشيتها من البلشفية وشكوكها فيها . وكانت لاتزال فيما يظهر تصدق قول هتلر بأن غرضه الحقيقي هو تحطيم الشيوعية ، كما لاتزال تداعبها الآمال في أن تزحف ألمانيا شرقاً ، على حين أن كل مافعله القرب هو القيام بالنور غير الكريم — وإن يكن مريحاً — الذى يقوم به متعقبو للعسكرات . ولكن بولندية كانت بها حكومة استبدادية لاتحتمل المعارضة ، رجعية وكاثوليكية كما كانت تناصب روسيا العداء ، هذا إلى أن الستر تضمحلن كان يكابد الآلام بسبب نزاهة نفور الناس من مغامراته في ميونيخ ، فتولت في نفسه روح انتقامية شديدة ضد هتلر ؛ ومن ثم بدأت من جديد مفاوضات تهدف إلى جمع العمل لكبح جماح ألمانيا ، ولكن تلك المفاوضات باءت بدورها بالفشل بسبب مباديه الطبقات البريطانية العليا من نفور من القيام بأى تعاون غلص مع روسيا . وذلك أن الثورة الاجتماعية ، وليس ألمانيا ، هى الشبح الرهيب الذى يفرعهم .

وضمت مدينة محل القناتية في مارس إلى الرخ الألماني . وفى أبريل ١٩٣٩ . ضم الإيطاليون إليهم ألمانيا بنة وفى تحد رصين لصبه الأمم ، إلى غير ذلك من الاعتداءات . فأثارت رعايا الاحتجاجات للألوف غير المجدى ، وعندئذ انسحبت من الصبة وخلا كرسى آخر من كراسيها . وفى مايو أعطى الستر لتفينوف الدول القرية آخر إشارة تحذيرية ، بأن استقال من منصبه ، بعد أن ظل على الملوم يتخذ موقف التعاون الجلى للتواصل مع الديموقراطية القرية ، انسحب لتفينوف إلى للقاعد الخلفية حيث أقام حصيلة أربيا مجرباً موثوقاً به ، وخلفه الستر مولوتوف الذى كان استعمارياً روسيا أكثر من سلمه وأقل منه ميلاً إلى دول الغرب . ولم تفهم وزارة الخارجية البريطانية معنى إشارة لتفينوف ، والواقع أنها لم تظهر منذ الثورة الروسية أنها لاحظت أى حدث جرى في روسيا أمكنها تجنب رؤيته . ذلك أن رغبنا في زوال روسيا من الوجود كانت رغبة واضحة جلية .

على أن بريطانيا مالبت أن تحركت في الساعة الثالثة والعشرين فقدت مع بولندية في ٢٤ أغسطس حللاً للمساعدة للتبادلة . وقد سبقت هذا الحلف معاهدة عدم اعتداء بين ألمانيا والروسيا . ذلك أن فون رينتروب وزير الخارجية الألمانية ذهب إلى روسيا ، ومن الجلى أنه تمكن من إقناع ستالين ومولوتوف بأن بريطانيا تلعب على

جليين ، وعندئذ أدت روسيا ظهرها للديمقراطيات الغربية وهى فى حال من الغضب والشك الذى له مايرره ، وتخلت ألمانيا تماما عن كل ماكانت تدعيه من العداء للكونمترن<sup>(١)</sup> ، ذلك العداء الذى كان له حق آنذاك أكبر الفضل فى وجود عطف على النازية بين الطبقات للسموعة الكلمة بفرنسا وبريطانيا العظمى ، فإن هذا العداء قد أدى القرض للطوب منه . فإن الألمان اجتازوا حدود بولندة فى أول سبتمبر ، وأعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب فى الثالث من سبتمبر . وهكذا صما سكان بريطانيا الطيبون قرو الأعين من نومهم وإذا بلادهم مشتبكة فى الحرب مع أحكم وأدق الشعوب للقائلة تنظيا ، وإذا بهم يجدون أنفسهم ناقصى العتاد وغير مستعدين للحرب ، وعلى رأسهم حكومة ظاهرة العجز عديمة الكفاية غير جديرة بالثقة ، وقد تفر منهم تماما فى ذات الحين أفوى حلفائهم شكيمة . ومع ذلك فإنهم قضوا نصف السنة التالية فى حال من السبات العميق ، وذلك لسوء استعدادهم عسكريا ونفسيا ولأنهم طعمتوا تطمينا غير كريم .

وكانت الحملة الألمانية على بولندة قصيرة الأجل ولكنها تسلم بالكفاية . ولعله قد سبقها قدر عظيم من نشاط الطابور الخامس ، كما أن معظم للطارات البولندية ضربت بالقنابل وعطلت أعمالها بواسطة المهجمات الجوية الحاشدة على أن الجيوش البولندية التى قاتلت ببسالة عظيمة ما لبثت أن ردت على أعقابها بسبب تسلك الدبابات الألمانية وراء ظهرها ، وبسبب تفوق الألمان الجارف فى العتاد ، كما أن القيادة الألمانية العليا أعلنت فى ١٢ من سبتمبر أن للسند للفتوحة والقرى والعزب ستضرب بقنابل للدافع والطائرات أيضاً « لسحق كل مقاومة يبيديها الأهالى للدينون البولنديون » ، وذبح للدينون البولنديون فى مذابح كثيرة . ومع ذلك لم يبدل سلاحا الجوالبريطانى والفرنسى<sup>٢</sup> أدنى جهد لتخفيف الضغط عن بولندة بضرب ألمانيا بقنابل الطائرات . ولم تلبث الجيوش البولندية أن أخذت تراجع إلى لتوانيا والمجر ورومانيا ، وفرت الحكومة إلى رومانيا ، وسقطت وارسو فى ٢٧ من سبتمبر .

وفى السادس عشر من سبتمبر عبرت الجيوش الروسية الحدود البولندية دون أن تلقى إلا مقاومة ضئيلة ، وذلك بعد أن أدركت الحكومة الروسية أن بولندة قد غلبت

---

(١) الكومترن : هى الهيئة الشيوعية الدولية أو الهيئة الدولية الثالثة . [الترجم]

على أمرها تماماً . وتهدمت تلك القوات إلى نفس التخوم التي كانت للروسيا بين ١٩١٨ — ١٩٢٠ بمقتضى اتفاقية كيرزون ، وكل جدا من أجزاء تلك المنطقة التي دادوا إلى امتلاكها ما كان به سكان بولنديون خفيون . وعند ذلك ردت إلى لتوانيا مدينة قلنا التي أخذت من قبل تحدياً لصبة الأمم ، ثم أجهت روسيا بعد ذلك إلى عقد الاتفاقيات مع دول البلطيق الثلاث ( التي رفضت فرنسا وبريطانيا كما ذكرنا قبل ذلك أن تمنحها ضماناً مشتركاً ) ، وتم لها بمقتضاها التحكم اللعلى في وسائل دفاعها الجوية والساحلية بوساطة القوات الروسية . وانضح للعيان أن روسيا رأت أن تستفيد من الموقف لتقوية قبضتها وهيمنتها على سواحل بحر البلطيق . ذلك أنها كانت على الدوام في خوف من أن تهاجمها الدول الرأسالية مجتمعة ، وكان لها ما يبرر اعتقادها في أن تعد فنلندة رأس الحرية التي يأتينا هذا المهبوم من قبلها . وربما كانت روسيا مبالغة في هذه المخاوف . أجل إن للدفاع الفنلندية كانت تتحكم في للداخل إلى بطرسبرج على صورة لم تكن أية دولة أخرى لتقبلها . ولعل من للسبيل علينا أن نتصور أن أميركا تقبل وجود تحصينات أجنبية قوية على جزيرة ستاتن في استسلام وصبر جميل

لذا بدأت بين الطرفين سلسلة من المحادثات لم تؤد إلى نتيجة ، فعمدت روسيا إلى الحرب وهاجمت طائراتها المدن الفنلندية بسلسلة من القنارات . وهي وحشية كان في إمكان روسيا أن تستغنى عنها تماماً . وكانت الحرب حرباً عاقبة باهظة الثمن على السوفيت . على أن فنلندة مالبثت في النهاية أن اغرقت بالهزيمة وعقدت الصلح بعد قتال عظيم دام ثلاثة أشهر ونصف .

وفي نفس الحين كانت الحرب في الناحية الغربية من أوروبا مقصورة على البحر بوجه خاص . فإن الفرنسيين والألمان كانوا يراجمون بعضهم بعضاً من وراء خطوط قوية التمهينات هي خطا ماجينو وسبغريد . . أجل قام الفرنسيون بهجوم قاتر على الجناح الشمالى من الجبهة . ثم عاد الألمان لمواصلة حرب الترواصات فباءوا بالفشل والحسران ، فإن الأسطول البريطانى عمد إلى استخدام وسائل قية جديدة ، استطاع بها القضاء على تلك الآفة همة عظيمة ، ولم يلق في سبيل ذلك إلا خسارة ضئيلة لا مناس منها ، وهي بارجة أو ما إلى ذلك ، وحاملة طائرات ضخمة اسمها الكوراجيوس فضلا عن بضع سفن صغرى ، وكانت خسارة السفن المحروسة في القوافل أقل كثيراً

من كل ما كان متوقعا ، لذا وصلت للوْن والإمدادات بوفرة إلى بريطانيا العظمى ، بل لقد استولى البريطانيون على عدد من السفن يفوق ماقتده ، فإن البارجة سى قد ضيق عليها الحناق وانقضت عليها ثلاث سفن أصغر منها وأضعف هى إكستر Exster وأخيل Achilles وأجاكس Ajax ، حتى اضطرت فيما بعد إلى تفضيل إغراق نفسها على معاودة القتال ، ثم انتعرت ربانها .

ثم جاءت نصف سنة أخرى دامت في أثناءها حالة الخمول والتوقف التى شملت الجبهة الغربية ، وزادت همة بريطانيا في الاستعداد للعرب ، وأخذت حشود أكثر فأكثر من الجنود ومقادير هائلة من للدافع والعدات الحربية تعبر بحر المانش .

وتخللت فترة الخمول هذه حركة قدر للفرنسيين أن يأسفوا عليها فيما بعد هى مطاردتهم واضطهادهم لزعماء الشيوعيين والعمال اليساريين . والظاهر أنها لم تكن موجبة قط إلى الشيوعيين بل إلى زعماء اتحادات العمال أيضا ، واعتقلت السلطات أعضاء مجلس النواب الشيوعيين الذين لايتجاوزون الخمسين نائبا أو اضطرتهم إلى الاختفاء كما أن المجالس البلدية الشيوعية قد حُلّت في طول البلاد وعرضها وعين مكانها موظفون خصوصيون . وأقل ما يوصف به هذا التصرف أنه كان حماقة بحثة ، وذلك لأن الآراء الاشتراكية اليسارية كانت شديدة بين الجنود وصف الضباط ، سواء أتوا من المدن أو من بين الفلاحين ، وكان كثير منها لايزالون يرون روسيا رمزا للثورة الاجتماعية فأخذوا يتساءلون : أحم يقاتلون فقط من أجل الأثرياء في فرنسا ؟ وأخذ روح التخريب يمتد إلى مصانع الأخيرة فضلا عن صفوف الجند ، وللمرة الثانية استطاع المعتدى أن يدس إسفينة بين الرجعية وبين باعث الثورة في الرجل العادى ، وذلك لأن الحياة تكتلت أيضا في أحزاب اليمين المؤيدة للسيودلايه ، ولكنها خيانة من نوع أقوى وأعد أخذت تلسرب دون أن يدركها أو يتعدها أحد .

وزاد من متاعب الجند قسوة الشتاء بدرجة غير مألوفة ، وتضضع الأمل إلى أقصى حد في الحصول الجديد بأوروبا كلها . ثم انتقل محور الالتفات فجأة في منتصف فبراير إلى بلاد الترويج ، إذ أصبح حياد تلك البلاد موضع الشك ، ذلك أن الملك هاكون كان شديد الليل للانجليز والولاء لهم ، كما أن عامة الشعب كانوا ديمقراطيين بروحهم ، ولكن الخلفاء شرعوا يدركون فجأة أن شقة اللياء الضيقة المحاذية لشاطئ الترويج وفى

حدود الأيال الثلاثة التي تمدها القوانين مياها إقليمية ، كانت تستخدم مجازاً لجلب فيه السفن الألمانية مواد كثيرة وتسلل منه إلى عرض البحر لمهاجمة البريطانيين . وتقام الأمر تماماً عندما حدث ما يسمى باسم حادثة آنتمارك . فإن عدداً يتراوح بين الثلاثة والأربعة من بحارة السفن التي أغرقها البارجة جرافسي قبل تدميرها قد هربوا في ذلك المجال الساحلي بإغضاء من سلطات اللواتي الترويجية . وأرسلت مدمرة بريطانية لتعقبهم ، وعلى الرغم من اعتراض زورقين نرويجيين مسلحين وإنكار موطن في البناء الترويجيين وجود أي أسرى على ظهر السفينة ، فإن للمدمرة تقدمت في يوسنغفورد ، واعتلى بمارتها السفينة للتعدي ، التي شحطت على الأرض في أثناء المعركة ، ثم أطلقوا سراح الأسرى .

تطور الموقف بإسكندنافيا منذ تلك اللحظة . ففزا الألمان الترويج والدمار في وقت واحد وسلمت الدانمارك على الفور . وقاومت أوسلو هجوم العددين ، ولكن خانها الحزب الفاشستي النرويجي نفسه . وانقضت بعد ذلك بضعة أسابيع من المقاومة للضطربة . وفي تلك الأثناء كان الجمهور يبريطانيا يخشى بما لا نهاية له من الأكاذيب والفخر الأجوف . فكان كل من للستر تشمبرلن والسير إدموند أيرنسايد Ironside رئيس هيئة أركان الحرب الإمبراطورية . يتباريان في الفخار الأجوف الكاذب . فيقول الجنرال أيرنسايد إن هتلر قد « فاته القطار » وردد للستر تشمبرلن هذه العبارة الحافلة بالإلهام : « خاصة وأن هتلر قد كشف نفسه الآن ؟ وأخرجت الترسه رأسها من بين أطباق درقها ! » وستضرب بريطانيا ضربتها الآن ! وربما كان يمكنها توجيه ضربتها فلا ، ولكنها لم تفعل ؛ وذلك لأن قيادتها العليا وإمارة البحرية فيها لم يؤتيا الكفاية والعزم اللازمين للقيام بذلك . وقال الجنرال أيرنسايد : إن الجيش الألماني جيش رفيع الامتياز حقاً ، ولكن ليس فيه ضابط خدم في الحرب السابقة برتبة أعلى من رتبة البوذياني . غير أن البريطانيين كان لديهم أمثال أيرنسايد من القواد المحنكين ؛ وقد غزا الألمان الدانمارك والترويج في ٩ من أبريل . ولما حل يوم ٨ من مايو أجرى مجلس العموم البريطاني تحقيقاً حول تلك الهزيمة الشنعاء . وتبلى أن خطط وأساليب هؤلاء القادة المحنكين لم تكن إلا حماقة وبلاهة عيياء . وإليكم بضع عبارات من خطبة ألقاها للستر لويد جورج :

« لقد نجح هتلر في وضع وطنه في مركز استراتيجي أحسن كثيراً مما بلغه أسلافه

في ١٩١٤ . فقد وقعت في أيدي الألمان اسكندنافيا والرويج ، وهي من أعظم الإمكانات الاستراتيجية في الحرب . وليس ثمة فائدة تعود من لوم السويد ، والألمان ينزلون عن يمينها ويسارها . وبأى حق نستطيع أن نلوم الدول الصغرى ؟ ونحن قد وعدنا بإتخاذها وحمايتها . ونحن لم نرسل طائرة واحدة إلى بولندا وتأخرنا أكثر من اللازم في بلاد الرويج . فهل يستطيع عاقل أن يشك أن هيتنا قد انحطت ؟ لقد ألقينا الوعود لثيكوسلوفاكيا وبولندا وفنلندة . وأصبحت وعودنا قمامة في عرض الطريق .

» لقد وعدونا بإعادة تسليح البلاد في ١٩٣٥ ، وعرضت على المجلس اقتراحات فعلية في ١٩٣٦ ، وعرف الكل أن كل ما عمل قد تم بغير حمة تحذوه وبغير أثر فعال عاد منه ودون باعث قوى أو ذكاء ، ثم جاءت الحرب . فلم تزد سرعة الأمور عيشاً يذكر بل بقي الحال على ما كان عليه من التواني وعدم الكفاية . وعرف العالم كله أن بلادنا وضعت في أسوأ مركز استراتيجي وقعت فيه في تاريخها .

» لقد قال للستر تشمبرلن إن ورائي أصدقائي ، وليست للسألة مسألة من هم أصدقاء رئيس الوزراء . بل الأمر أعظم من ذلك كثيراً وأخطر . إذ لابد لرئيس الوزراء أن يتذكر أنه التقى بهذا العدو الجبار في وقت السلم والحرب ، وأنه لقي على يديه الهزيمة دائماً . لقد طالبنا بالتضحية . والشعب مستعد لاشك لبذلها مادامت له زعامة . وإنى أقولها الآن بأثران تام ، إن في إمكان رئيس الوزراء أن يضرب لنا مثلاً في التضحية ، إذ لا يستطيع شيء أن يؤدي إلى النصر في هذه الحرب أكثر من تضحيته بمقاييد الحكم . »

وبينا بريطانيا لا تزال تحاول بكل جهد إزاحة كابوس للستر تشمبرلن الجاثم على صدرها كرئيس لوزرائها ، ظلت ألمانيا تتجسد بلا هوادة في صورة الثالوث الشرس الرهيب جورج وجوبلز وهتلر ، واستمرت آمال البشرية تتحطم وترجع القهقري . ولم يشكر أحد حق في عزل السير إدmond آيرنسايد من منصبه . وما لبث أن وثب للاشتراك في كارثة جديدة أدهى وأمر بفرنسا ، فإن الضربة التالية لفنون الحرب الفرنسية البريطانية للتداعية قد أزلت في العاشر من مايو ، عندما اجتاحت ألمانيا بلاد هولندة والبلجيك ولكسمبرج في وقت واحد .



ومهما بدا عيباً لعين دارس التاريخ في السنوات التالية ( إن بقي لتاريخ دارس في السنوات التالية ) فالواقع أن واحدة من تلك الأقطار الثلاثة لم تهكر يوماً على الرغم من هذا الخطر المحتمل البسيط ، في إعداد خطة للدفاع بالاعتراك مع فرنسا وبريطانيا . ولعبت نفس الناصر الحاتنة للتردة دورها فيما أعقب ذلك من كارثة . ومن الأسف أن الفرنسيين لم يمدو خط ماجينو بعد الحدود البلجيكية ، وأن خطة الحلفاء للقيام بحرب « حركة » في الجناح الأيسر للكشوف كانت ناقصة براء جداً ، وقاتل اللوالون والمخلصون من الهولنديين والبلجيكيين قتال الأبطال ، ولكن قضت عليهم الخيانة وراء حدودهم ، كما غلبهم استخدام الألمان المائل لرجال للظلال ، وهو أمر لم يكن مستعداً له بالمرءة خيال قواد الحلفاء ، الذين لم يتح لهم إلا خمس أو ست سنوات ليدرسوا فيها تلك الفكرة . ولقيت مساحات عظيمة من روتردام نفس الصير الذي لقيته جرنيسكا ، فدفن آلاف من السكان تحت الأقاض ، ولم تمض أربعة أيام حتى انهارت كل مقاومة هولندية . وفرت لللكة إلى إنجلترا وأذاعت من قصر بكنجهام رسالة مليئة بسواطف البطولة .

وتواصل ضغط الألمان على خطوط الحلفاء الثقيلة . وكان في أيديهم سلاح شديد فعال هو دبابات سكودا التي أهداها للسرت تشمبرلن لألمانيا في السنة السالفة . وأخذ الخط الفرنسي في الانكسار قرب سيدان . واندفع الألمان في الاتجاه الشرقي محترقين الثغرة التي قصعوها . فتركوا باريس عن يسارهم وتقدموا نحو بحر اللانص وإنجلترا . لم يستطع الحلفاء سد الثغرة ، لذا حيل بين قوة كبيرة من الإنجليز والفرنسيين والبلجيكيين في الشمال وبين الاتصال بوسائل الدفاع الرئيسى بفرنسا ، ولاح أسرها وشيكاً دانياً . وكانت نسبة ضخمة من هذا الجيش الشالى بريطانية ، لذا كان قددها كشفاً لبريطانيا وتمريضاً لها للأخطار . وعندئذ خطر للملك ليوبولد الذى كان قد اتس للمعونة من فرنسا وبريطانيا عندما اجتمعت بلاده ، أنه قد حان الآن وقت عمل ينطوى على أعظم مظاهر الجبن والحياة . ففتح باب للمفاوضات مع الألمان وأمر جيوشه بالكف عن القتال وإيقاف إطلاق النار في ٢٨ من مايو ، دون إخطار حلفائه وفى تحفظ لنصيحة حكومته الإجماعية ، « ودون أن يلقى بالا إلى الجنود البريطانيين والفرنسيين الذين جاءوا لمساعدة وطنه تلبية لندائه في ساعة العسرة » .

وأوشك الجيش البريطانى على الوقوع في الأسر لولا أن ألقته من التسليم صفات جنده وصف ضباطه الجديرة بالإعجاب . قيادة سيئة وخيانة داهمة وجناح أسير مكشوف

للأعداء ، ومع ذلك فإنه شق طريقه قتالا حتى عاد إلى دنكيرك ، وتمسك بها بضعة أيام عسيرة ، كما استطاع على الرغم من تركيز الألمان لقواتهم هناك تركيزاً هائلاً ، أن يعبر بحر اللانش ، إلى إنجلترا مع الجيوش الفرنسية والجنود البلجيكيين اللوالين . وبلغ من إبداع ساوك الجيش ، وبما انطوى عليه نقل هذه الكتلة الضخمة من الرجال من ألوان البطولة الرائعة ، أن ابتلاء الجمهور البريطاني بالسرور أكثر منه بالاستياء والكدر . وقال للستر ونستون تشرشل الذي خلف في النهاية للستر تسمبلن في رئاسة الوزارة محذراً الشعب : « ليس الانسحاب الناجح نصراً » وخسر الحلفاء قدراً هائلاً من للدافع وللواد الحربية ، كما أن المقاومة الفرنسية الرئيسية أخذت تنهوى .

وتلقى التهمز بين صفوف الجند . وشرع للستر تشرشل في التشكير في انسحاب الإمبراطورية البريطانية إلى كندا . على أنه لم يقبل ذلك إلا ليؤكد للألمان أن الإمبراطورية ستواصل القتال إلى النهاية للرة نفسها وإن سقطت إنجلترا صريعة في اللبدان . ولكن أكثر الناس أساءوا فهم عباراته إلى أقصى حد ، وبناء على هذه الإشارة منه ، أسرعت الطبقات الثرية والنافذة الكلمة تدافع تدافعا غير كريم للقرار بألادام إلى كندا وأمريكا . على أن بريطانيا رحبت بالكثير بسبب هذا الجلاء . ومهما تكن نتيجة الحرب ، فإننا نشك في أن يتمس هؤلاء للنفيون بإرادتهم للعودة إلى بلادهم .

وعندئذ رأى موسوليني أن قد آن له أن يعلن الحرب ، فأعلنها في ١٠ من يونيه ، وأخذ الجنود الإيطاليون يكثر من الإهارات وتحريك الأيدي على الحدود الألية كما أخذت صور فلدوتشي على الأراضي الفرنسية . وتحول انيار الجيوش الفرنسية إلى تشيتت شامل . وغادر الناس باريس وانسحبت الحكومة الفرنسية إلى بورجو . وخطب للسيوريوني في ١٣ من يونيه خطبة نهائية يأثس فيها السون من الرئيس روزفلت . وقال : إن السكفاح هو من أجل حياة فرنسا نفسها . ورد عليه الرئيس بسرعة معبرا عن أسمى أنواع العواطف ووعد بتقديم الساعدات اللادية ، ولكنه ختم حديثه بهذه الألفاظ ذات اللعينين : « إنى أعرف أنك تظهم أن أقوالى هذه لا تحمل أى معنى يدل على تصهدنا بالسخول في المسائل العسكرية . إذ لا يملك أحد القيام بمثل ذلك التصهد إلا الكونجريس وحده » .

وعند ذلك استقال السيورينو وخلفه في رئاسة الوزارة المارشال بيتان الشيخ الكبير القاني وتولى معه وزارة الدفاع الجنرال فيجان الأصغر منه قليلا . وعند ذلك تقدمت الحكومة الفرنسية الجديدة لتسليم وطنها للعدو تسليما تاما ، يكاد يحاطله شيء من التعمس ! ثم عملت الحكومة البريطانية في المعطلة الأخيرة إلى تقديم اقتراح بتوحيد بريطانيا وفرنسا معا .

وكانت بريطانيا وفرنسا قد تعاهدتا على عدم القيام بصلح منفصل ، ولكن ذلك العهد نسي آنذاك ، وللمرة الثانية وجد البريطانيون أنفسهم يسحبون من فرنسا جنوبا يحيط بها الأعداء . وانهالت الجيوش الألمانية المظفرة على فرنسا ، وفهل البريطانيون حين وجدوا جزائر بحر المانش ، وهي البقية الأخيرة من دوقية نورماندى التي ظلت تابعة للتاج البريطانى ١٠٦٦ - تقع في يد الألمان ، وعندئذ شعر البريطانيون بخطورة مركزهم ، ولكن قوة فعالة جديدة دبت إليهم ، ووجدت لسانها المعبر في المستر تشرشل . وكانت موانئ فرنسا الحرة وأسطولها أيضا فوق كل شيء ، مصدر تهديد لا يمكن الاستهانة به ، وانضمت بعض السفن الفرنسية إلى البريطانيين طامعة ، وأقيمت في لندن لجنة قومية فرنسية برئاسة الجنرال ديغول ( de Gaulle ) ، لتنظيم استرداد فرنسا من برأئ الأعداء . على حين أن بقية الأسطول الفرنسى قد قبض عليه أو عطل من السلاح أو ضم إلى بريطانيا . وهاجم الأدميرال سومرفيل قوة معارضة لبريطانيا عند وهران ، منها بارجتان من الدرجة الأولى هما استراسبورج ودنكرك وعطلها عن العمل .

ولما التقى البريطانيون بالأسطول الإيطالى أول لقاء بحرى خطير ، راحت ضحيته البارجة الإيطالية المتنازعة بارثولوميو كولوني ، وهى من أسرع بوارج العالم ، إذ أصابتها على الرغم من ذلك قذيفة من المدمرة الاسترالية سدنى وأغرقتها . حتى إذا عاد البريطانيون فاستقروا على ظهر جزيرتهم وعلى متن الهواء وصفحة الماء ، أخذ معدنهم الحريشفس عنه الصدا الذى ظل يتجمع على سطحه في أثناء سنوات الاضططاط الطويلة .

ولعل شيئا من الحور قد داخل بعض النفوس المرتابة عندما عاد السير إدmond أرنسايد إلى إنجلترا لتنظيم الدفاع الداخلى ، ولكنه سرعان ما رقى إلى رتبة المارشالية ومنع لقب اللوردية ، وأجل إلى الاستبداد بنصف مرتب وأبعد عن طريق الشر . ونشأ حرس وطنى أخذت كفايته تزداد ، وحل الترقب الاتصالى محل التخوف المزروع ، وأخذ ينضخ للعيان ازدياد تهوى القوات الجوية البريطانية ، التي أخذت تجتذب إليها

الشباب من كل طبقة من طبقات الشعب ، ومن أبناء الإمبراطورية وأبناء الحلفاء سواء بسواء ، وأثبتت الأيام صفاء معدتهم إلى أقصى حد ، وكان احتفال التزوييقص درجات عديدة كلما تأخر يوما .

وتركز الاهتمام آنئذ على إسبانيا والبحر الأبيض المتوسط ، فكأنه قد عاد أدراجه إلى الشرق ، واتضح للناس جميعا أن للروسيا رأيا خاصا بمستقبلها جعلها على الأقل لا تميل إلى العطف على الألمان كما لا تميل إلى العطف على الطبقة البريطانية الحاكمة . فادت إلى تقوية نفوذها المواجهة لألمانيا وتصين مركزها على نهر الدانوب والبحر الأسود ، ثم طلبت بحزم تام إعادة منطقتي بسارايا وبوكوفينا الشمالية ، اللتين اقتطعتها منها رومانيا في ١٩١٨ ، ولم تلبث رومانيا أن أذعنت لذلك الطلب بعد أن لجأت إلى ألمانيا دون جدوى ، ثم استجابت روسيا بعد ذلك لحركة اشتراكية ظهرت بدول البلطيق في وقتها للناس بشكل عجيب ، ومن ثم دخلت ثلاثتها الاتحاد السوفيتي . وأثار هذا العمل شعورا معنويا بعيد المدى لدى حكومة الولايات المتحدة ، فأنها استنكرت اختفاء تلك الدول أكثر مما استنكرت طرد فنلندا من مصب نهر النيفا ، فأدلى المستر كوردل هل وزير الدولة الأمريكي بخطاب شديد ضد ضمها ، فأجابته المستر مولوتوف قوميسر الشؤون الخارجية الروسي إجابة شديدة وبلغة للنهب الشيوعي للألوفة ، حيث قال : إن في إمكان أمريكا أن تمنى بأمورها الخاصة ، ولم تلبث شقة الخلاف أن زادت بين هاتين الدولتين العظيمتين المهتمتين كلتيهما بقضية السلام والعاجزين إن اختلفتا عن الوصول إليه ، ومع ذلك فلم تكن هناك في العالم حقيقة واحدة تدعو إلى اختلافهما في الرأي إلا مسألة نصيب الطرفين من سعة الخيال .

ولئن أخذ اتحاد الدول البريطانية في صيف ١٩٤٠ في تجميع قوائمه ليقاوم كالا جديا ، فإن دعاية ذلك الاتحاد كانت مبهمة حمقاء ، وأنشئت هيئة خفية وشبه سرية هي لجنة سويتون لمعالجة شؤون الجموع اللاجئين والأجانب الحاشدة المتزايدة ببريطانيا العظمى ، وكان على رأس هذه اللجنة شخص اسمه المستر لويد جريم اتخذ اسم كاتليف ليستر في ١٩٢٤ ثم منح لقب اللوردية في ١٩٢٩ تحت اسم اللورد سويتون ، ويلوح أنه بأمر عمله بصورة تذكركنا بذوى النزعة السادية<sup>(١)</sup> في بعض الأجانب

---

(١) السادية : ضرب من الانحراف الجنسي ، الفسوة أبرز مظاهره ، وهناك نوع من الجنون يسمى جنون بعض الأجانب .

الجنونى أو بعميل من عملاء النازية ، وتلا ذلك إزاله أسى وأعنف الاضطهاد بأبناء الشعوب نفسها التى كان ينبغي على بريطانيا أن تشخص إليهم طلباً للمعونة فى أثناء كفاحها فى سبيل إعادة ألوية الحرية إلى أوروبا . فقد لقوا معاملة شريرة وحشية لا تنطوى على أى حكمة ، معاملة ألحقت بشرف بريطانيا ضرراً لا سبيل إلى إصلاحه . فاعتقل أعداء أعداء النازية والفاشية ولقوا معاملة قذيمة جداً ، وحيل بينهم وبين زوجاتهم وعائلاتهم ، وأبعدوا عن البلاد ، ودفع كثير منهم إلى الانتصار . وقد بما إن للامضى العظيم لعمد كنتيج وبلرستون وملبورن الذى واجهت فيه بريطانيا المحاملة للقدسة ، جرت سياستها على مصادقة وإيواء ومساعدة رجال الحركات الثورية فى كل دولة أوروبية . وببريطانيا العظمى هى التى أوقفت تجارة الرقيق ، وكان مما يفخر به البريطانيون أنه حينما رفر ف عليهم انشع الناس بثوب الحرية . فأما الآن فلن الصالم وقف كالمصعوق يسائل نفسه أنسيت لإنجلترا ذلك للامضى المجد ؟ أكان كل ذلك الحديث عن الديمقراطية مجرد دعوى جوفاء ؟ .

ومما زاد من الواقع السيئ لهذا الاضطهاد أن الحكومة البريطانية تشبثت فى عناد بعدم إصدار أى بيان واضح عن أهدافها من الحرب ، وكانت كل قوة حرة فى الصالم خارج الإمبراطورية وداخلها تتوسل مطالبة بإصدار ذلك البيان . ومع ذلك فلن الشعوب البريطانية التى أخذت تستيقظ وجدت نفسها غير قادرة على تخليص أيديها من أغلال نزعات المحافظين الثورية<sup>(١)</sup> القاسية التى أوقعتهم فيها الحرب ...

هكذا واصل البريطانيون القتال فى الوقت الذى ساد فيه يلامم كفاح اجتماعى مطرد النور ، وحدث هجوم جوى عظيم ومتواصل على لندن فى سبتمبر وأكتوبر ، وأبرز للليمان تجلده عامة الشعب وصبرهم والقوى كما أظهر الزايد للتواصل فى السلاح الجوى البريطانى ، وأخذت أمريكا بزعماء فرنسكاين ديبلانو روزفلت تزداد على الأيام عطفا على ما يندل البريطانيون من جهد فى الحرب ، وبأفضاء السنة دخلت الحرب فى مرحلة جديدة ، فلن جيوش موسولوى كانت تسير حثيثا فى طريقها إلى مصر وقناة السويس ، وبلغ من ثقته بالنصر أنه ضم إليه ألبانيا ( ١٩٣٩ ) وهاجم بلاد اليونان ( ١٩٤١ ) . وكانت هذه مرحلة مجد أخيرة لتلك الخلق للنتفخ الأوداج . وعند ذلك كان أمثال جورث وأشباهه أيرنسايد قد أجدوا

---

(١) الثورية Toryism مذهب شديد المحافظة على القديم .

عن رياسة القوات البريطانية ، كما أن الجيوش اليونانية قد مما بكفائها الرئيس متكساس إلى الدرجة القصوى . وظهر قائد بريطاني من طراز جديد أكثر كفاية هو الجنرال وينل ، فحرب الجيوش الإيطالية بشمال إفريقيا وأريتريا والحبشة ضربة قاصمة وسريعة أدهشت أبناء قومه كما أدهشت الإيطاليين أنفسهم . ولم تنقش عشرة أسابيع حتى تمزقت الثلاثة الفاشية للفتحة . وهزمت قوات الكومونولث البريطاني الناهضة القليلة العدد والقوية العزم العيدة العتاد — الجيوش الإيطالية للتناثرة من البحر الأحمر إلى طرابلس وأسرتها ، كما قهر اليونانيون بمؤازرة السلاح الجوى البريطاني الجيوش الإيطالية بألبانيا . ولا شك أن لو أتيح للبريطانيين قيادة كهذه تمتاز بالذكاء والعزم لأمكنهم في ١٩٤٠ تحطيم همة النازيين على الترويج . ولم تبحر الأكاذوبة للسبالة بالنازية قائمة حتى ساعة كتابة هذه السطور ( مارس ١٩٤١ ) ، ولكن لو أن أمريكا مدت يد العون للنادي فليس من شك أن البريطانيين كانوا يستطيعون أن يعالجوا شأنها على النحو الذي عالجوا به الفاشية . ولا زال المحيط الأطلسي معتركا لكفاح غير مضمون العاقبة . فالسفن البريطانية تغرق فيه بوفرة كما تغرق أخرى موالية لبريطانيا . وعلى الرغم من ذلك فإن الأمل في قيام عالم جديد لا يزال يملأ النفوس بالرجاء . فهل يتحقق ذلك الأمل ؟

## الفصل السبعون

### أزمة التكيف البشرى

ليس ضرباً من اللباقة أن البشرية مصابة في الوقت الحاضر بمس من الجنون، وأنتا  
لنا بحاجة إلى شيء نحتاجنا إلى معاودة ضبط النفس العقلى في الجلس كله. إننا نهم الفرد  
بالجنون إن جانب أفضاله العالية جادة التوافق مع ظروفه التى فيها يعيش بجانبه تجعله  
مصدر خطر على نفسه وعلى الآخرين. والظاهر أن هذا التعريف للجنون ينطبق في  
الوقت الحاضر على الجلس البشرى بأكمله، وليس من المجاز في شيء بل هو الحقيقة  
المجردة بينها، أن يقال إن على الإنسان أن يتأكد عقله أو يتأكد أو يهلك ويذهب  
جفاء. أجل عليه أن يهلك أو يبدأ مرحلة جديدة يظهر فيها قوة وجهداً أنضج، وكأن  
به لا يجد سيلاً وسطاً بين هذين التقيضين. فهو غير بين السالك الأعلى والحضيض الأوهـ  
وهو لا يستطيع أن يظل حيث هو.

تقنياً في هذه الخلاصة الموجزة لتاريخ البشرى خطى النمو للتصل للمجتمع البشرى،  
ولنا كيف كان كل تحسين في وسائل المواصلات والنقل يضطر الناس إلى تكيف أنفسهم  
لحياة اجتماعية موسعة الأفاق على الرغم من كل مقاومة تلبث عن ضروب الولاء الوطيدة  
والديانات العتيقة والتعيز ومألوف العادات، مع ما يقرن بذلك غالباً من الإسراف المائل  
في النفوس والتبديد الدريع للمعاداة كما أننا نحن في الفصول ٥٧ و ٥٨ و ٥٩ بوجه خاص  
عن صنوف الارتباك والحرص التى خلقها العلم والاختراع الحرفى أثناء القرن الماضى، ووجهنا  
البحث خاصة نحو موضوع للشقات التى ينتجها تقود أوضاع الملكية عندما إزاء تلك  
الترية العامة المزيعة للوجود لدينا اليوم، فقد أصبحت كتلة السكان العظمى متمردة. وربما  
كان الفصل التاسع والخمسون أهم ما فى قصتنا من فصول، وربما كان جديراً بأن يلقى  
عليه القارئ نظرة أخرى. وهناك ميزة خاصة اختصت بها الملكية هى صورتها  
السائلة كتنقود أو كعود بدفع النقود. ومنذ الحرب العظمى أخذت شئون النقود  
تشغل قدراً متزايداً من عناية الناس واهتمامهم، ولكن قدراً كبيراً من الأبحاث التى  
جرت كان غير ذى جدوى لما جرت به عادة الناس من معالجة النقود كشئ أو نظام

في حد ذاته ، على حين أنها جزء مركب من « مجموعة معقدة » من العلاقات ، هو مركب للملكية والنقد ، الذي كلما عدل منه جزء عدل معه السكل . مثال ذلك أنه عندما تتضخم العملة وترتفع الأسعار ، يجرّد الدائنون عما يملكون ، فإذا زال التضخم وانكشفت العملة حمل المدينون عبئاً ثقيلاً . والنقود تتغير طبيعتها إذا أنت غيرت ما يمكن شراؤه وبه ، ويصرح العليمون في شيء من القوى أن إيجاد الائتمان على يد البنوك الخاصة يعد ضرباً من اغتصاب السلطة ، والنقود تتغير طبيعتها بتغير النواحي التي تستخدم فيها ، وليس هناك عملة واحدة ، بل عملات عديدة . وللشيوعية نوع من النقود كما أن هناك نوعاً آخر لأنصار المذهب الفردي<sup>(١)</sup> المتطرف ونوعاً لكل نظام آخر يمكن أن يتواضع عليه في شئون التملك والتوجيه وحرية التصرف .

فلذا أعوز جهاز العملة والائتمان القدر الكافي من القوة العقلية ومن التنظيم والقيادة ظل ميداناً يرتفع فيه المأمر والضارب ، وظل مصدراً لإفساد لا نهاية له لنظام الحياة الاقتصادية اليومية ، ولكن أين لنا بالعويذة التي تبديد هذا الارتباك . لا جرم أن ذلك يستلزم جهداً عقلياً هائلاً ومنظماً . ولن نرجح تقاسي حتى نبذل ذلك الجهد فضلاً عما ستعرض له من مخاطر ذرية في حياتنا الدولية للتهوسة ، تقاسي قلة اطمئنان ربما لاحت في أحد الأيام شيئاً لا يصدق العقل ، في ظل ظروفنا الاقتصادية الضالة . وليس في أيماننا هذه رجل عادي في أي مكان يمكن أن يقال إنه بآمن من الفقر والحاجة .

وقد شرعنا الآن قطع في إدراك للميار العميق الحق لتغيرات ظروف الحياة البشرية التي تدور الآن . وفي القرن التاسع عشر كان الرجل الناشط محتطف هبات القوة والثروة التي كان العلم يهبها له ، دون أن يحس إلا بأقل قدر من الشكر ودون أن يدرك الثمن الذي ربما أصبح من الواجب دفعه مقابلها ، والآن تقدم الأيام قائمة الحساب وتطالب بسداد الثمن ، قد بلغ من تغير معيار المسافات وبلغ من عظم القوة « المادية » التي في يد البشر ، أن أصبحت السيادة للنفس التي للدول الحاضرة أمراً مستحيلاً ، ومع ذلك فإننا نتعلق بتلك السيادة ببناديجر علينا للصائب . فلا بد من أن تبدو بشكل ما ، الأوهام المتصلة بالمال ، وبشكل ما ، لا بد للتحكم العالمي في الحياة السياسية والاقتصادية

---

(١) مذهب الفردية : منفع اجتماعي واقتصادي يعلو بحقوق الفرد ومصالحه على حقوق الجماعة والدولة ومصالحهما .  
[الترجم]



وفى يولوجيا النوع بصفة عامة من أن يحالج بالتنظيم .

والضرورة تحمّ تضيير كثير من الأشياء الثابتة تضييرا يطمس معالمها القديمة تماما .  
وينبئى للقارىء الإنجليزي أن لا يحزنى نفسه كثيراً احتفال انتهاء السيادة البريطانية .  
العالية ، فإننا نحن الإنجليز قبضنا على تلك السيادة برهة واستخدمناها أسوأ استخدام .  
أجل إننا أتينا أموراً ممتازة تنطوى على الساحة والحرية ، ولكننا لم نأت منها القدر  
الكافى لتبرير زعامتنا العالمية ، قد وجب علينا خلال الضيق النفسى الذى يمر بنا أن  
نهيئ أنفسنا للاعتراف بحقيقة ما كنا نعتزف البتة بها فى أيام دزرائيلى والغرور الذى  
أغار به كيلينج . -- وهى أن المصير المثالى للانسان هو المنهج نحو المساواة والوحدة فى أرجاء  
العالم قاطبة . أما العزة والسؤدد ففكرة بالية ومرفوضة ، كما أن الهيبة مثل أعلى غير  
جدير بالتمتع . فعلىنا الآن أن نوطن أنفسنا طوعاً أو كرها ، على الديمقراطية العالمية .  
حتى لا يصيبنا جميعاً ما هو أسوأ من ذلك .

والآن يتضح لدينا تماماً أنه لا بد للبشرية من القيام بمجهود تعميرى هائل إن شاءت .  
أن تتجيب شدة الزيادة فى تلك الهزات العنيفة وتلك المذابح العالية التى ألتجتها الحرب  
العظمى ؛ ولذلك فإن فكرة مرتجلة متعجلة كفكرة إنشاء عصبة الأمم ، وإن مجموعة  
مهلهلة مرقمة من المؤتمرات تجمع هذه الطائفة من الدول أو تلك ولا تثير فى العالم  
شيئاً مع ادعائها تسوية كل شيء ، لن تكون علاجاً للحاجات السياسية المعقدة للعصر  
الجديد الذى ينتظرنا . ومهما تكن الأمور مستعجلة وخطيرة ، فلا بد من أن يسبق  
كل تنظيم عالمى جديد وفصال نهضة عقلية كبرى ، ولابد من نشوء تطور منظم وتطبيق  
منظم لعلوم العلاقات البشرية ولعلم النفس الفردى وعلم النفس الجماعى ولعلم المالية  
والاقتصاد والتربية ، وكلها علوم لا تزال فى مهد طفولتها ، فأما الأفكار الضيقة  
والبائسة والميتة والمختصرة سواء منها الخلقى والسياسى فلا بد من استبدالها بفكرة  
أخرى أوضح وأبسط توضح اشتراك الجنس البشرى كافة فى الأصول والمصائر .

وإذا كانت الأخطار والارتباكات والكوارث التى تتكدر على رأس الإنسان فى  
هذه الأيام هائلة فوق كل خبرة ماضية مرت به ، فما ذلك إلا لأن العلم جلب لهم القوة  
مالم يكن لهم من قبل إطلاقاً ، كما أن المنهج العلمى القائم على الفكر غير الهباب والتعصير  
الواضح إلى أقصى حد ، والتخطيط الناقد والتعزز إلى أقصى حد ، يقول إن ذلك المنهج

نفسه الذى وهبه هذه القوى التى لم يتبأ له بعد التحكم فيها ، يمنحه أيضاً الأمل فى التحكم فى تلك القوى . فالبشرية لاتزال بعد يافعة لم تتجاوز المراهقة . وليست متاعبها متاعب الشيخوخة والإنهاك ، بل متاعب القوة للزيادة التى لم تلق بعد تنظيمها . وإذا نحن نظرنا إلى التاريخ كله بوصفه عملية واحدة وركباً واحداً ، شأنا فى هذا الكتاب ، وإذا نحن شهدنا صراع الحياة للمستمر للتجه إلى أعلى والمهادف إلى الإلزام والتحكم ، لشهدنا آمال هذا الزمان ومخاطره فى صورها اللسبية الحقة . ونحن الآن فى أول مطالع فجر العظمة البشرية . ولكننا نلص ونمضا بما نستطيع الحياة أن تفعله لنا ، نحسه فى جمال الزهر والقروب وفى الحركة السعيدة للثقة لصغار الحيوانات وفى سرر آلاف الآلاف من مناظر البر والبحر ؛ كما أننا نجد إشارة إلى ما نستطيع الإرادة البشرية عمله بوساطة الإمكانات اللادية ، نجدها فيما أنتجه يد الصناع من فنون التشكيل والتصوير ومن الموسيقى الزائفة ، وفى قليل من اللبائى الشائعة العظيمة والحدائق البديعة الضياء . لاجرم أن الأحلام تملأ رؤوسنا ، وأن فى أيدينا فى الزمن الراهن قوة غير منظمة . ولكنها لا تبرز زرداد . فهل يستطيع شك أن يداخلنا فى أن جنسنا لابد أن يحقق تماماً . أجزاً تخيلاتنا وأشدّها غلوا ، وأنه سيحصل على الوحدة والسلام ، وأنه سيعيش ، أى أن أبناء أصلابنا وثمرات حيواناتنا سيمشون فى عالم سيصبح من النخامة والجمال بحال يتفوق كل قصر أو جنة نعرفها ، وأنه سينطلق من قوة إلى قوة فى دائرة من الناصرة . والتحصيل لا يبرح قطرها يزداد ؟ فما صنمه الإنسان ، والانتصارات الصغيرة التى أحرزها . فى حالته الراهنة ، وكل هذه القصة التى سردناها عليك ، ليست إلا مقدمة للأشياء التى تبقى على الإنسان أن يتحما بعد .

## الفصل الحادى والعشرون

من ١٩٤٠ إلى ١٩٤٤

### العقل البشرى فى أقصى توتره<sup>(١)</sup>

— ١ —

الأحداث بين ١٩٤١ و ١٩٤٤

أوصلت الفصول السابقة هذا السفر فى تاريخ الحياة حتى عام ١٩٤٠ - ١٩٤١ . وليس هناك ما يستحق التمييز إلا التدرى اليسير من حيث تتابع الحوادث . وقد حذفت بعض العبارات فى بعض النسخ لسوابع سياسية ولكنها أعيدت الآن إلى هذه النسخة . وقد سجل الكتاب اليوم وحفظت حقوق نشره للمؤلف ككل متكامل ، ولن يكون لأحد حذر ولا إذن بإجراء مثل ذلك الحذف .

ولئن ظل تتابع الحقائق فى هذا الكتاب منزها عن كل تمييز ، ويمكننا الآن إعادته إلى سيرته الأولى الكاملة ، فلقد ألم تمييز جسيم بالقيم للناطقة بتتابعها . على أنه مجرد بنا قبل الحوض فى ذلك للوضوع أن تذكر أحداث تلك الفترة . وفى إمكاننا أن نفعل ذلك باختصار ، وذلك لأن كثيراً من تلك الأحداث لا تزال ناضرة فى ذاكرة القارىء . وفى ١٩٤٠ - ١٩٤١ كان جميع العالم غير المستعد يحتال التماساً للوقت ويضعر الاستراتيجية بأصدقائه المحتملين . واستطاع هتلر على الرغم مما كان يصدر عنه من أكاذيب لا يكد يصدقها عقل أن يقد للعاهدات ويتنام مع جميع خصايه الذين قرر إيقاعهم فى شركه . عدا اليهود الذين كانت نعمته عليهم قاطعة . ويلوح أن الأمريكين كانوا بمنأى عن دائرة أطباعه فى تلك الآونة . فكان هدفه غزو العالم للتركز حول أوروبا . وسار مولوتوف وبوريس ملك بلغاريا وممثل للحكومة الألمانية الحزبية القائمة فى يوغوسلافيا ، فى إثر

---

(١) هذا الفصل أضافه للمؤلف قليل وفاته وظهر فى أحدث طبعة للكتاب [ المترجم ] .

خطوات السبر تشمبرلن وذهبوا للمفاوضة مع هتلر . وظلت بريطانيا تتحمل وحدها عبء الهجوم لم تبرح شدته تزداد كل يوم ، على أن هتلر أحس بعد التفاته مع مولوتوف بالقلق من ناحية روسيا . وكانت روسيا تسترد قوتها من ساعة لأخرى ، لذلك كانت أقرب مصدر للخطر عليه . أجل قد تكون بريطانيا قوية في دفاعها ، ولكنها كانت حتى ذلك الحين غير مستعدة للهجوم .

لذا اجتاحت هتلر بلاد الروس في ٢٢ من يونيو ١٩٤١ . وذلك لأن غزو بريطانيا كان من اليسور إرجاؤه حتى يقضى على روسيا . كانت السلطات المشغولة في أمريكا منقسمة إلى معسكرين ، ولكن الهجوم على بريطانيا لم يكن بد من أن يقضى إلى تحالف وثيق بين روزفلت والقطر الصغوز . وربما سهل على الألمان إيصال الجنود إلى إنجلترا ، ولكن استرجاع الجند منها ثانية كان من أعسر الأمور على الرغم من وجود أتباع موزلى ومن إليهم ومساعدتهم لهم . وكانت قبضة الألمان ممتدة هنا وهناك وفي كل مكان ، ولكنهم كانوا متفرقين إلى أقصى حد ، على حين اكتسب الإنجليز العادي شهرة صلبة العود . وربما استند منه فيها مليوناً من الرجال بينما ليس لديه ربع مليون يستطيع الاستثناء عنهم لنفس العمل . وربما أصبحت بريطانيا معسكراً لا اعتقال أسرى الحرب ، ومن ثم ينزل النازيون إلى أرض إنجلترا ليجعلوها تقوم بذلك الدور .

ولكن لأن استبقى النظام المختارى رأسه خارج الصيدية البريطانية فإنه لجأ مع ذلك إلى شن هجوم عنيف على الروح للضوية لسان لندن الشديدي التخلط السيئ التعليم الأقوياء الرأس . وعندئذ بدأت القارات الجوية التي تسمى باسم معركة بريطانيا ، فشهدت بنمو الكفاية الجوية لدى البريطانيين ، وما والى ١٨ سبتمبر ١٩٤٠ ، حتى كانت ١٨٩٧ طائرة معادية قد أسقطت بمقابل ٦٢١ طائرة بريطانية قتل من ملاحها ٦٠٠ ونجا الباقون بالظلال الواقية ثم عادوا إلى معصمان القتال . ولكن سكان لندن الذين دفعوا غمناً أفدح من هذا . فقد كان القتلى حتى ٥ نوفمبر أربعة عشر ألفاً ، وكان الجرحى عشرين ألفاً ، أربع أخماسهم جميعاً في لندن وحدها . ودمرت في ذلك الهجوم الجوي النازي دار شابات العمال بلندن وثمانية من الكنائس التي بناها السير كريستوفر رن ، وتكلم تشرشل بلسان المجتمع البريطاني قائلاً لأمریکا : « اعطونا الأدوات تم لكم المهمة » وذلك لأن أمريكا كانت لا تزال جالسة في مقاعدها تصفق لبريطانيا تصفيقاً حاداً ، ولكن دون أن يبدو عليها أى مظهر يليق بمدها يد العمل .

في ذلك الكفاح . وفي أكتوبر طالب الإيطاليون بنصيب في تدمير إنجلترا وساعدوا في القيام بالمجوم .

ولكن حدث في السابع من ديسمبر ١٩٤١ ، أن شيئاً أهد عمقاً وأكثر فطنة وأوسع مجالاً من مؤامرة النازي على سائر البشرية ، ظهر تحت الشمس فجأة وأخذ كلا من البريطانيين والأمريكيين على غرة ، ذلك أنه قد تواصلت في آسيا الدعاية للضادة للأوربيين منين طويلة ، وكان مبعث تلك الدعاية خيال اليابانيين الناضج الحيث العدواني . ولم نجد تلك الدعاية لنفسها منفذاً كبيراً في اللغة الهندوستانية ، تلك اللغة التي تضيق الخناق على كل داعية إلى نظم الغرب وعاداته ، ولكنها وجدت من جبرعها باللغات الوطنية في صحافة الشرق من الهند إلى الفلبين وعمت كل أرجاء الصين . وكانت اليابان في كل مكان تتخذ صورة الزعيمة للنصرة للعالم الآسيوي الناهض ، التي سطرت للقادير أن يتسلط في النهاية على هذا الكوكب ، والتي كان أبنائه قد ملأوا البقاع من الشرق إلى الغرب بطريق هونولولو وكاليفورنيا ، حيث كان يقيم عدد ضخم من السكان الآسيويين هديد الاصطباغ بالحضارة الأمريكية ، ينس بينهم الجواسيس والوكلاء السريون ؛ ومن أيسر الأمور ردم ثانية إلى قتالهم القومية . ولم يكن اليابانيون يضرعون للألمان إلا نفس القدر القليل من الاحترام الذي يضرعونه للأوربيين كافة ، وكان رأى هتلر في البداية في ذلك الشعب الأصغر الصغير الأجسام لا يقل عن هذا انعطافاً واحتقاراً .

ولم يلبث هذا للشروع الذي طال الأمد بإعداده ، أن قذف على العالم في ٧ من ديسمبر ١٩٤١ على حين كان الديبلوماسيون اليابانيون لا يرححون بحقوق من الشبهات ضد بلادهم بإجراء للمفاوضات في واشنطن . وكان أسطول الولايات المتحدة الباسيفيكي يرقد هادئاً في مياه بيرل هاربور قاعدته البحرية عند ما فاجأه اليابانيون ، وفقدت في تلك المفاجأة أو دمرت بارجتان وثلاث مدمرات وسفيتان أخريان ، وأعلنت القيادة اليابانية العليا أنها في حرب مع بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية ، وأغرقت البارجتان البرنس أوف ويلز والريالس (لأنهما كانتا بلا عون جوى ١١١) بطرايد أقيمت من الطائرات اليابانية ، وهللى أن أكرر هذه الكلمات للشعنة بالعاني الأسينة . . . لأنهما كانتا بلا عون جوى ١١ ولنا نعرف إلى يومنا هذا من كان المسئول عن ذلك التقصير . . .

لقد صد ويل هجوم الإيطاليين ، وتقدم إلى غزاله ، ولكن سعب جيوشه إلى  
البقان أضف حملته ، فتقدم رومل حتى أصبح على مسيرة ٧٠ ميلا من الإسكندرية ،  
وفاز الجنرال مونتجومري في أكتوبر ونوفمبر ١٩٤٢ بمركبة الطين للدوية ، ومن  
ثم بدأ تقدم سريع على حين نزلت بمراكش والجزائر جيوش أمريكية وبريطانية  
بقيادة الجنرال أيزنهاور . فوقع الألمان بين نارين فسلموا في سبتمبر سنة ١٩٤٣ ، ثم  
استوجب الحال بعد سقوط الإمبراطوية الإيطالية بشرق إفريقيا تقوية مركز الحلفاء في  
الشرق الأوسط ، فاحتلت العراق وسوريا بعد أن أظهرتا شيئا من العطف على المحور .  
وفي أغسطس احتل الروس والبريطانيون إيران وحولوها إلى مركز إمداد  
وتموين عظيم .

ولم تلبث القوات المتحالفة أن اجتاحت إيطاليا بطريق صقلية من ١٩٤٣ - ١٩٤٥ .  
وفي يولييه سقط موسوليني ، وفي ٣ من سبتمبر وقعت الحكومة الجديدة الهدنة وأعلنت  
الحرب على ألمانيا في ١٣ من أكتوبر .

وعند ذلك دخلت إيطاليا قوات ألمانية عظيمة ، أخذت تحارب حربا مريرة حتى  
كسرت في مايو ١٩٤٤ على الخط القوطي بالقرب من بيزا ثم استسلم الألمان بعد ذلك  
في أبريل ١٩٤٥ .

وفشل الألمان عند ستالينجراد عشر مرات ، ثم قام الروس بهجومهم العظيم في  
ربيع ١٩٤٤ وحرروا جميع أوكرانيا ودخلوا رومانيا ، ثم بدأ هجوم عام أخرجت  
به فنلندا ورومانيا وبلغاريا من الحرب ، ودخل الروس بروسيا الشرقية وبولندا  
ويوغوسلافيا ، ودخلت القوات البريطانية بلاد اليونان في أكتوبر ، وفي نهاية  
١٩٤٤ كانت معظم البلقان قد خرجت من أيدي الألمان ، وأسدى أنصاريتو إلى  
الحلفاء مساعدة ثمينة ، وثمة هجوم روسي أخير حرر بولندا ودخل تشيكوسلوفاكيا  
وبلغ برلين ( يناير - مايو ١٩٤٥ ) .

ومهد الطريق للجبهة الثانية في الغرب ، بقذف ألمانيا بالطائرات بناية الشدة ،  
وقضت الجبهة بشمال فرنسا الغربية بقيادة أيزنهاور ، ثم تقدمت الجنود للمتحالفة من الساحل  
الجنوبي بسرعة إلى الشمال ، فلما وصلت الصيوش إلى حدود ألمانيا هاجمها رونشتد

مِنطقة الأردن Ardennas قصدها إلى حين ، ثم ما لبثت أن كسرت خط سيففريد وعبرت الرين في مارس ، وفي ٧ من مايو سَلَت ألمانيا بلا قيد ولا شرط .

وسرعان ما اجتاحت اليابانيون شبه جزيرة الملايو وبسطوا نفوذهم على معظم جزائر المحيط الهندي والهادي ، ثم أخذت الهزائم تتوالى على اليابانيين فاستردت بورما في يناير ١٩٤٥ .

ومن أكتوبر ١٩٤٤ حتى يولييه ١٩٤٥ تم استرداد الفلبين ، وكان الاستيلاء على أيوجيا وأوكيناوا مقدمة للهجوم على اليابان نفسها .

وجاءت النهاية فجأة ، فإن قنبلة ذرية أسقطت على هيروشيما في ٦ من أغسطس وأخرى على نجازاكي في ٩ من أغسطس ، وأعلنت روسيا الحرب على اليابان ، وغزت منشوريا . وفي ١٤ من أغسطس أعلن هيروهيتو قبوله لشروط الحلفاء .

## معرفةنا الحاضرة بطبيعة الحياة

أوصل الفصل السبعون تاريخنا هذا إلى ١٩٤٠<sup>(١)</sup> . ومنذ ذلك الحين حدثت سلسلة متعاقبة من الأحداث أرغمت المشاهد الذي إرغاماً على أن يدرك أن قصة البشرية قد بلغت غايتها آنفاً ، وأن الإنسان العاقل *Homo sapiens* ، وهو الاسم الذي سره أن يطلقه على نفسه يد في صورته الحالية شيئاً منهوكاً لا غناء فيه . ذلك أن النجوم في مسالكها قد انقلبت عليه ولا بد له من أن يخلى مكانه لحيوان آخر أحسن تركيباً لمواجهة المصير الذي لا يبرح يطبق على البشرية بصورة أسرع وأسرع

وربما كان ذلك الحيوان التكيف الجديد صفاتاً آخر غريباً عنا تماماً ، وربما نشأ كتعديل جديد للفصيلة البشرية *Hominidae* بل حتى كاستمرار مباشر للأمة

---

(١) وأضاف المترجم فبنة عما عقب ذلك من أحداث الحرب العظمى .  
( ٢٢ - تاريخ العالم )

البشرية ، ولكن لا شك في أنه لن يكون بشرياً فليس أمام الإنسان إلا مخرجان أحدهما يرتفع قائماً إلى السماء وثانيهما يهوى سحيقاً إلى الحضيض . فأمر الطبيعة الحتم الذي لا هواده فيه في زماننا هذا وفي كل أوان هو أن يتكيف أو يهلك .

وما أكثر من لا يستطيعون مناقشة هذا التخيير الفصيح بين السماء والحضيض ، فإن القوى التي أنشأتنا في نهاية تلك السلسلة المديدة من الكائنات الحية حينئذ بتثبث بفكرة الاعتداد بالنفس تنور به نفوسنا ضد مجرد التفكير في إخلاء العالم للفئران أو لوحوش بشعة طفيلية أخرى قدرة مزودة بالجراثيم الويلة للمدة للقضاء علينا . ولم أتفق أن أحضر المجلس البشري وهو يحد بأفهامه ، وأن يكون لي رأى في حلول السيد الجديد للخلقة عله في النهاية ، وإن كانت النتيجة أن يصبح أول عمل لخليفته المرتقب ذاك أن يعاملني كما تعامل أوديب أباه ، فيقضى على أما أيضاً !

قلب الطرف فيما حولك من هذا الكوكب تجد بقايا الإنسان وأعماله منتشرة في أرجائه ، ولا بد لمعظمنا من بذل جهد فكري هائل قبل أن يدركوا أن هذا التوزيع المتسع للمنتجات الإنسانية ليس إلا مئة الألف سنة الأخيرة . ولا بد أن المواد ذات النشاط الإشعاعي وعملية تحلل الراديوم قد بدأت في المجموعة الشمسية في مدة تقارب ثلاثة آلاف مليون من السنين ، وأنها توقفت فلا قبل أن صارت الحياة ممكنة على الأرض بزمان طويل ، يقول الدكتور ن . هـ . فزبر بمعمل كافندش بكبريدج : « إن جميع الأنواع ذات النشاط الإشعاعي طبيعية بحتة ، بمعنى أنه لا بد أن أحوالاً قد حدثت في مرحلة ما من مراحل التطور الكوني ، ولعلها لا تزال تحدث في بطون النجوم الأشد حرارة ، التي حدث بها إنتاجها ولا يزال ممكن الحدوث ، على أن هذه الأحوال لم تنشأ على الأرض منذ ساعة انفصالها عن الشمس ، كما أننا كسكان للأرض قد جرت عاداتنا التقليدية بالأنا نعد من الأمور الطبيعية إلا تلك العناصر الإشعاعية التي يظهر لنا أنها عاينت على كوكبنا تلك الفترة التي تقارب ثلاثة آلاف للليون سنة (٣ × ١٠ سنة) منذ أن حدث الاتصال » .

وقد حدثنا في الفصول الأولى لهذا الموجز التاريخي حديث الحياة على هذا الكوكب بقدر علمنا به في ١٩٤٠ . ولم يكن حديثنا آنذاك واضحاً بأي حال عن حدود الزمان التي يذكرها الدكتور فزبر بمجلاء تام . فإذا نظرنا في اتجاهات أخرى وجدنا أنفسنا اليوم



نواجه أحد أنواع الكشف عن المستور من طبيعة الحياة قلباً للأوضاع . وسيمجد الكاتب في هذا الفصل الختامى الذى سيكون من الأنسب تقسيمه إلى عدد من الأقسام لكل منها عنوانه ، إلى النقاط قصة الحياة قبل دخول الإنسان إلى مسرحها وإعادة سردها على الأصحاح فى نور التحقيقات الجديدة التى فرضت نفسها قسراً فى عقول المشاهدين الأذكياء ، وهى لن تكون من حيث الجوهر إلا نفس القصة التى سردها من قبل ولكنها ستصاغ صوغاً جديداً فى إطار من الأفاق الموسعة توسيعاً هائلاً . وهذا الإطار الزمنى شأنه شأن الفضاء ، إنما هو ضرب من الفكر الذى يشكل عقولنا ، فنحن نفكر فيه ونستشعر صفة خادعة فيه ، ونستطيع أن نتحدث عن الخروج على حدود الزمان وعن الأبد ، على أن هذه ليست إلا مصطلحات سلبية لا تحتوى على أى مدلول مطلقاً ، فإن أخيلتنا الإيجابية لا تستطيع أن تنفذ إلى ما وراء الدقائق الأولى لساعة الراديو .

ثم أصبح الكوكب الأرضى فيما بعد على التدرج موطناً ممكناً لتلك الوافد المغيّب : الحياة . وكان يدور حول الشمس بسرعة لا يلمحها أحد وعلى مسافة لا يدرها . ثم اكتسبت الأرض بعد ذلك قرأً ناجاً تمكنت موجة من موجات المد أن تهبط من سرعته حتى ألزمتها فى النهاية أن يدير وجهه نحو أمه الأرض إلى أبد الأبد ، ومن ثم يكون الشهر القمرى يوماً قريباً ، وربما يكون كوكبنا نحن قد ألم به تأخير مشابه إزاء الشمس ، بحيث إن السنوات الأولى وأعمار الحياة على الأرض كانت تندفع بسرعة تخرج عن كل تناسب مع هذه الأيام الأخيرة للزمنة ، لقد كانت الآلة تسير بفرامل أضعف . وفى زمن ما من ذلك الطور التدفع وفى ظل خيمة من كشف السحاب البخارية بدأت سلسلة الدقائق الإيقاعية التى يسميها الحياة .

على أن ظلمات البحر العميق التى لا نهاية لها ، وجفاف الأرض اليابسة التى لا هودة فيه ، لم ينطوياً على أية إمكانيات للدقات الإيقاعية . فعنى شيء لم يكن ثيويد . كما قال الأستاذ ج . ب . س هولدين فى إحدى مقالاته المبسطة الجديدة بالإعجاب . إلا فى المنطقة التى يتبادلها على الساحل المد والحجز . فكان النور يقب الظلام وتعب الظلمة النور ، وبدأت الحياة . تلك الدقة العميقة فى المادة اللوات . فإن علماء الحفريات الذين يستوثقون على الدوام عن شيء يهديم فى ظلمات سجل الصخور ، يجدون إشارات تليق بوجود طور حرم من كل أثر للحياة لا يعلم أحد مداه قبل أن تهاشم أشعة الشمس فعلا خلال ذلك الستار البخارى وإقتحت العملية السهلة بالحياة .

ولا تزال ققرات تعاقب هذه الدقات الإيقاعية البعيدة شيئاً غير محقق . فإنها كانت في درجة أولية قصوى بحيث لا يوجد أقرب نظير لها إلا في العناصر التشائية للسكروسكوبية للحياة للامصرة أو في مياه البحر السطحية ، فكان هناك تكاثر هائل في الديانيم<sup>(١)</sup> وما مائلها ، وحدث في زمن مبكر جداً من القصة أن أنتجت طفرة موالية مادة خضراء هي الكلوروفيل ، التي كانت تلتج تحت نور الشمس مزيجاً شبه دائم يستمر مادام النور موجوداً . ولذا فإن سجل الصخور يتحول فجأة من انعدام الحياة إلى أضرب كثيرة من أشكال الحياة بمنطقة للد والجزر .

وهذه الأشكال بكل ماحوت من أضرب يتجلى فيها ميل مشترك ، هو النزوع إلى فرض وجودها Lennvial وهي تظهر في أبسط الصور ذلك التنازع على البقاء الذي أصبح للنزوع الجوهرى لتاريخ الحياة ، ثم لامتلبت هذه اللادة الحية أن تنقسم في لحظة باكرة جداً إلى أجزاء فردية ، يمكنها أن تواجه الظروف للضرورة وظل حية هنا وإن جف غيرها هناك أو هلك ، وكأني بهذه الأفراد خالية من أى دافع للصراع مع الطعام الذي تتناوله أو مع إحداها الأخرى . فإذا هي التقت تدقت معاً ثم تباعدت ثانية . وقد زادها الالتقاء قوة ظاهرة ، ويحدث تجديد الشباب والحوية ذاك دون وجود أى علامة لتمايز الجنس ، فهي أمر يتم بين أُنْدَاد .

### — ٣ —

## بزوغ فجر العائلة

من الأمور التي بدأت بداية واضحة في تاريخ الحياة تكوين فارق بين أفراد بحيث يتفرد فريق منهم للمخاطرة ويتعرض للتجارب وللموت التهاى ، على حين يواصل صنف آخر بقاء النوع بلا نهاية .

والغالبية العظمى للكائنات ذوات الخلايا المتعددة على هذا الكوكب تبدأ وتنتهى كبريئات مخصصة . ومنها ما يتبرعم وينقسم ، ومنها ما ينتشر بالتقطع أو التوالد .

---

(١) الديانيم (Diatom) : أحد أفراد فصيلة من فصائل الطحالب المجهرية ذات الحلية الواحدة ولها عارتان وتتمطيان كالصندوق وغطائه .

العندى (كما في الدبابة الخضراء) وما مائل ذلك ، ولكن أمثال وسائل التوالد هذه تبقى النوع ثابتا ، غير قابل للتكيف وبعداً عن كل مناعة ، ولا بد أن يحدث إن عاجلا أو آجلا ، إن قدر للنوع البقاء - تغيير غايته القوة والتوزيع في المحسّر والأنثى اللذين نجدتهما مستقرين آنفاً في صورتها الراهنة في أبكر فصل من فصول الحفريات عثرنا عليه .

وهناك تقلبات بعيدة في تمايز الجنس حتى في النوع نفسه تمتنعها الضرورات للتغير التي تفرضها الحياة . وقل من وقف ليتضمن في جنس النمر أو الفمرة عندما يلتقي به صدفة ، ولكن كيف يتضح جنس قطرة مارة بنا أو أرنب أو قنفذ ، أو ذئب في سربه حين يقتنى أثرنا أو ذبابة أو سحلية ؟

وحق مياسم الجنس في « الإنسان العاقل » أقل ظهوراً اليوم بكثير مما كانت عليه منذ مائة سنة ، ذلك أن اللبالة في تضيق الحصر بالضغط الشديد عليه بالشدات قد توقفت اليوم . وكذلك اختفى أيضاً قدر كبير من تدليل النبات لتدليل لانتمهم له معنى . وكان لتدرجة بعض الفضل في ذلك الانطلاق . فإن البت الثابتة تشط نفسا بالانطلاق بدرجتها بلطف وتجد المائدة تعود عليها من ذلك بينا جدتها تأخذ قسطا من الراحة في فراشها . وكلما ألت بنا أزمة أغشى على جداتنا ولكن من ذا الذي يسمع اليوم عن نساء يضى عليهن ؟ فالآن ينشئ على الرجال أكثر من النساء ؟

لقد حدث في أمد وجيز لا يتجاوز عمر رجل مسن تغيير عظيم في علاقة الجنسين بعضهما ببعض في المجتمع البريطاني ، وبالعلاقات المتعلقة بالمرء في الزواج ، وبالتواقات الاجتماعية للتربية على تلك التغيرات . فكان رجال مسنون يتزوجون نساء صغيرات ؛ على حين يزخر العالم اليوم بالزوجين الشابين . ومن الشواذ القليلة أن تجد خريفا هربا متزوجا من ربيع مزهر . وربما عاد رأى الناس أدراجة ثانية . وربما لم يكن مانشهدهم خروجاً على الحالة الأولى . وربما استطاع التشريع للشأ على خطة مقصودة وتقص الطعام وما مائه من عمليات اقتصادية ، وموجات الطف على الأمومة أو النور منها والشعور القوى أو انعدامه والليل الطبيعي إلى الوقوع في شرك الترام مقترنا بالرغبة في تثبيت إحدى العلاقات بواسطة مصلحة مشتركة ومستديعة ، والفخر بالأطفال الحسنى التكوين جنائياً وعقليا ، ربما قدر لهذه جميعا أن تلعب أدواراً

لا حصر لها في إنتاج إنسانية جديدة قادرة على التكيف الكافي لإزاء الضرورات التي تهدد من حولنا كالرجل وتضطربنا إلى أن نفحص قصة الحياة على الأرض حتى نهايتها .

وتدعى الهيئات الدينية عامة والكاثوليكية خاصة أنهم يقومون على حماية نظام العائلة . والواقع أنهم لا يفعلون في ذلك السبيل أى شيء . فإن العائلة موجودة منذ تناسلت الحيوانات وزاوجت ثم افترقت لحماية صغارها وتربيتها . ولكن التدخل الكهنوتي قد حط من قدر هذه العلاقة الواضحة البسيطة حين وسم الأطفال الذين لم يولدوا لأب شرعى بأن حملهم تم في ظل الخطيئة ، جاعلا من مولدهم غير الشرعى شيئا غزيا بطريقة لا تفهم لها معنى ، ومقياسداً مبنياً بين الحقائق والإمكانات الجوهرية المتعلقة بحياة العائلة وبين الصغار حتى يموت الأوان فلا يعودون يستفيدون من معرفتهم بها .

#### — ٤ —

### انتحار الجنس بالتضخم

يعيش الفرد البشرى إلى سن كبيرة جداً ، بالقياس إلى حياة المخلوقات المحيطة به . وساعة الراديوم<sup>(١)</sup> تعطينا كمعمر للحياة فترة عظيمة أقل كثيراً من عشرة آلاف مليون من السنين الأرضية ، ولعلها أقل كثيراً من خمسة آلاف مليون سنة ، وفي كل هذه الفترة الزمنية كان يحدث تماقب مستمر في أشكال الحياة التي تسود للوقوف على ظهر البسيطة . أجل لقد ساد كل منها بدوره ثم عاد كل منها فأزيع من المشهد بدوره أيضاً وحل محله شكل أحسن تكيفاً . واتصاع كل منها لمجموعة معينة من القوانين لا مفر من إطاعتها ، لاح أنها كانت قطعة من طبيعة الأشياء نفسها .

وكان أول هذه القوانين هو أن العدوان أمر حتم . فالأمر الذى لا مرد له هو أن عشى — أجل عشى وبأ كبر ما يمكن من الوفرة الزاخرة . عشى أكثر من إخوانك

---

(١) للفروض أن المؤلف يشبه إشعاع الراديوم للتنظم على مر المصور بدقات الساعة التي يحسب الزمن .  
[ للترجم ]

وكن أكبر حجما منهم والتمهم منهم أكثر . وفي الأيام الأولى ، كان ذلك الأمر الختم غير مقيد بأي دافع يدعو إلى المساعدة للتبادلة ضد منافس مشترك . قد أكل الأفراد الكبار طعام الصغار ، وإن لم يأكلوهم فلا ، فكبرت أجسامهم أكثر وأكثر ، فسجل الصغور لا يظهر فيه دائماً في نهاية كل فصل من فصوله إلا الأفراد الضخام .

ويدور كوكبنا ويتغير مناخه تغيرا يجعل سيد الخليقة القديم للفرط النمو غير متجانس مع ما يحيط به من بيئة ، وإذن فلا مفر له من أن يذهب . والعادة - وإن لم يكن ذلك دائماً - أن يختلف شكل للحياة مختلف تماما . ولعله يصنع صنيع القروش فيتضاد عدده حتى يدركه الطعام ، وعندئذ يعود إلى وفرة عدده الأولى ، وإن لم تكن الطبيعة قد أعدت بديلا منه . ومن للعلوم أن القروش وأشباهها تعيش وتموت بنفس ولا يبقى منها شيء يصبح حفرة . ونحن نعرف أن هناك في هذا العصر قروشا هائلة تصطلي هي وأمثالها في ضياء الشمس منذ عصور متعاقبة ، منذ أن وجد لها القدر الكافي من الأسماك لتلتهمه وتختذى به . فنحن في ذلك كله نتخبط في غياهب الحسد والتخمين .

— ٥ —

## النضج المبادر : إحدى وسائل البقاء

أنتجت الطبيعة في لعبها الأبله بإمكانيات الحياة مستعدثات مباغتة في السجل بزيادة سرعة إخصاب البويضة وإخصاجها بالنسبة للأطوار الأخرى من دورة الحياة . ويلبى ألا يذهب عن باتنا دائما في مثل هذه المسائل أن مآثره إنما هو دورة حياة كاملة وليس شكلا ثابتا بلانغ ، وحدث المرة بعد المرة أن الطبيعة قد فصلت شكلا بالغا من السجل فصلا تاما وألغته وجعلت مرحلة اليرقة Larva الشكل الناجح تناسليا .

وجاء على السجل حين مبكر كانت سيدة الخليقة في الشوكيات Echinoderms والسمك النجمي وما إليها ، بما حوت من تكوين إشعاعي . ولم يكن لديها شيء من قوة التنقل الحركي في أثناء طور بلوغها أو كان لديها منه قدر قليل ، كما كان الكثير منها كائنات Crinoids مثبتا في الجنود وقد تحولت للزترات Juncata هي وبعض

الأشكال الشعة الأخرى إلى إنتاج السليولوز، وكانت بارزة النزعة النباتية في طريقة عيشها وعاداتها . وكانت تلقى في الماء بيضها المنحصب، وساعد على انتشار هذا البيض نشوء تكوينات إضافية صلب بها عود اليرقات للتغذية على غير هدى ورهبت محركتها قوة دافعة مستقلة وسمى العمود الفقري لهذه الأشكال للنبعثة للتنقلة باسم الحبل الظهرى Notochord كما أطلق اسم الحبلات على شكل الحياة للسمين الطيبة الجديدة New Fore والطراز للتأخر Aft « الذى كان الحبل الظهرى هو البشير الآذن بهما؛ سميا الحبلات Chordata كتميز لسلسلة الأشكال التى ليس لها حبل ظهري من أمثال السمك النجمى وقنفذ البحر وخيار البحر وهكذا دواليك . وكلها كانت سادة للخلقة في زمانها . ولا يخفى أن عالم الحيوانات الفقارية الفخم بأجمعه بما فى ذلك الإنسان يدين بوجوده لهذه النزوة التى أصابت الطبيعة ، ولم تكن تتطوى على أى سبب عقلى بأى حال ، لقد حدثت هكذا وكفى .

يتبدى الحبل الظهرى في تطور الحيوانات الفقارية جميعاً ، ولكن تغزوه ونحل محله في جميع الأشكال العليا مادة غضروفية أو عظمية ، وهو يظل في سمك الجريث Hagfish والجلسكيات Lampreys طول حياتها ، وهو يصل إلى موائلنا ممثلاً في هذا النوع الأخير .

## — ٦ —

### الخصومة بين الهرم والشباب

ولعل هذا أنسب للواضع الذى يستطيع كاتب هذه السطور أن يقول كلمة موجزة عن الصدام الذى لا مفر من حدوثه والناشب الآن بينه وبين الشباب. إن المؤلف يتقبل حقائق الحياة هذه بهدوء واقتناع تام ولا يقبل لها أى شكل آخر ، ولكنه لا يعتقد أن أى شاب يصغر مثلاً عن سن الخامسة والثلاثين على أكثر تقدير سيتقبلها بنفس الروح التى يتقبلها بها . فإن كل شاب حتى قرابة ذلك السن فى حالة صراع من العالم ويبنى أن يحصل على ما يريد منه ، فإن هو فعل ذلك فلا بد أن يكون شاباً مثيلاً للحظجدا من الحيوية حيث يظهر مثل ذلك الاستعداد للتسليم « وتقبل الأشياء على علاتها » .

ولكن كاتب هذه السطور يدلف في سلة الثامنة والسبعين ، جد أن عاش عيش  
الروح واليسار وقد دفأ كلنا يديه على نار الحياة ، وها هو الآن مستعد للرجل عنها وقد  
أخذت تنحدر به في دور من العلة والوسوسة . وهكذا ينتظر خاتمة وهو يرقب البشرية  
وهي لا تزال متحمسة لاستخدام ما جمعه من خبرة استخداماً ناقصاً بينما في هذا الزمن  
زمن الاضطراب العقلي . ولكنها لا تكابد تلك القوة المتهورة التي تدفعها للوصول مع  
الحياة إلى نتيجة حاسمة ، وهو جزء ضروري من تكوين أى فنى سوى ذكرها كان  
أم أنثى .

وكل إنسان تجاوز فترة التكوين يحس نفس إحساسات المؤلف . فهو قد كون  
نفسه عندئذ . ومنذ تلك الساعة ظل هو وأمثلة من كبار السن يهوغون ويستكفون  
ويقصون بكل بساطة صيغ الفكر التي صبوأ فيها معتقداتهم ولكن مع زيادة معينة في  
الحدة في معظم الأحوال . وهو يميل إلى الظن بأن اهتمامه للتواصل بعلم البيولوجيا ربما  
كان السبب في اتصاله الوثيق بالحقائق الحية اتصالاً أوثق من اتصال السياسيين أو  
المضاربين الماليين أو رجال الدين أو رجال الأعمال الكثيرى المشاغل ، على أن ذلك ليس  
وسيلة رفق الصدع القائم بين المسنين والشباب . وسواء أكتنا نحن المسنين رقب  
ماحولنا بأمل أو بسوء نية ، بمحس أو بكرم خلق ، فإننا لانملك إلا أن نرقب ولا نستطيع  
تجاوز ذلك . لقد عشنا بالضرورة أربعين تقريباً ، والشباب هم الحياة ، ولا يعقد  
أمل إلا عليهم .

## ضوء جديد على سجل الصخور

سبق أن أشرنا ( ص ٤ ) إلى أن دوران الأرض حول نفسها ودورتها السنوية في  
مدارها قد أخذت سرعتهما في الهبوط ، فكل ما اكتشفناه منذ أن كتبت مسودات تلك  
الفصول الأولى يؤكد الفكرة القائلة بأن امتداد العصور الباكورة لسجل الصخور (إذا  
هو قيس بدقة وضبط ساعة الراديوم ) لابد أن يلحقه تخفيض هائل يتناسب تماماً وسرعة  
العصر الكائنوزوى . أجل إن الأشكال هي نفسها لم يداخلها خير ، ولكن النسب  
مختلفة . وربما كان ذلك التباطؤ الدنيوى مستمرا وربما لم يكن كذلك ، على أن استمراره

هو الأرجح في نظر المؤلف . ولكن من يدري ؟ على أن أحوال حيوات الفرد والنوع يلوح أنها كانت تتقلب سريعا ومتعسا في تلك الأزمنة للندفة .

ولكننا على يقين من شيء واحد . وذلك أنه على الرغم مما اجتمع لنا من المجموعة الهائلة من الحقائق فإن حقيقة لم تستطع أن تلقى خلا من الشك على ما يسميه العلماء إلى الآن باسم « نظرية » اللشوء والارتقاء العضوى . وعلى الرغم من عنيف الكذب والعواء الذى أذاعه للتقون للتدينون ، فليس ثمة عقل يحكم النزعة العقلية Rational يستطيع أن يمس بأى سوء الطبيعة النبعة لقضية اللشوء والارتقاء . وهناك كتيب جذير بالإعجاب كتبه ا . م . دافيز وأسماء « اللشوء والارتقاء وناقدهو المحدثون<sup>(١)</sup> » ولخص فيه هذه القضية تلخيصا وافيا ومفصلا . فلى ذلك الكتيب ينبغي أن يلجأ القارئ الذى لا يجد موردا جذيرا بالثقة ينهل منه .

أما الشيء الذى يظهر الآن بالفعل فهو تباطؤ هذه الحيوية الأرضية في سرعتها . ذلك أن السنوات والأيام أخذت تطول ؛ والعقل البشرى لا يزال فعلا ناشطا يتعقب النهايات ولولت ويدبر لهم الوسيلة .

وكاتب هذه السطور - مع تذكر سنة - يرى أن العالم منك خال من كل قوة تعيد إليه العافية ، وقد أبدىنا في الأقسام السابقة من هذا الكتاب زعة ترجو متلهفة أن يوفق الإنسان إلى التخلص مما يقيد به من اشتباكات ويبدأ طورا جديدا خلاقا للصيانة الإنسانية . ولكن خاب الغال في السنتين الأخيرتين إزاء ما يحلى منا من عدم كفاية عامة ، وحل محل التناؤل ضرب من الاستخفاف الهادى ، فكبار السن يسلكون في معظم أمهم مسلكا نسبيا يدعو إلى الاشمزاز ، كما أن الشباب يتصف بالحقاق وسرعة الانفعال وسهولة الوقوع في شرك للضللين ، فلا بد للإنسان من أن يرتفع إلى السماء أو يهوى إلى الحضيض وكأى بكل الظروف تعمل على ترديته إلى حضيض الهوة وإخراجه من مسرح الحياة فإن هو ارتفع إلى السماء كان التكيف للطلوب منه عظيما يضطره ألا يظل إنسانا ؛ ولعلكم تذكرون من العنواين الثانى لهذا الفصل أن الناس العاديين في أشد التور ؛ فليس فيهم من لم له يستطيع البقاء إلا أقلية قوية القابلية للتكيف ، فأما بقيتهم فهم قوم لن يهتموا بالأمر ، لأنهم يجدون أنواع المحدثات والعزاء التى يحبونها ، لذا ينبغي لنا



أن نختتم هذا التأمل الفكرى حول الطور الأخير فى التاريخ السيب للشئ الذى  
يسمونه الحياة باستعراض تعديلات النوع الإنسانى التى تحدث فى هذه الأيام .

تظهر الحيوانات الراقية كخلافات غابات تتصل بصفة القربى بمجموعات من أكلة  
الحشرات ، بدأت حياتها شجرية واكتسبت بين الأضغان حدة الأعين والتوافق العضلى ؛  
كانت ميالة إلى العشرة وازدهرت ازدهارا واسعا ، حتى إذا حدث لها الازدياد  
للمتاد فى الحجم والوزن والقوة ، اضطرت إلى النزول إلى ظهر الأرض ، وقد بلغت  
آنذاك من الكبر ما يجعلها تستطيع أن تتعدى وتقال وتتوق فى الدهاء والحيلة على  
آكلات اللحم الكبرى من أبناء عالم الغابة ، وقد مكنتها هيتها شبه القائمة من أن تلتصب على  
قدميها وتضرب أعداءها بالأحجار ، وهى سلاح جديد لم يسمع بمثله أضيف إلى الأسنان  
والخالب . ولكن ميلها إلى التعاشر تناقص لأنها كانت آنذاك بحاجة إلى مساحات  
رحية من المواد الغذائية . وذوى الصغار أمام الكبار ، وقها لفظ الحياة القديم الأمد  
وطورت القرعة العليا نظام العائلة الخاصة إلى مستوى عال . وعلى امتداد هذا الخط  
ساروا حتى أصبحوا ما نراه حولنا فى الوقت الحاضر من غوريلا وشمبانزى وأورانج  
بوتنج .

## - ٨ -

### النار والسلاح

ولكن الوحوش الراقية تعرضت لظروف قاهرة أخرى خارج مناطق الثابتات فى أثناء  
مرحلة تقلصت فيها تلك الثابتات . فانتشرت مكانها متسعات ومساحات مليئة بالشب  
والسهب القاحلة . وتقلص مقدار الأطعمة المتخذة من الخض ، لذا أصبحت الحيوانات  
الصغيرة واللحم بوجه عام جزءا متزايدا الأهمية فى الطعام . وكان أمامهم كما هو الحال  
دائما الاختيار بين بديلين : إما التكيف وإلا فالهلكة ، وكان من حسن حظ سلسلة  
جديدة من أشكال الحيوانات الراقية أن نجحت من مذمة عالية لها . كانوا أكثر  
اتصافا من القرعة العليا بالقلب ؛ وكانوا يحرقون ويصطادون وأوتوا من الذكاء ما جعلهم  
يتعاونون فى صيدهم .

كانت هذه القردة الأرضية - هي الفصيلة البشرية Homindae ، وهي سلسلة حيوانية جامدة وكاسرة . ولما كانت حيوانات تعيش في الغراء ولها قدر كاف من الذكاء يجنبها الترق كانت البقايا للنخرفة والدالة على ظهورها قليلة العدد متباعدة ولكن فيها الكفاية . فلئن لم يتركوا كثيرا من العظام ، لقد نثروا في العالم أدواتهم ، ذلك أن وضعها القائم حرر يديها وعينها وأوجد بينهما تعاوناً أدق وأضبط ، كانت هذه الوحوش تتواصل بأصوات غليظة شاذة . كانت تستطيع القبض على المرات والاحجار لتستخدمها في أغراضها . وكانت تطرق الاحجار العظيمة لتعمل لها شكلاً أكثر حدة ، فإذا تطاير الشرير بين الأوراق الجافة التي كان يحتمل بينها وظهرت النار الجراء كالأزهار كان ظهورها هادئاً ومألوفاً بحيث في يمت في قلبها الخوف ، ولم يكن أي كائن حتى آخر قد شهد النار إلا في أثناء السكبات الباعثة الرعب في قلوب الحيوانات ، حيث كانت تتبع كل شيء دون رحمة ، وكانت الدية - حتى دية الكهوف - تفر من النار والدخان على حين أن الفصيلة البشرية اتخذت من النار صديقاً وخادماً . وكلما قرصها البرد أو هاجمها أعداؤها من أكلة اللحم ، قابلت ذلك بالزحف إلى داخل للغارات وأمثالها من الأماكن المستترة وتركزت نيران النار وقوة .

وهكذا سادت هذه الوحوش العظيمة الغليظة شبه الإنسانية وانتشرت في أثناء أطوار الزمهرير لصور الجليد للتعاقة . كانت تخرج لصيد بصيحاتها وحركاتها الغليظة الشاذة . وكانت وهي في شكلها البالغ أكثر وثقل كثيراً من الإنسان ، فالأيدي الثقيلة التي اقتطعت من الصخر الأدوات الشليانية كانت أكبر من أية يد بشرية ، ويستطيع مهرة عمال النظان (الصوان) أن يصوغوا تلك الآلات الرفيعة نسبياً التي صنعها رجال العصر الحجري القديم للتأخر بمنتهى النجاح ، بيد أن الأداة الشليانية الزائلة لا تقل صعوبة وثقلاً عن أي آلة حجرية شبه إنسانية ، فالأداة الشليانية إنما هي قلب خطرانة عظيمة ، بينا الأداة الإنسانية التالية شطلة من قلب طرانة بشرية .

يخرج الخواص للسمى بالإنسان المائل من بين الأنواع البكرة للفصيلة البشرية خروجاً جلياً جداً بوصفه فئة أخرى من فئات دورة الحياة نحو صورة غفلية وشكل أكثر مرونة من الناحية البيولوجية ، وهي لتأت لعبت دوراً هاماً جداً في التاريخ المتقلب للسكانات الحية ، وهو ليس للمائل للبالغ التيسيع من إنسان هيدلبرج أو نيا ندرتال وإنما هو وفي أطوار الاستهلاكية الطفل التجريبي اللعوب القابل لتعلم السريع النضج

الذى لا يزال مكلّفاً بالخضوع الاجتماعى بعد أن يتجاوز حد البلوغ الجنىسى ، ذلك أن أحوال الحياة الدائمة التغير يقلّ تساعها آنا بعد أن إزاء كل طور بلوغ نهائى وضخم ومستبد ولذا يتر هذا الطور من الدورة ، فالإنسان البدائى البالغ الغليظ الضخم يمتنى ويحمل عمله طراز أكثر منه شابا ، طراز آخر مختلف تماما كما بين السجل ذلك بجلاء تام . ولكن أطوار الانتقال وطريقته لا تزال موضع التأمل والبحث وجميع أنواع الإنسان العاقل تزواج وتتوالد ، وربما كان هناك تزواج وتوالد متواصل بين أبكر أنواع الجنس وربما عادت قترات من الانعزال بإنتاج أشكال أخرى عملية شبه نيا ندرتالية أو شبه زنجية أو شعراء أو قائمة أو طويلة أو قصيرة لا تزال قادرة على الزواج والتوالد . على ندى الشاكلة التى أتبع بها الكلاب عددا لانهية له من الأجناس التى تستطيع بسهولة أن تهجن ، بل لا مفر لها من ذلك عندما تنهار الحواجز بينها ، وربما اقتلت العائلات والقبائل فيما بينها وعما الظافرون يميزاتهم الفارقة بالزواج مع أسرام من النساء . هذا وإن علم البشرىات للقارن يحمل يسطه معقدات قصة الطريقة التى ذوى بها الإنسان البدائى Homo الذى بلغ جلسه حد الكهولة والذى لم يعد لوجوده الآن ضرورة تاركا من وراثته الإنسان العاقل الشبيه جنسه بالطفل ، الذى هو فى أحسن أحواله محب للاستطلاع قابل للتعلم مبال للتجريب من مهده إلى لحد .

هذا وإن عبارة « فى أحسن أحواله » هى زبنة هذا القسم . أجل إن من الممكن أن تكون هناك اختلافات جيدة فى مدى قابلية البشرية للعاصرة لتتكيف العقلى ، ومن الممكن أيضاً أن كتلة البشرية للعاصرة قد لا تكون سهلة القبول للأفكار الحديثة كقول الأجيال الأبر والأصغر منها والأكثر طفولة ، كما أن من المحتمل كذلك أن التفكير الخائل العميق الشديد لم يزد إلى الحد الذى يساير به امتداد الجماعات والنظرات الإنسانية وعتقاداتها وتلك هى أحلك ظلال اليأس التى تسقط على آمال الإنسانية .

ولكن روحى ومزاجى يحصلانى لا أشك مطلقاً كما قلت آنا فى أنه ستوجد تلك الألفية الصغيرة التى ستوفى إلى تتبع الحياة حتى نهايتها .

## جدول تاريخي زمني

أخذت الشعوب الآرية تستقر حوالى عام ١٠٠٠ ق.م في شبه الجزيرة الإسبانية وفى إيطاليا والبلقان ، كما أنهم كانوا مستقرين في تلك الأثناء بشمال الهند ؛ وكانت يد التدمير قد امتدت آنفا إلى كنوسوس ، كما أن عصور مصر المثرامية ، عصور تحتمس الثالث وأمينوفيس الثالث ورسيس الثاني ، كانت ولت منذ ثلاثة قرون أو أربعة . وكان يحكم وادى النيل ملوك الأسرة الحادية والعشرين الضعاف . وكانت إسرائيل متحدة في ذلك الأوان تحت حكم ملوكها الأوائل . وربما كان شاول أو داود أو لعله سليمان متربهاً آنذاك على العرش . وفي ذلك العام كان سرجون الأول ( ٢٧٥٠ ق.م ) ملك الإمبراطورية الأكادية السومرية ذكرى سحيقة في التاريخ البابلي ؛ أبعد في عالمهم من بعد قسطنطين الأكبر من عالمنا الحاضر . وقد توفي حمورابي قبل ذلك بألف سنة . وصار الآشوريون متسلطين على البابليين الأقل صفات حرية . وكان تجملاث بلسر الأول قد استولى في ١١٠ ق.م على بابل . ولكن لم يدم غزوه لها ؛ وكانت آشور وبابل لا تزالان إمبراطوريتين منفصلتين . أما الصين فكانت تزدهر فيها أسرة تشو الحديثة العهد ، وكان عمر ستون هنج بأعجلته في ذلك الأوان بضع مئات من السنين .

وشهد القرنان التاليان نهضة لمصر تحت الأسرة الثانية والعشرين ، وتمزقت مملكة سليمان العبرانية القصيرة الأجل ، وانتشر اليونان يبلاد البلقان وجنوب إيطاليا وآسيا الصغرى وكانت أيام عظمة الأترسك بإيطاليا الوسطى . ونحن نبدأ قائمة التواريخ المحققة بالآتي :

قبل الميلاد

- ٨٠٠ بناء قرطاجنة  
٧٩٠ غزو الإثيوبيين مصر ( وتأسيس  
الأسرة الخامسة والعشرين )  
٧٧٦ إقامة أول أولياد بيلاد اليونان  
٧٥٣ بناء روما  
٧٤٥ فتح تجلات بلسر الثالث بابل  
وأسس الإمبراطورية البابلية  
الآشورية الجديدة  
٧٢٢ سلح سرجون الثاني الآشوريين  
بأسلحة من الحديد  
٧٢١ نقل الإسرائيليين من بلادهم  
٦٨٠ أسرحدون يستولى على طيبة بمصر  
ويخلع الأسرة الخامسة والعشرين  
الإثيوبية  
٦٦٤ استرجع أسيانك الأول حرية  
مصر وأسس الأسرة السادسة  
والعشرين ( حتى ٦١٠ )  
٦٠٨ نحاو ملك مصر يهزم يوشع ملك  
يهودا في معركة مجدو  
٦٠٦ استيلاء الكلدان واليديين على  
نينوى . تأسيس الإمبراطورية  
الكلدانية .  
٦٠٤ رد نحاو إلى نهر الفرات وتغلب  
نبوخذ نصر الثاني عليه ( أرجع  
نبوخذ نصر اليهود إلى بابل )  
٥٥٠ خلف قورش الفارسي سياكارس

قبل الميلاد

- للیدی . قورش يقهر كرويسوس  
٥٥٠ بوذا كان يعيش قرابة ذلك الزمان  
وكذلك أيضاً حكوتفشيوس  
ولا هوتي  
٥٣٩ استولى قورش على بابل وأسس  
الإمبراطورية الفارسية  
٥٢١ حكم دارا الأول بن هستاسبس من  
الفرديئيل إلى نهر السند . حملته على  
بلاد الإسكنديين ( الروسيا )  
٤٩٠ معركة ماراثون  
٤٨٠ معركة ثرموبلاي وسلاميس  
٤٧٩ معركة بلاتيا وميكالي تهيان طرد  
فارسي  
٤٩٤ الإغريق الصقليون يدمرون  
أسطول الأترسك  
٤٣١ بدء حرب البيلوبونيز ( حتى ٤٠٤ )  
٤٠١ تراجع العشرة آلاف  
٣٥٩ أصبح فيليب ملكا على مقدونيا  
٣٣٨ معركة خايرونا  
٣٣٦ عبور الجند للقدونية إلى آسيا  
ومقتل فيليب  
٣٣٤ معركة جرانيكوس  
٣٣٣ معركة إسوس  
٣٣١ معركة أريلا  
٣٣٠ مقتل دارا الثالث  
٣٣٣ وفاة الإسكندر الأكبر

قبل الميلاد	قبل الميلاد
٣٢١ قيام شنندرا جويتا بالبنجاب :	٢٠٢ معركة زاما
السمنيور يهزمون الرومان تماما	١٤٦ تدمير قرطاجنة
بمعركة مفارق كودين	١٣٣ وهب تالوس مملكة برجامة لروما
Candine Forks	١٠٢ صد ماريوس الألمان
٢٨١ غزا ييوس إيطاليا	١٠٠ انتصار ماريوس . (الصليوت)
٢٨٠ معركة هرقليا	يفتحون وادي نهر تاريم)
٢٧٩ معركة أسكولم	٨٩ أصبح الإيطاليون جميعاً مواطنين
٢٧٨ أغار الغالة على آسيا الصغرى	رومانين
واستوطنوا غلاطية	٧٣ ثورة الرقيق بقيادة سبارتا كوس.
٢٧٥ ييوس يغادر إيطاليا	٧١ هزيمة سبارتا كوس ونهايته
٢٦٤ الحرب البونية الأولى (بدأ حكم	٦٦ بومي يقود الجيوش الرومانية إلى
أسوكا بإقليم بهار حتى ٢٢٧)	بحرقزون ونهر الفرات. ويلتقي
٢٦٠ معركة ميلاي	بقبائل الآلاف .
٢٥٦ إكنوموس	٤٨ هزم يوليوس قيصر بومي عند
٢٤٦ أصبح شي هوانج في ملكا على	فاراسالوس
تس ان	٤٤ مقتل يوليوس قيصر
٢٢٠ صار شي هوانج في إمبراطورا	٢٧ تمين أوغسطس أميرا (حتى ١٤
للصين	ب . ٢٠٠)
٢١٤ بدء بناء سور الصين الأعظم	٤ التاريخ الحقيقي لمولد يسوع الناصري
٢١٠ وفاة شي هوانج في	

بعد الميلاد

- بدء الحقبة المسيحية  
١٤ وفاة أوغسطس ، وتولية  
الإمبراطور تيربوس  
٣٠ صلب يسوع الناصري  
٤١ كلوديوس (أول إمبراطور تعينه  
الكتاب) يوليوس الحرس البريتوري  
العرش بعد مقتل كاليغولا  
٦٨ انتحار نيرون ( تولى جالبا  
وأوتو وثيولوس على التعاقب )  
٦٩ الإمبراطور فسبازيان  
١٠٢ بان تشو على بحر قزوين  
١١٧ هادريان يخلف تراجان الإمبراطورية  
الرومانية في أوسع مدى بلغت  
١٣٨ ( كان الهندو اسكيذيون يقضون  
عندئذ على آخر آثار الحكم  
الهندي بالهند )  
١٦١ ماركو كوس أوريليوس يخلف  
أنطونيوس ييوس  
١٦٤ بدأ الطاعون الكبير ، وامتداده  
حتى وفاة ماركو كوس أوريليوس  
( ١٨٠ ) ، كما أنه أنشأ آسيا كلها  
( بدأ في الإمبراطورية الرومانية  
قرن من الفوضى والحرب )  
١٢٠ نهاية أسرة هان ، بدأ عصر انقسام  
بالصين دام ٤٠٠ سنة  
٢٢٧ أردشير الأول أول شاه ساساني

بعد الميلاد

- يقضى على الأسرة الأرشكية  
بفارس  
٢٤٢ بدأ ماني تعاليمه  
٢٤٧ عبر القوط الدانوب في غارة  
كبيرة  
٢٥١ نصر عظيم للقوط ، مقتل  
الإمبراطور ديكوس  
٢٦٠ سابور الأول ثاني شاه ساساني  
استولى على أنطاكية ، وأسر  
الإمبراطور فاليريان ، ويقطع  
عليه الطريق أثناء عودته  
أوذينا سيوس ملك تدمر  
٢٧٧ صلب ماني بفارس  
٢٧٤ أصبح دقلديانوس إمبراطوراً  
٣٠٣ اضطهد دقلديانوس للمسيحيين ،  
٣١١ جالريوس يتخلى عن اضطهاد  
المسيحيين  
٣١٢ أصبح قسطنطين الأكبر  
إمبراطوراً  
٣٢٣ قسطنطين يرأس مجلس نيقيا  
٣٣٧ تمديد قسطنطين على فراش موته  
٣٦١ - ٣٦٣ حاول جوليان الكافر أن  
يجعل الوثنية محل المسيحية  
٣٩٢ ثيودوسيوس الأكبر إمبراطور  
للشرق والغرب  
٣٩٥ وفاة ثيودوسيوس الأكبر ، أعاد  
هنوريوس وأركاديوس تقسيم  
( ٢٨ — تاريخ العالم )

بعد الميلاد

- الإمبراطورية تحت حماية  
ستيليكو وآلاريك  
٤١٠ استيلاء القوط الغربية بقيادة  
آلاريك على روما  
٤٢٥ الوندال يستقرون في جنوب  
أسبانيا ، والمون في باوينا  
والقوط في دالماتيا ، والقوط  
الغربية والسويبي في البرتغال  
وشمال أسبانيا ، والإنجليز  
يفترون بريطانيا  
٤٣٩ الوندال استولوا على قرطاجنة  
٤٥١ أغار أثيلا على بلاد الغالة وهزمه  
الفرنجة ، الألمان والرومان  
عند ترويس  
٤٥٣ وفاة أثيلا  
٤٥٥ نهب الوندال روما  
٤٧٦ أودواكر للكم على خليط من  
القبائل التيسوتونية يبلغ  
القسطنطينية أنه لا إمبراطور  
بالقرب ، نهاية الإمبراطورية  
الغربية  
٤٩٣ ثيودوريك القوطي الغربي يفتح  
إيطاليا ويصبح ملكا عليها ،  
ولكنه خاضع إسمياً للقسطنطينية  
( ملوك قوط في إيطاليا ، والقوط  
ينزلون أرضاً خاصة يصادرونها  
يوسفهم حامية )

بعد الميلاد

- ٥٢٧ الإمبراطور جستنيان  
٥٢٩ جستنيان أغلق مدارس أثينا ،  
بعد أن ازدهرت حوالي ألف  
عام ، استولى قائد جستنيان على  
قابل  
٥٣٩ بدء حكم كسرى الأول  
٥٤٣ الطاعون الأعظم بالقسطنطينية  
٥٥٣ طرد جستنيان القوط من  
إيطاليا  
٥٦٥ وفاة جستنيان ، وغزا القومبارد  
معظم شمال إيطاليا ( تاركين  
رافا وروما ليزنطة . )  
٥٧٠ مولد النبي محمد صلى الله عليه وسلم  
٥٧٩ وفاة كسرى الأول . يسود  
القومبارد في إيطاليا  
٥٩٠ الطاعون يفتك في روما بشدة  
بدء حكم كسرى الثاني  
٦١٠ بدء حكم هرقل  
٦١٩ مصر وبيت المقدس ودمشق بيد  
كسرى الثاني وجيوشه تطل على  
البردنيل . بدء حكم أسرة تانج  
بالصين  
٦٢٢ الهجرة  
٦٢٧ هزيمة الفرس الكبرى عند نينوى  
على يد هرقل ، أصبح تانج تسنج  
إمبراطوراً للصين  
٦٢٨ قياد الثاني يقتل أباه كسرى الثاني



بعد الميلاد

- ويخلفه على العرش ، محمد يكتب  
الرسائل إلى كل حكام الأرض  
٦٢٩ عودة محمد إلى مكة .  
٦٣٢ وفاة النبي ، تولية أبوبكر الخلافة  
٦٣٤ معركة اليرموك . المسلمون  
يستولون على سوريا . عمر  
يصبح الخليفة الثاني  
٦٣٥ تاي تسنج يستقبل مبشرين من  
الساطرة  
٦٣٧ معركة القادسية  
٦٣٨ بيت القدس تسلم للخليفة عمر  
٦٤٢ وفاة هرقل  
٦٤٣ عثمان الخليفة الثالث  
٦٥٥ هزيمة الأسطول البيزنطي على  
يد المسلمين  
٦٦٨ هاجم الخليفة معاوية مدينة  
القسطنطينية بحراً  
٦٨٧ يبين الهرستالي عيد توحيد  
استرازا ونوسترا  
٧١١ غزا جيش المسلمين ألبانيا من  
إفريقيا  
٧١٥ أملاك الخليفة الوليد الأول  
تتعد من جبال الأناضول إلى بلاد  
الصين  
٧١٧ - ٧١٨ سليمان أخو الوليد  
وخليفته يفشل في الاستيلاء على  
القسطنطينية  
٧٣٢ هزم شارل مارتل المسلمين قرب  
بواتيه

بعد الميلاد

- ٧٥١ يبين يتوج ملكاً على فرنسا  
٧٦٨ وفاة يبين  
٧٧١ شلمان هو الملك الوحيد  
٧٧٤ يفتح لومباردي  
٧٨٦ هرون الرعيدهو الخليفة العباسي  
يخداد (حق ٨٠٩)  
٧٩٥ أصبح ليو الثالث بابا (حق ٨١٦)  
٨٠٠ ليو يتوج شلمان إمبراطوراً  
لقرب  
٨٠٢ إيجرت الذي كان لاجئاً إنجليزيا  
يلاط شلمان ، يثبت نفسه على  
ملكه وسكس  
٨١٠ كروم البغارى يهزم ويقتل  
الإمبراطور ثيودور  
٨١٤ وفاة شلمان  
٨٢٨ أصبح إيجرت أول ملك لإنجلترا  
٨٤٣ وفاة لويس الثاني ، وتمزق  
الإمبراطورية الكاروليفية ،  
لم يكن هناك تعاقب منتظم على  
عرش الدولة الرومانية المقدسة  
حق عام ٩٦٢ ، وإن ظهر القب  
بين الفينة والأخرى  
٨٥٠ وحوالي ذلك الزمن أصبح  
روريك (وهو نورماني) حاكماً  
على نوجورود وكيف  
٨٥٢ بوريس أول ملك مسيحي لبغاريا  
(حق ٨٨٤)  
٨٦٥ أسطول الروس (النورمان)  
يهتد القسطنطينية

بعد الميلاد	بعد الميلاد
١٠٨٤ نهبرويرت جويسكاردينورمانى مدينة روما	٩٠٤ الأسطول الروسى (النورمانى) خارج القسطنطينية
١٠٨٧-١٠٩٩ أصبح إربان الثانى بابا	٩١٢ رودلف الجانجر يؤسس مملكة بنورماندى
١٠٩٥ دعا إربان الثانى إلى الحملة الصليبية الأولى بمدينة كليرمونت	٩١٩ هنرى الصياد ينتخب ملكا على ألمانيا
١٠٩٦ مذبحة الحملة الصليبية الشعبية	٩٣٦ أوتو الأول يخلف أباه هنرى الصياد فى عرش ألمانيا
١٠٩٩ جودفري البويوى يستولى على أورشليم	٩٤١ عاد الأسطول الروسى إلى تهديد القسطنطينية من جديد
١١٤٧ الحملة الصليبية الثانية	٩٦٢ أوتو الأول ملك ألمانيا يتوج إمبراطورا (وهو أول إمبراطور سكسونى) ييدا البابا يوحنا الثانى عشر
١١٦٩ صلاح الدين يصبح سلطانا على مصر	٩٨٧ هيو كابت أصبح ملكا على فرنسا انتهاء سلالة الكارولونجيين من الملوك الفرنسيين
١١٧٦ فردريك بربروسا يعترف بسيادة البابا إسكندر الثالث بالبندقية	١٠١٦ أصبح كانتو ملكا على إنجلترا والدغرك والترويج
١١٧٧ صلاح الدين يسترد بيت المقدس	١٠٤٣ الأسطول الروسى يهصد القسطنطينية
١١٨٩ الحملة الصليبية الثالثة	١٠٦٦ وليم دوق نورماندى يفتح إنجلترا
١١٩٨ تولية البابا إنوسنت الثالث (حقى ١٢١٦) . أصبح فردريك الثانى ملك صقلية تحت وصايته (وعمره أربع سنوات)	١٠٧١ انتماش الإسلام تحت حكم الأتراك السلاجقة ، معركة ملازجرد
١٢٠٢ الحملة الصليبية الرابعة تهاجم الإمبراطورية الشرقية	١٠٧٣ أصبح هديراند بابا (باسم البابا جرمجورى السابع حتى ١٠٨٥)
١٢٠٤ استيلاء اللاتين على القسطنطينية	
١٢١٤ سقطت بكين بيد جنكيزخان	
١٢٢٦ وفاة القديس فرنسيس الأسيسى (مؤسس جمعية الفرنسيسكان)	
١٢٢٧ وفاة جنكيزخان بعد أن كان خائنا من بحر قزوين إلى المحيط المهاوى وخلفه أوجداى خان	

بعد الميلاد

١٢٢٨ شرع فردريك الثاني في الحملة الصليبية السادسة وحصل على اورشليم  
١٢٤٠ دمر للقول مدينة كيف  
الروسيا تصبح تابعة للقول  
١٢٤١ انتصار القول عند ليجنز بيسليزيا  
١٢٥٠ وفاة فردريك الثاني آخر إمبراطور من أسرة هولشتاوفن . العرش الألماني شاغر حتى ١٢٧٣  
١٢٥١ أصبح مانجوخان هو الخان الأعظم أصبح قوبلاي خان حاكما للصين  
١٢٥٨ هولاكو خان يستولى على بغداد ويدبرها  
١٢٦٠ أصبح قوبلاي خانا أعظم .  
١٢٦١ استولى اليونان على القسطنطينية ثانية من اللاتين  
١٢٧٣ انتخب رودلف آل هابسبرج إمبراطورا . كون السويسريون حلفهم الدائم  
١٢٨٠ أسس قوبلاي خان أسرة يوان بالصين  
١٢٩٢ وفاة قوبلاي خان  
١٢٩٣ وفاة روجر باكون في العلم التجريبي  
١٣٤٨ الطاعون الأعظم : الموت الأسود  
١٣٦٠ في الصين سقوط أسرة يوان

بعد الميلاد

القول ، وتولية أسرة منج ( حتى ١٦٤٤ )  
١٣٧٧ عودة البابا جريجوري الحادي إلى روما  
١٣٧٨ الصلح الأعظم بالكنيسة ، مع وجود إربان السادس بروما وكلنت السابع بأفنيون  
١٣٩٨ هس يشرع بذهاب ويكيلف في براغ  
١٤١٤ - ١٤١٨ جمع كونستانس . هس ( ١٤١٥ )  
١٤١٧ انتهاء الصلح الأعظم  
١٤٥٣ الأتراك العثمانيون يفتحون القسطنطينية بقيادة السلطان محمد الثاني  
١٤٧٠ إيفان الثالث ، غراندوق موسكو منذ الولاء للقول  
١٤٨١ وفاة السلطان محمد الثاني وهو يستعد لفتح إيطاليا  
١٤٨٦ برثيودياز يدور حول رأس الرجاء الصالح  
١٤٩٢ عبر كولمبس الأطلس إلى أمريكا  
١٤٩٣ أصبح مكسميليان الأول إمبراطورا  
١٤٩٨ فاسكو دي جاما يسير إلى الهند حول رأس الرجاء  
١٤٩٩ أصبحت سويسرا جمهورية  
١٥٠٠ موت شارل الخامس .

بعد الميلاد	بعد الميلاد
١٥٦٦ وفاة - ليمان القانوني .	١٥٠٩ هنري الثامن على عرش انجلترا
١٦٠٣ جيمس الأول يصبح ملكا على انجلترا واسكتلندا .	١٥١٤ ليو العاشر يصبح بابا
١٦٠٧ جيمس تون يسكنها الإنجليز	١٥١٥ فرنسيس الأول ملك فرنسا
١٦٢٠ بثثة السفينة ماي فلورنثوس	١٥١٩ يلقع ماجلان للطواف حول العالم .
مدينة نيوبليموث : نزول أول الزنوج بجيمس تون .	١٥٢٠ مار سليلان القانوني سلطانا
١٦٢٥ شارل الأول على عرش انجلترا	( حق ١٥٦٦ ) ، يحكم من بغداد إلى المجر . شارل الخامس
١٦٣٦ وفاة السير فرنسيس باكون ( لورد فيرولام )	يصبح إمبراطورا
١٦٤٣ بدأ لويس الرابع عشر حكما دام ٦٢ سنة بفرساي .	١٥٢٥ بابر يتنصر بمركه بانثيات ، ويستولى على دلهي ويؤسس الإمبراطورية المغولية .
١٦٤٤ أنهى المانشو حكم أسرة منج	١٥٢٧ استولى الجنود الألمان على إيطاليا .
١٦٤٨ معاهدة وستاليا ، وبها اعترف بهولندا وسويسرا بحكمهم وديار حرة وأصبحت لبروسيا أهمية ، ولم تعط المعاهدة نصرا تاما للنتاج الإمبراطوري ولا للأمرءاء .	قيادة ككونستابل بوربون على روما وعاثوا فيها فسادا
حرب الفروند ، وقد انتهت بالانتصار التام للنتاج الفرنسي	١٥٢٩ حاصر سليلان فيينا
١٦٤٩ إعدام شارل الأول ملك انجلترا	١٥٣٠ شارل الخامس يتوجه البابا بدأ هنري الثامن خلافه مع البابوية
١٦٥٨ أصبح أورانجيزب المغولي الأعظم . وفاة حكر ومويل	١٥٣٩ تأسيس جمعية اليسوعيين
١٦٦٠ تولى شارل الثاني على انجلترا	١٥٤٦ وفاة مارتن لوثر
١٦٨٤ نيو أمستردام تصبح بريطانيا نهاليا بحكم معاهدات أبرمت وتسمى نيويورك	١٥٤٧ إلفان الرابع الرهيب يتلقب بلقب قيصر روسيا
	١٥٥٦ تنازل شارل الخامس عن العرش . أكبر يصبح المغولي الأعظم ( حق ١٦٠٥ ) ، وفاة إغناطيوس ليولا
	١٥٥٨ وفاة شارل الخامس
	١٥٥٨ - ١٦٠٣ حكم الملكة إليزابيث

بعد الميلاد	بعد الميلاد
١٧٨٧ مؤتمر فيلادلفيا المستورى	١٦٨٣ آخر هجوم للترك على فيينا
يلشيه - الحكومة الاتحادية	يسده يوحنا الثانى ملك بولندا
للولايات - يضح إفلاس فرنسا	١٦٨٩ بطرس الاكبر قيصر روسيا
١٧٨٨ أول كونجرس اتحادى بالولايات	( حتى ١٧٢٥ )
المتحدة يقعد في نيويورك	١٧٠١ فردريك الأول ملك لبروسيا
١٧٨٩ اجتماع مجلس الطبقات الفرنسى	١٧٠٧ وفاة أورانجيزب - تمزيق
همد الباستيل	إمبراطورية النمولى الاكبر
١٧٨٩ جورج واشنطن أول رئيس	١٧١٣ مولد فردريك الاكبر البروسى
للولايات المتحدة الامريكية	١٧١٥ لويس الخامس عشر ملك فرنسا
١٧٩١ فرار لويس إلى فارن	١٧٥٥ - ١٧٦٣ بريطانيا وفرنسا
١٧٩٢ أعلنت فرنسا الحرب على النمسا	تقاتلان على أمريكا والهند ،
أعلنت بروسيا الحرب على فرنسا	فرنسا متحالفة مع النمسا والروسيا
معركة فالوى - أصبحت فرنسا	ضد بروسيا وانجلترا (١٧٥٩)
جمهورية	١٧٦٣-١٧٦٤ حرب السبع سنوات
١٧٩٣ قتل لويس السادس عشر	١٧٥٩ الجنرال ولف البريطانى يستولى
١٧٩٤ مقتل دوبيسيرا و انتهاء جمهورية	على كويك
اليمانية	١٧٦٠ تولى جورج الثالث عرش
١٧٩٥ حكومة الإدارة ، قفى بونايرت	بريطانيا
على إحدى الثورات وعين قائداً	١٧٦٣ معاهدة باريس - تسليم كندا
عاماً في إيطاليا	لبريطانيا ، سيادة البريطانيين
١٧٩٨ دخل بونايرت مصر ، معركة	على الهند .
النيل	١٧٩٩ مولد نابليون بونايرت
١٨٩٩ عودة بونايرت إلى فرنسا ،	١٧٦٩ بدء عهد لويس السادس عشر
حيث أصبح قنصلاً أول يستمتع	١٧٧٦ إعلان الاستقلال في الولايات
بسلطات هائلة	المتحدة الأمريكية
١٨٠٣ شراء لويزيانا	١٧٨٣ معاهدة الصلح بين بريطانيا
١٨٠٤ أصبح بونايرت إمبراطوراً ،	والولايات المتحدة الأمريكية
فرنسيس الثانى يتخذ لقب	الجديدة
إمبراطور النمسا في ١٨٠٥ ثم	

بعد الميلاد

أسقط لقب الإمبراطورية الرومانية المقدسة في ١٨٠٦ وبذلك انتهت الإمبراطورية الرومانية المقدسة  
 ١٨٠٦ هزيمة بروسيا في معركة يينا  
 ١٨٠٨ عين نابليون أخاه جوزيف على أسبانيا .  
 ١٨١٠ استقلال جمهوريات أمريكا لاسبانية  
 ١٨١٢ تمهقر نابليون من موسكو  
 ١٨١٢ - ١٨١٥ الحرب بين الولايات المتحدة وانجلترا .  
 ١٨١٤ تنازل نابليون عن العرش ، تولى لويس الثامن عشر  
 ١٨٢٣ صدور مبدأ مونرو  
 ١٨٢٤ تولى شارل العاشر ملكا على فرنسا .  
 ١٨٢٥ تولى نيقولا الأول على روسيا إنشاء أول سكة حديد من استوكتن إلى دارلنجن  
 ١٨٢٧ معركة نوارين  
 ١٨٢٩ استقلال اليونان  
 ١٨٣٠ عام اضطراب وفوضى . لويس فيليب طرد شارل العاشر . انفصال بلجيكا عن هولندا . أصبح ليوبولد أمير ساكس كوبرج جوتا ملكا على هذه المملكة الجديدة وهي بلجيكا . القسم الروسي من بولندا يثور ثورة فاشلة

بعد الميلاد

١٨٣٥ استعمال لفظة « الاشتراكية » لأول مرة  
 ١٨٣٧ تولية للملكة فكتوريا  
 ١٨٤٠ تزوجت للملكة فكتوريا ألبرت أمير ساكس كوبرج جوتا  
 ١٨٤٦ - ١٨٤٨ الحرب بين الولايات المتحدة والمكسيك  
 ١٨٥٢ أصبح نابليون الثالث إمبراطورا على فرنسا  
 ١٨٥٣ اشترت جازدن وبها تمت رقعة الولايات المتحدة بقارة أمريكا  
 ١٨٥٤ - ١٨٥٦ حرب القرم  
 ١٨٥٦ القيصر إسكندر الثاني الروسي غارة جون براون على هاربوري  
 ١٨٥٩ الملك فكتور ممانويل أول ملك لإيطاليا أصبح أبراهام لنكولن رئيساً للولايات المتحدة . بدء الحرب الأهلية الأمريكية  
 ١٨٦٥ التسليم عند أبوماتوكس كوت هانوس . اغتيال لنكولن . فتح أبواب اليابان للعالم  
 ١٨٦٧ الولايات المتحدة تشتري آلاسكا من روسيا  
 ١٨٧٠ أعلن نابليون الثالث الحرب على بروسيا  
 ١٨٧١ ( يناير ) سلمت باريس . أصبح ملك بروسيا إمبراطورا لألمانيا صلح فرانكفورت

بعد الميلاد	بعد الميلاد
الأزمة	١٧٧٨ معاهدة برلين . ابتدأت بأوروبا
١٩٣٠ ظهور حزب هتلر بمظهر القوة	الترية هدنة مسلحة دامت
بالريشتاغ الألماني	٢٩ سنة
١٩٣١ الأزمة المالية ببريطانيا العظمى	١٨٨٨ أباطرة ألمانيا فردريك الثاني
والتخلي عن معيار الذهب .	(مارس) وغليوم الثاني (يونيه)
عصبة الأمم ترفض السماح بقيام	١٩١٢ أصبحت الصين جمهورية
اتحاد جرمني بين ألمانيا والنمسا .	١٩١٧ الثورتان الروسيتان . تأسيس
صارت أسبانيا جمهورية	النظام البلشفي بالروسيا . دخول
١٩٣٢ أنشأت اليابان دولة مانشوكو .	الولايات المتحدة في الحرب
انتخب فرانكلين روزفلت	العالمية في صف الحلفاء
رئيساً للولايات المتحدة	١٩١٨ الهدنة
الأمريكية	١٩٢٠ أول اجتماع لعصبة الأمم ، التي
١٩٣٣ الإجازة العامة لبنوك بالولايات	منعت منها ألمانيا والنمسا والروسيا
المتحدة . انتخاب روزفلت	وتركيا ، ولم تمثل فيها الولايات
للمرة الأولى . النار بالريشتاغ	المتحدة
برلين والاشتغال النازي ،	١٩٢١ تجاهل اليونان عصبة الأمم
أصبح هتلر ديكتاتوراً	وواصلوا الحرب مع الأتراك
لألمانيا . المؤتمر الاقتصادي العالمي	١٩٢٢ هزيمة اليونان الكبرى بآسيا
بلندن يفشل . خرجت اليابان	الصغرى على يد الأتراك .
على العصبة في أبريل وألمانيا	زحف الفاشيين على روما
في أكتوبر	١٩٢٤ وفاة لينين
١٩٣٤ دخلت روسيا عصبة الأمم .	١٩٢٧ تقام الخلاف بين ستالين
اغتيال كيروف	وتروتسكي ، ونفى تروتسكي من
١٩٣٥ عودة السار إلى ألمانيا . الحبشة	البلاد
تلقياً إلى عصبة الأمم على إيطاليا	١٩٢٨ ابتداء أول مشروع الخمس
دون جدوى . حرمان اليهود	سنوات بالروسيا
من حقوق المواطنة الألمانية	١٩٢٩ الذعر في سوق الأوراق المالية
وحظر زواجهم بالآريين	في الولايات المتحدة وابتداء

بعد الميلاد

١٩٣٦ وفاة الملك جورج الخامس .  
فتح إيطاليا للمبشة فللا . ثورة  
فرانكو بأسبانيا . تنازل  
الملك إدوارد الثامن الإنجليزي  
عن العرش  
١٩٣٧ حصار مدريد وإصابة قوات  
الحكومة الأسبانية بالإتهام  
تدريجيا  
١٩٣٨ غزت ألمانيا بلاد النمسا وضمتها  
إليها دون مقاومة مسلحة  
١٩٣٩ نشوب الحرب العالمية الثانية  
١٩٤٠ احتلت ألمانيا التروم والدايمرك  
وهولندة وبلجيكا . سقوط  
فرنسا ، وانضمام المجر ورومانيا  
وسلوفاكيا للمحور . الإيطاليون  
يفشلون في غزو بلاد اليونان .  
تشر على رأس الوزارة البريطانية  
روزفلت ينتخب للمرة الثالثة  
رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية  
أجرت بريطانيا قواعد الأطلسي  
للوالات المتحدة . اغتيال  
تروتسكي بالمكسيك  
١٩٤١ تقلبات الحرب في شمال أفريقيا .  
تقدم البريطانيون في ليبيا ١٩٤١  
ثم انسحبوا ثانية في الربيع ،  
وتقدموا في نوفمبر وانسحبوا  
مرة ثانية في ربيع ١٩٤٢ .

بعد الميلاد

انضمت بلغاريا إلى المحور .  
احتلت ألمانيا بلاد اليونان  
ويوغوسلافيا وكريت ، تحرير  
الحبيشة البريطانيون والفرنسيون  
يحتلون سوريا . ألمانيا تغزو  
الروسيا ( ٢٢ يونيه ) . ميثاق  
الأطلسي . احتلال البريطانيين  
والروس لإيران سقوط كيف  
يبدأ الألمان . فشل هجوم الألمان  
على موسكو . هاجمت اليابان  
الولايات المتحدة . أعلنت  
الولايات المتحدة الحرب على  
ألمانيا  
١٩٤٢ سقوط سنغافورة . فتوح  
اليابانيين في المحيط الهادي  
وبورما . معركة جزيرة ميدواي  
هجوم رومل في ليبيا أوصل  
الألمان إلى مصر . معركة مصر  
بالعين . نزول البريطانيين  
والأمريكان بشمال أفريقيا .  
ظلت تونس بأيدي الألمان  
حتى ١٩٤٣ ، عندما طهر شمال  
إفريقية تماماً . اغتيال الأميرال  
دارلان الفرنسي في الجزائر .  
سقوط سباسبول بيد الألمان  
الذين دخلوا بلاد القوقاز  
ولكنهم أوقفوا عند ستالينجراد



بعد الميلاد	بعد الميلاد
<p>انتخاب روزفلت للمرة الرابعة. الأمريكيون يزلون بالفلين ١٩٤٥ تسليم ألمانيا بلا قيد ولا شرط . وفاة روزفلت . ٦ أغسطس قنبلة هيروشيما الذرية . ٩ أغسطس قنبلة ناجازاكي الذرية. الروسيا تعلن الحرب على اليابان استسلام اليابان رسمياً ٢ سبتمبر. ميثاق سان فرانسيسكو بإنشاء هيئة الأمم المتحدة بمنظمتها : الجمعية العامة ومجلس الأمن تحقيق السلام العالمى ١٩٤٦ إنشاء هيئة اليونسكو أى منظمة التربية والعلم والثقافة</p>	<p>١٩٤٣ مؤتمر الدار البيضاء . الإصرار على التسليم بلا قيد ولا شرط. احتلال الإنجليز والامريكان لتونس . غزو سقاية . غزو إيطاليا . تخدم الأمريكيين فى الباسيفيكي . يسترد الروس خركوف وسمولسك وكيف . مؤتمر كويك . مؤتمر طهران . ١٩٤٤ نزول الحلفاء فى فرنسا . تحرير فرنسا وبلجيكا . الحلفاء يحاربون على حدود ألمانيا . تحرير اليونان . زحف الروس خلال رومانيا وبلغاريا إلى بلاد المجر ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا</p>

إجبرت ٢١٤  
أوجدای خان ٢٣٨ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩  
أجزر سيس ١١٣ ، ١٠٨ ، ١٠٧  
أجلثورب ٣٨١  
أدب شعبي ( فوكلور ) ٤٥  
آدم ٣١٨  
إدواكر ١٨٩  
أدوات حجرية ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٢  
إراتوستينز ١١٧  
الأراضي المنخفضة  
إربان الثاني ٢٢٠  
إربان السادس ( البابا ) ٢٣٤  
أردشير الأول ١٥٧ ، ١٩٤  
أرستاجوراس ١٠٨  
أرسطوطاليس ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٦ ،  
١١٧ ، ١١٩ ، ٢٠٨ ، ٢١٩ ،  
٢٣٢ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ،  
٢٩٩ ، ٣١٢  
الأرغكية ( الأسرة ) ١٥٧  
أرفميس ١١٧  
أركاديوس ١٨٤ ، ١٨٨  
أريوس ١٧٩  
الآريون ٧٥ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ،  
٩٥ ، ١٠٥ ، ١٢٩ ، ١٣٨ ،  
١٤٣ ، ١٥٠ ، ١٥٦ ، ١٩٧ ،  
الأرض ٣ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ١٢ ، ١٥ ،  
٢٧

(١)

أبراهام ( إبراهيم ) ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٦ ،  
٤٩٨ ، ١٧٤ ، ٢٠١ ، ٢٣٧  
أبسماتيك ٨٣  
ابن رشد ٢٢٢  
أوبكر ٢٠٢ ، ٢٠٣  
أبولونيوس ١١٧  
الإيباني ( الطريق )  
أيبس ١٦٨  
الاتحاد الألماني ٢٩٥  
اتحاد الولايات الأمريكية الجنوبية ٣٢٩  
الأتراك السلجوقيون ٢٢٠ ، ٢٢٣  
الأتراك العثمانيون ١٢٩ ، ١٥٥ ، ١٩٥  
الأتراك ٧٩ ، ٨١ ، ١٣٤ ،  
١٣٥ ، ١٤٤ ، ١٥١ ، ١٦٣  
أتكلسون ( ج . ج . ) ٤٦ ، ٣١٤  
أتكلسون ( س . ف . ) ٢٨٩  
آو  
أنيلا ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٢ ،  
١٩٧  
إثناسيوس ( صقبة ) ١٧٩  
أثينا ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ،  
١١٦ ، ١٣٠ ، ١٤٣ ، ١٦٢ ،  
١٦٥ ، ١٩٢ ، ١٩٣  
الأتينية ٧٣  
أحاب ٩٣

آسيا ٣٧ ، ٥٢ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ١٥٨  
٢٠٠

الاشتراكية ( الاعتراكيون ) ٣ ٣  
٣١٦

أهصيا ٩٨ ، ١٠٣ ، ١٠٤

أشور ( دولة ) ٦٤ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٢  
٨٣ ، ٨٩

أفغانيون ( باريون ) ١٢٠ ، ١٥٠  
١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٩٧

أشور بانيال ( انظر ساردانا بالوس )  
الإصلاح الديني ٢٥٣

إعلان الاستقلال ٢٨٤

أشجار ٦٥

أغاطيوس دى ليولا ٢٥٣

الإفريق ٦٩ ، ٧٥ ، ٧٥ ، ٨٢ ، ٩٥

١٠٠ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ٩٩

١٠٩ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٦١

١٦٢ ، ١٦٣ ، ٢٠٦ ، ٢٤٤

الإفريق ( فلاسفة ) ٩٩ ، ١٠٣

١٠٤ ، ١٣٠ ، ١٤٤

الإفريقية ( العلوم ) ٢٠٦

آفبوري ٨١

الأثناليون ١٥٨

إفريقيا ٤٠ ، ٥٣ ، ٧١ ، ١٦١

أفلاطون ١١٠ ، ١١١ ، ١٣٠ ، ١٩٢

٢٤٨ ، ٣١٢

الإقطاع ٢١٠ ، ٢٦٦

إقليدس ١١٧

الأزوى ٩

الأزلية - الأزيلون ٤٤ ، ٤٩ ، ٦١

أساطير ٧١ ، ٥٠

أسبارتا كوس ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٦٢

أسبانيا ٣٨ ، ٤١ ، ٥٣ ، ٦٩ ، ٧١

٩٥ ، ١٤٠ ، ١٦١ ، ١٩٢

٢٠٦

إسبرطة ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٠٨

١٦٢

أستراليا ٢٥

الأسر البابلي ٢٢١

إسرائيل ( مملكة ) ٩٩

الإسكندر الأكبر ١١١ ، ١١٢

١١٤ ، ١١٦ ، ١٢٠ ، ١٢٦

١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٤ ، ١٥٥

١٨٨ ، ١٩٣ ، ٢٢٢ ، ٢٤٥

الإسكندر الأول قيصر روسيا

٢٩٢

الإسكندر الثالث ( البابا ) ٢٢٤

الإسكندرية ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧

١١٩ ، ١٢٦ ، ١٦٥ ، ١٧١

١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٩٢ ، ١٩٣

الإسكيزيون ( الأهقوذيون ) ٧٤

٨٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ٢٣٨

الإسلام ١٢ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤

٢٢١ ، ٢٢٣

أسوكا ١٣٦ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٨

١٥٧

الإمبراطورية الرومانية المقدسة ٢١٥

٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٥٤ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣

٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٩٢ ، ٣١٨

الإمبراطورية العثمانية

الإمبراطورية الليدية ٨٦

أمريكا ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٢ ، ٥٦

أمريكا الشمالية (هنود) ٤٢

الأمريكية (القبائل) ٥٦ ، ٥٧

أمسوخ ١٦

أمنعوتب ٧٣

أناجيفي ٢٣٣

الأنبياء ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١٢٤ ، ١٣٠

أنبياء العبرانيين ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٥

١٦٧ ، ٢٠١ ، ٢٢١

أنتيغوناس ١١٥

إنجلترا ٣٢ ، ٢٤٩ ، ٢٦٨

الإنسان البدائي ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨

٥١ ، ٥٠

الإنسان الحق ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٠

٤٤

إنسان روديسيا ٣٦ ، ٤٠

الإنسان القردى القائم ٣٣

إنسان هيدلبرج ٣٣ ، ٣٥

إنسان نياندرتال (انظر نياندرتال)

أنطاكية ١٩٥ ، ٢٠٤

أنطونيو ١٥٢

أنطونينوس ييوس ١٥٢

أنطوخوس ١٤٠

الانقلاب الصناعي ٣٠٧ ، ٣٠٨

الانقلاب الميكانيكي ٣٠٣ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧

الأكلاديون ٦٦ ، ٩٥

إكتانا ٨٤

أكبر ٢٣٩ ، ٢٧٦

إكسينوفون ١١٦

أوكتافيوس (أوغسطس) ١٥٢

الآريك ١٨٤ ، ١٨٦

الآلب ٢٧

ألفريد الأكبر ٢١٤

ألمانيا ١٥٥ ، ٢٣٠

ألميس (الملكة) ١١٣

آلهة الرومان ١٦١

إله الشمس الفارسي ١٦٧

الآلهة للمصريين ١٦٧ ، ١٦٨

الإلياذة ١٠٠

إليزابيث (الملكة) ٢٦٨ ، ٢٧٦

إليوت ميث ٥٢

الإمبراطورية الآشورية ٧٧ ، ٨٩

٩٥

الإمبراطورية الأكادية ٦ ، ٨٣

الإمبراطورية البابلية الأولى والثانية

٦٦ ، ٦٨ ، ٨٤ ، ٢٢٠

الإمبراطورية البريطانية ٣٣٤

الإمبراطورية البيزنطية ١٩٢ ، ٢٢٠

٢٢٣

الإمبراطورية الحديثة بمصر ٧٣

الإمبراطورية الرومانية ١٤٣ ، ١٤٤

١٤٦ ، ١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٦٩ ، ١٦٥

١٧٢ ، ١٨٢ ، ١٨٧ ، ١٩٤ ، ٢٢١

٢٣٧ ، ٣٠٨

لوزيس ١٦٨  
 إنسكيلوس ١٠٩  
 إيطاليا ٧١ ، ٧٥ ، ١٠٥ ، ١٣٤  
 ١٦٢ ، ١٩٢ ، ٢٣٠  
 الإيطاليون ( اللغة الإيطالية ) ١٦١  
 إيفان الرابع ٢٧١  
 إيفان الأعظم ٢٧١  
 ( ب )  
 بابوات روما ١٩١ ، ٢١٢  
 بابر ١٣٩ ، ٢٧٦  
 بابل ( بابل ) ٧٠ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٣ ، ١٠٥  
 ١٠٨ ، ١٦٧ ، ٣١٥  
 البابلية ( الإمبراطورية ) ٦٤ ، ٨٣  
 ٨٧  
 البارود ٢٣٦ ، ٢٦٦  
 باريس ٢٨٧  
 الباستيل ٢٨٧  
 باسك ( باشكس ) ٦٩ ، ٨١  
 باكون ( روجر ) ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٩٨  
 باكون ( السير فرانسيس ) ٦٦  
 بالوزوى ١٤  
 بالوليثي ( انظر العصر الحجري القديم )  
 بين ٢١١  
 البحر الأحمر ٣٧ ، ٦٨ ، ٩٢ ، ١٥٥  
 البحر الأسود ٢٧ ، ٥٤ ، ٧١ ، ٧٥  
 ١٥٨ ، ٢١٤ ، ٢١٥

٣٠٨ ، ٣١٧  
 أنكساجوراس ١٠٩  
 أنكسيمندر ١٠٣  
 أنونيس ١٦٨  
 أنوسنت الثالث ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠  
 أنوسنت الرابع ( البابا ) ٢٣١  
 أهرام الجيزة ٥٢ ، ٦٣ ، ٦٨ ، ٧٦  
 أهل الشمال ( انظر ( التورمان )  
 أوجزبرج ( صلح ) ٢٥٨  
 الأوديسيا ( أوديسيوس ) ١٠٠  
 أورافوس ٤  
 أوربا ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٣  
 ٦٤ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٩٧ ، ٢٠٠  
 أورشليم ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥  
 ٩٧ ، ١٠٥ ، ١٤٢ ، ١٧٣ ، ١٩٥  
 ٢١٩  
 أورليان ( الإمبراطور ) ١٥٩  
 أوزيريس ١٦٨ ، ١٧٩  
 أوسكولوم ٣٦  
 أوغسطس ( قيصر ) ١٦٠ ، ١٧٢  
 الأولمبياد ١٣٥  
 الأولمبية ( الألعاب ) ١٠٢ ، ١١٢  
 ١٣٤  
 إبيرت ( الرئيس )  
 إيبيري ( المجلس ) ٥٤  
 الإيجية ( الشعوب والحضارة ) ٦٩  
 ٨٢ ، ٩٣ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٣٣  
 ١١٧  
 إنزابلا ( الملكة ) - ( انظر فرديتاند )  
 إنزوقن اطيير ١١٢

البلاغة (الاشتراكيون) ٣٥٩ ، ٣٦٠  
 بلهوين النلدري ٢٢٣  
 البلييان ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٥  
 بنارس ١٢٤  
 بنش (الكتور) ٣٨٧  
 البنادقة (البندقية) ٢٩٥  
 بونج (مضيق) ٥٤ ، ٥٦ ، ٦٨  
 بوانسكاريه  
 بوث (جون) ٣٢٨  
 بوذا (انظر جوتاما بوذا)  
 البوذية ١٣١ ، ١٧٢ ، ١٩٨ ، ٢٠٦  
 بوجون (الجنرال) ٢٨٤  
 بوج ١٨  
 بولس الرسول ١٦١ ، ١٨٧ ، ١٧٩  
 ١٨٠  
 بوليفاد (الجنرال) ٢٩٣  
 بومي الاكبر ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٥٦  
 بونيفاس الثامن (البابا) ٢٣٣  
 بوبي الثاني ٦٣ ، ٣٠٦  
 بيت المقدس ٢٢٠ ، ٢١٢ ، ٢٢٤  
 ٢٤٦ ، ٢٣١  
 بيتان (الامارال)  
 بيرو ٥٦ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٢٥٩ ، ٢٦٦  
 بيروس ١٣٦  
 بيزارو ٢٥٠  
 بيزنطة-البيزنطى ١٨٤ ، ١٩٣ ، ١٩٥  
 ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٢٠ ، ٢٢٨  
 بيكونزفيلد (الورد) ٣٣٦  
 (ت)  
 التاوية (العقيدة) ١٣١ ، ١٧٨

بحر للانف ٢٧  
 البحر المتوسط ٢٧ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٤  
 ٦٦ ، ٦٨ ، ٧٥ ، ١٣٤ ، ١٥٤  
 ١٥٦ ، ١٨٨ ، ٢٤٠  
 بخارى ٢٠٦  
 بدايات الحياة ١٢٤٩  
 بدرو (الاول) ٢٨٥  
 البرازيل ٢٨٥  
 برجامه ١١٩ ، ١٣٠ ، ١٣٨ ، ١٤٠  
 البردى ١١٩  
 برسيبوليس ١١٤ ، ١٢٠  
 بركلين ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٤٣  
 برمائيات ١٧ ، ١٨ ، ٢٠  
 برهانية (العقيدة) ١٢٧  
 بروسيا (عسكرة) ١٧٠  
 برى (القومودور)  
 بريطانيا العظمى ١٦١  
 بساو (معاهدة) ٢٥٩  
 بسم (هنرى) ٣٠٢  
 بعل مردوخ ٨٣  
 بشداد ٢٠٦ ، ٢٤٠  
 البطارقة ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٥  
 البطالة ١٢٩ ، ١٤٠ ، ١٥٢  
 بطرس الاكبر ٢٧١  
 بطرس الناسك ٢٢١ ، ٢٢٢  
 بطليموس الاول ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٨  
 ١١٩ ، ١٦٩  
 بطليموس الثانى ١١٩  
 بلاد العرب ٦٩

٢٤ ، ١٨ تكيف	٢٣٩ ، ١٩٨ ، ١٩٧ (أسرة)
التوراة ٧٥ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٦ ، ٩٧	٢٠٢ ، ١٩٩ تسنج
١٤٢ ، ٩٧	التنار ١٢٩ ، ١٥٥ ، ١٨٦ ، ١٩٥ ، ٢٣٧
١٧٢ ، ١٥٢ تيربوس قيصر	٦٨ تجارة
٢٧٩ ، ٢٣٩ تيمورلنك	٣٣٩ تجار الرقيق العرب
١٦٧ ( انظر مزيج ) ، ١٦٧	٨٣ ، ٨٢ تجلات بلسر الثالث
٢٦٥ ، ١٦٨	١١٤ ، ٩٩ ، ٨٣ تختمس
( ث )	٤٥ التحليل النفسى
٢٨ ، ٢٥ ، ٢٤ ، ٢٣ الكدييات	١٥٢ تراجان
٤٦ ، ٣١	١٠٦ ترايا
٥٢ ، ٥٢ ثقافة العصر الشمسى الحجرى	٣٦٠ ترولسكى
١٣٣ ، ١٢٨ ، ٨١ ، ٥٤	٢٩٩ تريثيك
٣١٥ ، ٢٩٢ ، ٢٨٦ الثورة الفرنسية	١٠ التريوبيت
٣٣١	١٥٤ ، ١٣٢ تس ثن
١٩٢ (الإمبراطورة)	٤٤ تسمانيا (السمانيون)
١٩٠ ثيودوريك	٤٧٤ تشايج تسولن
١٨٦ ، ١٨٤ ، ١٨١ ثيودوسيوس	١٣٢ ، ١٢٩ (أسرة) تشاو
١٩٠ ، ١٨٩	٧٤ تشرانا
( ج )	٤٧٤ تشرشل (ولستون)
١٨١ جاليوس (الإمبراطور)	٣٨٧ ، ٣٨٦ ( نيفل ) تشمبرلن
٣٠١ جالفانى	٣٨٢ ، ٣٨٠ ، ٣٨٨
٣٧ جبال روكى	١٣٢ تشوئو
١١ جرافيت	٣١١ التطور الفكرى
٣٤٧ (ى . س)	٣١١ تفكير ( انظر فكر )
٢٢٤ ( الباب )	٣٠٠ ، ٢٩٩ ، ٢٩٨ تقدم العلوم
٢٢٤ ، ٢٢٠ (الباب)	٥١ تفويم
٢٢٨ ، ٢٢٦ ، ٢٢٥	٣٣٦ تكساس
( ٢٩ — تاريخ العالم )	

(ح)

الجبنة ٣٧٥ ، ٣٧٦  
 حلقشبوت ( للكمة ) ٧٥  
 الحرب الأسبانية  
 الحج ٢٠٢  
 حرب الاستقلال الأمريكية ٢٨٤ ،  
 ٢٩٣  
 الحرب الأهلية الأمريكية ٣٢٨  
 حرب البليونيز ١١١ ، ١١٢  
 حرب الثلاثين سنة ٣٧٠  
 الحروب الروسية التركية ٣٢٣  
 الحرب العالمية ٣٦٩  
 الحرب البونية ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ،  
 ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ،  
 ١٦٣ ، ١٩٠  
 الحروب الصليبية ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ،  
 ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٣١ ،  
 ٢٣٩ ، ٢٤١  
 حروب الفرس ١٠٥ ، ١٠٨  
 حزايات ١٩ ، ٢٦  
 الحزب الشيوعي ٣٥٧  
 حزب العمال البريطاني ٣٥٧  
 حزب قبال ٩٧  
 حشرات ١٦ ، ٢٠ ، ٢٤  
 الحضارة الدارفيدية ٨١ ، ١٢٩  
 الحضارة الرومانية ٣٠٧ ، ٣١٠  
 الحضارة الكريتية الإيجية ٧٠ ، ٨٢ ،  
 ١٨٨

جربجورى التاسع (البابا) ٢٣٠ ، ٢٣١  
 جربجورى الحادى عشر ( البابا ) ٢٣٤  
 الجريمالدى ( الشعب ) ٣٨ ، ٤٩ ، ٤٩  
 جزويت ( انظر يسوعيون )  
 جستنيان الأول ١٨٦ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ،  
 ١٩٥  
 جلبرت ( الدكتور ) ٢٦٦  
 جليد ١٥ ، ١٦  
 الجماعة البشرية ٤٥  
 الجمعية الفلورنسية ٢٦٦  
 الجمعية للسكرية بنندن ٢٦٦ ، ٢٩٨  
 الجمعية الوطنية ٢٨٧ ، ٢٨٨  
 الجمهورية الرومانية ١١٥ ، ١٤٨ ، ١٧٨  
 المجلس النوردي ٥٧ ، ٦٦  
 جلسريك ١٨٦  
 جنكيزخان ٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٥ ، ٢٧٩  
 جوبلز ( پول ) ٣٨٧  
 جوتاما بوذا ١٠٤ ، ١٢١ ، ١٢٢ ،  
 ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ،  
 ١٣٠ ، ١٧١ ، ١٧٢  
 جوجورثا ١٤٩  
 جورج الثالث ٢٦٨ ، ٢٨٢ ، ٣٠٦  
 جوردن ( مكسيم ) ١٦٣  
 جورج ( هرمان ) ٣٧٥ ، ٣٧٦  
 جوستاف أدولف ٢٧٥  
 جون لوك ٣١٢  
 جيون ( ادوارد ) ١٨٩  
 جيمس الأول ٢٦٧  
 جيولوجيا ( جيولوجيون ) ٣٢ ، ٩



دقلديانوس (الإمبراطور) ١٤٥ ،  
 ١٨٢ ، ١٨٠  
 دمشق ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ،  
 دنكر ك  
 دنكين (الجنرال) ٣٥٧  
 دوجلاس (سجين) ٣٢٧  
 دولة مدينة ٦٤  
 دولة الروم الشرقية ٢١٩  
 الدولية (الشيوعية) ٣١٣ ، ٣١٨ ،  
 ٣٢١  
 دومينيك (القديس) ٢٣٥  
 الدوميليكيون (الرهبان) ٢٢٧ ، ٢٢٤ ،  
 ديجول (الجنرال)  
 ديدالوس ٧٠  
 ديفو (دانيال) ٣٠٨  
 ديكوس (الإمبراطور) ١٥٨  
 الدين ٤٧ ، ٤٨  
 ديناصور (انظر عطايا) ٢١ ، ٢٣ ،  
 ٢٥  
 ديونيسوس ١٣٠  
 (ر)  
 رب (ربة) ٤٧  
 راسبون (جلس دايت) ٢٥٧  
 راسبوتين ٢٧٤ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧  
 رالف العداء ٢١٤  
 رجل (انظر إنسان)  
 رستم ٢٠٤  
 رعاة (انظر هكسوس)

حضارة للمايا ٧٨  
 حضارة ماوراء النهر ١٦٦ ، ١٦٧  
 الحفريات ٩ ، ١١  
 حلف شمككد ٢٥٧  
 حورابي ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٩ ، ٩٠  
 حورس ١٦٨  
 الحياة ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ٢٦  
 الحثيون ٧٣ ، ٧٤ ، ٨١  
 حيرام (الملك) ٩٢ ، ٩٥  
 الحيوانات ١٢  
 الحيوانات العليا

(خ)

خوصات ١٦  
 خياشم ١٧ ، ١٨ ، ١٩

(د)

دارا الأول ٨٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦  
 دارا الثالث ١١٣ ، ١١٩  
 دافيز جفرسون ٣٢٦  
 دالديه  
 دانوتزيو ٣٧٢  
 دانيال النبي ٨٦  
 الدارفيديون ٥٤  
 مستور الجنوب

ريشليو ٢٧٦  
رينو (بول) ٣٨٩  
(ز)  
زافيير (فرنسيس) ٣٤١  
زاما (مركة) ١٤٠  
زحل ٤  
زرادشت ١٩٤ ، ٢٠٦  
زراعة ٤٩ ، ١٦٢  
الزمن الآزوي ٢٠  
الزمن الباليوزوي ١٠ ، ٢٠ ، ٢٢  
الزمن الكاينوزوي ٢ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٢  
الزمن للينوزوي ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢  
٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣١  
الزواحف ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٩  
زورق بخاري ٣٠٢ ، ٣٢٤ ، ٣٣٤  
٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩  
الزهرة ٤  
زينوفون (انظر اكسينوفون)  
زيوس ١٦٩  
(س)  
الساحر الطيب ١٤  
ساردانا بالوس ٧٤ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤  
ساسان (آل ساسان) ١٥٧ ، ١٩٢ ، ١٩٤  
سالرنو (مدرسة الطب) ٢٣٢

رغوية (نباتات) ١١  
الرق (رقيق - أرقاء) ١٠٢ ، ٧٧  
١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ،  
١٦٤ ، ١٧١ ، ٢٦٥ ، ٣٢٨  
رمسيس الثاني ١١٤٠٧٣  
روبرت لي ٣٤٧  
رويسير ٢٩٠ ، ٢٩١  
روجر الأول (ملك) ٢٢٩  
رودلف آل هابسبرج ٢٣٣  
روزالت (فرانكاين) ٣٨٧ ، ٣٩٠ ،  
٣٩٣  
الروس ٢١٤  
الروسيا ١٠٥ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ،  
١٨٨ ، ٢١٥  
روما ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،  
١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٥٤  
١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ٢٥٢  
الرومان ٨٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ،  
١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ،  
١٩٢ ، ١٩٣  
رومانيا  
الروماني (القانون) ١٠٥  
الرومانية (الآثار) ١٦٦  
الرومانية (الجمهورية) ٣١٠  
الرومانية (المضارة) ٣٠٧ ، ٣١٠  
الرومانية (الديانة) ١٦٦ ، ١٧١  
رومولوس أوغسطس ١٩٠ ، ٢١٦  
رينتروب ٣٨١  
ريش ٢٣

سلطان مصر ٢٣٢ ، ٢٤٢  
 سلوقس ١١٥ ، ١٢٦  
 السلوقيون ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٥٤  
 ١٥٦ ، ١٦١  
 سليمان ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥  
 سليمان القانوني ٢٥٥ ، ٢٥٧  
 سمث ( آدم ) ٣١٨  
 سمث ( ايليوت )  
 سمرفيل ( الأميرال )  
 سمك ١٤ ، ١٧ ، ٢٩  
 سنحاريب ٧٤  
 السكسرية ٧٢ ، ٨١  
 سوبطاي ٢٣٨  
 سورط ٦٦ ، ٧٣ ، ٨٢ ، ٨٩  
 ١٩٢ ، ١٩٥ ، ٢٠١ ، ٢٠٤  
 ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٣٩  
 سومر ( السومريون ) ٦ ، ٦١ ، ٦٢  
 ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٩٥ ، ١٢٨  
 ١٤٤  
 سوفكليس ١٠٩  
 السوفيت ١١٠  
 سوي ( أسرة ) ١٩٧ ، ١٩٨  
 سويتون ( لجنة ) ٣٩٠  
 سويتون ( اللورد ) ٣٩٠  
 سياخار ( أنظر كياكسارس )  
 سيراقوزة ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٣٦  
 ١٣٧ ، ١٣٨  
 سيقان ورقية ( أنظر خوصات ) ١٦  
 ٧١ ، ٢٤  
 سيلوري ١٤

الساميون ( الأجناس السامية ) ٦٧  
 ٦٩ ، ٧١ ، ٩٥ ، ١٣٣ ، ١٣٨  
 ١٩٧  
 سبتيموس سيفيروس ١٦١  
 سيون الأفريقي الأسن ١٤٠ ، ١٤٥  
 ستالين ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠  
 ٣٨١ ، ٣٨٤  
 ستروزي مان ( الدكتور ) ٣٦٩  
 ستون هنج ( نصب ) ٥٣ ، ٨١  
 ستيفنسون ( جورج ) ٢٩٩  
 ستيليكو ١٨٤ ، ١٨٨  
 سمعالي ( أنظر عطايا )  
 سيجريد ( خط ) ٢٨٣  
 سيجل الصنخور ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٦  
 ١٩ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٨ ، ٢٩٩  
 سليم ٦  
 سراييس ١٦٩  
 سراييس ايزيس ( عذبة ) ١٦٩  
 سرجون ٦٦ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٥  
 سرجون الثاني ٧٤ ، ٨٢ ، ٨٣  
 سرخس ١٦ ، ٢٠ ، ٢١  
 السلطانيون ١١٠  
 السفن ( بناء ) ٦٨  
 سقراط ١١٠  
 السكك الحديدية ٣٠٠ ، ٣٣٤  
 ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩  
 سكوت ( ميشيل ) ٢٢٢  
 سلا ١٤٩ ، ١٩١  
 السلاجقة ( الأتراك ) ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤  
 السلاحف

شيروان ١٥١  
 شيشنق ٩٣  
 شى هوانج تى ١٣٢ ، ١٣٨ ، ١٥٣  
 ١٥٤  
 الشيوعية ٣٢١  
 الشيوعيون ٣١٧

( ص )

الصخور الطباية ٩  
 الصنع الأعظم ٢٣٤ ، ٢٥٠  
 صقلية ٩٥ ، ١٠٥ ، ١٣٥ ، ١٣٦  
 ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٨٦ ، ٢٣٢  
 ( الصقليتين ٢٥٤ )  
 صلاح الدين ٢٢٣  
 صن بات صن : ٣٧٤  
 صنعج ( امبراطورية ) : ٢٣٦  
 صور الصخور : ٤٣  
 صيد ٤٥

الصين ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ١٢١  
 ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٨٧ ، ١٨٨  
 ٢٤٥ ، ٢٣٦  
 الصين ( تاريخ ) : ٧٨

( ط )

الطابور الخامس ( نشاط )  
 طاليس ١٠٣ ، ١٢٥  
 الطباعة ١١٩ ، ٢٤٤ ، ٢٥١ ، ٢٦٧  
 ٢٦٩  
 ططلب ( ططالب ) ١٠ ، ١٥ ، ١٦

( ش )

شامول : ٩٢ ، ١٧٨  
 شامول الطرسوسى ١٦٠  
 شارل الأول ( الملك ) ٢٥٢  
 شارل الثانى ٢٦٩  
 شارل الخامس ( الإمبراطور شرلكان )  
 ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧  
 ٢٥٩ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠  
 شارل العاشر ٢٩٤  
 شارل مارتل ٢١١  
 شانج ( أسرة ) ٧٨ ، ١٢٩  
 شاندر اجويتا موريا ١٢٦  
 شبه الإنسان ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣  
 شبه زنبقى ( نجرىدى ) ٤٢ ، ٥٥  
 شبه القبول انظر للقولى ( شبه )  
 شركة الهند الشرقية البريطانية ٢٨٢ ،

٢٣٤

شرلمان ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٦  
 ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٤ ، ٢٢٣  
 ٢٤٥ ، ٢٥٤ ، ٢٦٠ ، ٢٦٩ ، ٢٩٢

الشعر ٢٤

الشعوب البحرية ٦٨  
 الشعوب للترحة ٦٤  
 الأشغانيون ( الملوك ) : ١٠٧  
 الشمس ٤ ، ٦ ، ٧ ، ١٥  
 شمشون ٩٠

العصر الحجري القديم ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٧ ،  
٣٠٦٤٩  
عصر الرواسب النجمية ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ،  
عصر الزواحف ١٩ ، ٢٠ ، ٢٥٦ ،  
٣١  
عصر الفوضى ١٢٩  
عصر المستنقعات ١٧  
الصور الوسطى ٢١٣  
عطار د  
عظايا ( بأنواعها ) ٢١ ، ٢٢ ، ٢٥ ،  
٣٦  
عقارب ١٠ ، ١٤ ، ١٦  
علماء الآثار ٣٤  
علماء السلالات البشرية ٣٦  
العلوم ٦ ، ١٩٣ ، ١٩٤  
المصريون ٦٦  
الممونات ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦  
مناكب ١٦  
عيسى ٢٢١  
العهد القديم ٥١ ، ٨٠  
الغيلاميون ٦٦ ، ١٢٣  
( غ )  
الثالثة ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،  
١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٦١  
القال ١٥٩  
غليوم الثاني ( الإمبراطور ) ٢٨٧

طروادة ١٠٠  
الطوفان ٦٨ ، ٩٠  
طية ١٠٧٤١  
( ع )  
العالم ٦ ، ١٢  
العالم الروماني واللاتيني ١٨٥ ، ٢١٠ ،  
٢١٣  
عالم للسيحية ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ،  
٢٢٠ ، ٢٢٦ ، ٢٣٤  
عاموس ٩٧  
الغبرانيون ٧٥ ، ٩٢  
العرب ٩٥ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ ، ٢١٥ ،  
٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٤١  
بلاد العرب ٢٠٠ ، ٢٣٩ ، ٢٤٥  
العربية ( اللغة ) ١٩٦ ، ٢٠٦  
عشب ١٥ ، ١٩  
عصبة الأمم ٣٥٤ ، ٣٦٢ ، ٣٧٢  
العصر الآزوي ١٦  
عصر الأمم ١٦  
العصر الباليوزوي السفلى ١٣ ، ٢٠  
عصر الثدييات ٢١ ، ٣٠  
العصر الجليدي ١٦ ، ٢٧ ، ٣٢ ، ٤٦ ،  
٣٨ ، ٤٠  
العصر الحجري الحديث ٤٤ ، ٤٩ ،  
٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٨  
العصر الحجري الشمسي ١٦٩

فرنسيس الأسيسى ( القديس ) ٢٢٧ ،

٢٣٤

الفرنسيكانيون (الرهبان) ٢٣٤، ٢٢٧

فريزر ج. ج. ٥٠

الفزيو قراطين ٣١٣

قماريات ١٠ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٩ ، ٢١ ،

٢٩

فكر ٤٥ ، ٤٦ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ، ١١٠ ،

١٢١ ، ٢١٩ ، ٢٧٣

الفلستينيون ٧٥ ، ٩٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤٦

فلسفة فلاسفة ٢٠٩ ، ٢١٩ ، ٢٣٢ ،

٢٤١

فلك ٦ ، ٥٦ ، ٥٩

فلك نوح ٦٨

فن ( فنون ) ١٧٢ ، ٢١٩

فنج ( الجيرال ) ٣٧٤

فثلننه ١٩٧

فوركلور ( انظر أدب شعبي )

فولثير ٢٧٤

فيشر ( لورد ) ٣٥٦

فيكتوريا ( الملكة ) ٣١٨ ، ٢٣٥

فيليب ( الثانى ) ٢٥٩

فيليب ( دوق أورليان ) ٢٩٤

فيليب للقدونى ( أمير هيس ) ٢٥٨

فيليب للقدونى ١١٢ ، ١٣٦

الفيلقيون ٦٩ ، ٧٥ ، ٧٧ ،

١٤٢ ، ٩٦

قيوى ٢٧٤

قيننا ٢٤٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ،

٢٣٥ ، ٢٩٨

( ف )

فاراداي ( ميشيل ) ٣٠١

فارس ( فرس ) ٨٦ ، ٨٢ ، ٧٥ ،

١٢٨ ، ١٤٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨

فاسكودى جاما ٢٧٥ ، ٢٨٠

الفلاشست ٢٧١

فالتون ( روبرت ) ٣٠٠

فالتر ( الإمبراطور ) ١٨٤

فرعون ( الفراعنة ) ٦٣ ، ٨٠ ، ١٠٣ ،

١٦٨

فرانسكو ( الجيرال ) ٣٧٠

فرديريك الثانى ( الإمبراطور ) ٢٢٤ ،

٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ،

٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٥٠

فرديريك الثالث ٢٥٤ ، ٢٧٠

فرديريك بروسا ٣٢٤

فرديناند ( الملك ) ٢٤٠ ، ٢٤٨ ،

٢٥٤ ، ٢٥٩

فرديناند ( الإمبراطور ) ٢٥٩

فوساى ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٨٦

الفرنجية ( قبائل ) ١٥٩

فرنسا ٢٨ ، ٤١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ ،

٢٥٧

فرنسيس الأول ( فرانسوا ) ٢٥٥ ،

٢٥٦ ، ٢٥٧

القوط القرية : ١٣٣ ، ١٣٥

( ك )

الكاثوليكية ( الكنيسة ) ١٩١  
 كارل ماركس ٢١٧  
 الكارلوفيجين (أسرة للوك) ١١٧  
 كاليولا ١٥٢  
 كاسانلا ٣١٢  
 كاثوت ٢١٤ ، ٢١٥  
 كاهن ( الكهنة ) ٥١ ، ٥٢ ، ٥٩  
 ٦٣ ، ٦٥ ، ٨٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،  
 ١٢١ ، ١٢٨ ، ١٣٣ ، ١٦٠ ،  
 ١٧٦ ، ٢٠٢  
 الكاينوزوى ( الزمن ) : ٢٠ ، ٢٨  
 ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣  
 كتابة ٦٠ ، ٦١ ، ١٠٠ ، ١٣٤  
 الكتاب المقدس العبراني ٢٤٤ ،  
 ٢٥١ ، ٢٥٢  
 الكتابة السارية ٦١  
 الكتابة الهيروغليفية  
 الكتابة بالصور ٦١  
 كراسوس ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٦  
 الكرملين ٣٦٠ ، ٣٦١  
 الكرنك ٧٦  
 الكرمانيون ٤٢ ، ٤٩  
 كرويسوس ٨٦

( ق )

القاهرة ٢٠٦

قباذ ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٠٢  
 قبلاى خان ٢٣٨ ، ٢٤٦  
 القرآن ٢٠٢ ، ٢٠٦  
 قران ٥٠ ، ٥١ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١٢١  
 ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٦٦  
 ١٦٩ ، ١٩٣ ، ٢٠٢  
 قرطاجنة ( قرطاجيون ) ٦٩ ، ٧٧  
 ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٥ ، ١٣٤ ، ١٣٦  
 ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ،  
 ١٤٣ ، ١٨٦ ، ١٩٠  
 قسطنطين ١٤٥ ، ١٨١ ، ١٨٣ ،  
 ١٨٤ ، ١٩٤  
 القسطنطينية ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨  
 ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢٠٤ ، ٢١٠  
 ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٣٣  
 ٢٣٩ ، ٢٤٧ ، ٢٦٦  
 قشريات ١٠  
 قفيز ١٠٥  
 القمر ٤ ، ٧ ، ٨  
 قورش ٨٦ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠٥  
 القوط ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٨٤ ، ١٩٢  
 ٢١١  
 القوط الشرقية ١٣٣ ، ١٣٥

كوليس (كرستوفر) : ٢٤٧ ، ٢٤٨

٢٨٢

الكومتانج ٢٥٨

كومنينوس (الكيوس) : ٢٢

كونستانس مجمع ٢٥٠

كونفشيوس : ١٠٤ ، ١٢٧ ، ١٣٠

١٣١

الكونسكرد (معركة) : ٢٨٤

الكويكات ٤

كيا كمارس ٨٣

كيروف ٣٦٠

الكيمياء (علم) : ٢٠٨

الكيميائيون القدماء : ٢٠٨ ، ٢٠٩

٢٤٢

(ل)

اللاتينية (الإمبراطورية) : ٢٦٧ ، ٢٧٥

اللاتينية (الكنيسة) : ٢١٦ ، ٢٢٠

٢٢٣ ، ٢٤٩ (إصلاح) : ٢٥٠

اللاتينية (لغة وشعوب) : ٧٣ ، ١٦١

٢٤٦

لانجلي (الأستاذ) : ٣٠٥

لاهوتى (لاوتى) : ١٠٤ ، ١٢٨

١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢

ليدوس ١٥٢

لتفينوف ٣٧٩ ، ٣٨١ ، ٣٨٢

لتوانيا

اللغة الإنجليزية ٧٢

لقوف (الأمير) : ٣٥٥

كريفسكى ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧

كسرى الأول ١٩٥

كسرى الثانى ١٩٥

كلايف (روبرت) : ٢٧٦

الكث (البريشونيون والجويديليون

الح) ٨١

الكلدان ٨٤ ، ٨٣

كلنت الخامس (البابا) : ٢٣٤

كلنت السابع (البابا) : ٢٣٤

كلوديوس ١٥٢

كلوفس ٢١١

كليوپطرة ١٥١

كال (مصطفى) : ٣٦٨ ، ٣٦٩

كن (الإمبراطورية) : ٢٣٦ ، ٢٣٧

كندا ٣٢٥ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥

كنعان ٩٠ ، ٩٢

كننج (جورج) : ٣٩١

كنوسوس ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٣

٧٦ ، ٨٢ ، ٩٩

الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية

١٧٨

الكواكب ٦

كورتيز ٢٥٩

كورنواليس (الجنرال) : ٢٨٤

الكوشان (أسرة) : ١٥٨

الكولاك ٣٥٨

كولتشاك (الأميرال) : ٣٥٧



ماجنو (خط) ٣٨٣  
 مارآون ١٠٦ ، ١٠٧  
 مارتن الخامس (البابا) ٢٣٥  
 ٢٥٠  
 مارشان (الكولونيل) ٢٣٩  
 مارك أنطون  
 ماركو أنطون ١٥٢  
 ماركو بولو ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧  
 ماركو أوريليوس ١٥٢  
 ماريوس ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٩١  
 للاركسية (كارل ماركس)  
 ٣١٧  
 مازارين ٢٦٨  
 ماكولي (الورد) ١٤٥  
 مانجو خان ٢٣٨  
 ماني ١٩٤ ، ٢٢١  
 ماهافي (الأستاذ) ١١٧  
 مايا ٥٦ ، ٥٩ ، ١٢٨  
 متاكساس (الرئيس) ٣٩٢  
 متحف الإسكندرية ١١٦ ، ١١٧  
 ١٣٨ ، ٢٠٨  
 مترا ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٩  
 للترائية (العقيدة) ١٦٩ ، ١٧٨  
 المجر (المجرون) ١٦١ ، ١٧٨  
 محار ١١ ، ١٤  
 محمد (التي) ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١  
 ٢٠٣ ، ٢٢١

لكسمبرج ٣٨٧  
 لكسنجتون (مركة) ٢٧٥  
 لندن ١٤٥  
 لنكولن (أبراهام) ٣٢٨ ، ٣٢٩  
 لوثر (مارتن) ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥  
 ٢٥٨ ، ٢٦٧  
 لودندرف (الجزاك) ٣٧٦  
 لوزان (معاهدة) ٣٦٨  
 لوكريتيوس ٢٤١  
 لوكولوس ١٤٩  
 لويد جورج ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧  
 لويس الورع ٢١٧  
 لويس الرابع عشر (الملك) ٢٦٩  
 ٢٧٠ ، ٢٨٩  
 لويس السادس عشر ٢٨٧  
 لويس الثامن عشر ٢٨٧  
 لويس فيليب ٢٩٤  
 ليديا ٨٦ ، ١٠٥ ، ١٤٠  
 لينين ٣٥٦ ، ٣٥٧  
 ليو الثالث (البابا) ٢١٦  
 ليو العاشر (البابا) ٢٥٥  
 ليوبولد الأول ٢٩٦  
 ليوبولد (ملك البلجيك) ٣٨٧  
 ليوناردو دافنشي ٢٩٩  
 ليونيداس ١٠٧  
 (٢)  
 ماجلان ٢٤٨

١٣٦٠ ، ١٣٥  
 السكايون ( الأمراء ) ١٤٢  
 مكتبة الإسكندرية ٢٠٤  
 مكسمليان ( طاهل الكسيك )  
 ٣٣٢  
 مكسمليان الأول ( الإمبراطور )  
 ٢٥٤ ، ٢٥٥  
 الكسيك ٥٣ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٥٩  
 ٢٦٦  
 مكة ٢٠١ ، ٢٠٢  
 ملبورون ١٩١  
 ملتون ١٠٠  
 للوك الفريسيين ( عظمة ) ٢٢٣  
 ٢٣٤  
 ملن ( الجنرال ) ٣٥٨  
 مل ٢٨١  
 ملكة السموات ( مذهب ) ١٧٣  
 ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٨  
 منسكيو ٣١٢  
 منج ( أسرة ) ٢٣٩ ، ٢٧٨  
 مور ( السير توماس ) ٣١٢  
 موسى ٩٠ ، ٩٢  
 موسوليفي ( بنيتو ) ٣٧١ ، ٣٧٢  
 ٣٨٨ ، ٣٩١  
 مولوتوف ٣٧٩ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠  
 مونزو ( الرئيس ) ٢٩٣  
 مونزو ( مبدأ ) ٢٢٩  
 ميتاني ٧٤

محمد الثاني ٢٣٩  
 المحظورات ٤٦  
 المحيط ٨٠ ، ٥  
 المخروطيات ١٩ ، ٢٦  
 المريح ٤  
 المسيحية ١٢ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٩٣  
 ٢٠٦ ، ٢٢١ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢ ، ٢٧٢  
 المسيحية اللاتينية ٢٨٠ ، ٢٨٥  
 السلون ٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢٢٩  
 مسورى ٣٢٥  
 مسينا ١٣٧ ، ١٣٨  
 مسيناى ٨٢  
 مسينيوس ٦٣  
 المشتري ٤  
 مشروع السنوات الخمس بالروسيا ٢٥٩  
 مصر ( مصريون ) ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣  
 ٦٨ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥  
 ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٩ ، ١٠٨ ، ١٢٨  
 ١٢٣ ، ١٣٥ ، ١٤٣ ، ١٦٢ ، ١٩٢  
 ١٩٣ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٣١  
 معرفة ٥١ ، ١١٩ ، ١٢٣ ، ٢٦٥  
 للقول ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٦ ، ١٢٩ ، ١٣٣  
 ١٨٧ ، ٢٠٠ ، ٢٧٨  
 اللغولى ( شبه ) ٥٢  
 للغولية ( الشعوب ) ( التتوح ) ١٥٥  
 ١٩٧ ، ٢٣٦ ( الإمبراطورية ٢٧٦ )  
 مقدونيا ( للقدونيوت ) ١٠٢  
 ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٩ ، ١٣٠ ،

فوجارت (غليم دى) ٢٣٤  
 فوردى ٧٩٠٥٥ ، ١١٩ ، ١٢٩ ،  
 ١٥٨ ، ١٥٦ ، ١٥٥ ، ١٣٣  
 فورماندى ٢١٤ ، ٢١٨  
 فورميرج (صلح دينى) ٢٥٨  
 فوميليا (التوميديون) ١٤٠ ، ١٤٩  
 نياندريال (النياندرياليون) ٣٥ ، ٣٦ ،  
 ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٧

نيرون ١٥١  
 نيولا الأول ٢٩٦ ، ٣٣١  
 نينوى ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٣ ، ١١٤ ،  
 ١٩٥ ، ١٩٨  
 نيوزيلنده ٣٢٧  
 النيولى (انظر المصر الحبرى الحديث)،

( ٥ ) .

آل هابسبرج (أباطرة) ٢٥٥  
 هاتور ١٦٨  
 هادريان ١٥٢ ، ١٥٣  
 هارولد (ملك انجلترا) ٢١٨  
 هارولد هاردادا (ملك النرويج) ،  
 ٢١٨  
 هاستنيس (مركة) ٢١٨  
 هاستنيس (وارن) ٢٧٦  
 هاكون الأول (للك) ٣٨٥  
 هان (أسرة) ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ،  
 ١٩٧

الليديون ٧٥ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٩ ، ٩٥ ،  
 ١٠٥ ، ١١٤ ، ٢٠٠ ، ١٣٣  
 ميشيل السابع ٢٢٠  
 ميخائيل الثامن (الملك) ٢٢٣  
 مينوس ٨٠ ، ٩٩ ، ١٠٣

( ن )

نابولى (جامعة) ١٣٥ ، ١٣٦  
 نابوليون الأول ٢٦٢ ، ٢٨٥ ، ٢٨٩ ،  
 ٢٩١ ، ٢٢٥  
 نابوليون الثالث ٢٣١  
 نابونيداس ٨٤ ، ٨٦  
 النازية ٣٧١  
 نبات ٢٣ ، ٢٧  
 نيلبون ٤  
 نبوخذ نصر ٨٤ ، ٨٩ ، ٩٥٠ ، ١٤٤ ،  
 نجرىدى (انظر شبه زنجى)  
 النجوم ٤٠٥  
 نغوا الثانى ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ١١٤ ،  
 نرفانا ١٢٤  
 النرويج ٣٨٥ ، ٣٨٦  
 النشوء والارتقاء العضوى  
 النصرانية (انظر مسيحية)  
 النفاس الزائف ٥٣  
 نلسن (الأميرال) ٢٩٢  
 النسا ٣٧٩

الموتوتوت ٤٢  
هولا كوخان ٢٣٨ ، ٢٣٩  
هولنده ٣٨٦  
هوميروس ١٠٠  
المون ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٥٨  
١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٧  
٢١٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨  
المونية ( الشعوب ) ٦٦ ، ١٥٥  
هونوريوس ١٨٤ ، ١٨٨  
هونوريوس الثالث ( البابا ) ٢٣٠  
آل هونزولرن ٣٦٩  
آل هونشتاوفن ٢٣٢  
هياكل عظيمة ٤٣  
هيبارخوس ١٢٢  
هيرودوت ١٠٨ ، ١٠٩ ، ٢٢  
الهيروغليفية ٦٢ ، ٩٧  
هيروفيوس ١١٧  
هيرون ١١٧ ، ١٣٩  
هيستاسبس ٨٨  
هيوكابت ٢١٧

( و )

واط ( جيمس ) ( ما كينة ) ٢٩٩  
واترلو ٢٩٢  
واشنطن ( جورج ) ٢٨٤ ، ٢٩٣  
والدو ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٥١

هاننيال ١٤٠  
هاتلر ( أدولف ) ٣٧٠ ، ٣٧١ ،  
٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٨١ ،  
٣٨٥  
هرقل ( الإمبراطور ) ١٩٥ ، ١٩٨ ،  
١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤  
هرقلييا ١٣٦  
هرقليتوس ١٠٣ ، ١٢١ ، ١٢٥  
هرون الرشيد ( الخليفة ) ٢١٩  
هس ( جون ) ٢٥٠ ، ٢٥٢  
هسيا ( إمبراطورية ) ٢٣٦  
هكسوس ٦٧ ، ٧١ ، ٧٣  
هل ( كورنل ) ٣٩٠  
هك براند ٢٢٨  
الحلفين ( العالم ) ١١٩ ، ٢١٠  
المأوية  
هليولشي ( هليولشية ) - ( انظر الثقافة  
الشمسية الحجرية )  
الهملايا ( جبال ) ٢٧ ، ١٢٢  
الهند ٥٤ ، ٦٤ ، ٧٨ ، ١٣٣ ، ١٥٤ ،  
١٥٥ ، ١٩٧ ، ٢٠٠  
الهند وإسيكيزيون ١٥٨  
الهندوكية ( الديانة ) ١٢٧  
هنري الرابع ( الإمبراطور ) ٢٢٤  
هنري السادس ( الإمبراطور ) ٢٢٩  
هنري الثامن ( ملك إنجلترا ) ٢٥٥ ،  
٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨  
هنري السادس ٢١٧

يسوع ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ،  
 ٢١٣ ، ٢٥٢ ، ٢١٥  
 اليسوعيون (الرهبان) ٢٥٣ ، ٣٠٤  
 (الآباء) ٣١٣  
 اليهود ٨٩ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٣١  
 ١٣٨ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٨ ، ٢١٩  
 يهودية (يهودا) ٨٤ ، ٨٩ ، ١٤٢ ، ٩٩  
 ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ٢٤١  
 يوان (أسرة) ٢٣٨ ، ٢٣٩  
 اليونانيا ١١٠  
 يوحنا الحادى عشر (البابا) ٢٢٤  
 يوحنا الثانى عشر ٢٢٤  
 يورينيدس ١٠٩  
 يوشع (الملك) ٨٤ ، ٨٩ ، ٩٠  
 يوليوس الثالث ٢٦٠  
 يوليوس قيصر ١١٥ ، ١٤٩ ، ١٥٠  
 يونان (انظر إغريق)  
 اليونانية (اللغة) ٢٠٦

ورق ٢٦٥ ، ٢٦٦  
 ومستغاليا ٢٧٠ ، ٢٩٨  
 الولايات المتحدة الأمريكية ٣٢٣ ، ٣٢٥  
 ولنزى (الكردينال) ٢٦٨  
 ولسن (الرئيس) ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦  
 ولنجتون ٢٩٢  
 الوندال ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ٢٩٢  
 ويجاند (المارشال) ٣٨٩  
 ويغل (الجنرال)  
 ويكليف ٢٣٥ ، ٢٥٠  
 ويلز ٣٢٥

( ى )

اليابان ١٢٧  
 الحرب اليابانية الصينية ٣٤٤  
 اليرموك (معركة) ٢٠٤

# اسم هذا الكتاب بالإنجليزية

A Short History Of The World

by  
H. G. Wells

ترجمة للؤلف :

هو هيربرت جورج ولز ١٨٦٦ - ١٩٤٦ . الكاتب والني الناصح لعصر الإنسانية العلمى . ولد في بروملى ( كنت ) أبوه لاعب كريكت محترف .

حصل على بكالوريوس العلوم في ١٨٨٨ . تولى التدريس بضع سنين ثم نشر «آلة الزمان» في ١٨٩٥ ، وهي محاولة لإنشاء القصص العلمى ، أورد فيها بقصص أخرى علمية أشهرها « الرجل الحثي » . ثم أخذ ينتج الروايات النفسية والاجتماعية مثل « كيس » و « تونو بنجاي » و « تاريخ الستر بولى » و « مكيا فيلى الجديد » ( ١٩١١ ) و « الزواج » ( ١٩١٢ ) . والروايات التالية تعكس اهتمامه بالاشتراكية الفاية وهي « اليوتويا المصرية » ( ١٩٠٥ ) و « الأشياء الأولى والأخيرة » كما توضع أيضاً اهتمامه بعالمنا الذى جده استخدام وسائل العلم الحديثة . ثم أصدر أثناء الحرب العظمى « الستر بريتلينج يتلبأ بالعواقب » ( ١٩١٦ ) .

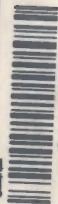
ثم التفت ولز بعد ذلك إلى التاريخ وأنتج في ١٩٢٠ « معالم تاريخ الإنسانية » [ الذى ترجمه كاتب هذه السطور ] وهو سفر ضخيم استعرض فيه للمفامرة البشرية بأكلها وحللها تحليلًا فلسفيًا وافيًا وهذا الكتاب الذى يكمله « عمل الحياة » بالاشتراك مع جوليان هكسلى وولده ج . ب . ولز ( ١٩٢٩ ) كما يكمله « علم الإنسانية وراثتها ومساعدها » ( ١٩٣٢ ) يكون ثالوثًا ضخماً كان الهدف منه تزويد إنسان القرن العشرين بمذهب حديد هو الإيمان بالأخوة البشرية وبوحدة العالم . وظل ولز ماعقب ذلك من السنين مشغل البال « بما يحثه القدر » للبشر . وأنتج كتاب « مصير الإنسان الحق » وأخذ يدعو جميع الطبقة المفكرة فى العالم إلى القيام « بمؤامرة علمية » . وكان آخر كتاب أصدره هو « العقل فى أقصى توتراته » ( ١٩٤٤ ) . فأما الرجل نفسه فيصوره كتابه « تجربة فى كتابة السيرة الذاتية » .



طبعة العاوة بمصر

١٩٦٧

Bibliotheca Alexandrina



0356269